واسيني الأعرج

جُمْلُكِيَةُ آرَابيَا

أسّرار الحاكم بأمره، ملك ملوك العرب والعجم والبربر،
ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر





حكايات ليلة الليالي

منشورات الجمل

رواية

واسيني الأعرج

جُمْلُكِيَةُ آرَابيَا

أسرار الحاكم بأمره، ملك ملوك العرب والعجم والبربر،
ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر

حكايات ليلة الليالي

رواية



منشورات الجمل

واسيني الأعرج. مواليد ١٩٥٤ بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون في باريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي المنفتحة على أفق إبداعي إنساني. تنتمي أعماله إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقرّ على شكل واحد، بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجادّ على اللغة وهزّ يقينياتها.

حصل سنة ١٩٨٩ على **الجائزة التقديرية** من رئيس الجمهورية، ونال سنة ٢٠٠١ جائزة **الرواية الجزائرية**، على **شرفات بحر الشمال** ومجمل أعماله الروائية. اختير سنة ٢٠٠٥ كواحد من **خمسة روائيين عالميين** لكتابة التاريخ العربي الحديث روائياً، في إطار جائزة **قطر العالمية للرواية** على روايته: **سراب الشرق**. وحازت روايته **كتاب الأمير** سنة ٢٠٠٦ جائزة المكتبيين، وسنة ٢٠٠٧ الجائزة الكبرى للآداب (الشيخ زايد). كذلك حصل سنة ٢٠٠٨ على جائزة الكتاب الذهبي على روايته **كريماتوريوم (سوناتا لأشباح القدس)**، في المعرض الدولي للكتاب. تُرجِمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الإسبانية، العبرية... صدر له عن منشورات الجمل رواية **البيت الأندلسي** (٢٠١٠).

واسيني الأعرج: **جُمْلُكِيَةُ آرَابيَا**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ.»[1]

قرآن كريم

«على الأمير أن يقرأ قصص الأولين من الذين سبقوه، وأن يَعْتَبِرَ أَعمال الجيِّدين منهم، ويرى كيف حكموا في فترة الحروب والقلاقل، أن يتأمل أسباب انتصاراتهم وهزائمهم حتى يهتدي بهذه، ويتَجَنَّبَ تلك.»

ماكيافيلي: الأمير

(١) سورة إبراهيم، آية ٤٢.

مَقَامُ اللَّيَالِي

-١-

كل الحكاية بدأت بكتاب انفتح على الخوف، وانتهى في قلب النّار، قبل أن ينام نهائيا في عمق لغة مكسوة بالزغاريد، تشبه الصراخ والخوف قليلا.

-٢-

لست مهمًا. أنا راوي الصّدفة. وراوي الصّدفة معذور لأنه لا يقول في النهاية سوى مشاهداته ومكاشفات من عاشرهم من القوالين[٢] الذين لم يبق منهم في عصرنا الحالي الكثير، في ظل مخابر البحث المتخصصة في شأن البشر وتاريخهم. ربما كنتُ العملة النادرة في هذا الزمن الذي غرُبَ، أو هو بصدد الأفول، ماسحا في مسالكه كل الأيادي البيضاء والرمادية والمعتمة، التي صنعته.

ما سأحكيه قد لا يصدّقه الناس بالبساطة المعهودة، لأنه يقع في صلب ليلة الليالي، وفي حواشيها، وخارج الحساب الزمني، وميزان

(٢) أصل الكلمة القوّال، أي المتمرّس على القول، الذي يروي التاريخ وسير الأوّلين بطريقته الشعبية، في الأسواق وفي الساحات العامة والمقاهي القديمة، وكثيرا ما يكون مناقضا للحقائق التاريخية المُرسخة بالقوة. يقابله في المشرق العربي مصطلح تقريبي هو الحكواتي.

الكسور والثواني والدقائق والساعات والأيام، وربما السنوات أيضا وحتى القرون. ولأن الليلة ثقيلة إذِ انبنتْ عليها شعلة الموت والأمل، لا يحكيها إلا من غُسِل بلهيبها من قريب أو من بعيد، ومن غُمِّسَ في رذاذ رمادها، وَقُمِّطَ بأشلائها التي انجلت مع الفجر الأول للحياة. وحتّى من احترق بنارها التي سمّاها الأولون من الأخيار بنار الجنة لأنها لم تحرق الأخضر واليابس، ولكنها هدَّمت سور الخوف، وكلَّ ما تصلَّب وأصبح حطبا جافا يصلح لأن يكون طعما للهب المقدس.

في تلك الليلة، ليلة الاستثناء والرعشة، بدت بلاد آرابيا غريبة كأنها تصحو من كابوس طويل. كان الناس في عمق الدهشة، ما يزالون يمضغون مرارة ممزوجة بفرح عميق وبعلامات حلم لم يتمَّ أبدا، وبأسئلة معذِّبة سرت في الدم كالنار في الهشيم: كيف كنا عبيدا على مدار عشرات السنين، وربما القرون المتهالكة التي ربَّت فينا حاسَّة الذلّ لدرجة أن أصبحتْ سادس حواسِّنا؟ كيف قبلنا أن نضع أحلامنا وأجسادنا في ظلّ الحكيم، الحاكم بأمره، سيّد آرابيا، سلطان السلاطين، وملك ملوك العرب وإفريقيا والبربر، ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، كما يشتهي أن يصف نفسه؟ كيف صمتنا على يد قاتلة، كانت في كل لحظة تضغط على الأعناق بكل ما أوتيت من إيمان و قوة، وكنَّا نختنق ونموت في كل ثانية عشرات المرات، وعندما نفتح أعيننا بين الغفوة والغفوة، نجده يتلمس وجوهنا ويدفئنا بابتسامته التي خسَّرتنا آخر ما تبقى فينا من رجولة وشجاعة الأجداد.

خسرت بعض ملامحي. قلبي تعطل جزءه الأيمن، أي الأقل أهمية، هشاشتي وكل حواسي الحية مجتمعة في جزئه الأيسر، وهذا لم يمس وأحمد الله تعالى على ذلك. لكن الجسد لم يعد يسعف مثلما كان الحال في الزمن المنسحب. أصبح أكثر التصاقا بالأرض، كل يوم يتوغل فيها قليلا. ولم يعد يرقص ويحلق مثلما كان يأمره جنونه في الزمن الخالي. مخي تهاوى قليلا وبدأت لطخات الظلمة تسرق مساحة نوره.

الأطباء السبعة الذين زرتهم، مغيرا في كل مرة التحاليل والأجهزة الطبية، والانطباعات البشرية، أجمعوا بلا استثناء على أنها العلامات الواضحة لمرض الألزهايمر أو الخرف، حيث تفقد العيون ألقها القديم وتشخص في أزمنة تذهب وتجيء مثل الموجات المتناوبة، ويتحول المخ المنهك من ثقل ما وقع عليه وما تحمّل، إلى مجرد إسفنج يابس، لا ماء فيه ولا روح، تتلوها بلادة مقلقة، قبل أن ينطفئ كل شيء. ولهذا كله صمّمت، الآن، الآن في اللحظة هذه، وعلى هذه الحافة القلقة من البحر المنسي، التي لا أدري ماذا سيحدث بعدها، أن أعْصُرَهُ للمرة الأخيرة مثل الخرقة المضمَّخة بالعرق، حتى يفقد كل مائه وأغفو بعدها في سبات العادل الذي ينزلق شيئا فشيئا نحو بياض لا سلطان له فيه ولا عليه. بياض بدأ ينتابني من حين لآخر قبل أن أعود إلى اللحظة الأولى حيث الموجة تأكل الموجة، وكل شيء صاف ومشرق لدرجة إعماء البصر. الشمس التي تغسل السماء كل صباح، تغسل أيضا سطع البحر وتحوّله إلى نور كلّي بألوان لامتناهية يصعب تحمل ألقها ودهشتها وسطوتها على العيون المنبهرة.

الآن هدأ كل شيء، وبانت الأشجار والفراشات والألوان التي ظلّت زمنا طويلا متخفية وراء سواد الأدخنة وحرائق الأجساد اليابسة. الأشكال الغائمة بدأت تتضح شيئا فشيئا. وبدأتُ معها أسترجع بعض حواسيّ، وأشمّ عطرَ الأشياء المحيطة التي توقفتُ عن شمها منذ زمن طويل، كلما عددت أوقاته، ندمت على تيهه الكبير الذي سرق منّي الكثير. ومنْ منَّا لا يندم على زمنه عندما يكون الفناء هو مآله الأخير؟

آن الأوان لأحني رأسي قليلا وأكسر هذا الصمت الذي بلّد حواسي، واخترق كل شيء جميل فيَّ، وسطّح ما تبقى من عزّ دفين.

ليْلة اللَّيالي هي الليلة الوحيدة التي تأتي من حيث لا ينتظرها أحد، وتَسحب مثل موجات تْسُونامي كل شيء في طريقها، البشر والفلسفات والأفراح الوهمية والخيبات المتغطرسة، قبل أن تتحول إلى طوفان يشبه

طوفان الكتب المقدسة الذي يعقبه الصمت المريب حيث لا حياة، لا عصافير، لا شدو ولا أشجار، تماما كما في بدء الخليقة. ويحتاج الناس إلى زمن طويل ليستوعبوا ما حدث لهم. لا تشبه في شيء اللّيالي العاديات الموريات. موجة ساحقة لا عيون لها، لا ذوق، لا قلب لها، وربما لا ذاكرة لها أيضا لأنها هي المحْو عينه. ذاكرتها يصنعها من ينجون من زحفها ومسحها الكاسح. أشهد بعد هذا العمر أنه لم يعد لديَّ ما أخسره، ولا ما أربحه أيضا، ولا حتى ما يعنيني. لقد أقسمت أمام مرايا الصباح التي رتَّقت كسورها بالنار التي ألهبت أعماقي، أن أقول الحقيقة ولا شيء آخر سوى الحقيقة، كما لمستُها بنفسي، أو كما روتها المخطوطات الضائعة(٣) في بلاد أوسع من بحر وأضيف من مسافة رمشة عين.

بقي أن أقول، لا عبقرية لي فيما أرْويه. شيء عِشتُهُ، شيء أحسسته أو ربما كان مجرد حلم قبل أن تحوله الموجة العارمة من رؤيا إلى حقيقة، وشيء سمعته في أسواق القوّالين الصادقين الذين انطفأوا في وقت مبكر، أو بكل بساطة، جاءني مع الرياح الساخنة القادمة من صحاري القفر والفقر، أو تلك الباردة التي غطتني بها مرتفعات القلب وأجنحة الروح. فإذا ما صدّقني الناس، فذلك ما أرجوه، فأنا في النهاية

---

(٣) لا أحد يعرف بالضبط الزمن الذي استغرقته ليلة الليالي، لأنها لا تشبه الليلة العادية. الليلة التي ارتعش فيها يقين الحاكم بأبدية سلطانه وتوريثه لذويه، واستعاد فيها المؤرخون الأوفياء، مدادَهم المسروق. قيل إنها كانت الليلة الأطول في حياة جملكية آرابيا، والأكثر عتمة وحمولة بالنور. بعض المرويات التي ترد في هذا المتن، أصلها رقائق قديمة نُسخت باليد من مخطوطة مندثرة، ضاعت في الربع الأول من العهد الميت، عندما احترقت جملكية آرابيا نهائيا في ذلك الخريف الرمادي. يقول العارفون من علماء الآثار والأنثروبولوجية إنه عُثر عليها بالصدفة، أثناء عمليات تنقيب في الربع الخالي، وفي أمكنة كثيرة من جملكية آرابيا البائدة، مدفونة بين أربع صخور كلسية امتصت الرطوبة، وحفظت رقائق المخطوطة من التلف وجوع الحشرات المتوالدة بكثرة.

ابن زمني بكل ميراثه، من الناجين بالصدفة من زحف الموجة القاتلة التي لحقتْ بها شمس مغسولة من أي غبار ومن أي لون، لأول مرة أراها في حياتي، وإذا ارتآني الناس مجرد دجَّال، ورجل عابر في زمن يركض بسرعة نحو حتفه، يقصّ خرافات وأوهام ثقيلة ليخِفّ من حرائق داخلية أكلت أباه وأمه فيتَّمته في وقت مبكر، قبل أن تأكل أخاه الأوحد، وابنه الأوحد، وحفيده الأوحد، عليهم أن ينتظروا قرنا آخر ليتأكدوا من صدق ما حدث في جملكية آرابيا، ومن أن الهواء الساخن الذي أحرق الوجوه كل هذا الزمن، لم يكن كابوسا، ولكنه كان شيئا يشبه الحقيقة قبل أن ينزلق نحو أناشيد القوالين الذين منحوه ما شاءوا من ضحكاتهم ودموعهم وحنينهم.

هل يجب أن أُذكِّر مرة أخرى أن كل شيء بدأ بكتاب، وانتهى أيضا بكتاب؟ عفوا، بدأ بحرقة قاسية جدا، تلتها سيول من الشجن بسبب حروب إخوة الدم والدين، وكمّ لا يُعد ولا يُحصى من الوقائع التي صعب عليَّ فهم الكثير منها لحظتها، قبل أن ينتهي كل شيء في عمق كتاب دُفنت فيه أسرار جملكية آرابيا وحاكمها، وصُنَّاعها الذين اندثروا في أثرها. كان الحاكم بأمره، ومن سبقوه، يظنون أن الناس الذين همسوا في آذانهم على مدار القرون قد أفادوهم، وخافوا عليهم، لكنهم في النهاية عجلوا باندثارهم المتواتر، وتحويلهم إلى حكاية طويلة لن ينتهي أبدا رجع صداها لأنها في جرح الناس وفي دمهم.

الحاكم بأمره كان بدء الحكاية ولم يكن منتهاها. الناس عندما صعدوا فوق ركام الحرائق والدبابات التي تحولت فجأة إلى قطع ميتة من الحديد الثقيل وصدّأتها النيران المشتعلة والأمطار والحرائق بسرعة، كانوا يعرفون أن زمنا انتهى، وأن زمنا آخر ينتظم في الأفق بالكثير من اليقين، ربما كان أشد قسوة، ولكن أقسموا على أن يغيروا كل شيء، حتى المواقيت والساعات الخادعة التي ضبطت على دقات قلب الحاكم بأمره، صاحب جملكية آرابيا.

كل شيء بدأ بكتاب. . . وها هو اليوم يعود إليه. قد ينفتح بدوره على كتاب آخر لا أحد يعرف أسراره الخبيئة، ولا بلاغته الخادعة. لا أحد يعلم متى يتمّ الإنباء عن ذلك إذ يكذب المنجمون العالمون حتى عندما يصدقون وتسندهم الصدفة.

لا صدفة فيما حدث. كلّ شيء جاء مثلما كان محفوظا في كتب النور. وكل ما نتمناه ونريده أن يُفتح هذا الكتاب على بعض الخير. . .

على كل الخير. . .

. . . لقد تَعِبْنَا. . . تَعِبْنَا.

الفصل الأول

وَاوُ الحَقّ

ليس مهمَا أن يكون اسمها دنيا أو دنيازاد، الأهمّ أنها كانت جنون العرش وخرابه، ماءه وعطشه، حقيقته وسرابه. قصّتها أطول من قرْن وأقصَر من كلمة.

في تلك الليلة، التي يسمّيها العارفون ليلة الليالي، والتي لا تشبه أية ليلة أخرى، نظرتْ دنيا إلى الساعة الحائطية الكبيرة، فتحتْ عينيها عن آخرهما وهي تقرأ الأرقام التي بدأت تتداخل وتَتَماهى فيما بينها. كانت تعرف أن الزمن توقف عند اللحظة الفاصلة بين الحرائق الأخيرة التي اجتاحت ساحات آرابيا العامة، وآخر الكذبات التي غزت قصر عزيزة بقوة والتي لم يبق أمامها إلا سحر الحكاية. بحسها الحيواني الحاد، حس الذئبة التي تحدّق بها كل المخاطر، لعبت دنيا آخر الورقات لتُسْمِع صاحب جملكية آرابيا، الحاكم بأمره، الغارق في غيِّه، كل الحكاية ومآلها القاتل. كانت تعرف أكثر من أي شخص آخر أنَّ رياح ليلة الليالي الساخنة والعاتية، التي تكنس اليابس والأيْبَس، بدأت تهبّ بقوة ولم يكن بمقدورها أن توقفها أبدا، ولا حتى بمقدور الحاكم بأمره فعل ذلك. هي مثل الشيخوخة، عندما يبدأ الجسد في الانكسار والتهاوي والاستسلام لناموس الوجود، يتسارع كل شيء نحو الانتفاء مهما كانت الحلول الترقيعية الأخيرة.

سحبتْ الكتاب الذي رقصت حروفه وخطوطه بقوة أمام عينيها المتعبتين، من ركام الأوراق التي لم تأكلها النيران الأولى التي سبقت

عواصف وحرائق ليلة الليالي. قرأت عنوان كلماته مقطعة لتختبر ما تبقي حَيًّا من حواسها: المبتدأ... والخبر... في مدونة... العِبر. وهي تتمدد على فراش الغواية العريض، المعطر بماء الزهر والياسمين وورد الرمان، وتتحسس للمرة الأخيرة صوفه وحريره.

«- ... هذا هو إذن الأمير، أو المبتدأ والخبر في مدوّنة العِبَر؟ لصاحبه نيكولا ماكيافيلي المهبول؟ الذي أدخل الذلّ على بيوت السلطان، وفكّك سحر العرش، وهزّ أركان جملكية آرابيا؟»

ظلَّت دنيا مدة طويلة تتأمل جمار المدفأة المتقدة وألسنة اللهب المتصاعدة على الأطراف. ورَقَت الكتاب الصغير الذي كان بين يديها، صفحة صفحة للمرة الأخيرة بعد أن قرأته سبع مرات، وفي كل الفصول إذ لوضعية الشمس والقمر تأثيراتهما في كل أفعالنا بما في ذلك فعل القراءة. عندما انتهت منه، أغلقته بعنف كمن يسد بابا ظلت مشرعة مدة طويلة على الفراغ. لم تستطع كتم غيظها على أختها، أو ما رُوي أنها أختها، شهرزاد. تأملته للمرة الأخيرة بخطوطه المعقوفة والألوان النارية، التي ختمت على جلد التغليف، في طبعته الأنيقة المترجمة إلى اللغة العربية خصيصا للحكام والسلاطين وذوي الشأن العظيم، وبدون تردد، رمته في عمق اللهب.

«- الأمير... كتاب المبتدأ والخبر في مدوّنة العِبَر. البدء بِمَنْ وإخبار من؟ والعِبْرة لمن؟ يااااه... أنتَ أيضا لم تكن رحيما يا ماكيافيلي. أنظر من حولك ماذا فعلتَ؟ يجب أن تفخر بنفسك يا عزيزي، هذا الخراب كله بفضلك.»

تمدَّدت من جديد بكل طولها على الصّوفة، ثم أغمضت عينيها قليلا إلى أن سرقتها الإغفاءة الأولى. رأت نفسها فراشة من فراشات الجنة قبل أن تستيقظ على كابوس اليد الخشنة التي امتدت لها وبدأت تتأمل عينيها الصغيرتين قبل أن تضغط عليها بقوة، فتشعر بضيق شديد وحالة اختناق قامت على إثرها بفزع وارتجاف.

فتحتْ عينيها. نظرت مليا إلى السقف، تتحسس صدرها وحواسها

التي بدأت تستيقظ بهدوء وطمأنينة. لم تر شيئا إلا انكسارات الضوء الخفيفة التي كانت تأتي كل من جوانب الصالة، قبل أن تمتصها الحيطان المكسوة بكتّان المخمل الهندي وقطيفة بلاد السند.

ظلت دنيا على هذه الوضعية حتى آذان العشاء وهي تستمتع بهسيس الأوراق التي كانت وتتلوى في عمق المدفأة الألمانية. عندما رأت الكتالوغ الخاص بالمدافئ الجديدة، للمرة الأولى، قالت للخادم بلا أدنى تردد: أريد هذه، لأن لا شيء يقاوم المحارق الألمانية. في لمح البصر، تُحول كل شيء إلى رماد. تفضل القوة العاصفة التي تأخذ كل العناصر في أثرها على الحرق المتأني. تكره الأشياء المقسطة، إلا في الحكاية، فهي تتلذذ وتلمس وتشم، وترى الأثر في العيون والملامح، تريد من كل الحواس أن تصاحبها.

عندما فتحت عينيها للمرة الأخيرة بكثير من التكاسل، نظرت إلى الساعة الحائطية الذهبية المعلقة في نفس المكان منذ أكثر من قرن كما روى لها الحاكم بأمره. لا شيء تغير في نظام الأشياء، هو بالضبط وقت الحكاية. خمّنت بأن الحاكم بأمره ينتظر الآن مجيئها كما تعودت أن تفعل كل ليلة. عليها أن تقول كل شيء في الزمن الذي بين يديها قبل أن يأكل رأسها. هي تعرف جيدا أن العواقب ليست سليمة ولكنها ستذهب إلى منتهى الشهوة إذ لا يمكنها أن تترك القصة معلقة في الفراغ.

كانت دنيا أو دنيازاد كما يشتهي الحاكم بأمره تسميتها، قد استعادت راحتها بعد سلسلة الإغفاءات المتتالية، دفنت آخر ضحكات السخرية بين شفتيها ثم انسحبت باتجاه الفراغ الذي كان يملأ القلب والذاكرة. كانت تعرف أكثر من غيرها أن العد الزمني توقف عند هذه اللحظة بالذات، فليلة الليالي استمرت زمنا لم يستطع تحديده علماء الخط والرمل، ولا حتى الذين عرفوا أسرار النجوم والبحار والأنواء الخالية من أي عطر. كانت دنيا تعرف الكثير مما خبأته أختها، أو ما قيل إنها أختها، شهرزاد عن شهريار. فالأسرار والأخبار المنسية كانت تأتيها من القلعة والحقول المسيّجة والبراري وأسوار المدينة والحيطان الثقيلة والهرمة، التي كانت

تدفع بعيدا أمواج السواحل الرومانية بكثير من التعب والمشقة. كانت تعرف ما لم يعرفه غيرها. تعرف السر الكبير الذي صاحب بشير إلموررّو[٤]، آخر السلالات المنقرضة، القادم من أدخنة وهزائم غرناطة، لا ينطق عن الهوى أبدا. لم يعد إلى هذا الفراغ القلق الذي يشبه البياض، إلا ليروي خيبة السلطان الذي أخفق في الاستمرار لأنه خسر المنعرج الأساسي في حياته. كان يجب أن يكون نبيها. السلطان لا يحتمل الغباوة على الأمد الطويل. وتعرف جيدا أن بشير إلموررّو ليس إلا لونها ومطيتها لإتمام اللوحة الكبرى التي استمر رسمها أكثر من خمسة عشر قرنا. كانت مليئة بالنور والظلمة وبقايا مطر جفّ في السماء قبل أن يلمس التربة. عندما روت حكايته للحاكم بأمره ضحك طويلا من سذاجتها قبل أن يتّهمها بالدروشة وقلة النباهة.

قالت له في ذلك المساء الذي أصبح اليوم بعيدا: يا حبيبي و قرة عيني، يا من سجدت عند قدميه سطوة العرب والبربر، و العجم، يا حاكمي بأمره وعزه ودينه وسلطانه، من أين أبدأ هذا الخوف، فالسواد يملأ القلب والمدينة ورؤوس العباد، والنسيان يزحف باتجاه القصر والوجوه الحالمة. مولاي، كل شيء يتآكل بسرعة وعليك أن تسمع لي قليلا قبل أن تحملنا رياح العواصف الساحقة إلى حيث لا ندري ولا نعلم. عندما قلتُ لك يا مولاي اقرأ **المبتدأ والخبر في مدوّنة العِبر**، الذي يسميه العجم ومن جاورهم من ذوي السلطان **الأكبر الأمير**[٥] لصاحبه ماكيافيلي الذي عاش على حافة القصر، في عز الحروب والفتوحات والغزوات قلت لي لا وقت لدي، أنا منشغل بأمة لها كِتَابها وليست في حاجة للعجم. عندما ألححت عليك حتى كدتَ تنفر مني، ضحكتَ طويلا وقلتَ: هذه هي الحقيقة، بسبب فقرة شعرت بأنها

---

(٤) أصلها إسباني El Moro وتعني الموريسكي. وهي تسمية كانت تُطلق على مسلمي الأندلس.

(5) Machiavel: Le Prince.

تستفزّني، مزقته ورميته في البالوعة. سألتك وما الذي حرّك غضب حبيبي ومولاي؟ قلتَ: هي ذي. **«على الأمير ان يقرأ قصص الأولين من الذين سبقوه، وأن يتّعض ويَفتَبر أعمال الجيدين منهم، ويرى كيف حكموا وسَاسوا في فترة الحروب والقلاقل، أن يتامل خفايا انتصاراتهم وهزائمهم حتى يهتدي بجيدها، ويتجنب سيّئها. وأن يقوم بما قام به الخيرون من الرجال في الماضي الذين اتبعوا من كان أفضل منهم، فرُفعوا إلى سدة المجد.»** أضفتَ يا مولاي وأنت في حالة غليان، لم يكن من الممكن إرجاعك إلى جادة الصواب: **انا لا اقبل بمن يعطيني دروسا في السلطان وهو سيئ السيرة. هذا مكيافيلي تَاعَكْ، فُصل من سلطنة فلورانسا في شتاء ١٥١٣، لأنه ضبط بالجرم المشهود وهو يحضر لانقلاب مع أغوستينو كابوني وبييرباولو بوسكولي[٦] ضد الكاردينال جوليانو دي ميديسي[٧]، فحُكم عليه بالحبس حتى الموت، ولكنه في النهاية استفاد من رحمة سيده، وحُكم عليه بالإقامة الجبرية في ضيعته في سان كاسيانو[٨] حتى نهاية أيامه.** كل شيء كان فيك مظلما، ولم تكن قادرا لا على الاستماع ولا على رؤية ما ينفعك وينفعنا معا. أدركت بحاسة شمي التي تلتبس مع حاستي السادسة، أنه لا جدوى من إزعاجك لكي استمر في الحياة وتستمر أنت في مسالكك التي اخترتها أو اختارتك. الآن كل شيء تغير ولم نعد نملك الزمن الذي كان بين أيدينا ولا رخاء الوقت. رائحة الموت أصبحت تملأ كل الأمكنة، والحرائق أتت على كل شيء ولن تتأخر في أن تلحقنا بالباقي. الوقت يا مولاي يموت أيضا مثلما تموت بقية الأشياء. يتهاوى كالرمل، وعندما نريد لملمته يتسرب من بين الأصابع و شقوق اليد التي لا نراها ولا نحسها. هل تسمعني يا قرة العين؟ هل يصلك صوتي المبحوح بألف

(6) Agostino Capponi et Pierpaolo Boscoli.
(7) Le cardinal Giuliano de Medici.
(8) San Casciano.

حكاية وحكاية كان يجب أن أُسْمِعها لك ولكني ترددت كثيرا حتى قبل أن أدخل إلى شوك فراشك للمرة الأولى. يجب أن تظل صاحيا يا صاحب العز والمعرفة، أنا دنيا أو دنيازاد كما شئتني، ولستُ بأي حال من الأحوال شهرزاد.

أنا وأنتَ الآن في جحيم ليلة الليالي. مصير أحدنا ملتصق بالآخر. ننجو مع بعض أو نندثر مع بعض أيضا. ولهذا عليك أن تسمعني. أن تفتح عينيك قليلا فيّ كما وعدتَني وأقسمتَ على المُصحف أنْ لا تُوقف غيّي وحكْيِي وهبلي، حتى النهاية، حتى ولو حرّكتْ قصصي المروية شأنك العالي قليلا.

- وهل خالفتُ لك أمرا، يوما يا دنيازاد؟ أنا في حضنك وحضن حكايتك. أعرف جيدا سلطة لسانك وسحره، ولهذا حضّرْتُ صبْري وخِرقَتي الحمراء التي تمنعني من ارتكاب المعصية الكبرى التي لا غفران بعدها.

- أعرفك يا مولاي ومآلي، ولهذا جعلتك تقسم على المصحف لكي أحفظك من نفسك. حرائقُك عندما تأتي، تأكلك وتأكل كل من نام في ظلّك.

- أنا رائق تماما في هذا المساء. فقد غلّقت أبواب المدينة، وأعطيت أوامري لتشغيل المطحنة البشرية. أريد عندما أستيقظ صباحا، أن لا أجد لا عُمّالا يتحيّنون الفرص للانقضاض على قصر عزيزة، ولا علماء جعلوا من قلعة الحكمة قنبلتهم الموقوتة. سترين يا دنيازاد وتعطينني الحق، كل الحق، عندما نفتح أعيننا في نفس الفراش على آرابيا أخرى خارجة من رحم القوة والنّار.

- كل السرّ هنا يا مَوْلاي. هذا الاستيقاظ المبكّر سيكون على أية مشاهد؟

تفحّصت عينيه عميقا. بدتا هاربتين عن كل ما كان يحيط بهما. هو الحاكم بأمره، الحكيم، وملك ملوك العرب والبربر ومن جاورهما من ذوي السلطان الأكبر، ولا أحد غيره، الذي حكم جملكية أرابيا بيد من

رصاص، وعقل من رماد، بعد أن أخصى كل رجالها، واختبر الدنيا والعباد والنفوس المغلقة، قبل أن يجزم بأن كل ما حوله غبي ولا يستحق إلا حياة الذل والإبادة.

كان فمه مفتوحا عن آخره، مشدوها إلى سحرها ولحم جسدها الغضّ. يلعن في أعماقه أصل وفصل اليد التي عجنته، في لحظات الشبق الجارف، قبله. فقد كان على يقين مطلق أن عيني ابنه الوحيد قمر الزمان، وبشرته ليست له أبدا. هو اللغز الذي عذّبه زمنا طويلا وحيّر المدينة التي كانت تنام على بركان كتاب المبتدأ والخبر في مدوّنة العبر. الذي لا أحد كان يعرف متى ينفجر على ليلة جديدة لا تشبه الليالي الألف التي مضت بسرعة غريبة، إلى أن جاء بشير إلمورّو المجنون، ليدخله في تفاصيل حكاية لم يكن مهيئا لسماعها ولا مستعدا لفك اللغز المسحور الذي بدأ يتحول إلى يقين مرعب.

- يجب أن يصبر حبيبي، وأن يسمع ما لا يريد سماعه دائما. سأكون مرآته القاسية والمشرقة. عشتُ في حضنه وسأموت في خرابه. أقسمت أن لا أتركه حتى نفسه الأخير. هي العشرة يا مولاي عندما ينسحب الحب.

أشياء كثيرة حدثت قبل وبعد وفي اللحظة ذاتها التي بحث فيها جليل القدر، الحاكم بأمره، عن السكين ليحز رأس دنيا التي لم تكن تشبه أختها في شيء، ولكنه لم يجد إلا الفراغ الذي ملأ ذاكرته وقلبه، والقصر الذي امتلأت أبهيته وأنفاقه وأقواسه الرخامية بالأدخنة ورائحة البارود والأجساد المحروقة والحيض والولادات المتفسخة. لكن تلك قصة أخرى سيأتي أوانها.

حكاية بشير إلمورّو التي كانت هي السبب الأول في حرق قصر عزيزة ونهاية السلطان، روتها دنيازاد كما وصلتها تفاصيلها، ورواها قبلها أناس كثيرون. رسمها القوالون في الأسواق على شاكلة أيام القيامة. عشقها الرعاة وحكوها بمسحه حزن وحنين، وابتهجت لسماعها النساء داخل القصر وخارجه. لكن الزمن توقف مع نهاية الحكاية في تلك الليلة

الرهيبة، ليبدأ زمن آخر كان من الصعب تتبع ملامحه ومعرفتها. الأمر الوحيد الذي لم تختلف عليه الرعية في جملكية آرابيا، هو أن شيئا جديدا مثل خيط النار في النعومة، و مثل الشعاع في النقاء، كان يتصاعد من الموجات التي تكسرت بالتتابع على الحائط الروماني الهرم، فجر ذلك اليوم الذي لم يكن يشبه الأيام، الشهور، السنوات وربما القرون التي خلت. مع أن لا شيء يموت ولكن بدا ليلتها كأن موتا فجائيا حل بكل شيء بما في ذلك زمن السلطان الذي استمر قرونا وربما أكثر.

يقول الرواة والقوالون وناس الأسواق الشعبية، إن ما حدث في الليلة الغريبة، ليلة الليالي، لا يُروى، وإذا رُوِي فهو لا يشفى الغليل. فدنيازاد قبل أن تلبس غلالتها الشفافة، الميالة في لونها نحو زرقة هاربة فقدت بحرها، تبحث عن أفق ضيّع ألوانه المعتادة استعدادا لشبق وهمي، وتظهر انثناءات جسدها المدهشة التي اختبأت فيها أشواق وملامس وحدها كانت تعرف سرها، وقبل أن تشرب الكأس الثامنة متجاوزة بذلك كل الطقوس التي اعتادتها مع الحاكم بأمره، وتبدأ في سرد الحكاية المعهودة عن فاطمة العرّة والتاجر، حيث سكتت أختها شهرزاد للمرة الأخيرة عن الكلام المباح لتنسحب باتجاه بيت الحريم وتبدأ في تلقين ذكورها الثلاثة أسرار الليالي، وما يمكن أن تفعله القصص في النفوس المنهكة، قبل هذا الزمن بالذات، وبعده بكثير، حدثت أشياء مربكة ملأت ليلة الليالي ضجيجا وجروحا وخوفا لأن سيّدها الحكيم، الحاكم بأمره، أقسم أن يبيد كل حساده في السلطان والصامتين على الطامعين، ولن يوقف النزيف إلا بانتهاء الليلة التي دامت طويلا على غير عادة الليالي السابقة.

تململ الحاكم بأمره بين أصابعها كاللعبة البلهاء. توغل في عينيها رغبة منه لمعرفة سر السلطان المتخفي حين اختلطت الأشواق والألوان عليه، سألها عن سر الحرف المسحور الذي نطق به الموريسكي الأخير، بشير إلمورّو مقدّسا معتقا مثل خمرة أندلسية مهربة في سفن القرصان الإيطالي. قال لها: فسِّري يا ابنة الناس، فأنا لا أطيق الأشياء الغامضة

ولا أنصاف التفاسير، وإلا ركبني جنوني الذي لا سلطان لي عليه. أنا لم أفهم سره المجنون: حاء ميم. لام ألف ياء. سين، ألف عين؟ حروف قيل يملكها الغير ولا يملكها الملوك والسلاطين وذوو الشأن الكبير. أحك ولا تكرري ما قالته دابة الغواية أختك شهرزاد، وهي تحاول أن تنقذ رأسها من السيف الذي أدمته أعناق نساء بيت الحريم. شهرزاد كانت دابة السحر، وشهريار كان الأحجية المضحكة. كان تيسا لا أكثر، لعبت بشأنه العظيم، قحبة من الدرجة الدنيا. أحك يا بنت الناس، لقد نفذ صبري وارتعش السيف في يدي. احك وإلا حوَّلتك إلى حكاية يرويها العرب في لحظات القيظ، عندما تحرق الشمس وجوههم والرياح الشتوية ملامحهم الكئيبة والمغبرّة...

كانت دنيا تعرف الإجابة، لكنها صمتت طويلا قبل أن تعضَّ على شفتها السفلى بإغواء شبقي عودته عليه، وتقول بانتشاء العارف: أيها الحاكم بأمره، حكيمي المبجّل، تلك مولاي حروف الابتهاج، نحسها ولا نلمسها، مثل النور تأتي وكالنار تأكل الأخضر واليابس، حاء ميم = حب مكين. لام ألف ياء = لا يعلم. سين = سره. ألف عين = إلا العشاق. ليتكشف السر الكبير الذي أضاعه وبدده: **حُبٌّ مَكِينٌ لا يَعْلَمُ سِرَّهُ إِلاَّ العُشَّاق**. أقسمت دنيا في تلك الليلة برأسه الذي لا تلمسه نار جهنم، أنها عرفت السر الذي كان يحمله بشير إلمورّو في قلبه المتعب منذ أن رأته في المواجهة التلفزيونية الأولى والأخيرة التي جمعته بالحاكم بأمره، قبل أن يَرمي هذا الأخير سجينه داخل الأنفاق والسراديب المليئة بالمياه النتنة ويضع على رأسه سطلا ألمانيا نزل عسسه عليه ضربا حتى نزل الدم من أذنيه وفمه، فأصيب بالصمم لشهور قبل أن يهتز بصره المتعب ومخّه.

قيل الكثير عن بشير إلمورّو. حتى هو، عندما عاد من الكهف، اندهش في الكثير مما سمعه من أفواه القوّالين الذين لا يعرفون إلا رواية الحقيقة كما يحسونها.

تساءل بشير إلمورّو في خوفه، هل ما حدث له كان حقيقة أم مجرد

حكاية من اختراعه أو من اختلاق من جعله بطلا ليقتله نهائيا؟ تحدّث لظلّه الذي خبّأه في ساعة الخوف، أملا في أن يُشفى من السر المبهم الذي جاء به وملأ قلبه. صمّم أن يحكي حكايته قبل أن يتولى غيره من القتلة رواية أحلامه، فالورّاقون القتلة التهموا بياض الأوراق الناصع، تكاثروا مثل القوارض. الشيء الذي يدركه جيدا ولا يشك فيه لحظة واحدة، وعلى الرغم التأويلات التي وقعت لاحقا، هو أنه حين استيقظ وجد نفسه للمرة الأولى يواجه خوفا من نوع جديد داخل كهف مظلم لا يعلم جيدا كيف دخله. مسجونا به كان، مثل أيام القيامة. تساءلَ بدهشة الخائفين، هل هي الشمس الحارقة التي قادته إلى هذا المكان أم أنَّ الموجة الهاربة التي تآكلت على رمال الشطّ بهدوء هي التي قذفت به إلى هذا المكان؟ أم هي الأنواء الغرناطية التي امتلأ بها وغمرته بدفئها وحنينها. هذه التفاصيل الحية، الساكنة فيه كالشمس، لا أحد يستطيع أن يشككه فيها؟ فقد كانت وجدانه الحيّ ووجودَه الدَّائم.

في الحقيقة أصبح الجميع يعرف أن زمن الموت لم ينتهِ ولم يتوقف مطلقا عند الحدود التي خطها العارفون ورجال العلم، لأن ما كان يجب أن تقوله شهرزاد في نهاية الليلة الهاربة، الزائدة، الضافية التي جاءت فوق الشَّبْعَة، أجّلته لزمن غير معلوم، خوفا ودرءا للشكوك التي كانت تحوم حولها. كانت تعرف مسبقا أن في القلب سرّا من الصعب الإدلاء به لأن رأسها كان سيُعلَّق على بوابات المدينة المحاذية للبحر المنسي داخل أدغال المملكة الميتة، لو انتهى العدّ عند الحد الذي كان شهريار يتفاداه. فقد مَددتْ ليلة الليالي زمنا آخر، وانسحَبتْ على رؤوس أصابعها مثل الهارب، حتى لا ينتبه لها أحد لترُضع أصغر أبنائها الثلاثة.

في آخر مرة، وقبل أن يصل العد إلى نهاياته، كان كل الناس يتوقعون أن رحلة الثلاثمائة سنة (أو ربما أربعة عشر قرنا) يجب أن تتوقف عند هذا الحد. لم يصدق أحد من المقرّبين من‌ساحات قصر عزيزة، حين قيل لهم إن ليلة الليالي استمرت أكثر من الزمن الأرضي. حتى الكتب التي تحدثت عن الأرصاد والأنجم والأنواء توقفت عند

حدود بداية هذه الليلة لأنها رأت بعدها دخانا كثيفا يتصاعد على أطراف البحر وعلى شاطئ المدينة التي كانت تستيقظ بوجل كبير، بعد أن تراجعت بتثاقل، المدينة. تضمّ إلى صدرها شؤونها الصغيرة وتدخل إلى البحر مفتوحة العيون على آخر مشاهد النار والفرح، وعلى الغربان التي كانت تملأ ساحة القصر، وعلى البنايات التي كانت تتزاحم زمرا زمرا راكضة باتجاه الأمواج الهاربة، ملفوفة في غلالة بيضاء من الضباب الذي تعود أن يلف المدينة في كل فجر من هذا الفصل الذي يودّع الخريف لاستقبال الشتاء.

تململ بشير إلمورّو في فراغات الكهف وهو يتساءل عن وضعه الذي لم يفهمه جيدا. حاول عبثا أن يسترجع ما تبقى من خوفه الماضي لكن الذاكرة لم تسعفه. كلّ شيء فيه أصبح مرتبكا وقلقا. أية يد غير كريمة أو كريمة رمته في هذا الكهف الذي لا يفهم سره.

- يقولون يا مولاي وحبيب عينيَّ وقلبي، والعهدة على من يروي الأخبار والحكايات ويملأ الأسواق بالأناشيد الصادقة، إن بشير إلمورّو نُفي من الجنة لأن إثمه كان أثقل من أيام الحشر نفسها، ولأن الجنة كانت قد أوصدت أبوابها منذ دخول الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري مجلّلا بالعطش والكبرياء، ومنذ أن وقف الحلاج أمام الله مطالبا بيديه ورجليه ورأسه الذي قُطع ظلما في الأسواق البغدادية، ويحاجج الروح القدس على تركه له وحيدا يواجه قسوة الموت والخوف والدم الذي لم يتوقف عن السيلان بالرغم من الصرخات التي وصلت إلى السماء. يقولون، وهم وحدهم من يتحملون وِزْرَ كلامهم، إنه في لحظة الصحوة، تأمل اللهُ الجُرْحَ الذي كان يشقُّ صدر بغداد طولا وعرضا، والدم الذي جف على طرفي شفتي الحلاج، تململ في عرشه، ثم وقف بجانب الشهيد قبل أن ينحني لحزنه بعد أن سبقته دمعة حارة أشعلت بركانا في قلوب الخليقة، واعتذَرَ له عن صمته قبل أن يُصاب اللّه بنوبة من نوبات الفراغ التي تشبه حالة العزلة، ولكنها ربما كانت أقسى. الله لا ينحني إلا للشهداء والمُتَفين عشقا وولها.

- دنيازاد؟ إنك تتمادين. كلامك كبير ويلامس النّار.

- أتمادى في حب سيدي ومولاي وممُو[٩] عيني، لأصبح ذرة خير فيه. قلت لك من قبل يا سيدي إني سأكون مرآتك التي ترى فيها نفسك كما هي. عندما سألتك: هل ستقبل بي على عِلاّتي وجنوني القاتل، قلتَ أنا موافق. ومن يخلف لكِ طلبا. وها أنا ذي أتمادى فيك يا مولاي العالم والعليم، الرحمن الرحيم.

- دنيا؟ أنت تحاذين الجنون؟ ما يشغلني هو سلطان الدين على لسانك. الرحمن الرحيم؟ الله يعتذر لأبي ذر الغفاري وينحني للحلاج؟ كبيرة. وحياتك لولا وعدي الذي قطعته على نفسي أمامك بعدم إيقافك في جنون حكيك، طوال الليلة، لأوقفتك الآن بشفرة السكين الباردة. كل شيء إلا الله؟

- الله يا عمري لم يعد في حاجة إلى ناس منهكين. أعرف أنّ حبيبي ومولاي لا يخون عهده. أن تقبل بأن أكون مرآتك معناه أن تقبل بي على علاّتي لأكون لك بكل صدقي، وأضع كذب السنوات الماضية في قاع المزبلة لأنه لم يعد نافعا لنا للاستمرار في السلطان.

- لن أفعل شيئا. لن أخون لغتي. كوني هذه المرآة القاسية.

ردد الحاكم بأمره، وهو يبحث عن قطعة القماش الحمراء التي تعوّد أن يضعها في عمق فمه، بين أسنانه، حتى لا يصرخ غيضا مما كان يسمعه، وحتى لا يندفع نحوها كاتما غضبه وفيض شبقه.

- لم آتي بشيء من عندي أبدا. لستُ أنا يا مولاي من تقول هذا الكلام، الذين يروون سيرته في الأسواق هم الذين يؤكدون على ذلك. أنا مجرد راوية للباخية[١٠] التي عاشها بشير المورّو.

- ولكن هذا شِرك يا دنيا! شِرك، تخطيتِ به حدود المعقول. الرواة، أولاد قحبة، كلهم ولا أحد فيهم يستحق الاحترام، مع القوي

---

(٩) بؤبؤ عيني.

(١٠) كلمة قديمة من أصل إسباني Bajia وتعني القصة أو الحكاية.

والواقف، دائما. لا يقولون إلا ما يجبرون على قوله؟
- هذا ليس شِركا يا مولاي وحبيبي وملاذي وقرة عيني. هذه دلائل لمن في قلوبهم زيغ وشكوك ومرض، عن رهافة الله ورقّة حسّه أمام مخلوقاته. أليس الله عطوفا رحيما، فكيف هو إذن عطوف ورحيم إذا فشل في امتحان كهذا ولم يستسلم لحب مخلوقاته ولهشاشتها؟
- لسانك طويل يا وحد الحنشة... هل نسيتِ أنه شديد العقاب؟
قال ضاحكا كطفل لم تستطع عيناه الفارغتان أن تخبئا بلادته الموروثة.
- كنت أعرف بأنك ستقول لي هذا الكلام يا مولاي. لا، ليس في هذه الحالة. لا يمكن أن يكون الله غبيا إلى هذا الحد ويعذّب صحابيا قضى عمره في مقاومة الجهل والضّغينة. اسمع بقية الباخية يا سيدي وستعرف. كلما قاطعتني، هززت يقيني بالقصة، وكلما دخل العقل عليها، اختل سحر الحكاية.
الكثير من الآتين بعد أبي ذر، يا سيدي العالي، دقوا أبواب الجنة بعنف شديد لكن الجنة ظلت موصدة بسبعة أبواب، وفي كل باب سبعة مفاتيح، وفي كل مفتاح سبعة أقفال، وعلى رأس كل قفل سبعة عبيد، وفي يد كل عبد سبعة سيوف، وفي كل سيف سبعة شقوق حادة، وكل شق يزن سبعة أرطال، وفي زنة كل رطل ثقل يوم من أيام القيامة، وفي كل يوم قيامة قرن من الخوف، وفي كل خوف شطط الخيبة.
- يكفي؟ يكفي يا دنيازاد من الحديث عن الموت والقيامة والخيبة.
صرخ الحاكم بأمره بأعلى صوته بشكل فجائي.
- أحيانا لا نختار خوفنا وقلقنا. نحتاج إلى الكثير من الصفاء لندرك ذلك. على كلّ لن يكون إلا ما يشتهيه خاطر سيّدي، وما يُنعش خاطره.
قالت دنيازاد وهي تدخل لباسها الخفيف بين فخذيها لتثير هبله المدفون.
منذ ذلك اليوم البعيد، البعيد جدا، أشياء كثيرة تغيرت. أُطفئت

أنوار الجنة وجُلِّلت الأبواب بالستائر السوداء وأُغلقت النوافذ المطلة على الأنهار والوديان، ونبت الزقوم على أشجار الجنة، ومُسخت الكثير من الأوجه المبشرة التي سرقت الفردوس من أهله. يقولون أكثر من ذلك كله، إن بشير إلمورّو طُرِد من الجنة، بل من النّار، لأنهم لا يعرفون بالضبط هل استقبلته الملائكة، أم شقت صدره جموع الزبانية، فألسنة جهنم انطفأت عند ذنوبه الكثيرة. كانت أَعْجَز من أن تحرقها. ويقولون أكثر من هذا كله، إنه عاد وبُعث من القبر ليعيد الرواية إلى مسارها الحقيقي، فالوراقون ابتذلوا أشواقه وحنينه إلى البلاد البعيدة، وبيَّضوا برقصة قلم مدسوسة، الكثير من الوجوه المريضة، ودفنوا أنوار الذاكرة تحت الأتربة السوداء، وبنوا للقتلة قصورا من العاج الغالي والألفاظ الكاذبة. فقد تعود الورَّاقون على أسوأ العادات في المدينة يا سيدي. كلما هبت عليهم رياح الخوف، ينزلون إلى وديان القصب الجافة، ثم يبدأون في نجر أقلام جديدة من القصب، ويتنافسون على كذب يقولون إنه أبيض، ويحولون بجرة قلم، الهزائم إلى انتصارات. يؤكدون يا صاحب الباب العالي، أن قصة الموريسكي المجنون، أو الموري، هكذا يسمُّونه، كذبة كبيرة بناها حكماء المدينة السبعة والعمال، وصدّقها بشير إلمورّو لأنه كان في حاجة ماسة إلى وهم ينقذه من خوف المدينة الذي استفحل في ذاكرته.

في الليلة التي سبقت الأيام الأخيرة من حياة الحاكم بأمره، ضحك أصدقاؤه الشماليون من بشير إلمورّو، حتى انكفأوا على ظهورهم. قهقه الأمريكي، تبعه الإنجليزي، فالفرنسي، ثم الألماني الذي كان يدفع صدره إلى الأمام بشكل يظهر معه، بشكل واضح صليب النازية المعقوف الذي كان يزين به صدره كلما كُلِّف بمهمة رسمية من الخارج أو من قصر عزيزة. حاولوا ليلتها، وهم يستجوبون بشير إلمورّو، تحت أنفاق المدينة النتنة، وفي سراديبها المظلمة أن يُقنعوه بأنه لم يعد من أي تاريخ أندلسي، وأنه مجرد رجل كآلاف الناس، مدمن كبقية سكان آرابيا، على الزّطلة والكِيفْ وحبوب الهلوسة، وعلى قراءة التاريخ الغرناطي لأنه من

قرية يقال إن قاطنيها الأوائل كانوا من الهاربين من محاكم التفتيش المقدس. ويُقال أيضا إن أحد أجداده الموريسكيين سقط في جبال البشرات[11] قبل عدة قرون بعد أن هدّ الجبال وأرعب جيوش فردناند الأرغوني وإيزابيلا القشتالية. أكدوا له أنه قرأ حتى سالت ضبابة على عينيه فوجد نفسه فجأة داخل الأحياء الأندلسية الفقيرة. وألَحّوا على أكثر من ذلك. أنه كان بجانب الساحل المتوسط يتأمل السفن التي كانت تذهب وتجيء، ففاجأته عاصفة شتوية أو ضربة شمس، غير متأكدين من الحالة، انسحب بعدها باتجاه مغارة الصيادين، فوُلِدت معه قصة الكهف الذي توهم فيه أنه قطع الخلاء والقفار وركب السفن العائدة، محملة بالذعر والخوف وطمع القرصان الإيطالي. في الإغفاءة التي لم تدم طويلا حدث هذا كله. متأكد من أنه عاش أحلاما وكوابيس أدخلته في أعماق الغيمة الأندلسية، وحين استيقظ، وجد نفسه أمامه راعي غنم يقف عند مدخل الكهف، فأوهمه بأنه نام أكثر من ثلاثمائة سنة بالتمام والكمال. لكن القصة وما فيها، كما رواها له الشماليون، أن علماء المدينة السبعة كانوا في حاجة ماسة إلى وهمه لإخراج الرعية من صمتها. وهو يستمع لهم، لم يتساءل بشير إلمورّو كثيرا عن السر ولا عن اللغز المحير، فقلبه كان مملوءا بالزغاريد وبملامس حكماء المدينة وأصداء محاكم التفتيش وصرخات أهل غرناطة وهم يسقطون جماعات، جماعات، من جراء حصار القشتاليين والآرغونيين، ومن شظايا المدافع الإيطالية. لا ليس وهما أبدا، تمتم بشير إلمورّو ليلتها في خاطره وهو يتضور ألما، فهو يعرف الراعي الذي فتح له عينيه عند مدخل الكهف وأفضى له بالسر، ثم قدمه إلى الحكماء الذين أكدوا له أن ما عاشه في الكهف يتجاوز المنطق البشري، وأنه عاد ليروي أيام القيامة، أو هكذا قيل له، فأجاب مؤكدا أنه لم ير في غفوته إلا الدنيا، الدنيا فقط وجحيم اللون الأسود الذي كاد أن يمحو ملامح الذاكرة، وانسحاب الله من شطط العرش.

---

(11) Las Pujaras.

- مرَّ على هذا الحادث زمنٍ بعيد يا مولاي وإلتبست عليّ التواريخ أنا أيضا. لا بأس أن تتحمّل زلأت قدمي.

حقيقة بشير إلمورّو، قُوال غرناطة وهي تستسلم لحكامها الجدد، أكثر تعقيدا مما يتصوره الجميع. كل شيء بدأ منذ تلك اللحظة التي لم يستطع حصرها. كانت ذاكرته تهرب منه مثل حبات الرمل الجافة. عندما فتح عينيه لأول مرة في الكهف الذي نام فيه طويلا، بحسب رواية الراعي أيضا، لم يصدق أبدا أن الجنون يمكن أن يصل إلى هذا الحد المخيف. فكر في البداية في تحديد وضعه، لكن الظلمة كانت أكبر من حلمه ومن ذاكرته المتعبة. بحث عن أي شيء يمكن أن يربطه بالدنيا، تناهي إلى مسمعه الآذان مصحوبا بأصداء البحر البعيدة. تذكر في خلوته مآذن غرناطة وإشبيليا العالية. شعر بالفجر وماريانه يقتربان من قلبه أكثر من أي زمن مضى. لكن تلك حكاية أخرى، ملتبسة قليلا، سيأتي سياقها. الزمن كان يتضاءل بين يديه، يصغر ويذوب حتى يصبح شكلا هلاميا لا يُعرف حاضره من ماضيه من مستقبله.

- أنت تلعَبين يا دنيازادا أريد أن أعرف ماذا حدث لهذا المعتوه الذي يُدعى بشير إلمُورُو، عندما وجد نفسه داخل الكهف؟

نغنغ الحاكم بأمره من وراء الكتّانة الحمراء التي كانت تسد فمه وتغمُّ صوته كلما اشتعلت حرائقه الداخلية. كشفت دنيازاد قليلا عن صدرها، فنفر رأس النهد الأيمن قرمزيا مثل حبة كرز. ثم نهد الجهة اليسرى الذي كان أصغر قليلا وأقل امتلاء من النهد الآخر. شعر الحاكم بأمره بالحرائق تأكل جسده الذي أنهكته الحكاية منذ بدايتها. قالت وهي تبتلع ريقها بتلذذ وتجعل من رأس لسانها وسيلتها الكبرى للغواية:

- هل عَطش سيدي؟ أسقيك بما يحمله فمي من نبيذ الجنة؟

- دنيا؟ بدأت أتعب. يبدو أنَّ ما هو آتٍ أكثر فظاعة؟ إنهِ هذا الخراب بسرعة، أنا مَنْ يموت في قفر الربع الخالي وليس أبو ذر. ماذا حدث في النهاية لمعتوه مصيره الحرائق وجهنم؟

- لا شيء يا مولاي مما يمكن أن يثير انتباه كبار المؤرخين. لا

شيء سوى مجموعة من الوقائع كانت جدّ خطيرة على الرعية والمُلك أيضا.

- الرعية تعرف كيف تدافع عن نفسها. حطب الحياة هي لا أكثر. أما المُلك، فلا. ستطير عيناها قبل أن تمسه.

- الباخية ليست إلا في بداياتها... اسمع البقية... اسمع...

جلس بشير إلمورّو قليلا في أقرب مكان. خمّن أنه وسط الكهف أو مركزه. اتكأ بظهره على شيء صلب كان يشبه الصخرة الملساء. انتابته موجة من الخوف والخواء. تزاحمت الكوابيس وأشياء أخرى في رأسه. تململ في مكانه بحثا عن إجابات لأسئلته التي جاء بها من بعيد وهو لا يعرف لا سرها ولا سحرها. تمتم في خلوته: لا ليس هذا هو المطلوب. المبتغى شيء آخر غير هذا الذي يملأ القلب و الذاكرة. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ بالأساس أين أنا؟ من أنا؟ بشير الطيب الضائع بين ظلام الموت وندى الحياة؟ أم الرجل العادي الذي شاءت الصدفة أن تخرجه من دائرة اليومي؟ لكن من يفهم هذا الجنون الذي يملأني و يقلقني؟ أعرف أنه لا أحد إلا ڨوالا مصابا بالتاريخ مثلي. على الأقل هذا ما رواه الڨوالون بعده، في الأسواق الشعبية وفي الحارات. لأنه ما كاد يظهر كعلامة حتى انطفأ بين أيدي محبيه. قالوا إنه ترك المدينة للزغاريد والبارود وأدخنة الانتصارات، وذهبَ ليبحث عن مكان للراحة بعد عذاب انتفت فيه الأزمنة والسنوات.

- هو ذا خيط الحكاية الأول إذن يا دنيازاد؟

- أسئلة. مجرد أسئلة يا صاحب الباب العالي والمقام المنزه عن الخطأ والخطيئة والضغينة. عليك أن تكون صبورا معي للظّفر بالبقية. قلتُ لك إن الباخية ما تزال طويلة. عليّ أن ألملم كل شتات الوراقين والڨوالين لكي أصل إلى عمق الحقيقة الأولى. الإجابة القلقة ما تزال بعيدة بعد الأنجم السبع التي كان يعشقها. لم يكن يعلم أبدا ماذا كانت تعني له. يتذكر بشير إلمورّو فقط أن النجوم كانت دليله وسط الفراغ الذي يشكل الجملكية التي دخلها لا يعلم من أين؟ هل من الغفوة

المتوسطية أم من بوابات غرناطة المحترقة التي تركها وراءه تحت شعلة ألسنة النار التي كانت أدختها تصل السماء بالأرض قبل أن تتحول المدينة فجأة إلى رماد؟

الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة لبشير إلمورّو هو أن الشخص الذي أخرجه من الكهف كان يرتدي ألبسة الرعاة. حتى عندما وقف عاريا، بعد زمن طويل من ظهوره، ووُضِع السّطل الألماني على رأسه، لم يتذكر إلا هذه الأشياء وهذه الكوابيس والنجوم الهاربة التي لم تنطفئ في عينيه، ووجه ماريانه المشرق بنوره وحنينه الهارب.

لم يتكلّم. فقد ظل بشير إلمورّو مندهشا وسط هذا الذهول. عرف بحاسة شمه وخبرته، أن الأنجم ليست إلا وجوه الشهداء موزعة على زرقة السماء التي لم تفقد زرقتها ولا ألوانها الزاهية. شهداء كانت بينهم وبين الموت مسافات لا تحد، وعلى مقربة شبر واحد من الحياة، لكنهم لحظة الاندفاع، اختاروا الموت بدون أدنى تردد. كل هذه الأشواق ظلت تتزاحم بقوة في دماغه. لكن السؤال الكبير، سؤال مجيئه في هذا الزمن بالذات، هو ما كان يؤرقه ويشغل باله. بعض الأشياء عندما تتعقد تفقد أشكالها وألوانها قبل أن تخسر جوهرها نهائيا.

ماذا إذن لو بدأنا من اللحظة التي نفي فيها ابن رشد؟ قال أحد القوالين على أطراف المدينة. فبينهما شبه الدم والنجوم، سيتغير كل شيء حتما. أبناء الكلبة، خافوا منه مثلما يخافون من وباء الطّاعون. ابن رشد حرّك المواجع. قال افصلوا ستربحون الدين والدنيا، لكن المنصور أبا يوسف يعقوب كان دابة لا تسمع إلا صوتها والرجع الذي يتركه. ملأ أذنيه بالفراغ ورفض أن يصغي له. نفاه على أطراف قرطبة وأحرق كتبه وسائر كتب الفلسفة ومنع الاشتغال بالعلوم، ثم فسح المجال أمام الشعوذة، واستدعى كل زناة الحي ووضع القضاء بين أيديهم وسماهم سادة الشأن والمشورة، قبل أن يسمموه ويأكلوا رأسه. أنينك أيها الرجل الطيب، قال القوال الذي روى القصة، يصل القلب مفعما بالعطش والمسك القرطبي، وهم يحاولون رميك خارج أسوار المدينة التي

حكمتها بالعدل والنور. كرَّرتَ طويلا، أفصلوا ولا تجمعوا بين المختلفين: عالم الطبيعة، وعالم ما بعد الطبيعة، عالم الغيب وعالم الشهادة. الاستدلال لا يصحُّ إلا حيث تكون النقلة معقولة بنفسها، وذلك عند استواء الشاهد والغائب. افصلوا المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال. ضحكوا من خوفك من المبهم المعتم الذي ظل يلوح في الأفق، إن ظل الالتصاق قائما بين الدين والفلسفة. صرخ القوال بأعلى أنينه: آه يا فيلسوف الفردوس المفقود، سرقوا منك نورك وحنينك، فوضعتَ حلمك في صدرك حتى لا يدفعوك نحو التواطئ. قلتَ الدين، دين، والفلسفة، وفلسفة. قلتَها بأعلى صوتك قبل أن يرموك خارج حدود عشقك ويتركوك وحيدا تزحف وتحاول أن تقفز على الأسوار باتجاه مدينتك التي سُلبت منك، قرطبة. حاولتَ، لكنهم كانوا مصرين على الدم. ظلّوا يضحكون من سر وجومك، وبقيتَ أنت بجلال هيبتك. تمرغوا، كشروا، تغامزوا، ثم أغلقوا كل المخطوطات القديمة على الخاتمة المعتادة: ثبت أيها الوراق، يا مؤرخ المدينة: هذا الرجل درويش قوال، ارتأينا أنه لن يكون أحسن من غيره ممن مروا على المدينة التي بنيناها لتكون لنا وللذرية الصالحة من بعدنا. فليوضع خارج أسوارها درءا لشره ولتسلم المدينة وذووها الطيبون من عفن الخطيئة التي يريدون فرضها علينا.

يبدو أن الزَّلل بدأ من تلك اللحظة التي دامت طويلا قبل أن تستقر على الفجيعة التي لم تتوقف إلا في أواخر ليلة الليالي. يذهب بعض القوَّالين إلى أبعد من هذا كله، الفجيعة بدأت قبل ذلك بكثير، منذ الحاكم، الرابع أو الخليفة الثالث، التسميات هي التي تختلف، الذي ارتكب أولى الحماقات التي شلت عيون المنسيين، الذين لم يتعودوا إلا على حب المدينة وتمجيد ذاكرتها التي لا يمكن أن تخون أو تتنكر لحنينهم الذي ملأ الدنيا والشوارع طيبة وشوقا. لكنه هو، بشير، المورّو، الذي عبر المحيطات وأمواج المتوسط، الذي كاد يومها أن يفقد زرقته ويلبس حداد الظلمة والدم، لم يكن يعرف علاقته بكل هذا. ما

موقعه وسط هذا الهوس الذي بدأ صغيرا وانتهى في شكل قيامة؟

هي ذي الأسئلة التي داهمته وهو يقرأ الأبجديات القديمة، التي انمحت بفعل الزمن، على جدران الكهف المخرمة. كان عليه أن يعيد تركيب الوقائع بهدوء. هكذا قالَ لنفسه وهو يحاول فهم وضعه داخل الكهف الذي فتح عينيه داخله. في البداية أراد أن يحوقل ويبسمل لكن العربية استعصت على لسانه، حتى القشتالية التي كان يتقنها لم تسعفه أبدا. صرخ بأعلى صوته كالمسيح، وهو في أقصى درجات الجرح:

- **يا الله، هُزني من سهدي وغفوتي، يسّر لي أمري، وافتح لي جرحي ولا تشرح لي صدري فأنا أعرف ما فيه من ظلام؟ قل لي فقط ماذا عليَّ أن أفعل؟ تتركني وأنا أتشبّث بأستارك وأرديتك؟ تتخلى عني في القوس الأول من الشوق؟ يا حيف عليك. يا حيف على الدنيا التي جمعتني بسرِّك ويُسرِك. ألم أخدمك عندما تخلى عنك الآخرون؟ ألم أمجدك عندما سوت عروش الدم بين الأرض ومقامك العالي؟ لا تخيبني يا الله حتى لا أبكيك مثلما بكيت أعز مفقوداتي.**

قالها بلغة مبهمة تشبه الآرامية، أو ربما السيريانية؟ وبصوت قوي تردد داخل أرجاء الكهف، لكنه لم يسمع إلا صداه مبحوحا مثل صوته. ملأ صدره بالهواء المنبعث من ثقب الكهف الضيق. حاول أن يتلمس محيطه من جديد، لا شيء غير الظلمة والأتربة القديمة. رأسه يؤلمه، كان ثقيلا كالرصاص. لا شيء تغير، تمتم مخافة أن تسمعه الأرواح المتربصة والصمت المغلق: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هل يُعقل؟ هل تغيَّرت الدنيا بين يوم وليلة؟ هل هي عودة عام الرماد الذي غزا شوارع غرناطة وأكل أحلام حي البيازين وانتعل صدر الفوالين والفجر، ووضع المدينة في زاوية الحريم مع أنها كانت تملك المدافع الإيطالية، والمدفع الدمشقي الذي جرجروه من هناك للدفاع عن زهرة المَدائن الأندلسية؟ لكن هل لكل هذا أهمية في الغمرة التي أنا فيها؟

تململت دنيا قليلا في مكانها. حرَّكت ساقيها المصقولين وهي تجلس على ركبتيها. كانا مليئين بالشهوة المخزونة. بان لباسها الداخلي،

تبانها، ذو اللون الزهري الفاتح المليء بالثقوب الصغيرة التي كانت تشبه النجوم المبثوثة في كل مكان. بدا غميقا وممتلئا قليلا عند ملتقى الساقين. أجمل الكنوز ما يملأ الكف ويفيض عنه قليلا. شعر الحاكم بأمره بالنار تشتعل في بطنه الأسفل. فضغط بكل قواه على الكتّانة الحمراء التي كانت تملأ فمه حتى لا يصرخ. كانت دنيا تجد لذة كبيرة في إضرام حرائقه.

- هل يأذن لي مولاي بالمواصلة، أم أن النّوم بدأ يغالبك؟

- كيف يغالبني النوم وأنا أريد أن أنتهي من هذا الفزع لأتفرّغ لشأني؟ واصلي. . . واصلي أشم من الآن الحرائق المقبلة.

كانت دنيا تعرف أن شأنه الكبير سينتهي بقتلها كما تعوَّد أن يفعل مع نسائه. لم يتحمَّل قسوة صمته المغموم، فنزع فجأة خرقة القماش الحمراء التي كان يسد بها فمه حتى لا يصرخ عندما يخالفها في تفسير حكاية بشير إلمورّو، أو يعبر عن رغباته الجامحة. ظل راشقا عينيه في ملتقى ساقيها الأملسين، وفي صدرها الممتلئ، وفي زنديها العاريين وفي الغلالة التي كانت بالكاد تغطي لحمها وسرتها المحفورة بإتقان. لابدَّ أن يكون الله قد أمضى وقتا طويلا في نحت هذا الجسد الذي يشبه تمثالا، تمتم الحاكم بأمره في خاطره وهو يحاول أن يبدو هادئا أمامها.

- لا. ما زلتُ صاحيا. أريد فقط أن أعرف السر الذي جاء بهذا الكَبُّول[١٢] إلى هذه الأرض. و لماذا نزل في هذه التربة ولم ينزل في غيرها؟ ألم يجد مكانا آخر يمارس فيه هبله وجنونه الذي هز جزءا من عرشنا إلا آرابيا؟

- ولأنَّ الأمر يتعلّق بجملكية آرابيا، وجب أن تتحلّى بكثير من الصبر يا مولاي، وأن تضع مرة أخرى الكتّانة الحمراء في فمك، وتكز عليها بين أسنانك بأقصى قوة ممكنة، ولا تترك هواء الغواية يتسرب إلى بطنك، وتسمع الحكاية إلى نهايتها وإلا ستخسر كل شيء وتخسرني. أوكاي؟

---

(١٢) تعني في اللهجة العاصمية بالجزائر، اللقيط.

- أوكاي يا روحي... أوكاي... تعبتُ فقط لأني في لحظات غفوتي أشعر بأن شيئا ما بدأ يهرب منّا.

- لهذا وَجَبَ صَبْرُك وجَلَدُك، وحتى نباهتك، لأن ما يحدث اليوم في جملكية آرابيا ليس وليد لا القدرة الإلهية ولا الصُدفة.

عضّ بقوة على الكتّانة الحمراء حتى غزغزت أسنانه، لأنه شعر مرة أخرى أنها تجاوزت حاجز ما يسمه به الدين نفسه. فإذا لم يكن ما يصيبنا ليس من أقدار الله، فهو قدر من إذن؟ تمادى في الضّغط حتى شعر بالألم في أسنانه.

لنعد إلى البداية كما رواها الڤوالون وأكدها هو، بشير إلمورّو، فيما بعد حين دخل إلى الجملكية ليعيد ترتيب الأشياء التي فقدت نظامها الحقيقي. الذي حدث بعد ذلك، هو أنه جلس في الزاوية الضيقة داخل الكهف، ثم بدأ يتحسس محيطه بهدوء ليتأكد بعدها أنه ما يزال محكوما بالأرض. تتبّع البقعة الضوئية التي أنكسر نورها على إحدى الصخور القديمة التي بان تآكلها واضحا، وأن الأزمنة التي نحتتها انتهت. ظهر بشكل واضح الثقب الذي كانت تتسرب منه الأشعة من أعلى الكهف. كان النور ينزل باستقامة ماسحا في طريقه أشكالا كثيرة غير واضحة المعالم. تحسس لفائف الخيوط العنكبوتية التي ملأت رأسه. بذل جهدا مضاعفا ليتكئ على جدار الكهف. مساحة الضوء إزدادت اتساعا ومعها بدأت ملامح الكهف تتضح شيئا فشيئا. أصبح بإمكانه تحديد اتجاه الشمس والمسلك الذي كانت تقطعه. لون الأشعة بدأ يميل نحو حمرة خفيفة ممزوجة بألوان كثيرة، تداخلها الكثيف أضعف من حرارتها. أدرك بشير إلمورّو من خلال الأشكال التي ارتسمت على جدار الكهف، أن قرص الشمس يكون قد تجاوز نصف السماء. طريقته التي كان من خلالها يحدّد زمن انسحابه من الأسواق الغرناطية، وهي الفترة نفسها التي يبدأ فيها ڤوالو غرناطة البحث عن أحد المطاعم الضيّقة للانزواء فيه بقهقهاتهم التي تملأ المكان الذي لم يصبح له أيّ معنى بدونهم. يتغذون، يسكرون، يتضاحكون ثم يسلك كل واحد طريقه. من ينام

ينام، و من يذهب عند عشيقته الغجرية لا يتردد، يلقاها في الزاوية الخلفية حيث لا بشر ولا ناس. يحملها بين ذراعيه، وقبل أن ينزع ألبسته تكون قد افترشت جسده وتوغلت في كل حميمياته. قد يعودون بعد الظهر إلى نفس المكان لإتمام الحكايات القديمة التي بدأوها ولم يتمّوها، وقد لا يعودون أبدا بالرغم من وعودهم للناس الذين ألفوا عاداتهم الكثيرة. إذا حدث أن عادوا، لا ينسحبون إلا مع آخر الخيوط الشمسية التي يغتصبها المساء الشتوي قبل الأوان.

لاحظ بشير إلمورّو وهو في الكهف، أن بؤرة الضوء كانت تزداد اتساعا وأحجام الظلال المرتسمة تضيق شيئا فشيئا. تمتم. ثم تكلم بصوت صار يُسمع من بعيد: هل أنتَ هو بشير إلمورّو الذي تحدثت عنه كتب الأولين، أم مجرد حكاية جيء بها لاستعادة التوازن المفقود؟ قلْ. الحيْرةُ حُرْقَة. يا ابن أمي وأبي وحبّي ما أشقاك. ما أقساك. ما أحزنك وأنت تبحث عن مفقوداتك داخل فراغ تأصّل على الخوف ورعشة المجهول.

تأكد لبشير إلمورّو أن ما رآه في الكهف لم يكن كابوسا، كان الموجة العاتية التي هرب من سطوتها. الليالي داخل الكهف كانت قاسية. الجراح التي كانت تشقّ جسده أكدت له مرة أخرى أن الفداحة كانت أكبر مما تصورها. قالَ وهو يبحث عن إجابات مفقودة داخل ذاكرته التي نسيت كل شيء ما عدا أنين غرناطة البعيدة، التي صارت اليوم حلما من أجمل الأحلام التي يراها الإنسان مرة واحدة في العمر ولا تتكرر أبدا. تساءَل و هو يبحث عن مسالكه المبهمة داخل الكهف: لا يمكن أن يكون ما وقع لي مجرد إغفاءة حدثت معي عندما قادتني مياه المتوسط إلى أعماق هذا الكهف الهرم؟

كان ظهره يؤلمه. لسانه أصبح ثقيلا مثل الرصاص. اليبوسة ملأت تجاويف صدره. وكان من الصعب عليه التخلص من آلام الجفاف الرملي في حلقه. شعر بالاختناق مصحوبا بحالة يأس كبيرة عندما رأى ظلا مديدا يعبر جدران الكهف. لقد عرفه من حركته، ولكنه ليس هو،

أو لا يريده أن يكون هو. أغمض بشير المورّو عينيه لكي لا يرى شيئا. لكي يحس بنبض الأشياء الخفية ولا يبعثرها بحاسة اللمس القاسية. شعر بحاجة إلى يد ثقيلة تضعه في الزاوية الضيقة للكهف وتوقظه من انطفائه، وتصرخ في وجهه بقوة: قم من غفوتك أيُّها المهبول. قُمْ ولا تَلتفت وراءك. من علّمك أن تُصَدِّق أن ما حدث لك كان مجرد وَهْم؟ قُمْ وحاول أن تخرج من هذا السجن الذي وضعوك فيه. لقد رأيتَ كل شيء بعينك المتعبتين، بعيونك التي يأكلها الدود كما كان الغرناطيون يقسمون دائما. لقد لمستَ السرَّ بقلبك. عشتَه حتى الألم ولم تتردّد لحظة واحدة في قول الحق حتى عندما تراجع الآخرون عنه وتنكروا له. أنتَ تعرف جيدا الرجل الذي كان يحاذيك كعمود النور. لم يعد الآن مجرد شبح، ولكنه حقيقة. لقد امتلأ وجهه بالنور.

كانت الرعشات تأتيه مندفعة بشكل متواتر، تحمل في طريقها الحنين وما تبقى من الأشواق التي أكلتها النيران الملتهبة، أيْنك يا مولاي وحبيبي؟ همس بصوته حتى لا يزعج صمت المكان. سمع هسهسة عابرة للفجوات، تخرج من بين صخور الكهف. تتزاحم الأصوات دفعة واحدة. ينظر في كل الجهات لتحديد مكان الصوت عبثا: قل أين خبأتَ رأسك يا ابن أمي؟ أما كان ممكنا إلا أن تعود؟ الدنيا بعدك صارت رخيصة. ارفع صوتَك يا ابن رشد عاليا، إنهم يتهمونك بالزندقة والإلحاد؟ لا يعرفون آلامك وأنت تضع وجهك على عتبة الدار وتنظر وراءك مودعا مدينتك التي أحببتها حتى الانهيار. قالوا لك من يحبُّ مدينته عليه أن يعرف كيف يدافع عنها. تحسَّسَ الصوتَ أكثر. شمَّ رائحته. هذه المرة استطاع أن يحدد جهته. لم يعد في حاجة إلى الالتفات يمينا أو شمالا. قال وهو يحاول أن يتجاوب مع الصوت: المدينة سُرِقت مني يا سيدي الكبير، لم تَعُدْ لي لأنها نسيتني حين احْتَجْتُ لصوتها. لكن الصوت عاوده مرة أخرى: كان عليك يا أبا الوليد القرطبي أن تواصل إصرارك على الفصل، وتسحب من تحتهم السجّاد الذي وسخوه بكذبهم وبهتانهم. لقد سرق الوراقون حقَّكَ وحق أستاذك

أبي بكر الصائغ ابن باجة، وصديق الهم والأنين ابن طفيل. أين الفردوس المفقود الذي أكلته الرياح الصحراوية المليئة بالخوف؟ هو ذا يا ابن رشد يأتيك متأخرا، يسألك عن دمه الذي ساح في القفر والخلاء، كان عليك حمايته يا ابن أمي. مِثْلُك تماما، كان يظنّ أن أوامر الحاكم الرابع أعجز من أن تلغي الحقيقة، كان كالنور مشعًّا. يحاول جاهدا أن يجد وجها جديدا للعنة لا يُرهِبها سيف قطاعي الرؤوس، ويختصر العمر كله في قبلة توضع على جبين أول مولود ينحدر من سلالة جديدة تقع خارج المملكة، بعيدا عن إرادة الحاكم الرابع. كان مفعما حتى الموت بوضع الزمن المستعاد خارج الذاكرة المتعبة، ماذا بقِيَ يا ابن أمي؟ الرمل ينساب جافا بين الأصابع المفتوحة على الغرائب والخوف المزمن.

يروي ڤوالو أسواق المدينة المتعبة، أنه بعد الدهشة الأولى مدَّ بشير إلمورّو يده من جديد إلى الحائط المتآكل. شعر بالتربة المتهالكة تملأ كفه. أشياء كثيرة تغيَّرتْ منذ ذلك الزمن البعيد الذي قاده فيه البحر إلى هذا المكان، لكن عن أي بحر كان يتحدث بالضبط؟ هل هو الشاطئ المتوسِّطي الذي حدَّثه عنه الأجانب الأربعة فيما بعد، أم البحر المنسي الذي انكسر بقوة في تلك الليلة على شواطئ المارية. عاوده نشيد المارية صافيا كدمعة يتيمة أو عاشقة ثكلى ولهانة برجل غيبته الأنواء والحروب؟

المارية، يا المارية[١٣]،

يا عشقي المسكون برعشة الكلام وخيبات الآفلين،

انتظرتُ على حوافِّك حبيبي،

الليل أتى ألف مرة، وحبيبي لم يأتِ[١٤].

شعر أكثر بظلمة الكهف وخفايا الجرح الذي زادت شقوقه. الأملاح تملأ المدينة والطعم، طعم الدم. كلما تقدَّم في خطواته داخل الكهف، اتسعت الصحراء في قلبه، ملتهمة في خلوة زحفها آخر مساحات الفرح

---

(١٣) Almeria (مدينة إسبانية ساحلية، رُحِّل الموريسكيون عن طريق مينائها.)

(١٤) أغنية غجرية إسبانية قديمة.

الخضراء. بسرعة تموت الفراشات التي أفقدتها الشمس الحارقة ألوانها القزحية. تساءل بجزع أمام مشاهد اليَباس: ماذا يحدث وسط هذه الأدغال الترابية التي تزداد جفافا ويبوسا؟ اللحظة تسحب وراءها اللحظة. الغيمة تستل من الغيمة كالخيط الحريري. الذرة تأكل الذرة. والكثبان الرملية تتهالك بسرعة، وبسرعة عجيبة تتضخم لتبلَّ الجرح بمائها. امتداد الصحراء يزداد، ومدينتك تتضاءل بين يديك المعروقتين. أيها المورّو الطيب، لقد انغمستَ في أعماق التيه. الشمس تغزو شقوق الكهف، لكن الصحراء تأتيك برمالها وعواصفِها وصرخات الذين هزمتهم في حروب لم تكن عادلة. وأنتَ، من أين غَزتك هذه الرِّمال وأنت تبحث عن مخرج في الكهف؟ أو وأنت تبحث عن قطرة ندى تبلل بها ريقك وحلقك الجاف.

كان بشير إلمورّو، كلما تقدم قليلا وسط الظلمة، شمَّ رائحة الرماد والحرائق المهولة التي كانت تأكل الأخضر و اليابس. عندما التفت صوب الظل أو الشبح إذ لم يعد يفرق بين هذا وذاك، رآه بكل ملامحه لأول مرة. كانت رقبته محاطة بحبل خشن من الخيش. وعلى فمه وُضِعت الكمامات التي تسد الصرخة وتقتل العنفوان. كان في عمق المدينة، ورأى الطرقات المليئة بالناس الذين أصروا على توديعه بعيونهم التي انحدرت منها نداءات مكتومة. التفت صوب كل الجهات لعلَّه يرى طيرا يبلّغه آلامه ولكنه لم يرَ شيئا. ثم فجأة أطلق عواء قويا يصمُّ الآذان: يا الله لماذا تخلَّيت عنا. أهذا مآل أصدق أهل زمانه؟ أهكذا ينتهي الأنبياء الذين عاشروا أصحاب الرسالات والمبعوثين؟ بينما كانت الأصوات التي اشتُرِيَ منها الصراخ والاحتجاج تسخر من عوائه بضحكات مكتومة ومدسوسة: هذا المجنون الكافر لن يُقنع حتّى غِرًّا. الكذاب ابن الكذاب، يريد أن يقود الرعية إلى الزندقة والهلاك. إنه من قبيلة تُحِلّ الشهر الحرام وتنهب أملاك الحجَّاج. الشحّ فيه، يستأهل كل ما يحدث له. في ستين داهية، الله لا يرده.

كان الأمر مخيفا، لكنه لم يكن مفاجئا لبشير إلمورّو. أجداده

توارثوا رجفة الموت الأخيرة بين الصخور الحارقة، على أن يبيعوا الأشواق للذين أخفقوا في معرفة السرّ الذي يكمن وراء الخديعة. لكن الذي استعصى عليه فهمه هو من أين جاءته تلك الآلام التي ذبحت أبا ذر الغفاري؟ قال في خاطره و هو يتحسَّس المسلك الموصل إلى الشبح أو الظلّ، لا يهم: ما أبْهاك في دمك أيها الرجل الطيب. ألف ليلة وليلة من الخلاء والقفر ولم تستسلم حتى وأنت تواجه الموت وحيدا بقلب متعب وسماء تخلَّت عنك. هل هي الحقيقة أم خيطها الأول فقط؟ الخيط الأول. تساءل بشير إلموزّو. كيف يقبض على رأس الخيط الأول للحقيقة الضائعة.

أغمض عينيه قليلا كي لا يهرب منه أي شيء. ثم فجأة تذكَّر بعض التفاصيل التي قادته إلى هذا المكان. الذاكرة كانت تنفتح كزهرة برية لوحدها، من حين لآخر. بدءا من اللحظة التي قادته فيها الجماعة الملثمة إلى هذا الكهف المعزول داخل هذه البرية المقفرة. كانوا ستة، وعندما انضم إليهم الحارس أصبحوا سبعة. تذكَّر أنهم لم يسألوه عن خياراته. فقد جاءوا به إلى هذا الكهف وخبأوه. إذن، لا يمكن أن تكون الأمطار المتوسطية أو ضربة الشمس هي التي قادته إلى هذا المكان اليباب. كانوا ملثَّمين ولم يعرفهم. لم يَرَ إلا عيونهم المتعبة من كثرة السهر والتخطيط، هكذا خمن على الأقل في البداية. ثم قالوا له نَمْ قليلا فأنتَ جدّ متعب، وحينما تستيقظ، انزع الصخرة الكبيرة من الممر وستَجِد من يقودك إلى المدينة ويفتح أمامك أبواب المستحيل. الملثمون هم إذن من أخرجه من حفرة تركية، يسميها البحارة الانكشاريون سجنا، تقع مباشرة تحت أعماق بحر لا يعرف الهدوء. هذا الإحساس تكوَّن لديه وهو يشعر في كل ليلة أن البحر سيغادر حفرته ويأتي لينام داخل دماغه. وبعدها نام نوما لا يدري بالضبط إن طال أم قصر، لكن المؤكد أنه في إغفاءته جاور حيطان الجحيم. كان رعب كابوس ليلة الليالي قد بدأ عندما اكتشف وجه أبو ذر الغفاري و هو يموت أمام عينيه ظلما وعطشا. رآه كيف اقتحمته الغيمة المبلولة بعمق، وبعدها اتضح وجه أمه مليئا بالخدوش، هي. لم

يشكّ لحظة واحدة في يقينه وصفاء ذهنه. وجه رملة بنت الرفيعة الغفارية التي بدأت تذوب وتذوب حتى اندمجت مع أنين ابنها الذي كان يموت. تعرف علامات النهاية من وجه زوجها أبو جنادة بن قيس الذي مات بين ذراعيها. إنه عام التّلف والصّلف والجلف. كل شيء جف في تلك السنة، وسيتكرّر ذلك مدة سبع سنين بدون انقطاع. ظلّت الأرض تبحث عن ألقها القديم ومطرها المسروق. تشقّقتْ الوجوه والتربة. جفّتِ الأمطار والعروق. المياه لم يعد يراها الناس إلا في الأحلام وهي تختلط بالعرق الأسود الذي كان يملأ الجبين والصدر وظاهر الساعد. انسحبت الخضرة باتجاه سواد لم يره أحد من قبل، وغادرت العيون محاجرها استسلمت البهائم لشرّ الأرض. كان أبو ذر يعرف أنه سيموت وحيدا مثلما جاء إلى هذه الدنيا. حين ناداه منادي الموت، حمل أبو ذر الغفاري زاده وزوادته، ورحل. كان ابن أبي جنادة يقتفي خطاه خطوة خطوة قبل أن تدخل قلبه الزوارق الملونة بألف لون سحري و هو يردد على مسمعه: ستعيش وحيدا وتموت وحيدا، وسترميك الريح للريح والرملة للرملة والعين للعين، والخوف للخوف، والحنين للحنين، وعندما تنكفئ على فمك الجاف، تتجرد النخلة من خضرتها وتتنابها نفس الصفرة التي تدخل الآن عينيك النوريتين. ستتعذب كثيرا يا ابن أمي، قبل أن تتذكر أن المدينة خانت الأملاح التي كانت تجمعك بها منذ العصر الأول للموت والحياة. اتركهم يرحلون. أنت، ابقَ. إنهم يريدون موتَك. فرد عليه وهو يبتسم: لا يمكنهم أن يقتلوا صحابيا جليلا. ضحك ابن أبي جنادة منه: ما أطيبك. أنت لا تعرف جنون السلطان. لم يتحرَّجوا في قتل خلفاء الرسول يا ابن أمي، ولم يخافوا من قتل الحسين وتشريد آل البيت، فلن يحاروا في دمك. لا ترحل... لكنك رحلتَ بعد أن ملأتَ عينيك برماد النجوم ومهالك المدينة المسروقة.

تقول دنيا لسيِّدها وولي نعمتها، الحاكم بأمره وسيِّدُ شأنه، الذي لا يأكل الدّود من عينيه ولا من جسده، داخل رغْشَة الغيمة المشوهة امتد سيل من العذاب، لا أحد يتذكر تاريخ بدايته أو منتهاه. تاريخ فقد

الأسماء والألقاب والأرقام، تاريخ غير منسي أبدا. صَرَخَ بشير إلمورّو وهو يلبس آلام أبو ذر في أدقّ تفاصيلها، بأعلى صوته حتى انفجر دماغه، متذكّرا جرحَ سيدنا المسيح: يا الله لماذا تخلّيتَ عنّا؟ حين واجهتُ الحاكم الرابع، بما تبقّى من حنيني، وجبروته، قال:

- هذا هو الدرويش الكذّاب الذي شغل المدن والأمصار؟

رد عليه أبو ذر بامتلاء وكبرياء:

- لديَّ أبٌ يا سيدي، ركعت له النخلات الصحراوية الوحيدة، وانحنت عند رجليه المنهكتين الصّخور القاسية. أبو جُنادة بن قيس، فلا تذمّني بأصلي. لي ما أقوله عنك ولكني لن أقوله.

- دِيرْ عَشْرة واقْرُصْ[١٥]. قلْ واشْ تْحَبْ. لن يغير ذلك من مصيرك المحتوم ذرة واحدة. لقد أجرمتَ في حقّ الدين والدّولة.

قال الحاكم الرابع، والزبد يتطاير من فمه، في أقصى درجات رعشة الانفعال والهزيمة التي حركت كل أطرافه بما في ذلك بطنه الذي اهتزّ بثقل.

- تْفُو عليك وعليها وعلى أصلها وفصلها... قبيلة حلالها حرام، وحرامها حلال، باعت الله والخليفة والبلاد والعباد لأعداء الأمة.

وحين شعرت بأمعائي تتمزق بسرعة مخيفة، يقول بشير إلمورّو وهو في عمق جحيمه، صرخْتُ بأَعْلى صوتي: لا؟ لا؟ فجأة وجدت نفسي داخل سلطان الحاكم الرابع، بشكل لا أدري كيف؟ اسْتَفْتوني في فقري، وطمعوا في فقر الآخرين وحاجتهم المزرية. عَوَيْتُ من كل قلبي: لا يا سيدي، لا يجوز، إنه ملك العامة ولا يجب الاستفتاء فيه، حتى التفكير في ذلك حرام.

كنت أحاور الرجل المتبلد، الذي خرج من تحت عرق الحاكم الرابع فجأة. لم يعرني أي انتباه على الإطْلاق، لكنه ألتَفت باتجاه أبي إسحاق ليسأله:

---

(١٥) مثل شعبي، بمعنى أتحدّاك.

- هل يجوز الاقتراض من بيت مال المُسلمين؟

- إذا كان سيِّدي يرى في ذلك حلالا، فهو عين الصواب، لا بأس.

لم يعد الصمت ممكنا، قَفَزْتُ من مكاني. أعصابي فقدت اتزانها.

- لا يا أبا إسحاق، لا. أتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية؟

- لا تُكبِّر الأشياء، فهل بعد الخليفة من دِين؟

امتلأت العيون بالقطران. الفم جفَّ. الصَّهد صعد حتى القلب ليحرق الذاكرة. كل شيء كان في حالة اندثار متواتر. لأوَّل مرة أتأكد من أن للذاكرة رائحة ليست ككل الروائح. قال الحاكم الذي خرج من عَرَقِ الحاكم الرابع.

- كَثُر أذاك يا شيخ اللعنة. فَلَسْتَ فَوْق العامَّة.

- لستَ أكثر من ذرَّة خير في وجدان عالم يَنهار.

ثم أمر عسكره الذين دفعوا بي إلى فراغات البيت الواسع. سقَطْتُ على وجهي. شعرتُ بالدم يملأ فمي، وبأطرافي تتكسر مثل الأخشاب الجافّة، قبل أن أُدفن في حفرة محاذية لقصر الحاكم. تمتمت وأنا عند البوابة الواسعة.

- مَوْلاَي. . . الحقُّ ثقيل مُرٌّ، والباطلُ حُلوٌ خَفيف.

وقبل أن أنهي الجملة الأخيرة، كان فمي قد مليء بالقطن والصوف وأحجار الوديان التي جفَّت قبل موسم الجفاف. في الحفرة لم يزرني أي شخص سوى تلك الوجوه التي تكرَّر عبثا مجيئها لأنها مُنِعت من مقابلتي. قالوا لي تخلَّ عن ذاكرتك ولك الأمان. أصْمُتْ وانْجُ بجلدك. لك الدنيا وما فيها، والسماء وما تخبِّئ بين ألوانها، والأرض وأثقالها. لك من الحور ما ملكت إيمانك مثل عظماء الأنبياء. وغدٌ من الخليفة نفسه.

تقول دنيا التي أدركها الصباح، ولم تتوقف عن الحَكْيِ، قال أبو ذر وهو يمسح الدّم الذي ملأ شفتيه المتورمتين:

- لَوْ جمعتهم البحار كلها، وسيَّرتهم النُّجوم، ووضعتُهم ثقل

الأرض على هامتي وسرقتهم النور من عيني، لن أتخلّى عن ذاكرتي وحنيني إلى الوجوه التي لا ينتهي ألقُها وعنفوانها وبياضها.

في المرة الأخيرة، خرجوا صامتين، وحين عادوا كانت وجوههم مليئة بالظلام والعتمة. قالوا اتْبَعْنا. لمْ أسأل إلى أين؟ فقد كان بإمكاني أن أتخيَّل البقية. حين أُجبرت على الوقوف في باحة القصر، رأيت الخاصة والعامة والحاشية وهم يركضون بالدمقس والحرير والجوخ. رأيت الجواري والعبدان، يغدون ويروحون في سرعة متوالية مذهلة، في أيديهم الأواني الذهبية والنَّمارق والصّحون والجَفْنات الفضّية المرصّعة بالجوهر والذّهب المعشق بالزجاج. بدا بكل وضوح بذخ القُصُور والقُدور من خلال الخدم، وهم يرصفون على الخوان أنواع الطعام الدسم، والصحاف المنقاة من لحم شهي وحلوى لذيذة. وحين مُدَّ السماط، ناداني معاوية بن أبي سفيان، الذي يُجمع المؤرخون أنه خرج من عَرقِ الحاكم الرابع، وهو يبحث عن ابتسامة باردة جافّة مثل ذلك اليوم الذي لا ينسى بسهولة. أشار إليّ بسُخرية:

- تفضَّل شاركنا يا صاحبي. لقد أنجزنا المأدبة على شرفك يا ابن رملة بنتَ الرُّفيعة.

- أمدَّك الله بنعيم الصحة والعافية، مازلتُ يا مولاي على عهدي القديم. كأس من الحليب، وصاعٌ من التَّمر.

- ألا يمكن أن تتعلم أن الخير والمال هبة من الله.

- الخير للجميع يا سيدي، وليس للخاصَّة فقط.

- أنت تكفُر بنعمته تعالى يا ابن بنت الرفيعة؟

- أكْفر بمن يشعل النار في مالٍ غير ماله. سنُحاسَبُ على كل لقمة ليست لنا.

- الحمد لله الذِي لا يُحمَد على نَعيم سِواه.

- على مكروهٍ سواه يا سيِّدي.

- بِحَسبِ زاوية النَّظر.

حين انكفأ معاوية على وجهه، وانغمس في الأكل بدون تنفُّس، كان

الجحيم قد بدأ يخطّ ملامحه المأساوية على الأيام التي ستُستعاد ذات زمن لا محالة، بكل تفاصيلها. الناس الذين استُورِدوا من أسواق النخاسة يُصَفِّقون ويهتفون بحياة مولاهم الذي لن يمسسه جحيم الذين اخترقوا عزلة الله وسره، كانُوا هنا ينتظرون الإشارة فقط. الورَّاقون كانوا يتهيأون أيْضا لنجر الأقلام القصبية وكتابة التاريخ المرْوي داخل العادات الهمجية، ويبحثون عن الدواة ليَخرقوا مدادهم وصوفَهم. الظلام الذي كان يأكل المدينة، لم يعد مجرد وَهْمٍ، فقد بدأ يخطُّ الذَّاكرة بندوبه وأشواكه. الألوان سُرِقت قبل أن تنشأ.

عندما التفتُّ ورائي، يؤكّد بشير المورُّو، رأيتُ شيخا مجلَّلا بالبياض. عرفته من رائحه حبره الحادة ورعشة عينيه. لم أكتم حزني وغيضي. تأوَّهت: حتَّى أنتَ يا شيخي؟ ماذا فعلتَ أيها الطبري بقلمك؟ لماذا جردته من كل حنين وشوق وسخَّرته لمن كان يملك القرار؟ كيف قَبلتَ أن تكون ورَّاقا كغيرك، تنجر الأقلام وتدعو الرعيَّة إلى أن تَنْتَبِهَ إلى هذه الظاهرة المحمودة التي لا تتكرر إلاَّ مرة واحدة في كل سبعة قرون. كنتَ تظن يا أيها الطبَّري أن الزمن الذي يكذِّب دعواك لن يأتي أبدا، وأن الذين يقرأون بعيون مفتوحة التي لا ينطفئ نورها، لن يوجدوا أبدا. ها قد عدنا إليك يا شيخي، نسأل مجلداتك التي كُتِبتْ بماء الذهب وجُلِّدتْ بالقَطيفة والمخمل الملوّن بألف لون ولون، ماذا فعلتَ بالحرف الوهَّاج؟ إنَّه يقف عاريًا خجولا بعد أن أُسْقِطتْ عنه الألوان سرّ ما خبأته وراءها. هي الحقيقة يا صاحبي التي تأكل كلَّ شيء ولا تُؤكل. نجرتَ قلمك القصبي تماما كما كان يفعل معظم كتَّابِ الدّواوين والورَّاقين الأدعياء. كتبتَ وأنت تضع كيس النقود الذهبية في جيبك: «**كان مُعاوية واسع البلعوم، يأكل في اليوم سبع مرات. والمعدَّة الكبيرة نِعمة من الله، يرغب فيها كل الملوك.**» يا لقلمك النَّبيه أيها الطبري؟ ما الذي شوَّقك إلى هذا التخريف؟ ألم يكن ممكنا أن تكون قوَّالا مثلما كان أخْيار السّابقين؟ الصدق في القلب واللسان والرأس، وعمر الرجال، يا شيخي، على حدّ السيف لغة اليقين.

جاءتْه قسمات معاوية واضحة على الرغم من ارتباك في الرؤية. في لحظة الانخطاف السريعة، قد رآه بشير إلموزّو بعينيْ سيِّده أبي ذر الغِفاري. حين امتلأ بطن معاوية، طلب من أحد الورَّاقين، لم أستَطع ضبط وجهه، أن يشمِّر على ذراعيه ويحكَّ له بطنه الذي بدأ يعذبه انتفاخه. لم يتأخَّر الورَّاق لحظة واحدة، ثم لوى بعدها معاوية عنقه باتجاهي:

- هاااه يا أبا ذر، هل تسمعني؟ تُؤذيني حالتك المزرية. الأغنياء يشكونك لأنك تحرض الفقراء عليهم؟ ما قولك في هذه التهمة؟

- أنتَ تعرفني يا سيدي، لست من هؤلاء. لم أفعل ما يؤذي أحدا، أَنهَاهُم فقط عن تكديس الأموال وأذى الفقراء الذين لا سلطان لهم إلاَّ الله وناس الخير.

- الله هو الآمر النَّاهي، أتنكر علينا نعمته تعالى؟

- أسترشد بالآية التي تقول يا سيدي: « [و] الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون في سبيل الله، فبشِّرهم بعذاب أليم. »

- صوِّبْ كلامك، واتَّقِ ربَّك. الآية نزلت في الأحبار وأغنياء أهل الكتاب من الرّهبان، ولا يشمل حكمها المسلمين.

- لا؟ نزلت فيهم وفينا أيضا يا مولاي.

خبَّأ معاوية رأسه من وراء الوراقين بحثا عن كلمات النجدة، لكن الكلَّ كانوا صامتين ينتظرون الأمر الجديد. أيْن كان قلمك يا أيها الطَّبري الهمام أمام هذا المشهد؟ اتكأ بعدها بظهره على سند الحاكم الرابع، الذي مد له حبلا من الزيف لينجده من هذا الفراغ الذي شعر بثقله فجأة.

- أنت تشوه الآيات يا ابن بنت الرفيعة. حرف الواو [و] غير وارد في هذه الآية بالذات. صحِّح نفسك واستغفر رَبَّك، قبل أن آمر بقطع رأسك.

واتَّفق الورَّاقون، والبرّاقون، والسرّاقون، والصفّاقون، والعرّاقون، والشنّاقون، والبزّاقون، والنقّاقون، والبجّاقون، والمرّاقون، والنسّاقون، الحزّاقون، والمحّاقون، والغدّاقون، والدقّاقون والبهّاقون، والحرّاقون،

والنشّاقون، والنقّاقون، النزّاقون، يسندهم الحاكم الرابع من بعيد بظلاله الوارفة، ومسحة يده الكريمة التي لا تطالها النار الحارقة. وتآمر الجميع على حذف حرف الواو [و]، حرف الفقراء، من الآية، فتقطع الصلة بينها وبين السابق، أي القسم الأول من الآية. وشُكّلت لجنة من الوراقين الكبار الذين تخر الأمة لكلامهم المرصّع بالبلاغة كما يقولون. ولم يُدعَ للّجنة كبار القوالين المعروفين كابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب وغيرهم. واقتصرت العملية على كبار أثرياء المدينة كزيد بن ثابت، الذي بلغت ثروته بعد وفاته مائة ألف دينار، وسبائك ذهبية وفضية ما يكسر شفرات الفؤوس الحادة، وعبد الله بن الزبير الذي ترك له والده خمسين ألف ألف وسبعمائة ألف عدا ونقدا، وسعد بن العاص بن أمية، وعبد الرحمن ابن الحارث، واتفق الجميع على حرق حرف الواو [و] من الآية، أو حذفها، فهي دخيلة. ونُفي حرف الشطط والشّكوك، من دائرة الأبجدية العربية وعُوّض بأداة ربط فارسية أو هندية أو حتى رومية. فجأة، أصبح حرف الواو يزن الذهب وأحلام الأقوام، والشّغل الشّاغل للأمة. اتفق جميع وراقي الحاكم الرّابع على وضعه خارج حدود المدينة. صرختُ لكن الصوت كان مبحوحا. ندبتُ لكن النداء كان ميتًا. الكمامة والقطن وصوف الماعز الحائل وأقلام الورّاقين كلها هاجمتني دفعة واحدة: الواو [و] يا ناس، ملك لنا، وليست لهم. وراءها شقاؤكم، فأعيدوا لله ما لله. سرقتموها من فمه.

أقيمت الدنيا ولم يستطع أحد إقْعادها. جرى الجميع باتجاهات مختلفة. تناطحت رؤوسهم ولم يتفطنوا. كل واحد يصرخ: الواو... الواو... الواو... أَعِيدوها إلى ذويها... انزعوها... أنزعوها... في وجودها مأساة لنا. وكلّ طيْر يلغى بلغاه. أنا نفسي كنت أركض من أجل الواو التي أرادوا نفيها. لم تقعد الدنيا إلا بعد أن استُنفِر أُبَيّ بن كعب، فاستقام المعنى الذي اندفعنا من ورائه. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ [وَ] الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[١٦].]

- هكذا استقام المعني يا سيدي.

- أنت تهذي يا ابن رملة بنت الرفيعة.

- لا يا سيدي، حين سقطت الواو سقطنا معها.

- ماذا تقول أيها الكافر؟ لكم الواو إذن، ولنا المال. كل ما في الدنيا هو من مال الله، فلماذا تلوموننا عن شيء مُسخَّر في الأصل لنا؟

- مال المسلمين سرق عندما حُوِّل إلى مال الله.

- يرحمك يا هذا؟ ألسنا عباد الله والمال ماله؟

- لا تقل هذا يا سيدي. إن أموال الفيء هي من حقوق الفقراء وليس لك أن تخزنها أو تأخذ منها ما تشاء، أو حتى أن تستعير منها.

- وإذا قلت لك إن الخليفة قال بهذا؟

- بهذا أغنيتم الغني وأفقرتم الفقير.

- بدأت تفقد صوابك يا ابن الغفارية، هذه أفكار ابن سبأ بن اليمنية السوداء.

- ظلم يا مولاي، لا أساس له.

كان الحاكم بأمره يتململ في مكانه ويحاول جاهدا أن لا ينام قبل سماع نهاية القصة. لكن دنيا التي أقسمت أن تبوح بكل الأسرار التي خبأتها شهرزاد عن شهريار خوفا من بطشه. قامت من مكانها لتأدية الدور بكامله حتى يكون كلامها أكثر إقناعا. فبدت بآهاتها وتنهداتها وحركاتها المتتالية، كأنها إحدى أحلى ممثلات هوليوود، تؤدي كل أدوار الإغواء الأكثر جرأة.

- واااااو... ما أحلى مولاي وهو مأخوذ بي؟

- كان يمكن أن يكون الجوّ أسعد في غياب هذا المعتوه. لا أعرف إذا كان عليَّ أن أحب بشير الموزّو أم أكرهه؟ يثير الشفقة بهذه الازدواجية

---

(١٦) التوبة، آية ٣٤.

الغريبة، تارة يشوف روحه ابن رشد، يا حبيبي؟ وتارة أخرى يشوف حاله أبو ذر الغفاري؟ لابد أن يكون مجنونا. الأجمل من هذا كله، جاي من الأندلس؟ بينما تحرياتنا تقول إنه ابن قرية أندلسيا في آرابيا وليس في شبه جزيرة أيبيريا.

- حبيبي وملاذي؟ هذه ليست إلاّ البدايات، ولا أريد أن أغرقك في التفاصيل الزائدة. هل أواصل أم أصمت الآن؟ صبرا جميلا يا روحي، لم تسمع شيئا مما حدث لبشير إلمورّو الذي سيُتعبك لأنّك أخفقت في قتله منذ اللحظة الأولى... يااااي يا عمري كم أشتهي أن أرمي كل شيء وأرتمي بجنون في حضنك، ولكن...

- تقتلينني بهذه اللغة وهذا الدلال... أنا مندهش لصبرك في الحكاية، ولجرأة هذا المعتوه المُسمّى بأبي ذر أمام خليفة الله. كان يجب أن يُنزع لسانه.

- أبو ذر صحابي يا مولاي، خفِّفْ من شتائمك.

- لو كنت مكان الخليفة لما انتظرت لحظة واحدة، ولعرّيته أمام الجميع قبل أن أطيّر رأسه وأدفع بجثته للأسود التي لن تحصل على لحم أطرى من لحمه. واصلي يا عمري... واصلي. هذه تفاصيل تحتاج إلى وقت آخر.

- عذرا يا مولاي، كُنتَ في مكانه، ولم تفعل أكثر مما فعله.

- لم أكن خليفة يوما ما؟

- ولكنّك سيّد الدنيا، الحاكم بأمره. ألم يكن بشير تحت رحمتك؟ لماذا تركتَه حيًا حتى أصبح قتله مستحيلا؟

- هذه مسألة استشرت فيها أحبابي الشماليين، وقد رأوا غير ما ترين. لو كان الأمر عليّ كنتُ فَرَمتهُ... واصلي عمري...

ثم اندفن في فراشه الوثير وهو يعضُّ من جديد على قطعة الكتّان الحمراء التي ابتلّتْ بريقه كليّاً. كانت نيران الخيبة تشتعل في أعماقه بقوة كبيرة، ولم يكن بإمكانه أن يصرفها إلا بالعضّ على قطعة القماش التي

تمتص كل شيء بداخله. أمّه هي صاحبة الفكرة. كان في طفولته، عندما يريد شيئا إما يأخذه أو يصرخ ببكاء يشبه العواء. كانت تضعه في زاوية في البيت، وتعطيه قطعة قماش حمراء حتى يراها جيدا، يعضها ثم ينام عليها. بنت الكلب، تمتم الحاكم بأمره، كانت على حق. كان يجب محوه نهائيا وحرق سفينته في البحر بدل السّماح لها بالرسوّ أو إدخاله في مستشفى المجانين. لا أدري إلى اليوم كيف بقيَ حيا؟ خشَاها لي ولد الحرام.

- هل مولاي معي؟

- معك في رحلة جهنم.

الذي حدث هو أن بشير، إلمورّو، شعر وكأن كابوس معاوية أصبح حقيقة. وكأن أبو ذر الغفاري لم يكن مجرد رؤيا ملتبسة. لقد كان ملتصقا بلحمه ودمه. تساءل من عمق الكابوس ذاته عما كان يسكنه؟ هل هي مجرد رؤيا هاربة أم جرح امتد من زمن الرسالة والصّحابة حتى مسّه؟ تمتم منكسرا: هو ذا سؤالي القاسي الذي لا أملك حياله الشيء الكثير. قضّيت العمر بكامله أبحث له عن إجابات مقنعة، فلم تواجهني إلا الغيوم الثقيلة والمسالك المظلمة. عبثا حاولتُ أن أحدّد وضعي. كل ما أعلمه هو أني جئت من بلاد بعيدة كان لها شأنها ونشيدها الجميل، ولكنه سُرق منها قبل الأوان، حتى قبل أن تستمتع به. كانوا كثيرين، وكانت وحيدة طوال الأزمنة المتعاقبة. لكن أنا؟ كيف وصلتُ إلى هذا المكان؟ القصّة معقدة جدا وأحتاج إلى صفاء ذهني لاستعادة ذاكرتي بكاملها. شيء ما سُرِقَ مني إلى الأبد لا أدري ما هو، ولكني أحسُّه.

حاول في ظل خيبته وقسوة اللحظة التي مَحت كل نور من مخه أن يعيد تركيب التفاصيل التي أحاطت به حتى كادت أن تخنقه. نظر إلى محيطه، ثم أغمض عينيه المنهكتين. بدت له الغيمة التي غلّفته وأمّنته تزداد كثافة: طيب، ثانية واحدة لأتمكن من الرؤية بصفاء. لنبدأ من تلك اللحظة التي توقفتُ عندها. سحبني الملثمون إلى هذا المكان وكانوا يعرفون ماذا يفعلون. في البداية كانوا ستة، عندما دخلوا إلى الزنزانة التي

تقع تحت البحر. همسوا في أذن العسّاس ببعض الكلمات المبهمة، فلبس لباسهم الأسود حتى صار مثلهم، ثم أخرجوني. كان الموج ما يزال يملأ دماغي. تذكرت الآن لماذا كنتُ في تلك الحفرة التي تقع تحت الأطنان من التربة ومياه البحر. قيل لي فيما بعد، إن الذين حبسوني في ذلك الخوف كانوا من البحرية التركية، انكشارية بلا رحمة، بعدما قدمني إليهم رجل ادعى بأني أشكل خطرا على النظام المستتبّ. كان هو بدوره قد عثر عليَّ مع مجموعة من الأطفال وهم يتسلون بجثتي ويتهَّيئون لرميي من أعلى قمة جبلية والتسابق معي في الفضاء، لأنهم كانوا يظنونني ميتا. وقيل لي أيضا، إن القرصان الإيطالي هو الذي سلَّمني إليهم مع وثيقة محاكم التفتيش التي سُلِّمتْ لي بعد أن اشتراها أخي من صاحبه اليهودي ساموِيل، في ساحل ألميريا، قبل أن يسلمها لصاحب الفلوكا الذي قدمها بدوره إلى القرصان الإيطالي... هذا ما أتذكَّره على الأقل؟ لقد غَرق كلّ بقيني الذي كنتُ أحمله تجاه الحياة، داخل مبهم الشكِّ.

النُّور يتسرَّب من بين شقوق الكهف بكثافة أكثر. ولكنه نور كلما، دقَّق بشير إلموُرُو فيه، شعر بألم حاد في عينيه ورأسه. استعاد صورة الملثمين السبعة، الأتراك، البحر الذي كان يشعر به يتماوج فوق رأسه، صورة الإسبان والأوروبيين؟ شعر بمخه مشلولا، تملأ زواياه أصداء محاكم التفتيش المقدس. أغمض عينيه مرة أخرى وترك شيئا من النور يتسرب إلى مخه المنتهك. يتذكر جيدا أنهم عندما فشلوا في استدراجه ليقول أسراره، اتَّهموه بالجاسوسية والعمل لمصالح أجنبية. أقسم لهم برأس كل القوَّالين الأوفياء أنه مجرد قوَّال هارب من محاكم التفتيش المقدس، وأنه ترك غرناطة وراءه بحزن كبير. سرقوا منه شوقه الوحيد ونشيده الذي لا يموت: ماريانا التي كان قلبها ما يزال مفعما بالدم الأندلسي. في الأخير، رموه بلا تردد في أعمق حفرة وتركوه هناك يموت بالتقسيط. بدأت الخيبة تزحف نحو قلبه، وانطفأت فجأة الصورة القديمة التي صنعها لبلاد العَدْوةِ الأخرى. في لحظة واحدة اندثر

الفردوس المفقود الذي ظل يملأ الأسواق زمنا من الدهر. حيّ البيازين الغرناطي يحفظ كل التفاصيل وحرب البشرات التي التهمت دم جده الذي أرعدت صرخاته الوديان وشقّت الصخور.

الزمن يجب أن لا يتوقف عند هذه الحدود الضيقة مثل خرم إبرة عمياء. لقد قفزوا بي، يقول بشير إلمورّو، نحو أكثر من ألف سنة ضوئية إلى الأمام حين اتهموني بالجاسوسية لصالح الإسْبان الذين كانوا يرابطون بسفنهم عند مداخل ومخارج بعض السواحل الوطنية. لا أحتاج إلى أن أعيد إلى الأذهان بأني مجرد قوال بسيط كانت وظيفته ملء حي البيازين شوقا وحنينا وحزنا ليتذكروا أنه في لحظة ما من اللحظات، تخلى الله عن ذويه وتركهم يواجهون مصيرهم وحيدين. العسكر التّركي قال كلاما كثيرا وفضفاضا يشبه في محتواه الكلام الذي سأسمعه في وقت لاحق من فم أصدقاء الحاكم بأمره، سيد آرابيا وحكيمها؟ صرخوا بأعلى أصواتهم: أنت مجنون أيها الغرناطي المتوهِّم الذي بدأ يخرف. ابحث لك عمن يصدّقك أيها المسكين؟! مجرد وراق يا عباد الله، صرختُ بيأس؟ هل ادعيت شيئا غير ذلك. مهنتي المفضلة إبكاء الأسواق التي ما تزال حتى اليوم تحفظ ندوبنا. كنت عاديا مثل جميع الخلائق، حتى جاءتني ذات يوم غجرية، كانت عنيدة مثل الكبرياء. نسيتني بعدها لكني لم أنسها أبدا، فتبعتها إلى شواطئ ألميريا. هي التي زرعت في قلبي حبّ هذه المدينة. عذّبتني وكدت أقتلها من شدة الغيرة، قبل أن تستسلم لقلبي وعيني اللتين تعودتا ألا تناما إلا على الشهداء والمفقودين في الحروب الفائتة. كان صوتها مثل خيط رفيع من البكاء. سَرقتْ مني الحرفة، وأصبحت تروي معي أخبار السير القديمة. ملايتها السوداء على ظهرها تعطي لعينيها اتساعا جميلا فيه الكثير من الدهشة والحيرة... هل أواصل، سألتهم؟ كانت عيونهم وكل حواسّهم مشدودة نحوي وكأنهم وجدوا فجأة شيئا يهمهم في قصّتي. لم أعرف إلاّ فيما بعد سرّهم الخفيّ.

كانت دنيا تحكي قصّة بشير إلمورّو وكأنها ممثلة مسرح. كل شيء

في جسمها كان يتحرك. عندما تعبت وعاودتها آلام الظهر، اتكأت قليلا على الحائط المغطى بالقطيفة اللَّدنة والمريحة. ثم نظرتْ إلى وجه الحاكم بأمره، الذي بدأ يفقد حمرته شيئا فشيئا وتعلوه سحابة من الدكنة، لم يَعُدْ قادرا على مواجهتها وتحمّلها، على الرغم من أنه كان يشد بقوة على الكتّانة الحمراء بين أسنانه، كما نصحته أمّه وبعدها دنيا، أن يفعل كلما شعر بموجة من الغضب تجتاحه، من أجل صدّها بأقلّ الخسائر الممكنة.

- دنيازاد؟ يجب أن أتدخل. اشعر بالخلل المشين في هذه القصّة.

- لحبيبي كل ما يشاء، ولكن حبل أفكاري يضيع يا قرّة العين.

- ما عليهش. شيء ما في قصة هذا الرجل تحيّرني؟ المشكل أنه مؤمن بأنه عاد من حرائق الأندلس، بينما لم يخرج المسكين إلا من حرائق حاضر نحن صنعناه له. هبّلته قراءة الكتب في زمن الناس فيه مأخوذون بالإنترنت والفيسبوك وتويتر واليوتوب. يذكّرني بمخلوق آل إلى الزوال، اسمه دون كيشوت. عِش تْشُوف؟

- يمكن يا مولاي. ماذا لو تركتني أنهي قصّة هذا المخلوق كما تسميه؟ ستعرف كل الأسرار المخبوءة التي تهمّ سلطانك. ستعرف سر رهاناته ويقينه. فهو ليس رجلا عاديا، ولكنه علامة عن كل الخسارات المحتملة التي كان عليك فهم رموزها وأسرارها وترميمها بالإصلاحات الممكنة.

- عذرا في مخي شيء يرفض الخرافة. اخكِ... اخكِ...

- بدأت أتعب وأسقط في التكرار،

- مممممممممم

غمغم أن نعم وهو يضع في فمه الكتّانة الحمراء.

كانت الصحراء يا مولاي الحاكم بأمره، تقول دنيا، تقترب والشوق يفيض، والصفرة تحتل دمه. نزلتْ بعض التّمْتمات كالجمرات على صدره، كأنها وحي ولم تكن كذلك. كانت الآلام تجتاحه من كل الجهات، والعطش يعذّبه. حاول أن يحتج وأن يصرخ ولكن صوته خرج

دافئا وحزينا: ماذا أقول أيتها الريح التي رمتني في الربع الخالي ثم عادت راكضة باتجاه البحر المنسي. ماذا أقول؟ الأصوات التي صارت تناديني زاد عددها. والحنجرة التي تستغيث، تبعث على الشَّفقة. هو ذا أبو ذر يعود، يملأني ويملأ شراييني. أراه الآن واضحا مثلما رأيته لأول مرة في الكابوس الجارح. وأرى بجانبه الرجل ذا الفم الواسع والبطن المنتفخ، الذي خرج من عرق الحاكم الرابع. حاول عبثا أن يغلق الأفق المدمى بقوافل الآتين من كل حدب وصوب، من الصحابة والشهداء والموعودين بالزمن الجميل. آه يا معاوية، أنت تعرف أكثر من غيرك، أنك لا تستطيع أن تغيِّر من مجرى الأحداث أبدا، ولا حتى أن تنقذ نفسك من التهلكة الحتمية. سيَبقى كل شيء يواجهك بحضوره الأبدي، أنت نفسك لم تتصور فيها اللحظات الأخيرة وهي تستل منك حياتك خيطا خيطا. تخيَّل هذا الزمن الذي لا يرحم وقادك بسرعة البرق إلى آخر أيامك. حين أردتَ أن تخطب في الناس، لم تستطع الوقوف أبدا لأن جثَّتك الضخمة لم تكن لتسعفك، ورجليك عجزتا عن تحملك. حتى وأنت في شهقة العمر الأخيرة، لم تنس الجواري ولا الملك ولا المال. قلتَ وأنت تلم أطراف الجسد المترهل:

- إنَّما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن حال بيننا وبينه حَاكمناه بسيوفنا.

ولم يغب عنك يا سيدي، في ذلك اليوم، أنْ تأمر الوراقين بتثبيت كلامك في دفاتر التاريخ المكتوب بين أحضان الجاريات. واستشرت، كما يفعل الرجال الأوفياء، الحاكم الرابع، في أمور تتعلق بأمن الدولة والخلاص من ضجيجي المقلق. اللحظة تأتيني الآن داخل غيمة سوداء مجوفة، مثقلة بالغيب والأسرار. الشمس توقَّفت في منتصفها من الدهشة. لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة. لا؟!. مجرد كابوس. لحظة وينتهي. كانت الشمس شاهدنا الوحيد على انهيار الأحلام التي لا تعد. قال للحاكم الرابع في رسالة خطية يؤلبه فيها ضدّي، أو بالأحرى يستأذنه في قتلي ومحوي:

- إن أبا ذر صرف قلوب أهل الشام عنك يا مولاي، ويغّضك إليهم. فإن كانت لك حاجة في الناس قبلي، فأقدم أبا ذر إليك، فإني أخاف أن يفسد الناس عليك.

الحاكم الرابع في ذلك اليوم القاسي الذي وفقت فيه استنجد بذاكرتي، واضعا قلبي في يدي، وحنيني في دمي الذي بدأ يفقد لونه، لم يتساءل كثيرا هل الرسالة التي بَعث بها معاوية كانت صحيحة، صادقة، أم مجرد وثيقة تبريرية للتخلص منِّي، القصد من ورائها الرضوخ لضغوطات مجموعة من التجار أفسدت الدِّين والدنيا. قرأ الحاكم الرابع الرسالة بسرعة، ثم أصدر أوامره التي أحرقت الأخضر واليابس. معاوية حين وصله القرار، قهقه بانتشاء كبير. تسرّبت الأشواق من تحت جلدي وبدأ كل شيء يتصلّب في وجهي.؟ تساءلت يومها وأنا منكسر الخاطر: أي حق في دولة اللاحق، أيعقل؟ ماذا كان سيفعل الحاكم الرابع لو علم أن سكينا حافية ستأخذه وهو ما يزال في دهشته، وتفتح صدر زوجته أمام عينيه؟ ماذا لو قرأ الغيب وعرف أن ما يحدث لي الآن سيتحول إلى كابوس يقضّ مضجع الظلم والضغينة، وعاصفة تكنس كل أوهام المجد التي بناها؟ في أيّ انتصار كان معاوية يفكّر وهو يرميني في ظلمة النار؟

قال المعزّ لنفسه، حكيم حكماء عصره، جليل القدر الحاكم بأمره، كما تعودت دنيا توصيفه، بعد أن زالت علامات الغفوة من عينيه، وعادت لوجهه الحمرة الغائبة.

- ولد الثّالفة؟ يستأهل أكثر من الموت. أما كان يمكن أن يَصمت ويُمارس حياته كبقية دواب الرعية التي تقبل بعيشها معنا؟ يعلف ويزمّ فمه وطيزه؟

- مولاي؟ هذا الكلام لا يليقُ بمقامكم؟

- تخزّي بيَ؟ نحن نعرف بعضنا البعض جيدا؟ هل نستمر في الكذب حتى ونحن عراة، لا شيء يغطينا إلا قصصنا وجنوننا؟ يكفي الله يرضى عليك.

- أعرف. لم يكن مخيرا يا مولاي، لأنه كان يحمل دلالات العصر

التي ليست له. كانت قوة خفية تدفع به نحو التهلكة، لأنه كان علامة العصر الذي كان يعيشه. أتساءل أحيانا إذا لم يكن نبيًا؟

- وماذا نكون نحن إذن أمام الناس؟

أحسّت دنيا بانزعاجه الذي لم يستطع تخبئته:

- أنتَ كل شيء يا مولاي. الدنيا والقيامة. دنيا على من يلمسه بياض يديك، وقيامة لمن توهّم للحظة أنه يمكنه أن يزاحمك في سلطانك على آرابيا.

- على آرابيا أدمر العروش والبشر وآكل رأس ابني الوحيد. على آرابيا لن أرحم لا أمي ولا أبي ولا حتى ابني إذا ركب رأسه ورأى أهليته فيها. يا دنيازاد، لولا معرفتي العميقة والحميمة بك، لقلتُ إنك مع هؤلاء الرعاع! تبحثين لهم عن كل ما يبرّر خروقاتهم؟

- هل يعقل يا مولاي؟ الحمد لله أنك تفهمني جيدا. أنا لك بكلّي فكيف أكون ضدّك؟ كل ذرة في جسدي تصلي لك وتعبدك، ولكن... يجب أن تعرف الحقيقة يا صاحب الباب العالي. أنا كذلك أكره هذه الحقيقة، ولكن يجب أن تسمعني حتى النهاية، لأني رأيت أختي، أو تلك التي سمّوها أختي، شهرزاد، كيف كانت ترمي من وراء ظهرها، كل الأشياء التي تهز الأسرّة ولا تحتفظ إلا بما كان يُرضي الذي سبقك على نار الكرسي وجنونه، شهريار، يا سيّدي. أنا لا أريد أن أشبهها. لكن لا شيء يمنعني من أن أسمّيها دابة الغواية.

المهم. قالت دنيا وهي تمسح على وجه حكيمها بنعومة. هذا ما كان يا مولاي وحبيبي. كان بشير إلمورّو منغمسا في اصطلامات لم يكن قادرا على تحملّها لوحده. بدأ يفكّك التباس الصورة التي وَجد نفسه فيها. لم يكن هو الغفاري ولكنه رآه بحواسّه وجسده المجروح، في كابوس الكهف الذي هرَّبه إليه الملثمون السبعة، فالتبس به حتى أصبح هُوَ هُوَ، وهُوَ هُوَ أَيْضا. الألم حوّلهما إلى كتلة من الخوف الكلّي. يقول بعض الذين عرفوا بشير إلمورّو سابقا في مدينته أندلسيا، في سفح جبل الكبريت بجملكية آرابيا، أو ادعوا ذلك على الأقل، إن قراءاته عن هؤلاء

الناس وارتباطه بهم وبجراحاتهم القاسية وبالظلم الذي مورس ضدهم، هو الذي أوصله إلى تصديق الوهم الذي توغّل فيه حتى أصبح من المستحيل وضع الفَواصِل بينه وبين الحقيقة. ظلّ يصرّ على أن ما حدث له هو عين الصّواب، وأن الظلام الذي نزل على المدينة فجأة وعمى قلوب البشر، لم يكن كذبا ولا بهتانا.

- ظل يا مولاي يأمل حتى اللحظة الأخيرة في الحكمة المتأخّرة للحاكم الرابع، وفي استيقاظ ضميره، لكن الذي حدث، كان يجب أن يحدث. كان كل شيء فوق الإرادات.

- لا شيء فوق إرادة البشر. هي في رتبة الأعالي. عندما يشاء البشر، أعني الصفوة العليا، يشاء الناموس الذي ينظم الكون.

- المشكلة أيضا، أنّ كل ما يحدث من خراب كلّي ومصائب خطيرة، وراءه هذه المشيئة الكبرى التي تنقلب بسرعة إلى سلسلة من القنابل الموقوتة التي يصعب التحكم فيها... المهمّ يا مولاي...

كان منهكا ومتعبا عندما استدعاه معاوية من جديد. من ضحكته الساخرة عرف أبو ذر بقية الباخية. فجأة سقطت الشّمس من عينيه اللتين حل فيهما ظلام دامس. كان معاوية ما يزال يقهقه عندما شّممه ورقة الحكم بالتيه. التفت أبو ذر الغفاري يمينا، ثم شمالا فلم ير ويشم إلا الفراغ القاسي. نظر إليه معاوية بنوع من الحقد والتشفّي.

- أتصدّق هذا يا ابن رملة بنت الرفيعة؟ أنظر؟ افتح عينيك؟ تعرف القراءة والكتابة، أم تراك أصبتَ فجأة بالعمى الكُحْلي؟

- قلبي يرى، وبصري حي. يبدو يا سيدي أني أصبحت مجرد ورقة بين يديك. بِئْسَ على مجد ينشأ الموت والقتل، وعلى كذبة سيأتي بعد شهر، نصف قرن، قرن، من يرميها في النار ليُحوِّل كل شيء إلى رماد.

- اقرأ الورقة أوّلا يا ابن رملة، أم أنّك ستقول، هذه المرة أيضا، مثل محمد، أنك لستَ بقارئ؟ الذي ليس بقارئ لا يورّط نفسه ولا غيره.

- لا يا مولاي، لن أنكر مزية فيّ شققت من أجلها الفيافي والقفار،

وتعلّمت من خلالها أن العلم طريق فذّ لتفادي اليقين المهلِك. أنا قارئ يا سيِّدي.

حاول أن يصرخ، أنا ابن جُنَادة ابْنُ قَيْس، لكن الصوت خر صريعا داخل الحلق ولم تخرج إلا بحة جافة التهمتها صرخة الرجل الذي خرج من عرق الحاكم الرابع ومن دمه.

- قلتُ لك اقرأ... لِيشْ مَا قْرِيتْ يا طويل العمر؟ اقرأ ماذا يقول الخليفة فيك؟ أم أنَّك خَائف؟ تخاف من مِينْ يا روحْ أمَّك؟ الموت يخيفك أنتَ أيضا؟ تصورتك مقاوما أكثر من هذا؟ لا تخف لن تجعل منك شهيدا هكذا.

- لم يَعُد هناك ما أخاف عليه. يمكنك يا سيدي أن تسرق عمري لكن الشمس التي دخلت إلى عمق عينيّ وقلبي هي شمس أبدية.

- اسمل عينيك، وأنزع قلبك.

- لن تسمل شيئا أصبح يضيئني ويضيء الدنيا من حولي.

في اللحظة التي كان يأمل فيها خيرا، كان الحاكم الرابع يبرم شواربه بزيت الزيتون المغلي والزبدة العتيقة الحائلة، وينتظر قدوم رأسه الذي سيُبعث مع قوافل التجار، وقد كتب عليه: هذا آخر رأس، لآخر أحمق ظل طوال حياته يحلم بتغيير قانون الحياة الرباني. الكبير كبير، والصغير سيظل صغيرا، إلى أن يرث الله ملكه وخليقته.

رسالة الخليفة، كانت تقول: [**أحمل أبا ذر على أغلظ مركب وأوعره، ثم ابعث به مع من ينخس به نخسا عنيفا، حتى يقدم به عليَّ.**]

أصبحت الدمعة في العين يأسا، واليأس قارب في صلبه الحجر، والحجر تفتت حتى صار تربة، والتربة صارت ذرة. رأى الأشجار التي كانت تملأ قلبه تفقد ذاكرتها وتنسحب جماعات جماعات. شاهد الخضرة وهي تأخذ لون الصفرة. بادره معاوية بلغة المنتصر.

- هاه يا طويل العمر؟ أأزعجتك الرسالة؟ شكلها؟ محتواها؟ الصيغة التي كُتِبت بها؟ أم تشكّك في رجاحة عقل مولانا الخليفة؟

- أنا في صلب اليقين. أنا هو، وهو أنا. العقل يا سيدي مركب صاحبه وإشارته في الدنيا، لا يمكن أن يملكه رجل لا يعرف قدره.

- ويلك؟ كلام اللائمين. النجاة الساعة يا أبا ذر.

- إذا اقترب الزمان، كثر لبس الطيالسة، وكثر المال، وعظم رب المال وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان، وجار رب السلطان، وطفف بالمكيال والميزان. لا يُوقّر كبير، ولا يُرحم صغير. يلبسون جلود الضّأن على قلوب الذئاب أمثلهم المداهن.

- كلامك يقتلك. أنت المسؤول.

حين أحاط بي خمسة من الصقالبة أنا وزوجتي، يقول بشير إلمورّو الذي اختلط عليه خيط النور بخيط الظّلمة، كان كل شيء قد زحف نحو النهاية المشفوعة بقدر لا يقاوَم، وبدأت خطوط الجحيم الأولى ترتسم وتزداد امتدادا وطولا بين الشام والمدينة.

في الحقيقة أنا مثلكم سحقتني الدهشة. ونبت الجحيم في القلب وتفرّع. من أين لي أنا الفوال البسيط الطيب، الغرناطي المسكين، أن أُدفن في ألم الصحابي الجليل، وأقوم من دمه الذي جفّ قبل أن يسيل في القفر والصحاري؟ يجب أن تصدّقوني. لقد رأيت كل ما أرويه الآن في حضرتكم. لم يكن حلما، بل جزءا من جحيم ليلة الليالي، قبل أن تعوم المدينة في دخان القذائف التي كانت تأتيها من البحر، ومن قلعة علماء المدينة السبعة، وتستيقظ على الصحف اليومية المرمية على حواف الأزقة. لكن هذه قصة أخرى، سأرويها لاحقا، بالتفصيل. يجب أن تصدقوا فقط أني لست مجنونا. لقد ودّعني الناس في ذلك اليوم بعيونهم المتعبة. كانوا مرعوبين من هذه العاقبة التي مست أوفياء المدينة. كل واحد تمنى لو أني صمتُّ وقبلت بكل شيء. تمتمت، وعصاي في يدي صارت أثقل من كتلة رصاص.

- ارجعوا، فإني أصبر على البلوى..

أبو ذر يتوارى حتى يصبح تيها، ثم ريحا ساخنة، ثم لا شيء...

كانت الصحراء مهلكة، لكنّي قاومت. وصلتُ مقوّس الظهر، أبيض الشعر. الوجه المتعب فَقَدَ ملامحه، والرمال ملأت جيوب الذاكرة. سمعت كثيرا عن اليأس، لكني هذه مرة أيضا رأيته بكل ملامحه. سمعتُ صوته وشممتُ رائحته. ومع ذلك، ظلَّ هناك داخل الفراغات. شيء ما يشدني إلى الحياة، كان أكبر مني ومن يأسي. كان عليَّ أن أُقاوم، أن أَبني ذاكرة للمستحيل. كانت عينا الحاكم الرابع مليئة بالدم والموت والرمل. أسنانه تتطاحن بقسوة. حين رأى وجعي حسم أمره. كان كل شيء قد انتهى ونيران الصحاري بدأت تصعد من تحت قدمي.

- إلى الجحيم. صحراء الربذة قليلة عليك. تحتاج إلى محرقة تأتي على لحمك ومخّك. من يسمعك الآن؟ أنت بين يديَّ، أفعل بك ما أشاء.

- لن تفعل بي يا سيدي إلا ما يشاء الله لي.

- الله قد شاء لك وانتهى.

لغتي ماتت في حلقي. لم أجد لغة تتحمل شوقي وتفهم بعض جرحي وثقل الظلم الذي كنت أحمله على ظهري المتعب. رأى الخليفة حيرتي وتمتمتي.

- لست قاطع طرق يا ابن رملة بنت الرفيعة. أنا سيدك، ألوي رقبتك كما يحلو لي أو أرمي لحمك أو ما تبقى منه للكلاب.

- ......

ثم التفت نحو الزبانية الذين كانوا لا ينتظرون إلا حركة يده الثقيلة.

- اتركوه يموت هناك. لا شيء يعلّم هذه المخلوقات مثل القفر.

- ...؟...؟

انسحب أبو ذر ولم يترك إلا ظلمة القبور الموحشة. لكن أنا بشير المورّو، ما دخلي في هذه التفاصيل التي أشعر بعذاباتها تملأ قلبي والصرخات على أطراف اللسان؟ ما دخلي؟ من يطفىء هذه الكآبة التي تأكل بؤبؤ العين ونبض القلب؟ من يعيد النار المسروقة إلى ذويها؟ من

يرفع عن صدري صخرة الضيق أمام سلطان الخوف؟ من يأخذني بكاملي ولا يجزئني، ثم يطوّح بي باتجاه الله لألتحم معه.

سأقبل بنار الرمل وحرّ الموت، ولن أضع أنفي تحت الأحذية التي لا تتنفس إلا خواءها. يا صاحب الأبواب العالية والأبراج التي لا تعرف الاعوجاج، لو سُحق الرأس بالحجر، بين السيف والمقصلة، بين الذاكرة والهزيمة، بين الخوف والرعشة الأخيرة، بين الخيبة والظلم، لن ترى مني إلا ما ترفض عيناك أن تراه. فإذا كان الله قد تخلى عني، فلن أتخلى عن نوره الذي ملأتني به ملائكة الشوق والحنين. لم يبق لي من العمر إلا أرذله، بل لم يبق لي ما أخاف عليه.

- حرام يا مولاي. حرّفتم النص، وقتلتم الجسد، وها أنتم تأمرون بنفيي نحو تيه الموت. لكم ما تشاؤون ولكنكم لن تصلوا أبدا إلى النفس العالية. النفس العالية هي مِلكٌ للمولى وصاحب الساعة وسيِّد الأوقات كلّها.

- ستصمت عندما تشمُّ الذئاب الجائعة والنمور الوحشية، رائحة جسدك. سترى... أنيابها أقلّ رحمة منّي.

الصحراء تملأ حلقي. الشمس فتّت العظام المتبقية. الدنيا أصبحت مساحة من الخلاء والخواء. الأرض لم تعد أرضا، والشمس لم تعد شمسا. الأرجل فقدت قدرتها على المشي. شيء ما يصل حتى الأعماق، يجذبني باتجاه الأرض. لست أدري كم استمرت اللحظة، سبعة أيام؟ سبع سنين؟ سبعة قرون؟ سبعة أجيال؟ لا أعلم، كل ما أعرفه هو أن الكابوس استمر طويلا. أطول مما توقعت وحسبت. حتى الراعي الذي وجدته عند مدخل الكهف لم يقنعني في البداية بسهولة. كان عليَّ بذل جُهد كبير لفهمه والتقرب منه. لست أدري لماذا أسبق أحداث الرواية، فمأساة قفر الربذة لم تنته بعد. فجوة الجحيم تملأ الدماغ. طفح الكيل لكن الشمس أصبحت في عمق القلب. ماذا أفعل يا الله؟ لقد انتعش جحيم ليلة الليالي. الرمال تسدّ الحلق، التنفس يزداد ضيقا. والله غسل يديه منّا. يسحب نفسه من تحت معاطفنا بهدوء السارق لكي لا

تنفطن لهروبه. الصفرة ملأت الوجه حتى صارت شحوبا. النعال التي صنعتها من جلد الماعز، تآكلت وتضاءلت مقاومتها من كثرة الانعطافات والمشي والأعطاب المتتالية.

رائحة القديد تملأ فمي وجسدي. هل هذا مجرد حلم، أم حكاية ستُحكي للأطفال؟ إنها النهاية التي كانت تزحف نحوي بسرعة مخيفة. نهاية للزمان والمكان. نهاية المطاف.

إنّي ثقلتُ على الحاكم الرابع بالحجاز، كما ثقلتُ على معاوية بالشام. باعاني للرمل والتيه وقفر الموت. أي زمن هذا يقذف بذويه نهو الهاوية خوفا من سلطان الكلام. ليس الكلام سيوفا ولا دبابات ولا قنابل نووية؟ مجرد مساحات منسابة من التوق إلى الحرية. إلى الطيران خارج أسراب التدجين المعمم. أي ضرر يا مولاي؟

جاءه صوت كان يأتي من أعماق نبوة تواطأت مع القتلة: كُتِبَ عليك مثلما كُتب على بعض الذين من قبلك، العيش وحيدا والموت في الخلاء. لن تجد من يبلّ شفتيك بقطرة ماء. ولا من يضع رأسك بين يديه لتموت هنيئا. عليك أن تواجه قدر الرمال وحيدا! وعليك أن تجعل من الصحراء سدرة المنتهى ومسكنا! وإذا التفتَّ يمينا أوشمالا، أدْرِكْ أن الله يختبرك في إيمانك وسلطان روحك! لا تحاول أن تصرخ، فلن تسمعك إلا الصخور المحروقة، لا تضرب رأسك على حائط الصمت، فلن تجد حائطا يركنك. أَبَعْدَ كل هذا يختبرني ربي بكل هذه القسوة؟ ألم يكفه ما أنا فيه؟ وأنت يا مولاي الغفاري الحبيب، أينك؟ أنا أموت من أجل ما جئتَ أنت به. هل هذا كل ما وجدتَه لتقوله لي، بعد هذا الصمت المتواطئ؟ هل هذا هو عزائي يا خليفة الله؟ كيف تكون خليفة الله وتحمل الظلم في يديك ولغتك؟

شعر بالوحدة والموت يشقان جراحاته في كامل الجسد. لم يسمع سوى نداءاته الداخلية المنكسرة التي كانت تنتحب. فجأة ساد الصمت الذي يسبق الموت عادة. أين هو الآن؟ هل بدأ تيه المنفى القاسي؟

أول ليلة من هذا الجحيم قضاها في خباء مهلهل، منصوبٍ على تلّ

الربذة، بجوار نخلة مغبرة، ظلت تنحني وتنحني حتى ظلّلته عن آخره هو وزوجته وابنيه، عمارة، وذر. الغيمات القليلة التي غطت رؤوسهم طوال الرحلة، بدأت تموت عطشا وجوعا. لم يكن موت الرمال أرحم من عذاب الحاكم الرابع، والحاكم الذي خرج من عرقه. خيط الشمس القاسي أضعف دقات القلب. عواء الذئاب تكاثر حتى فرض ألفته على الجميع. زاد أنين عمارة. فقدت ملامحها ولم يبق من حيائها الذي لم يجد وجها يستقر عليه، إلا القليل. الشمس خانته بصهدها ولم تتحول بردا وسلاما. خيوط الإحتراق تبلل الجسد بالنار والعرق. يااااااااي. صرخت بكل قواي. عويت عووووووو حتى انفجر دماغي مخلفا ذئبا حاقدا على كل شيء. طلبتْ عمارة ماء. نفذ الماء يا ابنتي، قال لها أبو ذر منكسرا. نحن في منفى الموت. نتوهَّم فقط يا عمارة أن العدل في قلب من وضع الله السلطان بين يديه أمانة. نخطئ يا ابنتي إذ نظن ذلك. الله الذي عرفناه في زمن الهدنة لم نره في لحظات الشدة. أتساءل أحيانا إذا لم يلتحق هو أيضا بالركب. أصبح ينام، في جيوب القتلة كما شاء له الحاكم الرابع. استغفر الله على النفس الحالمة، التائهة، الغارقة في يأسها. الله، الله، يا عمارة القلب، اصطف هذه المرة مع الأقوى. كنا الأضعف، لا ربَّ لنا إلا الموت والخوف. لم تبق أمامنا إلا مقاومة العزلة المفروضة علينا. فهل نتمكن منه؟ ماء يا باا!.. ماء يا باا!.. العطش لا يطاق يا باا!. ألم يبق منه شيء يا ابنة بنت الرفيعة؟ لا شيء يا أبا ذر. لا شيء. ألم يقل لك النبي... أرجوك... يكفي. أنا أعرف جيدا ما قاله لي ولا أريد أن أتذكرته فهو يزيد من تيهي... عشتُ وحيدا، وسأموت وحيدا، أعرف، لكني أرفض هذا القدر. ماذا لو كان أحدهم في مكاني؟ أنظري يا ابنة بنت الرفيعة... أنظري. سقطت عمارة، تعبتْ من المشي. وضعتُها على كتفي. مشيت، لكن قسوة رمال الربذة قاسية ولا جسد يتحمَّلها. انتهى كل شيء. أترين الجوارح التي تتبعنها يا ابنة بنت الرفيعة؟ بعد قليل سنصبح طعما شهيا لها. كانت عمارة وردة برية مليئة بالعطر ونوار البوادي، فأصبحت تربة ونثارا من

الغبار. انخطفت مني حتى قبل أن أفتح عيني من شدة الحرّ وأصدّق أنّ عمارة ماتت. لم يطل بي الزمن كثيرا، حتى واريت أخاها في حفرة بذلت جهدا مضاعفا لإتمامها بسبب الوهن. أخرجت الحجر المحروق بفعل الحرارة، والحصّ وحبّات الرمل الخشنة، حتى لا تؤذي جسده النحيف. لم أكن أعلم أن الشمس كانت تحفر قبورنا جميعا، وأن الحجارة التي كنت أرمي الذئاب بها، أصبحت عزيزة حينما لم أجد شيئا أتوسده سوى الرمال التي التهبت تحت رأسي. كانت أم عمارة أكثرنا صبرا.

- يولدون للموت يا أمّ عمارة، ويعودون إلى الرمل والتراب. أي حقّ هذا؟ ألا حبذا المكروهات بعدكما يا ابنيَّ.

- لا تغلقي باب الرحمة في قلبك. ارأفي على جسدك.

تنفسنا بعدها في خلاء الخوف مدة ثلاثة أيام، وبعضهم يقول سبعة أيام. المقاومة المتبقية جفَّت داخل الصدر الذي ضاقت أنفاسه. وبدأت العين لا تحدد أشكال الأشجار والنخيل والرمال والحيوانات البرية، الشاردة في كل الاتجاهات. والأذن ثقلت موازينها، لا تسمع أصوات الذئاب التي كانت تزحف باتجاهنا جماعات، جماعات، تدفعها إلينا صخور الربذة السوداء ومياه السراب. الوجوه الطيبة انطفأت واحدا واحدا، والصحراء عظم اتساعها حتى شقَّ روحنا. جسدي يثقل يا أم عمارة، والوهَن يصعد إلى قلبي. أعرف الموت جيدا من رائحته الحادة. إنه دنو الأجل يا أم عمارة. الجسد منهك، والعواطف التي كانت تملأ الذاكرة، انكسرت بقسوة. السقطة الأولى اعتبرتُها عادية، ولكنها تكررت كثيرا وأصبحتْ تتقارب الواحدة بعد الأخرى. هل ترينني؟ أليست علامات النهاية؟ غار المحجران، وبدأ بريق العين يزداد ضمورا. في المرة الأخيرة لم أستطع الوقوف. كل شيء انتهى. أدركت أنّي لن أقوم أبدا. نزلتْ على وجهي سحابة الموت الباردة، وسالت الدمعة الأخيرة جافة كشعاع ميت.

- إني أموت الآن، يا أم عمارة.

كلمتها، أو ربما كنت أهذي. لم أر وجهها، ولكنني شعرت بها تلتفت صوب القبلة وتصرخ بأعلى صوتها وتلعن بكل ما أُوتيت من قوة، موجّهة بصرها نحو سماء فارغة.

- خسئتْ كل السماوات التي تخلَّت عنك! خسئتْ كل النبوات التي لم تعرف كيف تدافع عنك! وخسئت خلافة المال والبهتان! يا أبا ذر. يا حبيب القلب اليتيم. لم يعد لك ما تتكئ عليه غيري، وأنا جسدي قد انكسر. ليس عندي حتى ما أكفنك به يا أبا ذر، يا حرقة الظلم والمنفى. لي جلد احترق، ويدان ترتعشان ما تزال بهما بعض الحياة. لي كل ما تبقى من نور في عيني، أغطيك به، ولي بعدك الله.

- دموعك تكفيني يا أم عمارة. لقد نسيَنا من وضَعْنا فيهم آخر مآوينا، وأسكناهم حيث لا كره يدركهم ولا جبروت.

كذبت على نفسي كثيرا وكان يُفتَرضُ أن أستعد لموتي. حين خرجْتُ من باب الحاكم الرابع، رأيت للمرة الأخيرة وجهه الذي هرب الدم منه. عرفت أني هالك لا محالة، وأني سأموت وحيدا في خلاء القفر كما قال الطالع في بلدتي. وقبل أن يُغلق الستار في وجهي، كان دود الصحاري قد بدأ ينزل من جذوع النخيل، ويركض باتجاه الجسد الواهن ليأكل كل ما تبقّى حيًا فيَّ.

كان الحاكم بأمره غافيا مثل ميت، وهو يستمع لدنيا.

- أمَا زلتَ هنا يا مولاي أم تراك نِمتَ؟

- كيف أنام؟ وما يزال في البلاد من هلك السلطان والزرع والضرع؟ أنا هنا حتى أسمع نهاية الباخية التي تنسف بالطّامعين. كأنك تتعاطفين مع نداءات الاستغاثة؟ كانت أمامه فرصة طلب الغفران من الخليفة وينتهي الأمر بسلام؟ لكنه لم يفعل. غاضني أن صحابي ويقع له ما وقع ولكن...

- كان محروق القلب يا مولاي ليس على موته ولكن على الظلم.

- يا بنت للناس تحتاجين لأن تكوني براغماتية قليلا. الحكم والنقد

لا يسيران في الطريق نفسه مهما حاولنا. مجنون. كلهم يتشابهون؟ كيف رأى نفسه في جسد أبي ذر؟ ألم يكن من الأحسن له أن يطلب الصفح من سيده. كنت رحمته لو انحنى يقبل حذائي.

- مشكلة هؤلاء الناس أنهم يتوارثون التاريخ والجرأة يا سيدي. مثلكم تماما إذ تتوارثون السلطان والحكم. لا تلمه على جنونه.

في الحقيقة يا مولاي وملاذي، تقول دنيا التي جف ريقها، أن هذه القصص عن المقتولين من الصحابة، لم تروها شهرزاد لأنها كانت تخاف من عظيمها أن يسمل عينيها، لأنه كان يعشق طلعة الحاكم الرابع. كانت شهرزاد تحفظها عن ظهر قلب، لكنها كانت كلما وصلت إليها، ختمت الجلسة وأجّلت الحكاية إلى الغد خوفا من الحقيقة. وفي الليلة الموالية تسترسل في كذبة جديدة، بعيدا عن الحقيقة. كان عظيمها شهريار صعبا ومريضا ومازوشيا. لا يجد الشهوة واللذة إلا داخل الدم، ولهذا صمّم على ذبح كل نساء السلطنة. فنزلت عليه شهرزاد مثل الماء الدافئ، لتوفر له لذة الذبح من خلال الحكاية. ولهذا يا سيدي الحكيم، كانت في كل قصة من قصصها، تنهيها بذبح امرأة أو ما شابه ذلك.

- حتى ولو كان شهريار قريبا إلى قلبي، لا أغفر له بلادته.

- لا يا سيدي المسألة ليست غفلة ولا بلادة. قلت لك كان مريضا. مشكلة الرجال يقينهم ووهمهم المستشري بامتلاك الحق والحقيقة وهم ظالمون.

- وما شأن الغرناطي المتوهّم والمجنون، بعد أن سقط مثله الأعلى في الصحراء، ورأى نفسه يموت في مكانه؟

- وأكثر يا صاحب المقام العالي.

- قولي... احك، لقد أثرت شهية الدم فيَّ.

في الحقيقة كان بشير إلموررّو يعلم علم اليقين، أن ما رآه كان كابوسا، لكن الذي لم يفهمه أنه عندما استيقظ داخل الكهف وجد يديه محروقتين من شدة الحر، ورجليه مُبوَّقتين مليئتين بماء الاحتراق، وفمه وأنفه غاصين بالرمال. وجد أشياء كثيرة ربطته بالحكاية التي عاشها.

عندما فتح عينيه من الإغفاءة الأولى، حاول جاهدا أن يُقنع نفسه بأن ما حدث لم يكن إلا أُحجية عذَّبته مدة من الزمن، لكن حتى هذا الأمر أستصعبه. قال وهو يحاول أن يفهم سر الحكاية المدمية.

لا أثر لكل ما حدث داخل هذا الكهف البارد؟ هاهي ذي الشمس تتسرَّب من بين الشقوق. لكن المؤكد هو أن حربا ضروسا مرت بذاكرتي، تفاصيلها تملأ القلب والرأس المجروح. الفراشات التي كانت تنزل على صدري الواحدة تلو الأخرى انطفأتْ. ضاعت ألوانها الزاهية وسط الفراغ المقلق. حاولت أن أتحسَّسها واحدة واحدة وأنا أشعر بالوميض الأخير يغادرني إلى المجهول، ويتسرب من عيوني باتجاه الله الذي ضيَّع المكان والزمان. صرخ أبو ذر حين بدأتْ الفراشات تسقط الواحدة تلو الأخرى وتخسر ألوانها: أم عمارة؟ يا أم عمارة، انتهى كل شيء؟ الفراشات التي سقطت على صدري بدأت تلد دودا مجنحا وتموت، ثم بسرعة تتفتت وتندثر وكأن وجودها كان مجرد كذبة. صرخت أم عمارة بأعلى صوتها وهي تنزع الملاية لتضعها على صدري.

- امرؤ يموت في الخلاء ولا يجد من يكفِّنه؟ يا بهدلة العرب ويا قصورهم وجبنهم!؟

القافلة الراحلة لم تتحسس جيدا مصدر الصوت، ولم تعره انتباهها أبدا. لكن استمرار الندب جعلها تتوَقَّف من جديد وتحدّد مكان الاستغاثة. ركضوا صوبهم. لم يكن أحد يعلم أنَّ الحاكم الرابع لو عَلِمَ بأمْرِهم، سيقطع رؤوسهم مثل الخِراف. كان امتداد الشمس قد بدأ يتقلص في عينيه اللتين غشيهما الظلام بشكل فجائي. والصحراء تصغر وأيام الحشر تفقد رهبتها. ورياح الظهيرة يزداد أوارها. الدنيا بدأت تغيم تحت العاصفة الرملية الهوجاء. ومع ذلك استطاع أن يتبين الملامح العامة للقافلة التي صارت على مقربة منهم. الوجوه ظلال، والإبل ظلال، والنخلات التي كانت تغطي عريهم ظلال.. ألبستهم كانت من الرمال. مدوا أياديهم للمساعدة، خاف أبو ذر منهم وهو يتنفس آخر الأصوات وآخر لون لآخر سماء. الفجوة التي كانت تفصله عن الحاكم

الرابع زادت اتساعا حتى أصبحت هوة من القلق والخوف. لم يكن أمامه، وهو يواجه الموت الأكيد، إلا أن يصرخ، خوفا من أياديهم: أرجوكم... أنا ابن اليتم والمَظلمة. أنا جليس الفقراء وحبيبهم ومفتيهم عندما يتخلى الفقهاء عن صدق الحكاية ويبيعون رحمة الله بالرخيص. أرجوكم... لا يكفِّنني رجل منكم إذا كان أميرا، أو عريفا، أو بريدا، أو نقيبا، أو ملحقا بخليفة. عرف بقايا ملامحه رجل من الأنصار. صَعُبَ عليه نسيان الفقر والجوع الذي عاناه من الحاكم الرابع. انكفأ على قدميه ثم بكى جمرا: عرفت ألمك يا أنبل بني الناس، يا أبا ذر. لقد رأيتك تحرق نفسك كالحطب اليابس من أجل الذين لا رب لهم يحميهم من القتلة ويؤمِّنهم من خوف. أنا أكفنك يا عم في ردائي. لي ثوبان من غزل أمي، حاكتهما لي لأحرم بهما. فهل تقبل بيُ؟ رأى في عينيه نورا قويا لم يستطع مقاومته. همهم بالكاد: أنت من يكفنني، نورك يكفيني. همهماته مرت كهمسة فجر هارب. وجهه كان قد غاب، وانطفأ النخيل، وانسحبت الصحراء والنجوم باتجاه ظلمة قاسية. حتى شمس الربذة الملتهبة دخلتها نعومة باردة. كانت الظلمة مقفرة، والحلق ترمل حتى صار التنفس مستحيلا. أيعقل كل هذا الصراط؟ قال بشير إلموزّو وهو يتحسس جسده. سؤال لا علاقة له بالسياسة، في جوف النار؟ وهو الذي تحدث عنه السابقون، الصادقون، وأن النار ستتوقف عند قدميه رعبا وخوفا، وأن الجنة ستخضر سبع مرات لإرضائه. ملامح الحاكم الرابع لم أتبينها كما يجب ولكن لا أحد يخطئ في ظلّه وفي قامته الناتئة التي تشبه كثيرا، في صفاتها الخارجية، قامات حكام اليوم. علاقتي به بعيدة جدا. بيننا قرون من الصراخ والأوهام الكثيرة. في الواقع، كل ما حدث كان على هامش الجحيم الذي سكن أحلامي في هذا الكهف. للحقيقة وجه آخر، تذكرته بصعوبة ولكني تذكرته.

ما الذي حدث؟ خلط يجب فكّه لحظة لحظة. قبل مجيئي إلى الكهف، كنت قد هربتُ من حي البيازين باتجاه ألَميريا. يا ألَميريا! فيك الحنين وفيك أجمل ما يحلم به القلب المتعب. فيك ماريانا التي باعت

Twitter: @ketab_n

الدنيا والفجر والبحر ولونه الأزرق، بحثا عن الأشواق التي لا تموت. فيك يا ألميريا الكثير من حزني وشوقي. حين غادرتُ مدينة البحر، كانت محاكم التفتيش المقدس تحضِّر الأرواح وتبحث عن الأصوات المخفية بين الناس. هل أهرب من الذاكرة؟ أم أظل فيها وسط هذا الكابوس المتصدع كالحائط الهرم؟ لم يكن أمامنا خيار آخر يا أبا ذر، يا ابن أمي. ما حدث لم يكن عبثا. الكل كان يسير وفق زمن لا يخطئ. مثل زمن الألم الذي دُشِّن بمجيء الحاكم الرابع، وربما قبله.

لليلة الليالي جذور تمتد من تلك اللحظة الحزينة. كان عليَّ تصديق كلام الراعي الذي وجدته فيما بعد عند بوابة المغارة، يعد الأوقات بالأزمنة الرملية، ليؤكد لي أن حضوري كان مكتوبا، وأنه لا خيار لي أبدا في الاختيار. هضمت الأمر بعسر كبير، لكن الوجوه التي رأيتها في تلك الليلة، أكدت لي أن ما قاله الراعي لم يكن بعيدا عن الحقيقة.

فترة النوم التي قضيتها داخل الكهف تبدأ في الظاهر منذ الفترة الصباحية عندما قادني إلى هذا المكان جماعة الملثمين السبعة الذين انسحبوا بسرعة بعد أن أكدوا لي على ضرورة الارتياح والنوم. قالوا لي، حين تقوم ستجد من ينتظرك. أصابتني بعدها الإغفاء اللذيذة، التي لا تقاوم. المؤكد أني عندما دخلت إلى الكهف كان اليوم يوم جمعة، والسنة هي ١٦٠٩ . غادرت غرناطة مجبرا، ودعتها بعيني فقط في سفن المنفى والخوف والقلق والحزن الذي لا دواء له. لست مهتما كثيرا بما سيقوله لي لاحقا أصدقاء الحاكم بأمره، الشماليون. حملت حزني وجسدي وعبرت البرية وجبال غرناطة حتى وصلتُ إلى مرفأ ألميريا الصغير بعد أن استحال علينا ميناء مالقة. كانت تنتظرني هناك بعينين مليئتين بالحيرة والشوق والخوف، ماريانا الغجرية. كان من الصعب عليَّ تركها وسط الفراغ، وكان من الصعب عليها ترك نجوم ألميريا التي ولدت تحت نورها الوهاج. كانت محاكم التفتيش المقدس ترفع في وجوهنا محارقها وإرهابها، وتملأ المدافع الإيطالية بأشلاء الهاربين من الموت إلى الموت. قلتُ لها بعد اليأس الكبير الذي اعتراني بعد فشلي في

إقناعها بالذهاب معي باتجاه العدوة الأخرى التي وعدتّنا بالجنة والخير والأنوار، وأنها ستُنسينا مظالم القشتاليين.

- ماريانا؟ هل يُعقَل أنّي أسافر بدونك؟ يصعب عليَّ تصديق ذلك. أي سوق تتحملني في غيابك؟ أي فوال سأكونه بدون امرأته وباخيته الجميلة؟

- بشيري وعمري. سأظلِ فيك ومعك حتى في غيابك. البحر يا بشير أحبه ولكنه ليس لي، وألميريا ستنساني حين أغادرها. أحبك وسأحكي كثيرا عن حلمك في الأسواق وعن الباخية التي سرقك ألقها المذهل وقادك نحو جنون لا تعرف بدايته ولا منتهاه.

وضعتُ يدي على قلبي. كانت زرقة المياه قد سحبتني إلى خوائها. حين استيقظت من الغفوة، كانت شواطئ سيدنا يوشع المليء بالأحجار والصخور اليابسة تنتظرني في الضفة الأخرى. كانت الرمال ساخنة والشمس مقلقة في غير فصلها. اختلطت الحقيقة بالأسطورة، لأن ما سمعته مخالف لذلك تماما. فقد قيل لي إن الأطفال هم أول من عثر علي مرميا في الساحل. تلاعبوا بجثتي طويلا قبل أن يفكروا في رميها من أعلى قمة جبلية للتسابق معها في الفضاء وتحديد من يسقط الأول في زرقة الماء؟ وقبل أن يكتشفني الرجل الطيب، أو القرصان، لا أدري، ويسرقني منهم مقابل بعض النقود التي رماها في حجر كبيرهم، ويقال في رواية أقرب إلى الصحة، إن سفن القراصنة الأتراك هي التي قادتني إلى الأغا قبل الدّاي، بعدما عثروا عليَّ نصف ميت في الساحل. حين استيقظت، وهنا تبدأ الحقيقة التي عشت تفاصيلها بوعي، واجهوني بتهمة الجاسوسية لصالح السفن الإسبانية التي ترابط على سواحل البلاد. قادوني نحو كل المحاكم المرخص لها بمحاكمة المجرمين الذين خانوا التراب والملح والأحباب. شتموني، بصقوا على وجهي، ضربوني حتى قيأوني الدم. عضني القاضي مرتين من كتفي وفخذي لأنه لاحظ الكذب يتراقص في عيني. أقسمت له برأسه وبرأس كل الأجلاء، أني مجرد فوال هارب من أسواق غرناطة، ومن أصداء محاكم التفتيش المقدس

التي كانت عيونها تقف في كل صباح عند مدخل البيت. كانت تضيِّع أحيانا يومها بكامله في اقتناء خطواتي، وفي أحيان أخرى، تقضي بقية اليوم في تأمل حماقاتي وجنوني، إذ كنت أبدو لها في الأخير رجلا غير مستقيم العقل. سألني الحاكم التركي الأغا سيد الدنيا، هو يطمئنني بأنه لولاه ولولا الأرمادة التركية، لكنت قد متُّ غرقا في البحرِ العاصف، وأن القرصان الإيطالي صاحب السفينة، الذي حملني من ألميريا، هو الذي أكد على هويتي السرية وأني مرسل لمصلحة سفن الإسبان، وقدم للأرمادة التركية الجواز الذي رخصت لي محاكم التفتيش المرور به إذا ما صادفنا سفنا إسبانية في عرض البحر. حاولتُ أن أشرح له قصة الورقة وعن دور أخي في الحصول عليها من صديقه ساموبل الذي كان يبيع هذه الوثائق بالدوقات الذهبية. حرفة البيع والشراء المدسوسة، هي التي هدّمت أسوار غرناطة. ضحكوا حتى إنكفأوا على ظهورهم وقالوا بصوت واحد: ابحث عن غيرها يا روحي؟ الكذبة مكشوفة. ثم سألوني عن ماريانا، تفاح المجانين وأسطورة الفجر، وحليب اللوز المر. قلتُ اخترتُ أرض أجدادي البربر، واختارتْ سماءها التي فتحت عينيها تحت ظلّها. في قلبها حنين كبير لكل الآفلين من الذي ظُلِموا، وفي ذاكرتها خوف الهزيمة، ولهذا اختارت البقاء. غجرية، في دمها شوق الموريسكيين وشراستهم. صرخ الأغا، سيد الدنيا، في وجهي بعنف شديد وبذاءة أرعشت فرائسي في سهوي وإغفاءتي الناعمة وأنا أتحدث عن مفقودتي ماريانا:

- أنتَ تقوّد عليَّ وإلا واش؟ تلعبها موريسكي ومهبول، وفوق هذا كله، عاشق. حبيبي! أنا لم أسألك عن خازوقك الذي اسمه ماريانا؟ أنا اسألك ماذا جئتَ تفعل في بحرنا؟ مفهوم وإلا أعيدها عليك بالخازوق لكي تفهمني!

- أرجوك يا سيدي، لا داعي للخازوق، إنه مُذلة لصاحبه ومهين للضحيَّة. فهمتك جيدا. قل ماذا تريد أن تسمع وسأكرر وراءك ما تشتهي سماعه.

في الأخير أصرّ القاضي مع الأغا، سيد الدنيا، على أني جاسوس، ويجب علي أن أتقيأ كل المعلومات التي خبأتها عليهم، ولو كان ذلك بإجلاسي على الخازوق المهيأ عادة للجواسيس. قالوا لي بأني أكثر من ذلك كله، ساحر وداعيه كذاب، باع غرناطة، آخر معاقل الدولة الإسلامية، لجحافل الإسبان، وقبض ثمنها دوقات ذهبية وفضية من ملوك الشمال. قلتُ للحاكم التركي: يا سيدي هذه الصورة هي الشكل المعكوس للحقيقة. محمد الصغير، ورأسك... محمد الصغير الذي سحرته الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة، بعسل لسانها ونسائها، بعينيها الناعستين وتفاحتي صدرها، هو الذي قبض المال والذهب مقابل رؤوس الغرناطيين. كان رخيصا. قال لها صدرك وسرتك، ولك البلاد والعباد. قالت: يا أبا عبد الله، صدري بعيد بعد النجمة السحرية عن ذاكرتك وهو ملك لغيرك. أعرفك مثلما أعرف هذه الجبال الوعرة. أوَ نسيتَ يا أبا عبد الله أنك رُبيتَ على أيدينا؟ ثم أغرقته وسط الدوقات الذهبية، وفروج القشتاليات التي أذهلته نعومة زغبها الأصهب. وفي الصباح سلّم مفاتيح المدينة وقلاعها، وركب حصانا هرما حلّسه بالألوان الموريسكية الزاهية، وسار باتجاه الربوة المطلة على المدينة التي تسربت من بين يديه كالرمال. كان منهكا من جراء مجهودات ليلة البارحة التي قضاها في حجر القشتاليات الشهيات، يتململ عاريا كالفأر الأحمر. لم يلتفت حتى وصل إلى الربوة المطلة على المدينة، ثم أطلق زفرته الأخيرة التي سمُي المكان بها: El Ultimo suspiro del Moro. وقبل أن يواصل تسلّقه المتعب باتجاه المجهول، تصاعدت إلى أنفه رائحة الأجساد المتفسخة، ظنّها في البداية منبعثة من الحصان الذي كان يركبه، من جرح غائر فيه لحظة سقوطه أثناء الصعود إلى قمة الربوة، ولكنه في الأخير تأكّد من أن الرائحة كانت تصعد من جثته التي بدأت تتفسخ قبل الأوان. لم يصدق الأغا، سيد الدنيا وقاضيه ومستشاروه، هذا الكلام، واعتبروه مجرد تخريف من تخاريف الكُهّان والسحرة. يئستُ بعد أن استنفدتُ كل طاقتي. أعادني الخوف إلى أحضان ماريانا ووجها المشرق. أيُعقل أن

تكون أرضي الأخرى أقسى من محاكم التفتيش؟ السؤال لم يكن وهميا لأني سأتذكّر فيما بعد كلاما قرأته لصاحب نفح الطيب[١٧] حين كانت أول وآخر مدينة دخلتُها بعد مأساة الكهف، تحترق مثل لعبة كبيرة صُنِعتْ من التِّبن، [**تسلّط عليهم الأعرابُ ومن لا يَخْشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أمولهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا منهم القليل من هذه المعرّة. وأما الذين خرجوا في ضواحي تونس، فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطوان وسلا، ومتيجة الجزائر.**] اتَّضح لي في نهاية المطاف أن ما رأيته في الكهف، عن الحاكم الرابع، لم يكن إلا جزءا يسيرا من مأساة خيط الدم الرفيع الذي كان ينطلق من ظلمة ليلة الكابوس. أصر أغا الأتراك، سيد الدنيا، على أني مجرد مدّعٍ، وأن غرناطة ما سقطت لولا أمثالي. كان رأسه ثقيلا مثل الصخور الزّرقاء التي ماتت من الداخل. وصدره موشّى بالنياشين الملونة. صرخ والزبد يتطاير من فمه الواسع التي لم تكن به أية سنّ:

- حُطُّوا دِينْ أمّه وِين ما يْشُوفْش النور ويشمّ الزّبل. سيتعلم كيف يتعامل مع أسياده. أنا سأخرجه من هبله وأدخله حيا في جهنّم...

وظَلُّوا طوال الستة أيام التي تلت حبسي، يسألونني عن الصغيرة والكبيرة، ولم يتركوا حتى التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن تجمع رجلا بامرأة. في اليوم السابع جاء الملثمون السبعة وأنقذوني، بعد أن قادوني باتجاه الكهف وطلبوا منّي النوم ومحاولة الراحة والنسيان. كانوا يجرون في أثرهم كلبا أليفا لا ينبح إلا عند الضرورة. ثم أضافوا: حين تستيقظ ستجده عند الباب ينتظرك. في الحقيقة لم أنتبه لا لشكله ولا للونه، ولا حتى لهيئته، لكن طريقة نباحه التي تحمل بحة خاصة، ظلت عالقة بذهني. ترى أين هو هذا الكَلب الآن؟ ربما يكون قد ترك عند انسداد الباب حتى لا يزعجني.

---

(١٧) المقرّي.

- . . . .

- أرى مولاي يكز على أسنانه حتى تشققت، هل يأمرني سيدي بالمواصلة أم بالصمت؟ أشعر بأني بدأت أقلقك في راحتك.

. . . .

صمت. لم يرد الحاكم بأمره على دنيا لأنه كان ما يزال مكمّما فمه بقطعة القماش الحمراء، ويكاد صدره ينفجر من صعوبة التنفس. كلما قالت كلمة ومالت نحوه قليلا بلباسها المفتوح عند فتحة الصدر، رأى نهديها وهما ينزلان قليلا إلى الخارِج حتى يكادان يلامسان فمه، قبل أن تقوم وتستقيم في جلستها. بنت الكَلب تَستفزني، تمتم الحاكم بأمره، حكيم أرابيا، لأني وعدتها بأن لا أكسر الحكاية في منتصفها وهي تستغل الفرصة إلى أقصاها. عليّ أن أضغط أكثر وأتحمل شرمطتها حتى النهاية. بعدها سأهريها وأبيدها إذا استدعى الأمر ذلك. أي جسد هذا الذي صُنع من نار جهنم وشهوة الشيطان؟

- أشعر بنفسي معلقا على خيط من نار. أي نهاية تنتظر هذا المعتوه الذي ظن فجأة نفسه المهدي المنتظر؟

- حبيبي ما أقوى حكمتك وتبصرك.

ثم انحنت من جديد على وجهه المحمر والمنتفخ. دخل عطرها الحاد إلى أنفه حتى حرّك كل مكامنه وجعل الدم يسري في عروقه بسرعة مجنونة. تمنّى فقط أن يركبها. أن يرضعها مثل الغر الصغير كما تعود أن يفعل، وأن يدميها حتى تصل الشهوة إلى منتهاها. ثم يمددها على بطنها ويسفدها بكل ما أوتي من قوة. لكنه أجّل ذلك كله عملا بالوعد الذي قطعه على نفسه، وأسوة بقصتها.

- كأنك لم تسمعي حرائقي وقلقي؟ قلت لك إني أشعر بنفسي معلقا بين الأرض والسماء.

- أعرف يا حكيمي وقرّة عيني وميزاني عندما تُفتقد الموازين، الباخية ما تزال على المشارف ومولاي الذي لا يخلف وعدَه، وعد بأن ينتظر، وأن يتعلم الصبر. الحكم هو الصبر نفسه. لو يمهلني سيدي

وحبيبي قليلا من الوقت، سأفرغ من الحكاية بسرعة. هي ليلة واحدة لا أكثر وإن تعدّدت أوقاتها. ليلة الليالي يا حكيمي. شهرزاد سجنت كل الليالي في سرّها، ولم تقل شيئا، ولكني سأقول ما نفته دابة الغواية.

بدأت يا سيد البلاد والعباد، مولاي الحكيم، أشعّة الشمس تفقد بريق صفرتها وهي تميل نحو المغيب، منعكسة على ظلمة الكهف. والظلال الثقيلة تنسحب شيئا فشيئا، ظلاً ظلاً.

كان الزمن ثقيلا وقاسيا. تساءل بشير إلموزّو عندما لاحظ بعض العلامات: هاه؟ هاااه؟ هكذا إذن؟ هذه هي الفجوات التي أُغْلقت بالطين. يبدو أن الملثمين السبعة، حينما غادروا الكهف، سدوا المكان من ورائهم، بشكل نهائي، وتركوا الفجوات الصغيرة خوفا عليَّ من الموت اختناقا داخل هذه الحفرة. حاولت أن أتبع نباح الكلب، الذي بدأ يقترب. تأكّدت من خلال الأصداء، أن مكان التبليط هو نفسه الباب الذي سد قبل الخروج. حاولت أن أقنع نفسي بأن ما يجري لا يمكن أن يكون امتدادا لكابوس الحاكم الرابع ولكنه كابوسي الخاص وحاضري. مددت يدي باتجاه الفجوات. نزعت الأتربة. بمجرد أن لمستها حتى بدأت تتساقط الكتلة الواحدة تلو الأخرى. حتّى اللباس الذي كنت أرتديه، بدأ يتفتت بمجرد أن لامس الصخرة الكبيرة التي حاولت إزاحتها. ومع ذلك لم أشعر لا بالتعب ولا بالوهن، ولا بثقل الأجسام الضخمة، ولا حتى بالجوع. هل يُعقل أن يكون كل هذا الزمن قد مر على اللحية التي أصبحت تملأ وجهي؟ مرَّ عليها الزمن الآخر حينما تمدَّدَ السيف القشتالي على الأعناق التي قدمها أبو عبد الله محمد الصغير للممالك الشمالية القادمة من الثُّغور المهملة. لم يكن أمام الأجداد يومها خيار آخر غير الالتجاء إلى قمم المرتفعات التي ما زالت تحفظ حتى الآن صرخاتهم، ولم يبق أمامي سوى ركوب بحر ألميريا أو النوم على صفائح محاكم التفتيش المقدس بتهمة مخالفة التاريخ المدون في الكتب المذهبية والمغفلّة بالقطيفة الملونة، والخروج إلى الأسواق ورواية أخبار الآفلين من العرب والبربر والعجم ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. كنت

أرويها كما عشتها أو كما عاشها الصادقون من الأوائل الذين خرجوا اليوم من هذه الدنيا. آخر المجانين كنتُ، أروي حكاية السقوط كما كان يجب أن تُروى لا كما كتبها الورّاقون الذين جفَّ حليب الصِّدق في أقلامهم.

عندما نَزَعت الأتربة، انزلقت بعض الشلالات الضوئية الناعمة من الفجوات، ثم بدأت الصخرة الكبيرة تتزحزح وتميل باتجاهي ببطء مخلفة خشخشة شجرة عجوز وهي تنقلع من جذورها. اندفع الضوء بقوة. في البداية أُصبت بعمى كلي. ثم شيئا فشيئا، أصبحت أميّز بين الأشكال التي كانت تحيط بي. نفضت يديَّ. شعرت بالرمل يملأ حلقي ويسده. تذكرت السَّطل الذي تركه لي الملثمون قبل أن يغادروا المكان وصرة الكتّان التي وضع فيها الأكل. لم أجد صعوبة كبيرة في إيجادهما. مددت يدي باتجاه السّطل، فلم أسحب إلا نصفه العلوي، لأن النصف السفلي كان قد تحول إلى أتربة التصقت بالأرض. أما الصرّة تفتت قبل أن ألمسها بيدي. تأكدت، هذه المرة من أن الزمن الذي مرّ لم يكن هيِّنا، وأن ما وقع لي ليس بعيدا عما حدث لأهل الكهف. الفارق بيننا هو أنَّ نومهم استمر هادئا حتى لحظة الاستيقاظ، بينما ما حدثَ لي، هو بعيد عن هذا كله. فقد عشْتُ جحيما مخيفا طوال الكابوس الذي لا أعلم بدقة كم دام قبل أن ينطفئ.

ما حدث يا حكيمي بعد ذلك، تقول دنيا، هو أن البشير واصل عملية الحفر للخروج من المغارة التي كان يحلو له أن يسميها كهفا. أخذ السطل، أو ما تبقى من السطل، وبدأ يُزيل كتل الأتربة حتى بدأت النسمات البحرية الباردة تتسرب بكميات كبيرة، مصحوبة بأشعة شمسية زرعت الكثير من الدفء في ذاكرته الباردة. صوت الكلب الذي كان بعيدا، أصبح أكثر قربا، وزاد وضوحا. تدحرج بشق الأنفس خارج الكهف. وبدأ يميز ما بين أصوات الطير، وهدير البحر والنباح وتكسر الموج و. . . تذكر فجأة أن البحر لم يكن بعيدا. هكذا خمن. الكلب الذي كانت أصداء صوته تصله متقطعة، أصبح الآن يقف في مواجهته. تشمَّمه، ثم عاد إلى مكانه. قال له علماء المدينة، بعد هذه الحادثة بزمن

كثير، إن الكلب، كما وصلهم ذلك من إحدى روايات حسن البصري، كان اسمه قطمير وهو الذي صاحب سيدي عبد الرحمن المجدوب حتى موته. قالوا له أكثر من ذلك كله، إنه حينما خرج من الكهف كان مخيفا. كل من رآه، ولى الأدبار، ممتلئا بالرعب، من المهابة والخوف. شيء ما فيه كان يسير على غير عادته. أكد له علماء المدينة على أشياء كثيرة لم يكن يعرفها قبل هذا الزمن.

- أنت لن تموت يا بشير إلمورّو، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقض من رقدتك الأبدية وتستيقظ بشكل كامل وتنتهي أبدا كل إغفاءاتك.

الذي حدث بعد ذلك، أيها الملك الهمام والظل الكريم صاحب المهابة واليد البيضاء، هو أن البشير عاد إلى قلبه وذاكرته، وشرع يبحث عن إجابات مقنعة لكل الأشياء الغامضة التي كانت تملأ قلبه. ويعيد بناء أشواقه المنهارة في تساؤل ظل يسكنه طويلا ولم يتخلص منه أبدا: هذا هو أنت إذن يا بشير إلمورّو الهارب من نار جهنم التي وصل لهيبها إلى آخر المدائن الأندلسية؟ أنتَ تذكر جيدا أنك حين فتحتَ عينيك، قلتَ، ربما مكثت يوما أو بعض يوم؟ دخولك إلى الكهف كان في أول النهار وخروجك منه كان في آخره. حين شقت الظلمة عينيك، لم تر البلاد التي فتحتَ فيها قلبك قبل زمن بعيد. أهل الكهف كانوا مثلك، همستَ للعزلة والنور المتسرب من الأعالي، دخلوا بلادا وخرجوا من بلاد، ففوجئوا بناس آخرين لا يعرفونهم، بوجوه محفورة وباردة لا عهد لهم بها أبدا. دخلوا مدينة يجهلون سرها، لا يعرفون لا خواصها ولا عوامَّها، لا صغيرها ولا كبيرها. وقبل أن يتهموا أنفسهم بالجنون، تذكروا الجحيم القديم. سأل أحدهم عن الطعام، قيل له اذهب إلى سوق المدينة. حمل النقود وانحدر باتجاه الشوارع الخليفة التي بدت له غريبة. وحين قيل له إن نقودك انتهى مفعولها منذ أكثر من ثلاثة قرون. ضحك من جهلهم وقال: هذه نقودكم وعليها رأس ملككم؟ ضحكوا منه كثيرا وأكدوا له أن حكم السلالة التي يراها مختومة على النقود، انتهت منذ أكثر من قرنين. شك مرة أخرى في أن تكون المدينة، هي مدينة

دوقيانوس. دوقيانوس كانت قد اندثرت. وأنتَ يا بشير إلموزّو تواجه خرابا لا عهد لك به أبدا، الأتربة تملأ الجسد المنهك. اللحية متدلية مثل خيط جهنم المحروق. وقطمير، الكلب عند بوابة المغارة، يروح ويجيء كأنه يعرفك جيدا، يتشممك، يذهب ثم يعود ليقف عند قدميك، يلعب بذيله الملون. قيل لك فيما بعد، إن الزمن الذي قضيته يتحدد بثلاثة قرون، تزيد تسع سنين بالقمرية، وهي ثلاثمائة بالسنوات الشمسية. حين جلس علماء البلدة يحسبون، يقول الراعي الذي واجهك عند بوابة الكهف، ينقصون ويزيدون، ينزعون ويضيفون، يضربون ويقسمون بمساعدة علماء التنجيم، حتى اتفقوا في النهاية على رأي واحد، لم يخطئوا إلا في السنوات القمرية التي لم تكن دقيقة. كانوا متأكدين من أنك ستأتي بعد ثلاثة قرون بالتمام والكمال. حياتهم بكاملها كانت متعلقة بدقة الحسابات التي كانوا سيخلصون إليها لأن القصر في الجملكية، أكَّد للناس مرارا، أن العلماء ليسوا أكثر من جماعة من السحرة، الكذبة، الخدعة السفلة، أدعياء الحكمة المزيفة. لكن الذي لم تصدقه الرعية هو لماذا لم يستطع القصر تصفيتهم مادام يعرف جيدا أنهم سحرة، كذبة، خدعة، سفلة وأدعياء الحكمة المزيفة؟ يقولون إنَّ خوفه منهم دفع به إلى وضعهم بعيدا عن وسط المدينة، درءا لشرهم الأكيد، وخوفا من تأثيرهم على الرعية، فنفاهم إلى أعلى قمة داخل الجملكية، لتسهيل مراقبتهم.

شعرت دنيا فجأة بالصَّمت يلفُّها من كل النواحي. حتى الطيور التي تعودت أن تسمعها في مثل هذا الوقت بالضبط، صمتت وكأنها كانت تصغي للحكاية هي أيضا أو غادرتها من كثرة التعب.

- هل نام مولاي؟ هل سرقت الغفوة الخادعة حكيمي وحبيبي؟

قالت دنيازاد وهي تدفع بجزء من ساقها اليمنى نحو أنف الحاكم بأمره، الذي كان قد دار صوب الحائط لكي يخبئ وجهه الذي التهب فجأة من كثرة التنهد المتكرر والغمّ وضيق التنفس بسبب الخرقة الحمراء.

- مازلت في نفس القلق، أنتظر نهايته، لنمرَّ إلى ما هو أهم.

أتساءل في أعماقي إذا ما كان هذا المهبول يستأهل مني كل هذا الصبر؟

- ليس صبرا ولكنه حقيقة مخفية. على مولاي وهمامي العظيم أن يلبسها ليتّقي شرها نهائيا. دوام الملك من دوام الحيلة والذكاء.

- أشكُ أحيانا إذا ما كان هذا الرجل يستأهل منّي كل هذا الصَّبر؟

- أنت أعرف بالشاردة والواردة، ولكنني أكرّر عليك ما خَفِيَ من السّيرة فقط. للقصّة وجه آخر يا مولاي، يا من اصطفاه الله ليكون خليفته في أرضه، في ماله وعرضه وحتّى تاريخه.

- يُخيل لي أحيانا أني لا أعرف شيئا أبداً، وأن كل حواسّي الحية قد سُرِقت مني. تتكلمين عن شيء وقع في آرابيا وكأنك تتحدثين عن بلاد أخرى؟

- أنت تعرف يا حبيبي أنه طوال الأزمنة الماضية، والقصر الذي ارتبكت أركانه بسبب الصراعات الداخلية، يحاول أن يستولي على قلعة العلماء لأنها قريبة من الكهف، ولكنه لم يفلح إذ كانت جيوشه تنكسر في أسفل الجبل حتى قبل أن تتجاوز السفح. فترجع أو تباد في المدرجات الأولى التي يحميها العلماء والعمال. فمن كان يملك الكهف، فهو سيملك مستقبل المدينة، لكن القلعة صعبت عليه كثيرا. علماء المدينة كانوا يعرفون جيدا مشاكل القصر القاسية.

- كان الغرض وضع حد نهائي للتحالف المجرم بين العلماء والعمال. أكبر الطماعين في السلطان. يركبون الجماهير لتهديم القصر وتفكيك البلاد باعتمادهم على مجرمي المرتزقة.

- عمال البحر كانوا يقطعون البحر على سفنكم. تسمُّونهم القراصنة، ويسمون أنفسهم رياس البحر أو العمال. لن أعيد عليك خرابا تعرفه بالتفاصيل ونحن نعيش في عمق حرائق الحر بالأهلية.

وهو يخرج من عفن الكهف، تمنى بشير إلمورّو يومها أن يغمض عينيه ويتنفس البحر دفعة واحدة حتى يدوخ من شذى العطر الآتي من بعيد، لكن ضيق صدره لم يسعفه كثيرا. كان الانهاك باديا على ملامحه المغبرة. جلس عند البوابة التي كانت تشبه خرابا مرت عليه قرون من

الأزمنة، على صخرة ضخمة مطلة على البحر. شعر براحة كبيرة تتسرب داخل جسده، وبعذوبة لم يشعر بها منذ زمن بعيد، تشبه عذوبة أسواق غرناطة عندما يقضي يوما في الركض وراء الحكاية، وفي المساء عندما تميل الشمس نحو المغيب، يصعد إلى الهضبة ليسرق كل عنفوان المدينة، ويرتاح على صخرة زفرة الموريسكي الأخيرة ويتأمل الخسارات الكبيرة.

هدأ ضباب الجحيم ونزل نحو القاع. وبدأت تندفع إلى صدره المدن البعيدة التي لم ينسَ روائحها ولا دموعها، وهي تودِّعه للمرة الأخيرة.

كان بشير إلمورّو قد خرج من غفوة الموت، ليتأكد الجميع من أنه علامة زمانهم الأكيدة التي طال ظهورها وانتظارها. هذا ما ألبسه إياه الناس، لكنَّه هو ظلَّ عالقا على الحافة الفاصلة بين الوهم والحقيقة التي لم يلمس أيّا منهما.

* * *

الفصل الثاني

الْتِبَاسُ الرُّؤْيَا

بعد لحظات قلائل، عادت دنيا بعد أن غيَّرت كل المساحيق الخمرية، وعطرها ولباسها، بألوان أخرى ساحرة. كان جسدها الغضّ يعوم في لباس شهواني بلون بنفسجي، مفتوح بفلقة، من السرة حتى الكعبين، مرورا بالساقين.

كان يُصغي لكلّ أنفاسها. سمع الحاكم بأمره خطواتها وهي تقطع البهو الواسع من القصر. كانت قوة عطرها تسبقها. جلست على ركبتيها مثل الساموراي الذي يستعد للموت الاختياري. لم تتكلم. ولكنها أخذت رؤوس أصابعه. لحستها قليلا وهي تنظر إلى عينيه اللتين لم يبق فيهما إلا البياض. ثم أدخلتها في عمق صدرها. تحسس الحلمتين الموردتين. كانتا نافرتين كوردتين في بداية تفتحهما.

تذكر شهوته الطفولية التي كانت تملأه. سبقته إلى الملاحظة.

- لأجل هذا على حبيبي وحكيمي، أن يصبر، وأن يمنحني سمعه حتى النهاية. فأنا لستُ هنا إلاّ من أجله. أن يظل معي على نفس الغيمة القاسية والجلفة أحيانا، حتى النهاية. فأنا لم أعد أملك إلا هذا.

لم يقل شيئا. عَضَّ على شفتيه المتورمتين، ثم وضع الخرقة من جديد في عمق فمه. بينما زحلقت دنيا أصابعه من جديد بين فخديها ليشعر بحرارة جارفة لم يستطع مقاومتها، قبل أن تزحلقها من تحت التبان، واحدا واحدا. فوق زغبها الناعم، ثم انحدرت بها قليلا حتى أحست بها تتوغل في عمقها، فتأوهت من جديد من شدة اللذة التي ارتسمت في عينيها. حاولت أن تقاوم كل شيء.

- أووووووووووووه... هل يظن مولاي أن رغبتي أقلّ من رغبته؟ حرائقي تشتعل أيضا، ولكني الليلة صممت أن أضع كل شيء خارج دائرة الاهتمام وأن لا أبقيك إلا أنت في رأسي. مولاي... هل أواصل حكاية المجنون أم أتوقف؟ من أجل هذا عليك أن تصبر قليلا، وأن تملأ قلبك بالإيمان.

- يلعن دينك ما ألذَّك. سأصبر لعذاب جهنم هذا. يا الله...

- لن يشككني أحد في قوتك وجبروتك وسلطانك، كنت أعرف أنك تقتفي كل خطوة في الباخية ولن توقفها في منتصفها أبدا. الغبي هو من يترك مصيره ومصير دولته ويغرق في الحالات التي يمكنها أن تنتظر.

الشيء المؤكد، يا مولاي، هو أن زمنا واسعا مرَّ على تلك الحادثة التي دفعت ببشير إلمورّو إلى إعادة تركيب كل الأشياء القديمة التي جاء بها من مدن لم ينسها أبدا. زمنٍ بعيد، يعدُّ بانسحاب الأنجم من السماء، والأقمار، والسحب التي أُجبِرت على الاستلقاء فجرا على صدر السماء قبل أن تغيب فجأة، وفي قلوبها عمر من الأسرار المخفية وغصة الذي جاء ثم عاد قبل أن يرى المهزلة التي تملأ فجوات الحيطان الضيقة وصالات الاستقبال الباردة في السجون التي تتجشأ بها أقبية المدن. من كان يحب الله يا ملك الزمان وحاكم القرن العظيم، سيجبر على الوقوف لحظات طويلة أمام هول المأساة ويواجه الحزن الأسود برباطة جأش وصبر.

صرخ بشير إلمورّو، يا مولاي، بأعلى صوته، كأنه كان يعوي وسط خواء مليء بالأصداء والكثير من الفراغ. كرر مرة أخرى كلام سيده الحلاج وسيدنا المسيح.

- يا الله، كنت فيك وكنتَ فيَّ، لماذا تخلّيت عنا؟

عبدناك حتى تشققت الركاب من كثرة الركوع والسجود، وتقعر الجسد، وتجوف مثل الإناء من كثرة الوضوء والصلاة. وها أنت الآن تتركنا وحيدين نواجه بصدر مفتوح، أصداء ورماد المدافع الإيطالية والجيوش القشتالية، في حرب غير عادلة قُبِضَ ثمنها سلفا. حتى في

حرب البشرات لم نعثر عليك، ولا على ظلك، فمن قال عنك إنك موجود في أي مكان وأي زمان؟ كنا نُطحَن من هول الذّعر، ومع ذلك لم نستسلم. أكلنا التربة الحمراء التي جرحت هدوء الجبل العالي وبقينا كما نحن، أوفياء للشهادة ولبيتك الخالي. الجرح اتسع يا الله، لكن القلب ظل مليئا بالنور والأمل.

- أجبني يا الله؟! لماذا تخليت عنا ونحن في كل صباح نفرح بشمسك؟

أين جبروت السلطان الذي لم نره إلا أيام الراحة؟ حين استيقظنا ذات فجر بارد فوجئنا بأبي عبد الله، محمد الصغير، يسرق دمنا وعرقنا ونساءنا، ويبيعنا ويبيع معنا الجبال التي وقفت باستقامة في وجه المدّ القَشتالي. نصحَنا بالانصياع إلى أمر الله المكتوب والتسليم بالأمر الواقع، فالهزيمة تقرأ في وجه الناس والمدينة. صرخنا: القلاع كثيرة ونستطيع أن نقاوم بدون يأس. قال القلاع؟ يا حسرة على القلاع، لقد أخذوها. قلنا: إغْط الأوامر وسندافع حتى الموت بما لدينا من أسلحة عن مدينتنا؟ من يسلم مدينته بلا مقاومة كمن سلم عرضه برضاه. قال: حتى هذا غير ممكن، الجيوش القشتالية في شوارع غرناطة، فردناند وإيزابيلا يمسحون حي البيازين من آخر المقاومين. قلنا: حي البيازين والموت شيء واحد. قال: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله قتلها. صرخنا: خدعتنا يا عزّة عصره وزمانه. قال: خدعتكم النفس الأمارة بالسوء، وتخلى عنكم أبناء العمومة في العدوة الأخرى. كان علينا أن نصدِّق أن ما حدث لم يكن حلما، لأن المنطق المشلول كان قد بدأ يزحف نحو القلوب المتعبة.

جحيم ليلة الليالي أيها الملك الهمام، كان قد تحول إلى معدن جامد، عند بوابة الكهف. كان المساء قد بدأ يلف المدينة بالدهشة والخوف. تحرك الكلب قطمير. قام بعدة حركات لإقناعه بالسير وراءه. اقتفي بشير إلموريّو خطاه قليلا من وراء الصخرة العالية، فواجهه راع ما تزال على وجهه علامات نوم مقطوع. التفت الراعي باتجاه المغارة، رأى

الفوهة مفتوحة. دار سبع دورات حول شجرة الخروب الوحيدة التي نبتَتْ في ذلك المكان بشكل غريب، ثم قفز في مكانه وهو يرتعد:

- هو ذا أنتَ يا سيدي العظيم. قطعتَ النار والقفار واخترتَ أن ترتاح في هذه الأرض الطيبة. ننتظر قدومك منذ أكثر من ثلاثة قرون. لقد تأخَّر مجيئك أكثر من تسع سنوات، بحسب التقويم الرسمي المتعامل به.

لم يدرك بشير إلمورّو جيدا التفاصيل التي كان الراعي يفضي بها أمامه. فاتحه بالقشتالية، لكن عيني الراعي المشدوهتين بينتا له أنه لم يفهم ولا كلمة مما كان يقوله. تكلم معه بالعربية. استبشر خيرا. ابتسم، مؤكدا بذلك عن ارتياحه.

قاتلتَهم يا سيدي بصبر وأناة!؟ هكذا بدأ الراعي حديثه. حاربتَ كل الأقوام، ثم استرحت دهرا من الزمن مثل المحاربين العظماء وجئتنا الآن لتقف شامخا على حافتي العقل والجنون. هو ذا أنت الآن كما صاغتك كُتُب الأولين والفقهاء وذوو العلم المكين. بطل قادم من أغوار الدم، والردم والحفر الكثيرة والهزائم التي لا تحدّ، في قلبك قرون الجفاف، والأزهار البرية التي لم تقتلها الشموس الحارقة. نبضك يا سيدي العظيم يملأ أصداء المدينة بكاملها. لو تأخرتَ ساعة واحدة، كانت الرعية كلها ستموت قلقا عليك، ويأسا من رؤيتك. الحمد لله أنك أصبحتَ هنا في الوقت الذي كُتِب لك أن تكون فيه.

اندهش بشير إلمورّو من دوران الراعي حوله ومن دهشته وهو يحاول بالكاد أن يلمسه. هل هي الحقيقة، أم للحقيقة وجه آخر؟ تساءل بشير مرة أخرى. إما أن الراعي مجنون، وهذا لا يبدو عليه أبدا، وإما أن الجحيم السابع غيَّر كل شيء في رأسي، وأصبح العقل جنونا والجنون عقلا؟ حاول أن يعيد تركيب كل الوقائع من جديد لكن الأمر استحال عليه لأن التَّعب كان قد أنهكه حتى العظم. تذكر أيام العسر. تناهت إليه لحظات الخروج بقسوة وتمزُّق. كان الله قد غسل يديه منا وتركنا وحيدين في برية الخوف مثلما فعل ذلك يوم ركبتُ بحر ألميريا منكسرا

ووحيدا. يوم كاد البحر يأكلني ويرميني مثل القشة اليابسة. يوم وقفت عاجزا عن الدفاع عن نفسي أمام الحاكم التركي الذي أكّد لي أني مبعوث كجاسوس من طرف السفن الإسبانية الرابضة في مواجهة السواحل الوطنية. كانت وثيقة محاكم التفتيش سبيلهم في الإدانة. يومها شعرت بعجز عن رد المظالم، توجهت نحو الله، فوجدته قد تحوَّل إلى محارب هرم، جلس بجانبي يسألني عن رحلتي في البحر وكيف وصلت إلى هذه الأرض، تاركا ورائي حنين غرناطة وشوق الأحبة الذين صعب عليهم نسياني. قال في لحظة انزعاج من صمتي المزمن: أحك يا ابن القشتالية، أحك ماذا حدث؟ قل لهم إنك رأيتَ ما لم يروه، ولن يروه وهم على كراسيهم الوثيرة. أحكِ، ما لَكْ سَاكت؟ كان الله حزينا عليَّ. قلتُ بيأس: لم يحدث شيء يا سيدي يستحق الذكر ويُذهِل عزلتك الموقَّرة وجبروتك. من الصعب أن يحكي المرء في حضرتك عن الأشياء العادية. قطب حاجبيه كمن يستعد لمعركة ضروس. ثم نظر إليَّ بملامح مليئة بالحيرة. هزني مرة أخرى من كتفي حتى آلمني: يجب أن لا تصمت. قلتُ لك أحْك، أنا أريد أن أسمعك. أريد أن ألمس كل ما يؤذيك. أحك. حرتُ في ما يمكن أن أقوله له، هل كان الله معي أم ضدي؟ ثم تركني أحكي فجأة على سجيتي، بعد أن أنساني نور الله وجهَ الحاكم التركي: كان البحر يا سيدي واسعا سعة عرشك العظيم، وسعة هذه السماء الطيبة، ولم يكن لي من معين غيرك يا مولاي. حين غَابَ الجميع، حضرتَ أنتَ، لأنك كنتَ الوحيد المتبقِّي من كل ما كان يحيط بي. وكان عليَّ أن أتشبَّث باسمك ورحمتك العظيمة. نظرت إليَّ في عمق عينيَّ، وقلتَ لي ما تقوله لي الآن: أحكِ يا ابن القشتالية، أحكِ ولا تخف، عن البحر الذي لم يعد بحرا، عن أسماك القرش والظلام والغيبوبة والحلم الذي صار شعلة، عن الكوابيس المملحة بأملاح المحيطات التي لا يهدأ موجها. أحكِ كيف رمتك السفينة أو رميت أنت بنفسك في اللجنة وتشعنقتَ كالغريق بآخر الألواح الخشبية الهرمة. وقل هل ما حدث لك كان بالصدفة أم بالقرار المكين؟ لقد عماك الحزن حتى

صرتَ لا ترى شيئا. أحكِ كيف رمتك الموجة العمياء على الشاطئ، وكيف وجدك الأطفال، قبل أن يفكروا في قذفك من الأعلى، قطفوك من السَّاحل المهجور، لعبوا بك أو معك كثيرا مثل دمية مشوَّهة. حتى ملامح الرجل الذي أنقذك لا تتذكرها جيدا، ولا تعلم بالأساس إذا ما كان هو حقيقة من أنقذك من موت مؤكد، أم هو من باعك للحاكم التركي؟ أو لا هذا ولا ذاك، وأن من أنقذك هم القراصنة. هم الذين وجدوك وقبضوا ثمنا لرأسك. وقل إذا كنتَ تعرف، من حرك البحر ليرميك على هذه الأرض؟ ومن مدَّ يد الأطفال نحوك وذكَّرهم باللعب معك وبك؟ أحك يا ابن القشتالية عن الريح الزمهرير، وعن صهد النار الذي ملأ شوقك، وحنينك إلى الأرض الأخرى والخيبة. أحكِ عن جهنم التي انطفأ لهيبها عند قدميك ومن نفخ فيها من روحه لكي لا تؤذيك، بعد أن اندفنت جمراتها داخل صدرك بردا وسلاما. أحكِ يا ابن القشتالية عن السر المشوش في بؤبؤ العينين. أحك... أحك ولا تخف، فلن أحاسبك، فأنا أشفق عليك؟

لم يتحمل بشير إلمورِّو قسوة الكلام، فصرخ بكل ما أوتي من قوة: أمهلني يا الله، فليس لي مخك وعقلك وراحتك وعزلتك ويقينك؟ أمهلني، ذاكرتي متعبة وعيني وروحي ودمي، مثقلون بالخيبة. أمهلني يا الله حتى أستعيد جوهرك ثانية ونورك الذي غاب عني. لا أتذكر الآن شيئا مهما سوى أني غضبت من صمتك أمام القتلة. هي ذي بعض مسالك الذاكرة ترتسم أمامي... تذكرت الآن. البنايات الغرناطية الواطئة، الشوارع الملتوية الضيقة، انزلقت من ناحية السقف القديم، نصفه قرميد ونصفه الآخر تراب أبيض، كان يطل على السوق، وحوانيت العطارين. لم يكن عندي في ذلك المساء ما أخاف عليه. ودَّعتُ حصاني في الإسطبل. كان ركوبه حتى ألميريا يثير الكثير من الشبهات حولي. أردت أن أبكي عند رأسه، لكن زمن الدمع كان قد تأخر كثيرا. ماريانا كانت على شاطئ مدينتها تنتظرني. قالت يجب أن تأتيني بسرعة، رأسك في أسواق غرناطة أصبح مطلوبا للقطع. مسافة الخوف بين بيتي والشاطئ

المهجور من كل الكائنات الحية إلا من سكانه الدائمين: التجار واليهود والغجر ومقهى البحر. عيون محارق محاكم التفتيش تملأني. تتبعني. تنهكني. موت الوحدة صعب، والأصعب منه أن تشعر بأنك وحدك لا شريك لك في هذه الدنيا. لا صوتَ يصرخ من أجلك. لا وجه يستطيع أن يستحضر شجاعتك. في زمن ما من الأزمان، كان الإنسان حين تضيق الدنيا عليه، يلتفت صوب القبلة ويرفع يديه، في حالنا أصبحنا نلتفت صوب البحر وندفع بأنفسنا نحو تهلكة أكيدة. لم نجد ما نسند عليه ظهورنا. قالت عنك محاكم التفتيش المقدس إنك لعنتَ مكاتبهم وسلطانهم وشككتَ في إيمانهم، وأنتَ لم تخن أبدا خبز الذين أحبوك ودينهم. وقيل عنك إنه عندما وصل الغبن قلبك، صرختَ: يا محمدا! الكلمة وحدها كانت كافية لأن تقودك نحو المحرقة. قيل لك يجب أن تهرب وبسرعة. أن لا تنتظر ولا لحظة واحدة. قال رودريكو، وهو أحد الغجر المقربين من محاكم التفتيش، لماريانا. يجب أن تتَّصلي بأخيه في ألميريا بسرعة ليخبره بضرورة الهرب. ألميريا كانت تعرفها مثل جيبها. حكت لأخي قبل أن تلقاني عن كل القصة وعمَّا تحضره لي المحاكم لرميي في النار. قال أخي لماريانا: لا حل أمام جنون بشير إلا أنت. تَرْك البلاد. يجب أن تشجعيه وإلا سيُحرق أمام عينيك. ثم وعدها بتدبير أمر وثيقة المغادرة من صديقه ساموِيل. قالت له البقية عليَّ. قال لها وهو يريد أن يخبئ أحزانه: كم مرة قلت له، دعك من صنعة القوالين الذين لا يراقبون كلامهم. كنت أعرف أنها مهنة الغرناطيين الذين انتهوا في معظمهم تحت نيران المدافع الإيطالية أو داخل المحارق. لكن رأسه كان وخشنا مثل رأس أحد أجداده البربر الذين أكلتهم جبال البشرات. قلت في خاطري وأنا أتلقى خبر الخروج القاسي: كيف ستواجه المحرقة إذا أصررت على عدم الخروج وظللت تغني لأرض لم تعد لك؟ لا تركب رأسك، الذين يريدون من الخروج ليسوا أعداء لك؟ لكن لحظة الخوف أزاحها وجه جدي وأزاح معها وجه هذا الزمن الذي اختارنا لنكون وقوده وحطبه. لم أعد أتذكر أين وضعتُ سلاحي الذي لم يغادرني طوال

حياتي؟ قلتُ ربما وضعتُه عند باب الجنة، عندما وقفت أنتظر رؤية وجه الله فقط لأقول له كم كنا نشعر بالوحدة والعزلة، ولكنه في كل مرة يشيح بوجهه صوب القتلة ولا يسألهم عمّا فعلوه فينا. لم يكن حُلُما عندما جاءني جدي، سيدي رمضان الموريسكي، مدججا بالوصايا والحكم. قال لي في تلك الليلة الأخيرة في غرناطة: أمامك البحر، ووراءك محاكم الموت المقدس. اخترِ بين الموت والموت. لن تنقذك إلا الموجة المنبعثة من شقوق الشطِّ المهجور. لم يكن حلما، ولكن ذاكرة عشَّش فيها الخراب والحزن، وبقايا البحر الذي سرقه القراصنة ورجال البلاد.

كانت الدهشة ما تزال تملأ عيني الراعي الواقف بحيرة وخشوع ظاهرين. لم يفهم جيدا ما كان يحدث أمام عينيه، ولكنه كان يعرف جيدا ما كان عليه القيام به.

لست أدري هل كان الراعي يفهم كل ما كنت أرويه له عن قصَّتي، إذ أن ملامحه المشدوهة أوحت لي بأن أشياء كثيرة مما كنت أستخرجه من الذاكرة المتعبة، كان يعرفه مسبقا، أو يعرف بعضه. حين رأى الزرقة تملأ وجهي من شدة البرد، استقام بسرعة، كأنه تذكر شيئا مهما. أخرج من كيسه المصنوع من جلد الماعز لباسا صوفيا، دافئا ثم وضعه على ظهري. بلل خرقة بيضاء من قُلَّة الماء الموضوعة عند قدميه، ثم مسح على كامل جسدي مثلما يُفعل عادة مع الأطفال. لا أدري كيف استسلمت ليديه الناعمتين ولم يصدر مني أي تأفُّف. ثم ألبسني اللباس الصوفي. فجأة شعرت بالحرارة تعود إلى أطرافي كلها وبالحياة تتحرك فيَّ وتعود إلى جسدي. ثم قدم لي في النهاية بُرْنُسا صوفيا معشَّقا بخيوط ذهبية وبألوان وخطوط نارية كتلك التي كان يلبسها العبرانيون في القديم وجداتي البربريات. قال لي وهو يلُفه حول جسدي:

- ألبسه يا سيدي، فهو لك. صنعته إحدى الجدات خصيصا لهذا اليوم المشهود. كانت تقول دائما، لن يسعفني الزمن لأراه عليه، ولكنه سيتذكرني كلما وضعه على ظهره. لا تنساها، كانت تحبّ أن تراك.

الأسئلة التي تزاحمت بدماغي كانت كثيرة، لكنني فضَّلت أن أحكي

عن نفسي، أن أعرّفه أكثر بالرجل الذي كنتُهُ، والذي يقف أمامه بعد أن خرج من خراب الكهوف المغلقة. يجب أن يدرك أني لست من بقايا أهل الكهف. فالدم ما يزال في عروقي، والله في ذاكرتي بقوته وجبروته وأسراره. مازالت مآذن غرناطة توقظ غفوتي من حين لآخر، وأمواج البحر تتكسر عند قدمي الواحدة تلو الأخرى. كنتُ أراها، مثلما كنتُ أراه. كانت ألميريا تقف حزينة في وجهي، تبحث عن حيطانها المنهارة. تأتيني تفاصيل الجرح العميق والغائر، باندفاع كان يفوق طاقتي على التحمّل. تركت أسواق غرناطة بحثا عنها. في الواقع لم أجد صعوبة كبيرة في إيجاد الشّارع الذي كانت تقيم فيه بالرغم من شدة التعب الذي أذبلني مثل الورقة اليابسة. وجدت مقهى البحر، وعثرت على شاطئ الغجر والتجار اليهود كما سطرته لي ماريانا في مخططها. ليلتي الأخيرة في تلك البلاد، كانت ليلة الجنون والرعشة والنار والهبل، كما كانت تقول ماريانا. الخوف والرغبة المجنونة في عدم التسليم بآخر الليالي والصور والأشواق. بقيت طوال اليوم سجين الحيطان، ولم أخرج مخافة أن يراني زبانية محاكم التفتيش المقدس أو أتباعهم. كان عليَّ أن أنتظر، كما قيل لي، لأن السفينة التي تقلُّ الموريسكيين باتجاه العدوة الأخرى لم تعد بعد. عليَّ أن أصبر حتى يحين زمن الرحيل الذي بدأ يتحول شيئا فشيئا، في رأسي، إلى حقيقة. عندما تضايقت بين الحيطان الباردة، صعدت إلى السطح، وملأت عيني بالمدينة والناس والوجوه الأليفة وغير الأليفة. الخوف من محاكم التفتيش أفسد عليَّ متعة البحر التي كان علي أن أستلذها خصوصا بعد ليلة مسروقة من العمر. إلى أن جاءت ومنحتني يوما سأستلذ به طويلا حتى النفس الأخير. يااااه يا ابن أمي وروحي كيف أحكي عن جرح ماريانا؟ كيف أقول نعومتها ودفئها وجنونها الغجري؟ كيف أقول جسدها وملمسها وعذوبة لسانها وسحر نهديها ولذة الانتفاء فيها؟ كيف أقولها كلا، غير مجزأة؟ لم يُتِح لي الوسيط الوقت الكثير، فقد جاءني فجرا وسحبني من يدي وهو يردد: يا الله بسرعة، صامويل ينتظرنا في الميناء. السفينة وصلت وتتهيأ للعودة ويجب أن لا

تضيعها. لم يكن الميناء بعيدا. عندما رآني سامويل بصحبة الوسيط وماريانا، عرفني. شدني من يدي ودفع بي إلى الأمام. كان إذن العبور الذي اشتراه منه أخي، في يده:

- هيا بسرعة، هؤلاء لا ينتظرون، وعواطفهم باردة، ووضعك لا يسمح لك بالتأمل، إذا شمُّوا فيك أي شيء سيرجعونك أو سيبلِّغون عليك.

وقبل أن أركب الفلوكا، استعدت في لمح البصر لحظات الليلة الأخيرة بكاملها، بتعقلها وجنونها، بقداستها وعنفوانها. صرختْ ماريانا في وجهه مرة أخرى:

- أنت تعرف اتفاقنا يا سامويل، لن تستلم البقية إلا بعد وصوله إلى السفينة التي تنقل الموريسكيين، سفينة القرصان الإيطالي.

بانت ابتسامة سامويل الصفراء واضحة. لم يقل لها شيئا ولكنه لم يكن مرتاحا في أعماقه. فهم قصدها ولم يكن في حاجة إلى أي تعليق. ثم انطفأت في خزرته كل الملامح الإنسانية. قال بوجه حديدي آمر.

- أركب، ومن بعد غنّ أنت وهي.

أغني!؟ قلبي مليء بالوجوه الأليفة، وأناشيد ماريانا، والمشاهد التي لا تموت. أردت أن أستجدي سامويل بالبقاء لحظة أخرى، لكن المدينة كانت قد بدأت تنسحب، ووجه ماريانا يغيب مخلفا ندوبا كثيرة، وظلالا على بحر كان يموت بصمت، ويزداد غربة، بينما بقايا الأعراس الغرناطية تندفن بين الموجة والموجة التي كانت الفلوكا تمزقها إلى آلاف القطرات والذرّات الناعمة. الفلوكا الصغيرة لم تكن إلا الوسيط المكلف بإيصالي أنا وبعض الوجوه الهاربة من خرائب المدينة، نحو السفينة الكبيرة التي كان يطلق عليها بعض الطيبين سفينة الموريسكيين، ولا يتوانى العارفون بتسميتها بسفينة القرصان الإيطالي. أخي الذي تنصَّر في وقت مبكر، قبل كل أفراد العائلة، نصحني، في زيارته الأخيرة لي، بترك الأغاني والتقوال، قال: يا ابن أمي وأخي العزيز، حياتك صعبة ومصيرك على منقار عفريت. أعرف أن في قلبك شعلة الجد الأخير،

رمضان الموريسكي الذي لم يعرف في حياته إلا الزهو، وإتقان البارود والشعر وحفظ أغاني الأحياء الفقيرة ولكن الدنيا تبدّلت كثيرا. اذهب يا بشير ولا تلتفت، وإلا افعل ما يفعله الآخرون: بِعْ واشترِ. تاجر وأكذب كما نفعل جميعا. قلتُ له غرناطة عزيزة عليَّ. أحسدك على هذا الهدوء وهذه السكينة التي تعيشها. قال في الدنيا مدن أخرى ستحبُّها وتحبك هي أيضا، قلتُ ولكن هل ستحبني مثلما أحبتني غرناطة؟ أشكُّ يا ابن أمي في ذلك.

حين حكيت أحزاني لماريانا، قبل الرحيل بزمن طويل، ظلَّت طوال الفترة اللاحقة متألمة. كانت صامتة، يحفر قلبها خوف مزمن. على وجهها الغجري تعمقت مساحات الغربة والحنين. وحين نمت في حجرها عاريا، بَكَتْ. تمتمتُ في حضنها: عمري... لا تحزني. لقد أبكتني البلاد التي أحببتها ونسيتني في الأدغال وحيدا. أبكتني العيون التي لم يغشها النوم طوال الليلة الأخيرة. أبكتني الكأس الغجرية التي لن ألمسها ثانية. أبكتني، يا ابنة قلبي ودمي، الأشواق التي كنت أراها تموت أمامي وقلبي ميت. أبكاني وجهك ماريانا إذ يغادرني وينطفئ قبل أن ألمسه. يبكيني الحنين وأنا أتنفس ريح الخوف وعطر الشوق بين الموجة والموجة.

- غرناطة يا ماريانا لم تسقط كما تسقط المدن المقاومة، قبضوا ثمنها. باعوها بالرخيص مقابل حياة أرخص؟

قال لي أخي يجب أن تغير من الحكاية. أعجنها من جديد. أنت تعرف كيف تؤلّف من الفراغ. اصنع لها نشيدا وادفنه في قلبك لكي تتمكن من العيش. قل إن غرناطة قاومت واستبسلت حتى الرجل الأخير، لكن الجيوش القشتالية والأراغونية كانت أقوى، وجلالتها الملكة إيزابيلا كانت أعظم، وستبقى في البلاد والمدينة التي أحببتَ وشدتْ أواصر قلبك. امنحني وسيلة لأعرف كيف أدافع عنك. قل كل ما يفتح أمامهم شهية الغفران ولا تركب رأسك. والبسْ قناعا وثوبا من الرضى، ستكتشف بسهولة أن القناع في البداية سيبدو لك ضيقا وصعبا،

ولكنه سرعان ما يتسع ليحوي وجهك وكل ملامحك. ستتعود عليه، ويصبح عاديا مثل شربة ماء. جرب فقط.

- يا خويا يا ابن أمي وأبي وأرضي، غرناطة التي أعرفها ماتت، وآمنت بأنها انتهت ولم يبق لي إلا العزاء والحِداد. لن تنفع أقنعتي أبدا.

كان يمكن لغرناطة أن تقاوم، تحمل الفؤوس والمداري والمناجل، وتهدِّم البيوت الواطئة التي يتخفى وراءها عملاء القشتاليين، وتدافع بحجارتها وصخورها، وتردم هذا الخوف، كان يمكن ولكن. . . لكن المدينة بيعت قبل أن تستيقظ من نومها. قل لي يا أخي: لا تلبس الأقنعة واذهب ولا تلتفت وراءك يا هذا الرجل الحزين، البلاد لم تعد بلادك. اذهب وثبّت عينيك نحو جبال الجنوب، وانس أنك عشت ثمانية قرون داخل مدينة كانت هي الخديعة بعينها. لقد دخلتَ عرشا لم يكن لك في الأصل من سر البحر وتغادره محمولا على موج لا تعرف أين يرمي بك. لم يبق من إرث غرناطة إلا صرختها الأخيرة وحزن ماريانا. كان وجهها حزينا وهاربا. تلمَّست المدينة، فلم أعرفها. كانت تندفع بقوة، وسط دمعة حارقة، باتجاه السيوف القشتالية والمدافع الإيطالية المتربِّصة.

الضوء خارج الكهف كان مُؤلما في هدوئه وضبابيته. البرد يدخل بين مسامات الجلد، لكن اللباس الصوفي الطويل الذي سلمه لي الراعي درأ قليلا اللسعات المسائية للبرد القارص. الشمس نفسها، أو ما تبقى منها، شعرتُ بها باردة على غير العادة. في الحقيقة لم يتغير شيء مهم بين الفترتين المفصولتين بين الكهف وحياة الخارج. نفس الألوان ونفس التربة. نفس البحر البعيد، ما عدا بعض الأشجار التي كانت مفصولة عن بعضها البعض بمسافات محددة، وترى من بعيد كعلامات يتيمة وسط قفر مخيف، ووجه هذا الراعي الذي لا ينطق إلا بشقِّ الأنفس. بكل تأكيد، لم أكن في غرناطة. لم يغب عني مطلقا إني غادرتها ليلا باتجاه ألميريا، ولست في المحاكم التركية، فقد أنقذني منها رجال ملثمون لا أعرفهم. في عيني الراعي طفولة كبيرة شعرت بها حين غسلني، وألبسني اللباس الصوفي. أردت أن أساله عن اسم المكان الذي كنتُ فيه، عن الناس

عن هذه البلاد الغريبة، عن كل شيء. لكن لساني تحجر حينما رأيت بعض الدمعات تنحدر من عينيه. قلتُ:

- أتمنى أن لا أكون قد آذيتك!

- لا، أبدا. الدمع يغسل أحيانا الحرقة العميقة يا سيدي.

قالها مثلما قالتها منذ زمن بعيد ماريانا وهي تضع القبلة الأخيرة على شفتي، ممزوجة بدمعات حارة. قالت، أنت تعرفني، أنا غجرية مجنونة اكتفتْ برجل واحد أحبته بهبل، ورمت كل شيء وراءها. لم أتعود على رجل واحد، وها أنت تنطفئ كشعلة البرق؟ لماذا؟ قل لي فقط لماذا؟ كانت تصرخ ولم تكن تبكي. أوووف... تلك حكاية بعيدة بعد المدى، وقريبة قرب الدمع الذي تغتسل به كل صباح، الوجوه الغرناطية الحزينة. أحتاج إلى أن أنام قليلا فقط لأدرك أن ما يحدث لي لم يكن علامة، ولكنه مجرد جرح بليغ أحمله منذ زمن بعيد ولم تمحه الأزمنة المتعاقبة. كلما نسيته أيقظني بنزفه الحاد.

كانت هناك كحفنة من النور. تعرف جيدا أنها مشتهاة ولهذا كثيرا ما بالغت في حركاتها التي تمارسها بإتقان.

«- بنت القحبة تريد أن تدمّرني وتهزّ كل قواي لتضعها بين فخذيها؟ هل هي حقيقة تريدني؟ أم أنها تختبر قوتي على المقاومة؟ من يقاوم قنبلة بشرية مثل هذه؟»

قال الحاكم بأمره، ثم أدخل عميقا الكتّانة الحمراء حتى لا يفقد صوابه نهائيا ويأكلها أو يصرخ بهستيريا.

إلتمعت أنوار الثرية النازلة من السقف المرقش بالألوان الزاهية. طلبتْها دنيازاد من إيران، أو بلاد فارس، كما يشتهي الحاكم بأمره أن يكرر ذلك. أُنجِزتْ باليد وكلفت ثمنا باهظا. كانت تكاد تلامس رأس دنيا كلما قامت من مكانها وتحركت قليلا، مبرزة جزءها العلوي ووجها الذي زاد وضاءة. فبدت له كتفاحة برية، غضة، يملأ عطرها المكان. سحبت المسّاك الذي كانت تقبض به على رأسها، فانفرط شعرها كشلال من الأنوار اللامعة، على كتفيها وصدرها، وقليلا منه على جبهة وعيني

الحاكم بأمره الذي لم يستطع أن يشيح بوجهه عن صدرها الممتلئ. فاحت منه رائحة تشبه المسك الإشبيلي العتيق. كان الحاكم بأمره يتتبع كل حركاتها، حتى الصغيرة منها. يعرّيها بعينيه عشرات المرات، كلما تحركت في مكانها. مدت يدها إلى وجهه. مسحت على كل ملامحه. شعر كأن مخملا ساحرا كان يعبر كل جسده. قل غضبه واختناقه شيئا فشيئا كأن الشعر الذي أطلقته على وجهه أزال بعضا من غبنه. فأزال الخرقة الحمراء.

تمتمتْ بكثير من الغنج والدلال:

- هل أثقلت على حبيبي، وحكيمي، الآمر الناهي، الطاعم الكاسي، الحاكم بأمره؟ أنت ترى بأم عينيك وإحساسك، أننا، كلما توغّلنا في الحكاية، زادت قصّة بشير إلمورّو تعقيدا.

- لا... لا... ما يصير... أنتِ تأمرين. غريب؟ أجد لذّة ممزوجة بخوف غامض، في كل ما تقولينه؟ المشكل أني في أعماقي أشعر بصدقك.

قالها وهو يقاوم غطرسة جسدها الذي أصبح يكبله ويحوله إلى رجل هشّ. شعر كأنّه عليه أن يجاهد الغواية ولو مؤقتا. وعدها مرة أخرى بأن لا يوقفها حتى تنتهي.

- أنا لا أفهم السرّ الذي يحمله هذا الرجل. لم يستَطع أحد بما في ذلك أنا وأصدقائي من الشمال، إعدامه مع أنه كان بإمكانهم فعل ذلك. الإسبان، إذا اقتفينا جنونه، كانوا يعرفون خطره، ولا أدري لماذا دفعوا به نحو هذه الأرض؟ قنبلة موقوتة؟ عداوة قديمة لتشتيت عروشنا؟ ألم يكن من الأجدى أن تقوم محاكم التفتيش المقدس بواجبها تجاه هذا الداعية؟ كنا بكيناه ظاهريا كما نفعل عادة، وصفقنا لها بعمق داخليا على إنجازها؟ يبدو لي أحيانا أن هذا الرجل غير موجود أصلا، وأي محاولة لفهمه هي ضرب من الجنون.

- بشير إلمورّو ليس حالة عادية وإلا لانتهى جنونه عند العتبات الأولى. هذا ما قاله كل الذين عرفوه عن قرب أو عن بعد. حقيقة أم

مجرد وَهم؟ فكرة هاربة؟ سؤال لا جواب له؟ أنا نفسي لا أعرف شيئا.
اسمع بقية الباخية يا مولاي، وسترى أن ما أقوله لك ليس مجرد كلام.

ما حدث يا سيدي بعد ذلك، هو أن الراعي عندما سمع حديثه أو بعض حديثه، وتأكد بما لا يدع مجالا للشكّ، بدأ يتمرّغ عند قدميه كالشاة الذبيحة، ويصرخ بأعلى صوته، في حالة تكاد تكون شبيهة بالهستيريا: هو أنتَ إذن يا سيِّد الأقوام كلها؟ هذه علامات مجيئك في هذا العصر المتأخّر. وحق سيدنا الخضر الذي لا يظلم إلا من ظلم نفسه، هو أنت بالتّمام والكمال، كما تحدث عنك الأوّلون الصادقون، السابقون واللاحقون والكتب السرّية. غربتك طالت يا سيدي. ثلاثة قرون وها أنت تعود من جديد مضيفا إلى غيابك تسع سنوات، لأكون أنا المحظوظ برؤيتك! أي بركة يا سيدي وأيّ حظ؟

طلب بشير إلمورّو من الراعي المندهش أن يمنحه شيئا للأكل. فقد كان بطنه ملتصقا بعظامه من شدة الفراغ. مسدود الأمعاء والأحشاء. لكن الرَّاعي واصل دهشته ليتأكد من أن هذا الجوع، هو إحدى علامات ساعة المجيء.

- يا الله ثلاثة قرون ولم تأكل شيئا؟ هذه علامتك يا جدنا العظيم يا سيدي بشير، الموريسكي الأخير، أيها الموري الطيب. إشارتك الكبيرة وبشارتك الكبرى التي تخرجها للناس متى شئت وأنّا شئتَ. علامتك تعمي الأبصار وتخلّ بنظام الأشياء الكاذب.

أردت أن أسأله، يقول بشير إلمورّو متسائلا في دهشته، كيف عرف اسمي، لكني أحجَمت لأني كنت أخشى أن أخيب ظنه. حتى إحجامي وقلقي وصمتي، فسرها على أنها سمات أخرى على ظهوري في هذا الزمن بالذات. غاب لحظة ثم أتاني بحمار لأركبه. كان يربطه بجانب الشجرة المتفردة، عند بوابة المغارة ثم قال:

- أركب أيّها الجد الفاضل، هذه دابتك التي تنتظرك منذ زمن بعيد، بوراقك. أقودك إلى ناس جملكية آرابيا في أعالي القلعة.

لم أسأله عن أي شيء لكن في أعماقي كانت الأسئلة تتذابح لدرجة

أنني أحسست بوجع كبير في رأسي. من أين خرج هذا الراعي الذي حوّلني إلى جده؟ من هي جملكية آرابيا؟ أين تقع؟ في أي زمن شُيّدت؟ وهل هي موجودة حقيقة أم مجرد خرافة من خرافات هذا الرجل؟ وأي براق حمار في الأصل؟ لم أكن أعرف شيئا من ذلك. ارتأيت أنَّ ركوب الحمار إهانة ولكنني لم أستطع أن أقول له ذلك، فافترضت أنه براق وركبته. أبغض هذه الدابة ولا أركبها، لأني أشعر أن كل من يمتطيها يحمل قدرا من الغباوة والاستسلام. تعوّدت أن أشق أسواق غرناطة على حصاني الذي ودعته قبل أن أغادر المدينة التي عشقتها بجنون. كان أبيض ببقعتين جانبيتين، بلون أسود. رواد السوق كانوا يسمونه المرقم. عندما أسافر ليلا، وينحنح، يشعرني بالخطر الداهم بأذنيه المنتصبتين. وعندما يرفع رجله اليمنى، يجب أن يعود راكبه على أثره وإلا سيحدث له مكروه ما في منتصف الرحلة. هززت رأسي مرة أخرى، ثم امتطيت الدابة.

من الصعب عليَّ أن أركب دابة غبية... حمارا؟

- هل تشعر بالراحة على البراق.

- مادام هو دابة الأنبياء، لابد أن أشعر بالراحة عليها.

قلتُها آليا وبدون قناعة داخلية.

صمتَ الراعي ولم يقل شيئا، لكن دهشته زادت وفمه ظل مفتوحا عن آخره. ولم يستطع أن يكتم صرخته: ورأس حكماء آرابيا مجتمعين، أنت هو يا سيدي بشير إلمورّو الذي حكتْ عنه كتب الأولين. أنا هنا من أجلك، أيها الرجل العظيم. كلامك، علامة على أنك أنت هو، هو. كل شيء فيك يقود نحو اليقين بأننا لا نخطئ في علامتك.

ثم انطلق الراعي بعدها بسيل من الكلام الذي لا حصر له، غامضا في كل شيء. لم أستطع فهم معظمه نظرا لسرعة حديثه وارتجاف صوته:... ااااأنت... يا مولاي... بركتك لا حدود لها... أنت صاحب العود، والأخبار، والنار، والجبال التي قاومت ولم تنحن لقاتليها... أنت الحصيف العليم العلاَّمة الفهَّامة الذي أدرك الأسرار

كلها، العَلاَمة التي ارتسمت في السماء ولم يفهمها إلا العلماء الذين حسبوا بدقة تاريخ ظهورك. لكني في أعماقي كنت أتساءل وأنا اسمعه: ما علاقة ذلك كله برفض الركوب على بالحمار؟ ما السحر في ذلك؟

- أنا لم أقل شيئا كبيرا، سوى أني رفضت الركوب على دابة غبية... الحمار؟ لا أفهم؟ ألم يجد الحكماء دابة أخرى غير هذه؟

- آآآآوف... يا سيدي، يجب أن تحذر. لا ترتكب هذا الخطأ الكبير أمام الناس. لا تقل كلمة: حمار! ممنوع تداول هذه الكلمة في جملكية آرابيا.

- لم أفهم قصدك؟

- بسيطة. في جملكية آرابيا العظيمة، كلمة حمار غير موجودة، أو لنقل إنها نُزعت من كل القواميس العالمية المعروفة. فالقواميس الأجنبية مثلا لا تدخل البلاد إلا إذا كان فيها تعريف كلمة حمار بالشكل التالي: نوع من أنواع الغزلان البرية التي دجَّنها الإنسان واستخدمها لشؤونه اليومية. تجار الكتب والقواميس تحايلوا من أجل إدخال بضاعتهم إلى البلاد، بالخصوص في المعارض الوطنية للكتاب، فانصاعوا لأمر الحاكم وغيروا تعريف كلمة الحمار مثلما تقتضي تعليمة والد الحاكم بأمره التي وقع عليها في الجريدة الرسمية قبل زمن طويل من مجيء الابن.

- لم أفهم جيدا؟

- مثلا تجد كلمة حمار في القاموس الجديد جدا، بالأحرف البارزة: ***نوع من أنواع الغزلان البرية النشطة، المعروفة بذكائها وتوالدها الكثير، وتستطيع عند الضرورة مقاومة الأسود وتنتصر عليها بقدرة الله تعالى. وقد ذُكرت في كل الكتب السماوية من توراة وإنجيل وقرآن، بالصّفات نفسها***. فقد تم تطوير التعريفات بالمراسيم الجملكية حفاظا على ميراث المغفور له والد الحاكم بأمره طيب الله ثراه. لم أكن مستعدا للإكثار من الأسئلة خوفا مرة أخرى من أن أخيب ظنّه أو أرفعه نحو سماوات لم يكن يريد ارتيادها. واصل بدون أن يكلف نفسه عناء التّوضيح.

- أنت تعرف يا سيدي أن اليوم يوم جمعة.
- لم أكن أعرف. بأي تاريخ نحن؟
- نحن في اليوم السابع من الشهر السابع من الألفية الثالثة.
- لم أفهم جيدا؟
- أنت يا سيدي مقدر عليك أن تعود في اليوم السابع، وحتى يوم الجمعة في تقويمنا الخاص، هو اليوم السابع. اليوم الأول يبدأ بالسبت، من الشهر السابع. هذا الكلام مدون في كتب الأولين.

هذا الرقم ٧ النحس يتبعني في كل الأماكن وأينما حللت. يبدو أن الرجل يهذي بدوره. هل يُعقل أن نقفز بسهولة على قرون بكاملها؟ قرون من الجحيم! حين حاولت أن أسأله كان قد قرأ كل التفاصيل في عيني. ابتسم كمن يكتشف كذبة طفل معاند.

- هذه الأمور ستفهمها في وقتها. أنت نِمت طويلا واستيقظت من جديد، وهذا هو المهم في قصَّتك التي تبدو لك غريبة جدا.

فسر الماء بأقل من الماء. أعرف أنِّي نمت وهذا الأمر أتذكره جيدا. وأعرف أني رأيت جحيما سأرويه ذات يوم قادم لا ريب فيه. ما عدا قصة عودتي من البلاد، من غرناطة، لا أعرف شيئا مهمّا يمكن أن أذكره لهذا السيد حتى يفهمني ولا يتَّهمني بالجنون. حين دفنتُ غرناطة في بحر ألميريا لم أكن أعلم أن المسألة ستتخذ هذا المجرى.

- قصّتك تبدو غريبة للَّذي لا يعرفك يا مولاي. بالنسبة لنا، سترى أن حتى الأطفال الصغار أنفسهم يعرفون دقائقها. ربما يخطئون في التفاصيل لكن الأساس في رؤوسهم.

جلست على ظهر البراق، وانكفأت استعيد رحلتي.

تركت ماريانا بحزن وانكسار، واضطررت تحت صرخة سامويل أن أركب الفلوكا. لم أستطع أن أنفصل عنها. البحر في بدايته كان هادئا. لم نلق أية صعوبة في لانتقال من الفلوكا إلى الأرمادة الكبيرة التي كان يملكها قرصان إيطالي متنكر في الزيّ الموريسكي. لم أكن أعلم أن القدر كان يخبئ لي أشياء كثيرة ومواجهة وصلتْ حد الموت مع المارانوس

اليهودي، الذي كان مبتئسا ومحروقا في قلبه على مدينته، مثلي فلم يجد غيري ليُسكن فيه ناره الحارقة. كان يريد فتح بطني من أجل إخراج الذهب الذي يمكن أن أكون قد خبأته في داخلي كما كان يفعل المرحَّلون الهاربون من نار محاكم التفتيش المقدس. الزمن الذي يفصلني عن هذه الأحداث ليس بعيدا أبدا، فكيف انتقل الراعي من هذه الأجواء، إلى هذا الزمن وبهذه السرعة الخارقة؟

كل هذه القرون ويبقى الإنسان على قيد الحياة؟

تذكرت الدوقات الذهبية التي حافظت عليها حتى من عيني الحاكم التركي لأن الأيام السوداء كثيرة ولا أحد يضمن الآتي. تحسستها، لم تكن كثيرة، ولكنها كانت كافية لحل بعض الضروريات. أكدت للراعي من جديد، أني أكره الحمير، أو الغزلان البرية، ورجوته أن لا يؤاخذني. وبعدما سلمته الدوقات الذهبية. طلبت منه أن يشتري لي في الطريق حصانا مبرقعا، مثل الذي كنت أملكه في غرناطة، أركبه، هنا في جملكية آرابيا. رأيت ابتسامة ماكرة ترتسم على محياه. تأمل الدوقات بنوع من التأني، ثم نظر مليا إلى ملامحي كأنه يكتشفني للمرة الأولى.

- لا يا سيدي لا يمكن إلا أن تكون أنت، هو أنتَ. وهذا ما يثبت قدومك من الأغوار البعيدة. هذه الدراهم لم تعد صالحة. السبب هو أن زمنها انتهى، إلا من حيث هي ذهب. وإذا نزلت بها إلى المدينة، سيتعرف عليك الناس، ومجيئك يجب أن يبقى سرا حتى يشاء العلماء ما يشاءون. لسنا في دوقيانوس. وأكثر من هذا، لسنا في غرناطة. وعليك يا سيدي أن تحذر إلى أقصى حد ممكن. أنت لستَ ملك نفسك.

أدخل بعدها الراعي يده في جيبه وأخرج عملة نقدية جديدة عليّ. لماعة ولكنها لم تكن ذهبية ولا فضّية. سُكَّ عليها وجه حاكم الجملكية، كما أكد لي هو ذلك:

- مثل هذه يا سيدي. هذه هي عملتنا اليوم.

تأمّلت العملة جيدا، وقبل أن أعبر عن حيرتي، سبقني هو إلى الكلام. هذه عادته دائما. كأنه كان يقرأ ما بداخلي.

- هذا ليس حمارا كما تعرف.

- بلى. هذا رأس دابة هرمة، حمار، وعلى دماغه أربعة عشر قرنا قسمت بالتساوي، سبعة، سبعة، عدّ معي، واحد، إثنان، ثلاث. . .

بدأت أعدّ ولكنه قاطعني.

- لا يا سيدي، أرجوك. هذا هو رأس حاكمنا السابق قرن غزال، كما نسميه نحن، والحكيم الأول كما يسميه الآخرون.

- لكنه ليس غزالا.

- أنعود إلى البداية يا سيدي؟ أحذر، لا تقل هذا في شوارع جملكية آرابيا. لقد أمر صاحب الباب العالي والمقام الرفيع، أن يغيّر النظام، فكان له ما أراد يا سيدي. وثبت مؤرخ القصر، ومعظم الوراقين، وكتاب الدواوين ذلك في كتاب الأمة. وما أدراك ما كتاب الأمة؟ لم يترك لا شاردة ولا واردة إلا ودونها. قالوا إن كلمة حمار غير عربية، وقد وردتنا من العجم وآن الأوان لمحوها. ومعناها تغير بسبب تأثير اللغات الهجينة. وغيرّوها يا سيدي. مبتهجون بك أيها الولي الصالح، يا مولى الساعة. ننتظرك منذ زمن بعيد. . . جيلا بعد جيل. حتى صار المبهم برؤيتك حقيقة. وكدنا نصدق أن المأساة شيء كتب علينا منذ أغبر الأزمنة. أوصانا السابقون أن نحافظ على ذكراك لأنك مثل اليوم الوعد، آت لا ريب فيك. وأنك ستنام طويلا في الكهف قبل أن تعود إلى البرية تنشر العدل المفقود. قيل إنك ستتعذب طويلا من أشعة الشمس القاسية، ولسعة البرود المسائية، ولكنّك في النهاية ستنسجم مع الأجواء المقلقة وتعود إلينا. وها أنتَ هنا، علامتنا التي لا تموت. الزمن بعدك، أيها الفاضل، لم يتغير كثيرا. الشيء الوحيد الذي جدّ بعدك هو أن الكثير من المدن سلمناها لبني كلبون.

- من هم بنو كلبون؟

- قوم يا سيدي قادمون من الشمال. يأكلون الحجر والتراب، الأخضر واليابس، النور والفرح. يزرعون الموت في المدن الهادئة،

والظلام في أحشاء النساء، ويسمون ذلك فتوحات؟ يقولون، لولا حكمة سيدنا الخضر لانهارت المدينة.

- من هو سيدنا الخضر؟

- لابد أنك تعرفه. هو نفسه الذي تحدثت عنه الكتب الأولى. فقد خصه القرآن بمساحة غالية من النور. أعلم أهل زمانه. في الزمن البائد، كان سيدنا الخضر يملك علم الأرض والسماء. قصده الأنبياء والحكماء من مختلف الأصقاع والبقاع، عرفهم بقصورهم وعجزهم. وكان عنيفا في برهانه. سيدنا الخضر اليوم عاد كما كان أيام زمان. يغرق السفن، ويبيد الخلائق، ينزع رقاب الأطفال، يهدم البيوت العالية، ولا أحد يملك حق رؤيته. يزور المدينة مساء، لينزع مرضها الغريب، من الأعماق. ثم يعود على صهوة جواده مساء، مزهوا بفعلة العادل. هكذا يقول الناس الذين لم يروه يا سيدي، لأن كل من خرج من بيته أثناء مروره، اشتعلت النار في قلبه وصدره، وسافر على حد السيف ونطع الحرس. الناس يقبلون قسمته ولا يناقشونها، حتى عندما يقتل الأطفال، لأنه يرى ما لا نستطيع رؤيته، يقولون إنه عندما يفعل ذلك، فهو ينزع الشرّ قبل حدوثه وتفشّيه.

- أيُّ خُضرٍ وأيُّ شرّ يا إله العالمين؟

صرخ بشير إلمورّو في أعماقه، بعد أن أحسَّ بكل قواه تخار، وعقله يتضاءل حتى يصبح كومة رماد. شيء ما تراءى له على غير عادته، يسير منكسًا كالراية المهزومة. هل أصدق أم أضرب رأسي على أقرب جدار صلب من جدران هذه المدينة الرومانية؟ يصرّون على أنّي قضّيت أكثر من ثلاثة قرون مدفونا تحت الأرض... ويحاول إقناعي بقصص كان يحكيها أزلام محمد الصغير، آخر ملوك بني الأحمر، كلما أراد أن يغير على أنبياء المدينة وعلمائها. يبدو أن كابوسي كان حقيقة. الزمن المفرغ من أي معنى ينطلق من الحاكم الرابع ليعود إليه محملا بالشقاء والكذب. هل يمكن تصديق هذا الزمن المرّ؟ هل تعلم يا سيدنا الخضر الحقيقي، يا أعلم أهل زمانه، أنهم سرقوا نورك وأشاعوا الظلمة

باسمك؟ لقد حولوك إلى سيف تقطع به رؤوس الأتقياء والصالحين. يستحضرونك في كلّ الأزمنة لدفن الناس أحياء. آه يا ابن روحي الممتلئة، يا حمود الأشبيلي. أتذكر كيف أخذوك وكنتُ صغيرا. سرقوك من أسواق حي البيازين. وحين سأل أحبتك عنك، قيل لهم، إن هذه فعلة سيدنا الخضر. وحين تأكد الجميع من أن جلاوزة الملك الغرناطي هم الذين باعوك إلى الخراب وإلى فئران محاكم التفتيش التي تبقر البطن حين تلدغها شمس الصيف القاسية، قيل لهم إنها العدالة التي لا تظلم أحدا. قصاص سيدنا الخضر، الذي يُظلم ولا يَظلّم إلا القوم الذين ظلموا أنفسهم.

- وهل سيدنا الأخضر ما يزال يمر حتى يومنا هذا؟

سأل بشير إلمورّو الراعي الذي كان ما يزال مشدوها في تَمْتَمَتِه.

- ما يزال يخلّف وراءه الرماد. ونقبل بقصاصه حتى ولو مسَّنا، لأنه سيِّد العارفين.

ما الذي تغيَّر من الزمن القديم حتى اليوم؟ ما الفرق بينه وبين محاكم التفتيش المقدس في وظيفة الموت التي يمارسها كل واحد مثلما يشتهي ويلصقها بغيره؟ إيزابيلا القشتالية كانت لا تتنفس إلا روائح الموت، فرديناند، كان لا يستلذ نومه إلا على أوجاع المارانوس والموريسكيين، ومحمد الصغير نسى غرناطة مقابل زغب القشتاليات.

- ما الذي تغيَّر؟ هي نفس الأقاصيص، ونفس الأحاجي، ونفس العقلية الخائبة. بين غرناطة وجملكية آرابيا، خيط من الدم خطّه محمد الصغير أبو عبد الله، وربما زبانية الحاكم الرابع من قبله.

- هذه القضايا تتجاوز فهمي الضيّق والبسيط يا سيدي. لا تنسَ أني مجرد راع مكلف بقيادتك إلى قلعة الحكماء أو العلماء السبعة، فهم أعرف مني فيما يخص هذه التفصيلات. بإمكانك أيها الفاضل أن تتعرف على ما تبقى من قصَّتك عندهم، وعند آخر القوالين، كما يسمّيه الحكماء. الرجل الفذّ والطيب سيدي عبد الرحمان المجذوب، الذي يملأ الأسواق والدنيا بوهجك وحضورك. إنه يروي كل شيء يتعلق

بقصتك. وعندما تعوزه المعلومات، ولا يستطيع أن يكذب، وهو لا يكذب أبدا، يتلوَّى في مكانه ويصرخ بأعلى صوته: أيها الأندلسي، حبيبي الموري، الطاعن في الخوف والخيبة، لماذا تخليتَ عنَّا أنت أيضا عندما تركك الله وحدك تواجه برية الخوف المزمن؟ ألم تفعل ما فعله هو معك؟ لماذا نسيتنا يا بشير إلمورّو، أيها المحارب العظيم؟

- قوّال هو أيضا كما نُعرِّف المهنة؟

- قوّال حقيقي، رفض كل مغريات الدنيا. من عشاقك. عندما يتحدث سيدي عبد الرحمن المجذوب، عن امرأة كان يسميها ماريانا، ويقول إنها صديقتك ونورك الذي ترى به الدنيا، يَعوي مثل الذئب الذي وجد نفسه فجأة في قفر الخلاء. وبعدها، حين يجتاز أزمة المسِّ بسلام، يرجع إلى نفسه شيئا فشيئا، يتحول إلى نسمة، ثم إلى فجر مليئ بالوعود والحنان. ويختم الحكاية بكلماته المعتادة: إيه يا ناس لو تعرفون الحقيقة؟ لو تجانبونها فقط؟ كانت ماريانا تفاحة المجانين، وزرقة البحر ونعومة الفجر، وجنون الغجر. كانت أيها السادة فجرا لا يلين، ونجمة الأسواق الغرناطية. ثم يلتفت سيدي المجذوب إلى مساعدته، فتاة تدعى ماريوشا، عازفة البانجو، يتوجه لها بلغة أجنبية لا أفهمها، ولكني حفظت معاني بعض كلماتها التي ترجمها لي أحد علماء المدينة.

- ماذا تقول الكلمات؟

قال بشير إلمورّو بفضول اخترق وجهه وكل خطوط ملامحه الهادئة.

- إذا كانت ذاكرتي حية، هي ذي كلماتها تقريبا:

أنا مَارِيُوشا الغَرناطِية.

لستُ مِلكًا لعَشِيقي.

أَنَا لَسْتُ قَاتِلَة، ولاَ أَسْتَعْمِلُ السِكِّينَةَ

إِلاَّ سَاعَةَ الأَكْلِ.

- هو ذا اللحن، قال بشير إلمورّو كأنه وجد فجأة زمنا ضائعا، اسمع الإيقاع:

Yo soy Maryucha de Grenada
Y no de me Micharo.
Y solo gasto cuchillo,
A la hora de come.

كاد يُغمي على الرّاعي وهو يسمع إلى نفس الإيقاع. قفز من مكانه، ثم حاول أن يتبشبث بلباس بشير إلموزّو، الصُّوفي. تمتم بحشرجة ظاهرة تشبه لحظات الميّت الأخيرة.

- ورأسك يا سيِّدي هذه هي الأغنية عينها. إنها إحْدى دلالات مجيئك أيها العالم المبجَّل. أنا قلتها منذ البداية أنك أنتَ هو، هو الذي ينتظره الجميع.

- قلْ لي، من هي ماريوشا؟

- أروى لك بعض ما سمعته عنها، فأنا لا أعرفها. يقولون إنها طالبة وجامعية في علم التاريخ والاقتصاد السياسي. لم تنه دراستها لأن الجملكية ألغت كل ما يتعلق بالتاريخ والاقتصاد لأنه يطعن في خصوصية الأمة ويفرّقها وأفرغت المادة من أي محتوى. حين أرادت أن تعمل، سُئلت كثيرا عن سبب اختيارها للمادة. فاحتفظت بسرها في داخلها مما أثار شكوك الأجهزة فلم تُوظَّف. ارتبطت بعدها بسيدي عبد الرحمان المجذوب الذي كان لا يفارق كلبه وثعبانَ الاستعراضات، والرّبابة. هو نفسه قطمير الذي ارتبط بي وبه تحديدا. من فم ماريوشا يخرج الجمر يا سيدي. لا تقول إلا ما يحسه الناس عميقا ولا يستطيعون التعبير عنه. حتى زبانية الحكيم يخافونها ويتغاضون عن الكثير من كلامها ضدهم. عندما تصدح وراء نقرات البانجو يندهش الناس كلهم ويهيمون معها.

نصحني الراعي بضرورة السرعة في الذهاب إلى قلعة العلماء، قبل نزول غيمة المساء، فالمدينة تعيش حضر التجول منذ أكثر من سبعين سنة. أومأت له بأن نعم. كنتُ متعبا ومنهكا من الأعماق، يقول بشير إلموزّو، لكنني لم أستسلم له، فقاومته بشدة. بل لعنت سلطان النَّوم وقلتُ في خاطري: لنا كل الموت لننام طويلا وبدون أمل في الاستيقاظ.

نظرْت إلى الكهف وأنا أبتعد للمرة الأخيرة عن المكان، على ظهر

دابة الجنة، البراق. كان غزالا لطيفا، على الرغم من كونه ظل في سحنته حمارا. حاولت أن أصفي ذهني المشوش قليلا. لم أرَ إلا الأشجار الخرافية العملاقة، والسهول الكبيرة المترامية الأطراف، والحدائق الجميلة التي كانت تطوّق جزءا كبيرا من آرابيا. شممت نسائم البحر الذي لم أحس أنه كان بعيدا عن مكاننا، فانتابني شيء من الوجد الداخلي والحنين الذي حولني فجأة إلى جسم أخف من ريشة. لم أدر كيف حصل ذلك، فقد عاودتني فجأة بعض القصص الغرناطية البعيدة. حاولتُ أن أدندن، لكن السوق لم تكن سوقا في هذه البلاد التي أصبح فيها، بقدرة قادر، الحمار غزالا، و سُكَّ على العملة الذهبية والفضية فقط، وأُهملت النقود النحاسية والحديدية نظرا لقلة قيمتها المعدنية غير النبيلة.

نزلت عليَّ فجأة كآبة الصمت التي لم أستطع مقاومتها.

كان الفصل الأول من جحيم بشير إلمورّو قد انتهى.

* * *

الفصل الثالث

مَرَايَا التِّيهِ

- أمممممم. . . هل يريد مولاي أن ينام؟ التَّعب يُقرأ في عينيك.

همست دنيازاد في أذني الحاكم بأمره، لكي توقظه من الأغفاءة التي بدأت تنحدر به نحو أنفاق النوم والكوابيس. كانت عيناه نصف مغمضتين. لم يقاوم تعب النوم ولكنه كان تحت سطوة اللذة الممنوعة، التي كانت تشعله أحيانا حتي ليكاد يُجن، فيبطحها أرضا لا لينام معها، ولكن ليذبحها ويستَحم في دمها. يشعر أحيانا كأنها كانت تلعب به كالريشة الهائمة في الفراغ، وفي أحيان أخرى، كانت تنعشه وتخرجه من الموت وقلق الخوف القادم. توقظ كل حواسه وتعطيها الحياة وتبعد عنها رائحة الموت التي كانت تحوم في كل مكان من الجملكية. هو يشتهيها ويحبها لأنها كانت أول امرأة علمته أن للجسد أسراره ولغته التي ليست في متناول أي واحد من الناس. حكمة سرية مبطنة تحت كومة من التجارب السحرية الغامضة. النوم نفسه، عندها، يجب أن يُطرَد عندما تنتابه اللذة، وأن لا يُترك حرا لمنعه من أن يحتل أية خلية من خلايا الجسد. ويعرف أيضا أن دنيازاد تخبئ له الآن أجمل لذة، لم يعرفها في حياته من قبل. لقد راودته كثيرا لتهييج حواسه الميتة. ستجعله يلعن كل الزمن الذي مر في حياته. قُبلة دنيازاد تختلف لأنَّ بها طراوة الملائكة وعبثَ الشياطين. تقول إن الجنس عندما يدخله التكرار يموت ويصبح عادة تافهة كالأكل والشرب والحركة. الجنس هو أصعب شيء، به طعمه القديم: القداسة. فهو يجبرنا على أن نغير من نظام الأُلفة باستمرار، وإلا كرهنا، وكرَّهنا من يختار النوم في فراشنا. كل هذا يعرفه الحاكم بأمره

حق المعرفة، ولكنه يشعر أنها طوّلت في حكايتها وقهرت جبروت اللذة التي بدأت مدافنها تخرج وتطل برؤوسها الكثيرة. لكن دنيازاد تعرف أيضا كيف تطفئها بالقدر الذي لا يجعلها تفيض، ويتركها في الآن نفسه معلقة على رأس اللسان والوعد الجميل.

- أسوأ ما في النوم هي الكوابيس التي تفرض نفسها علينا وتستعبدنا، بل وتصغرّنا أمام أتفه المخلوقات التي لا تتجرأ حتى أن تتكلم أمامنا...

شَعَرَتْ أنّ في أعماقه غليانا لا حدود له، لم تسكنه إلا الكتّانة الحمراء التي يغلق بها فمه كلما علت وجهه حمرة الغضب. لم تنتظر منه أن ينهي إجابته. وضَعَت حلمة نهدها المورَّدة، التي كانت تشبه كرزة في عزّ نُضجها، في عمق فمه، دفنتها في حلقه حتى منعته من الكلام أو الملاحظة. كتم تنهيدته القوية بعد أن رمى الخرقة التي كثيرا ما أغلق بها فمه. لحسها طويلا. عادت له الحياة. شعر بأنه يلوي لسانه على الكرزة ليعضها عندما تصل اللذة سقفها. شعر بهزة قوية أخذت بكل جسده ونفضته نفضا عنيفا. قضم الكرزة قليلا وهو ما يزال صاحيا. تأوهت:

- أوووووو حبيبي ومولاي؟! لم يحن بعد أوان قطافها. هي لك. لترضعها قليلا. لتزيح عنك الغمّة، وغفوة السكرة التي بدأت تنتابك فقط...

بعد لحظات قلائل سَحَبتْ حلمة نهدها التي احمرت كثيرا، بهدوء، من بين شفتيه، وكأنها تفطم طفلا صغيرا.

- يكفي عمري. أعدِ الخرقة إلى فمك لتتحمّل ما تبقى من مشاقّ الرحلة. أعرف جيدا أنك لم تشبع. جوعُك يرقص في عينيك ورجفة شفتيك. يجب أن تظل جائعا لكي لا تتركني وحيدة في منتصف الطريف. هل تعلم يا مولاي وسيّد كنوزي الخفية وعرشي، أن أكبر هزيمة للذة المرأة هي أن تُترك معلقة، في منتصف الطريق بعد أن ينسحب منها رجلها؟ يزعجني ذلك يا مولاي. سأقودك حتى السقف الذي تشتهيه

والذي لم تره في حياتك أبدا. سأضيف لك ذوقا تكتشفه للمرة الأولى في حياتك. لو فقط يكون مولاي وحبيبي صبورا حتى النهاية.

- دنيازاد؟ يا أخت الشهوة والهبل، الصّبْر يَذْبَر[18] يا عمري. تعبتُ.

غمغم الحاكم بأمره بحزن مرة أخرى، ثم انصاع لأوامر دنيازاد. كانت الخرقة الحمراء قد ملأت فمه عن آخره حتى كادت تسد نَفَسَه نهائيا.

أشّر لها بعينيه المحمرتين، أنْ واصلي.

همست في أذنه لتقلّل من شططه.

- مُنَايَ... ستأتيك اللذة كجحافل الشوق، أصبر فقط على جنوني. إن ما سيأتي يهمك بشكل حيوي. كان بشير إلموزّو، يا مولاي، غارقا في الدهشة حتى أذنيه. حتى اللغة التي كان يعرفها وهو سيدها وسلطانها في الأسواق الغرناطية، انسحبت بشكل مفاجئ، ولم تترك أمامه إلا بياضا مبهما. ثم تخلت عنه كل حواسه العاقلة التي كانت تحرّكه. ومع ذلك، فقد بذل جهودا إضافية لكي يتفهَّم الحالة التي كانت تطوقه، وفوق إرادته.

لم يفاتحني العلماء بالكلام، يقول بشير إلموزّو، إلاّ بعد سبعة أيام من الصَّمت. داروا بي في كل البيوت ولم يتكلموا، على الإطلاق، على الرغم من إدراكهم لدهشتي التي كانت تُقرأ في عيني. الذي أثارني وسط هذا الجو الخرافي، هو موقع القلعة الذي كانوا يرون من خلاله المدينة بكاملها والبحر، وعمال البحر. القاعة المليئة بالبوقالات المملوءة بالرماد، والتي كُتب على جنباتها: «هنا ينام فلان الفلاني... الذي سقط في ميدان الشرف بتاريخ كذا... وهنا يرقد صاحب المقام العالي البطل الفذّ... هذا مقام العلاّمة الذي لمس الماء فجمده، ونظر إلى السماء فحوّلها على زجاج وكاد في لحظة قهر أن يرميها

---

(18) يُرهِق.

بحجر. . . » لم تكن أقلّ إدهاشا لي، ولكن كان عليّ أن أصمت حتى يتضح الخيط الأسود من الخيط الأبيض.

أقسمت لعلماء المدينة، يؤكد بشير إلمورّو منكس الرأس، أن ما حدث لي كان خوفا، وكان حقيقة، بدأت من دخولي إلى بحر ألَميريا كما اشتهوا سماع ذلك، وتشعبت حرائق الحكاية مع كوابيس الكهف التي دامت طويلا، أكثر من العد الزمني الذي نعرفه جميعا، وأدخلتني في صلب حرب لم أكن قادرا على تحمّلها.

في سفينة القرصان الإيطالي التي اختطفتني من موت إلى موت، مر كل شيء عاديا في البداية. البحر في ذلك اليوم لم يتوقف عن امتداده مطلقا بالرغم من أني شعرت من كل ضماناتي تتخلّى عنّي وتتركني لوحشية الأسئلة المربكة، لكنني كنت مصرا على أن أتشبث بأسماله حتى آخر لحظة. لم نهرب، والبحر لم يحزم مياهه في جرابه وجيوبه ولم يهرب بدوره. ظل يقاومنا، وظلَلْنا نقاوم خوفه. كان واسعا وزرقته السوداء لا تريح أبدا. أصبحتْ جزءا من الفراغ المظلم. لم يبد على وجه العلماء أي اندهاش مهمّ. كانوا يعرفون، مثلما تروي الحكايات القديمة عني، أن جهنّم توقفت عند قدمي كما أكد لي الراعي في طريقنا إلى القلعة. قال: بهت اللهب وهو يرتجف خوفا لكنه سرعان ما أصبح بردا وسلاما وأشياء أخرى فيها الكثير من الدفء والعنفوان، على الموري الأندلسي، هكذا كانوا يسمّونني. قضيت زمنا طويلا أقنعه أنها نار إبراهيم التي يتحدث عنها وليست ناري. وأني طوال إغفاءة القرون الأربعة، لم أر قيامة أخرى سوى قيامة الدنيا التي ألهبت ذاكرتي. لكنه كان يهز رأسه فقط وكأنه يجاريني لا أكثر. كان ذلك كافيا ليقنعني بأنه لم يكن يصدقني، وكان يعتبر كل كلامي، مجرد تواضع الأجلاّء.

كان العلماء يجيدون عملية الإنصات التي ينهونها بغمزة يتبادلون سرها بأطراف أعينهم. مثل الراعي، اعتبروا كلامي وردود فعلي، سمة من سمات حضوري، وتواضعهم الكبير أمام الوضع الجلل. كان صوتهم يأتيني هادئا وناعما، يدخل إلى القلب مباشرة.

- نحن نعرفك جيدا يا سيدي بشير إلمورّو، وربما أكثر مما تعرف نفسك. كل ما تقوله هو من قبيل تواضع العلماء، لا أكثر ولا أقل.

- هذا أنا يا سادتي الميامين.

لكن رحلة البحر التي أصروا على سماعها شدتهم كثيرا لأنها كما قال الراعي لبشير إلمورّو، الحلقة الوحيدة المفقودة في قصتك العجيبة. حتى سيدي عبد الرحمان المجذوب، قوال المدينة الأصيل، عندما كان يصل في حكاياته، إلى البحر، يتلوّى مثل الثعبان المقتول ويصرخ بأعلى صوته: لماذا تأخرتَ علينا يا بشير، يا آخر السلالات الموريسكية، لماذا تأخرتَ علينا يا أخي من روحي ودمي؟ ألم يكن أمامك غير الصَّمت ونسيان الأحبة والطيبين؟ نحن هنا، ننتظرك بملء الحب! ثم يقفز عبد الرحمان المجذوب، يقول الراعي، إلى وسط القَارَة[19]، ثم يواصل الرواية بمزيد من الحنين والشوق: «**يُروي أيها السادة الكرام، أن الرحلة بدأت بالأهوال والخوف والرياح الساخنة وصرخة المحيطات السوداء...**» ثم يقفز بعد ذلك إلى السارق أو البائع؟ الذي اشتراه من الأطفال الذين تصارعوا كثيرا فيما يفعلونه بك؟ لكن جبرائيل، يقول سيدي عبد الرحمان المجذوب، «**كان جالسا على صخرة من صخور البحر في انتظار حورية اغتصبتها أسماك القرش، حتى جاء جبرائيل فأخذه على جناحيه، ثم وضعه بهدوء على الشط الهادئ. حتى جاء من ينقذه. ويقولون في رواية أخرى، إن ظلاما عمّ البحر ولا أحد يعلم بالتفصيل ماذا وقع. الثابت في الرواية كلها هو أن الحاكم التركي عذبه كثيرا حتى تقيأ الدم والقيح من صدره المجروح.**» ويذرف سيدي عبد الرحمان المجذوب دمعتين، يقول الراعي، ثم يواصل في رواية ما تبقى من الحكاية متسائلا كيف تُبتذل العبقرية في هذه الأرض، إذ كيف يمكن

---

(١٩) كلمة شعبية في الغرب الجزائري، وتعني الساحة التي ينشط فيها القَوّالون في الأسواق الشّعبية وفي غيرها، وربما كان أصلها إسباني La gara وتعني المحطة العامة التي يلتقي فيها المسافرون.

تخيّل المورِي، علامة هذا الزمن الصعب، مجرد جاسوس للإسبان المنتصرين، وللمولك الكاثوليك، الذين حاكموه ونصبوا له المشانق في الأسواق وانتظروا منه زلة واحدة، ليحرقوه لو وصلوا إليه.

الحقيقة هي أنَّ قوّالي جملكية آرابيا، الذين انتظروا كثيرا من أجل معرفة الحقيقة، وصلهم قبل زمن أن سفينة بشير إلمورّو انكسرت وأصبحت مجرد قشة صغيرة في أعماق البحر. كان الموج يصل السماء بالأرض وكانت القشة تقترب من بشير حتى وصلت إليه، فمدّ يده، ثم يده الثانية، ثم نادى بأعلى صوته دابة البحر التي أختفت بين الأمواج الهادرة. لكن سمع الدابة كان ضعيفا، فسمعت الصرخة متأخِّرة. وضعت يدها على الموجة فانكسرت، وعلى البحر فأصبح زورقا صغيرا مصقولا بألف لون. وحين فتح بشير عينيه وجد العالم قد تغير كثيرا. البحر صار مرآة ناصعة، القشة صارت قطعة خشب مغرَّفة مثل السفن الهندية. والشمس التي كانت طوال الزمن الماضي كئيبة، أصبحت قطعة فضية هادئة. ونزلت الأمواج إلى الأعماق لتستوي مع الأرض ورمال الشاطئ، وبدأت القشة تزحف في خط مستقيم باتجاه الشاطئ المتوسّطي الهادئ. استلقى بشير إلمورّو على الرمال، وحين استيقظ وجد نفسه وسط كتيبة تركية مدججة بالسيوف والرماح والأسلحة النارية. عيونهم كانت من الصدأ والخوف والحديد. وأصر بعض علماء جملكية أرابيا، على أنّ ما حدث هو الحقيقة عينها. ولكنهم يعترفون أنَّ في الرحلة غرائب أخرى يصعب تحديدها، ويفضل العلماء السبعة الاحتفاظ بها في قلوبهم، وقد يأتي الزمن الذي يجبرهم على روايتها والإفضاء بأسرارها.

لم أجد صعوبة كبيرة، يقول بشير، في إقناع علماء القلعة أن ما حدث في الكهف، وقبله وبعده، كان يشبه جهنَّم. وكنتُ أخشى أن أخيِّب ظنّهم عندما أصروا على معرفة التفاصيل المتبقية من الحقيقة التي يجب أن يعرفها القاصي والداني. كانوا يقصدون التفاصيل التي لم يسجلها ورّاقوا الجملكية المأجورين. قالوا، يجب أن نُخرِجَ القرون الثلاثة أو الأربعة من الظلال التي ازدادت كثافة السواد عليها. واعتبروا

كل تعليقاتي من دلالات العودة. قال أحدهم، لحيتُه بيضاء مثل الثلوج الغرناطية، وصوته كالحنين الغائب الذي يخرج من الأعماق: نحمد الله أنك بخير يا سيدي. هو أنت يا مولانا بشير إلمورّو، عالم مجمع البحرين القادم من بروق الغرب. تركض وراء الحقيقة وأنت لا تدري إلى أين كانت تقودك ونحو أي خراب كانت تجذبك. أمضيتَ سبعين خريفا تبحث عنهم ويبحثون عنك. سارت وراءك الأقوام، حملت في رحلتها أكياس الحوت، وحين بلغتْ مجمع البحرين في عين يُقال لها، عين الحياة، داهمها العياء، فنامت وكان صوت تكسر الأمواج قد بدأ يُسمع على الشاطئ المهجور، فأصابت مياهه مكتل الحوت الذي كان على الساحل، خرجتْ منه واحدة واحدة بفعل الرشاش فاندفعت باتجاه البحر، فجعلتْ تسير في الماء والناس مندهشون، ثم تحوَّلت بعد ذلك إلى قطع من الحجارة قسمت البحر نصفين. بدأ الناس يسيرون داخل البحر، والأسماك موطئهم فصادفهم في النهاية وجه كريم عليه ملامح العلم والنبوَّة. كنتَ أنت يا سيدي الفاضل بشبابك وحيائك. تأكد الناس أنَّ عالم مجمع البحرين أعلم من موسى ومن يوشع بن نون. وفي حكاية أخرى تروى على أطراف مكاتل الحوت عند بوابة البحر تقول إن الجميع انطلقوا، حتى إذا كان من الغداة، قال كبيرهم الذي كان يطمح إلى المعرفة، أتونا غداءنا. تذكروا أنهم نسوا المكاتل عند البحر، فقالوا لقد نسيناها يا سيدي وما أنسانا إياها إلاّ الشيطان. وحين عادوا إلى المكان، وجدوا الحوت قد تحول إلى أسراب متتابعة. قالوا ذاك ما كنا نعني، فتبعوه حتى الصخرة الكبيرة، وهناك وجدوا رجلا ملفلفا داخل ثوب أبيض مثل تلك التي كان يرتديها حكماء اليونان. فسلم عليه عالمهم الكبير وقال يا سيدنا بشير (وفي رواية أخرى يا سيدنا الخضر) جئناك للمعرفة، فهلا استجبتَ لنا؟ وقدم القوم أنفسهم ثم مشوا على الشاطئ الأزرق. قال لهم، أحذركم من البداية، انظروا ولا تسألوا، فالسؤال أحيانا يخفي الهزيمة. هزوا رؤوسهم بالموافقة ثم تبعوه. مرت سفينة جديدة الصنع، كان أناسها بشوشين ومليئين بالزهو، فمدّ يده إليها

فأغرقها بعد أن صدعها بثقب في خشبها الوسطي. قالوا سيدي لم نفهم؟ ماذا فعلتَ يا سيدي في حق أناس كانوا سعداء بسفينتهم؟ ألم نتفق بأنكم لن تسألوا؟ قال هذه الأولى، ثم سار صامتا. في الطريق وجد صبيا جميلا يزعق مع أصدقائه ناداه بابتسامة مشرقة، حين اقترب منه الصبي وكانت عيناه ترقصان براءة، حز عنقه بكل برودة دم. قالوا سيدي هذه كبيرة. تقتلون طفلا بريئا بلا أدنى سبب؟ قال هذه الثانية أرجوكم أن تصمتوا. وحين وجد حائطا متصدعا وصاحبه يريد تقويمه، والعرق يتصبب من جبينه، طلب المطرقة التي كانت موضوعة على ظهر الحائط، ثم انهال عليه حتى أتى على آخر حجرة فيه. قالوا سيدنا العظيم هذا هو الظلم بعينه، لم نر أبدا رجلا يظلم رجلا آخر بهذه السهولة؟ قال لهم: أنتم بعيدون عن المعرفة، وهاكوا الرموز والبراهين التي لم تستطيعوا الحفاظ عليها. الأولى فعلتها لأن ملكا طاغية كان مبحرا وراءهم ليأخذ منهم السفينة لجدّتها، فابتليتها حتى تبقى لأصحابها الصيادين الفقراء. الطفل الذي نزعت رقبته، يقول طالعه أنه سيكون لو بقي حيا، طاغية يحكم البلاد بالظلم ويزرع البشاعة والإجرام في كل مكان. والحائط الذي هدمته ورفضتُ من صاحبه الطيب أن يرممه، لأنَّ والد هذا الأخير خبّأ في أساس الحائط كنزا لا يراه إلا ذوي المعرفة والعلم، ولو بنى الحائط لرُدِم كل شيء. عودوا أيها الناس من حيث أتيتُم، فالمعرفة لا توجد مزروعة في الطرقات وتأتي الأقوام لقطفها مثل السنبلة اليابسة. المعرفة تحتاج إلى صبر أيوب. عودوا وامكثوا سبعين خريفا، ونلتقي مرة أخرى، إن بقي في العمر متسع. تمتموا بدورهم: سنلتقي أيها العَظيم على أرض غير هذه الأرض. قال حكماء المدينة وعلماؤها السبعة: كنتَ أنت يا سيدنا الفاضل، بجلالك وبهائك، وما يزال حتى اليوم الناس ينتظرون انتهاء الوعد للعودة إليك. لا أحد يعرف مكانهم منذ أن عادوا خائبين، لكنهم سيأتونك ويسألونك عن الصغيرة والكبيرة.

كان بشير إلمورّو مندهشا مما كان يسمعه من أفواههم، خصوصا مما كان يرويه الشيخ الطاعن في السن، صاحب اللحية البيضاء. لم تكن

تهمّه الحقائق بقدر ما كانت تهمّه تلك العاطفة الطيبة التي كان يتكلم بها. كان على وجهه ألَم فظيع من الصعب تحديده وبقايا الأمواج التي تكسرت عند قدميه. كان يبحث عن مسلك لم ير خيطه أبدا. لم يُخْف حيرته وتساؤلاته التي سكنته. كان من الصعب عليه أن يتكلم بسهولة، ومع ذلك قرأ في عيونهم رغبة قصوى لإنهاء قصة البحر التي رُويت له بألف وجه. كيف وصل إلى هذه البلاد؟ فقد لاحظ أن علماء المدينة لم يفاتحوه إلا بعد سبعة أيام من الصمت الغريب، بعدما قرؤوا كل حركاته، وتفاصيله الخفية وتأكدوا من الأسرار التي كانت تختبئ في بؤبؤ عينه. كانوا متيقنين أن كل الأشياء يجب أن تُحكى في وقتها، لا قبل ولا بعد. عرف بشير إلموزّو من أحاديثهم أنهم ليسوا كتلة واحدة هم والعمال، مختلفون حول غاية موحدة كانوا متفقين عليها مائة بالمائة هي قضية الحكم، الحاكم بأمره، حاكم جملكية آرابيا، لأنهم كانوا يعرفون السر الذي يحيط به. يخافون أن يتلاشى ويصبح ترابا قبل الأوان. بعدها اتفقوا أن يسمع إليهم، وأن يسمعوا إليه. قال كبيرهم مرة أخرى: احْكِ أيها الرجل الطيب، احْكِ... نعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك. أنت صاحب المكاشفة العليا والعرش المعرَّش الذي لم تره عين، ولم يمسسه قلب. احْكِ يا صاحب المقام العالي، يا مولى الساعة المنتظرة والمبهم. احْكِ...

- ماذا حدث أيها السادة الكرام؟ تستعصي عليَّ التفاصيل ولكني سأستدرجها واحدة واحدة وأنحني لرغبتكم العالية.

- تفضَّل، قلوبنا مجتمعة معك.

يغرق بشير إلموزّو في ضباب التفاصيل التي لم يكن قادرا على فهمها بسهولة في البداية. استدرج الذاكرة شيئا فشيئا مع مشاهد تكررت كثيرا في ذهنه. عليه أن يخرج قبل أن تضع محاكم التفتيش المقدس يدها على جسده وتطهِّره بالنار، كما تعودتْ أن تفعل. يتوغل في دهاليز الذاكرة المغلقة التي لا تفتح أبوابها إلا وقت تشاء.

... تفاصيل كثيرة حدثت قبل أن أركب في الأرمادة، نسيتها في

الكثير من رواياتي السابقة. كان الزمن شتاء، البرد يملأ الصدر ويعلق بالأوجه كالطحالب. كان اليوم يوم أحد. اليوم السابع في تقويمنا الخاص. وقليلا ما يخرج الناس في هذا اليوم، خصوصا بالمساء. كنت في البيت المهجور. لم أنتظر كثيرا، فماريانا التي غابت لتتأكد من أن لا شيء في المدينة يخيف، عادت لتخرجني من مخبئي، حاملة ذاكرتها وقلبها وحنينها والنور الذي يملأ عينيها الصافيتين مثل بحيرة. قالت: كل شيء على ما يرام. ساموبل المكلف بالاطمئنان على نقلي إلى أرمادة القرصان الإيطالي، كان يعرف كل التفاصيل. وعندما سلمتْ له ماريانا القسط الأول من الدوقات الذهبية، ضحك كثيرا من كلامها الذي هددته به بعدم أخذ البقية من دوقاته إذا لم يوصلني بسلام؟ حذرني وهو يتفرسني كمن يريد أن يعرف الشيء الذي كان يتخفى ورائي وإذا لم أكن عميلا للمحاكم، متنكرا في ألبسة وهيئة هارب. ضمانته الوحيدة كانت هي أخي.

- أرجوك أن تكون رجلا حقيقيا فقط ولا تدفعنا إلى الندم. يجب أن تحترم أوامر الرّيس. كل ما يقوله صحيح، وكل ما تقوله غلط حتى ولو كان صحيحا. ماتيو لا يرحم من يتعدى حدوده أو يركب رأسه. أنت تعرف الإيطاليين وجنونهم؟

- لم أفهم يا سيدي الفاضل، أي ريِّس؟ ماتيو؟

- أنت ابن صياد مثلما عرفتُ من أخيك، ولست في حاجة إلى دروس. ستسحبكم الفلوكا الراسية على الأطراف إلى عمق السفينة الكبيرة. الأرمادة، هكذا يسمونها. صاحبها هو الريس ماتيو، إيطالي طيب لكنه يرفض من يعانده. سيصفِّيك إذا أزعجته. كن ليِّنا وساعده في العمل إذا طلب منك ذلك، وستصل إلى أقرب ميناء للنجاة، بدون عناء كبير. كان كلام ساموبل ينزل على رأسي مثل أوراق الشجيرات الميتة. لا أدري إذا كنتُ حقيقة أسمع له؟ كنت منغمسا في عيني ماريانا، وشفتيها، وشعرها الغجري الذي زادته الانعكاسات المتقطعة زرقة وصفاء. مسدت على وجهها بحنان الفقدان. كان دافئا على الرغم من البرودة التي كانت

تنزل أو تصعد من الأرض. عادت تحذيرات ساموبل القديمة لتقطع علينا الإغفاءة الهادئة، مرة أخرى.

- مرة أخرى، أتمنى أن تأخذ تحذيراتي مأخذ الجدية.

قلت بنوع من السخرية التي لم يتحملها كثيرا هذا الرجل الغامض الذي لا أعرف إلا اسمه، وحب أخي له.

- يا ساموبل، أنا كذلك مخّي في رجلي وفي لساني وعضلاتي، قل لصاحبك الإيطالي، ماتيو، أن لا يأمرني بإلقاء نفسي في البحر وإلا سأقتله أنا أيضا بلا تردد.

ضحك بنوع من اللامبالاة، ، ولم أكن أعرف أن شيئا ما فيه الكثير من الهول كان يختبئ وراء تلك الأسنان التي زادت صفرتها وتخرمها وسوسها.

- المهم هو أن تكون رجلا طوال الرحلة. وعلى ما أعتقد، لا يوجد في طلب مثل هذا أي اعتداء.

- لستُ أدري ما معنى أن يكون الإنسان رجلا عندك، ولكني سأحاول أن أكون ملتزما بشروط الرحلة.

- بارك الله فيك يا بشير. حافظ على سر خروجك من ألَميريا، ولا تثق في كل من يضحك في وجهك ويطعنك في الظهر، لأن رقبة أخيك، ورقبة ماريانا ورقبتي مشدودة كلها بهذا السر. فإذا خرج، سنُجبَر على الركوع على صفائح محاكم التفتيش المقدس وأنت تعرفها جيدا، أو على الأقل تسمع بما فعلته في الموريكسيين والمارانيين.

- لن يكون إلا الخير إن شاء الله. ماريانا يا سيدي هي القلب والذاكرة والحنين إلى الحياة، اطمئن من هذه الناحية.

- هذه بعض النصائح الضرورية قبل أن أتركك تواجه مصيرك. اسمع... لا تُخرِج الدوقات الذهبية أو الفضية، مهما كانت قليلة، أمام الناس. البحارة طمّاعون وقتلة. مرة أخرى أوصيك بالحذر، والحذر الشديد. الدنيا ليست سهلة على ظهر الأرمادة على الرغم من طيبة

صاحبها ومودته. ماتيو يحب الموريسكيين كثيرا، ويلبس لباسهم. يقول دائما بأنه يشعر نحوهم بالرأفة والعطف.

كان ساموبل يحكي على نوع خاص من البحارة. وكان عليه في الحقيقة أن يقول القراصنة. أتذكر والدي، قبل أن يلتهمه بحر ألميريا، كان يضع جلبابه على رأسه وحذاءه في يده ويمنح رزقه للأزقة الجائعة ولمن هو أكثر فقرا منه، قبل أن يواجه عزلة البحر. كان يقول دائما: خير اليوم، سأجده غدا وأنا أواجه العواصف البحرية وحيدا وصرخات الأمواج العالية، ونداءات الخوف. هذا الخير نفعه كثير ولا يُحد. لكن في المرة الأخيرة خذلته الموجة التي اتكأ عليها. حين انفجرت الفلوكا نزل الجميع إلى أعماق البحر. عشرة، لم يعد منهم أي واحد، حتى الريس لم ينجُ. والدي الذي ركب قطعة خشب قديمة واعتنقها حتى التصق بها. ملَّحَهُ البحر حتى جف كالحطبة. أفقدته الشمس لون دمه. والموت سرق منه حرارة الحياة. من سلالة البحر كان، ونفَعه ذلك كثيرا إلا في المرة الأخيرة. دخل جدي البحر قبله، وخرج بالصدفة سالما من موت محتوم. فالبحر كان قد أقسم، كما يُقال ذلك عند سكان الشواطئ ورجال الصيد، أن يأخذ واحدا من العائلة على الأقل، فكان والدي هو الضحية.

كانت عيناي مثبتتين على الرحلة والبحر وعيني ماريانا، يقول بشير إلمورّو. تركتني أنساب وراء عذوبة لم أعهدها في نفسي. عليك أيتها المرأة البحر تسمَّى... منك سرق أجمل لون وأروع جوهرة... من عينيك صنع موجه. من وجهك الغجري سرق هدوءه وعنفوانه. لقد تخلى الله عن جزء من ألقه ليمنحه بسخاء لك. كنت أعرف البحر وكانت تعرف كيف تخترق عذريته. حين جلست على الطرف الآخر من القارب بعد صرخات ساموبل، كنت غارقا داخل الأجواء النفسية لآلاف الخلق الذين امتطوا هذا البحر وغادروه باتجاه العدوة الأخرى التي كانوا يجهلون كل شيء فيها. من بحر إلى بحر، ومن خوف إلى خوف، ومن شوق إلى شوق، ومن حنين إلى حنين، ترمينا الموجة للموجة،

والصرخة للصرخة والدمعة، لأختها. لم يرحلوا عن طيب خاطر، فقد كانوا يحبّون شوارع مدنهم التي عشقوها، ولم يحنوا الرقاب من أجل أن تظل عالية وعظيمة. فقد كانت محاكم التفتيش المقدس تقف على رؤوسهم بأوجه من حديد في كل مكان، وكان صرير كماشاتها يملأ دماغي، وصرخات الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم تسحقني. لم يبذلوا جهدا كبيرا ليقفوا على انتسابي لديني الأول، إذ اكتفوا بشهادة إلدورادو، عشيق ماريانا السابق، الذي كان يكرهني، وثبتوا تهمة المحمدية ضدي. مسلم باطني مدنس. أقنعهم بأني كنت أمارس الهرطقة سرا وعلانية، في الأسواق. دقوا الباب عليَّ، ثم ذهبوا ولم أرهم. عشيق ماريانا الخائب أكد لهم على وجودي بالبيت، فقالوا له اطمئن، سنعرف كيف نصطاده في الشبكة. ما عنده وين يروح. زادت كراهيته وحقده، بل أصيب بالعمى اتجاهي لأنه كان يظن دائما أني سرقت منه ماريانا. وفي يوم من الأيام، كنت ممتلئا بالحنين، وحكيت في الأسواق الخلفية للمدينة كثيرا عن غرناطة، وعن محمد الصغير وحاشيته. كان الله بكل أفراحه وجبروته وأشواقه، يُقرأ في عيني كما على الصفحة البيضاء. لكن ما حدث في الجهة الأخرى من المدينة، غيَّر كل شيء وعقَّد من وضعيتي أمام محاكم التفتيش المقدس. فقد وُجِد إلدورادو، ذات صباح على أطراف أحد الوديان وقد ارتشقت في عنقه سكينة انكسرت شفرتها على عظمة الرقبة. في الليلة نفسها رأيت كابوسا أجبرني على الهرب بلا تردد. رأيتهم يأتون وكأنهم هم حقيقة. كل شيء مر بشكل سريع وقاس. جاءوا إلى البيت في ظلمة الليل. قرعوا الباب كثيرا. كنت متعبا ولم أكن في الحوش وحدي. طلبوا من الذين فتحوا لهم الباب الإذن بالمرور. وقبل أن أفتح عيني كانوا يقفون على رأسي. قالوا: ارتد لباسك وقم معنا. في البداية رفضت لكنهم أصروا: أنت متهم بممارسة الطقوس الموريسكية سرا. قلتُ أبدا، هذا لم يحدث. كانوا عشرة، كل واحد يزن الخوف في عينيه خرابا من الرعب. كمَّموني بالإجاصة الحديدية ذات الفتحتين، التي يمكن توسيعها حتى يصبح الفم

مفتوحا عن آخره. الأمر الذي ضمن لهم صمتي وعدم إعلاء صراخي، لأني حين حاولتُ الصياح، زادت الإجاصة اتساعا وتنفسي ضيقا. طريقة الاعتقال مرت بسرعة كبيرة، وبشكل لم يثر أي ضجيج، لكني مع ذلك رأيت العيون الموريسكية في حي البيازين تودعني بعيون حزينة، مثل العصافير المشلولة وكأنها كانت تسألني عما يجب فعله. لست أدري أين كانت ماريانا في تلك الساعة، لكني كنت متأكدا من أنها لو رأتني على تلك الحالة، لقدمت رأسها للقطع ولصرختْ في مكاني بكل ما أوتيَتْ من قوة. كان الكابوس منتظما وكأنه الحقيقة نفسها. سحبوني نحو سجن المحكمة، أو البيت المقدّس كما كانوا يسمونه. بذلوا جهدا كبيرا لإدخال الرعب إلى قلبي، لكن تهديداتهم كانت عبثية إذ لم يحصلوا مني على ما كانوا يريدونه. أدخلوني إلى حجرة مظلمة وضيقة جدا لا اختلاف بينها بين وبين القبر. مصدر الضوء الوحيد كان ينبعث من طاولة قديمة، ومن خلال شمعة ذابلة تحلَّق حولها العديد من عمال المحكمة. بعد لحظة الصّمت التي طالت كثيرا، أو هكذا بدالي على الأقل، شرع المحقق في قراءة قائمة التّهم المنسوبة إلي: الهرطقة السرية والعلنية، القتل المتعمد والجريمة الموصوفة، شتم محاكم التفتيش، اغتصاب امرأة مسيحية من ألميريا، تكوين تجمعات موريسكية من الأشرار لخوض الحرب ضد القوات الشمالية. كل تهمة من تلك التهم كانت كفيلة بأن تؤدي بي إلى المحرقة. كان المحققون ينظرون إليَّ عبر عيون تطلّ من ثقب غطاء الرأس. المحقِّق الأكبر الذي كان يجلس منفصلا قبالة الطاولة، بعد أن سمع قائمة التهم المنسوبة إلي، بدأ يفور ويغلي، يقوم ويجلس بلا توقف، لعبته المسلية لتبريد الأعصاب، لكن ضيق الغرفة زاد من إزعاجه واختناقه. اقترب مني. وضع الملف جانبا ثم بدأ يطرح عليَّ الأسئلة القديمة المباشرة، عن اسمي وعنواني، عملي وأصدقائي، عن ماريانا وأجواء الغجر وعلاقتي بهم... لكن كل ما قدمته له لم يكن كافيا لإقناعه بنواياي الطيبة. كنت أدرك أن تلك التُّهم المسبقة ستقودني حتما إلى المحرقة. فقد حدث أن أحرق أناس كثيرون بتهم أقلّ من التي كنت

أحملها على ظهري. تكاثرت الأصوات داخل هذا القبر، ولم أعد أفرق بين انزعاج الحاكم وصراخ المساعدين. قادوني بعدها إلى أبهية غرفة التعذيب المعدة لأغراض أكثر قسوة وبشاعة. في هذه المرحلة بدأت عيونهم تحمر، وأوجههم تتخذ استطالات كثيرة ومعوجة. أول شيء فعلوه معي، أنهم جردوني من الثياب وتركوني عاريا مثل الجرذ الأحمر، حديث الولادة. قالوا بصوت يكاد يكون جماعيا:

- سترى يا ابن الزّانية ما نحن فاعلون بك وفيك. . .

اندهشت كيف يتكلم رجال الدين بهذه اللغة، لكن في أعماقي كنت مقتنعا أنهم لم يكونوا أكثر من مجرد عصابة من عصابات توركيمادا، لا علاقة لها بالدين ولا بسماحة سيدنا المسيح. توركيمادا، هو من سن طريق هذا الرعب. كانت له عقدة مبطنة تجاه الموريسكوس[٢٠] والمارانوس[٢١]. أقسَمَ أن يحولهم إلى رماد أو يرمي بجثثهم في البحر. كان يتلذّذ ويستمتع بمنظر الحرائق وهي تتصاعد من الأجساد التي انهكتها الشوارع الضيقة، وجبال البشرات والهضاب الغرناطية. كان العرق يتصبّب من كل أعضائي. لم أنتبه لناقوس الرعب الذي كنت أجلس تحته. ناقوس كبير، بحجم الإنسان، ينزل فوق رأس المتهم ثم يُقرع بشدّة. طنّة الصوت الثقيلة والحادة أرعبتني. شعرت وكأن عظام الرأس تتفكك وتتشرّخ كمرآة مكسورة. تفككت أذناي، وعيناي، وأسناني، وعظام رأسي، وبدأ الدم ينزل من مخارج الأنف وثقبي الأذنين. ومع تكرر ضربات الناقوس، بدأتُ أفقد علاقتي بالحياة، وسمعي شُلّ أو كاد، ولم يعد للأصوات أي معنى. أيقظوني بعدها بسطل ماء بارد مليء بالروائح الكريهة. قالوا: هذا الماء أنظف منك أيها الموريسكي القذر. بعد أيام من التعذيب، شدّوني إلى الكرسي الإسباني، كما كانوا يسمونه. دُهِنت قدماي بالزبدة المذوبة ثم بسائل لزج يشبه زيتا أو شحما

---

(٢٠) Los Moriscos, Les Morisques (مسلمو الأندلس المنفيون)

(٢١) Los Maranos, Les Maranes (يهود الأندلس)

حيوانيا، عرفت ذلك من خلال الرائحة الكريهة المبعثة منه. ثم حطوا صفيحة ساخنة احمرت من كثرة التسخين، تحت رجلي. شعرت برائحة القلي، والحرق والدخان تتصاعد من جراء ذوبان قدمي. صرخت، لكني كنت أعرف أن صوتي لا يتعدَّى هذه القاعة القذرة بسبب الإجاصة المفتوحة على آخرها. تركوا لي مجالا خفيفا لرفع قدمي، لكن الحرارة التي كانت تصل إلى وجهي، منعتني حتى من الاستمتاع بهذه الفسحة، فأُغميَ عليَّ مرة أخرى. وحين استيقظت من جديد، وجدتُ نفسي وجها لوجه أمام جسد أحد أصدقائي من القوّالين ممزقا من جراء استعمال الكماشات الساخنة، والكلاّبات الحادة. كان ينز قيحا بعد أن صُبَّ الرصاص في جروحه. تضوَّر عاليا، لكن السماء كانت تضع الصمغ في أذنيها، فلم يسمعه أحد. نظر إليَّ بعينين متعبتين، شعرت بأنهما تودعانني وتنسحبان نهائيا من شطط وصراخ الأسواق الغرناطية التي كان يملأها بحنينه. قال بصوت منكسر وحزين يكاد لا يسمع:

- احك عنا في الأسواق الشعبية إن خرجت من هذا القبر حيا ولا تخسر سمة القوال، فلا أحد يملك أن يخنق صوتك. لا تتركهم يشترونك بالرخيص يا بشير. لا تتركهم يخيفونك. لا شيء في بطونهم سوى الهواء الساخن والفراغ.

ثم صمت قليلا قبل أن يضيف:

- نحن أبناء هذه المدينة يا بشير، ولسنا وراقين من كتاب الدواوين.

- كلامك في القلب يا خويا، يا خير ما تبقى من المدن المهزومة. لو تبقى في العمر دقة واحدة، لن أتوانى عن منحها لك لتستمر ولو قليلا لتقول آخر ما في قلبك يا ابن روحي ونداءاتي العميقة.

- محمد الصغير باع كل شيء، ولم يبق في العمر أكثر مما مضى. أني أشّم النهاية يا صديقي. العمر يزحف نحو النور بهم وبدونهم. لكن. . . ابقِ على صرخاتك حية. فلن تفعل الإجاصة شيئا فيك أمام

جبروت القوال. لا تخن مدينتك ودمك المهدور، فالمدن عندما نخونها، لن تذرف دمعة واحدة على فقداننا.

حفظت سره، وأدركت بسرعة ما كان يريده مني.

عندما دخل الزبانية علينا، مشوا نحوه مباشرة. ربطوه بأحكام إلى الأرض. فتحوا رجليه إلى أقصى حد ممكن، ثم مددوا يديه في شكل صليبي. قالوا له: يا قوال النحس، قل ماذا تعرف عن الهراطقة وعن أسرارهم؟ سلمنا أسماءهم، تسلم من العذاب. لكنه ظل مصرا على الصمت. ثم توجهوا نحوي. كنت منهمكا في استعادة كلماته، وحزينا على نهايته. لم تبق فيَّ أية مقاومة وإلا كنت هدمت كل شيء على رؤوسهم. كنت خائفا عليه من الموت البشع. حين أصبح الجسد مهيئا للعذاب، جاءوا بثلاثة جرذان كانوا قد جوعوها مدة طويلة. منظرها مقرف وهي تلتهم قطع الخشب التي وضعت في طريقها. حطوها على بطنه، ثم كفأوا عليها صحنا حديديا مغرّفا ومثقوبا، ثم شدوه بإحكام على بطنه بواسطة مجموعة من الأسلاك المعدنية. لم يعد أمام الجرذان أي مخرج إلا بطنه. سمعت قتالها وهي تحاول أن تبحث عبثا عن مسلك للخروج. قهقه كبير المفتشين، وكان يحمل شعلة في يده اليمنى. سلطها على الصحن. تخليت الجرذان وهي تحاول أن تحتمي من الحرارة، فلا تجد أمامها إلا بطن الضحية فتبقره. ظل صديقي في الحلم الذي كان يشبه في كل شيء حمود الإشبيلي، يصرخ ويرفع صوته عاليا نحو الله. ينادي ثديي أمه ونيام القبور وفمه مغلق بالإجاصة الحديدية. كان المفتشون يتضاحكون ويقهقهون بصوت عال، ويرفعون من درجة الحرارة المسلّطة على الصحن. عندما ساد الصمت قليلا، لم أعد أسمع إلا خرخشات الجرذان وهي تبحث عن مسالك داخل بطن صديقي. تخيلت حجم الصرخة المكبوتة التي كانت بداخله. نظر إلي بعينين كانتا تودعان الحياة بثقل، ثم دار قليلا، بدون أن يقول أية كلمة. قلت ربما يكون قد أغمي عليه. بعدها دخل رجل بدين القاعة الضيقة يجر وراءه كلبا شرسا. نزعوا عنه الأسلاك المعدنية، ثم أزاحوا الصحن الذي

التصقت أطرافه بجلدة البطن من شدة الحرارة. يا الله؟ كان المنظر مهولا. قفزت الجرذان وهي تجرجر وراءها أمعاءه وقد التوى بعضها على رقابها أو التصق بأنيابها الحادة. الحفرة التي خلفتها في بطنه كانت واسعة، والدم الذي سحبته وراءها خلف خيطا من الخوف في ذاكرتي. عرفت أنه لم يكن من السهل عليهم قتلي. كانوا يريدون اعترافي أولا. حين سمعتْ ماريانا بالخبر وما حدث لصديقي القوال، احتلت رحبة الأسواق وظلت تحكي قصته والدمع يملأ قلبها. هددتها محاكم التفتيش بالدفن حية، لكنها ظلت تروي قصصه بدون توقف. حين زارتني في ظلام القاعات الضيقة، قلت لها: أخي تاجر كبير، يسكن في ألَميريا ويعرف يهوديا اسمه ساموِيل، له علاقات وطيدة بمحاكم التفتيش، يشترون البراءة بالدوقات الذهبية. أخبريه عن حالي. لا أدري ماذا فعل أخي، ولكنه استطاع، بعد أيام قلائل، إخراجي من ظلمة ذلك القبر. عند الباب، وأنا أغادر ظلام الموت قالوا:

- من حظك أن أخاك اشتراك. في المرة القادمة سنقليك ولن تنفعك وثيقة البراءة.

عند عتبة القبر الذي غادرته، تمتمت:

«- لكن في القلب نشيد لا يموت.»

كان الكابوس قد انتهى لتحل محله كوابيس حقيقية كانت ترتسم في الأفق.

أقسمت وأنا أستعيد أنفاسي أن أقصَّ قصص القوالين المقتولين ليس فقط كما رأيتها، ولكن أيضا كما أحسستها، وليكن ما يكون. نصحني أخي بالعدول عن حرفة الموت. لكنه عندما أخفق في نصائحه، قال لي عليك أن تغادر هذه الأرض، أن تسافر لأنك ستنتهي إلى المحرقة. لكني رفضت. أكّدت له أني لن أكون إلا القوال الذي يملأ الأسواق وحي البيازين بأناشيد الحزن والحنين. أقسم المفتشون لأخي، أني إذا لم أصمت ولم أغادر الأسواق، سيضعون رأسي في النار ويستمتعون برائحة الحرق. وكان علي أن أغادر البيت عندما بدأوا يبحثون عني في الحارات

والأسواق من جديد عندما وصلهم حنيني ونشيدي الذي لا يموت. بحثوا عني في البيت كالعادة، فلم يجدوني. في الأسواق لم يعثروا إلا على الخرّافين، وكتاب الدواوين لأن القوالين امّحوا من الأسواق الغرناطية منذ أن وضعت الملكة إيزابيلا والذين جاءوا بعدها، أيديهم عليها.

استحضرت كل الخوف دفعه واحدة وأنا أرمي برجلي في الجزء الأمامي من أخشاب الفلوكا ولم أتفطن إلاّ عندما دفعني العجوز، وهو يحاول أن يوسع بكتفه الأيمن المكان الذي كانت تقعد فيه زوجته.

- عفوا يا ابني، إنها مريضة مرضا خطيرا عافاك الله منه، وعليك أن تتقدم قليلا لنتمكن من الركوب. التعب يقتلنا، جئنا من بعيد.

- تفضل، تفضل يا سيدي، المكان ضيق.

تقدمتُ باتجاه الفلوكا محاولا أن أجد مسلكا بين الناس. كانت تحمل أكثر من قدراتها. مشيت نحو مقدمتها. شعرت بملامح الشيخ تتلون بالفرح بعد ما كان منقبضا. كانت عجوزه، كما يسميها أو زوجته المسنة، مريضة بالطاعون؟ هو لم يقل ذلك ولكني أحسست به من كلامه، ومن وجهها الذي فقد كل ملامحه. اختلطت رعشاتها وخوفها المتبدّي في عينيها، بحركة الأمواج وهي تتكسر على أطراف الفلوكا المتجهة نحو الأرمادة الراسية في العمق. في المساء نفسه أتذكر أني رأيت وجه الله يتلوى حزنا داخل غيمة سوداء لم تمطر إلاّ العقارب والأفاعي وأشكالا يصعب تحديد ملامحها. لم يكن هناك شيء يطمئن في بداية هذه الرحلة على الإطلاق. رفعت رأسي إلى السماء، وقبل أن أنتبه إلى زخّات المطر الأولى، كان الجدّافون قد أدخلوا الفلوكا إلى أعماق البحر واختلطت أصوات المجاديف بوجه ماريانا التي غابت تلويحتها وسط الفراغ. قال الشيخ.

- الله يحفظ. أتمنى أن تكون الرحلة طيبة.

ثم نزع برنسه الخشن ووضعه على رأس عجوزه المنهكة. كان أكثر تفاؤلا مني. كنت أخشى أن يكثر من الأسئلة وأتورط معه في الكذب،

لكن عينيه اللتين جربتا الجحيم والفرح، كانتا تعرفان البقية. لم يقل شيئا، لكني رأيت الخوف يدخله من العينين عندما بدأت الفلوكا تهتز اهتزازات عنيفة بفعل حركة الأمواج التي قَوِيتْ على غير العادة. عينا الشيخ كانتا مثبتتين على فراغ مبهم. كان يفكر في العجوز التي كانت تزم فمها بشدة وتضغط على ما تبقى من أسنانها بقوة حتى تكتم صرخة الألم التي قد توقظ الدابة في البحر السابع.

المأساة الحقيقية بدأت عندما زادت كثافة الأمطار وبرودة الجو الذي لُفّ داخل غلالة من الصمت. قال الشيخ لعجوزه: عضّي على الكتّانة بقوة. عضت، لكنها لم تستطع المقاومة طويلا. صاحب الفلوكا نهرها ثلاث مرات قبل أن يهددها. قال: عشر أرواح ستقتل بسببك. اصمتي لست وحدك المريضة، كلنا مأزومون. اتركينا نصل بسلام. لكن صراخها قوِيَ أكثر وبدأ يخترق صمت البحر حتى ظننت أنه سيرميها كخرقة بالية. في الحقيقة كان خائفا على نفسه وليس عليها أو علينا. ارتكنت إلى الزاوية، وغمّت رأسها في حجر زوجها الذي سالت من جبينه وقلبه حبّات العرق الباردة مختلطة بمياه الأمطار الثقيلة. كانت خطوط وجهه المنحدرة من الجبهة حتى الذقن تتقلص شيئا فشيئا. حين صرخ صاحب الفلوكا في وجهها من جديد.

- والله سأرميك في البحر إذا بقيتِ على هذه الحالة.

- هي لا تصرخ فرحا ولكنها شدة الألم. مريضة وتتمزق؟!

- سأرميك معها إذا لم تصمت أنت أيضا.

لست أدري هل فعلت جميلا ولكني صرخت بدون إرادة مني.

- الرحمة؟ محاكم التفتيش في كل مكان، حتى في البحر؟ معقول؟

- يبدو أن الذين أوصوك لم يوضّحوا لك أنه عليك أن تصمت أولا، وأن لا تتدخل في ما لا يعنيك ثانيا؟ وأنك أقل من قملة ونستطيع أن ندمرك وقت ما نشاء، ثالثا.

- . . . ؟؟؟. . . ؟؟؟

- طيب لماذا سكتَّ؟

- لقد دَفعنا دم قلوبنا لهذه الرحلة البائسة ولن نصمت على حق أدنى مثل هذا.

شعر بأني كنت جادا في كلامي ولهذا صمتَ مرة أخرى. لست أدري ما الذي كان يدفع بي باتجاه هذا الموت المعلن، هل هي مجرد ردة فعل لرد اعتبار لذات منكسرة أم هو رغبة مبطنة للتدمير الذاتي؟ ربما كان السبب العميق، هو تمزق الخيط الذي يجمعنا بالحياة. لم يكن يهمني كثيرا أن أَرمي به إلى أعماق البحر والعودة إلى محاكم التفتيش. لم يترك لي خيارات كثيرة، إما أن أمد قلبي للبحر أو أغوص فيه حتى التهلكة. صمت بعدها. وصمتُّ أنا. بعد فترة وجيزة، نطق أحد مساعديه: لقد وصلنا إلى المكان المؤمن، سنتوقف هنا لحظة، ننتظر الإشارة من الأرمادة التي ليست بعيدة، ثم ننزلق نحوها بلا خوف. لم أقل شيئا ولكن انتابتني شكوك كثيرة دفعت بي إلى محاولة إعادة الكثير من الحسابات، لكن الزمن الضيق والخوف، والعزلة واليأس الذي بدأ ينتابني، كانوا يرهبونني. تحسّست السكّين الذي كان ينام في الجزء التحتي من سروالي، فوق الحذاء بقليل. خبأته حينما صعدت إلى الفلوكا. قالت ماريانا إنه سكين غجري، خذه، قد تحتاج إليه. من يدري، هذا النوع من البحارة طمّاعون، أعرفهم مثل لون تباني ههههه... عصابة من القراصنة وليسوا بحارين حقيقيين. لا يملكون ذرة من النبل. القوة هي لغتهم.

كانت الظلمة قد نزلت نهائيا. بعد لحظات، رأينا أنوارا تشع من بعيد. نبهه أحد الركاب، لكن صاحب الفلوكا أصر على أن لا يتحرك إلاّ إذا سمع صوتا خاصا مصحوبا بالإشارة الضوئية التي لا يعرفها إلا هو. بقينا محشورين زمنا طويلا. صحيح أن توقف الأمطار أراحنا كثيرا، ولكن الرعود الآتية من بعيد لم تكن لتطمئننا مطلقا. كان يخاف خوفا أزرق من القراصنة الأتراك الذين كانوا يملئون المكان رعبا وخوفا. زاد ألم العجوز أكثر، لكن زوجها ظل يطمئنها ويطمئن الحضور. القراصنة

مخيفون والأكثر منهم الإسبان العائدون إلى مدنهم، يسحقون كل شيء في طريقهم، مثل الجراد يأكلون الأخضر واليابس، وكأسماك القرش يعرفون البحر جيدا أكثر من أي كان.

بينما نحن في صمتنا وخوفنا، بدأت الإشارات الضوئية تتوالى داخل البحر مصحوبة بصوت متقطع ومزعج. نظر صاحب الفلوكا إلى أحد مساعديه.

- عدّ معي الإشارات... واحدة... اثنتان... ثلاث... عشر... هي بالتمام والكمال. كل شيء جاهز الآن.

- الأرمادة يا سيدي... من غيرها يعرف السر؟

وبدأنا نزحف بهدوء باتجاه السفينة. لم يكن البحر صعبا أبدا، فقد ساعدنا الهواء البارد على الوصول بسرعة.

وعندما حاذينا السفينة، وتسلق صاحب الفلوكا، سحب وراءه السلم المفتول من الأحبال. تبادل للحظات، حديثا سريعا مع رجل بدين، يبدو أنه ريس الأرمادة، ثم عاد. أنزل السلم من جديد. نزل الرجل البدين إلى الفلوكا. تأملنا واحدا واحدا ثم قال للشيخ بصوت ثقيل وخشن وهو يتفرس ملامحه على ضوء لمبة زيتية:

- ماذا تغطي في حجرك؟

- لا شيء. زوجتي يا سيدي، مريضة بالحمى، ولكنها ستقاوم.

ثم طلب منا جميعا أن نتخلص من الأشياء الثقيلة. أقترب منه صاحب الفلوكا الذي لم نعرف حتى اسمه، تمتم في أذني الرجل البدين بكلمات لم أفهمها، ولم أرتح لها طوال الرحلة، لأن البريق الذي لمع في عينيه، أشعرني كأننا نقف أمام ثعلب ماكر تدرب على أسرار البحر.

ساعدت المرأة العجوز على الصعود وامتطاء السلم المصنوع من أحبال القنب الخشن. كانت تحاول جاهدة أن تكتم كل صرخاتها. كنا لا نسمع داخل هذا الصمت المطبق إلا أسنانها وهي تصطك من شدة الألم، وخشخشة الأرجل وهل تحاول أن تلتصق بالأحبال الخشنة. تسلّم الرجل

البدين كامل الأوراق من صاحب الفلوكا، راقبها من جديد عند المدخل، ثم أذن بعد ذلك لصاحب الفلوكا بالذهاب. وقبل أن يختبئ بين أمواج البحر، قال لنا صاحب الفلوكا مرة أخرى بشيء من الثقة: لقد أصبحتم الآن في منأى عن الخطر، تصلون بالسلامة إن شاء الله. لست أدري هل قالها ليطمئننا، أم أنه كان يعرف أسرارا كنا نجهلها. ثم غاب ولم نعد نسمع إلا أصوات المجاديف وهي تشق صدر البحر، والأضواء المتداخلة والقليلة، لميناء ألَميريا.

* * *

الفصل الرابع

نِدَاءُ المَاءِ

كانت عينا الحاكم بأمره سيد آرابيا، قد هدأتا أخيرا، بعدما سمحت له دنيا، وللمرة الأولى منذ أن بدأت حكاية الجملكية وبشير إلمورّو، أن ينزع الكتّانة الحمراء من فمه، بعد أن ارتسمت علامات أسنانه من شدة الضغط عليها، وأن يمرر رؤوس أصابعه وكفه على نهديها من جديد، ويعركهما مع بعض. وتسمح له، بلحظة انتشاء مسروقة من جسدها بأصبعه الوسط فهو ألعن الأصابع عند المرأة والرجل. غرق بعدها طويلا ليدخل في استمناءات تمنّى أن تستمر لذتها طويلا بميزاننا الوقتي.

رأت دنيا أيضا كيف أصبح البياض يغطي عينيه، عندما انتابته الرعشة طويلا، وزحلقت أصابعه تحت سرتها وأدخلتها تحت تبانها، بالضبط حيث التقاء الساقين. انعكف أصبعه الوسط، تأوهت طويلا وهي بالكاد تخرج صرختها السجينة من لذة السهو:

- ما ألذّك. ما أجنّك. ما أكبر سحرك.

- حبيببي... أترك لسانك النّاعم يدخل عميقا في فمي. هكذا!!!!!... أرجووووك... لا تتوقف، أنا كذلك أشتعل وأقاوم سلطان اللذة بالحواس الطبيعية التي يجب أن لا تعميني عن مساري نحوك.

عندما عاد لها وعيها قليلا، تراءت لها الأشكال في صورها العادية، التفتت إلى صحن التمر والحليب، وزجاجة الويسكي. وضعتْ في فمها تمرة بعد أن اغمستها في الحليب والويسكي، ثم حطتها بشفتيها في فمه بتلذذ. يووووه ما ألذّك يا مولاي... تأوّهت وهي تنسحب منه شيئا فشيئا:

- نسمة خفيفة تردّ الروح أفضل من الجفاف الكلي. لا شيء يعوّض الحواس الطبيعية. أشتهي أن أقتحم جسدك مثل الريح العاصفة، ولكن... سأمهلك قليلا...

- على مولاي الذي علّمني أن السلطان صبر ومكابدة، وأن اللذة معراج ومجاهدة، أن يصبر هو كذلك بالقدر الذي يستطيع. سأوصله إلى أقاصي العنفوان واللذة حيث لا تراجع عن الجنون.

- لو لم تكوني أنتِ يا دنيازاد، لقتلتك. ما أخطر سحرك. وما ألذ ما يخبئه جسدك من نار. أحيانا أندهش مما تملكين؟ لستِ أجمل من نساء الحرملك، ومع ذلك، ولا واحدة منهن تشبهك عندما تتحولين إلى نمرة في الفراش. لو لم أعدك من قبل، لافترستك الآن وحالا، أو استسلمت لك ومنحتك جسدي لتفترسيه قطعة قطعة، ولذة لذة. يلعن دينك ما أحلاك...

قالها وهو لا يستطيع أن يكتم فرحته التي ملأت عينيه سعادة بعدما كانتا ذابلتين إلى درجة الاحمرار.

- لا تقلق يا مولاي وسيدي وولي نعمتي. كل شيء يأتي في وقته وفي اللحظة التي نخطط لها نحن. الزمن الذي هناك لا يشبه الزمن الذي هنا. بي شهوة كبيرة للانتهاء من الحكاية، فهل يأذن لي مولاي، عظمة الحكاية في تفاصيلها.

- من يستطيع أن يقول لك لا؟ أنت شابة وغضة وتجربتك في الحياة قليلة. لو تعرفين ما معنى التفاصيل التي تتحدثين عنها الآن كشيء عابر وسهل، لكنتِ اختصرت الحكاية من أصلها، ولو كنتُ أدرك سلفا أن بعض التفاصيل التي ننساها تقصدا أو نسيانا، يمكنها أن تغرقنا في ما لا نريد. بل يمكن أن ترمي بنا في حضن الكارثة. ليكن، أنا أعطيتك وعدا وسأشد عليه بأسناني وبكل حواسي حتى النهاية... يا الله قولي... قولي... احك يا سلطانة القول، أخطر من أختك.

- التفاصيل مهمة لأنها تخصك وبإمكان مولاي أن يقول لا عندما تبدو له مضخّمة وغير صحيحة.

كان الوقت يا مولاي يبدو في غير نظامه المعتاد.

مرّ على ذلك زمن كان يمكن فيه للأشياء أن تُرمّم ونقبل على الأقل بأقل الخسارات، لكن لا شيء من ذلك حدث. التطرّفات كانت هالكة للبلاد والعباد.

- أي شؤم تأتي به هذه الغربان؟

قال بشير إلمورّو، عندما كانت الطائرات المروحية تملأ الدنيا رعبا، وجملكية آرابيا، تغرق في البحر ومولاي يبحث عن مكانه الضائع وسط فراغات المدنية. قيل عنه وقتها إنه شق المتوسط باتجاه مدينة شمالية تقع على حواف البحر. كانت الطيور يومها تغرق بين الموجة والموجة، ثم تصعد بدون غنيمة. فالأسماك غادرت جملكية آرابيا، باتجاه مجهول. رائحة احتراق اللحم البشري المشوي، كانت تملأ الشوارع. الأسلاك الشائكة التي شُوِّهت بها الأحياء الشعبية، قُطعت في بعض المناطق. قال لي علماء المدينة وحكماؤها، إن الناس كانوا ينتظرون فقط من يفجِّر قلوبهم المملوءة بالصدأ والخوف. ولكن في الحقيقة أن ما حدث كان أكبر من ذلك كله. كان مرتبا ومنظما. ليلة الليالي التي أضيفت إلى قائمة الزمن المنتهي كانت مهولة، ولم يكن من الممكن أن تتواصل حتى ولو أراد ذلك علماء الغيب، وسَحَرة وعرّافو جملكية آرابيا.

- أعنيّ يا ربي على تذكُّر ما غاب عنِّي.

قال بشير إلمورّو وهو يسترجع بعض التفاصيل الهاربة. لم يتذكَّر قصة اليهودي والسفينة والرحلة ألاّ ثلاث مرات، الأولى عندما واجهه علماء المدينة بحقيقته بعد عودته من الكهف، والثانية عندما طلب منه القوال سيدي عبد الرحمن المجذوب أن يتمَّ القصة، والثالثة، في اللحظة التي وقف فيها عند بوابات البحر ينظر إلى ألسنة اللهب التي اشتعلت في الماء وداخل الأدخنة المتصاعدة من كل مكان. تساءل وهو ساه في مدى لو يكن واضحا، ألم يكن من الممكن أن تُسرق المدينة بطريقة أسهل؟ نظر العلماء إلى بعضهم البعض بنفس النظرة المليئة بالإشارات مثل تلك التي واجهوه بها في أول مرة حينما رآهم، وكانوا يريدون معرفة ما تبقى

من رحلة البحر التي سمعوا عنها الكثير وتنقصهم تفاصيلها. كانوا يقولون في ذلك الزمن الذي أصبح بعيدا بعض الشيء: لم يسرق القتلة منك شيئا، لقد أضافوا الكثير إلى عذابك يا بشير إلمورّو ولم يكن من الممكن أن تبقى حياتك مبتورة. لو عرف الحاكم التركي سيد الدنيا سر عذابك لغير موقفه، لكنه كان حاكما بليدا لا يعرف إلا القرصنة والجاسوسية والسجن. كان مصرا على إدانتك لأنه كان يحمل شهادة ورقية تدينك ويدينك ختم محاكم التفتيش الذي كان يذيلها. قدمها له القرصان الإيطالي ماتيو من أجل إنقاذ نفسه وأخذ الهدية، أو ربما كان يعمل معهم. قال لهم إنك تتعامل مع محاكم التفتيش، كما تقول إحدى الروايات. الكلب ابن الكلب يعرف الحقيقة أكثر من غيره ويزيفها. لكن كما قال أحد الحكماء في جملكية أرابيا، لو لم يحدث ذلك وواصلتَ رحلتك بسلام وأمان، لأنتهي كل شيء ولغابت معجزة عودتك السرية من غرناطة، ولأصبحتْ رحلتك كغيرها من آلاف الرحلات التي حدثت في هذا الزمن والأزمنة الفائتة. لكن في رحلتك طعما آخر.

في الواقع أشد ما كنت أخشاه يقول بشير إلمورّو، هو أن أخيب ظنّ العلماء. فما حدث لي كان صعبا ولكنه لم يكن معجزة أبدا. لم أشق البحر، لم ينقذني الحوت المسحور، ولم أنزل نجوم السماء، ولم أضعها بين أيدي العباد. كل ما هنالك، هو أني وجدت نفسي وجها لوجه أمام عذاب مخيف أنساني في لحظة من اللحظات، أني كائن بشبكة من الأحاسيس. بالرغم من الدفء الذي كنت أشعر به على متن الأرمادة، لم أكن مرتاحا أبدا، فابتسامة صاحب الفلوكا مع الرجل البدين ظلت عالقة بذهني وتملأ قلبي خوفا. في عمق البحر والظلمة، سمعت أصواتا وصرخات متعددة واهتزازات حركتني من مكاني. عرفت بعدها أن السفينة لم تنطلق إلاّ لحظتها، بينما كنت أظنها قطعت مسافة لا بأس بها وسط البحر. كان الرجل البدين في حقيقة الأمر راسيا بسفينته ينتظر بقية الفلوكات لتصب أثقالها في الأرمادة وتعود في ظلمة البحر. وحين امتلأت بالركاب، تحركت بشكل أشعرنا بأن القيامة قد بدأت. قدم لنا

الرجل البدين كل التعليمات الخاصة بالرحلة أهمها، أن عدد البحارة غير كاف للقيام بأعمال الجدف الضروري من حين لآخر، وما علينا إلا التشمير على أذرعنا لتسديد النقص والوصول بأمان. كلها أشياء جديدة لم نكن نعرفها من قبل، فالدهشة كانت مرتسمة على جميع العيون التي غزاها ذعر غريب. طمأننا الرجل البدين، عن الريح وأنها مناسبة لعملية الإبحار. وبعد أن دقَّق مراقبة الأشرعة، نادى بإعادة رفعها من جديد وعن آخرها. شدّ الحبال المتعددة محاولا في الوقت نفسه اختبار مقاومتها للريح. لست أدري كم دامت العملية، كل ما أتذكره هو أني بعد ذلك شعرت بهزة الأرمادة، مختلطة بصوت الرجل البدين وهو يعطي أوامر التحرك باتجاه لم نكن نعرفه جيدا، وكان هو وحده وبحارته المقربون يعرفون مسالكه مثل جيبه، كما كان سامويل يقول دائما، لطمأنتنا. بدأت الأرمادة تتمايل ومعها سمعت تكسر الأمواج على أطرافها. خشبها كان أسود ثقيلا كأيام القيامة، لكنه يعطي الإحساس بالمتانة والمقاومة. وقبل أن أستيقظ من جديد على صرخة السيدة العجوز، كانت قد أخذتني إغفاءة التعب والإرهاق، لست أدري هل طالت أم قصرت. ساعدت الشيخ على وضع المحلول في فمها. استكانت قليلا بعدها في حجره. وحين فتحت عيني في المرة الثانية، كانت تباشير الفجر الأولى قد بدأت تلوح في الأفق، وتبدو من خلالها الأشكال المختلفة واضحة، تتلون بألوان الفجر الذي جاء مبكرا على غير العادة. ربما لأن الوقت تغير عليَّ، ولكوني قد تعبت كثيرا في الليلة الماضية.

حركة الناس زادت كثافة على متن الأرمادة. من حين لآخر، نسمع أصوات البحارة وصرخات الرجل البدين الذي لا يعرف إلاّ الكلمات البذيئة. لم يكن أحد يعرف مدة الرحلة ولا مسالكها. الرجل البدين قال: يمكن أن تستمر أسبوعا، في الأوقات الممتازة، كما يمكن أن تتجاوز الأسبوع. يمكن أن نعبر المسالك التقليدية، ويمكن أن نتفاداها باتجاه ممرات أخرى تقل فيها التيارات والقراصنة.

- البحر ابن كلب، يمكن أن يخدعنا في اللحظات الأخيرة. ولهذا علينا أن نحذر من أي تفصيل مهما كان صغيرا. أنصحكم بالتنبه لكل شيء بما في ذلك قراصنة البحر الذين يجوبون الماء بحرية كبيرة ولا قوة قادرة على لجمهم.

ماتيو هو ماتيو. مثل الأمواج، أحيانا يهول الموقف، وفي أحيان أخرى يقدم وضعا مأسويا على أنه مجرد حالة طارئة سرعان ما تزول. كل الذين عرفوه من قريب أو من بعيد، يؤكدون على ذلك. كنت ما أزال أشعر بالرغبة القصوى للنوم. لكن صرخات المرأة العجوز، عادت إلى رتابتها. بدا زوجها غائر الملامح، منكسرا وحزينا. يبدو أنه لم ينم طوال الليلة الماضية. تنامَت حركة الناس أكثر على سطح الأرمادة. لم تكن الكثير من الوجوه تملك أي مبرر لهذا الدخول والخروج المتواتر سوى التظاهر بأنها بصحة جيدة حتى لا يُظن أي سوء بوضعها. كان وجود العجوز المريضة على متن الأرمادة وجودا عاديا بالنسبة لي، لكن بعض حكماء جملكية آرابيا، الذين كانوا يستمعون إلى بقية الباخية حمّلوا الموضوع أكثر مما يتحمّل، أو على الأقل هكذا بدا لي. قالوا لي إن حضورها في تلك اللحظة بالذات، كان علامة لاختبارك. كانت شيئا آخر، أكثر من مجرد امرأة عادية وعابرة، هم أنفسهم لم يستطيعوا تفسيره. كل القصص تبدأ من البدايات والعجوز كانت إحدى هذه البدايات وإلا لماذا اختِرتَ أنت بالذات للقيام بكل شيء؟ لم أملك أي جواب لتساؤلاتهم. ألم يكن هناك غيرك؟ لماذا كلّمك الشيخ أنت أولا قبل أن يكلم أيّ شخص آخر؟ بدون المرأة العجوز وآلامها، ما وصلتَ إلينا، هذا أمر كان ينقصنا ونؤمن به كما نؤمن بآلامك أيها الرجل الفاضل الطيب. صرخاتها كانت النداء الذي كان يقودك نحونا، إلى جملكية آرابيا. لولاها ما كانت حربك القاسية مع المارانوس الذي استفزك، ثم مع الرجل البدين في المرة الثانية. ولولا هؤلاء الناس، ما كانت مواجهتك مع الحاكم التركي، سيد الدنيا. لولا هذا العذاب كله الذي يشبه عذاب سيدنا المسيح المؤلم، لوصلت بأمان إلى العدوة الأخرى،

كآلاف الذين سبقوك في هذه الرحلات الإجبارية، ولأعددتَ العدة بعد هذا، للقيام بغزوة خاطفة تسترجع فيها قلبك الذي تركته هناك في الأراضي الأخرى، ماريانا. كان بالإمكان شراء صمت شواطئ ألميريا، ولكنك لم تفعل.

كدتُ أقول للعلماء بصوت عال، ليت هذا حدث، تمتم بشير إلمورّو. لكني كتمت صرختي مثلما فعلت مرارا مع المرأة العجوز، إذ خفت أن أصغر في عيونهم وأخيبَ ظنهم مرة أخرى، وأصبحَ رجلا عاديا. خيرهم سابق ولا يمكنني أن أتنكر لهم بمجرد نزوة بطولية تافهة. حاولت أن أنسى الصرخة المكتومة، لكن الألم بدا جليا على وجهي. العلامات تأتي، هكذا حتى عندما لا نريدها. أشياء لا نعلم مصدرها ولكنها تنشأ في داخلنا كالفرحة والحزن والحنين. كنا في حوار مع البحر وكان في شوق مستميت إلينا. حين شق صدره وخرجت الأنهار، الكثير من الناس أغرتهم زرقته وضبابه. قال لي العلماء إنهم لم يكونوا يعرفون كل هذه التفاصيل، لكنهم كانوا متأكدين من أن رجلا سيأتي ويقص كل ما غاب عن القصص القديمة. قال لي أحدهم: نريد أن نعرف بقية العذاب، ربما انكشفت بقية الأسرار التي لم نفهمها نحن في جملكية آرابيا. حاولت أن أتذكر بقية الذعر البحري الذي ينام الآن بين الأمواج المتوسطية العملاقة. دخلت في عمق تجاويف مخي لكي أسترجع كل الحنين الضائع بين الخوف من غدر الرجل البدين وأسرار البحر.

هدأ صراخ المرأة العجوز بشكل فجائي ولم يوجد شيء يستثير هدوء البحر. الفجر وحده، برطوبته وجماله، كان يكمل وداعة المنظر الذي لم يذكرني إلا بوجه ماريانا التي كانت قد دفنت في القلب مثل الإيمان العظيم. كنا نحاول أن نداوي الغربة المفاجئة بحنين القلب ودغدغة الصباحات الغرناطية التي لم تعد إلا ذاكرة حزينة مليئة بالجروح والخوف. علا الصراخ الحاد مرة أخرى، مفزعا وقاسيا، حتى أيقظ دابة البحر الصماء. حتى الطيور الكثيرة التي كانت تحوم فوق السفينة بكثافة غير معتادة، وعلى مسافات غير بعيدة منا، تمزقت في الفضاءات،

محدثة فراغا كبيرا في السماء. لأول مرة انتبهت لهول الغيمة السوداء التي كانت تنام فوق رؤوسنا. كانت تهددنا في كل لحظة من اللحظات. بدأت الزرقة السماوية تتحول إلى سواد ثم إلى ظلام، والفراغ يزداد اتساعا وتجوفا في الأعماق. رفع الشيخ رأسه إلى السماء مرة أخرى، وصرخ من جديد:

- يا الله، ارحمنا برحمتك ولا تتخل عنا. لقد هربنا من محاكم الموت، فلا تدفن رفاتنا في بحر الظلمات. ما زلنا نثق في جبروت حكمك. هربنا لنعيش لا لنموت شر ميتة. لا تتركنا يا الله وسط هذا الموت نواجه الخوف وحيدين بلا عطفك. لا توسع الشقة بيننا وبينك. أنت سيدنا، وأنت مولانا.

لم أكن أعلم أنه كان يملك كل هذه الطاقة لإسماع صوته المخنوق إلى جهات العالم الأربع. كان الرجل العجوز يعوي مثل الذئب المهجور الذي أُصيب بجرح في قلبه. حرك رأس زوجته من جديد، فارتخى. بدا له فجأة جسدها باردا. صرختها ما تزال مكتومة في صدرها الضيق. تبدو لمن يراها إما أنها ميتة أو في النزع الأخير. هذه الحالة لم تثر لا الركاب ولا البحار البدين الذي غيَّر الألبسة الموريسكية بألبسة البحر التي تشبه في رداءتها الألبسة التي يرتديها القراصنة، باستثناء البحار الذي نبهنا إلى الطيور التي كانت تملأ السماء. جاء ليربت على كتف الشيخ العجوز ويمر بسرعة خوفا من أن يصرخ في وجه الرجل البدين، ماتيو. الكل كانوا منهمكين في العمل إضافة إلى بعض الركاب الذين أختيروا للمساعدة في البداية. كان الإنهاك باديا على وجوههم. لم يكن العجوز مستعدا لسماع أيّ أحد بما في ذلك تهديدات الرجل البدين، أو البحار الكبير، كما كانوا يسمونه على ظهر الأرمادة.

- إذا غاضتك يا حبيبي، أرم بها في البحر، أجسن لك وأشهى لأسماك القرش الجائعة. خلصني من هذا الوضع الشاذ والخطير.

- لا يمكن يا سيدي، هذه زوجتي. إنها عشرة عمر أيها القبطان الكبير، قيل عنك أنك تحب الموريسكيين ولهذا توسمنا فيك خيرا.

- ومن قال أني أكرههم؟ إنها الوقاية فقط من انتشار الأوبئة. أخاف عليك كما أخاف على نفسي وعلى كل من السفينة.

ثم انسحب من أمامه مع ابتسامة كريهة ظلت عالقة بشفتيه حتى غاب في إحدى القمرات. بينما ظلت عينا المارانوس مثبتتين على صدري الذي كانت تتدلى منه سلسلة ذهبية، تظهر واضحة كلما حملت صندوقا خشبيا على ظهري أو انحنيت أو جدفت قليلا وبذلت جهدا ما. هدية ماريانا قبل أن نفترق. قالت وهي تضعها على صدري في ليلتنا الوحيدة في ألَميريا.

- آخر ما تبقى بيننا. تذكرني يا بشير، ولا تنس أن في شمال موجك وبحرك، امرأة تحبك بقدر ما تشتهيك. هذه السلسلة غالية عليَّ. كل ما ورثته من أمي.

خرج البحار الكبير وهو يزأر مع بعض البحارة والخدم من الركاب كمن ضيع المسالك والبوصلة. كان وجهه باردا وبلا ملامح.

- هذا الجو التافه بدأ يتبدل. منذ أكثر من ساعة وأنا ألاحظ حركة هذه السحب اللقيطة وهي تتكاثف على رؤوسنا لتغدر بنا. شيء لا يطمئن أبدا في هذه الطبيعة الخرة. علينا أن نتخذ كل الاحتياطات الممكنة لتفاديها.

كانت الأمواج قد بدأت تزداد تضخما. كانت تعلو ومعها تهتز الأرمادة الثقيلة هزات عنيفة كريشة في مهب الريح. تساءلت إذا ما كانت تلك الكتلة من الأخشاب تستطيع مقاومة الرياح والأمطار التي زادت قوتها وبرودتها وجبروتها. عينا كبير البحارين أو الرجل البدين، كانتا تشبهان عيني ثعلب يقرأ غيب البحار قبل حدوث المكروه. اقترب من مجموعة من الركاب. كانت ابتساماته الماكرة قد انكسرت. قال لهم، استعدوا لتنظيم شؤون السفينة والسواري والحبال، فالجوّ لا ينبئ بخير أبدا. بدأنا نشد السواري وندعمها كما أمرنا هو بفعل ذلك، ونلفّ الحبال هناك وهناك مستعملين كل ما كنا نملك من قوة. شعرت في تلك اللحظة بأن المسألة كانت جدية إلى حد بعيد. عدت إلى الشيخ الذي كان

ما يزال في وحدته. أكد لي بحكمته وتجربته، أننا كنا بين أيدي قراصنة محترفين. وعلى الرغم من نفس الشعور الذي كنت أحس به، إلا أنني حاولت أن أطمئنه.

- لا أظن يا سيدي. الرجل البدين منفعل لأنه خائف من تحولات البحر الذي لا يؤمّن أحد من مفاجآته غير السارة؟

- لا . . . لا يا بني. هذه ليست أخلاق بحارة. متأكد من أنهم يقودوننا جميعا نحو جهنم. هؤلاء قراصنة، هذه ليست أخلاق البحارة يا بشير؟ اشتغلت على ظهر السفن وأعرف كرمهم ورجولتهم في المواقف الأصعب.

- لا أظن. الريس يبالغ أحيانا في تشدده لضمان الوصول وحتى لا تتسيب الرحلة. مثلما يفعل جميع الرياس في سفينة فيها البحار الطيب والطماع، البريء والمجرم. . .

- لا يا بشير يا وليدي! عيونهم غير مطمئنة.

- أنت متعب، وفي حاجة إلى راحة كبيرة.

- حبيبي؟ من قال لك هذا؟ من أعطاك هذا الحق؟ صرت أنت ريس الأرمادة؟

قال المارانوس وهو يسحبني من ظهري بقوة.

- اسمع، اهتم فقط بزبالتك واترك البقية لمن هو أكبر منك وإلا أنت تعرف البقية. . . سمك القرش الذي يتبعنا منذ خروجنا من ميناء ألميريا سيجد لذة كبيرة في التهامك. هيا التحق بأصحابك، وساعد الجماعة.

كانت عينا الشيخ ملتصقتين بأفق كان يزداد ضيقا مثل خرم إبرة. لم يقل شيئا. لست أدري هل سمعه المارانس أم لم يسمعه. شعرت بألم داخلي وبرغبة كبيرة في التقيؤ. لم يسعفني الصمت، فقد انزلق لساني بسرعة من فمي. كان شيء أسود وحارق مثل البارود، ينتشر في داخلي.

- من الأفضل أن تترك الشيخ مع آلامه. ألا ترى أنه لم يعد قادرا حتى على الحركة؟ سنعمل في مكانه إذا اقتضى الأمر. صحته لا تسمح

له بذلك. زوجته تموت يا أخي؟ هل ماتت الرحمة في قلوب الناس؟

- قلت لك، من الأفضل لك أن تتلهى بزبالتك فقط. إنها أوامر كبير البحارة، سيد الأرمادة، هل لديك اعتراض على ذلك؟

قالها بقهقهة ماكرة فيها الكثير من الاستفزاز. أدركت من عينيه أنه كان يبحث عن أتفه الأسباب لوضعي في زاوية ضيقة ومحوي، أو أخذ السلسلة العتيقة التي شعرت أنها بدأت تسيل لعابه. مدارات الموت والجزع كانت تزداد اتساعا بيني وبين هذا المارانوس الكريه. تعمق الفراغ الذي كان يملأ داخل الشيخ. كانت امرأته مسجاة في حجره ولم يعد بإمكانه أبدا أن يسد الدموع التي كانت تنهمر بكثافة من عينيه المتورّمتين. صعب علي أن يبكي شيخ في سنه، فالدنيا بكاملها تنحني وتحزن، ويتمدد البحر تحت السفن طلبا للرحمة، وتذبل الشمس، ثم تتدلىّ من السماء كالورقة اليابسة. التفت الشيخ جهة المارانوس، كما كان يسميه قائده البحار الكبير، أو الكونفرسوس، كما كان يناديه بعض الذين كانوا معه من أصدقائه البحارة.

- إنها عمري أيها البحار الطيب. لم أجلب شيئا من ألميريا إلاّ هي. لا أطمع لا في الدين ولا في الدنيا. ظننت حتى آخر لحظة أنه بالإمكان إنقاذها من لعنة الموت. أهلي هناك يا سيدي، وراء هذا البحر، الأمل الوحيد الذي يبقى لي ولها قبل الموت غريبين في ضغينة المدن التي نسيتنا بسرعة. طفت بها مدنا كثيرة. رأيت جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة. عاشرت القتلة والحكماء والناس الطيبين. رأيت كيف كانت تشوي الجباه وتفقأ العيون الحالمة التي يحلوها أن ترى غير ما تراه محاكم التفتيش المقدس...

- هذا أمر يخصك. كلنا أحرقتنا محاكم الموت. الأوامر هي الأوامر، يجب أن تلتحق بالبقية للعمل ويكفي من التخريف الذي لا ينفع على ظهر الأرمادة. أمير البحارة مطعَّم ضد كل هذه الأكاذيب غير المفيدة.

- يبدو أنك لا تفهم يا سيدي. لقد دفعت دم القلب للحصول على

هذا المكان، أنا وزوجتي. أنا مسافر ولست بحارا. ثم... ترى بعينيك أني لا أستطيع تركها أبدا وهي على هذه الحالة! صعب وضعها جدا.

- لا أفهم. وليست قضيتي.

- لابد أنك نسيتَ بسرعة؟ القلب تعب يا سيدي، وأصبح كتلة جافة من الحطب اليابس. لقد رأيت الكثير من أمثالك، أخوتك أيها المارانوس، من فُصلت أجسادهم عن رؤوسهم أمامي، وأجساد أخرى أُحرقت حية داخل المغارات فقط لأنها كانت يهودية ورفضت أن تترك دينها. والذين حاولوا الهرب، كانت السيوف القشتالية في انتظارهم. مثلك... خسارة... محمد الصغير تركنا وحيدين، نواجه بصدور عارية، ألسنة اللهب التي كانت تنبعث من كل مكان. كالفئران كنا، نبحث عن حياة وهمية داخل أقبية الموت. اللعنة على هذه الأرض، اللعنة على هذه الدنيا، اللعنة على محمد الصغير، باعنا بأرذل الأثمان: نجاته. ووقف يتفرج على دمنا وصرخاتنا. اللعنة على دنيا لا تملك فيها حقك في الحياة. اللعنة على...

كان الشيخ يعيد مدّ الجرح الذي نزّ كثيرا حتى تفسخ وتيبس على دوده. ألم يكن ممكنا الموت بشرف الشهداء والرجال والأخيار؟ الأيادي كانت مكشوفة في مواجهة الخوف. هم الذين خانونا وصنعوا لنا ذاكرة للهزيمة. باعوا الرؤوس وطلبوا منا التسليم بالأمر وترك ثغور المدينة. لقد عاشوا النار وعذاب الشعور بالتخلي المفاجئ. أنا أعرف أسواق غرناطة التي كانت تروي حنينهم وأشواقهم. سيأتي حتما بعدنا من يروي الحقيقة كما عاشها هؤلاء الناس أو كما رويت عنهم. عن الذين أُحْرِقوا بنار تعريتهم من مدينة كانوا يحبونها مثلما تحب المعشوقة الغجرية التي لا تعطي قلبها وجسدها إلا لمن تحب، ولا تلمس نهداها، إلا النار التي فيها الكثير من قداسة اللحظة التي لا تنسيها النزوة حضورها. سيجيء من يشرق كالشمس ويجلس في صحن الساحة الشعبية ويبدأ في رواية قصة السقوط من أولها إلى آخرها. عرفت أخيرا وأنا أستعد للرد، لماذا كنت منقادا باتجاه هذا الرجل العجوز الذي لم يكن إلا علامة. أشياء غامضة

فيها سحر الأشياء المخفية بين الضلوع ولا تخرج إلا لحظة الكآبة الكبرى. كنت أتمنى أن أجد لحظة واحدة لأسأله عن كل الذي ينام في قلبي.

علماء الجملكية فسروا المسألة بشكل آخر، قالوا مرة أخرى، لولا القصة مع العجوز لتغيرت الكثير من الأشياء، بما في ذلك مصيري. أضافوا: لولاه، لما كنتَ أنت هو أنت، ولما حدث الذي حدث، ولسالت مياه البحر بهدوء كبير كما تعودت أن تفعل ذلك منذ الأزل. كنتُ أرى شيئا آخر، أكبر، وأفظع. فقد استحضرت جدي الأخير الذي قضى بقية أيامه في جبال البشرات. يبحث في صخورها، وبين فجواتها عما تبقى من لحظات المقاومة البائدة. قال جدي يومها، سأموت هنا وسط هذا الخراب، وليكن موت الجبال والوحدة احتجاجا على نسيان الله لآلامنا وجروحنا وقيحنا الذي تخثر في القلوب التي نامت على النار وهي تحلم بالمدن التي سرقت منها على حين غفلة. إنها لحظة السهو التي تكلف العمر والذاكرة. خانوا الحليب والملح، لن نخون ما تبقى من هذه التربة. يقال إنها كانت كلماته الأخيرة، وبعدها لم يره أحد. يُقال إنه حمل أفراحه وسلاحه، ورحل باتجاه الصخور الزرقاء والحمراء في جبال البشرات. قال وهو يودع المدينة بعينيه، بحزن صعب عليه تخبئه أو تفاديه.

- المدينة التي لا تحميك، ولا تملك حق حمايتها، ليست لك ولكنها لغيرك، لمن فتحت لهم فراشها ودستهم في سرها.

لست أدري إذا ما كان عليَّ أن أحبّ هذا الجد أم أكرهه. فذاكرته تقفز دائما باتجاهي. حتى والدي لم أشعر تجاهه أبدا بتلك العاطفة الساخنة مثلما أفعل ذلك مع جدي الأخير. الشرارة الأولى لهذا الخوف المزمن بدأت منذ زمن بعيد، واستمرت طويلا في جبال البشرات، جنوب جبال الثلج. أهل المدينة الذين كانوا يعرفون ثقل الجبال وسر الصخور اليابسة، حفروا الخنادق. استخرجوا دفعة واحدة شجاعتهم التي دفنوها تحت الصخور مع أسلحتهم البدائية. غطوا الحفر بالزرع والقش

وأشياء أخرى يابسة، ثم وقفوا ينتظرون الوجوه الجافة التي باعتهم للنسيان. كانت عينا جدي تشبهان عيني صقر. عين على النار والبارود وعين أخرى على العدوة البعيدة، وعلى البحر الذي كان يتمدد كالخوف في فراغ بلا حدود. رفع جدي صوته عاليا: هذه أيادينا مملوءة بالدم أين أسلحتكم أيها الناس؟ هذه أعناقنا تُحز من جذورها وتُقطف بمناجل صدئة حافية، فأينكم يا أهل العدوة الأخرى؟ وهذه مدافع غرناطة الإيطالية تزحف نحونا فأين المدفع الدمشقي؟ لكن الصرخات ماتت في الوديان. مرت السنة الأولى، وتلتها سنوات أخرى والعدوة لا تسمع أنين الجبال. الكل أصبح يابسا والحلوق جفّت على أنبل الكلمات. فلا تسمع صوتا آخر سوى آلام الذين صعدوا إلى البشرات يبحثون عن كرامة ما داخل هذا الموت الذي لا يرحم. وعندما أُغلق كل شيء، وسدّ البحر أذنيه، وتكسرت آخر الموجات على مضيق الزقاق، ثم عادت محملة بأصداء الهزائم، عض جدي على يده للمرة الأخيرة حتى شعر أنه نزع جزءا كبيرا من لحمه. ثم مسح شفتيه اللتين يبست ملوحة الدم عليهما، وعوى هو بدوره كالذئب المجروح في الرأس: باعنا أولاد الحرام؟! ملأ قلبه بالحنين المفقود ثم نزل إلى فرناندو القرطبي، الذي لحق به متأخرا. القوات القشتالية كانت تتمدد كالمرض المزمن وتقضم الأرض كالدودة. باعونا إذ استرضوا الخونة على رؤوسنا. قالوا له، لنحقن الدماء مقابل خمسين آلف دوقة ذهبية، ولك السلاح وحصون المدنية، ومراكز المياه التي لا تعرفونها، والمال والعباد والزاد. وحين وضعهم فردناندو القرطبي تحت رجليه، ضحك طويلا من حماقاتهم، ضحكة استمرت عدة قرون متتالية. وحين حاولوا أن يقفوا تحته، كانوا صغارا مثل الجرذان. في البداية قال لهم، لكم الأمان، ورفع يده اليمنى عاليا مناديا لكل القساوسة وطالبهم بضرورة تنصير الجماعات المهزومة التي آتى بها غنيمة من البشرات. لم يكن أمامهم إلاّ الصخور والموت. ألنشو الأندلسي، حين قاد جيشه عبر الممرات الجبلية الوعرة، كان يستخف بالبقية التي لم تستسلم. الكمين كان جاهزا، فجأة بدأت الصخور تنهال

عليهم بقوة. لأول مرة يرى ألنثو الجحيم في حياته. وحين عاد فرناندو، كان جدي وجماعته قد اختبأوا من وراء الصخور. حاصرهم وأغلق كل الممرات عليهم. أعطاهم الأمان رافعا يده اليمنى التي كادت تنزعها شظية انبعثت من وراء صمت الأحجار الباردة، بدأ الجوع والموت يزحفان. عشرون معركة وسنتان من السير على الجثث، ورفض الموت الرخيص. سنتان ولم يستسلم جدي المهبول على أرضه ومدنه. عشق حنين غرناطه والمقاهي البحرية والشوارع الضيقة والبحر ولم يستسلم. بعده، عندما انكسرت أشواقه وناره، غيرت الموجة طريقها، وسكنته الريح بعد أن سدت مسالكها، والوجوه الواسعة ازدادت ضيقا، والعيون الجميلة أصبحت مجرد ذاكرة حزينة.

- كنا نحمل ذاكرة مغشوشة... غشونا الله لا يرحمهم.

كنت غارقا في تفاصيل جدي عندما صرخ الشيخ وهو يشد عجوزه باتجاه صدره الذي أصبح مملوءا بالحنين والشوق إلى الأرض التي غادرها مرغما. كان البحر يزداد اكتظاظا بالأمواج وظلمة، بينما الأرمادة تتمايل بقوة، وعينا البحار الكبير تزدادان احمرارًا، بينما المارنوس يدور بلا توقف حول الشيخ العجوز. عين على البحر وأخرى على السلسلة الذهبية التي كانت تتدلى على صدري بشكل أصبح مكشوفا بعد أن لبست لباسا خفيفا يسهل عليَّ عملية التجديف. كلما أخذت شيئا ثقيلا على ظهري، وعكفت إلى الأمام من جراء الثقل، تدلت السلسلة الذهبية، وتدلت معها عينا المارانوس.

- سرقوا منا كل شيء يا بشير وليدي. سرقوا الذاكرة بعد أن حشوها بالهزائم والانتصارات الوهمية والخوف. طواحين الهواء يا بشير، طواحين الخوف... لا تأكل إلا الريح والفراغ وأجسادنا المتهالكة أصلا.

ظل يكرر هذه الكلمات وهو يضم جسد زوجته الميت إلى صدره بقوة.

- هل كان يجب أن نموت وسط بحر ليس لنا؟ وسط سفينة عيون

أصحابها تشبه عيون قراصنة ممتهنين؟ حلمنا بتطهير البلد من الخراب، فظل يملأ داخلنا، مكتظا بالأوساخ والأوحال التي لا تخرج إلاّ في الأوقات التي نريد أن نخبئها فيها عن العيون التي يحلو لها أن تستمتع بهزائمنا. سلمنا المدن، سلمنا الرؤوس، وسلمنا الأجساد والفروج. وظللنا نبحث عن استقامة وهمية وسط فراغ من عملقة أوهامنا وأحلامنا المريضة. ماذا بقي بين أيدينا سوى رماد الهزائم والخوف ونجاة لم تعد مؤكدة؟

- أصبر يا سيدي. أصبر... لا شيء أمامنا الآن إلا الخروج من ثقل هذه الأمواج وبحر لم يعد طيبا معنا. بعدها، ستتضح الأمور... متى كان للهارب المطرود نحو المجهول، ضمانات يا سيدي؟

عاد الرجل البدين أو البحار الكبير أو أمير الأرمادة، كما يسميه المارانوس، إلى صراخه المعتاد وهو يحاول أن يخبئ عبثا، خوفه الذي بدا واضحا على ملامحه.

- أيها المارانوس الأهوج، ألم أقل لك الْقِ بها في البحر؟ ماذا تنتظر؟ إني أشم رائحة الطاعون. سنموت جميعا. لم تكن محاكم التفتيش المقدس مخطئة حينما رمتكم في قلب اللهب لتصفية داخلكم المنافق. أنا لا أريد أن أفقد بحارتي بغلطة تافهة كان يمكن تصحيحها في وقتها أو تفاديها.

كان محاطا بجيش من البحارة الذين لم يكن أي شيء يوحي فيهم بالراحة، وجوههم، عيونهم، ولا حتى ألبستهم.

- عاش مولانا البحار الكبير... عاش...

ورموا قبعاتهم المختلفة الألوان والأشكال في الفضاءات التي بدأت الأمطار تثقلها.

- لكنها زوجته يا سيدي، ويرفض أن ينفصل عنها.

قال المارانوس وهو يحاول أن يدافع عن نفسه.

- احك هذه الحكايات لأمك العمياء وليس لي. أريد النتائج وتنفيذ

الأوامر المعطاة وليس التبريرات. يوم أنقذتك من موت محتوم ومن محرقة كانت ستأكلك، أقسمتَ أنك ستخدمني طوال عمرك.

ثم التفتَ نحو الشيخ بنوع من العنف.

- يا الله يا شيخ! ساعدنا. لا نريد أن نؤذيك، ساعدنا فقط على التفرغ لرداءة الطقس. بين خيارين، إما أن تقبل برميها في البحر تفاديا للطاعون والأمراض الفتاكة الأخرى، أو نرميكما مع بعض. لقد ماتت ولن تستطيع فعل أي شيء من أجلها.

- من قال لك إنها ماتت. انتم مجانين. لقد دفعت ثمن مقعدها، ووجودها غير مضر لأحد. لم يبق لها حلم آخر سوى أن تدفن في أرض أجدادها البربر. أي ضرر؟

- ليست أكثر من كيس للأوبئة.

- أي قانون هذا يا سيدي، نحن مع بحارة أم مع قراصنة؟

- أرجوك لا تكثر من الكلام الذي يؤذيك. يجب أن تلقي بها في البحر. إنها ميتة، والفئران كثيرة على متن السفينة، والطاعون لا يرحم. مرة أخرى نطلب رضاك على ذلك ولا نريد أن نعنفك بالقوة. هل ترى هؤلاء الناس، لو قلت لهم فقط إنها مريضة بالطاعون، سيأكلونك نيئا.

تراجعت العيون التي تعاطفت مع الشيخ إلى محاجرها. كل واحد عاد ليتلمس جسده خوفا من أنياب الفئران. هي موبوءة قبل ركوبنا على متن الأرمادة، البحر مآل الأجساد المتعبة. كان العجوز يعرف جيدا أنها ماتت، لكنه كان من الصعب عليه تصديق ذلك. أسند رأسها على صدره وبدأ يدندن في أذنيها، أغنية قديمة ودموعه ترتسم كالجرح الممتدّ على وجهه:

يا بحر البحارة، ما بقَاشْ فيك الآمانْ.

موجك كبر وعلاً، كأنك هبيل وزعفانْ،

وين راح مسكك، والعنبر، وزهر الرمان؟

يا بحر الخبر، حتى أنتَ وَقِيل ملحك خانْ؟

اقترب منه المارانوس، بعدما صرخ في وجه الجميع:

- إلى الوراء. سأتدبر أمري بنفسي. سأصحح غلطتي.

استجمع كل ما تبقى من قواه. كان وجهه يشبه قطعة نحاس محروقة. قلت في نفسي، سأتودد إليه لعله يمهل الشيخ لحظات ليودع زوجته الميتة، وأقنعه من جهتي بأن ما فات مات، وأن من مصلحته قبول الفرقة مع زوجته. فالحياة تظل أعظم. لكن المارانوس، دفعني حتى قبل أن ألمس الشيخ أو أطلب منه أي شيء. كان الدفع قويا بحيث اصطدم ظهري بساري الأرمادة. شعرتُ وكأن إبرة انغرست بين فقرات الظهر. تأوهت تحت قهقهات البحارة وأتباع المارانوس، لكني عدت إلى مكاني وتماسكت لكي لا أسقط. لستُ أدري هل كان عليَّ أن ألعن تلك اللحظة، أم أفعل غير ذلك، لأن قطرة الدم التي نزلت من رأسي واختلطت بمياه البحر، أشعرتني بالإهانة المرة، وأني هربت من الخوف إلى الذعر، ماذا أفعل؟ وأنا لا أعرف كيف أتصرف أمام تلك الجثة الضخمة؟ قلتُ في خاطري، من الأفضل أن أتفاداه قدر المستطاع. فجأة تذكرت جدي الذي لم تروضه السيوف القشتالية ومحاكم التفتيش. أرجعني المشهد إلى الوراء. وعرش القوالين وماريانا العاشقة. العمر قضيته في حي البيازين، حيث ينتشر الموت مثل اللعب في الحياة اليومية للناس. سأبيع أسوار مدينتي وأسواقها وحيطانها ومغاراتها وصخورها الزرقاء، للخراب بدون أدنى ندم، إذا كانت الهزيمة تسكن قلبي وتعب الموت المجاني يملأ شقوق بيتي.

اشتعلت النيران في داخلي والناس ينظرون إلي باحتقار.

التفت نحو البحار الكبير لكي يردع المارانوس، وليكون شاهدا على ما يمكن أن يقع وأني لم أكن البادئ ولا الظالم. لكنه انسحب فجأة، مخلفا وراءه أصداء ضحكة ساخرة كريهة.

- هو لك. عندما تنتهي من عملك، ارمه في البحر. لا أريد من يعكر صفوي.

عرفتُ بعدها أن كل شيء كان مرتبا سلفا. كان المارانوس الذي استجاب لضحكة سيده الثقيلة، ينتظر هذه اللحظة. استل سكينه من خاصرته، ثم وقف ينتظر حركاتي. لم يكن أمامي اختيار آخر. حاولت أن أتفاداه لكنني حينما رفعت رأسي، وجدته يواجهني بنفس الوقفة. الرّجلان مفتوحتان، السكين يلمع في يده اليمنى، والوجه بارد كقطعة نحاس. قلت وأنا أحاول مرة أخرى أن أتفادى معركة غير مفيدة، ضررها أكثر من نفعها.

- يا سيد، أنا لم أفعل شيئا يؤذيك. لم أطلب إلا بعض الوقت لإقناع هذا المسكين الذي تعني له زوجته كل ما تبقى له: الأرض والأهل والبلاد. فلا تكن مجنونا. كلنا عابرون نحو عالم لا نعرف عنه أي شيء.

- عندما أنثر أمعاءك أمام الملأ، سأرى إذا ما كنتَ ستصرّ على الوقوف في وجهي.

- أنا لا أقف في وجهك، سفينتك ولك أن تفعل فيها ما تشاء. ولكن هذا الشيخ يريد فقط أن يودّع زوجته لا أكثر.

كان المارانوس قد أصيب بالعمى، وامتلأت عيناه بالدم. قاتل أو مقتول. تذكرت كلمة الجد وهو يواجه، القوات القشتالية، تقول الرواية في الأسواق الغرناطية. قاتل أو مقتول، لا خيار لك في منطق الصدفة.

فجأة نسي الشيخ حزنه، نهض بصعوبة كبيرة من مكانه واتجه نحو المارانوس يسترضيه. وقبل أن يفتح فمه، كان المارانوس قد دفن في صدره السكّين حتى المقبض. ثم مصها بلسانه مثل الحيوان الضاري. عاد إلى وقفته الأولى، برجلين مفتوحتين عن آخرهما ينتظر جركاتي. سقط الشيخ كالخشبة العتيقة. حاول أن يقوم بصعوبة. صرخ المارانوس مرة أخرى: وخَّرْ من طريقي؟ تراجع الشيخ بتثاقل، ثم اتكأ على ساري السفينة مستجمعا ما تبقى من قواه، ثم أخذ صندوقا خشبيا كان بجانبه، وطوح به باتجاهي قبل أن ينزل من جديد على ركبتيه المتعبتين ويحاول

رفع رأس زوجته إلى صدره بحثا عن دفء مفقود، بينما كان جرحه ينزف بقوة. سمعت حشرجته الأخيرة مليئة بالدم الذي غزا فمه، وهو يبحث عن كلماته التي هربت من فمه:

- دافع يا البشير عن آخر الموريسكيين. دافع ولا تستسلم. نموت مرة واحدة.

كان المارانوس يريد أن يسكته للمرة الأخيرة، لكن المسافة التي كانت تفصلنا عن بعضنا، تضاءلت كثيرا. وقف لحظة من الزمن، ثم تراجع راكضا باتجاه قمرة القيادة. لم أفهم تصرفه. ظننت أن الرجل فكر في الموت وانتهى إلى أن المعركة تافهة ولا تستحق هذا القتل المجاني. مع ذلك، لم أثق في عينيه لحظة واحدة. وقبل أن ألتفت نحو الشيخ، خرج فجأة يجرجر وراءه الرجل البدين. أجلسه على أحد الكراسي الموضوعة تحت ساري الأرمادة الرئيسي، وهما يقهقهان بصوت عال.

- هيا أيها المارانوس الوسخ، إنها الحرب المقدسة بين الكونفرسوس والموريسكوس. أشتهي مثل هذه الحروب الممتعة. هاها... هاها.

ثم صفق بيديه، فتجمع وراءه بقية البحارة وهم يرددون نفس القهقهات التي كانت تشبه الزعيق. بينما ظل البحار الذي نبهنا إلى كثافة الطيور، صامتا. لا يحرك ساكنا وكأن شيئا ما كان يدور في دماغه. ارتسمت على وجهه علامات الخوف الداخلي. عرفت لماذا غاب المارانوس ثم عاد ركضا. كان يريد أن يمتع سيده بمنظر لا يتكرر دائما وبالمناسبة يُظهِر له وفاءه واستماتته في رضاه. بينما كان الشيخ ما يزال ينزف بقوة ويهذي. بصعوبة قام على رجليه، حمل جثة زوجته، أمام دهشة الجميع. وقف على الطرف الشمالي من الأرمادة، رفع رأسه إلى السماء، ثم صرخ بأعلى صوته.

- لن أترك للقراصنة شرف رميي في البحر، سأفعل ذلك بنفسي. لن نموت مرتين. سأرضى بقسمة البحر، بيني وبينه حنين لا يموت أبدا. لن يخونني ملحه.

وقبل أن أصرخ في وجهه وأقول له: أرجوك لا تفعل. كان صوت ارتطام الجسدين بمياه البحر قد أعادني إلى الخطر المحدق بي، وألبس عيني دما أسود. لولا سرعة تنبهي، لما استطعت تفادي الضربة الأولى التي ارتشقت على الساري الذي كنت أتكئ عليه. مات الشيخ ميتة محارب عظيم مثل جدي تماما. زاد الحقد تصلبا في حلقي. ضربت المارانوس في حجره بركله، بأقصى قوة، لكنه استقام من جديد ووقف يتأملني. من عينيه، أدركت أننا تخطينا كل إمكانية للحياة، وأصبحنا نلعب معا في ساحة الموت. عرفت من حركاته أنّ الضربة القادمة ستكون في الصدر تماما، ليحسم المعركة معي نهائيا. البطن كنت أخبّئه بالصندوق الخشبي الذي رماه نحوي الشيخ العجوز، قبل أن يرمي بنفسه في البحر. في الحرب البدائية، عليك أن تتوقع الضربة الموالية وموقعها من عيني خصمك، وإلا ذهبت مع الريح. كان يقترب مني بخطوات ثابتة. السكين في يده ازدادت برودة وتصلبا. الضربة للصدر. لم تكن عيناي تريان شيئا آخر، سوى لمعان السكين الذي تعددت ألوانه من جراء قطرات المطر وانعكاس الشمس عليها. بدأ يدرك من حركاتي، أن سلخي لم يكن أمرا هينا. رأيت ذلك في عينيه اللتين احمرّتا. نزلت الأحقاد إلى قلبي. صورة العجوز لم تغادر مخيلتي وهو يلقي بنفسه داخل أمواج البحر، وينظر إلي بعينين مليئتين بالفراغ. ابتعدت حتى اختلطت ملامح الجميع بضباب ذلك الفجر البارد. حاولتُ أن أواجه وضعي بصفاء، لكن دمعة الشيخ الأخيرة وصرختَه ظلَّت عالقة بذهني وتصلبت فيَّ حتى صارت كأحجار الوديان الجافة. كنت متيقنا أني أصبحت قادرا على الموت والقتل أيضا. هربت العصافير من قلبي، ومات شدوها. ونزلت الأشواق من ذاكرتي، وغاب وجه الله، ممتزجا بدموع ماريانا لحظة الوداع، داخل سكين المارانوس الحاد واللامع. واستباحت العيون الهمجية كل شيء، حتى حي البيازين والأسواق الشعبية. رأيت الأزقة الضيقة وهي تنغلق عليَّ إلى أن استسلمت. لم أتعلم من البيازين إلا النداءات المكتومة، وكيف أدافع عن حقي وسط

فراغ الموت. انعدمت كل الخيارات الأخرى وانتصر خيار الساحة الباردة التي كنا نلعب فيها أنا المارانوس. قاتل أو مقتول.

لم يبقِ للمارانوس كذلك، أي خيار آخر إلا القتل أو الموت. كانت الأمواج تتعالى مثل الجبال، وترتطم بجوانب الأرمادة بقوة مخيفة. الرعد صارت أصداؤه قريبة من رؤوسنا. بين الموجة والموجة كان الموت يزداد اتساعا، وزرقته تذبل مثل أوراق الخريف، والرغوة تصطدم بوجهينا المتعبين. تدخل من بين ثقوب الخشب لتتحول إلى هواء بارد مليء بالرذاذ، يجرح مداخل الأنف ويشوّك اللحم. كل شيء بدأ يصعد إلى القلب ويتحول إلى سواد، من أخمص القدم حتى شعرة الرأس. تزداد حمرة الدم سوادا. لم أعرف إلا فيما بعد أن ضربته الأولى خلفت جرحا عميقا على زندي الأيسر. كان عليّ أن أبقى بعيدا عن مرماه. أعاد مسح السكين بين شفتيه. لمعها من جديد بعد أن مصّها من الدم العالق بها. أخذ يقهقه بأعلى صوته كأنه أصيب بحالة هستيريا الدم. عرفت بحواسي الدفينة، أن عينه اليسرى، المنتصبة على بطني، كانت تقصد صدري. مجرد لعبة للمخاتلة. زاد الاحتراق داخل أنفي، وضاق تنفسي كثيرا. درت حوله دورات متعددة، وأوهمته بأني متجه إلى الدفاع عن بطني لأتركه داخل قناعته الأولى التي حدّدها. كنا نمارس لعبة الشطرنج. عليك أن تتخيل نقله خصمك قبل حدوثها، وعليك أن تعرف التفاصيل قبل أن تمارسها. لم يكن من حقي الخطأ في توقعي. كانت عيناه تتحركان بسرعة غريبة في محجريهما. لست أدري ما منبع كل تلك الأحقاد التي كانت تتصاعد من عينيه ولا مصدر هذا الجنون المستميت للانتهاء مني. منذ أن رآني وهو مصر على قتلي أو تمزيق بطني. عرفت على ظهر الأرمادة أن المارانوس كان كونفرسوسا، يحب المال والذهب أكثر من إيزابيلا الملكة القشتالية. لا يستبعد أن يكون قد قبض ثمن مارانوس وموريسكوس آخرين. الصندوق الخشبي ساعدني كثيرا في كل شيء، حتى في الدفاع عن نفسي والوقوف في وجهه. الكونفرسوس تعودوا منذ زمن بعيد على هذه العادات الهالكة. فقد اضطهدتهم محاكم

التفتيش بقسوة. معظمهم كان يعملون في سفن القراصنة، هربا من جحيم توركيمادا، المفتش العام لمحاكم التفتيش المقدس، الذي حول كل المدن إلى مؤسسات لبيع الموت بأبخس الأثمان. المارانوس قالها وهو يصرخ بأعلى صوته، عندما تلقى الضربة الأولى في وجهه بالصندوق الخشبي، التي هزّه قليلا وهو يحاول غرز السكين في صدري. كان هائجا مثل ثور مجروح.

- مثلك، مثل توركيمادا، يا ابن الكلب. كلكم تنبذون المارانوس وتستلذون ببهدلته. كان البرد شتويا، أواخر شهر الثلج، شباط ١٤٨١ حينما أمر بحرق ستة منا. ماذا فعلنا له نحن؟ كنا يهودا مسالمين لا نطلب أكثر من العيش في سلام؟ وأنتم ماذا فعلتم أيها الموريسكيون التافهون؟ كنا إخوة لكم في كل شيء، فلماذا تخليتم عنا؟ وقفتم في أسواق اشبيليا وطليطلة من قبل، تصفقون للمحرقة؟

في لحظة ما شعرت به يتكلم بصدق، أردت أن أقنعه بأني أنا كذلك أكره توركيمادا، وأني مثله ضحية، وأني هارب من سطوة ناره، وأن الكثير من أصدقائي في غرناطة واشبيليا كانوا من اليهود، ولكن المسافة التي كانت تفصلنا زادت ضيقا، ووجه الشيخ العجوز سوّد داخلي بقوة. شعرت بإصراره على قتلي والانتقام مني.

تمالكت نفسي للمرة الأخيرة، ربما كان لكلماته التي سمعتها منه وقع في ذلك.

- أرجوك، توقف عند هذا الحد. يكفي، شتمتني وشتمتك. قتلتَ رجلا مسالما لم يؤذِك. أرجوك يكفي. كلنا معرضون للموت البائس بهذه الطريقة.

زادت قهقهاته تصاعدا. كان قد دخل في جنون الدم.

- جباااان. . . بدأتَ تبول في سروالك؟ لن أرتاح إلا إذا انتقمت لكل المارانوس الذين ماتوا على يديك القاتلتين. نهايتك الآن يا توركيمادا، يا قواد ملكة قشتالة.

- لست توركيمادا يا مجنون. أنا بشير إلموزّو، ابن هذه الأرض بالصدفة مثلك، مثلك تماما. حقد إيزابيلا الأعمى أصابنا جميعا حتى الموت. كانت تريد مملكة منتشية بالفرح والزهو والدين، والذهب على رمادنا. مملكة منسية على أطراف المتوسط. حين تأزمت الدنيا، رفعوا الحماية وتركونا في قلب الخراب وحيدين، نواجه الحديد الساخن لمحاكم التفتيش. طردونا من قشتالة ومن بقية المدن. أين كنتَ؟ قل لي أين كنتَ عندما كان جدي يموت من أجل مدنكم وجلودكم؟

- ألستم حكام البلاد؟ لماذا تركتم توركيمادا يعيث فسادا في نسائنا وفي مدننا؟

- لم يكن المسلمون أكثر حظا منكم. قلت لك أنا أيضا أكره توركيمادا.

كأن كلامي لم يزده إلا تصلبا. كان ينفث دخانا من منخاريه ويتصيَّد المنطقة الأقل حراسة فيّ. كشّر فجأة عن أسنانه التي أفقدها السواد لونها الأصلي.

- أنا المارانوس ابن داوود الكونفرسوس، الذي حمل طوال حياته عند القحبة القشتالية ايزابيلا، علامة (+). ظلت مختومة على صدره، مرسومة في دائرة صفراء إمعانا في الإهانة، حتى مات وهي ملتصقة به. ماذا تريد مني؟

- أريدك أن تتعقل وتنسى ما حدث بيننا.

ما كدت أنهي جملتي الأخيرة حتى مرت الضربة بالقرب من وجهي بعد أن تفاديتها بسرعة. دار في الفراغ ثم التوى مثل الذئب. قفز على قدميه ليواجهني من جديد، في كامل استعداده، للموت أو القتل، صدره يصعد وينزل بسرعة مخيفة. السكّينة الباردة ترتعش بين يديه. حبات المطر زادت سمكا وقوة. تمنّيت أن أوقف هذه المهزلة، لكني أدركت أنه في كل الأحوال، سيقتلني مدافعا أو مستسلما. اتكأت مرة أخرى على ساري السفينة لأسترجع بعض الأنفاس التي ظهر تقطعها واضحا. كان يحمّلني كل المآسي التي حدثت لليهود. وكنت في عينيه توركيمادا،

وعبثا حاولت إقناعه. لم يصمت وهو يدور من حولي من جديد، متصيدا الزاوية المكشوفة في جسدي:

- قل لي، أيها اللقيط، أين كنتم حين قتلونا وذبحونا على الملأ؟ رائحة الأجساد المحروقة وصلت إلى كل الأنوف، إلا أنتم، لم تحركوا ساكنا.

- أنت تجرنا نحو موت تافه وبلا معنى.

يقهقه المارانوس. يبدو منتشيا بجنونه.

- بدأ الخوف يركبك؟ بدأت تبول في سروالك رعبا. سأستمتع بالركض في السفينة، بأمعائك النتنة.

كدت أصرخ للمرة الأخيرة: توقف أرجوك، أنت تقودنا نحو المهالك، ولكني عقدت لساني نهائيا، وواصلت الحذر من كل حركاته المخاتلة والخطيرة.

- آه يا قواد توركيمادا، ما الذي جاء بك إلى الأرمادة... شربتم دمنا ثم ضحكتم علينا. سنعيد المجد الضائع ونضحك عليكم قدر ما نستطيع في الوقت المناسب. حين سقطت طليطلة، أولى المدن الشهيدة، في ذلك المساء الجحيمي، بعثنا كونفرسوسا يفاوض صاحب اشبيلية المعتمد، ويطلب منه حصونا للحماية. ماذا فعل القواد الحاذق، بدل قطع رأس ألفونصو، ضرب رأس الرسول ابن شاليب، وصلبه منكوسا على رأسه في شوارع قرطبة. هل هكذا يُدافَع عن حق مسروق؟

مسكين؟ كان يحملني وِزر حرب أكلت لحمي وجلدي. قلتُ له في خاطري، وفهمني من عيني المتعبتين: هي الحرب يا رجل البحر ولا دخل لي فيها. أنا قوال ليس أكثر. هل تريد أن تعرف تاريخا لا يناسبك؟ أتعرف أيها المسكين، إن إبراهيم سانيور اليهودي، باعنا للقشتاليين عندما دخل ألفونصو إلى المدينة؟ قدم خزينته بكاملها من أجل حرق غرناطة وضواحيها التي كان يسكنها المسلمون واليهود. وأحرقنا نحن كذلك في الاحتفالات الرسمية، الدينية، نلوم من يا أعمى القلب والذاكرة؟ لم يكن

المارانوس مستعدا لسماع أيّ نداء داخلي صادق. فالدم كان قد أغمض عينيه المحروقتين من جراء هواء البحر المالح.

- سأضع السابنيتو[٢٢] على وجهي، لكني قبل ذلك، سأشرب من دمك ولن أرحمك أبدا. ستدفع ثمن حكامك الذين دفعوا بك نحو الأرمادة لتتجسس على ريّسها سيدي ماتيو، كبير البحارين، وبحارتها.

حاولت أن أصدّق ما كان يحدث أمام عيني. قلت في أعماقي، مجرد كابوس، سينقشع مثل الغيمة المزعجة، لكن ما كان يحدث لي جعلني أُلغي كل أوهامي. فقد كنت بالفعل أقف أمام الموت. ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير الدفاع عن نفسي؟ وقبل أن يلمسني السكين وينغرس في صدري، كنتُ قد رفعت الصندوق الخشبي مرة أخرى لوقاية عنقي. حاول أن يجدد الضربة، لكن حركتي السريعة أنقذتني من موت محتوم. فانكسر الصندوق على رأسه وذراعه الأيمن. شعرت به يتوازن بصعوبة. عاودت الضربة مرة أخرى، فتدحرجتْ رجلاه وغامت نظرته بعيدا. سال الدم من أنفه. وقبل أن ينكفئ على وجهه، كنت قد سبقته إلى توجيه ركلة قوية بين ساقيه، فتأوه وازرورق وجهه من شدة الألم. حاول أن يقوم ويعاود الكرة، لكن ذلك لم يكن ممكنا لأن الذي يسقط الأول في معركة مثل هذه، ينتهي حتما تحت نعال الآخر. الضربة للخصيتين هي أقوى ما يمكن أن يوجه لرجل. كررتها مرة ثانية، فانقطع نفسه وترك السكين تنزلق من كفه مما جعلني أتفادى الاستنجاد بالسكين الذي خبأته فوق حذائي قليلا. سقط على ظهره، رفسته على يده وعنقه. شُلّت مقاومته، وصار مثل الدودة يتحرك في مكانه. وعندما حاول أن يقاوم، كان كل شيء قد انتهى. تصاعد الدم إلى أنفي أكثر، عاودتني صرخة الرجل العجوز وهو يلقي بنفسه في البحر. وقبل أن ألتفت نحو البحر، كان البحار الكبير قد لكزني بمرفقه بقوة. ظننت في البداية أنه سيدفن سيفه الطويل في صدري أو يطلب من البحارة أن يلقوا بي من بين

---

(٢٢) ثوب العار Sabenito

الأمواج الصاخبة التي كان رذاذ تمزقها يصل إلى وجوهنا، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، وإنما توجه نحو المارانوس الذي كان ما يزال مستلقيا على ظهره ويتلوى من شدة الألم. كان وجهه مسطحا مثل قطعة حديد صدئة، وبلا ملامح.

- هذه هي شجاعتك يا ابن الكلبة؟ قوَّمتني من نومي على هزيمة فارغة. سأنزع خصيتيك، مثلما تعودتَ أن تفعل مع ضحاياك. أجمل عقاب وأحلاه، وأكثره عدلا.

وضع رجله على وجه المارانوس الذي كان ما يزال بين اليقظة والدوخة. سال الدم من أنفه وفمه. مدّ البحار الكبير يديه نحو سروال المارانوس الذي ترنح في مكانه قبل أن يستسلم لأمير الأرمادة. لوى أصابعه الخشنة على خصيتي المارانوس. كانتا قد برزتا بشكل واضح من جراء مياه الأمواج المتكسرة على ألواح الأرمادة. ثم بدأ يلويهما ويكزّ على أسنانه التي تطاحنت بكل قوة، بينما كان يساعده بحارته على تثبيت المارانوس أرضا حتى لا يتلوّى من شدّة الألم.

- ذقْ ما أذقته للآخرين أيُّها اللقيط.

لم أسمع إلا صوت عروق الخصيتين وهي تنسل، وتتقطع قبل أن تنفصل عن بقية الجسم ويندفع الدم الفائر بقوة. صرخة المارانوس التي اخترقت صمت الأرمادة ووجوه الناس المليئة خوفا ودهشة ورمادا. حاولت أن لا أتساءل: كيف يمكن أن يقتل البحار الكبير أقرب معاونيه وأكثرهم خدمة له؟ شعرت ببعض الأذى الداخلي. بعدما انتهى البحار الكبير من تنحيه خصيتي المارانوس، وضعهما في فم الضحية. كنت متكئا على السّاري الكبير الذي شعرت في لحظة من اللحظات أنه لم يعد قادرا على تحمل ثقلي. تودد المارانوس إلى سيده بعيون كلب مهزوم. حاول أن يذكّره بالأمجاد السابقة التي حققاها مع بعضهما بعض.

- أترك لي يا مولاي فرصة واحدة ووحيدة وبعدها اقتلني إذا شئتَ. سأُشفى وأعاود الكرة. وسأقتل الموريسكي أشنع قتلة تمتّع سيدي.

- مسكين أيها المارانوس، أنت تهينني. كيف أقبل في الأرمادة

برجل بدون خصيتين؟ بربع رجل؟ لا يا حبيبي. حتى ولو قبلت، لن يتركك البحارة تعيش دقيقة واحدة. إنهم يكرهون المهزومين وأنصاف الرجال. أنت الآن أقل من أية مومس ينامون معها ثم يتركون لها بعض النقود وينسحبون.

- أتركني أعيش على الأقل يا سيدي في كنفك. مثل أية امرأة تخدمك وقت تشاء. فقد خدمتك العمر كله. كن رحيما يا صاحب الرحمة.

- قلت لك أنك تهينني. كيف يخدمني مخصي؟ لست في حاجة إلى ربع رجل.

- سأخدمك وأنا مجروح. سأخدمك زحفا على بطني. سأخدمك مثلما تريد وتشتهي. سأعبدك يا سيدي.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ لنا إله نعبده. لم أصل بعد إلى رتبة الإلوهية. أمثالك يجب أن يموتوا، هذه هي أخلاق البحارة التي تعرفها جيدا أم تراك نسيتها؟

كان المارانوس ما يزال ينزف بكثرة وتدفق، ويتخبط في الأرض كالشاه الذبيحة. حزنت من أجله. البقية كان يعرفها جيدا هو نفسه. الإنسان ينتهي مثل الكلب عندما يكون في خدمة غيره بهذا الشكل، بمجرد ما يُهزم ولو مرة واحدة. أكبر شتيمة عند البحار هو أن يهزم في سفينة يدَّعي أنه مالكها. بدأ الهواء البحري يلفح وجهي ويخفف عني شطط موت كان أكيدا. تمنَّيت أن أقول للرجل البدين، دَعْهُ يعيش على الأقل، لكنني عرفت أني سأكون الخاسر الوحيد. زممت فمي مثل الحلزون الصائم. صفَّق أمير الأرمادة بيديه، فجاءه، بقية رجاله. أغمضت عيني وحين فتحتهما، كانت صرخة المارانوس الأخيرة قد انتهت داخل البحر. طلب من أحد رجاله أن يوفر لي الدواء وأن تُضمد جراحي وأن تُغسل السفينة من بقعة الدم التي تحولت إلى بركة. وقبل أن يتركني، نبهني الرجل البدين إلى أنه يقدر شجاعتي ويحترمها، ولكنه لا يريد مشاكل في الأرمادة. لست أدري ما الذي غير لهجته تجاهي. الذي

أعلمه، هو أني رأيت مسالك القيامة الحارقة، في لحظة من اللحظات. أعطى الأوامر للبحارة والمسافرين بإعادة ترتيب الصناديق وأشياء السفينة التي توزعت في كل الأماكن من جراء المعركة الطاحنة. وإعادة ترتيب الأشرعة بحسب قوة الرياح العاصفة.

بدأت السفينة تخط طريقها بشكل متعرّج ولكن بثقة كبيرة. وعادت الحياة إلى حركتها الاعتيادية وكأن شيئا لم يكن. لكن داخل عيون الكثير من البحارة سكن شعور جديد بالهزيمة. حتى بعدم الثقة فيما كان يحيط بهم. المارانوس كان هو نائب الأرمادة بعد الرجل البدين. الركاب لم يقولوا شيئا، لكن إعجابا غريبا كان يتراقص في عيونهم كلما تأملوا صمتي. الكل فقدوا ثقتهم في البحر الأرمادة. لقد أمَّحت الصورة العظيمة التي صعدوا بها إلى هذه السفينة الضخمة. لو خيرت، ولو كنت قريبا من اليابسة لأوقفت رحلتي عند هذا الحد. كنا ننقاد نحو جهنم والخراب. هل ألعن سامويل؟ ماريانا؟ أخي الذي كان يظن أنه ينقذني من موت كان محتوما؟ اللحظة التي ركبت فيها الفلوكا، كانت مليئة بالأحلام والأوهام قبل أن ينطفئ كل شيء في أعماق البحر.

الكل في السفينة بدأ ينظر إلي نظرة إعجاب واحترام. حتى الريس، غير نظرته إليّ، لكن خزرته الثعلبية لم تكن مطمئنة أبدا. أصبح يناديني باسمي الشخصي، بشير إلمورّو، أسمع يا بشير خذ يا بشير... بشير إلمورّو أنزل إلى المخازن تحتاجك الجماعة... أصعد على رأس الساري يا بشير،... بشير... اصعد إلى البرج وراقب إذا كانت هناك سفن للقراصنة. اسمع، احذر الصناديق من أن تسقط على رأسك...

في عالم يحكمه منطق القوة والجبروت فأنت لا تُحترم إلا لقوتك. تغيرت تصرفات الكل بشكل جذري تجاهي، حتى أصبحت أشكك في قدراتي العقلية أحيانا وفي الناس إذ كان من الممكن أن أكون الآن أنا الشخص الذي ينام في البحر. مشكلة المارانوس الوحيدة هي أن ثقته في نفسه كانت أكبر منه. والثقة الزائدة تقتل أحيانا. استغربت كيف يمكن أن يتبدل البشر بين يوم وليلة، وبين لحظة وأخرى. لكني تأكدت من أن

البقاء داخل هذه السفينة هو دائما للأقوى. الضعيف يؤكل مثلما تؤكل الجرذان في أوقات المجاعات. البعض من الناس كان ينظر إليّ نظرات مليئة بالحقد وبالفراغ المقلق. والبعض الآخر يتمتم مع صاحبه، بنوع من الابتهاج: رجل ونصف... فحل صحيح... شفت كيف قلبه على ظهره بضربة مفاجئة؟ لم يستعمل كل قواه الخفية، ساحر؟! باين على وجهه؟ ويعيد قص كل ما حدث ولم يحدث داخل هذه السفينة، مع الكثير من الإضافات. لا نسمي ذلك كذبا في عرفنا الأندلسي، ولكن فلتة الزين، إذ بدونها لا معنى للحكاية التي تصبح رديفا للحياة. الفلتة هي لحظة الحرية التي تسمح لكل حكّاء أن يترك لمسته على الحكاية. ومع ذلك فقد ظللت حذرا، أمشي على رؤوس أظافري. أشكك في كل شيء ولا أستسلم لوجوه الأرمادة أبدا. فكرت في لحظة ما سقطت داخل الذاكرة في الرجل البدين وهو يحاول أن يدخل الخصيتين في فم المارانوس الذي كزّ على أسنانه بقوة تفاديا لدمه الذي كان ينبعث حارا من جيبي الخصيتين. الجرح على ذراعي الأيسر بدأ يلتئم شيئا فشيئا. وبقدر ما زاد عدد عشاقي من ركاب السفينة، زاد احتياطي العيون الكريهة التي ظلت تتصيد كل حركاتي. لقد اختزل فجأة حلمي في الوصول إلى العدوة الأخرى، بأقصى سرعة، وبأقل الخسارات المحتملة. لكن الضفة الأخرى كانت تزيد بعدا، كلما هبَّت الرياح البحرية الغربية المعاكسة.

وفي لحظة من لحظات الراحة، وقفت على أحد أطراف الأرمادة أتأمل البحر بعد عناء العمل وكثرة الأوامر التي لا تنتهي. شعرت بعذوبة الريح الجنوبية. طوقني فجأة وجه ماريانا، كالنسمة الدافئة، في فجر شتوي مليء بالحنان والشوق. هي هي لم تتغير إلا قليلا من كثرة الفقدان والحزن. كانت بكل تفاصيلها الجميلة. تقضي أيامها متنقلة مع الغجر بين ألميريا وغرناطة. لم تكن تصر كثيرا على بقائي معها، لأنها كانت تعرف جيدا حياة الغجر القاسية، وحياة أهل المدن الداخلية. مرة واحدة قالت أحبك وهي تضحك. أخرَجَتْها وكأنها تستأصل عروق قلبها المتعب والمليء بالحياة. ثم قالت:

- ترضيك هذه الكلمة يا بشير؟
- أنتظرها من زمان. أعرف أنك لا تقولينها إلا إذا أحسستِ بها.
- طيب. أحبوووووووك... لا أدري إذا كانت هذه الكلمة قادرة على التعبير عما يجيش في داخلي من أجلك، لكني أصبحت أحبها أنا كذلك.

مع الوقت، صارت هي كذلك تنتظرها مني.

قتلتْ ماريانا عشيقها البائس، وجاءت ترتمي بين ذراعي باكية تبحث عن مرفأ انكسر منذ زمن بعيد بفعل الأمواج العاتية، التي كانت تحمل في باطنها أحلام العشاق المهزومين. قالت أنا السبب، وكان يجب أن أفعل ذلك. عندنا نحن الغجر، لا توجد طريقتان للعشق. أما أن نحب، فنصعد إلى السماء، نمنح العمر والجسد وكل الحواس، أو نكره، ويمكننا في هذه الحالة، أن نقتل إذا وقف شخص ما في طريق سعادتنا، حتى ولو كانت هذه السعادة مجرد وهْم جميل. وهل تدري أني قتلتُ من أجلك؟ اندهشت من كلامها. ولكنها لم تتوقف. واصلتْ حَكيها. فعلت ذلك من أجلك لأني أحبك، وأعرف أن صدرك واسع مثل بحر ألَميريا. كدت أصرخ لماذا فعلتِ ذلك يا ماريانا؟ ولكنني صمت لأني كنت أعرف جيدا أنها مثل ورق الحرير، تُجرح بسرعة كبيرة. ربتُّ على كتفها ومسحت دموعها. قلت وأنا أبحث عن كلماتي: لا تحزني يا ماريانا، الدنيا واسعة. أخرجي من عالمهم وتعالي معي. أسواقي واسعة وطيبة. وأنا أضمها إلى صدري المتعب، قالت: إنهم يتصيدونك. ويبيعون كل حركاتك لمحاكم التفتيش المقدس. أخاف أن يأتوك ذات ليلة ويأخذوك بتهمة القتل. محاكم التفتيش لا ترحم. عيونها عليك منذ زمن بعيد. لن أتركهم يفعلون ذلك. سأقف في حلوقهم، وأسدّها كالحسك البحري. ومع ذلك، قلتُ لها تعالي واخرجي من عالمهم. في المرة الثانية حين وضعت رأسها على صدري، تستمع إلى دقات قلبي، كانت حزينة. وأكملت حنينها داخل بيتي الذي لم يعرف له مستقرا منذ أن بدأت تأتيني بعد نهاية كل يوم سوق في غرناطة. أتذكر أشياء كثيرة،

حتى تلك اللحظة التي وقفنا فيها ملتصقين على الشاطئ المهجور نبحث عن نفسينا في ذلك المساء الماطر، بين الموجة وصرخات ساموبل وهو ينادي بالإسراع إلى الفلوكا التي كانت تنتظرني على الشاطئ. كنت ممتلئا بها وبالمساءات الشتوية الغاربة. قالت تعرف يا بشر، الغجر لا يعرفون أنهم يحبون، ولكنهم يحبون عندما يفتقدون معشوقهم ويصبحون قادرين حتى على الجريمة. لا تحزن، فالدنيا ما تزال قادرة على الحب والحنين. قلت لست غجريا مثلك، فأنا مجرد قوال في أسواق غرناطة العامرة. من أجلها قضيت جزءا من العمر أركض وراء الشمس الهاربة. لكن الحياة وقتها كانت قد انسحبت من فراشنا بحثا عن القشتاليين الجدد الذين طالبوا بحرقنا ورمينا في البحر.

لم أتفطن إلى الخطر، وأنا أجدف بكل قواي على الرغم من الجرح، إلا عندما نبهني الريس أو البحار الكبير، إلى ضرورة العودة إلى الوراء، والتشبث أكثر بالأطراف المغرفة من السفينة، فالأمواج بدأت تكبر من جديد وتتخطى حواف الأرمادة لتلطم أوجهنا بقوة. كل شيء كان ينبئ بعاصفة قوية. أنزلنا الأشرعة التي رفعناها خوفا من أن تتمزق بشدة. الرياح المحملة بمياه البحر الثقيلة والأمطار كانت تزيد قوة كلما تقدمنا على الرغم من أننا غيرنا المسالك وحاولنا أن نتفاداها. بدأت الأرمادة تنحرف شمالا، باتجاه معاكس لخطنا الأصلي، هذا ما صرح به الريس، ماتيو، كبير البحارين. مالت ألوان البحر نحو السواد. واكتست السماء ألوانا غير أليفة. زاوية استدارة السفينة تجاوزت الحد المعقول، وزادت قوة الريح. عينا الريس كانتا تقرآن كل شيء من وراء الغيوم الكثيفة، ومن تكسر الأمواج، واندفاع الرياح التي كانت تهز الأرمادة بالرغم من ثقلها وقدم خشبها. استمر الوضع على حاله طوال اليومين التاليين بدون أن تطلّ علينا اليابسة أو نرى ظلال جبال هاربة نحو الأفق، ولا حتى جزيرة مهملة في عمق البحر، ننحو نحوها عند الضرورة القصوى. بدا نوع من التيه واضحا على وجه الرجل البدين. شعرت في لحظة ما أن الأرمادة تدور على نفسها، وأنها تسير بدون قائد أو بحارة.

كانت الأمواج والرياح والغيوم والبرق هي التي توجهها. حتى النوارس التي كانت تسير فوق رؤوسنا، وتتبع ظلالنا وحركة سفينتنا، سرعان ما تمزقت كقطعة قماش هائمة في السماء، وغادرتنا إلى مكان أكثر صفاء من هذا الفراغ المخيف الممتلئ بالسواد. حافظنا على نفس الثبات حتى اليوم الثالث حيث بدأ الجو يتغير شيئا فشيئا، ما عدا الرياح التي ظلت على قوتها. لم يكن ذلك كله إلا إيذانا بعاصفة كانت تتنامى في الأفق القريب. بدأنا نعد العدة لصدها أو على الأقل لتسييرها بأقل الخسائر الممكنة. حتى الرّيس الذي أسود وجهه، لم يكن يتسامح أبدا مع أي إهمال كيفما كان. في مساء اليوم الرابع تجاوزت الأمواج الجبلية كل حدود المعقول. كانت تصعد عاليا، وعندما تنزل لتستوي مع البحر تأخذ في طريقها كل ما تصادف على ظهر الأرمادة، وتلفح الوجوه بقوة رياحها المليئة بالملوحة والماء. ولهذا كانت أوامر الرجل البدين في محلها عندما أمر بإدخال كلّ شيء داخل المخازن. لم أتفطن لفداحة الخسارة، أنا ومعظم المسافرين، إلا عندما نبّهنا الرّيس مرة أخرى، بوجهه الفارغ المجوف، بأن جزءا مهما من أخشاب السفينة قد نزل إلى أعماق البحر، ولكنه طمأننا بأن ما حدث، لا يصل إلى درجة الخطر. السفينة ثقيلة وقاومت ما هو أفظع.

- احتفظوا بالأشرعة في مواقعها الانتصافية فقط. يجب أن تكون نازلة إلى أقصى حد ممكن، ومشدودة بإحكام إلى السواري الأساسية حتى لا نفقدها.

كانت عربيته مكسورة، وإسبانيته متوسطة، ولا يتكلم بطلاقة إلا اللغة الإيطالية، لكنه في كل الأحوال كان يوصل لمستمعيه ما يريده. العاصفة تهون أمام سفن القراصنة الأتراك. كان يخافها، ولكنه كان يقول دائما.

- لا يوجد المستحيل في البحر، حتى القراصنة يمكن شراؤهم عند الضرورة القصوى. البحر في جيبي، ولن يغرق فيه إلا الجبناء، لكن العواصف المباغتة شيء آخر.

لم أستطع أن أُخرج الرياح السوداء التي تنامت في ذاكرتي وقلبي، وتكورت حتى صارت يابسة مثل الأحجار الجافة. الحفاظ على توازن الأرمادة وسط هذه الجبال المائية، لم يكن أمرا هينا أبدا. حتى النوم أصبح من سابع المستحيلات. قسط الراحة المتوفر لم يكن كافيا لمقاومة هذا البحر الذي غيّر ملامحه بشكل فجائي. في إحدى لحظات التنفس والراحة في زاوية ازدادت كثافة سوادها، جاءني رجل تعرفت على ملامحه بصعوبة لأني كنت أظنه في البداية أحد أصدقاء المارانوس، كان هو نفسه البحار الذي نبهنا إلى الطيور التي كانت تملأ السماء. قفزت من زاويتي المظلمة في يدي قضيب حديدي، كنت أضعه دائما بجانبي لحظة نوم الثعلب أو الديك كما كان يقال عندنا في غرناطة. شعر بخوفي. همس خوف أن يسمعه شخص ما: لا تخف. أحسست بنوع من الألفة في بحة صوته. أكد لي مرة أخرى أننا أمام قرصان إيطالي محترف، يرمي الناس في منتصف المسافة، في عمق البحر، بعد أن يسلب منهم مالهم وأسلحتهم وربما حياتهم. حرفته منذ أكثر من عشر سنوات. الكثير من أصدقائه قراصنة أتراك، فهو دائما يقدم لهم جزية ذهبية مقابل حمايته داخل هذا البحر الواسع الذي لا يرحم الضعيف أبدا. وقبل أن أستفسره حول تفاصيل أخرى كان قد غاب عن الزاوية التي كنت فيها. أنزلق بين الصناديق وأخشاب السفينة العتيقة مثل الثعلب على رؤوس أصابعه بدون أي ضجيج. أدركت بسرعة أنه لم يكن يريد أن يعرف أحد بمجيئه إليّ. ما الذي أتى بهذا الرجل إلى مخدعي؟ هل هي مجرد نزوة؟ حقد على الرجل البدين؟ حيلة؟ اعتراف بشجاعتي في مقاومة الموت والخوف؟ أم شيء آخر؟ فمنذ أن ركبنا الأرمادة وهو يعيرنا انتباها خاصا. استبعدت كثيرا أن يكون قد أرسل من طرف ماتيو، القرصان الإيطالي كما كان يسميه، فأنا أعرف مسبقا شيئا من لغة البحارة لحظة العاصفة. لن يقدم على تصفيتي مادام في حاجة ماسة إلى جهدي الخاص حفاظا على توازن الأرمادة التي كانت تتطلب سواعد أكثر لجعلها تجتاز خطر هذه الأمواج بأمان أكثر. هل كان سامويل، يعرف صاحب الفلوكا جيدا وماتيو؟

تساءلت؟ لا. . لا. . قال لي إنه يحب الموريسكيين. ينقلهم من كلّ أصقاع الجحيم، باتجاه العدوة الأخرى. حاولت أن أقنع نفسي بأن الرجل طيب القلب وأنه لم يفعل ذلك إلا لكونه يكره القرصان الإيطالي. تناهت بعدها إلى سمعي حركات غير عادية. بين الأخشاب، اهتزت السفينة بقوة، حين نهضت من مكاني كان الجميع يقفون على السطح لصد الأمواج التي جنت جنوبا واضحا. تواصل ميلان الأرمادة أكثر من ذي قبل. طالبنا الرّيس بضرورة شد الحبال بقوة وعدم التهاون في ضبط السواري. وبتنحية المدافع من أمكنتها. ثلاثة مدافع إيطالية، حركناها بصعوبة نظرا لثقل المعدن الذي صُنعت به. ونحن نتعاون على ذلك، تذكرت الموريسكيين الذين واجهوا هذه المدافع بصدور مفتوحة وعارية. كانت يومها إيزابيلا تشق طريقها باتجاه المدينة، والغرناطيون ينتظرون ببلاهة متى يُخرج محمد الصغير أسراره وكراماته، وسحره الأخير، في محاربة الكفار الذين كان يقول عنهم دائما، لن يذهبوا إلى الجنة لأنهم ورثوا النجاسة في جلودهم وعيونهم. كانت تغريه الألوان الصهباء لزغب القشتاليات الجميلات. رأيته في غفوتي يمضي بعد أن يضع الخرائط القتالية على صدورهن النافرة عند الباب. وقبل المغادرة، يقول: لقد انتصرت في رهاني الكبير. استطعت أن أعد زغب فروجهن الطفولي شعرة شعرة. سبعة آلاف وثمانمائة وثلاث وثلاثون زغبة صهباء كالخمرة المعتقة، وخمسمائة ألف وخمس وستون زغبة حمراء مثل فجر ربيعي، ثم يغوص داخل قهقهاته المجنونة. يخرج بعدها تاركا وراءه هذا الفيض المترامي من اللذة والنشوة. كان محمد الصغير، أبو عبد الله كما تروي المرويات السرية عنه، لا يقوم من الفراش إلاّ إذا ضيع لون عينيه وفقد صوابه في الدك والهزّ واختبار جبروته في الفراش، قدوته، سيدنا سليمان بن داوود عليهما السلام حين أقسم برأس كل الأنبياء السابقين واللاحقين، حين قال، والله لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، وفي رواية أخرى تسعين امرأة، وفي رواية جديدة مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن إلا واحدة نصف إنسان يقال إنه يشبه جده الأول. ولهذا فمحمد الصغير

ملتصق به دائما ومعجب بالخبر. يستحضره عندما يجتمع بالقشتاليات والأراغونيات. كان يحسد السابقين على هذه الفحولة. مائة امرأة في ليلة واحدة؟ يتساءل في سرّه؟ إنها النعمة التي لا تتكرر إلاّ في زمن واحد، نعمة الله كبيرة. حين يقف المرء وجها لوجه مع الموت لا يتذكر إلا للفراش والسواد الذي عليه تجاوزه وتخطيه بألق المنتصر.

شعرت بالموت في كل العيون التي كانت تذهب وتجيء على ظهر الأرمادة. كنت حذرا من موتين، الموت غرقا، والخوف من سكّينة عمياء تنتقم للمارانوس. عيون الجميع كانت مملوءة بالفراغ، مغرقة في الاندفان في لحظة الخوف التي هاجمتها دفعة واحدة. لم يناموا طوال الليلة الماضية. سمعت كلاما كثيرا من بعض الراكبين والبحارة على حد سواء، عن المارانوس الذي قُتِل في السفينة ورُمي في البحر، مما زاد في تعاظم مساحة القطران بداخلي. قال لي أحدهم إن المارانوس كان عندما يشعر بخطر أحد المسافرين على السفينة أو عليه، يقتله ويقطع رأسه بكل برودة أمام الملأ، ثم يبقر بطنه في الحال ويبدأ في البحث بين الأمعاء عن الأحجار الكريمة والدوقات الذهبية والفضية التي يمكن أن يكون الهارب قد ابتلعها خوفا من أن يستولي السُرّاق عليها. كان الإنسان عندما يُسأل عن مخبوءاته، يموت ولا يقول ماذا في بطنه. فعلها أكثر من مرة، آخرها كان مع امرأة أندلسية، اغتصبها، على مرأى من القرصان الإيطالي وبعض البحارة. وبعد أن استأذن الرجل البدين، فتح بطنها بكل وحشية وهي ما تزال على قيد الحياة، فتش بين الأمعاء، فلم يجد شيئا، فنزع الحنجرة والقلب وبعدها رماها في البحر بكل يأس. وألحق القلب بعروقه المتناثرة وهو يصرخ بأعلى صوته:

- إلى الجحيم... يقولون إن قلب المسلم أصبح من ذهب من كثرة الإيمان، لكنه ليس أكثر من كتلة لحم باردة لا قيمة لها أبدا. تفوووو... كلامهم أكثر منهم...

وقبل ذلك فعلها مع تاجر قادم من كارتاخينا، كان منتفخا ووجهه أحمر. فتحه بشفرة سيفه المسطح. فاندلقت الأمعاء، بينما انكفأ يبحث

عن الذهب والفضة. كان التّاجر يحاول أن يهرب منه، ماسكا بطنه وأمعاءه التي تناثر جزء منها على الأرض، والبحارة وماتيو يتضاحكون ويسخرون من المشهد. كانت مجازر المارانوس لحظة مشهدية للتسلّي. جرى التاجر المسكين طويلا قبل أن يسقط على فمه ويدفعه المارانوس برجله لتنتهي صرخة النجدة في أعماق البحر. كان يقتل من أجل نفسه ومن أجل الريس. الريّس والمارانوس شيء واحد في المحصلة. أرأف عليه أحيانا، لكن الظلم والجرأة لا يلتقيان أبدا. لقد اختار جدي أن ينتهي بين الصخور ونيران المدافع الإيطالية. جبال البشرات كانت معقله الأخير، بينما اختار عشيق ماريانا أن يموت كالدابة. قالت له ماريانا في لحظة غضب: اتركني، الحمار يقوم بنفس الدور أفضل منك. قال وهو يغلي: لن تنامي بين يديه إلا جثة هامدة. أنتِ لي. قَدَرُك أن تكوني لي ولا خيار لديك. حتى الموت لن ينجيكما مني، فانتهى تحت نصل صدئ. يقول جدي: الحب مثل السكين، تفاداه إذا كان لغيرك، وإذا تقصدك وأدركت ذلك بكل حواسك، ، افتح له صدرك بكبرياء وعظمة حتى في حالة الخسارة الأكيدة والموت المتربص.

العواصف كانت في أوجها. لم تهدأ الأرمادة لحظة واحدة، حتى بدا لنا كأنها ضيعت مسالكها وغاب طريقها.

قال بشير إلموزّو: وقبل أن أنهي قصة الأرمادة التي شدت انتباه علماء المدينة، قفز أصغرهم وهو يمسد على شعر لحيته البيضاء الصافية مثل الشمع بيده اليمنى، بينما اليد اليسرى كانت تنام على الصدر.

- كم هو عظيم تواضعك يا سيدي.

- إنها الحقيقة أيها العالم الفاضل التي لم أضف لها أي تفصيل.

- أنت دائما هكذا، مثلما سمعنا عنك. كثيرون هم الذين أدعوا المجيء لكنهم كانوا كذبة وبهاتين يا بشير إلموزّو. الحقيقة ليست إلا الحقيقة في النهاية.

مرة أخرى خفت أن أكون قد خيبت ظنهم، لكني كنت مجبرا على قول الحقيقة كما عشتها أو كما رأيتها على الأقل، في أضعف الإيمان،

كما أحسستها. أحاول أن أتذكر كل ما فات وما تبقى من القصة التي جرحت القلب وما تزال حتى اللحظة تعذبني. وعلى الرغم من الألم القاسي، كنت أشعر بصفاء كبير. فأنا لم أنس من التفاصيل، أي شيء يستحق الذكر. أعرف أن الأشياء العظيمة تظل معلقة في الذاكرة حتى يأتي من يقطفها كالفاكهة السحرية، وما عداها يتدحرج طويلا في الفراغ كالريشة، ثم يتهاوى كما تتهاوى الفقاعات من تلقاء نفسه. أَبَقِيَ شيء في القصة يا سيدي لم يحك بعد؟

- العذاب الكبير لم يُقَل بعد. لم نتعلم من صنعة الأسواق والقوالة إلاّ الصدق حتى عندما يقف هذا الصدق في صف أعدائنا.

- أنهكناك أيها الرجل الطيب. اعذرنا، فقد انتظرناك طويلا. نحن نعرف جزءا كبيرا من نهاية القصة. نعرفها بالإحساس، أو كما رواها الأولون من ذوي الحكمة والرزانة والوفاء والخير.

أووووف.

ملأت دنيا صدرها بالهواء المعطر بماء الزهر والبنفسج، المنبعث من سريرها، ثم تنهدت عميقا، كأنها خرجت للتو من مخبأ بلا نوافذ. التفتت نحو الحاكم بأمره. رأته معلقا على قصتها مثل الطفل، فاتحا عينيه عن آخرهما بعدما ذاق قليلا من لذة جسدها، وظل على جوعه الأول. لم يتكلم، ولكنه هز رأسه أن واصلي، وأنه ينتظر بقية الباخية.

- لم يحدث يا صاحب المقام العالي ما يحرك الأشجان. فقد فعل العلماء ما تفعله أنت الآن، الإنصات بدهشة وإعجاب، في صمت مطبق.

- قلبي يحدثني أنّ ما خفي أفجع، لا أدري لماذا؟

- الإنصات حالة أقرب إلى الخوف لأننا نسمع فيها كل التفاصيل الخفية التي لا نسمعها في الحالات العادية.

قبل أن يتدخل من جديد أصغر العلماء، ذو اللحية البيضاء، ليروي ما تبقى من الباخية، كانت بعض التفاصيل قد بدأت تتضح. أصغر العلماء كان يتكلم بلا أدنى تردد وكأنه حفظ كل شيء.

- نحن يا سيدي بشير إلمورّو، نرتوي بماء لغتك وصدقك. في

نفس مساراتك، يحكي حكماؤنا في القلعة، أن سيدي بشير إلمورّو، الذي هو أنت بلا أدنى شك، الموريسكي المتبقي من السلالة، القادم من غرناطة رأى في الغيوم المرتسمة بشكل فجائي على سطح السماء، بداية النهايات القريبة. وضع قلبه بين يديه ونادى كل الأوفياء في الدنيا أن يستمعوا إلى شجيه وحنينه. كانت الموجات الجبلية تسرق كلماته الطيبة واحدة واحدة. فقد صار لمس المدينة واليابسة مستحيلا، والريح لم تكن لترحم أيّ واحد. والوصول إلى لم يعد ممكنا. جمع الريّس ماتيو، كما تسميه، وعبد المعطي في روايتنا، كل بحارته، ألقى عليهم خطبة داخلية، تواضع فيها كثيرا، وحاول أن يقترب من الجميع، لأن البحر لا يرحم، وشراهته تتسع كلما زادت حدّة الأمواج، وارتفعت أكثر. حثهم على اليقظة وعدم الاستسلام للموت، وطرح عليهم بكل وضوح طبيعة الخطر الذي أصبح يتهدد الأرمادة إذ لم يعد ممكنا أبدا تخبئة الحقيقة. فإذا كان هناك من يريدها سرا، فالبحر لا يعرف إلا الحقيقة، .كان عبد المعطي، القرصان الإيطالي المتَأسْلِم، يكرهك أيها السيد العظيم ومع ذلك لم يفكر أبدا في رميك من أعلى ساري في الأرمادة لأنه كان بحاجة إليك. يعرف كراماتك عندما تنغلق السبل. فقد كشفتَ الحقيقة لجميع الناس وأنه لا أحد أبدا كان في منأى عن الموت. لولاك يا مولانا لما اكتشفوا أنهم بين أيدي قرصان إيطالي. ولهذا سبقك القرصان إلى تجميع البحارة من حوله لتفادي نشوء أي عمل منظم يمكن أن يدفع بهم إلى أكل رأسه. في المساء، وفي لحظة الغفلة جاءك نفس الرجل الأول، ملثما، محتاطا لأي طارئ يمكن أن يحصل. من عينيه ومشيته ورائحته، عرفته. عندما تمتم تأكد يقينك، من خلال نبرات حروفه المرتكبة التي كانت تغادر فمه بسرعة كبيرة. طلب منك أن تتأهب لأن الليلة ستكون ليلتك الأخيرة، وأقنعك أن القرصان أصبح متأكدا من تحسن الجوّ العام بالرغم من الرعود التي كانت تقصف فوق رؤوسكم. كان الرجل صادقا. لأن الأمواج كان قد قلّ ارتطامها. أنت خمّنت ذلك من خلال تكسرها على ألواح الأرمادة العتيقة. وأكد أن كل مداعبات الرّيس لك، كانت مجرد

Twitter: @ketab_n

لعبة لاسترضائك لأنه كان خائفا من قوتك التي أظهرتها أمام المارانوس.
هنا، قال لك بيقين وبحدة: القوة للمنتصر، المهزوم إلى الجحيم هو وشجاعته. حين ينتهي، انتهى. لن يقوم بعدها، حتى في عيون البحارة سيصبح مجرد بطل من الورق الميت، ونبهك إلى أن القراصنة على متن الأرمادة، متضامنون ولا يفوتون بعضهم بعضا. حلقة من كلاب. يكنّون لك حقدا كبيرا، فهم لا يمكن أن ينسوا أنك قتلت أو تسببت في قتل أحد أصدقائهم. صورة الريس الذي يجب الموريسكيين ويتعاطف مع مأساتهم، كانت قد انطفأت في عينيك. لم يبق أمامك إلا الموت أو خوض تجربة المغامرة بين طيات الأمواج التي كان تمزقها يخيفك بشدة، وصوتها يتمدد داخل صدرك على متن هذه الأرمادة. ثم انسحب الملثم في الظلمة وهو يكرر: لم تَرَني ولم أرك. اختبأت في الزاوية المظلمة، وظللت ملتصقا بخشونة الساري الرئيسي الذي كان يفصل القمرة الرديئة إلى قسمين. لقد كان الرجل الملثم صادقا، إذ بعد لحظات من خروجه، دخل عليك بحاران ضخمان. كنت من زاويتك، وراء الساري العريض، تتأمل المشهد بكامله. كانا من طاقم الأرمادة. غرزا سبع مرات سيوفهم الطويلة في الفراش الذي كان من المفترض أن تنام فيه. ثم أعادوا الكرة بنفس العدد من المرات. لم يندهشا لغياب الصوت. فالضربات كانت سريعة بدون إثارة أيّ راكب على متن الأرمادة. تأكدتَ مرة أخرى أن الزمن كان يسير بشكل معاكس. وقبل أن تنزل إلى البحر، كان الرجل الملثم يضع قطعة خشبية معدة للنجدة تستعمل للحالات الطارئة بين يديك. وقادك إلى زاوية من الأرمادة، منخفضة قليلا، وقال لك، تستطيع الانزلاق من هنا بدون إثارة انتباه أي أحد. لم تسأله أبدا، ولم تكن مستعدا لسماع البقية لأن ما رأيته كان كافيا ليفتح فيك كل سراديب الخوف المتراكم في داخلك. حين لامس جسدك مياه البحر، عادت ألميريا لتحفر ذاكرتك والأسواق الغرناطية المكتظة بالوجوه. في البداية شعرتَ بالبرودة، بعدها تأقلمت مع الوضع نهائيا. رتبت الخشبة ولوحت بيديك باتجاه البحار الذي سرعان ما ابتلعته الظلمة.

شعر بشير إلمورّو بدقة التفاصيل التي كان يملكها العلماء الذين قضوا زمنا محسوبا بدقة، ينتظرون عودته. أراد أن يبدي ملاحظة صغيرة، لكن الرجل الشاب ذا اللحية البيضاء، سبقه إليها وكأنه قرأ ما كان يعتمل في مخه.

- في لحظة رعشة اليأس التي وقفتَ على مشارفها، يا سيدنا العظيم، انفتح البحر أمامك، وعرى صدره الواسع ليسلمك لأجمل موجة. انشطر الليل إلى نصفين، نصف من الظلمة القاسية، والنصف الآخر من شعلة النور. في اليوم الثاني، حينما تجمد الموت في حلقك، فتحتَ عينيك بصعوبة وأنت في أقصى درجات اليأس، على أصوات النوارس البيضاء التي كانت تنقر الخشبة والماء الملتصق بين فجواتها، وعلى بياض الضباب الذي كان يلف الجبال البعيدة. تكاثرتِ الأصوات التي لم تستطع أن تميزها، هل هي أصوات الطيور أم أصوات مجموع الأطفال الذين لا تتذكر جيدا، هل رأيتهم في الحلم، أم أنهم كانوا حقيقة؟ أغمضت عينيك من جديد وتركتَ الخشبة تواصل مسارها الاعتيادي باتجاه الشاطئ البعيد. كان الموج يقودك نحو ما اشتهى قلبك.

- في مخي بياض كبير، هذه الحلقة غابت عني، لا أعرف عنها الشيء الكثير. لا أعلم ما حدث لي؟ هل هو القرصان أم الأطفال هم من باعني لسيد الدنيا؟

- ليس مهما يا سيدي. المهم أنك كنتَ أنتَ، يا صاحب البرهان العظيم... أنت يا من طال نومه وخفي سره. سعداء أننا استرجعنا معك الحقيقة التي دفنت زمنا طويلا لكنها لم تمت أبدا. هو أنت يا صاحب السارية التي لا تطأطئ رأسها العالي.

شعر بشير إلمورّو بتعب كبير ينتهك ما تبقى من حواسه الحية. بدأ يفقد مقاومة الجلوس والاستماع الجيد. وقبل أن يغادر علماء المدينة من أجل النوم، كان يعرف جيدا، بل متأكدا، من أنهم كانوا يعرفون الحقيقة التي لم يكن يعرفها أحد غيرهم. كانوا يحسونها أكثر منه. بل ويتحكمون في الكثير من عناصرها. انتبه العلماء من عينيه لكل رغباته.

قالوا له: لا عليك يا مولانا، لك القلعة والدنيا بكاملها، نم أيها العائد الجليل. ارتح من رحلة القيامة التي عدتَ منها مكللا بالغار، وسنعود لك عندما تجد راحتك، كل راحتك. وعلى الرغم من خوفه من أن يتحلل أثناء النوم، لم يكن أمامه من خيار آخر إلا الذهاب نحو الفراش والانكفاء داخله. اصطحبه الراعي إلى المكان المخصص لنومه، كان الفجر قد بدأ يزحف نحو الفراش البارد. نام بسرعة بينما استلقى الراعي في الزاوية الأخرى مفتوح العينين عن آخرهما.

تمنى بشير إلمورّو قبل أن يغمض عينيه، أن يكون كل ما حدث له مجرد كابوس هارب، أو حالة انتشاء مجنونة لم يكن قادرا على التحكم فيها. ولكن تباشير العلامة كانت قد ظهرت، وكان من الصعب عليه التراجع، بل تجاوزت إرادته وإرادة الحاكم بأمره.

* * *

الفصل الخامس

إشَارَاتُ الفَنَاء

تساءل بشير إلمورّو أخيرا بعد أن استرجع كل حواسه المشتتة، ولملم أشلاء ذاكرته المتعبة، وانسحبت عنه أصداء الخوف التي سكنته طويلا. شيء ما ظل يغلي في قلبه بقوة. أسئلته المستعصية: هل كان حلما؟ هل كان حزنا ساحقا مثل العواصف العمياء؟ هل كان ريحا عاصفة تشبه شوقا لا يرحم، وحنينا محموما بحب الحقيقة، أم شيئا أكبر من ذلك كله، لا يد تطاله ولا قلب يأسره ولا عقل يحيط به؟

هل كنت أنا الذي قطع البحار والفلوات ولم يأت إلا بالأحلام التي دفنت حية في عز عنفوانها. كنا في عزلتنا حينما نسمع نداءات الله متجلية في خلقه، نقف مشدوهين، نصمت ونحاول أن نسمع بقية الحديث وما تحويه الصدور ولوح الأسرار الذي حُفظ على مدى أكثر من ثلاثة قرون متتالية، وحين كشف عنه لم تكن هناك أية وصية ظاهرة، حتى سيدنا موسى كان وحيدا، يموت بين اللحظة واللحظة بحثا عن السر المفقود بين تفاصيل الألواح السرية. كنا بعيدين عن الله وكان بعيدا عنا، صامتا يستمع إلى صرخاتنا وأشواقنا الحزينة. أصبنا بحالة خرس، ربما كانت من سلطانه. كل شيء تبدل منذ ذلك الزمن البعيد، والمعقول أصبح لا معقولا. اختلط الهابل بالعاقل والحابل بالنابل، ما في القلب مع ما في العين والرأس، وغيرت تفاصيل الدنيا أماكنها، وأصبحت الذاكرة نارا تصعد من شوق وشقوق الأرض اليابسة لتنام بين جروح الوجه وتعمق خدوش الحزن. كل شيء تبدل، حتى ما كان يقربنا من وجه الله. في لحظة الوحدة تعمقت الفجوة وازدادت اتساعا بيننا. لم

نردها ولكن نظام الأشياء هو من فرضها. حتى الطيور غيرت اتجاهات رحيلها وسفرها اليومي، الأمان والحب والحنين والشوق ولحظة السعادة المفقودة كلها انسحبت مذعورة في لحظة غفلة هاربة.

يُروى والعهدة دوما على من يروي، أنه في الأزمنة البعيدة، كانت جملكية آرابيا زهرة البساتين، تأمّها الطيور من كل الأنواع والأصقاع والألوان في حجها الدائم، قبل أن ينهار كل شيء بإرادة خفية ومحمومة. فقدت المدينة ألوانها الزاهية، وبعد سنة جللت بالسواد، وملأت سماءها طيور السنونو الخائفة و الخفافيش العابرة بسرعة البرق أمام الأعين. كانت آرابيا زهر الياسمين، يقول رواة آخرون، ونهد العذارى، وحليب العاشقات، ورغوة القبلات الطفولية الأولى. كانت تفاح المجانين وحنين المشتاقين، وشوق الآتين من الرحلات البعيدة منهكين، الذين كانوا يظللون تحت أشجارها الخضراء التي تعرت كلها الواحدة تلو الأخرى ولم يبق بالجملكية إلاّ النخيل، الذي قاوم الزمهرير والرياح الساخنة القادمة من شقوق صخور الصحاري. كانت أرض الخير والفخار الملون بسبعة ألف لون والتبر والذهب والأحجار الكريمة. مياه الأنهار في جملكية آرابيا كانت ضوءا مشعا وسماء صافية لا تنام فجرا إلا لتخبئ عشاقها من العيون الهمجية. كانت شوقا مليئا بالورد والأقحوان والبنفسج الذي يشبه غيمة النائم على صدر حبيبته في غفوة الذهول. كانت مثل شجر اللوز الذي يتعشق نتف الثلج وهي تودع فصل الشتاء بآخر اللألآت المضيئة التي تشبه دمعة من يودع في كل فصل القطارات الرائحة والعائدة محملة بحنين لا يهدأ. كانت آرابيا قبل أن تصبح جملكية توريثية، كل هذا وأكثر. الآن، لم يبق إلاّ الأسمنت المسلح والمعدن والزجاج الثقيل الذي يغلّف كل حيطانها العالية، الذي نما كثيرا وترعرع حتى أصبح دبابات تملأ الشوارع رعبا، وطائرات حربية تخترق كل فجر عذرية السماء والغيوم البنفسجية، وأسلحة يدوية صغيرة تنزع العمر في لحظة البرق.

قالت دنيا والحاكم بأمره منغمس في شفتيها ولسانها الشهي والرقيق

كلسان أفعى: في جملكية آرابيا يا صاحب المقام العالي، انهارت الموازين والقيم وأصبح القلق سيد الحياة. اختلط الجبان بالنبيل. كان عنترة لا يقتل عدوا إلا إذا كان يحمل سيفه وسلاحه، أصبح اليوم يلبس مليون قناع للجبن ويختبئ وراء الأسوار ليقتل عدوه بخديعة. في جملكية آرابيا أصبح بإمكان الجبان أن يقتل أكبر شجاع بكاتم الصوت بكل برودة دم، والشارع يتأمل المشهد بسلبية ليعود بعدها إلى حركته الاعتيادية وكأن شيئا لم يكن، يحكي مشاهداته ببطولة زائفة. مات عنترة القديم الذي لا يمكن أن يقتلك إلا إذا كانت عيناك في عينيه. كان يكره طعنة الظهر، والظهر صار هواية عنترة الجديد الذي استباح آرابيا وحولها إلى مزرعة.

في ذلك الصباح الباكر، وقف يا سيدي بشير إلموڑو على مشارف المدينة، يتأمل كل شيء من أعالي باب بيت الحكماء السبعة. كان الثلج يملأ الساحات، والطرق الملتوية التي كانت تبدو صغيرة من أعلى نقطة في القلعة. نهض الناس كعادتهم في جملكية آرابيا، يزاولون أعمالهم اليومية ويزيحون كتل الثلج التي كانت تغلق مداخل البيوت والأبواب الخشبية الثقيلة. حتى الساحات الكبيرة، قيل فيما بعد إنها فاضت على غير عادتها بالثلوج لدرجة أن الحركة فيها أصبحت مستحيلة فأُغلقت المطارات، محطات القطار والحافلات، حتى الدواب أدخلت إلى البيوت ولم تستمتع بأكل الحشائش كما اعتادت فعل ذلك كل صباح في الأراضي التي كانت خضراء وبكرا قبل أن تجف أو تغطس في الملوحة. حتى الممرات العامة أغلقت وأصبح من المستحيل على الناس التنقل بسهولة. الفجوات في الحيطان مُلأتِ بالطين وبقطع الكتان والقش. ودخل الناس إلى مغاراتهم بعدما قضوا كل حاجياتهم الضرورية بسرعة غير معهودة، وفي وقت مبكر جدا.

– كأنك تتحدثين عن قارة خرافية؟

– لا يا سيدي أنا لا أعرف الحديث إلا عن آرابيا. آرابيا وحدها هي انشغالي،

– آرابيا ستعود إلى عزها القديم، نحتاج فقط إلى قليل من الهدوء،

- أشياء كثيرة كسرت يا مولاي يصعب رتقها إلا بريح قوية تأتي على كل شيء؟

- من ابن الكلب الذي يقول بهذا؟

- مؤرخوك وكتابك واقتصاديوك ومتخصصو السلالات.

- مممممممم... واصلي.

قال الحاكم بأمره بعد أن عضّ بقوة على الكتّانة الحمراء من جديد.

حتى اللحظة هذه، يقول بشير إلموزّو، كنت أظن أن البرد فعل فعلته في عادات الناس وحركتهم اليومية لكن اتضح لي فيما بعد أن خطاب الحاكم بأمره، المعز لنفسه، وفريد عصره، قد لقي صداه عند الرعية. وهو خطاب تقليدي يلقيه على رأس كل شهر، إلاّ في الحالات الاستثنائية. لأول مرة أرى وجه حاكم جملكية آرابيا، على شاشة التليفزيون، كان مدورا وصغيرا وناعما كأنه وجه صبية لم تمسسها يد رجل. من حين لآخر يفقد ميزانه ويحمر بقوة حتى يصبح كحبة طماطم ممتلئة ماء. كأنه نصف رجل، وربما أقل. لا أدري مصدر الشبه بينه وبين سيدنا سليمان بن داود ولكني وجدته في لحظة سهو وإغفاءة هاربة. قامته كانت قصيرة، لا تكاد تظهر من الأرض، عليه سمرة غامقة، حاول أن يحمرها بالمساحيق لكن بدون أن يفقدها بعضا من أصالتها. يلبس ربطة عنق بأكثر من خمسين لون متداخل. على ظهره معطف نسوي طويل وعريض مثل البرنس، يغطي به جزءا من اللباس الصحراوي الذي كان مولعا به. اعتذر في البداية على عدم ارتدائه اللباس العسكري الأخضر الوطني، لأن البلاد في حالة استنفار والحساد كثيرون، والذين يكيدون المكائد لحكمها الراشد والنموذجي، الجمهوري والملكي في الآن نفسه، كثيرون ولهذا وجب عدم كشف الأسرار بما فيها اللباس العسكري والنياشين التي كان يخبئها تحت المعطف الملون. بعد مقدمة خطابه المستفيضة، بدأ يتلو بيانه التقليدي المتعلق بوضع الأمة. ألحّ كثيرا على ضرورة احترام قوانين الدولة ومنفذيها من العسكر والمدنيين وعدم السقوط في لعبة المناوئين. في الفقرة الثانية من الخطاب تحدث

كثيرا عن معجزات سيدنا الخضر وأكد أنه لا يزور البلاد إلاّ لتنقيتها من الأدران والأوساخ العالقة بها. طالب الناس بضرورة التزام البيوت حتى لا يمسسهم أذى سيدنا الخضر الذي لا يظلم ولا يرحم. وأكد الحكيم مرة أخرى على المؤامرة التي تحاك يوميا ضد البلاد وتمولها أطراف لا تحب في الواقع النظام المتفرد الذي سنته جملكية آرابيا ويمكن أن تفيد به العالم بعد أن أعطى نتائج خارقة في مكان نشوئه. ثم أعاد إلى الأذهان صورة أجداده الذين كانوا أوفياء لشعوبهم حتى وافتهم المنية. قبل أن يؤكد أن سيدنا الخضر سيأخذه الليلة من يده وسيعبران مع بعض، في هذه الليلة المباركة، شوارع المدينة وأزقتها ويضعا على رؤوس الرعية أكاليل الحب بلمسات الاعتراف والبركات والعزة ويرجعا لها حقوقها الضائعة مثلما كان يفعل سيدنا المسيح بمحبته أمام فاقدي البصر والحركة والمرضى. ثم كشر عن أسنان حادة كأسنان الأرنب، وذكر مرة أخرى أنه لن يتوانى عن ضرب الأيادي التي تمتد إلى هدوء البلاد وسكينتها. كان ينسى نفسه عندما يذكر الأعداء فيدخل في سيل من الشتائم حتى يتطاير الزبد من طرفي شفتيه متجها في كل الأمكنة كرغوة الصابون ولكن أحد الشعراء شبه ذلك برذاذ المطر الذي ينزل بردا وسلاما على أصحاب الحاجة. عندما انتهى، انسحب كعروس على رؤوس أصابعه، يجرجر لباسه الذي زوقه بالدانتيلا الملونة ورصعه باللؤلؤ والمرجان والزجاج المعشق بالذهب. انسحب بخيلاء، تحت وابل من التصفيقات والأناشيد الوطنية لينطفئ كل شيء ثم يعود بعد سواد الشاشة المنشط وهو يردد: وقوفا عند رغبة المشاهدين الكرام الذين لم تسمح لهم ظروفهم بمشاهدة خطاب الحاكم بأمره، سيدي جليل القدر، الحاكم بأمره، نعيده عليكم واعدين من لم يتمكنوا من رؤيته بأن هناك بثا آخر مباشرة بعد هذا.

سيدنا الخضر سيمر الليلة؟ أو هكذا يبدو الأمر، تمتم بشير إلموزّو وهو يبحث عن مرسى لكلامه الذي كان يتفجر في داخله كالبركان. هل تغير شيء من غرناطة إلى جملكية آرابيا؟ خيط دم ما يزال يسودّ ويحفر حفره في الأعماق. في حي البيازين، كان زمنير، كلما اشتاقت يداه إلى

الدم، يمر وسط محاكم التفتيش المقدس، فيقولون على مسمعه هاهو ذا الله قد جاء ليتفقد الرعية، وفي الصباح الباكر قبل نباح الكلاب الأول، نجد الكثير من الجثث مبعثرة في الساحات بعد أن طالها التعذيب وكسر العظام ونزع اللحم بالكلاليب. هاهو الحاكم بأمره يعلن عن سيدنا الخضر الذي نسينا وانتسب إلى غيرنا بعد أن انتقل إلى حذاء زمنير في غرناطة باحثا عن استرضائه. بدا لي أن له وجهين: واحد اسمه توركيمادا / زمنير، والثاني اسمه محمد الصغير. أرجعني الخطاب الرسمي إلى ذلك الزمن المبعد من الذاكرة والذي استقبلته الأسواق الغرناطية كثيرا، بالكثير من الخوف ورعشة الدهشة والقلق... ياااه كم هي خادعة الذاكرة؟ طلب زمنير من الشيخ الزيري، استصدار فتوى ترمي إلى تبرير اعتناق المسلمين للنصرانية. و كان الفقيه جليلا، فاعتذر، قال أخاف الله يا سيدي وأنا لا أمثل إلا نفسي، والنفس أمارة بالسوء. الناس أحرار في خياراتهم. وضعه زمنير في الكيس الذي كان يحمله على ظهره، وواصل سيره باتجاه حي البيازين. خرج عليهم ليلا، قال لهم، فقيهكم الزيري كان عظيما، فقد رأى في منامه هاتفا اخترق صدره كالسهم الساخن، فإذا الدم يسيل على قلبه كما حدث لسيدنا المسيح تماما. وجد نفسه فجأة ممتلئا بتعاليم الإنجيل البهي. صرخ الناس في حي البيازين: إذا كان هذا كلام فقيهنا، أنت وهو إلى التهلكة. امتعض زمنير، ثم التوى على نفسه كالأفعى. وجدتها... وجدتها... صرخ بأعلى صوته، الكتب بنت الكلبة هي السبب. هي من يحفظ الشعلة من الانطفاء. نزل إلى المخازن القديمة للكتب وطالب بإحراق عشرات الآلاف من المخطوطات العربية الدينية والعلمية والثقافية، والطبية، قبل أن تأتي عليها كلها ألسنة النار. طلب من خدمة النار، بوضع ثلاثمائة مخطوطة في الكيمياء والرياضيات، والطب في الكيس الذي كان يخبئ فيه فقيه البيازين، ثم جلس يتأمل ألسنة اللهب والأدخنة التي ظلت تتقاطع في سماء غرناطة مع الغيوم، ويستمتع بتلذذ بخرخشة حروف الأبجديات العربية التي أفقدتها ذاكرة الخوف لطفها وحنانها وحيويتها المعهودة. تنفس عميقا وهو يتأمل كتل

الرماد إذا بقي في داخلها سر يصلح؟ لك الحمد أيها الرب أن عادت لك كلماتك مطهرة من نيران الكفر. ثم عاد يتلصص مرة أخرى على حي البيازين من خلال عيونه المشئومة المزروعة في المدينة كلها. أرسل ثلاثة من أعوانه باتجاه الأسواق الشعبية، يتصيدون آخر الأخبار. عاد له اثنان في التوابيت، والثالث ترُك حيا ليروى مشاهداته التي عاشها كما حدثت أمام عينيه. بينما كان جدي يراقب زوادة البارود المسروق من مخازن محمد الصغير التي فسدت ويعض على ظهر كفيه وعلى الأيام التي ضاعت مع هذا الرجل الذي باع الدين والدنيا. كان بإمكان محمد الصغير أن يقلل من الخطاب ويختار البارود ويدافع عن شرف البطولة. الهزيمة في هذه الحالة تسحب الانتصار من عدوه. وضع جدي المكحلة على ظهره هو وجماعة من رجال البلاد وساروا باتجاه جبال البشرات. صرخ حتى بحّ صوته وسدته حسرة الدهشة والمفاجأة: لهم محمد الأصغر (الصغير)، فليفرحوا به، ولنا البارود وما تبقى حيا في أجسادنا. لم يكن السلم ممكنا ولم يكن للرايات البيض التي رُفعت في غرناطة أي معنى. إنه سلم المهزومين الذين يقبلون بكل شيء، مع تنكيس أبدي للرأس. حتى عندما فتح تندلّة، وطالبيرة أيديهم في الهواء دلالة على السلام، كان كل شيء قد انتهى وزادت صرخات إيزابيلا حدة، التنصر أو الطرد إلى العدوة الأخرى ومصادرة الأملاك، والعزل من كل مناصب الدولة. كانت وقتها جبال البشرات تعد عدتها وتفتح مطامير الأسلحة التي سرقت من المخازن، وتشرح صدرها لنيران المدافع الايطالية. وكان زمنير، كاهن الاعتراف، يحرق بلا رحمة. لم يعلمه فقره إلا الابتذال والمذلة والبحث المحموم عن وجوه للسلخ والحرق والنبذ... دم جدي الذي ظل يغلي في عروقي، أقسم أن يظل وفيا للأوائل الذين دخلوا البلاد، خانهم القواد وسادة الحروب والنياشين، ولكنهم لم يتراجعوا. تساءل جدي في خيبة، ربما لم تكن الأندلس أرضا لهم، ولكنهم في كل الأحوال، ليسوا هم من خط أول سطر في المقتلة.

نصحني الحكماء في ذلك الصباح البارد بأن لا أخرج من القلعة، فخطاب البارحة لم يكن بريئا. فقد سبقته حملة توصيل كل شبهة إلى أقرب مخفر من أجل أن يمر سيدنا الخضر في أحسن الظروف وأفضلها. وكان ناقلو الأخبار السرية يُجازون بالعملة النادرة. فجأة تحولت جملكية آرابيا إلى أرمادة بحرية مسلحة من كل جانب، أناس يتأبطون أسلحة فتاكة سوداء، وجوههم سمراء تعمقت حتى أصبحت كل ملامحها متفحمة. اللباس أسود صنع من جلد الماعز والأبقار الهولندية المستوردة. أخوا الحاكم بأمره، **تاج اليقين وسبحان الخير**، هما من كان يهيمن على سوق اللحم المستورد والحليب ومشتقاته والجلود، أما سوق النفط فقد كان يديرها هو شخصيا. وضعهما هناك وأغرقهما في المال والنساء، حتى أنساهما التفكير في الحكم، لأن استمرار السلطان يمر بالضرورة عبر الصناديق، والصناديق كانت ملكا له.

نصحني الحكماء مرة أخرى، يقول بشير إلمورّو، بأن ألزم مكاني فأنا شارة العصر ولست ملكا لذاتي. فعيون العسس التي غاب بياضها، تختبئ تحت نظارات سوداء مقلقة. كان من الصعب عليَّ أن لا أخترق وصية الحكماء/ العلماء، الله غالب، فقد كبرت على رؤية الحقيقة وإشاعتها حتى ولو تسبب لي ذلك في قطع رأسي. شيء ما في داخلي كان يتحكم في كل حواسي وجنوني. ورائحة ما كانت تقودني، يسميها العارفون عطر الروح. خرجت باتجاه بعض الأزقة على الرغم من التحذيرات الكثيرة. أول ما أدهشني هم الناس الذين كانوا يفرون في كل الاتجاهات من كل شخص يرونه، تفاديا لتحيته أو الحديث معه. شعرت بجرح في داخلي يأكلني، فلم أستطع الصمت. هل يعقل يا سيدنا الخضر، يا أعلم وأطيب الخلق، هل يُعقل أن تكون أنت هو؟ أن أكون قد جرجرتك في جيبي أو في حذائي أو ربما قد تكون، دخلت إلى هذه البلاد من خلال جرح من جروحي، وجئتَ معي إلى بلدة كنا نسمع أنها جنة لا يأمها إلاّ المطهرون الفوالون والأنبياء الأوفياء؟ ها هي ذي صورة المدينة يا سيدنا الخضر تنزل إلى الأرض، تأكل التربة وتتخبأ داخل

ألوانها الداكنة التي تشبه وجوه حكامها. كيف تقبل يا سيد المعرفة كلها أن يتوضئوا بمائك؟ أن يناموا في فراشك ويتحدثوا لغتك؟ كيف تقبل أن يسرقوا تفاسيرك وخطوطك ويعيثوا فيها فسادا؟ ألم تكن تعرف أن كل الجرائم كان تحتها توقيعك. اصفعني يا مولاي كي استفيق من كابوس الضغينة والخوف. اصفعني، لن تُخسرني إلا صمتي وخيبتي. لم أسمع ليلتها إلا هديرا دمدم كالرعد ثم هدأ نهائيا. بينما واصلت مشيي داخل الأزقة الضيقة، شعرت بأن شيئا ما يقتفي خطاي. الراعي الذي تركته عند الباب مندهشا متكئا على عكازه القديم، كان هو الوحيد الذي رآني، نصحني بعدم الابتعاد، لأن القوانين التي سنها حكيم جملكية آرابيا، تمنع منعا قاطعا اجتماع أكثر من شخصين في مكان واحد إلا عند الضرورات القصوى التي تقتضي وجود رخصة تسحب من القسم العسكري في البلدية، أو في الأسواق حين يضطر الناس إلى التعامل مع بعضهم البعض. إضافة إلى القوانين القديمة التي تشترط على كل زائر جديد للجملكية، تسجيل اسمه في ديوان المخطوطات، وبصماته، وخطوط بؤبؤ إحدى عينيه، من أجل تسهيل عملية الإحصاء التي تتم بالعقل الإلكتروني الذي يساعد على تسجيل المعلومات الدقيقة وتجميعها، وتوزيعها بسرعة فائقة نحو مختلف القطاعات التي تستحقها. من هذه الناحية اخترقت القانون أيضا. فأنا لا أحمل أي رخصة تجنبني السجن. لم أذهب لا إلى ديوان المخطوطات، ولا إلى القسم في البلدية. فقد مرّ حتى الآن على وجودي في الجملكية زمن لا بأس به، والعقل الإلكتروني الكبير المزود بمختلف الحواسيب المتطورة من شركتي أيبل ومايكروسوفت[٢٣]، لا يعرف لا اسمي ولا قسمات وجهي ولا بصماتي، ولا تفاصيل بؤبؤ العين التي يتم من خلالها كشف أسرار السلالات والتمايزات العرقية. حذروني كثيرا في آرابيا، قالوا يا ابني، أنت منا ولا يمكن أن نسلم فيك بسهولة، عيوننا لا تتركك لفراغ الأنجم

---

(23) Apple, Microsoft.

والشتاء القاسي، الذي لا يطمئن أبدا. بحواسهم الحادة، كان الحكماء يقرؤون جزءا كبيرا من الغيب. قالوا لي في مرة من المرات: تاريخك شق الصدور، وآن الأوان لكي تكون دليل المدينة في الخروج من كآبتها. ابق هنا وتريث قليلا. وحين يأتيك الخبر البيّن ستجد نفسك في أعماق البلاد. لكن صوتهم الخائف عليَّ لم يصلني. شعرت في لحظة من اللحظات وأنا أقطع الزقاق المظلم كأني مقدم على ارتكاب الحماقة الكبرى وأنقاد مجبرا باتجاه التهلكة. قالوا لا تخيب أملنا الأخير فيك أيها الرجل الفاضل. وعندما تمر ليلة التهلكة بسلام، سنريك خبايا المدينة كلها. لم أقل لهم في أي لحظة من اللحظات أن المعرفة وصلتني عن طريق نداءات الروح الخفية، وأني بدأت أعرف كل شيء، وألمسه كما ألمس النور لحظة الوجد والالتحام بآلام الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري. كنت أقرأ تفاصيل الأخبار وقسوتها من خلال الغيم والرياح الشتوية المحملة بمياه الأمطار الباردة وحتى من شقوق الأرض عندما تسرق الشمس كل نسغها. قالوا الدنيا ستكون لك أيها الطيب الودود حين يحين زمن خروجك من القلعة، وستصبح آرابيا أرضك التي تحب وتشتهي. أعشقها كما تريد، ضع نهديها بين أصابعك وأترك الحليب يتذرذر بنصاعته على صدرك، واشرب، فالفرصة قد لا تعود مرة أخرى أبدا. كن طفلا للدنيا وللمرأة التي تعشقها، ففيك رائحة الذاهبين والآتين على أسنة الرماح وخيط الشمس. لا تتركها ولا تغادر دروبها الزكية. الآن، لا تقسو على نفسك كثيرا. خذ حماما، تعطر يا صاحب المقام العالي، حلق لحيتك الشريفة، فالمدينة كالمرأة، إذا حاذيتها قذرا، فلن تعرف أسرارها التي تخبئها بين الضلوع، والتي لا تفضي بها إلا لمن تحب. لا أعرف الشبه، ولكن كلامهم ذكرني بكلام ماريانا عن عشيقها، كانت تسميه لخنزير البري، رائحته كريهة، وفمه مليء برائحة البصل والنبيذ الرخيص.

كنت أستمع إلى نصائحهم ولو أني لم أطبق أي منها. شيء يتجاوز رغبتي الخاصة، وإرادتي. عندي ميزان داخلي يتحدد بعطر الأشياء.

أحب العلماء/الحكماء جدا وأشعر بصدقهم العالي، لكني نشأت في عمق الأشياء التي جربتها حواسي. في آرابيا سمعت وشوشات النساء الانفرادية، المليئة بالجزع والخوف. حين يتقاطعن في الزوايا، يتبادلن الكلمات عن الخطاب الرسمي للحاكم، وما حوى من الأشياء الجديدة. يتغامزن بأعينهن، ثم يمضين باتجاه ريح ما وكأن شيئا لم يكن. لقد طوّر الناس الحاسة السادسة وجعلوها دليلهم الكبير. كنت أحاول أن أتفادى الوجوه التي لا تروق لي ملامحها، وأشعر بالحقد ينبت بين تجاعيدها، أما الوجوه الأخرى فكانت تهرب حتى قبل أن أقاطعها في زوايا المدينة، مع أنه لا شيء في كان يثير الانتباه، على الأقل هذا ما بدا لي. لباسي الصوفي متواضع، يلبسه معظم الناس في جملكية آرابيا. شاشيتي السوداء ليست ملوكيه. الذي أثارني أكثر، تلك الوشوشات التي سمعتها ولم أتبين أوجه أصحابها الملثمين، عن الحكيم، الحاكم بأمره الذي استلم المدينة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا؟ بعض الوشوشات تذهب إلى أبعد من ذلك كله، وتقول إن الحكيم يسخر من الرعية، وأن سيدنا الخضر بدعة من القصر لتلهية الناس وإغراقهم في تفاصيل البلادة والحديث الفارغ الذي يُنقص من أعمارهم ويطيل من عمر سكان قصر عزيزة. بيننا وبين سيدنا الخضر، العديد من القرون، وآلاف الرؤوس والأنبياء المزورون.

ما الذي جاء بسيدنا الخضر إلى هذا الخراب؟ المسكين بَرْدَعُوه وخَرَّجُوه (وضعوا له خرجا) ثم ركبوه، وما يزالون يركبونه كلما دعت الحاجة إلى ذلك. قهقهة أخرى سمعتها وأنا أقطع شارع الحاكم بأمره، في نقطة التقاطع الرئيسية، وضعتني أمام حقيقة وهي أن الجملكية تحتاج في الكثير من مسلماتها إلى إعادة نظر، وتكهَّنت في أعماقي أن العلماء على هبتهم ووقارهم لم يكونوا على بينة من هذه التفاصيل. سأل أحدهم شخصا عابرا: هل سمعتَ الخطاب؟ لم يرد عليه، لكن عندما وصل إلى مدخل البناية العالية إجابة الثاني: أوف، خطاب ساقط، لا معنى له. يظنون أننا مازلنا نرضع الأصابع. يبيعون البلاد ويسرقونها من قلوبنا،

وبعدها يقيمون حفلا وطنيا على شرف غبائنا. على الطرف الآخر من المدينة، رأيت ما حلمت برؤيته منذ أن التقيت بالراعي وحدثني عنه. رأيت الحديقة الشعبية كما تسمى، المحاذية للسوق، وسيدي عبد الرحمان المجذوب وهو يناجي حيواناته الأليفة، ويتلوى في مكانه كالمحارب الجريح. سيدي عبد الرحمن كان شاعر الأرصفة والبنايات الهشة والناس البسطاء وسيد النباتات والأعشاب ومالك أسرارها.

- مرحبا سيدي عبد الرحمن.

- مرحبا يا غريب النار والدار. أية ريح قذفت بك إليَّ. يفترض فيك أن تتخفى داخل البيوت. ما الذي جاء بك إليَّ؟

- الصدفة. الصدفة يا مولاي ولا شيء غيرها.

- أرأيت؟ كلهم صموا آذانهم وتركوني وحيدا، وسط الفراغ والخوف.

ثم التفت نحو حيواناته.

-وحدك قاومتِ شطط الخوف. أنتِ الوحيدة أيتها الحيوانات الطيبة التي تسمع إلى عمق صرخاتي ولا تبوح بالأسرار، ولا تفشي المخفي. أرأيت اللباس الذي كان يلبسه؟ كان مثل الطاووس، الله يخرب بيته وبيت جدوده المرضى بالعصاب والزهري. زركشته مضحكة وهو لا يدري. حتى لباسه العسكري ليس أكثر من بدعة، فهو لا يخيف إلا نفسه. أي حيوان من حيواناتي يفكر ألف مرة أفضل منه.

لم أسأله عمن كان يتحدث ولا عن قصده. سيدي عبد الرحمان المجذوب لم يسم الأسماء كلها، ولكنني عرفت قصده من خلال التلميحات المختلفة التي كانت تبدو من خلال عينيه. بعدها انكفأ على ذاته، وخبأ رأسه بين رجليه، وبدأ ينزع النباتات الخضراء التي كان ينتقيها واحدة واحدة ويجمعها في شكل حزم صغيرة، ليضعها بعد ذلك في أكياس بلاستيكية، عدا واحدة كان يضعها في كيس مستقل ذي لون أسود ما. لم أعلم إلا فيما بعد أن هذه النباتات والأزهار كان يستعملها في شكل دواء يبيعه للزبائن الذين يأتون إلى حلقاته يتفرجون ويستمعون إلى

ما تبقى من القصص التي كان يرويها. نباتات لا تقتل ولا تحيي أبدا. على جانبه الأيسر ينام جروه الصغير الذي كان يسميه الأمير الذي لا يعرف إلا النباح. نباحه أكبر من حجمه. يربت على رأسه ثم يسحبه نحوه بحنان:

- أوف يا أمير قطمير، لو تعرف بقية القصة ستقبِّل رأسي. عليك أن تنتبه لكل كلمة تخرج من فمي يا صاحبي وإلا مضى عليك القطار وتركك في المكان نفسه نبتة ميتة لا يلتفت لها أحد.

اللعنة؟ خرجتْ مني بقوة اليأس. لا شيء تغير أبدا منذ تلك اللحظة الفاصلة التي انشقت فيها النار عن جرح السماء. منذ أكثر من أربعة عشر قرنا وهو يكرر نفس اللغة ونفس الحركة بالأيدي التي لا تعرف إلا تلويحه التهديد التي تختلط مع التحية النازية. هو نفس حنين محمد الصغير حين وقف، يقول القوالون، أمام الملأ يتحدث عن آجوج ومأجوج وعن الساعة التي لا ريب فيها. قال، نحن الناس لسنا سرّاقا سلطان. جاءنا من الله واسترجعه الله أيضا. لكن أين يذهبون من انتقام آجوج ومأجوج الذي يدمدم في سماء جرحتها الخديعة؟ سيقلب سافلهم على عافلهم. لن يرحما أحدا من الشماليين. سيأتون بالقشتالية والأرغوني مكتّفين مكبلين كخرفان العيد عند رجلي. وسأطلب الرحمة منهما حتى يعتقاهما ويعتقا معهما كل أهل الشمال. كان القوال في السوق الغرناطية يندب قلبه المذبوح، الربابة في اليد والعينان مليئتان بالشوق الذي وعد ولم يأت. يتلوى ألما. آجوج سكت، ومأجوج لا ثار ولا مار، والشماليون يدكون آخر قلاع الأندلس، وينصبون الخيام على أطراف غرناطة ويستولون على الحصون واحدا، واحدا، بينما الورّاق البدين في زاوية من النهر المضاء، يخطّ آخر الكلمات، ويرشق الفروج القشتالية بماء الزهر، والأفواه بعود النوار، وبعض الكلمات البذيئة التي تثير شهوة اختصار القبلة وتحويلها إلى متعة للنوم على الصدور المليئة برغوة الحليب الأنثوي في لحظات وجده الأولى. كتب الرواة على نهد أحداهن: كان أبو عبد الله، أمدّ الله عمره وملكه، لا يأكل إلا إذا تفقد الرعية ولا ينام إلا إذا وضع رغيفه

الشخصي في فم اليتيم والمحتاج، وفي أيام المحنة التي مرت بها مملكة غرناطة، يحكي عنه المحنكون وأصحاب الحكمة، أنه نزع لحمة من ذراعه وشواها لصغير كان في النزع الأخير من حياته، شواها وقدمها له، فردّ فيه الروح، ودفع عنه شر الموت الزؤام. ويقال أيضا إنه ظهر في مكان ما من جبال البشرات، يقود المقاومة الوطنية، بعد أن تخلى عنه الجميع وتركوه وحيدا، وخدعته الغوغاء البليدة، لكن مدّ الله في عمره، كان يعرف سر الخديعة، فتغذى بهم قبل أن يتعشوا به. باعهم لملوك الشمال، الأمر الذي اضطره إلى أن يولي وجهه باتجاه العدوة الأخرى، ليطلب السند، والرجاء. وبقدرة الله تعالى سبحانه عزّ وجل، جاءه سيدنا جبرائيل في شكل براق قاده إلى العدوة الأخرى، وهو يمتطيه، بكى أبو عبد الله محمد الصغير كثيرا، تحسرا على الرعية لكن جبرائيل طمأنه بأن للبيت ربّا يحميه. ثم ختم الوراق حديثه بالسخط على القوالين الذين يجعلون من الحبة قبة، ويكذبون. لعن الله القوم الكذابين، المارقين، والزنادقة وأصحاب الحلاقي الذين ينشئون الكذب ويصدقونه يبحثون عمن يصدقه، الذين يصلون نارا ذات لهب في الوقت المناسب حتى يلتصق الحديد على جباههم، ويذوب لحمهم، وتنفث الرياح رمادهم في أركان الدنيا الأربعة.

– آه يا ابن أمك يا محمد الصغير، كنت تحسب زغب الفروج القشتالية التي أدهشك سحر تخطيطها ونعومة ملمسها، وشقرتها التي لا توجد إلا عند القشتاليات، وكنا نموت وحيدين. يا ابن أمك، المدينة تسقط ونحن نواجه النار الإيطالية بالصدور العارية، والأيام العصيبة تزداد بقوة، نفتش في المزابل عن رغيف قديم، حتى لا نموت جوعا، ونسرق القطط في حي البيازين، ونشويها في غفلة عن العيون التي كانت تراقب حتى تنفسنا. بعد فترة وجيزة، انعدمت القطط من الشوارع وبدأنا نفكر في الجرذان التي كانت تنظر إلينا بعيون فيها الكثير من الجوع، الخوف من الطاعون جعلنا نتريث قليلا، فضلنا الكلاب عليها. لم يكن لحمها مرّا. ونشارة الخشب والخيش التي كنا نبلعها، تخلّف في اللهاة حلاوة

خاصة. كان الرجال والنساء والأطفال يموتون أفواجا، وعلى صدورهم العارية تنغرس أعلام المماليك الشمالية، لتنتهي على مآذن غرناطة. في نفس اللحظة، كان محمد الصغير يحاول أن ينتهي من الإملاء على ورّاقيه، ويعد برؤوس أصابعه زغب الفروج القشتالية ويحضر العدة للحروب القادمة، أو هكذا كان يوهم قواده الأوفياء. الوراقون هم التهلكة، خانوا ملح الفقراء ودمعة الغريب في البلاد البعيدة، الوراقون أيها السادة... وقبل أن ينتهي القوال من الجملة الأخيرة، ويدفن بكاءه في قلبه، سحبته يد من شعر رأسه، ولم يعد إلى ذلك المكان منذ تلك اللحظة. كانت الشرطة تغرز رماحها على ظهره وتهدده بالذبح من الرقبة. التفت نحو الجميع قبل أن يودعهم بعينيه.

التفت سيدي عبد الرحمن المجذوب نحوي من جديد. تفرس عيني عميقا. توغل كمن يريد أن يقرأ سرا هرب منه. مسد على رأسي ثم تركني ليعود إلى حيواناته وحكاياته.

- ما اسمك.

- نسيت ولكن قيل لي إن اسمي بشير.

- أنت تحذر مني؟ لست عميلا للسلطان. كن بشرى على هذه الأرض التي لا تريد أن تموت على الرغم من كثرة القتلة. أتعرف؟ ماذا حدث لمحمد الصغير بعد عقد البيع؟ لقد خرج قبل الموعد، ونام لياليه الأخيرة مع أجمل القشتاليات، كان عنينا وعاجزا يمارس الجنس بأصبعه الوسط. يبلله بلسانه، ثم يدفع به باتجاه أعماق الفروج. يتلذذ بحاستي اللمس والشم كالكلب. يوم سُرقت غرناطة، كان الصمت قاسيا والدهشة لا تطاق. لم نكن نسمع إلا أصوات السيوف وهي ترتشق في البطون والصدور، محدثة خرخشة خفيفة وصرخات مكتومة، وشهيقا وزفيرا مرتبكين يشبهان رعشة الموت الأخيرة. كان الوراقون النبلاء يقولون الحقيقة ثم يقدمون رؤوسهم للنطع. لا شيء كان يخيفهم.

من حيث لا أدري اندغمت معه في سحر الحكاية.

- هل يعرف سيدي عبد الرحمن المجذوب أن غرناطة لم تكن امرأة

سهلة كما كان الأعداء يتصورونها. ولا حتى محمد أبو عبد الله الذي استسلم للذة الهزيمة. حين وقف يتحسر على الهضبة، لم يكن ذلك على المدينة، ولكن على النساء القشتاليات وخسارة الملك الذي منحه أسرار الأنوثة. عرف متأخرا أنه لم يعد سيد الدنيا وعليه أن يترك أرضا لم تكن له. حين طلبت القشتالية (إيزابيلا) منه الجزية، أجابها بقسوة: الذين تعودوا دفع الجزية ماتوا، ودار السك لا تنتج إلا السيوف. ضحكت كثيرا ثم حاصرته حتى الاختناق. لم يكن في حاجة إلى تفكير طويل. قال لها تعالي، لك المفاتيح ولي القشتاليات. ضحكت مرة أخرى. وضعَتْ بين يديه ما اشتهى، وعندما استلمت قلاع غرناطة وشوارعها، قالت له: سأرحمك ولا أعلقك على خشبة. لقد منحتني شهرة القرن: إخراج المسلمين نهائيا من أرض أيبيريا وإرجاعهم من حيث أتوا، بعد أكثر من ثماني قرون من الاستعمار. محمد الصغير كان مجنونا بالحكم. يحلم به حتى في كوابيسه. يخاف أن يموت ولا ينعم به. ظلّ يركض وراءه حتى الجنون. أبو عبد الله محمد، الحادي عشر في الترتيب المحمدي، استفرد بالسلطة، بعدما أزاح والده. في عُرف السلطان العربي، يتربى الخوف دوما في فراش الملك. أسر محمد الصغير في شرق قرطبة، فتولى الحكم عمه، أبو عبد الله محمد الثاني عشر وحين ملأته القشتالية بالوصايا، أطلقت سراحه وسط غموض مذهل. قال هربت من جحيم إيزابيلا، رُفعت له الأعلام وأقواس النصر، ووضع على الكرسي بعد أن أزيح محمد الثاني عشر، ليعود الترتيب إلى الرقم القديم رقمه هو، محمد الحادي عشر. إيزابيلا كانت تحسب صوت الريح وتنتظر يوم الرايات الذي لا يحققه إلا محمد الصغير. خاض حرب الموت ضد عمّه، الذي التصقت مؤخرته بسرعة بالكرسي ولم يتنصل إلا بصعوبة ليهرب في النهاية باتجاه تلمسان. محمد الصغير كان دمية القشتالية وصنيعتها التي وضعتها داخل المدينة، لتسهل لها طريق الدخول في ذلك الصباح البارد من تلك الأيام الحزينة. كان خوان المسلم الذي لم يفتح المعابر البحرية القوطية لطارق بن زياد، ولكن

بوابات غرناطة لإيزابيلا وزوجها فرديناند الأراغوني. طلبتْ منه أن يكمم أنف المدينة، بينما كان فرديناند من جهته يطوقها. احتل رندة ومالقه وغيرهما. القوال الذي روى الحكاية المنسية عن محمد الصغير سحبوه من شعره، باتجاه المجهول. من يومها يقول القوالون لم يعد إلى ساحة النشيد. أغلب الظن أن محاكم التفتيش المقدس مارست على جسده أولى تجارب الحرق والصلب العلني. لكن قوالا آخر جاء من بعده، هو من أتم تفاصيل الحكاية الطويلة التي استمرت زمنا طويلا ولم يعد بإمكان أي واحد قتل الحقيقة، حقيقة بيع المدينة التي حرمت من المقاومة. حراس السلطان تركوا القوال الجديد يحكي. يقول جدي الذي روى لي قصته، أنه فجَّر إحدى خصيتي رجل اتهمه بالزندقة وشتم الناس الذين وقفوا مع آل البيت. قفز من الساحة التي كان يروي فيها حكايته، باتجاهه وقال يا ابن القحبة، يا فقيه الزناة الذين باعوا الله والعباد، تعلمني حرفتي . . . محمد الصغير كان دابة القشتالية، خرجِ من باب البيرة، فارا مثل العنزة. يقول الوراقون: إنه لم يغادر غرناطة إلاَّ لأنه كان يخاف الله ومصلحة الرعية التي كان، يرحمه الله، يموت في حبها. حَقَنَ الدماء ورَفَضَ أن يلطخ يديه بدماء الفاطميين. الوراقون يولدون من بطون أمهاتهم كذابين. الغش يسري في قلوبهم الموبوءة. حين بيعت غرناطة، وعم اليأس الوجوه والقلوب، صرخ موسى ابن أبي الغسَّان بأعلى صوته: آتوني بلباسي الحربي، وحصاني، وسيفي. المدينة حين تباع، تنهزم الذاكرة، وتضمر الأشواق. كان يعرف أن الموت في الطريق. رفع رأسه إلى السماء، رآها جافة مثل الحطب. ملأ عينيه بالأسقف القرميدية، والحيطان التي قاومت كل الغزوات، ثم اندثر داخل الشوارع المغلقة. التقت به سرية قشتالية على ضفة نهر شنيل، طلبت منه أن يعرّف بنفسه، ولكنه رفض. أصرُّوا، فأصرَّ. أغلقوا في وجهه كل المسالك. وثب وسطهم، وطعن أحدهم بعد أن انتزعه من سرجه. وظل يطيش بهم حتى أتى على نصفهم. وحينما صرخ في المرة الأخيرة، كان قد سقط مثخنا بالجراح. أراد أن يدافع أكثر، لكن الرماح التي حاصرته

كانت كثيرة، وكانت تزداد مع المقاومة. صرخ بأعلى صوته: لن تصلوا إليَّ حيا. نظر إلى النهر من جديد، كان عاصفا مثل أيام القيامة. نظر إلى السماء، ازداد يأسا ويباسا. تدحرجت في أعماقه الكلمات الأخيرة، الصوت واحد، موت الوديان ولا سيوف القشتالية.

موت البحار... آبويا

والبر بعيد... آبويا

وصياحي طال آبويا...

ثم ارتمى بكل قواه في عمق النهر. دفعه سلاحه الثقيل نحو الأعماق. الذين أُسِروا من القلعة، فيما بعد، عرفوه من جواده المكسور وأكدوا أنه الفارس الذي شتم محمد الصغير عندما باع المدينة، وترك غرناطة وحيدة في مواجهة الدم والنار ومدافع اللومباردز الإيطالية المحشوة بالموت والدم البارد. حتى المدفع الذي جُلب من دمشق بقي مكموما، مرميا في زاوية مهملة. لم يطلق قذيفة واحدة. حين وصل الشماليون حتى الزاوية التي رُمِيَ فيها، ضحكوا كثيرا من صمته وعزلته. فكروا في البداية في تدميره لكن عقلاءهم انتهوا إلى فكرة وضعه في أقرب متحف صغيرة، وحشوه بنسخة من أوراق تسليم المدينة التي كُتب عليها:

LA CARTA AUTOBIOGRAFA DE BOABDIL ULTIMO REY DE GRANADA EN SUS CAPITULACION DE ANDORAX A LOS REYES CATOLICOS EN 8 DE JULIO DE 1493...

شعرت في لحظة من اللحظات أن سيدي عبد الرحمن المجذوب كان له نفس الوجه ونفس الجنون، بل رأيت فيه دم القوالين. كان فيه من صدقهم وعطرهم.

ضحك ضحكته التي اخترقت الصمت الذي كان يلفنا:

- أنت رجل فوق العادة. أنت الصدفة اللذيذة. هل عرفتَ الحاكم بأمره الذي بنى سلطانه على الكذب؟ لو تعرفه؟ ولكنك لا تعرفه ولهذا أنت هنا، أو أنك تعرف سر ضعفه الكبير. يوم الوعد قريب يا صديقي،

وسيأكل اليابس واليابس، ولن يأكل الأخضر أبدا لأن الأخضر عسير الهضم حتى على النّار.

ذكاء المجذوب كان عميقا. حين اقتربت دورية الشرطة منه، راح يداعب حيواناته الأليفة، ويضع شاشية عمي الطاووس ابن أمّه، الحمراء على رأسه، التي كُتِبَ عليها: ***لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم***، بخط مغربي مقوس وفوضوي، ويبدأ في أداء رقصاته المعتادة. وعندما ينتهي، تصفق القردة التي بجانبه محدثة أصواتا وزعيقا، محاولة تقليده. يضحك الشرطيان بغباوة. يتمتمان: المجذوب هو المجذوب... ثم يواصلان تدحرجهما داخل الحديقة. تفاجئه في بعض الأحيان الدوريات وهو يروي قصصا كثيرة للحيوانات. يندهشون، وحين يلتفت نحوهم بشاشيته الحمراء المائلة، ينصرفون مع تمتمتهم المعتادة: المجذوب هو المجذوب. مرة واحدة قال أحد المخبرين عنه عنجما سمعه يروي قصصا غريبا يمكن تلبيسها لاي حاكم عربي بما في ذلك الحامن بأمره:

- مهبول ويعرف باب داره؟

- يا ريت كانت لي دار وكنت أعرف بابها، لما رأيتني هنا بين الحيوانات. لكنها الدنيا بنت الكلب، تعطيني بظهرها وتضعني في طريقك حتى تهينني أمام أصدقائي الأوفياء. الحيوانات أكثر وفاء يا سيدي من البشر. هم يخونون وهي تظل على حالها في انتظار دائم لمن يتذكرها ويحبّها.

- كان رجلا حكيما ولم يكن مجنونا كما رُوِيَ لي عنه.

قال الحاكم بأمره وهو يفكُّ أسر فمه بإبعاد الكتّانة الحمراء منه.

- مولاي وحبيبي وسلطان قلبي... كل الحقّ معك وعليك أن تستدرك كل شيء قبل فوات الأوان. لكن المجذوب كان أكثر مما يظهر. كان عينا متقدة، ترى كل شيء، ويدا طويلة تجمّعت في كفّها كل الأسرار.

تقول دنيازاد للحاكم بأمره الذي مالت عيناه من شدة التعب على

الرغم من استرجاعه لنفسه الذي ضاق فاحمرت وجنتاه.

- كان سيدي عبد الرحمن المجذوب هو الغواية ذاتها. كل الأخبار كانت تصله من مختلف المنافذ، وكان يشبعها من رواياته السرية. الناس يأتونه، يتلقون آخر الأخبار منه ثم ينسحبون.

- لكني لا أعرف بقية الباخية. كيف غاب عني أن هذا المجنون كان منظما لإسقاط سلطاني وهو المهبول الممزق الثياب؟

- لم يكن الأوحد يا حبيبي. كلهم كانوا يعرفون الحقيقة ويخافون عيون السلطان. تحت جسر النصر الذي بني على غرار قوس النصر، كان الناس يبحثون عن زوايا يختبؤون فيها خوفا من سيدنا الخضر الذي لا يعبر المدينة إلا لتنظيفها من حمقاها، ويطلبون من الله أن ينجيهم من عذاب قيامة الدنيا. لا سكن لهم في هذه المدينة ولا صدر يختبئون فيه. سيدنا الخضر مثل النار يأكل الأخضر واليابس. لكن في الزاوية وهم يواجهون البرد والخوف والرعب كانوا يعرفون الحقيقة التي يتهربون منها لأنهم شاهدوا بعيونهم أن سيدنا الخضر لم يكن أكثر من قاتل محترف، خلقه الحاكم العربي المسلم، لتبرير سلطانه. أكد العلماء السبعة لبشير إلمورّو هذه الحقيقة. عندما عاد إلى القلعة تاركا وراءه المدينة والبحر الذي يشكل نصف دائرة تحوط بجزء كبير من جملكية آرابيا حتى حولتها إلى شبه جزيرة. ولهذا كثرا ما أطلق عليها بعض المؤرخين القدامى، اسم الجزيرات أو الجزائر.

- قليل عليهم. شعب ظالم، شعب يستحق الإبادة. سيدنا الخضر يدنا عندما نعدم الأيادي الوفية يا لالة دنيازاد.

- خلّني يا مولاي أعود إلى عدوك الأساسي الذي أفسدت عودته حكمك ومقامك. أنت صنعتَ سيدنا الخضر وهم صنعوا بشير إلمورّو.

- من هُمْ؟؟؟

- أقصد أعداءك التقليديين: العلماء الذين يسمّيهم العابرون على المدينة الحكماء، والعمال الذين كانوا دائما وراء إشعال الفتن الكبرى.

كلهم يعرفون الحقيقة، يقول بشير إلمورّو عارضا ما رآه على العلماء

السبعة، لكن كل واحد كان في خوفه، يبحث عن مهرب ما من العيون الهمجية التي تلتقط الإنسان حتى وهو في فراش الحميمية الهادئ. يرددون بذعر غير مسبوق، أنَّ سيدنا الخضر سيدخل الليلة إلى المدينة على حصان أبيض. كل من رآه في لحظة العبور، أصيب بالعمى الفوري، ويفقد ذاكرته، وربما يتبدد جسده، ويتحلل في اللحظة المصاحبة للرؤية. حتى مساجد آرابيا الألف، كررت ذلك كثيرا، من خلال فقهاء السلطان، ودعت الناس إلى الدخول إلى بيوتهم في وقت مبكر قبل لحظة المرور، مع إحكام غلق النوافذ والأبواب والآذان حتى لا تسمع أصوات الاستغاثات لأنها تورث مستمعها الصمم. يقولون بلا توقف: سيدنا الخضر لا يترك شيئا للريح الساخنة الآتية من أفق بعيد، ولا للصدفة. هو كالنار، نار جهنَّم، والويل لسكان جهنم، إذا استغاثوا أغيثوا، بشجر الزقوم، يأكلون منها فتنهار جلود وجوههم، ثم يصيبهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء المهل، فلما أدنوه من أفواههم، اشتوى من حره لحم وجوههم التي سقطت عنها الجلود.

- اسمع يا بشير؟ قال أصغر العلماء، يا ابن هذه الدنيا أو تلك نحن لا نعرف ولا يهم أبدا أن نعرف يا ابن أمي التي ضيعت الذاكرة ولم تضيع حنينها؟ يا بشير إلمورّو، يا فقيد هذه المدينة وموجودها، للنار لهيبها، وللأحزان أفراحها، للنسيان خبثه، وللخبث نسيانه، وأنت يا سيدنا العظيم المعظم فينا وبنا تحيا، وبك نستمر. هل العيون البرية مأواك؟ هل الأشواق المسكونة باللعنة رضاك؟ ماذا نقول في هذا الهول؟ وأنت يا سيدنا العظيم، حينما تصعد الحرارة من قلبك كالشعلة، لا تسمع في داخلك إلا لحنين الموت والإصرار على الحياة. لا تسمع إلا لصوت الذين غابت أصواتهم منذ الزمن البعيد الذي انسحب يلوك الهزائم ويخبئها وراء ابتسامة النصر المشبوه. ستأتيك النساء من الربع الخالي الذي جف دمه، يا سيدنا العظيم، ويلدن بين يديك. يضعْن الجسد فوق الحصى، يتمرّغن على الجمر والنار. تتلمس الحرقة والجرح الغائر. يتوقد قلبكِ ويمتد حنين رضاك، شعرهن لهب، أجسادهن نثار من

الجنة، ولا شيء يبعدك عن حنينك ومجاهداتك. قم يا سيدنا العظيم، قم قَبْلَ أن تقوم القيامة التي يحضرون لها في الخفاء. وذكّر الذين لم يبق فيهم شبق الحنين، أن من أيديهم صنع الله الدنيا، ومن عيونهم استلهم كل الأناشيد. عليك أن تقاوم يا سيدنا. لقد اقترب الليل والمدينة تستعيد ذاكرتها المفقودة، والمساجد استعارت أصوات الأشرطة وغيبت حنين الأوفياء. عليك أن تقاوم يا سيدنا العظيم مسوخ الظّلال. كل المسوخ كاذبة يا مولانا.

قالها قبل أن يمسح على لحيته، مشدوها في بياض وجهي، يؤكد بشير إلمورّو. عليك أن لا تترك الدنيا للريح تجرحها. الريشة فوق الريشة والطين على الطين، وبين الريشة والطين خط مستقيم، منه يخرج الأنبياء وإليه يعودون. الفرحة لا تولد من الفراغ لكن من نار الرحم المجروح بصرخات الولادة، ومن اللذة والشوق المدفون في بؤبؤ العين. يجب أن تحذر يا مولاي، سادة جهنم وسدنة النار تسلّلوا على فراشنا ولكننا سنقاوم كل شيء يمنعك من مسارك المخطّط كما في اللوح المحفوظ.

وضعتُ رأسي بين يدي يقول بشير إلمورّو، وحاولتُ أن أصرخ بأعلى صوتي: لستُ ذلك الرجل يا عباد الله الأوفياء، الأتقياء، النبلاء؟ لم أفهم شيئا؟ كلام العالم الشاب كان كبيرا وجرحا صوفيا أكبر مني. لكني لملمت لساني، وابتلعت كل الصرخات التي نبتت فيَّ وكان يجب أن أطلقها. سمعت شيئا منغما خرج من فم العالم، أو ربما تخيلته.

- يا سيدي الحكيم والعالم الجليل، فسّر؟ فسر أيها العليّ العالي؟

ثم سكتُّ بأعلى صوتي، وصرخت بأعلى صمتي. برودة القبر كانت تنشئ قبورا في الذاكرة وترمي الكل باتجاه البحر، والسفن والعائمة والأجساد العارية الممزقة تبحث عن مرافئها الهارية. قلت للعَالِم وأنا أترك سيل الكلمات على حريته وهديه: يا سيدي لو فقط كنتَ تعرف، ولكنك لا تعرف؟ من الحب ما يقتل بثقله وقوته. أنا لست أكثر من رجل أندلسي ركب البحر قبل أن يركبه الموت. لم يعد للجسد معنى، لم يعد للوجه معنى، لم يعد للناس معنى، أصبح القول كلاما، والذاكرة نداء.

أصبح الصقر حماما، والخمرة ماء، والحزن يمامة، ومن يعشق الحزن يا سيدي سوى المصاب بمس الجنون؟ عذرا، لن أنام يا حكماء هذه المدينة، لأن النوم أخو الموت. سيدنا الخضر سيمرّ، سأكون أول من يراه وهو يقطع تعرجات الشوارع الضيقة. لا أحتمل حياة يا سيدي هي شبيه الموت في كل شيء. لسيدنا الخضر سأكون شاهدا على خيره وشره.

حتى العجوز المشدوه الذي كان يمسد على لحيته، انسحب قبل أن أفتح عيني من الدهشة. لم أجده لا هو ولا الجماعة. كان الجميع في بيت الخلوة، وكنت وحيدا في بيتي أتقلب وأتألم بقسوة. النافذة مشرعة عن آخرها، والراعي منكفئ على نفسه عند الباب بعصاه المعتادة. اقتربت من النافذة أكثر، وجلست على كرسي، فصرخت فجاة في أعماقي. هو سيدنا الخضر؟ سمعت نحنحة الجياد المجروحة، وصرخات الناس وأنين الذين كانوا في طريقهم إلى الموت. رأيت الخيول تقف عند الأبواب، ورقابا تنحني مجبرة ولا تقوم. بعدها انطفأ الضوء، ولم أسمع إلا الصراخ والندب والعويل. وضعتُ رأسي بين يدي، تمنّيت أن أقفز باتجاه المدينة من أعالي هذه النافذة. لفلفت نفسي في أول برنوس وجدته في طريقي. خرجت بسرعة، بهدوء تام حتى لا أوقض الراعي المنكفئ على جسده النحيل. نزلت باتجاه مكان الصراخ، متجاوزا بذلك كل إنذارات الحكماء السبعة. كانت المدينة تعيش جنازاتها الكثيرة. اقتربت من أقرب شجرة عرفت من ملمسها أنها نخلة هرمة. كان المشهد مروعا. ربط الطفل بين حصانين ثقيلين، وأمام جميع الحاضرين مُزق بهدوء. قيل إنه مزق لأنه كان سينشأ كافرا عكس والديه المؤمنين. عرفت لاحقا حقيقة أخرى، وهي أن والده كان مطلوبا حيا أو ميتا منذ أكثر من ثلاث سنوات. فقد كوّن عصابة مناهضة للسلطان، وراح يعيش داخل الغابة الكبيرة، لا ينهب إلا قوافل الأغنياء التي تمر ليلا ناحية الوديان المحاذية للغابة. مزقت الكلاب المدربة دابة الرجل الهارب التي كان يركبها يوميا للذهاب باتجاه الجبل لخدمة الأرض اليابسة التي لا تلد إلا الخوف. في الصباح فسر

أئمة المساجد حادثة الدابة التي مزقتها الكلاب، بشكل غريب. قيل إن الدابة كانت عاقرا، بغلة ملعونة، سخط عليها الصحابة والسابقون، فقد أخصبت لأول مرة منذ كانت الخليقة من حصان عظامه من جهنم، ولو تُرِكتْ حتى تلد، ستنكس الأرض وتصبح الأرض سماء والسماء تربة. وما بينهما حجميا لا يطاق.

وأشهد أني لم أر بياض القداسة، ولكني رأيت أياد خشنة لا تعرف الغناء ولا الفرح، تستل الأرواح وتضع الفرحة والتاريخ في الصناديق الخشبية أو تدفنها، داخل حرقة شمعة، أو داخل دمعة يتيمة، وتغرقها في أعماق البحر الذي لم يتوقف تكسر أمواجه. بحثت عن سيدنا الخضر ذي الوجه الأبيض والجواد الأبيض، واللباس الأبيض، ولكني لم أر إلا الظلمة والشوارع المغلقة الميتة. رأيت جيوشا تمتطي الأسلحة الرشاشة، والسيوف المعقوفة. رأيت الأبواب العالية تسقط مثلما تسقط المدن الرائعة. كان الرصاص يلعلع، وبين الرشقة والرشقة، أرواح تزهق وضباب الموت ثعبان ينساب، والريح الساخنة تهب بلا بداية ولا نهاية. صرخ الرجل المنسي في المدينة وفي شوارع الموت: الله تخلّى عنا، ألسنة النار تعلو والنباتات تتمزق كالخرق البالية. الوجوه المحروقة نسيت أنها كانت لحما ودما، والخراب في الذاكرة يستعيد أمجاده البعيدة. المهدى يقتل المهدي، والخضر يقتل الخضر، والله يغتال الله. أجساد تسقط كالعنقود تلو الآخر، ثم توضع في حفرة أو مطمورة، وتُغطى بالإسمنت الصلب ويتحول المكان إلى طريق يسعد الناس لأن الدولة فكرت فيهم أخيرا وبلطت الأرض. في كل مكان تنصب المشانق، والمحارق يزداد عددها، والناس نيام في فراش يشبه الموت، ينتظرون الدقات المعلنة عن مرور سيد الموت، سيدنا الخضر. دقّة الفاجعة الأولى تبدأ مع الثانية الأولى من منتصف الّليل حيث يصبح السواد أكثر ظلمة، وتنتشر رائحة الموت في كل شيء، حتى في الألبسة والأغطية والهواء.

* * *

الفصل السادس

مِحْنَةُ القَوْسِ السِرّي

كان بشير إلمورّو في عزلة الدّوخة. في حالة دوار مما كان يعيشه بكل حواسه. العالم الذي كان يحيط به كان مثل الغيمة، كلما حاول لمسه، انسحب من بين أصابعه. شيء في أعماقه كان يسبقه ويسكن لسانه.

- يا سيد العارفين إني أسمعك. ربما كنتُ الوحيد في هذه اللحظة من يسمعك لأني الأعرف بحرقتك وآلامك يا مولاي وسيدي. الوحيد من يرى دمك يسيح ويتمنى لو أن أي قطرة سالت على الأرض كانت دمه.

رأيته بأني عيني، يقول بشير إلمورّو. اسمع يا السامع، الله يسمعك سمع الخير. افتح فمك عن أخره، وبرقق عينيك مليح. لا تترك النغمة تمرّ في عزلتها. لا تترك اللحظة تفنى تحت شعلة الفراغ. لا تنس ذاتك في نار الشبق البليد، الذي لا يعلمك الجديد. الخوف ملعون. واللعنة لعنة. والنار نار أيها الممحون بشذى الموت. إنه القوس الثاني أو القوس السري الذي يتخفى في كل شيء حتى في نفس العاشق. مبني للمجهول وفي معلوم المعلوم. ما أظن يفهم كلامنا إلا من بلغ القوس الثاني، والقوس الثاني دون اللوح، وله حروف سوى حروف العربية، إلا حرف واحد. الميم وأنت ما بك مشدود كالدهشة، معروش كفراغ الموت؟ منتصب كاللعنة، خائف كالخوف، وقائم كالمحنة،؟ هي ذي تأتي بين ذواب الذات. حياة قصيرة، لمن اعتنق، وحياتها تدوم، موجودة بين المجهول والمعلوم. صاحبها واحد. مارسها لاحد. وآرقها رامد. لاصقها فاقد.

إنه القوس الثاني. قلتَها يا سيد العارفين. حتى بعد موتك أيها الحلاّج العظيم. مازلنا نبحث عنك بين الحرف والحرف، بل داخل الفاصلة والنقطة. سرك دفين وعلمك مكين. إنه القوس الثاني. نشعر به ولا نلمسه. نحس بقربه منا ولكننا لا نفهمه. أيها الحلاج كنتَ قوالا يا سيدي الأعظم ولهذا لم يفهمك حتى أقرب المقربين. ماذا حدث أيها الموريسكي الذي ورث شقاوة اللسان عن جدّ مات وهو ما يزال يصرخ بأعلى جنونه: أعطوني حقي في الكلام. عليكم اللعنة حتى يوم القيامة.

مولاي الرحمن الأرحم. سيد الدنيا. بانيها وفانيها. سيدي الحاكم بأمره. أنت تعرف أن ما حدث بعد ذلك كان فظيعا. من الصعب استيعابه. مرايانا بلا ذاكرة، ولكنها لا تكذب يا مولاي.

- عن أية مرايا تتحدثين هاته التي بلا ذاكرة؟

- مرايانا يا مولاي التي لا أحد يعرفها إلا أنا وأنت ومن يسترق السمع لنا متخفيا بين الأحجبة وشقوق الحيطان.

- لا أحد غيرنا هنا.

- كل ماحدث يا صاحب المقام العالي معروف. وإذا سمح لي مولاي أواصل لأبرز له خيانة المرايا. المرايا مثل البشر، لا تتحمل ثقل الأسرار.

هز رأسه. قالت وهي تضع وجهه بين يديه.

- أتمنى أن لا أكون قد أثقلت على مولاي.

- لو لم تكوني خفيفة الروح، كنت أنهيت حسابي معك منذ اللحظة التي اشترطت فيها شروطك. أمام الحاكم بأمره ننصاع للشروط ونحني الظهر والرأس. من حظك أنك حبيبتي، وأنك أول امرأة تجاوزت جسدي لتتوغل في قلبي.

- تلك هي أسرار الحب يا مولاي ودليلي في ظلمات الطمع والخوف.

حين عدت إلى البيت، يؤكد بشير إلمورّوُ، كان الراعي خائفا، لا

من الموت، ولكن من عيون الحكماء/العلماء السبعة، أو على الأقل هكذا أوحى لي في البداية، لأني سأعرف فيما بعد، أنه لم يتركني ولا لحظة واحدة. فقد كلف باقتفاء كل خطواتي داخل الجملكية، يقول أحد العلماء السبعة، لم أتبين اسمه. فقد رأى سيدنا الخضر يحوم كالنسر الجائع فوق حصون المدينة وبحرها. وبعد لحظات من الدهشة نزل، فتحول في الثانية نفسها، حتى قبل أن تطأ رجلاه أديم الأرض إلى إنس. امتطى حصانا بلون لباسه ذي اللون الأبيض المشع كالنور، عندما تنفتح السماء على فقير انتظرها أكثر من سبعة قرون. ويقسم الشيخ العالم، برأس الدابة التي تأكله، أنه لمس برنوس سيدنا الخضر، .كدت أصرخ في وجهه: إنك تكذب بإشيخنا الجليل، ليس هذا وجه الحقيقة التي يجب أن تُروى. فقد اقتفيت قافلة االموت حتى بيت سيدي النينوي الصوفي، الذي ظل شامخا كالله، وشاهدا على تفاصيل الجريمة والقتل بلا توقف. القتل بالخطب الرسمية والعسكر. كانت وجوههم مغلقة بالإسمنت. يقتلون ويفتكون. في لحظة أقل من رمشة العين، تداعت أبواب الشيخ النينوي الصوفي. كانت عيناه هادئتين وكأنه، كان ينتظر قدومهم. لم يتخبأ وراء شقوق الحيطان كما فعل غيره من الرعية. ولا داخل فتحات الأبواب المكسورة. لم يهرب إلى الغابة، ولا باتجاه الريح الساخنة، ولا بحث عن البحر لمغادرة البلاد. ظل النينوي الصوفي واقفا، شامخا، وهادئا، يسترق السمع، بأذن ثالثة، إلى الصرخات المتتالية والى الأنين الذي كان يُسمع من وراء الخراب، وراء الإرتطامات المتعددة للأسوار والوجوه التي كانت تتداعى. كان سيدي النينوي الصوفي كلما سمع صوتا عرف السر الذي يتخفى وراءه، إما يبشر لأن الصوت كان صوت المقاومة والشهادة، أويحزن عندما يدرك من الأرتطامات الجافة أن المقتولين ناس عزل من سكان حواشي المدينة. العلماء السبعة كانوا قد حدثوني طويلا عن سيدنا النينوي الصوفي حتى قبل أن أراه، وأنهم اقترحوا عليه الالتحاق بهم في القلعة، ولكنه رفض. قال أمهلوني ربما جئتكم بنفسي حافيا، عاريا، أو جئتكم رمادا مقدسا.

أمهلوني أيها الحكماء، فلم يبق في جملكية آرابيا إلا صوتكم والبحر الذي لن يخسر أبدا زرقته وألوانه المستعصية.

أيها النينوي العالي، السامي. ما أعظم صمتك. ما أدهش صوتك وحنينك أيها الشيخ الجليل. ما أرهفك، وما أصغر سيدنا الخضر في هذه المدينة. أكدت للعلماء أن ما رأيته لم يكن حلما بلون النار، ولا كابوسا. لقد عشت لحظات المشهد المقدس ولم أخسر لا عيني ولا ذاكرتي ولا صوتي، ولم أتحول إلى صنم صغير ولا كبير، يختبئ الأطفال وراءه للتبول، بعيدا عن عيون الناس. أكدت لهم أني بكيت كمن يبكي في اللحظة الأولى عندما تصطدم عيناه لأول مرة بفراغ الوجود المخيف. قلت لهم إني انتظرت بفارغ الصبر، الصباح، للنزول إلى الأسواق ورواية الحقيقة. انتابتني غصة فجائية في حضرتهم. يا سادتي العلماء، لقد رأيتهم يضعون الجثة على الصليب مرغمة، رأيتهم يصلبونها مرات عديدة ولا غليل فيهم كان بُشفى. سيدي ومولاي النينوي الصوفي لم يهرب أبدا. كان بعض الخوف باديا في عينيه، لكن صبره كان أكبر. إنها تجربة الموت، كان يخوضها بعشق شديد، وحيدا كالله في عزلته وجبروت صمته. قتلوه إذ صلبوه ولم يُشَبَّهْ لهم. كانوا يعرفونه. رأيته بوجاهته وحيائه، ولباسه الأبيض الذي أحمّر من تدفق الدم. دموعه التي توقفت عند الخدّ، أصبحت جمرة، أوقدت نار الحنين في كل من عاش المشهد.

آه يا سيدي النينوي الصوفي، كان الزمن مظلما، وكانت الوجوه تشتعل فرحتها، والسواد يزداد كثافة. إنه نفس الحال الذي لبسني وأنا في الكهف. لا أعلم هل عشته حقيقة، أم كانت الرؤيا مجرد حلم. المؤكد، أنه كان جزءا من الكابوس المظلم الذي تشكلت منه ليلة الليالي. شعرت به يسالني عن مشاهدتي ومكابداته. قلت. رأيتك يا سيدي العظيم تنحني بكل إجلال، تميل برأسك باتجاه الدنيا ألما، لكنك لم تصرخ أبدا. أقسم بعينيك وشفتيك اليابستين أني رأيتك في ليلة الليالي التي لم ينته إمتداها. كانت الظلمة قد فقدت أنجمها، والحنين ضيع وجهه ورمانا على قارعة

الطرقات المفرغة. وحيدين، نجرب شطط الموت المقدس، ونواجه خراب الوقت يا مولى الساعة. وجهك كان يأتيني على دفعات. من عصر السيف إلى عصر البارود والموت. ليلة الليالي هي أطول ليلة. تشبه الخوف التي دامت زمنا، لدرجة أنها ألغت الزمن ذاته.

هل كنتُ نائما أم كنتُ أحترق. لا أعلم. أحتاج إلى ترتيب ذهني وكل الوقائع والمشاهدات. كيف نزلت ظلمة ليلة الليالي؟ هل جاءت بعد أن مات الشيخ الجليل سيدي النينوي الصوفي، وامتلأ فمه بالرمل والماء أم بعد؟ ربما جاءت بعد موت الحلاج، لأني حين استيقظت يومها، وعدت إلى النوم من جديد، وجدت نفسي على نار أخرى. كان الزمن الأسود، يشبه زمانك يا خير العارفين. سبحانه، يخلق من الشبه أربعين، أو حتى اثنين. الحلاج ومولاي النينوي الصوفي؟ قلتَ لي قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة: أرأيت يا بشيري، لقد أدخلوا جهنم إلى قلبي، ولم يمسحوا كل علامات الإيمان فيه، بأن عالما من النور سيقوم من صلب هذا الرماد. لا أدري ما حدث لي، ولكني شعرت بالنار تصعد من داخلي، تملأ رأسي رعبا. قال أحد العلماء وهو يربت على كتفي ويعطيني كأسا من الماء البارد: أنت يا سيدي قادم من جهنم. كان النينوي الصوفي مثلك، صادقا صدوقا، لا يعرف الحساب عندما يتعلق الأمر بقلبه. أحلامه تزن الجبال. وفي لحيته وقار الأوفياء. قلبه بسعة البحر والسماء والأرض وما بينهما من فراغ وأهوال وشكوك. كان الزمن موغلا في سواده. الحاكم كان قد اختبأ بين حائطين جافين، وعطل العقل، وسلم بظاهر الدنيا ومنع أهل عيسى من ركوب الخيل ووضع تحت مؤخراتهم الحمير والبغال. المعتضد منع الوراقين من بيع كتب الفلسفة، وأغلقت الحارات على الجهل وطُيِّن على الأفواه حتى لم تعد في الشوارع إلا الدواب. البسطامي استأصلوه وأفرغوا دفئه من شهوة القلب، ونفوه سبع مرات، وفي كل مرّة كانوا ينزعون منه قطعة من أشواق العقل، حتى حولوه إلى مقبرة وانتظروا مزالقه. ويوم خاطب الله وقال بأعلى صوته: يا أنا، قالوا بذعر، لقد كفر أبوزيد البسطامي، لكنه

كان شامخا مثل جبل. وقف أمام الله بكبرياء المحارب وقال بصوت هامس: مولاي وكينونتي. رفعتني بين يديك، وقلتَ لي أنت، خلقي يريدون أن يروك. زيِّني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك، قالوا، رأيناك، فتكون أنت ذلك هناك، ولأكون أنا هنا. قال البسطامي أكثر من هذا كله. ولكن القاضي الجنيد، بحث له عن كل الأعذار لينجيه من قتل أكيد. لكنهم يا مولاي الرحمن الأرحم، يا سيدي النينوي لم يرحموك. حكموا عليك بالصلب والموت. وجهك كان مثل وجه سيدي الحلاج. يتماهى فيك. اتهموه بالسحر والشعوذة وتجفيف البحار. كان مثلك وصرخ بلغتك. رفع صوته في وجه الجنيد: ايها الجنيد، يا حبيب القلب الذي كان. أنقذني. قل لي فقط هل قبضت ثمن رأسي يا شيخي الكبير؟ سكت. كان مولاي الحلاج لا يأكل سبعين يوما، ولا ينام في سوق (القطعية). كان قلبه ممتلئا بالنور والوجد. وقف عند باب المسجد وصرخ بأعلى صوته حتى سمعت دواب البحار السبعة حنينه: إذا استولى الحقد على قلب أخلاه عن غيره، وإذا لازم أحدا، أفناه عمن سواه. ثم سبقته دمعة مثقلة بالحنين والحزن. شهق جميع من كان في السوق في لحظة الشهقة والامتلاء. دوَّن الوراقون كراهيتهم. وبكى القوالون فقيدهم. تمتم بكلام مبهم وغير مسموع: أنا في أنا ولا شيء سواه. هو في أناه. قال الوراقون، مجنون، تدروش قبل أن يتطربش. ضحك الغباء ملء أشداقه. تعدّى حدود وأحلّ دم الله. قال عفوا، أنتم تحملون كلامي على غير ما فيه. لم أستبح دموع الله، إنما دموعه تحزن جفن العين. دمعته تتحد بي وأتحد بها لحظة الوحدة لكي لا أخاف من الموت. لا فرق بيني وبينه إلاّ الربوبية. كانت عيناه قد أحمرتا كالجمرتين المتقدتين. وحين عاد إلى رشده، ضحك كثيرا من هذه العودة التي أبعدته عن النور. ونصح الناس الحاضرين بعدم اتباع طريقه. قال: طريقي صعب. معبّد بجهنم. لا تطوله الأرجل التي تتعب بسرعة. وحين حاصروه، وقالوا مجنون، كان قد صلى بعض الركعات في جامع المنصور وقال: اعلموا أن الله تعالى قد أباح لكم

دمي، فاقتلوني. سأله بعض الذين قرأوا الحرف المتوهج في قلبه وفي ذاكرته. يا شيخنا، ما معنى هذا؟ فقال ما قلته لهم يا سيدي النينوي الصوفي: ليس في الدنيا للمسلمين، شغل أهم من قتلي. كان يعرف طريق موته، اختاره بشموخ الأنبياء والرسل، ودفع بدواب القصور والزرائب إلى الاختباء وراء الحصائر والألبسة النسوية المزركشة. كان مثلك يا مولاي ينتظر شهر الشمس والزهور، وشهر الحب والخصب، ليصلب. كان يعشق الحياة لدرجة الوله. رأيته في الحلم بجلاله لا بل عشته كما نعيش تفاصيل لحظة ألم الموت ممزوجة بزهو غامض. لم تمنعني رائحة الكهف النتنة من استنشاق عطره. أول وآخر مرة أشم فيه رائحة المسك والعنبر، بعدها لم أعد أشم إلا رائحة الدم والاحتراق تتصاعد من ثوبه الصوفي الفضفاض. كان يصرخ، وكانوا يبيعون البلاد للأتراك والفرس، قالوا. خذوا البلاد وأعطونا الذهب والكراسي والغلمان. ولا تخلعوا عنّا الحكم. لكنهم في لحظة الهوس بدأوا يأكلون رؤوسهم الواحد تلو الآخر، المعتصم، المتوكل، المنصور، قتل أباه واعتلى خلافة الكرسي، وانتهى مسموما، المستعين... المهدي، المعتقد الموفق، المعتضد، المقتدر أحد الأجداد الذي ما يزال دمه يسير في وجوه حكام هذا الزمن الأرقط. تركوهم يتقاتلون ليرموهم في أقرب مزبلة على أطراف بغداد، وأشعلوا النار في المدينة والعباد والكتب. القلّة التي صرخت في المدينة، شُنقت أو أُحرقت حية، أو نُفيت خارج الأسوار، وقُتلت في الفلوات دهسا بالجياد، أو دُفنت حيّة عارية، أو صُلبت يا سيدي العظيم. كانوا يتقاتلون على الكرسي. الأول جاء فوق سنان الرماح، الثاني أدخل نصله في صدر والده، واعتلى العرش، ثم عرّش كالخوف. كان يلعب بالماء. لوّن شلالات أبهية القصر بالأحمر، وقال، ما فعلت هذا في النهاية، إلا وفاء للوالد طيب الله ثراه. وضعوا له السّم وجاءوا بغيره الذي عزل نفسه بنفسه، ومع ذلك، بعد سنة واحدة رشقوا في بطنه وصدره سيفا صدئا وحمّلوه كل هزائمهم المتتالية أمام المغول. الآتي سلّم أمره للآتين. خلعوه وخلعوا معه أصابع يديه

ورجليه، وديست خصيتاه بقوة. وبعدهم جاء المريض بالنقرس والفيل، مل الناس من حمله يا سيدي الجليل. وضعوا السم في رأس السيف ورشقوه في ضلعه الأيمن. الخليفة الذي ورث هزائمهم قال أنا سيد العارفين برعية لا يهمها إلا بطنها. انفق المال والبنين من أجل إرضاء الغوغاء التي لم تتوان لحظة واحدة عن خداعه. لعن الله الغوغاء وأسكنها فسيح جهنمه، صرخ قبل أن تأكل هذه الأخيرة رأسه. الورّاقون يا مولاي النينوي الصوفي، سيظلون في كل الأزمان وراقين يحفرون الذاكرة بالأوهام، ويوقدون النار في قلب الورق البردي المصقول بألم المتعبين. أنت تعرف جيدا يا سيدي، أن المعتضد لا يدخل سيفه غمده، إلا عندما ينتهي من حزّ سبعين رقبة كل ليلة، ولا ينام على صدر قطر الندى الذي فاض بالشبق إلاّ إذا أتّم المائة رقدة وسفدة. حين ينتهي من عد الخمسين، يقول الوراقون مفاخرين بفحولته، ينزل من على صدرها ثم يقلبها على ظهرها ويسفدها الخمسين المتبقية من دبرها. يقول المعتضد، وهو أسوأ القائلين، إن ركوب المرأة من الوراء هو جزء من الحرث الذي أحله الله، حينما قال عزّ وعلا: آتوا حرثكم أنّى شئتم، ثم ينام مرتاح البال. كانت قطر الندى تطاوعه ليلة بكاملها لأنها كانت تتأذى من طرائق المعتضد المتوحشة في الجنس، وفي الصباح تقول له، اشتقت إلى قصر من الذهب. ينادي الحاضرين وأهل الجباية، فيأتونه بكل الذهب المخزون بين الكوفة والبحرين، ثم يبدأ في أولى عمليات السبك. وفي الليلة الموالية تعلّمه نزالا عشقيا محرّما، ينتهي إلى لذّة لم يعرفها أبدا من قبل. عندما يسألها: كيف لك بكل هذه المواهب؟ تتغنج ثم تجيبه: لأنك أتيتني من حيث حُرّمتُ عليك هههههه. ثم تقهقه عاليا حتى يسمعها كل نزلاء القصر.

كانت دنيا تعرف سر خيبة سيدها وهو يعض بقوة على الكنّانة الحمراء حتى ليكاد ينفجر مثل الحرباء التي أغلقت كل منافذ تنفسها.

غمغم بصوت مخنوق، قبل أن يستقيم كلامه.

- . . . ابن الكلب كيف يتحول بسرعة إلى فقيه، يحلّل ويحرم؟

- أنت تعرف يا مولاي أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم؟ أنى ليست مكانية.

- ولو كانت مكانية؟ أين الضرر؟ لقد فعلت ذلك العديد من المرات مع المحضيات وكانت اللذة مساوية للذة الفرج وربما تخطتها بقليل. لم تكن قطر الندى مخطئة. لو كانت في زماني، كنت قتلت المعتضد فقط للظفر بها.

- لك كل الحق يا مولاي. لكن الشافعي قال، قال الله عز وجل نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم، قال وبين أن موضع الحرث موضع الولد وأن الله عز وجل أباح الإتيان فيه إلا في وقت الحيض وأنى شئتم من أين شئتم قال وإباحة الإتيان في موضع الحرث يشبه أن يكون تحريم إتيان في غيره والإتيان في الدبر حتى يبلغ منه مبلغ الإتيان في القبل محرم بدلالة الكتاب ثم السنة، قال الشافعي فيما أنبأني أبو عبد الله اجازه عن أبي العباس عن الربيع عنه في قوله عز وجل والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون فكان بينا في ذكر حفظهم لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم تحريم ما سوى الأزواج وما ملكت الأيمان. وبين أن الأزواج وملك اليمين من الآدميات دون البهائم ثم أكدها فقال فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون فلا يحل العمل بالذكر إلا في زوجة أو في ملك اليمين ولا يحل الاستمناء والله أعلم[٢٤].

- خلّيني من الشافعي ومن حاشيته. شيء ما بدأ يزعجني في حكيك. هل تدركين صعوبة من يرى كل تشوهاته في المرايا؟ من يسمع قصته ترويها كل الألسن؟ هل تدركين إحساس من يفقد السلطان ولم تبق فيه إلا يد واحدة حرة للقتل والخنق وارتكاب آخر جرائمه؟

- من قال أن مولاي فَقَدَ السلطان، أو حتى كاد؟ مولاي جاءت به

---

(٢٤) الشافعي، أحكام القرآن، ١/ ١٩٣-١٩٥

قهرمانة إلى هذا المكان وسيفه، وستنقذه امرأة. امرأة اسمها دنيا، أو دنيازاد كما يشتهي تسميتها تيمنا بشهرزاد التي كانت من وراء أكبر كذبة على العرش والأخطر عليه.

- هذه لم تخطئي فيها.

قال الحاكم بأمره، ثم نظر إلى تفاصيل جسدها من جديد، بعينين جاحظتين، وإلى ملامح وجهها المنغمس في سر الرواية التي بدأتها وهي مصرة على إنهائها، حتى وإن كانت في النهاية نهايتها. دابة الغواية شهرزاد، اختصرت من الحكاية ما كان يجب أن يُروي. قالت دنيا. هذا قليل من كثير يا سيد جملكية آرابيا. عليك أن تعرف الحقيقة. الحقيقة كما هي لا كما رواها الوراقون الذين تعرفهم جيدا أكثر مما أعرفهم، وتعرف كذبهم وتلفيقهم للتاريخ. دابة الغواية كانت كاذبة حتى الموت. لم تكن لها خياراتي.

- شهرزاد لم تقل لسالفك الأول شهريار، إلا ما كان يريد سماعه. وأنا أروي ما ترفض أنت سماعه وما أكرهه من قلبي، لأني منك يا سيدي وإليك سأعود كمجرى النهر الذي يهرب بعيدا ثم يعود إلى نبعه الأول.

ارتسمت علامات الرضى على محياه، فأنارت وجهه المتعب. أُعجب الحاكم بأمره بهذا التشبيه الجميل الذي يعيد له بعض حقه من أنه هو الأصل الأول للأشياء. لا نبع غيره، أي لا حياة من دونه. لم تكن تهمة تفاصيل هذه الحكاية، لأنه كان يعرف بعض مؤدياتها. كان يريد أن يعرف ما غاب عنه، ما هو جديد قطر الندى، قطر النزال والشهوة. تمتم وهو يحاول أن يخبئ رأسه بين يديه.

- هه. وماذا فعلتْ. أحك عن جديدها. هل خانته؟ هل كانت هي أيضا دابة للغواية، تنام معه وتشتهي غيره مثلما فعلت نساء قصر شاه زمان؟

يروى يا سيدى الباهر النور في عتمة الدنيا التي تجتاح قلوبنا في هذه الأيام، أن بشير إلموزّو كان سيد حقائق كثيرة كان العلماء يريدون معرفتها. أن قطر الندى عاشت ليلة الليالي وفق شهوتها. لم ينتبها أي

خوف. نزعت كل ألبستها، ثم ارتدت غلالة عمقت تفاصيل جسدها الغض، وضعت أصبعها بين فخذيها، ثم تأوهت في مشهدية لم نرها حتى في أفلام الإغواء والإيروتيكا التي تفضلها على الأفلام البرنوغرافية التي كانت تصلك إلى القصر في شكل هدايا مكرطنة ومعطرة، من أصدقائك في بلاد الغرب. تجمَّع لباسها الشفاف عند السرة، ثم بدأت تنزلق بأصبعها المعقوف باتجاه العمق، جلست على ركبتيها وهي تحاول أن تحافظ على مسافة كانت تزداد اتساعا بين فخذيها. شعر بالنار تصعد من صدره، ولم يتمالك، فبدأ المعتضد يرغي ويتلوى. كان جسدها الغض مهلكة للحاكم وللعرش. اندست في حجره كالقطنة المضخمة بالعطر، وحين مست رعشته في فمها وعلى رأس لسانها، ابتعدت قليلا عنه. وتأملته. بدا لها كالجرذ الصغير عندما تضعه أمه لأول مرة، تائها في مكان لم يكن يعرفه. شعرت بالجنون يملأ فراغات جسده.

بدون القدرة على السيطرة على نفسه، أدخل الحاكم بأمره يده في صدر دنيا، عجن بقوة نهديها حتى تأوه ودار في فراشه ملتاعا. حاول أن يتكلم، لكن الكلمات خرجت مصعوقة بالرعشة بسبب القماش الذي كان يضعه في فمه ليوقف به غضبه عندما يصل إلى السقف الذي يمكن أن يقود إلى الجريمة.

- أكاد أجن يا دنيازاد. أحـ. . .ك. . أحـ . . . .ك. . أرجووووك.

لم تبال دنيا، ولكنها انسلت منه بهدوء.

- أنا لم أنته يا كريم النفس وعالي الهمة. أنا في عز الحكاية. حكايتك؟ حكايتي. حكايتنا. حكاية الرعية أيضا. أصبر يا عالي الشأن والهمة.

جلست قطر الندى يا مولاي، بكل ثقلها على صدر المعتضد. . ثم غرقت في حجره، ثم. . بدأت ترغي كالموجة المكسورة. شعرت ببياض يعلو عنينه الغائرتين، وبالبحر يخر ساجدا عند قدميه. وقبل أن يسحبها بقوة نحوه ويدفنها أكثر في جسده، كانت قد قامت منتصبة، تعاود نفس الحركة لحرقه للمرة الأخيرة في شكل يكاد طقوسيا. تضع

أصبعها بين فخذيها وتتأوه، وتتأمل عريه كالثور الهائج. بينما كانت كتفاحة الغواية، تقطر شبقا ولذة. ابتعدت أكثر من طريقه وتركته يدخل الحمام، ينهي حريقه بالصابون الهندي وكمشة يده. بعدها لا أحد يعرف ما حدث يا طويل العمر. سوى أن الكثيرين سمعوها تقول: هذه المرة أفلحتَ مع الصابون الهندي أكثر من فلاحك معي. لنا العمر كله يا حبيبي، لا تغرق، مازلتُ هنا. هنا بالقرب من نفسك الأخير وهو يتقطع. أنا لك ما بقيتَ على ذهب الكرسي. ضحك. ثم عاد إلى فراشه ونام قرير العين. تسلَّلت من فراشها، وبحثت عنه. عبدها اليمني المصقول الجسد ذي اللون النحاسي البراق. تمتمت من شدة هبل اللذة: أنت على الأقل تملأ كل شيء فيَّ، وتشبع كل خوائي.

احمر وجه الحاكم بأمره حتى كاد أن ينز دما، ثم صرخ:

- أوقفي هذا الخرا واذهبي إلى الموريسكي. قتلتني هذه الدابة.

- من يتجرّأ أن يعصى أمر مولاي وحبيبي؟

يقول الموريسكي. يا سيد الجملكية، إنه حين جئ بالصبي ليحكم، البلاد والعباد، كانت الدنيا قد نكست أعلامها. طرد مرتين من الحكم، وفي المرة الثالثة جاءت به نسوة الحرملك وأخذن يلعبن بعضوه الناتىء، وهو يضحك ملء شدقيه، ويتقلب في فراش الريش والحرير، وأخذن يمططن عضوه وهو مفقوع من الضحك، ويدهنه بزيت الزيتون والعطر الهندي ليكبر بسرعة. المصيبة أنه بعد كل مسخرة، تطل مسخرة جديدة أكثر وقاحة من الأولى، لكن تاريخ أفولها ونهايتها كان قد خط أبديا. ليلة السلطان الأخيرة لم تكف، فزيد لها ليلة، فلم تكف، فزيد لها ليال أخرى، لم تكف، فسرقت من أجل استمرارها ليال وليال، ليتوقف العدّ عند هذه النقطة بالذات. كان الزمن قد غير دورته العادية. قام الطفل مصمما على أن يكون رجلا بسرعة. وضع سيفه على خاصرته، ثم اعتلى جوادا عربيا خشنا، وخرج مُرفقا بأمهر المحاربين القدامى، وبدأ يطيِّن على خصومه بين الحيطان. ينهب ويقتل بلا تمييز. لكنه بعدِ زمن لم يطل كثيرا، انتهى درويشا، يمشي في الشوارع، بعد ما

سملت عيناه، بمخيط كان يستعمل لتخييط البردعات، يطلب الصدقات، ويركض وراء نساء الأحياء الضيقة. الدنيا قلاَّبة يا سيدي، قال بشير إلمورّو لشيخه الأعظم سيدي النيوي الصوفي قبل الموت الأخير. في أيام المقتدر بالله، الطفل الأضحوكة، كانت إحدى قحباته تجلس في ديوان المظالم، تنظر في الدعاوي، وتوقع عليها، ثم تنظر في الدعوة الموالية، فتستشيط غضبا، من صاحب الشكوى، وتصرخ: آتوني بابن الكلبة، كيف يشتكي من سواء المعيشة والدينا تعيش رفاها لم نحلم به طوال حياتنا. وحين يؤتي بالمتظلم، تعريه عن آخره. وبعد أن تعبث به، تقطع أرسه، أمام الطفل الحاكم وهو يتمرغ من كثرة الضحك. ساخرا من فرائس الرجل وهو يرتعش خوفا قبل لحظة الموت. كيف تريد من عرش أن يستمر زمنا آخر يا مولاي وحبيبي؟ نحن في زمن يا سيدي، الحمار أصبح حاكما، والخياط قاضيا، والسباك أصبح مشرفا على تصريف الأموال، والأمي الجاهل سيد الاستشارة والحكمة. القاضي الحقيقي وُضع تحت الأرض ودُفن حيا لأنه قال إن النجوم خُلقت لتضيء الدنيا. سينتفي الناس حتى القتلة منهم، ويبقى النهر كما كان منذ الأزل، قويا وهادرا حتى في حالات ركوده وخموده. لم يفهم أحد كلامه. ظنوه ساحرا، فقتلوه. قال ضمن ما قاله، الله خلق الناس سواسية. الجنة لله وحده يختار لها من يشاء وهو يشاء دوما، والبشر هم من أنشأ القيامة. بنوها بمقاسات الظلم والخوف والضغينة. هل هي فتنة يا سيدي، كما كتبها الوراقون؟ أم أنها النار التي تحرق الأخضر واليابس، أكلت حاضرة بغداد التي سحقها الكلَب والطاعون، قبل أن تأتي على مختلف الحواضر. ظنناهم انتهوا ولكننا رأيناهم يتناسلون ويتوالدون على الكراسي مثل الدود. مع أن الكرسي الذهبي، تخرّم وتغرّف من كثرة احتكاك الأعجاز الثقيلة وتحمله لها. تأوّه بشير إلمورّو في سقف آلامه وشجنه: يا سيدي الأعظم، الرحمن الأرحم، هذه الوجوه مجتمعة، وغيرها ستأتي من بعدك هي التي أمرت بحرقك والعبث بجسدك. أقسم الجميع أن يضعوا رأسك في النار، ويستمتعوا

برائحة احتراقه، وكلفوا أصغرهم سنا بعملية التشويه والقيام بما قالوه كلاما ولفظا. قالوا له قبل أن ينطفئوا تركنا لك وصية. احفظها في بؤبؤ العين، السيف والكرسي شيء واحد. إذا ضاع الأول ضاع الثاني، وذهبت أخبارك مع الريح. لكنه حين فوجئ بالكرسي، وضع سيفه بين يدي القهرمانة. مسكين يا سيدي هذا المقتدر، جعفر بن المعتضد. كلب بغداد. إنها وصية ابن المشئوم والمشئومة ابن الفرات. نسيك يا شيخنا الحلاج تواجه خراب القصور وحيدا، نسي دمك، وصليبك، وقال: هو لكم. لقد حلّ دمه. ثم نفض يديه وكأن شيئا لم يكن وراح يقف في طابور الذين كانوا ينتظرون قبض ثمن رأسك، مع حسن بن حمدان، لأن الجيش الذي سلبه فرج القهرمانة الشهي، كان قد أخلى المدينة والأسوار. لم تبق أمامك يا شيخي السخي إلا الصحراء ومريدوك. في سوس، عندما ألقى عليك القبض صاحب البريد، سألك بعد أن عرفك من نداءاتك الداخلية: هل أنت الحلاج؟ قلتَ له بلا تردد: وماذا ترى؟ تلعثم، وعرف في سره، أن صاحب سؤال مثل هذا، لن يكون إلا الحلاج. ساقوك إلى بغداد حتى بدون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التأكد، مقيدا بالحديد، وصليل السيوف المعقوفة، وأصوات العسس المتداخلة التي لم تكن تفهم الكثير منها سوى تهمة الزندقة. لم يكن يهمك كثيرا أن تعرف مصدر التهمة الأولى. طلبوا من ورّاقهم الطبري، نعم الطبري يا سيدي ومولاي الأعظم، أن يسجل ما يروونه عنه. ملأ الريشة القصبية بالسماق ثم دوّن ما رواه القتلة. واحتفظ بالحقيقة لنفسه قبل أن يسرّب بعضها بين الأحرف المرتعشة خوفا. كان القلم خفيفا بين أصابعه. وجّه عينيه باتجاه الورقة الصينية الصفراء، وصندوق المال، مسح على شاربيه الطويلين، ولحيته الكثة، ثم بدأ بعدها يخط الرواية كما شاءها سدنة السلطان، وهذا كلامه: أُحضِر إلى دار الوزير علي بن عيسى، رجل ذكر أنه يُعرف بالحلاج، ويكنى بأبي محمد. . .مشعوذ ومعه صاحب له، سمعت جماعة من الناس يزعمون أنه كان يدّعى الربوبية . . . مرت يا سيدي الفاضل على ظهره المتعب،

ثلاث وزارات، وزارة ابن عيسى، ووزارتي ابن الفرات للمرة الثانية، ووزارة حامد بن العباس. كانوا يتقاسمون الأدوار على جثته، ثم يغسل كل واحد يديه من دمه وصرخاته وعرقه. منحوا عينيه للجحيم. كانت النار تصعد من قدميه ولم يكن القصر إلا سجنا جديدا. تركوه بين السماء والأرض، حتى مل وكره الدنيا، لكن صفاءه، كل صفائه، ظل معه. وظل خادمه إبراهيم بن فاتك وفيا له حتى آخر لحظة. حامد بن العباس، وهو يتألم في بيت النفايات (المرحاض) ويتعصّر بسبب مرض البواسير الذي لازمة منذ طفولته الأولى، يفكر كيف يبيده. يحسده حتى في عطره الذي يفوح به جسده. قال عنه الرجل القوال الذي أحب تاريخ عبد الرحمن بن خلدون: لم يعرف لا حقوق الوزارة ولا سياستها. جاءه حامد بن العباس بتهم عجيبة، نزلت عليه وهو في بيت النفايات يتعصّر. وضع سيدي الحلاج رأسه بين أذنيه، لكن صوته الجهوري اخترقه وبدد صمته وعزلته. ظل يسمع التهم الملفقة ويعيد السمع مجبرا، وملامحه تتغير وتتغير، حتى نسي أنه هو هو. قالوا له: إنك ساحر. تصنع الكرامات وتدّعي الألوهية والحلول وإحياء الموتى. جاءوا بالشاهد الأول، قال وهو يفرك جيبه ويستمتع بشنشنة الدنانير الذهبية: شاهدته وهو يحيي طائرا ميتا كنت أحبه. قال الثاني وهو يُدفع إلى وسط الساحة الواسعة: لقد مدد في عمري أكثر من عشرين سنة وأضاف، الجن تخدمه، فتحضر له ما يشتهي من الفواكه في غير أوانها. يمد يده في الهواء ويلوّح بها، فتعود مملوءة بالنقود. قال آخر: كان يعرف الغيب ولهذا عَبَدَه مريدوه. كأن هذه التّهم كلها لم تكن كافية، لم يكتف حامد بن العباس بها. كان يريد تهمة يكون حدّها هالكا. تهمة تتجاوز المعتاد، لم يفكر فيها أحد من قبله. عندما عاد حامد بن العباس إلى القصر، كان منكسا رأسه كالمهزوم، يبحث عن غلام ما يدفن فيه غلة وانكساراته الكثيرة، قبل أن يعود في اليوم الموالي أكثر استثارة وحماسا. جاء يجر وراءه شاهدا جديدا. قيل له قل كل ما تعرفه. قال: سمعته يا سيدي يقول: أنا الرحمن الأرحم، ورب العوالم الأربع. ثم

أضاف الشاهد: اشتهى يوما خيارا في الشتاء، مدّ يده إلى جبل الثلج، توغل في الأعماق، فأخرج منه خيارة خضراء، فيها من الحياة، مثل التي في التربة.

هز سيدي الحلاج رأسه ولم يقل شيئا. كان شوقه إلى ربيع النوروز أعظم. أخرج حامد بن العباس رسالة خط عليها، بحرف عربي مائل ومنمق: من الرحمن الرحيم إلى. . . ثم سأله إذا ما كان الخط له، فقال وكان قلبه مليئا بالنور والصدأ، والأشياء الهلامية التي أفنى عمره يبحث عن تفسير لها ولم يجد لها مسلكا. من وراء نظراته المرهقة، رآهم واحدا واحدا وكان يعرف بعض القضاة منهم. فشعر بمغص الخيبة في قلبه. أعاده حامد بن العباس من هروبه إلى مكان القضاء والمحاكمة.

- لم تجبني. أهذا منك يا أبا محمد؟

- نعم. نعم. نعم. . .

- تقولها بدون حياء ولا خوف من ربك ومن سيدك أمير المؤمنين؟

- إفعل ما تراه صالحا يا مولاي، لقد ثَقُلَت موازني.

قفز الوزير حامد من مكانه، حتى مسَّ رأسه السقف، من شدة انزعاجه من رتابة وهدوء الحلاج ويقينه. نتف الكثير من شعيرات رأسه البيضاء ولحيته بسبب قلقه ورغبته في الانتهاء السريع من حالة كانت كل يوم تكبر قليلا في الشارع.

- يا سارق النبوة ومدعي الإلوهية؟ ألا تخاف من ربك الذي خلقك فسوّاك؟

- لم أفعل في حياتي إلا ما يقربني من ربي الواحد الأوحد.

- تتحداني يا وجه جهنم؟

- لا أتحداك يا مولاي، فقد جابهت من هو أكبر منك. أتحدى قلقي وخوفي فقط.

- تعترف إذن بربوبيتك؟

- ما أدعيت الربوبية، ولكن هذا عين الجمع عندنا نحن الصوفية.

- عادت لك دروشتك. وهل معك أحد على ذلك؟

- نعم. ابن عطاء، أبو محمد الحريري، وحبيبي وقدوتي، أبو بكر الشبلي...

لكنهم أيها الصالح، يا سيدي النينوي، عندما سئلوا والسيف ما يزال يقطر دمه، لم يجدوا أسهل من تكفير الحلاج. السلطان ليس قوة فقط ولكنه خوف دائم من ظل الأشياء المحيطة. كفره الحريري، الشبلي تكوّم داخل نفسه، وظل يسائلها قبل أن يغمض عينيه لكي يقوى على قول ما لم يكن يريد قوله. أما ابن عطاء، صديق الدم والحجارة والموت، تجرأ وقال افهموا! هذا الكلام لا يقوله إلا عالم. وقبل أن يرفع صوته مرة ثانية، جرجروه ووضعوه تحت الأرض، ثم أخرجوه وربطوه بين الأحصنة، سوّطوها فمزقته حتى قبل أن تتم لعنته. بعدها عاد حامد بن العباس إلى سيدي ومولاي الحلاج من جديد، يفتش في عينيه عن سر الحرف الوهاج، الذي يورث اللذة والابتهاج، حتى في أدق اللحظات حسرة وخوفا، لكنه لم يجد إلا بؤبؤين يرنوان باتجاه سماء بدأت تفقد زرقتها، وأسقف أصبحت واطئة أكثر من المعتاد. جيء بابنة الشمري التي قالت: غشيني في الليل، وأجبر ابنتي على السجود له، حين قلت له لا إله إلا الله، قال إله في الأرض وإله في السماء. بقي سيدي الحلاج صامتا حائرا، لم يقل شيئا، ولكنه مسد على لحيته الكثة والبيضاء طويلا. وضع يده اليمنى على صدره ثم على رأسه. قال بتعب وهو في حالة صفائه: أعطوني سطلا أريد أن أتقيا، فإني أرى العفن قد بدأ يمس الحيطان، ويتنفس داخل شقوق الذاكرة الحزينة. أعطوني سطلا، لم يبق بيتي وبين الله إلا خطوة، دعوني أخطوها، أو اختصروها عني، جاءوه بالسطل. تقيأ. غسل وجهه من جديد، ثم أغمض عينيه وبدأ يبحث عن صفاء أحس أنه ضيّعه داخل صعقة الأصوات التي كانت تنادي برجمه.

وأنت يا سيدي النينوي الصوفي! هل تعلم ماذا حدث لمولاي الحلاج. قال في لحظة الغفوة الأخيرة بعد أن سحبته أشواق القوس الثاني، القوس السري، نحو محنها؟

- الدار التي لا ترد المظالم، تستأهل الحرق.

هي بالضبط الجملة التي كانوا ينتظرونه أن يتفوه بها. سرقوها من لسانه بالقوة وجبروت الإرهاق. ثم سألوه للتأكيد:

- هل أنت قائل، الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه ذلك، أفراد في داره بيتا لا يلحقه شيء من النجاسات، ولا يدخله أحد، فإذا حضرت أيام الحج، طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيما ويعمل أجود الطعام يمكنه، وأطعمهم في ذلك البيت وخدمهم بنفسه، فإذا فرغوا كساهم وأعطى كل واحد منهم سبعة دارهم أو ثلاثة دراهم، فإذا فعل ذلك، كان كمن حج أو قام له مقام الحج.

قفز القاضي الناتئ أبو عمرو، من مكانه مذعورا، حتى جحظت عيناه الصغيرتان وكادتا تنفجران من شدة الخوف والدهشة.

- من أين لك بكل هذا الجنون؟

- من كتاب الإخلاص للحسين البصري.

- كذبتَ يا حلال الدم.

- عين الصواب. انزعوا ظلمة أعينكم واقرأوه. الكتاب موجود.

- ثكلتك أمّك.

مرة أخرى، احمرت وجنتا حامد بن العباس وكشر عن أسنان خرمتها صفرة السوس حتى صارت كبقايا عظام الموتى. حك على رأس الوراق بعد أن غمزه، ثم أمره بالكتابة. تزاحم وراقون كثيرون، من يكون له حظ تدوين كلام الوزير ويستفيد من شنشنة الجيوب التي لا تشبع. لكن وضع اليد على رأس أحدهم كان يعني أن هناك حظوة خاصة لأحدهم: أكتب أيها الوراق وسجل عن نعمتنا ما تراه عيناك... دوّن ولا تتردد في قول الحق. الحق الذي نراه ويعمى عنه الآخرون.

كان يا سيدي النينوي، مولاي الحلاج وحيدا. وحيدا مثل الله في عزلته القاسية. حاول أن يصغي للغة النداءات السرية التي لم تكن تحمل إلا الموت، لكن سمع القوس الثاني كان ثقيلا لأن الدنيا كانت قد سلكت مدارات الخوف.

كل شيء مرّ أمامي كالبرق الخاطف، يقول بشير إلمورّو. هل كان سيدي حقيقة أم مجرد لحظة ساطعة صعب كان عليَّ القبض عليها؟ لم أكن معنيا حتى بالسؤال لأن النار التي اشتعلت في أعماقي كانت حقيقية.

ويبدو لي يا سيدي النينوي الصوفي، أنك كنت الحقيقة كلها، التي سطعت أمامي. في عينيك رأيتُ ما رأيتُ. كانت تتراقص فيهما أحلام سيدي الجليل الحلاج، الذي لم يكن بإمكانه إلا أن يقول حقيقته لينعم بربيع النورزة. أرسِلت بعد فرحة الاعتراف، كل الكتابات التي دونها الورّاقون إلى الخليفة. وبعد ثلاثة أيام أُرسل الردّ مصحوبا بالكلمة المعتاد التي تورث عند القارئ خوفا كبيرا: «**نفذ بأمر الله. أضربه ألف سوط حتى يتلف تحت الجلد، وإلا فاضرب عنقه واحتفظ به، واحرق جثته.**»

الليلة مرت طويلة على المقتدر، لأنه كان يعدّ الساعات والدقائق والثواني ويستعجل آخرة الحلاج. تزحلق باتجاه القهرمانة التي كانت ساحته كلما فرغ من شيء. قلبها على بطنها، وحين بدأت تئن، كان قد غاب وسط غيمة سوداء. أراد أن يلمسها، ولكنها كانت قد تسربت من بين أصابعه، أفاعي وجرادا وضفادع وحيات متعددة الأشكال. الغلمان الموجودون لم يكونوا مثيرين في تلك الليلة التي طالت كثيرا، بل أصبحت شبيهة بليالي القيامة.

... وأخرجوه يا سيد العارفين. رأيته مثلما أراك الآن. رأيته في الإغفاءة التي دامت أكثر من أربعة قرون، يجر جسده بصعوبة كبيرة. ثلاثة عشر قيدا، من الرأس إلى العنق إلى اليدين والصدر والبطن والركاب والرجلين والأقدام. كان يحاول أن يستقبل موته بأكبر فرح ممكن، وبأكبر نشوى. كانت الأشجار يا سيدي العالي، تنحني مثل إنسان سرقت منه آخر أفراحه وصرخاته، والحنين يزداد في عينيه. رأى الله ينسحب من وجوه الناس ويحلّ محله الحديد والنار، وتمتلئ العيون بأوار جهنم وصليل السيوف وهي تنزل بسرعة على الأعناق، وتعود إلى أغمادها الحامية لتُستل من جديد. كان البحر يا سيدي النينوي، ينطفئ

عند أقدام المدينة المنتهكة، والسماء تبحث عبثا عن زرقتها، وأتربة الأرض تكومت على نفسها حتى أصبحت حرائق لا حدود لنيرانها التي كانت تأكل كل شيء. لم يبق أمامك يا سيدي النينوي سوى اقتحام أفئدة الناس وشوقهم واختراق أعماق التربة وفضّ عذرية السماء. فقد فعلوا بالحلاج مثلما فعلوا بك. نفذوا القتلة بنفس الطريقة، جرجروه ورموه على الحواف القلقة. كان سيد العارفين والمشتاقين إلى صفاء الدنيا التي ضاعت بين أقدام رعاة القصور والوراقين والقهرمانات وحريم البيوت التي لا تفتح إلا على وجوه المحظوظين. لم يحزن حتى وهو يتأمل الأخشاب القديمة المعدة، والمسامير الخشنة. يقسم بعض من رأوه أنه كان يبتسم في وجه جلاديه ويكرر: أسامحكم إذ يسامحكم الله. كان الشبلي واقفا باستقامة وحزن باد بوضوح على ملامحه المتعبة. الجمع يتأمل المطارق التي كانت تدق على الخشب العتيق وتثبت على رجليه ويديه. ابتسم الحلاج إذ شعر بالنار التي كانت تأكل الشبلي من أحشائه. سأله.

- يا أبا بكر، هل معك سجادتك؟

- بلى يا عمري، موجودة.

- أفرشها لي، وابتعد قليلا.

فعل ما أمره به وكأنه ليكفّر عن ذنبه. وضع الحلاج يديه فوق بعضهما البعض، ثم أصابعه حتى تداخلت محدثة قرقعة مسموعة. ثم بدأ يضغط عليها، ويضحك وهي تزداد حمرة، وسوادا، حتى انفجرت دما، على حد قول بعض القوالين الذين أكدوا أن يديه بالفعل انفجرتا دما أسود مثل القطران، قبل أن يلتفت نحو الحاضرين ويعتذر:

-هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك، اعذرهم يا الله بحبك لي.

ثم أكمل استدارته باتجاه الوجوه الحديدية التي كانت تحوطه. وصرخ بأعلى صوته حتى تغيرت الوجوه، والملامح والألوان. حتى السماء أصبحت في عينيه ترابا وبدأت تتفتت شيئا فشيئا مثل الأجسام

الحائلة. شيء ما في الأعالي، في أقصى الأقاصي كان يتغير ويموت كل يوم قليلا.

- دمي حرام... دمي حرام... وما يحلّ لكم أن تتقاتلوا عليَّ...

خبثوا بصعوبة رعبهم وخوفهم. واصل:

- الله الله... الله الله... الله في دمي.

وأنت يا سيد العشاق، شيخي النينوي الصوفي، كنتَ منهكا ومتعبا. ربطوك بقوة على خشبة الصلب. زممتَ فمك ولم تقل ولا كلمة واحدة، .كانت أحصنتهم وألبستهم السوداء تملأ عينيك، لكن صفاءك قهر ظلمة الليل وظلمة القبر، وظلمة الشوق المحزون. تحملتَ أولا الألف جلدة. جسدك كان هشا، ولكنه ظل شامخا، يكرر لغة الألم والعشق والتيه التي لم تصلهم أبدا.

- أنا الحق... أنا الحق... أنا الحق الأحق.

بانت العظام من كثرة الجلد وانسلخ اللحم، ولم يتوقفوا. قُطِعتْ يدُكَ اليمنى بعد أن فرت الملائكة ذعرا من كتفك الأيمن. ثم بُتِرتْ ساقُكَ اليمنى، ولم تقل شيئا كثيرا، لكن تمتماتك كانت قد زادت بشكل متسارع مثل الجلد. ثم قَطعوا رجلك اليسرى بعد أن كانوا قد بَتروا ذراعك الأيسر. بدأ الحزن يدخلك بألم، لأنك في لحظة من اللحظات شعرتَ كان الله قد خرج مثل الريح البادرة من قلبك وصدرك. صرختَ بأعلى ما تملك من قوة. صوتك أيقظ الأموات جميعا، حتى أنك أبكيتَ الشهداء في قبورهم.

- يا الله. أتسمعني؟! فلماذا تخليتَ عني إذن؟

كان دم المسيح وصرخته الأخيرة، يملآن فمك المشقوق. تنهدتَ عميقا:

- يا الله، كيف لا تلتفت إلى من يؤذي فيك؟

كنت مثل مولاي الحلاج الذي ظل ينزف ستين ربيعا، مات فيها وحيا آلاف المرات. بقي مصلوبا على خشبة. عروقه تدلت حتى مست

الأرض فتوغلت فيها. دمه العطر، منذ ذلك الزمن لم يجف أبدا. وهو ينتفي في عمق الله، بقي في عز صفائه. قبل أن يقول لقاتليه ملء قلبه:

- نورزوني. نورزوني.

ردوا بصوت جماعي كأنهم دُربوا عليه.

- تعذب، حتى يأتي غد آخر. متْ حتى تكون عبرة للآتين.

زاد حنينه للموت. صرخ.

- اختصروا المسافة. لقد أصبح هو أنا، وأصبحتُ أنا هو. قالوا للحضور، أرجموه. أرجموه. من أسال دمه لأول حجرة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن أساله مرتين، بنيت له القصور، ومن أساله ثلاثا، كوفئ بالحور المطهرات. ولهذا لم يتوقف أحد من الحاضرين عند حدود النزف الأول أو الثاني أو الثالث. الطمع حتى فيما هو ملك للمولى؟ آه يا سيدي النينوي الصوفي، لقد قاوم بموته سلطان القتلة. الذي حدث فيما بعد كان غريبا ومدهشا. مرّ عليه الشبلي. كانت دماؤه تملأ فمه وعينيه، ولم يعرفه الشبلي إلا من صوته. كان الظلام قد بدأ يغطي المدينة بعد أن هربت الشمس قبل أوانها.

- أتضحك يا شيخنا من الحجارة التي ترفض أن تختصر مسافتك؟

- لقد وجدت راحتي ومنتهاي، أيها الشبلي. وجدتهما متخفيين في عمق القوس الثاني الذي بدأ يتحقق. قوس المحنة والمبهم. إنه يجنح بي نحوه، لأنه أصبح فيَّ. المسافة بيني وبينه ماتت. انتفت وأصبحنا شيئا واحدا كما في بدء الناموس.

كانت الحجارة قد توقفت. أحنى الشبلي رأسه منكسا عينيه نحو الأرض. ثم سحب وردة حمراء من صدره. وصله بسرعة عبقها وعطرها الذي غلبته رائحة الدم. نظر إليه بعينين دامعتين متشوقتين إلى راحته. وبهدوء رماه بها. فجأة تأوه مولاي الحلاج وأنَّ بقوة حتى سمع جميع من كان هناك حشرجته. ثم بدأ يشهق.

- آه يا سيدي الشبلي، كبيرنا في يوم الفصل. قتلتني... قتلتني يا أحبّ حبيب إذ رميتني بوردة.

- لم أفهمك يا سيدي. رجموك بالحجارة، فما قلت آه، وألقيت عليك بعطر وردة فتألمت منها لدرجة أدمت قلبك.

- يا سيدي ما علمت أن جفاء الحبيب شديد إلى هذه الدرجة.

-كلنا أحبته، لكنها علامات القيامة. جرحك هو علامة العلامات.

- ليتك ما كنتَ وما كانت الوردة. كنتُ اعتبرتك منهم وارتحت منك. ها أنت توقظ جرحي وتعيدني إلى قلبك؟ يااااااه أيها الشبلي؟ ما أحوجني الآن إلى صمتك لأستعيدك كما اشتهيت رؤيتك دوما.

وانسحب الشبلي فجأة واضعا رأسه بين يديه، يخبئ دموعه الفائضة، بينما كان مولاي الحلاج يبلع ريقه بصعوبة كبيرة. تذكر آلام البسطامي ولكنه شعر بالظلم ينزل على وحدته في موته. البسطامي حينما قال أنا الحق. برر الوراقون فعلته: قالها وهو في حالة اصطلام؟ الحلاج أيضا كان في حالة اصطلام، ولكن لا أحد سأله عن رأيه. تمتم وهو لا يعرف إن قال حقا أم توغل في عرفانه:

- ضوء المصباح علم الحقيقة، وحرارته حقيقة الحقيقة والوصول إليه حق الحقيقة.

ثم أضاف لأن هاتفا اخترق قلبه وأشواقه السرية:

- النقطة أصل كل خط، والخط كله نقط مجتمعة. فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلّي الحق من كل ما يُشاهد وتَرائيه عن كل ما يُعاين. ومن هذا قُلت: ما رأيتُ شيئاً إلاّ ورأيتُ اللهَ فيه.

حين عاد الصباح بتثاقل، كان الشبلي قد ابتلعته شوارع المدينة، والناس عادوا إلى حفرهم، في قلب كل واحد منهم سؤال كبير لم يجدوا له مسلكا. صرخ القضاة والوراقون وشهود الزيف، والجلاوزة والمبتورون، لكي ينتهوا من المهزلة: اقطعوا رأسه قبل أن تعود المدينة إلى صدوركم. حملوا سيفا قديما وحزوا رأسه. قبل أن ينسحب النور

من عينيه بثوان قليلة، نظر من أعالي الخشبة التي كان معلقا عليها، فرأى المياه التي انسحبت باتجاه دجلة والفرات، وشوارع المدينة التي أغلقت بإحكام على ساكنيها، رأى خوفا غريبا يرتسم على كل الوجوه. ثم هدأ كل شيء وتحول إلى بياض حليبي بلا حدود ولا أبعاد، يصعب لمسه أو حتى استنشاقه. ثم ساد صمت بلا لون، قبل أن تلمس شفرة السيف رقبته الناعمة.

يا سيد العاشقين، من حق مولاي الحلاج أن يتأوه للورود التي خانت سرك وفرحك، من حقك أنت أيضا أن تبكي من جرح الوردة، وتسخر من جرح الحجارة. من حقك أن ترفض، أن تغمض عنينك جريحا من صمت الشبلي. ومن حق مولاي أن يضع خادمه في عينيه المتعبتين. فقد ظل وفيا لمشاهداته ولمولاه. حين نُغِز خادمه بالهماز في صدره لكي يقول ما يشتهون، قال:

- الحق الحق، ليس هذا. لقد صاحبتُ مولاي الحلاج زمنا طويلا، فما رأيته ذاق من الأدم سوى الملح والخل، ولم ينم الليل أصلا إلا سويعة من النهار.

يا سيدي النينوي، رأيتهم، رأيتهم بالعين التي يأكلها الدود، وكان يجب أن أراهم. حزوا رقبته، وفصلوا رأسه، ثم نصبوه على جسر بغداد، بعدها أرسلوه إلى خراسان. أما الجثة، فقد صب عليها الزيت وأحرقت بالنار. ولما أصبحت رمادا، أُلقي بها من أعلى مئذنة في دجلة. في يوم الثلاثاء ٦ آذار ٩٢٢. وبعضهم قال كلاما كهذا: لقي الحلاج مصرعه مصلوباً بباب خراسان المطل على دجلة، على يدي الوزير حامد ابن العباس، تنفيذاً لأمر الخليفة المقتدر في القرن الرابع الهجري.

وأشهد معك أن رائحة الاحتراق التي ملأت أنفي، هي نفسها الرائحة التي استيقظتُ عليها أول مرة في الكهف. كان جسدي قد تقلص حتى صار كتلة يابسة، واختلطت الدنيا داخل ذاكرتي. الشيء الوحيد الذي كنت متأكدا منه ولم يساورني فيه أي شك، هو أني كنت قادما من غرناطة ولم أكن أعلم أن جحيم ليلة الليالي سيستمر طويلا، طويلا

وخارج كل توقعات رجالات السياسة ومعارف الكبار من أهالي وسكان وراء البحار.

تململتْ دنيا وهي تحاول أن تفتح عينيها لترى أكثر. وتغيب للحظات ثم تعود في لباس شفاف مائل نحو زرقة بحرية شهية.

- مولاي وحبيبي، وقرّة عيني، هل عرفتَ آلام هذا الرجل الذي جاء نحو الشهادة وهو في عز عشقه للحياة. هؤلاء يا مولاي أخطر من قنبلة نووية كنتَ تحلم دائما أن تملكها قبل أن تخاف منها، وتستدعي الذين باعوك إيّاها بالمليارات من الشماليين، وتطلب منهم أن يفككوها ويفجروها لأنهم وعدوك بنزع اسمك من قوائم الإرهاب إن أنت فعلتَ ذلك. بسرعة لبستَ أردية حقوق الإنسان والحفاظ على الجنس البشري من الانقراض لأنهم أقنعوك بملكيك لوسائل الهلاك والدمار الشامل. أينك منهم يا مولاي؟ في حوزتهم ما يفني الأرض مئات المرات.

في كل حركة عفوية أو مقصودة كانت دنيا تظهر بعض خبايا جسدها. تزيدها ألقا والتهابا، نعومة الإنارة وحمرة القطيفة المعلقة على الحيطان التي كانت تعكس ظلالها على جسدها، وعلى وجه الحاكم بأمره صاحب جملكية آرابيا. كان الخوف باديا عليه، ولكنه من حين لآخر، يتحسس مفاتنها المصقولة بإتقان وأنها ما زالت بالقرب منه. يتمتم في أعماقه، داخل فراغات شوقه المدفون في حواسه الميتة:

«- أعرفها جنية لا تشبع من رجل واحد. ابنة الـ. . . المؤكد أن الأيادي التي لمستها قبلي، علمتها كل العادات المجنونة التي فشلتُ فيها أنا. الأحضان الرجولية التي مستها قبلي، تقتلني. لو كنت أملك حق إيقاف اللحظة، في هذه النقطة، لحسمت كل شيء بلا أي تردد. ولكن للحكاية امتدادات، وعلى هذا الامتداد يتوقف جزء من سلطاني، كما قالت دنيازاد. في كل ما تحكيه هناك لمسة قاسية من الحقيقة. لو كنت أستطيع أن أضع الريح في جيبي، ما توانيت، لو كنت أملك حق تغيير لون السماء لسحبتها من عليائها ووضعتها هي الأخرى في جيبي، لو استطعت لسرقت لون السماء والشمس وغزلت مكانهما عشا

للعنكبوت. لكني لا أملك اليوم سوى أذن الإصغاء لأرى في أي طريق ستسير الباخية؟ عليّ أن أعرف النهايات. إنها تعدّل من جلستها بشكل يجعلني أتمنى أن تتم الحكاية بسرعة، لكنها مصرة على حرقي...»

مرة أخرى رفعت دنيا قليلا من لباسها حتى تجاوز الفخذين. بان عريها قليلا. كانت انثناءات الكتان الهندي الشفاف الذي تلبسه يعمق عند الحاكم بأمره هوس اللذة التي استباحتها الحكاية. قالت وهي تحاول أن تستحضر ما سمعت، وما رأت، وما رُوي لها من المدينة:

- سيدي. سيد قلبي. سيد البحر والأرض التي لم تعد سخية كما كنا نعرفها في العصور البائدة. السماء أفلتْ بدل أن تأفل النّجوم، وحلم الزرقة تبخّر. لم تبق إلا النجوم داخل هذا الفراغ المهول. كأن الطبيعة نفسها غيرت دورتها.

صرخ بشير إلمورّو يومها وهو يتأمل مشاهد الموت التي جاء بها سيدنا الخضر، آخر الكذبات المدفونة بين طيات الكتب الصفراء. يا الله يا الله... أينك؟ لماذا تخليتَ عنا يا مولانا؟ كانت صرخة النينوي الصوفي صرخة النهاية عندما خسر الدنيا التي خسرت أشواقه التي كان ينتظرها. قال في حمأة الحزن والشوق الذي لا يجد طريقه للخروج والتجلّي إلا لحظة الألم: يا الله عليك أن تعرفنا مثلما نعرفك، وأن تدركنا حيث لا غيرك يعرف أسرارنا. لم يبق أمامنا سوى اقتحام الجرأة واختراق الأرض وفضّ قدسية السماء الصامتة. هل تعرف يا سيدي وحبيبي النينوي الصوفي ماذا بعد الرماد؟ قال بشير إلمورّو. في لحظة القتل، طلب الحاكم من الطّبري أن يكتب ما رآه. أعاد نجر القلم بعد أن حذف نصف الرواية، ثم دون الخبر في تاريخ الرسل والملوك: ... صُلِب هو وصاحبه ثلاثة أيام، كان يوم ذلك من أوله إلى انتصافه، فينزل بهما، فيؤمر بهما إلى الحبس. حبس مدة طويلة، فافتتن به جماعة منهم نصر القشوري وغيره. وأخرج من الحبس، فقطعت يداه ورجلاه ثم ضرب عنقه وأحرق بالنار. الحكايات، معظم الحكايات، تبدأ بالرواية وتنتهي إلى النصل والهراوة والهروب إلى أقرب

ركن تحت الظلال الباردة. ماذا بقي يا سيدي النينوي سوى كسر قداسة الحكايات التي كان يرويها الحاكم بأمره، حاكم الجملكية عن أجداده. رأيتهم بهذه العين التي لن يأكلها الدود، لأنها لم تقل إلا ما رأته. كانوا يصلبون شيخ النور، كانوا قتلة. يلبسون الأسود. أحضنتهم سوداء. عيونهم مملوءة بالقطران والشوك.

كان بشير إلمورّو، يروي الحكاية ومشاهداته لعلماء المدينة السبعة، الذين كانوا يتتبعونه لحظة لحظة، ورمقا رمقا، وحركة حركة، ويشربون كلماته كلمة كلمة، وفجأة وضع أحد العلماء يده على فمه بهدوء كبير، وقال بتعقل، وبنوع من الخوف. ششششت... ششششت... ششششت... صوتك يا سيدي بشير يسمعه أعداء البحر والزرقة والأنداد. صوتك يصل إلى القتلة. احذر من الصوت العالي. لليل عيون وللحيطان آذان، وللأقدار مسارات يمكننا أن نخاتلها بقليل من الحذر. أعرف يا سيدي. أجاب بشير إلمورّو. مولاي النينوي الصوفي قُتل، حتى قبل أن نلثم خده. كان عظيما، وهو يواجه الموت، أخرجوا معي أيها الحكماء والعلماء، وسترون الحقيقة. الحقيقة التي لا تُرى من القلعة. من هنا لن يبدو إلا ظل الحقيقة الهارب. عيشوا يا سادتي، الخوف في المدينة، ومكابدات الزرقة في البحر، والتيه في رعشة الظلم. صحيح أن القلعة تحميكم، ولكن إذا بقيتم هنا ستلحقكم النار ورائحة الأجساد المحروقة وبعض الخوف المبطن...

لا يدري بشير إلمورّو كيف تجاوز حد الوقار وخرجتْ منه الكلمات سريعة بشكل مخيف ومذهل. تمنّى في اللحظة ذاتها لو ملك طاقة الدنيا كلها، ويبلع لسانه دفعة واحدة. قال في نفسه: من أكون حتى ألومهم؟ رجل أقل من العادي، استيقظ داخل حفرة نام فيها أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون، متوهم حتى النخاع أنه قادم من أندلس سُرقت قبل أن تسقط - يقول الناس، ويقول آخرون - إنه كان مولعا بقراءة كتب التاريخ المنسي، فاندفع ذات مساء باتجاه كهف نام فيه طويلا قبل أن يستيقظ ويجد هؤلاء العلماء/ الحكماء الذين رفعوه عاليا. رجل، مجرد إنسان

مولع بالحلاقي[٢٥] والنط داخل الفارات[٢٦] والأسواق الشعبية التي فقدت ألقها. لسانه هو تهلكته وضياعه كما يقول. لا ينطق إلا بما يفكر فيه. لسانه على النار. ويدرك أنه لا يجب أن يصمت حتى عندما تسكت المدافع، وتخرص المدينة كلها.

الذي أدهشني، يقول بشير إلمورّو، هو أن كلامي لم يثر العلماء كثيرا. تركوا ألبستهم الصوفية البيضاء وتجللوا بالسواد ونزلوا معي باتجاه بيت النينوي الصوفي. إلا واحدا ظل يلبس البياض. كانت الأدخنة ما تزال تتصاعد من بيت النينوي وقافلة سيدنا الخضر كانت قد انسحبت. وجوههم كانت متعرقة، وملامح التعب بادية عليهم، والرماد يملأ ألبستهم. حين اقتربوا من الصليب، أصيبوا بالفجيعة. كان جسد سيدنا النينوي الصوفي قد تفحم. ما يزال الدخان يصعد منه. أطرافه ملتصقة بالصليب الحديدي الذي سجي عليه. اقتربوا منه أكثر. تأكدوا من السلسلة التي يحملها في عنقه وقد ختم عليها وجه العذراء، وفي يدها صغيرها، والنجمة الفاطمية. وبهزة هادئة برؤوسهم أكدوا له أنه هو، في اللحظة نفسها، بدأوا يحفرون قبره بأظافرهم. أردت أن أساعدهم بقطعة حديدية انتزعتها من تحت الصليب، لكنهم رفضوا. تمتم أحدهم: يا بشير، الحديد الذي قتله، لا يحفر قبره بدون أن يترك صدأه على تربته الطيبة. لنا أظافر وأياد ستجرح، بل عليها أن تُدمَى وتبقى فيها خدوش سيدنا النينوي. عندما انتهوا من حفرهم، أنزلوه بهدوء من على الصليب. كانت رائحة الاحتراق والأجساد، والأدخنة تملأ المدينة. نزعوا كل رماد الجثة ووضعوه في بوقال أخضر أحضروه خصيصا. كتب في ورقة لاصقة: **هنا ينام عالم عصره وأضحيته، خاتم المقام، سيدنا النينوي الصوفي بن الفاطمي شذى الروح**. ودفنوا ما تبقى من الجثة

---

(٢٥) جمع حلقة، وهي تعني، في المعنى الشعبي للكلمة، الدائرة البشرية التي تحيط بالراوي القوال أو الحكواتي للاستماع إلى حكاياته.

(٢٦) جمع فارة وتعني المكان أو الساحة التي يروي فيها الحكواتي قصصه.

بعين المكان بعد أن وضعوا على القبر علامة. عندما عدنا إلى القلعة، لم يتكلموا أبدا. صنفوا البوقال الأخضر المملوء برماد سيدنا النينوي مع بقية البوقالات، ثم عادوا ليجلسوا عن جديد كأنهم يبحثون عن نهاية أخرى للحكاية، كان عليَّ أن أرويها لهم. كنت خائفا من أن أكون قد أزعجتهم بكلامي المسطح الذي يجري على لساني بدون ضوابط. أخرجوا كتابا قديما، قالوا للراعي: سجل: اليوم سقط سيدنا النينوي الصوفي بن شذى الروح الفاطمي، سيد عصره ونشيده. صحوة المدينة وشوقها الدائم. حنين البحر ونقاوة الرمل. خضرة الغابة وجمرتها المتقدة. أخرجوه من بيته ولم يأبه بهم. قال لا جناح على ظالم لأن عينيه مكفوفتان. ثم التفتوا نحوي وقالوا: أكمل الرواية كما رأتها عيناك. وكنتُ كلما حاولت أن أتذكر، أكملوا هم بأنفسهم. وعندما كدت أنتهي، فوجئت أنهم كانوا يعرفون من تفاصيل المدينة والموت، ما أدهشني وأخرجني ودفع بي إلى الندم عن كلامي السابق ولومي لهم. لقد أدهشوني ووضعوني في مسار أبجدية كنت أجلها. التفت نحوي كبيرهم، الذي لم يتجلل بالسواد: هو أنت يا سيدنا العظيم، قالها بنوع من الخشوع. لسانك على قلبك، وقلبك في يديك، وبين يديك مسافة من الصدق والشوق، وجمرة الجحيم الحارقة.

ذكرت الحكماء، أن ما رأيته الليلة وعِشْته، سبق أن عذبني منذ أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون والعديد من السنوات الهلالية الزائدة. رأيت الكثير، مما يشبه هذا. رأيته وأنا أحاول أن أغمض عيني على ذاكرة مليئة بالدم والخوف. قالوا بدون أدنى تردد: يا بشير إلمورّو، أنت ما تبقى من صدق الزمن الغابر وهذا الوقت الصعب. كنا نريد أن نرى الحقيقة بعينيك حتى نتأكد من أننا لم نخطئ في تقييمنا للوضع. فيهما صدق لا يخطئ وحنين لا يموت. أنت لا تعرف الكثير مما يحدث في خراب الجملكية، لكنك لا تكذب. تفضل الصمت، صمت الموت على أن تنطق عن الهوى. نحن من أرسل في أثرك الراعي، عندما غادرت القلعة، ثم خرجنا وراءكما باتجاه المدينة، وشاهدنا النار والحرائق، والشوارع كيف

تضيق على ذويها. رأينا ما رأيتَه، كيف حمُل سيدنا النينوي على سنابك الخيل، وكيف عُذب، وكيف أحرقت لحيته وهو يرى بعينيه. حاولنا حمايته ولكنه رفض. قال أنا لا أحمى من ذويَّ وشعبي حتى ولو أخطأ في حقي. كان رجلا حالما ككل الصوفية. كثيرون يا بشير إلمورّو مروا من قبلك وادعوا ما لم تدعه، لكنك الوحيد الذي ترك لقلبه وعينيه سلطان اللغة، لغة الوهج التي لا تعرف لا الموت ولا الكذب. ها أنت تعود، محملا بحقيقتك وربما حقيقتنا جميعا. كنا نعرف أنك ستغامر باتجاه الموت، لكن الراعي كان يحميك حتى من نفسك. ولو كنتَ كذابا، لكان هو أول قاتليك قبل قتلة الحاكم بأمره. كنّا عيونك نحن كذلك، حين ينزل الظلام والخوف. تأكدنا من قبل أن المقتول هو سيدنا النينوي الصوفي وليس غيره، ولم نخرج معك إلا لدفنه، ووضعه في بيته وبوقاله، لأننا ندرك مسبقا أن قبرا تحفره الأظافر لا يخون دم حافرية. في النهاية كنتَ بصفائك وعنفوانك، وكنتَ الحق. كانوا الظلمة المطلقة، وكنتَ النور الذي اخترق الخوف. يا بشير الخير، كل الرعية تعتقد أن سيدنا الخضر هو الذي يحرق ويقتل ويبيد المدن والمداشر. التليفزيون الوطني بكل قنواته المتشابهة، والإذاعات، والصحف اليومية، كلها تقودهم باتجاه تصديق الوهم. مقتنعون أن الحاكم بأمره يفعل ذلك تفاديا لشيوع المنكر والفحشاء والزلازل التي تهز المدن الكبيرة. لو تعلم يا بشير الخير، وأنت حتما سيد العالمين، بيننا وبين سيدنا الخضر قبور مثل حبات الرمل، لا تحصيها عين ولا ذاكرة، نبتت عليها الأعشاب الضارة التي تيبَّست بين شقوق شواهدها القديمة، وقفار الفلوات وخوف طال كثيرا، وذل لا يمحوه إلا دم ساخن وذاكرة مهزومة لا تفنى إلا بعيون الموتى الشهداء. ولهذا فنحن لا نحبه ونجهز كل شيء في صالحنا لأننا نعرف أن الفيضان عندما يأتي سيمسح كل شيء بما في ذلك نحن. الناس تعبوا. يحاربون بموتهم. لا قوة تقف في وجه من يحارب بموته.

تأكدت، يقول بشير إلمورّو، بعد زمن طويل من الحادث الذي أودى بحياة سيدنا النينوي، أنهم كانوا صادقين، وأن الأرض التي بدا

وكأنها انتفت، ستعلن قريبا قيامتها، وأن البحر سيغادر حفرته ويفيض على المدينة ويمسح أطرافها، وربما وسطها من على الخارطة، وأن الشمس لن تعاود إشراقها إلا بعد انتهاء ليلة الليالي، أي بعد العدّ الزمني الجديد الذي يغادر حتما ذاكرة الهزيمة، وينسينا الخسارات التي تتالت حتى أصبحت قانونا قدريا لا يمكن تفاديه.

كسبتهم وربحتهم نهائيا في ذلك اليوم. فقد منحوني حق دخول المدينة، والسير في شوارعها، وممارسة طقوس الحلاقي التي كانت تملأ قلبي في غرناطة مع ماريانا، حليب اللوز المفقود، وتفاح المدن المسحورة، وسرج الخيالة الذين لا ينطفئون على أحصنتهم حتى في لحظة الموت. قال لي أحد الحكماء وهو يعطيني حق لمس حيطان المدينة: الناس لا يحبون إلا من يهز ذاكرتهم الميتة، أمشِ حبيبي كما جئت بحريتك المطلقة. نحن صدرك وحنينك وأنت وسيلتنا لإنقاذ البحر والرعية والذاكرة من التلف. وحين تنغلق الدنيا في وجهك وتريد أن تخرج من المدينة، أخرج منتصرا ولا تتركها للريح سيستبيح عذريتها وصوفيتها وشوقها من يخلفك وهو لا يعرفك.

في ذلك اليوم نفسه، أقسمت في كتاب المدينة الذي تُدون فيه كل الأخبار، أني لن أتخلى عنها ولن أكون محمد الصغير الذي ترك صدورنا مكشوفة، تواجه بالدم والصراخ، المدافع الإيطالية وقهقهات القشتاليات اللواتي خرجن من قصره عاريات لاستقبال الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، وأفرشوا لهما حرير المغرب، وكنوز قرطبة، وفروج غرناطة. وسلم محمد الصغير بيده مفاتيح بوابات المدينة إلى آكليها. سحب المدافع من أيدينا، والسكاكين من جيوبنا ومطابخنا، والدروع والجياد من منازلنا، وقال قاوموا، انتصروا أو موتوا أبطالا، وإذا لم تستطيعوا، أهربوا، فالمدينة ستصبح خرابا والحيطان، والأسقف ستسقط على ساكنيها. الريح القادمة من قشتالة ومملكة أرغون ستكون ساخنة وحارقة مثل جهنم. لقد هزمنا محمد الصغير حتى قبل أن نقاوم. لكن غرناطة التي أعرفها قدمت كل شيء واحتفظت لنفسها بحق الدفاع عن أمواتها وشواهد

قبور عشاقها الأوفياء. قال للقشتالية التي لم تعر كلامه أية أهمية، لن أخرج إلا بشروطي. كان يريد أن يبرئ نفسه أمام تاريخ لم يعد له إلا في جزئه الأخير. ضحكت القشتالية حتى لمعت أسنانها العلوية، العاجية الصافية: لست في موقع إملاء الشروط أيها الملك السعيد، سلم لنا المدينة تسلم. لك المال والحياة والنساء كما وعدناك. فرك يديه ببلادة. ثم قال للقشتالية: سأغادر المدينة مثل الملك، استقبالا وحاشية. ضحكت مرة أخرى ثم هزت رأسها وانسحبت، لأن وقت الجيوش المرابطة على أطراف غرناطة كان ضيقا. طلب مرة ثانية وثالثة أن يستقبلوه كملك وليس كمهزوم. في المحاولة العاشرة بعثوا له شاهده الأوحد على بيع المدينة وتسليم مفاتيحها، غونثالو القرطبي. شرب معه الأنخاب وقال له الطريق الجبلي سالك. أسلم لك يا سيدي أن تتوجه نحوه قبل فوات الأوان. أخرج سالما أنت وأمك وأهلك واترك الدنيا لأصحابها. سلّمَ كلَّ شيء وخَرَجَ حتى قبل الموعد المتفق عليه. لم يكن أهل غرناطة يعلمون بما حدث. حين مسّتهم نيران المدافع الإيطالية ومدافع اللومباردز، استنجدوا بمحمد الصغير، قيل وقتها لأذكاهم، ابحث لك عن مخرج، قائدك باع كل شيء وهرب بجلده كما يفعل كل الجبناء في لحظة سقوط كل ما بنوا عليه كذبتهم. في اللحظة نفسها، كانت الأعلام الأرغونية والقشتالية ترفع على مآذن الحمراء وعلى مداخل البيوت العالية، وعلى القلاع المحيطة. قال الوراقون إن محمد الصغير لم يترك أرضه وشعبه ولكنه خرج فقط ليتضرع في مساجد المدينة، ويسنّ حسام الفاروق لمواجهة الطغيان بيديه، أعوانه في حربه المقدسة الملائكة وجيوش الرحمن. لكن حين فتح الجميع أعينهم على الفجيعة، رأوا آخر سلاطينهم يقف على الهضبة المطلة على المدينة: El ultimo[27] suspiro d'el Moro. ويتحسر حتى بقيت زفرته الأخيرة هناك. لم يستطع أحد محوها من الذاكرة، حتى وهو يدخل إلى أعماق سفينة الهرب، ظلت عائشة، أمّه تذكره بها كلما تأوه:

---

(٢٧) زفرة الموريسكي الأخيرة.

- ابكِ مثل النساء مُلكا مُضاعا. . . لم تُحافظ عليه مثل الرجال.

كانت غرناطة في اللحظة نفسها تدفن موتاها وتتلو أناشيد الحزن الأخيرة. في المساء، بعد حرب كان الموت سيدها، لم تبق إلا الألبسة الموريسكية المزركشة الفارغة من الأجساد، وسكاكين المطابخ التي دافعوا بها عن مدينتهم، والكثير من الرماد الثقيل الذي عجزت الرياح عن بعثرته. وبدل أن يأكلهم الطاعون الأسود، سلموا أجسادهم ودمهم لأصوات المدافع والسكاكين والحجارة الباردة التي كانوا يتوسدونها كلما جرحوا جروحا بليغة وأحسوا بالموت يقترب بخطى متساوية نحوهم.

أقسم بشير إلموزّو للعلماء، بكل غال ونفيس، وبذاكرته المتعبة، أنه لن يسلّم المدينة لحرائق قاتليها، ولن يكون محمد الصغير الذي توقفتْ حياته عند حدود نهاية ليلة الليالي التي غيرت فجأة نظام الأشياء، والرعية التي كانت تبدو خرفانا ناعمة فأصبحت عاصفة. بين ليلة وضحاها انتقل الخوف من الخروف إلى الضبع. وتم شطب محمد الصغير من ذاكرة النور وأعيد إلى مكانه كأي خطأ يرتكب بغباء.

بقي أن أسجل هذه الملاحظة العابرة قبل أن أنسحب مؤقتا، فأنا لم أرتح بسبب طول ليلة الليالي التي لم تنته، أن الحاكم بأمره، وهو يستمع إلى دنيا بانتباه نادر، إذ إن ما كان مجرد مزحة عابرة، أصبح حقيقة مخيفة، شعر برجفة تعلو كل جسده لم يكن له عليها أي سلطان. وعندما أراد أن يصرخ من شدة القلق، سلمته دنيا الكتّانة الحمراء التي كان يرضعها عندما كان صغيرا، فزمّ بها فمه وقال بصوت مخلوط بصوت البارود والقصف الذي لم يكن بعيدا عن السور الذي يحيط بقصر عزيزة:

- يبدو أنّ الخراب بدأ يدكُّ حيطان الدفاع الأخيرة.

- لا يا مولاي لقد أصبح فينا. . .

* * *

الفصل السابع

الكيسُ الأسْود

إلى اليوم لا أفهم سر الموت الذي ظل خفيا. نرفضه ونستسلم له. كل محاولات فهمه وتدجينه باءت بالفشل الذّريع. من الفراعنة حتى اليوم لا يوجد إلا مسلك مليء بحالات الاستسلام التي تمنح لنا الإحساس بأننا سادة الأرض وسادة مصائرنا.

كانت نهاية سيدي ومولاي النينوي الصوفي في تلك الليلة كارثة كان من الصعب عليَّ ابتلاعها. كيف ينتهي النور لأن غبيا في لحظة من اللحظات شاء ذلك. تحتاج البشرية إلى وضع قانون دولي لحماية النور لأن بعده لا توجد إلا سلسلة من الفجوات المظلمة، الواحدة تحيل إلى الأخرى. أمضيت وقتا طويلا أسترجع لحظات استشهاده بشكل متقطع وأقول في خاطري ماذا ربحوا بقتله؟ لم يحمل أي سلاح في حياته. كان يكره الآلات القتالية حتى عندما يراها عند علماء القلعة، يقول إنها أبشع ما أنجبه العقل البشري، لأنها في النهاية تدل دلالة قاطعة على أننا لم نتخط زمن التوحش الأول. بل ربما قذفنا بالبشرية إلى ما قبله.

كنت ممتلئا بمشاهد الموت والظلال التي زاد سوادها في الزوايا الضيّقة. أفتح عيني بصعوبة كبيرة لأرى النور فأشعر بجرح في عيني المنهكتين في العمق. استحضرتُ صورة سيدي النينوي والشيخ العالي مولاي الحلاج. أدركت من آلامي أني بكيت كثيرا في نومي المتقطع، وتأكدت أيضا أني صرخت كثيرا في وادي فارغ، لأني حين حاولت أن أتكلم، كانت الحشرجة تملأ صوتي، فانتهيت إلى الاقتناع بضرورة الصمت والاستماع إلى حركة الدود الذي كان يهزم قلبي من الداخل.

رأيت الناس في المدينة يدفنون موتاهم في ذلك الصباح الهادئ الذي أعقب مرور سيدنا الخضر. ويبحثون عن حرقتهم داخل التربة التي كانت تنهال بسرعة على بقايا الجثث المدفونة حية، أو المحروقة على الصلبان الحديدية. كان الرعب يُقرأ في عيونهم وهي تفتش وراء غياب كل شمس عما يخبئه الغد الذي لا يعرف داخله أحد. فحاكم جملكية آرابيا، كان عجيب المزاج، يتغير بين الثانية والثانية بسرعة مذهلة. كان يقول دوما على شاشات التليفزيون الوطني بقنواته المكررة، مبررا تغيره السريع: المُلك والمَلك يتشابهان. إذا سقطا في الثبات ماتا. يحتاجان إلى حركة دائمة. كان ينام وتحت رأسه كتاب ماكيافيلي: **الأمير أو مُدَوَّنةُ العِبَر**. كان يشعر بصداقة بينهما قبل أن تأتي دنيا في اللحظات الأخيرة وتقنعه بأنه لم يستفد كثيرا من جوهره واعتنق شكله المبتذل، القوة الظاهرة:

- هو كتاب الدنيا يا مولاي وليس كتاب الآخرة. أصغ إليَّ جيدا أقرأ على مسمعك مقتلك الأساسي: يظن الأمير أنه من مصلحته أولا حكم شعب ضعيف، وبائس ولا يقاومه أبدا، ليثبت قوته أمام الآخرين؟ لكن شعبا ضعيفا ليس صمام أمان أبدا، برميل بارود يمكن أن ينفجر في أية لحظة. لقد أخطأت كتابك الذي نام تحت وسادتك طوال حياتك. فقد كان هو مقتلك يا سيدي.

- أشعر أحيانا أنه لولاه لما بقيت كل هذا الزمن في السلطان، ولما عبر لأجدادي كل هذه القرون المتطاحنة بقوة وثبات وعزة، وفي أحيان أخرى أشعر أن القنبلة ليست خارج قصر عزيزة ولكنها تحت وسادتي.

- حفظك الله يا طويل العمر. أنت وأنا نعرف أن كل ما كُتِب من تاريخنا هو كذبة كبيرة. أول حرب عظيمة يمكن أن تقوم، عليها بحرق هذا التاريخ لأنه المعطل الأول والكبير لكل جهد. سيأتي الذين يخترقون الحائط ويبيدوا كل شيء. كل شيء، بما في ذلك كل تماثيلك وتماثيل أجدادك التي تزين المدينة. لهذا عليك أن تحذر من الآن يا مولاي.

- غريب؟ تتكلمين بيقين وكأن ذلك يسعدك؟

- لا يا مولاي. أنا محرقتك وحريقك وحرقتك. سننطفئ مع

بعض، في اللحظة نفسها، أو بفارق زمني بسيط. تخيّل يا مولاي لو حكمتَ بتأويل آخر للكتاب، وحوّلتَ كل نصائحه من موقع رؤية الرعية، ماذا كان سيحدث؟ ماذا لو أظهرتَ مثلا حبك للخير وأكرمتَ كل الذين فتحوا من خلال فنونهم أبوابا جديدة للأمل؟ ماذا لو أعطيتَ حرية لرعيتك لتفعل كل ما يسعدها ويسعد محيطها ولم تضع المسطرة التي تروق ذوقك. ربما لبنيتَ أكبر وأعظم سور يحميك ويحمي رعيتك. كل هذه النصائح موجودة ولكنك قرأتها من موقع الطاغية وليس بدفء العاشق للحرية والحب والخير. تلك هي المقتلة التي لا يقف أمامها أي سور.

- الحكم لا يقبل حالة الضعف وإلا ينتفي كل شيء. لم تكن مدوّنة العبر إلا وسيلتي للذهاب إلى أبعد نقطة ممكنة في السلطان.

- كان بشير إلمورّو في اللحظة نفسها يسحب كتاب الأمير أو مدوّنة العِبَر، باتجاهه. هو أيضا كان بحاجة ماسة إليه لربح الناس الذين جاؤوا به إلى جملكية آرابيا الغاضبة.

كانت حركة الشارع حزينة، لكنها قوية بصبرها.

ظلت حيرة ما تؤرق بشير إلمورّو. كيف تجرأ الحاكم بأمره وعسكره وسيدنا الخضر على صلب الشيخ النينوي الصوفي، وحرقة؟ كان رجلا مسالما، رفض دوما حمل السلاح. طيب القلب، مليئا كان بعزة النفس، وبالتفاصيل الصغيرة التي تستثير حتى دهشة البسيط من الناس. سيدنا الخضر بدأ يتحول إلى سؤال محيّر. من يطرحه ومن يتجرأ للإجابة عنه؟ بل من يملك جواب الأسئلة اليومية التي تظل كلها معلقة؟ تمتم أحد الشيوخ من الملكّفين بقراءة الفاتحة سرا على أرواح الأموات. الله أكبر. أكبر. ما قتلوه. ما صلبوه. ولكن شُبِّه لهم. إنه النينوي الصوفي، شيخنا الأكبر، يا عباد الله؟! من يتجرأ على لمس حتى شعرة في رأسه؟ وفجأة لكزه أحد الذين يمشون وراءه دائما وعنّفه بشيء من القوة: لا تنسَ أيها الشيخ أنك مكلّف بقراءة الفاتحة فقط. الفاتحة فقط. وحتى الفاتحة هي مجرد تسامح وطني معك وليست حقا من الحقوق التي يحفظها دستور البلاد؟! لم يُجِب الشيخ. لم يلتفت. واصل كلامه:

حاشا أن يكون سيدنا الخضر صاحب فعلة القتل المجنون لصحابي جليل. لا يعقل؟ سيدنا النينوي يحرق على الصلبان الحديدية؟ كان الشيخ يتحدث والرجل الظل يسجّل كل الملاحظات والهمسات، ويفككها واحدة واحدة، مثل الشِّفرات. لقد تجاوزتَ حدود الفاتحة المرخّص بها. إنه تحريض ودعوة مفتوحة إلى الإلحاد والانتفاض ضد البلاد. الدموع قد فاضت من عيني الشيخ وهو يكرر وكأنه لم يسمع التحذيرات: ما صلبوه. ما قتلوه، ولكن شُبِّه لهم.

الحكيم، الحاكم بأمره، في ظل الخوف الذي أصبح ذعرا، كان قد أصدر فرمانا خاصا متعلقا بالتجمعات الضيقة أو الموسعة. فقد منع منعا مطلقا اجتماع أكثر من شخصين، ما عدا في الأسواق التي اختصرت في يوم واحد فقط. وإمعانا في الديمقراطية، ونكاية في أعداء الأمة من المغرضين والملحدين المندسين والإرهابيين، فقد أصدر قرارا استثنائيا يسمح فيه للناس بحق التجمع والتجمهر في اليوم الموالي مباشرة لمرور سيدنا الخضر من أجل دفن الموتى، والتسامح مع بعض الذين يقرؤون الفاتحة على قتلى سيدنا الخضر. ثم دمج يوم السوق بيوم التجمهر الموالي لمرور سيدنا الخضر، فصارت إمكانية التداول يوما واحدا. يقول إن الفوضى تضر بالأمة. يؤكد إنها النقطة الوحيدة التي يتفق فيها مع ماركس وإنجلس ولينين في الحرب التي خاضوها ضد الفوضويين. يحتفظ في قصره بصورتين نادرتين لبرودون وباكونين، كتب تحتهما: **الفوضويان المزعجان**. ضرورة حماية الأمم من خراب التفتت. النظام، هو مفتاح الأمان والدوام. الشيخ النينوي لم يحرق. لم يحرق، لقد صعد إلى السماء حتى قبل أن يحرق، وأن المحروق لم يكن سوى أحد الناس العاديين. لم يجد إلا الصليب الفارغ. فكر الشيخ أن يجمع الرماد المتبقي ويضعه في البوقال، ويسلمه لعلماء وحكماء القلعة، لكنه غير فكرته، لأن أمرا مثل هذا لا يمكن أن يمر بسهولة على الحكماء، فهم يقولون دائما، شهداء مدينتنا يجب أن يبقوا للأجيال القادمة. أن يروا كيف يتحول الإنسان العظيم إلى حفنة رماد، لكن داخل هذا الرماد تنام

حياة لا تغفى ولا تستيقظ ولا يدخلها الموت أبدا. بوقال الرماد ذاكرتنا الوحيدة وسط هذا الرعب، هكذا يقولون. حتى عندما تنتابنا لحظة الضعف والخوف من الآتي الغامض، ندخل إلى بيت البوقالات الرمادية الملونة، نبكي قليلا، ثم نعود مشحونين بضرورة الانتصار للخير أو الاحتراق وسط هذه المدينة. الغريب أني في لحظة من اللحظات وأنا أمر على الوجوه الحزينة التي كانت تدفن موتاها، تذكرت شيئا جديدا، وأن الكثير من الخيّالة الذين كانوا يبيدون المدينة والناس، كانت لغاتهم وألسنتهم متعددة. عربية متعددة، عبرية، إنجليزية، إسبانية إيطالية، ألمانية، فلامانية وغيرها مما لم أفهمه، وتذكّرت كذلك ما قاله لي الراعي في زاوية أحد الشوارع الضيقة، وهو يحاول أن يحميني وينبهني إلى أية حركة: بني كلبون يملأون المدينة. هذه السلالة جاءت بمجيء الحملات الشمالية التي غزت المدينة في بداية الأمر، تبحث عن الذهب، والفضة، والفحم الحجري، والنفط، والحديد وأخيرا اليورانيوم فاستعبدوا الناس الطيبين. وعندما خرجوا تحت ضغط الثورات القاسية عادوا من جديد لحماية المدنيين المتضررين من القتلة، فكبت طائراتهم أطناناً من القنابل سقطت على البشر والعمران الجديد والموانئ والمطارات قبل أن يتنافسوا على إعادة بنائها. حتى الوجوه التي تحيط بحاكم الجملكية، هي نفسها الوجوه التي كانت تزرع الموت في قلوب الناس، ولا توحي من ملامحها أبدا أنها وجوه محلية، غابت عنها سمرة البحر وأشواق الأمطار الشاحبة وحرقة الشموس الكثيرة التي تثقب أشعتها أدمغة الناس. كانت وجوها رطبة ولذيذة الملمس.

مشيت طويلا في يوم الدفن أو يوم الحرية الذي تبرك به الحاكم بأمره لرعيته، فرأيت عند بوابة السوق الكبيرة، الواسعة والمليئة بالأتربة وروث الأبقار والدواب، وتحت شجرة عالية ويابسة يقال لها البطمة، وهي شجرة مقدسة، رأيت سيدي عبد الرحمن المجذوب، ينشد أشواقه وأحزانه. كان يغني تارة على صوت الربابة، وتارة أخرى على إيقاعات البانجو. لم يكن مهما ماذا كان يقول، لكن حنين الموت والوجوه

الضائعة، كانت تملأ ذاكرته وقلبه. ينظر بعينيه باتجاه السماء. السماء لم تكن تمطر أبدا، كانت فارغة. بعض الناس يقفون، بعضهم يتأمل المشهد قليلا ثم يمضي. البعض الآخر يلتقي بالمصادفة صديقا قديما. يتحدث معه بسرعة في زاوية الشارع المظلم، بكلمة أو كلمتين، ثم يمضي كل واحد في طريقه. قليلا ما تكون المحاورات المخطوفة حول الأحداث التي تعيشها البلاد. لقد كيَّف الناس حياتهم بحسب الوضع العام. يختزل خطابا سياسيا بكامله في كلمة أو كلمتين بكل الأشواق والضجيج المدفون، حتى أصبح الكثير من الناس ينتظرون بفارغ الصبر مرور سيدنا الخضر لتتاح لهم فسحة الحديث، شرط أن يتفاداهم في انتقاماته المعلنة والخفية. كل من يصبح حيا ينظِّم سجل كلامه السري ليمرره في أول عبور.

كان المنشد ما يزال معتكفا على وجهه، ويبحث داخل التربة عن الوجوه التي كان يمكن أن يعرفها داخل المدينة ولكنها قتلت قبل ذلك. يذكر الحنين الذي سُرِق من الحناجر وهي تبحث داخل هذا الخفاء عن مكان لها تتنفس فيه خارج أحزانها وبؤسها. كان يتعذب عند مدخل السوق الشعبية الواسعة يتلوى ويتأوه. يقبض على صدره، يحاول أن يمزق الألبسة الملتصقة على جلده، ولكن خشونتها لا تُقاوم.

مَهْمُومة يا خَيّ هذه الدُّنْيا مَهْمُومَة،
فيها الأنْفُس ولّتْ مَظْيومَة.
وَلّى ابْن آدَمْ عبّاد اللّوْمَة(٢٨) . . .

اختلط كل شيء حركة غير عادية داخل السوق. الناس مجموعات مجموعات، لا تتجاوز الاثنين في كل لحظة، يتحدثون، أصواتهم لا ترتفع إلا عندما يختلفون. في اليوم بكامله الذي يبدأ على الساعة السادسة صباحا لينتهي في الساعة السادسة مساء. المسافة الوحيدة التي يسترجع فيها الناس الماضي والحاضر في اللحظة نفسها وبسرعة البرق

---

(٢٨) من أغاني ناس الغيوان.

قبل أن تنفتح عليهم عيون العسس. اللحظة الوحيدة التي تربط القلب بالقلب، والصدر بالصدر، وتدفع بالعيون المشدوهة إلى البحث عن منفذ للخلاص من أهوال مدينة، هم أنشأوها بدمائهم، فتنكرت لهم وانتعلت أحذية غيرهم. تخلت عنهم وعن البحر والهواء والشمس.

حين التفت ورائي. كان الراعي يتبعني من بعيد. شعرت بخطواته ورائحته حتى قبل أن أراه. من يدري؟ مفاجآت الطرقات لا تحصى خصوصا في مدينة تصدر فيها القوانين بدون حدود ولا ضوابط. الوجوه الملونة كثيرة، تملأ الطرقات والساحات. يمشون جماعات، جماعات. يسجلون الأسماء، يسألون أحيانا عن ترجمات فورية للأحاديث التي كانت تدور بين الناس. كل شيء كان يدخل ضمن نسق عام ألفته المدينة منذ زمن بعيد، بعيد جدا. منذ دخول بني كلبون وتجاوزهم الحدود المعترف بها دوليا. يقال إن الحاكم بأمره حاكم جملكية آرابيا، هو الذي فتح الأبواب لهم، لدرء المدّ المغرض للجماعات الملحدة التي تزعج راحة البلاد، ألفة عجيبة تسير المدنية. الأزمنة لم تتغير كثيرا. حتى الشرطيان، عندما مرّا بجانبي، اعتبراني إنسانا مثاليا، قرأت ذلك من عيونهم التي تجلت منها ابتسامات فيها الكثير من الراحة والسخرية.

كنتُ الرجل الوحيد، الذي كان يمشي وحيدا. في يوم يُسمح فيه الحديث مع الآخرين، بل بإمكان الإنسان، في سياق الإصلاحات السياسية الجديدة، أن يكوِّن في ذلك اليوم جمعية ذات طابع سياسي بطلب مسبق. على شرط أن لا تتجاوز الجمعية الرجلين أو لمزيد من التدقيق، رجل وامرأتين. إنها شروط العصر والإصلاحات التي علينا أن نقبل بها يقول إداريو الجملكية. وهو ما أكده الحاكم بأمره بنفسه في معظم خطبه المتلفزة التي تُبث مباشرة، وطوال اليوم والليل فقط. التليفزيون بقنواته المتشابهة، أصبح يساير عادات آرابيا الجديدة. كلما حصل شيء في الجملكية، خطب الحاكم بأمره خطابا مطولا يشرح فيه وضعية الأمة. يُلغي المسلسل العربي اليومي والمسلسل التركي المدبلج والفلم الأجنبي، ويوضع مكانهم الخطاب السامي الذي يستمر في الكثير

من الأحيان أكثر من شهر. ويسبق منشط التليفزيون كل حديث بالكلمة المعتادة: نزولا عند رغبة جمهورنا الطيب، ونظرا لتعلقه بأهداب العرش الجملكي، نعيد عليكم بث الخطاب السامي. سأعرف كل هذه التفاصيل بعد زمن ليس بالقصير عندما أصبحت جزءا حيويا من آرابيا، واتخذت قرار الموت داخلها مهما كلفني هذا الاختيار، أو سيكلفني، وفاء لقسمي للحكماء بالدفاع عن المدينة.

الشرطة الموزعة داخل السوق، تكاد تحترمني لتصرفي المثالي. مواطن صالح، لا يريد وجع الرأس. الذي زاد من دهشتي أكثر، هو سيدي عبد الرحمان المجذوب الذي شعرت في لحظة من اللحظات وأنا أستمع إليه، أنه قريب من ذاكرتي التي هزمها محمد الصغير مع أني لم أره إلا مرة واحدة أو مرتين بشكل عابر. الكلّ يعتبرونه مجنونا باستثناء العلماء. ولكني أقسم، برأس هذا البحر الذي لا ينام، وهذا الموج الذي لا يتكسر إلاّ ليعود من جديد، أنه أعقل عقلاء آرابيا.

الشرطة لا تعيره اهتماما كبيرا سواء في الحديقة أو خارجها في الأسواق. مجرد رجل يقول كلاما لا يروق للجميع. يَعْرِضُ سيدي عبد الرحمان المجذوب أمامه مجموعة من الأوراق والأكياس المملوءة بالأعشاب، وكيس أسود لا يفتحه أبدا، وصورة كبيرة لجسم الإنسان،. وكلما تقدم في الحكاية يُخرج من صندوق صغير ثعبانا طويلا يسمّيه سلطان زمانه تارة، وتارة أخرى يناديه بوسكّة أو بومريات أو بوراس. يمدّده على الأرض بحذر. يأخذ البندير. يسخّنه على التنور الصغير الذي كانت جمراته قد بدأت تشتعل. ينقر عدة نقرات. يستجيب البندير بصوت جاف وخال من كل حنين. يعيد تسخينه أكثر. يتغير الإيقاع. يصبح أكثر هدوءا وحنينا مصحوبا برائحة البحر والزعتر البري والجلد المحروق. ثم يخرج سجادة قديمة. يضع عليها آلة البانجو التي كانت مرمية في الزاوية والربابة.

كانت الحلقة تزداد اتساعا، والناس المستمعون له يتكاثرون. يتغامزون ويتهامسون مع بعضهم البعض: خلاص عمي عبد الرحمن

المجذوب لن يوقفه أي سلطان أو أية عاصفة. سيفعلها اليوم. القوالة والفنطازية. يبيع الأعشاب التي يلتقطها من الحديقة، التي يقضي فيها لياليه وبعض نهاره، فهي لا تضر ولا تنفع. متأكد على الأقل من أنها لا تقتل. يبيعها للذين يشتكون من مرض القلب. من صداع الرأس والشقيقة، آلام الأسنان، البطن والأمعاء. المصران الدقيق والغليظ. يرفع صوته عاليا وسط الحلقة: **يا عباد الله. المتأخر ما يلحقش. أجروا يا عباد الله. السلعة قليلة وراح تروح بسرعة. طبيب المساكين. وينك يا المسكين؟ وينك يا المريض؟ وينك يا اللي تحب ترقد مع امرأتك وتكون فحلْ، وما تغطِيهاش ظهرك لتخفي ضعفك؟ مدّ يديك فقط ودِزْ النية. وينَك يا صاحب النيّة؟** ثم يرفع الصورة التي رسم عليها جسد الإنسان وكتب تحتها، بكل بساطة، باللغة الفرنسية l'anatomie du corps humain[29]. لا أحد يكلِف نفسه مشقة القراءة. وإذا توقف الناس قليلا، ينتبهون حتما إلى الدائرة التي خطّها في حدود الحوض، على الرسم. يضع أصبعه في المكان نفسه. يتغامز الناس: **هنا ضعفكم. هنا جهدكم. هزيمتكم. ضعوا هذه الوريقات وهذه الأعشاب في الماء وانتظروا ساعة. وبعدها ادخلوا الفراش. لست مسؤولا إذا بِتُّمْ واقفين حتى الصباح ولا تشبعون. قبل أن تشربوا الأعشاب، أرجوكم أن تتسوكوا، وتتعطروا. الفم الطيب يقرب المرأة من بعلها.** يتضاحك الجميع، وينتظرون أكياس الأعشاب الصغيرة وفي قلوبهم وجل من أن لا يبقى لهم شيء منها. المريض هنا يحتاج إلى كيس واحد؟ خذ. وهنا إلى كيسين؟ تفضل. ثم يصبح كلامه أكثر مباشرة وأكثر عريا، مؤشرا في الصورة إلى قضيب الرجل: **وأما هنا، فثلاثة أكياس، تكفي، كيس رابع يجعل صاحبه مثل التيس. لا أنصحكم. الهياج واعر.** كل الحاضرين يشترون. بعضهم عن قناعة. بعضهم الآخر مجاراة لعمي عبد الرحمن المجذوب وحبا له. بعض ثالث يستفزه: أنا نحب العشب اللي

---

(٢٩) تفاصيل جسد الإنسان.

في الكيس الأسود. ينظر إليه بغضب: سيأتي يوم وأعطيك عشب سلطان زمانه. ما تخافش، لكن قبل ذلك ورّيني شطارتك في فراش زوجتك أو حبيبتك. وبعض رابع يشتري فقط ليستمر المجذوب في إتمام الحكاية التي يبدأها دائما وقليلا ما ينهيها. كثيرا ما يتركهم معلقين إلى الأسبوع الذي يلي أو كما يقول هو: نكمّل لكم الباخية في السوق الجَاي. وعندما يغادر الساحة يقول الذين يعرفونه جيدا، إنه ينزوي في الظل ويبكي معاتبا ثعبانه: يا ابن القاتلة، سيأتي يومك، إنك تنتفخ مثل دابة البحر بسرعة. لن أمهلك حتى تأكل آرابيا، لأن أسنان المدينة بدأت تطول. ودَّعتُ كل من أحب من القوالين وأنت مازلتَ أنتَ، لا شيء فيك تغير، تلازم هذا الصندوق الخشبي الذي سيكون قبرك النهائي؟

يؤشر سيدي عبد الرحمن المجذوب بيديه. يوسِّع من الدائرة التي ضاقت عليه حتى منعته من تنفس الهواء، هواء الأسواق المختلط برائحة الروث، والمشويات، والدواب، والأجساد المتعرّقة. يشدو بحزن: مات معظم أصدقائي أيها الناس الطيبون، وبقيت كما ترونني وحدي. فقط أنا وكلبي قطمير، وحماري الملون وهذا الثعبان الذي ينتظر فرصة الانقضاض عليَّ. ماذا أقول لكم عن الذين سبقونا إلى الشهادة وانسحبوا من هذه الدنيا؟ حرك الثعبان رأسه كأن الحكاية كانت تعنيه. لعب بلسانه، يبحث عن شيء لاصطياده. نقر المجذوب على البندير عدة نقرات. هز سلطان زمانه، أو بومريات كما يسميه، رأسه مرة أخرى، بشكل أكثر عنفا وعدم الرضى. ضحك المجذوب، وهو يحاول أن يستفزه بقضيب صغير كان في يده. آه يا ولد الحرام؟ تلعب على رأس اللي ما يعرفكش؟ أحك كل ما رأيتَه؟ قل الحقيقة قبل أن يقتلك سمك. أرو الحكاية من أولها إلى آخرها. أنت يا ابن العيساوي تعرف أسرار كل المقتولين. تعرف حتى الزوايا المظلمة والصغيرة المؤدية إلى بيوتهم، تقتلهم في لحظة النشوة والحلم. أحك يا ابن العيساوي؟ تقتلهم، وفي الصباح تتأنق وتختبئ في ظل حجرة باردة تراقب الجنازات وجثث الذين اغتيلوا بسمك. الناس بدأوا يشكّون فيه. الآن يا أنت يا نحن، لا خيار

ثالث. إما أن تقتلنا ونستسلم لك، أو نبيدك ونمحو أثرك. أحك يا بوراس، أحك يا بوسكة. تقيأ كل ما تعرفه. قل الحقيقة التي تخافها فلن تقتلك مثل سرك. أعرف أنك تلعننيَ في داخلك ولن تقولها أبدا. يا الحنش القتّال وين تروح من ضحاياك؟ وين تهرب يا صاحبي؟ كل الدنيا تحميك ولا أحد يحميني من سمك. قل الحقيقة. أووووف، لا تقلها، فأنا أعرفها أحسن منك، وسأرويها لكل الخلائق. أرقص. أرقص يا ابن القتلة. أرقص، فأنت الآن يا سلطان زمانه في مملكتي، مملكة الهبل والشطط وبعض الجنون. وغدا سننتهي من الحسابات. دعْنا الآن على الأقل نمشي مع بعض حتى نصل إلى المنعطف الأخير، فهو لم يعد بعيدا، أصبر، أصبر شويه يا صاحبي.

نقر من جديد على البندير عدة ضربات متوالية. شعر سيدي عبد الرحمن المجذوب ببعض الوهن. أخذته الرعدة في البداية من رجليه، حتى وصلت إلى رأسه. فكر في أن يأخذ البانجو أو الربابة. تمتم بخوف ارتسم في عينيه: أنا في حاجة إلى صوت يوقظ فيَّ آلام الموت. لكن ماريوشا تأخرت. ماريوشا والبانجو لا ينفصلان. ماريوشا والرقص الغجري المجنون شيء واحد. نم أيها البانجو الصامت الحزين. نم. ستأتيك صاحبتك. قالت لي عندما سألتها عن سر غيابها: عمي عبد الرحمن سآتي، لا تنشغل. لن أتركك يتيما في السوق. املأ فقط قلبك بالنور. رفع سلطان زمانه رأسه فجأة باتجاه العيون المشدوهة. شعر المجذوب في لحظة من اللحظات أنهم مسوا داخل الثعبان بنظراتهم وأشعروه بالخوف لأول مرة. منذ أن كانت السوق في آرابيا، كان سيدي عبد الرحمن المجذوب وسلطان زمانه. عاد إلى الثعبان الذي بدأ يتهدده برأسه ولسانه. أخرج سيدي عبد الرحمن المجذوب، قطعة من القماش الأخضر وألبسها للثعبان. ثم أخرج بعد ذلك قبعة عسكرية صغيرة جدا ووضعها على رأسه. كان الثعبان يبدو مزهوا باللباس العسكري المطرز، هاه! يا ابن الثعابين هز رأسك، واش بك؟ ها. ها. ها. لقد فهمت. أنت من سلالة القتلة الذين يقتلون وينسون بسرعة فعلتهم. أحك لي

قليلا من أين جئت؟ واش جابك ليَ؟ ضرب عبد الرحمن المجذوب من جديد ضربات متسارعة على البندير الذي سخنه على الجمرات المتبقية. رفع الثعبان رأسه ينتظر شيئا ما. فهمه المجذوب. أخرج من جيبه فارا صغيرا كعادته. أخذه من ذيله. تخبَّط هذا الأخير قليلا في الفراغ. انقض عليه الثعبان حتى قبل أن يرى الناس الذين كانوا يحيطون بالمجذوب ثم التهمه كما هو، لتبرق عيناه بعدها بسعادة غريبة. بدأ يهتز ويحرك رأسه وجسمه المتسرسب على الزربية الحمراء بانتشاء، فازدادت حركة اللباس المطرز كأن الثعبان أصبح راقصة. ارتفعت حناجر الناس بالصرخات والضحكات المتداخلة. دار عبد الرحمن المجذوب عدة دورات متناسقة حول الثعبان بدون أن يكلمه ولكنه كان يستفزه بفرع الزيتون الذي كان في يده. قرب وجهه من وجهه ثم قال بصوت سمعه جميع الحاضرين: قل يا ابن القحبة، ما هو رقمك التسلسلي في سجل العائلة التي التهمت كل رؤوس العباد؟ ضحك الحاضرون، وتمزغ الثعبان ثم تكوم على نفسه. عض على فرع الزيتون مبرزا عن أنياب سامة مثل الإبر. حاول أن يدخل في الصندوق كأنه مل من شتائم سيدي عبد الرحمن المجذوب، لكنه وجده مغلقا. عفوا. . . عفوا يا صاحبي، قال المجذوب. أنت تريد أن تحتفظ بسر أمك التي أقسم الجميع على فضح بطنها أمام أشعة الشمس. فعاد الثعبان من جديد يترنح مع نقرات البندير ويتصيد المجذوب لينقض عليه. وبدأ هذا الأخير ينشد بحزن:

إذا أتَاكَ الزَّمَان بضرّه.

ألْبِسْ له ثَوبا مِنَ الرّضَا،

واشطَحْ للقِرْد فِي مُلكِه.

وَقُلْ يَا حَسْرة عَلى مَا مَضَى. . .

أي ماض يا ابن الثعابين؟ عد إلى صندوقك، فهو يسترك. لقد شارفتَ على ارتكاب حماقة القتل التي لا تحسبها مطلقا. قفز الثعبان بسرعة ثم انسحب من الحلقة باتجاه الصندوق المفتوح هذه المرة. أغلق

عليه بإحكام، وعاد المجذوب يتأمل وجوه الحاضرين الذين كانت قهقهاتهم تملأ المكان.

تضحكون يا المَطَنْزَة[٣٠]؟ أنتم لا تعرفون بومريات أبدا. كان يضحك عليكم! يضحك علينا جميعا بلا استثناء. متيقن من قوة بطشه وينسى أن حياته كلها وحتى جبروته بين أيدينا. لكنه منطق السلطان. منطق الثعبان. يعرف وينسى بسرعة.

قالها المجذوب بحزن كبير، انعكس في بؤبؤ عينيه بشكل واضح.

زاد ضحك الناس أكثر. اعتبروا ذلك مجرد مزحة من مزاح سيدي عبد الرحمن الذي لا ينطق عن الهوى، ولكنه كثيرا ما يحول جدية الدنيا بكاملها إلى عبث وإلى نكتة كبيرة يصوغها من خلال صديقه اللدود، الثعبان بومريات، سلطان زمانه. أخرج بعدها كيسا كبيرا، مليئا بالأكياس الصغيرة. رفعها في السماء. هذا دواؤكم يا عباد الله. الأعشاب الموجودة داخلها صون لجسد الإنسان. وقبل أن يعيد حديثه الدائم عن مفعول الأعشاب في اللحظات الجنسية، الحميمة ومشكلة ضعف النفس كما يسميها، قاطعه أحد الحضور:

- يا عمي عبد الرحمن نعرف الحكاية. أعشابك تداوي ميّت النفس والمتهالك جنسيا. نعطيك ما تريد ولكن لا توقف الحكاية في منتصفها. منذ زمن ونحن ننتظر بقية الباخية التي لم تأتِ؟

- يرحم والديك، تعجبني. فكرة اختصار المسافة يا ابني ضرورة تنم عن ذكاء صاحبها. مضيعة الوقت مشينة. ولكن الوقت لم يأت بعد. كل شيء في وقته لذيذ. لا تسبق الأحداث يا صاحبي وإلا ستخسر حياتك في وقت مبكر. الآتي في الطريق.

ثم التفت نحو الحاضرين من جديد:

- هيا يا عباد الله، حضروا الدراهم. دينار لكل واحد لا يكلف الشيء الكثير.

---

(٣٠) المثير للضحك، الغبي.

ثم بدأ يجول على الناس، أصحاب الأيادي الممدودة التي كانت تمنحه الدينار المطلوب. هاه شكرا. أنت كذلك، الله يكثر خيرك. ثلاثة أكياس لك وحدك، ولكن حاذر على زوجتك أو صاحبتك. وأنت؟ خذ الله يزيد في جهدك. وأنت أربعة، طيب. اضغط عليها في الفراش ولا تدعها تتخلص منك حتى تصرخ بأعلى هبلها وجنونها هههههه... أنت واحدة؟ واحدة فقط يا خايب؟ ماذا ستفعل معها عندما تقول لك ما زلتُ جوعانة. ما عليهش. محركك ضعيف. تضاحك الحاضرون طويلا.

في لحظات وجيزة استطاع أن يستنفد كل الأكياس الصغيرة المليئة بالأعشاب التي كان يقتطفها من حديقة الحيوانات الكبيرة، إلا كيسا واحدا، مغلفا بالسواد ظل محتفظا به. رفض أن يبيعه بالرغم من إلحاح كثير من الحاضرين. خذ يا عمي عبد الرحمن عشرة دنانير، وأعطني الكيس الأسود الله يسترك. هاك يا بابا المجذوب واحتفظ به لي. وعلاش ما تعطيهش لي، أنا أحتاجه. ظل مصرا على رفضه. وعندما سئل لماذا، ضحك كثيرا.

-ههههه... مجذوب ويعرف باب داره. سيأتي يوم هذا الكيس ولكن ليس الآن. إنها مجموعة من الأعشاب السرية. انتقيتها بدقة. لا أريد أن أخطأ في التقييم. سأتركها لصديقي الثعبان في اليوم المشهود، يا أنا، يا هو. واحد فينا عليه أن يترك الطريق للآخر. الدنيا لا تسعنا نحن الاثنين أبدا.

- يا عمي المجذوب الله يسترك. شوية من الكيس الأسود.

- تحبوا تعرفون لماذا لا أعطيكم من الكيس الأسود، طيب.

صاح الجميع بانتشاء:

- نعم يا عمي المجذوب. الله يحفظك من أي مكروه.

أخرج الفار المتبقي من جيبه. كان مدوّخا من شدة الجوع. يحرك رأسه يمينا وشمالا بدون القدرة على الحركة. وضع في فمه قليلا من مسحوق العشب الأسود. تدحرج قليلا ثم يبس في مكانه. اندهش الحاضرون من المنظر الذي يحدث لأول مرة مع سيدي عبد الرحمن

المجذوب. بدأ كل واحد يتحسس الكيس أو الأكياس التي كانت في جيبه. لماذا لا يكون قد أخطأ؟ لا. المجذوب لا يفعلها مطلقا. قلبه عامر بالمحبة والشوق. شعر برعبهم وهو يتأمل وجوههم وتوجسهم الذي نبت فجأة على ملامحهم. قال وهو يضع الفار الميت في كيس أغلقه بإحكام.

- ما تخافوش. لست مجذوب تايوان[٣١]. مجذوب يعرف قلب الدنيا وأسرار النباتات. افتحوا أكياسكم، سأمر عليكم واحدا واحدا وآكل من عندكم لتتأكدوا من صدق ما أقول.

وبدأ يتدحرج من زاوية إلى زاوية، ومن شخص لشخص، يأكل الأعشاب بدون أدنى خوف. بعدها ارتسمت ابتسامات عريضة على محيّا الحاضرين. المجذوب عيساوي، والعيساوة مجانين. الاطمئنان ضرورة.

- هذه الوليمة السوداء مخصصة للثعبان وليست لكم، ليس الآن، ولكن عندما يحين ذلك الزمن، وهو قريب، لا ريب فيه. إني أراه يزحف مع الأمواج القادمة التي لن تتكسر هذه المرة على صخور الشطآن ولكن ستنفجر في القلوب قنابل موقوتة. الثعبان. بوسكة. بومريات. الحنش ولد الحنوشا. سلطان زمانه، عليكم أن تكونوا معي شاهدين أو مشاركين في لحظة النهاية التي يندثر فيها كل شيء، بما فيها نحن.

ثم التفت مرة أخرى إلى البانجو. هاه مازلتَ يتيما، قالها بحزن. تركتك ماريوشا. قالت أنها ستأتي ولكنها نسيت وعدها في غمرة الفوضى التي بدأت تعم آرابيا بعد مقتل سيدنا النينوي، شيخ شيوخ المتصوفة والمجاذيب. دوزن الخيوط، ضرب على الخيط الأول، كانت النغمة العفوية حزينة. شعر بالألم يزحف من قلبه إلى رأسه. كانت الدائرة قد ازدادت اتساعا. رجال الشرطة مروا أكثر من مرتين. في الأولى اختلطوا مع الناس قليلا ثم انصرفوا، ثم عادوا وبقوا منفصلين. تمتم أحدهم لصاحبه: كلها مضيعة للوقت. المجذوب كعادته يستحضر

(٣١) أي مجذوب مزور وغير أصيل.

خراب وأهوال القيامة التي يستعجلها دائما. بقوا قليلا قبل أن ينسحبوا من المكان. ثم واصلوا حركتهم الاعتيادية داخل جوف المدينة التي كان يبدو عليها نوع من القلق. دوزن المجذوب من جديد خيط البانجو، وضرب عليه بأحد أصابعه. شعر بالضيق والحنين يتآلفان. أغمض عينيه. نظر إلى السماء، ثم اندفن في أول غيمة هاربة باتجاه أفق لا لون له، تأوه. وعلاش يا ربي وعلاش... ثم ضرب بيده اليمنى على الأرض حتى صعد الغبار، مدميا أطراف وأصابعه. كانت الدنيا قد بدأت تضيق شيئا فشيئا مثل حذاء قديم. ماريوشا عابت على غير عادتها. خيرٌ، اللهم ما اجعله خيرٌ. ماريوشا حليب الأمومة، وتفاح المجانين ولغة الصوفيين وجنة التائهين. ضرب على الخيط الثالث. بدأ يفتح عينيه شيئا فشيئا. جاءه الشوق دفعه واحدة مثل موجة يتيمة داخل بحر لا يحُد في لحظة التجلي. وقفت الدنيا، عند رجليه، ومع ذلك ظل حزينا. وأنشد خوفه الخفي وفرحه المسروق. ضرب على الخيط الرابع. بدأ الاحتراق يصعد إلى القلب. نظر إلى البحر بحيرة، تلك قبلته. ثم شرب أول رشفة من القهوة. أعاد دوزنة الخيط الرابع من جديد. أتاه الصوت الذي كان يبحث عنه نقيا، نقيا كشمعة، كدمعة ضائعة يذرفها المرء لحظة ما، لا يدري بالضبط لأجل ماذا أو لأجل من. ضغط على الخيط الخامس، شعر بنفس النغمة ونفس الحنين ونفس الرغبة في الندبة والجذبة. تأوه في مكانه: وينك يا ماريوشا؟ اليوم، تأخرت كثيرا على غير العادة. عند ما نحلم بك نشعر أنك ازددت بعدا، وعندما تقتربين نشعر بخوف منك؟ أي سحر تصنعه ذاكرتنا عنك، ماريوشا يا ماريوشا، هَبَّلْتِ الجبال والبحارة، يشتاق إليك العاقل والمجنون. حين تأتين، أمنحك خيطا للحزن والجنون، حين تغيبين، أمنحك كل الخيوط التي توجع القلب. الأشواق لم تعد تسع أشواقي وأحزاني وقلبي. آه يا ماريوشا يا شهد النحل الخلوي وحليب العذارى، هل نحن الذين تغيرنا، أم أن الدنيا هي التي تغيرت بدون أن ننتبه لذلك؟ هل نحن الذين غادرنا البلاد، أم البلاد هي التي غادرتنا بعد أن غدرت بنا؟ لا أريد إلا صوتك وحضورك.

تصوّري وأنا في الحديقة، لا أسمع إلا لك. أخرج الكاسيت، وأبدا في الاستماع إلى بكائك. صحيح أن الشريط قديم ولكنه رائع. حتى الشرطة لا تعيره ولا تعيرني أهمية كبيرة، عندما تخترق الحديقة، يتغامز الشرطيان اللذان تعودت عليهما: لا أحد سوى المجذوب، يستحضر صوت ماريوشا الهبيلة. أعرف يا ابنتي أنك لست لي، ولكن للآتي الذي تأخر كثيرا. أنت للرجل الذي وضع البحر في جيبه ثم غادر الدنيا والمدينة. أنت للذي لا يعرف لا الموت ولا النوم. أنت للذي وعدت الكتب والأجرام والقوافل القديمة أنه سيأتي من وراء أسرار البحر والغيم. أنت للذي يفهم سرك ولغتك التي لا تخبو على لسانك. أنتِ... أنتِ كل ما يربطني بهذه الدنيا القلقة.

ثم وضع رأسه بين يديه، وبدأ يحركه بشكل طقوسي وجنائزي. الدموع كانت قد سبقته، ووجهه أصبح مبتلا وأصفر مثل قشرة ليمون، مثل هذا اليوم الذي صعد مباشرة، بدون فجر، مثل شمس خريفية مريضة.

بان له الحضور عندما حاول أن يفتح عينيه بصعوبة كبيرة، مجرد ألوان باهتة وسط كورس جنائزي واسع يتقدّمه هو بنشيده الجريح: أنتِ يا ماريوشا، أم القلوب التي لم يدخلها نشيد الموت. حين يعود خويا حمو من الحروب المقدسة، لا تغطيني بالزربية، أريد أن أرى وجهه تحت المطر. جراحه غائرة، وعظيم من يستطيع التبرك بها؟ جرح الشهيد كرامة يا ابنة روحي. ماريوشا لو تدرين؟ لكنك صغيرة على الدنيا.

دوزن بشدة الخيط الخامس، جاءه الأنين رقيقا، رقيقا مثل الفجر الذي فاجأ العاشق وهو ما يزال غارقا في جسد حبيبته، يرضع شفتيها وحلمتي نهديها. جاءته الجزر الواسعة وهي تستسلم للأمواج العاتية. جاءته الموجة تلو الموجة، فتكسرت عند رجليه حيث كان يقف على حافة صخور الشط الكبيرة، جاءته الأشجار الساحلية، ثم انسحبت وحيدة عندما فشلت في مقاومة أشواقه. ثم فجأة جاءه البحر بكله دفعة واحدة بشكل عاصف. أحك أيها البحر، كان عدد الرشفات قد ازداد

بدون حساب. أحك كل ما تعرفه عن الناس الذين لم تتح لهم فرصة الكلمات الأخيرة، لأن الموت كان أسبق. دوّن يا سيدي البحر ما لم يدونه الوراقون وكتاب الدواوين. كن وجه العاشقين والأخيار. إنك ذاكرة من سيتعل حزنه ويغرق في قلبك وموجك.

خرج نشيده مبحوحا من شدة الألم والانكسار:

هي أنت يا سيدة الشطان والبحر.

يا ذاكرة العاشقين.

هي أنت يا سيدة الأوفياء الذين لبسوا ملحك.

ثم قام سيدي عبد الرحمن المجذوب من مكانه بهدوء، وفتح يديه على آخرهما في شكل صليبي ممتد. شعَّ نور أبيض ناصع على وجهه كأنه المسيح المصلوب، على مرأى من العيون المشدوهة في حركات القوال.

سمعت عنه الكثير في المدينة وفي القلعة، يقول بشير إلموزّو، لكني عندما واجهته، وجدت سحر غرناطة يسبح في عينيه. رأيت حي البيازين وصرخات أطفاله. شعرت كأنه هو أيضا جاء من الأزمنة الغابرة التي هزمته قبل أن يفتح قلبه وذاكرته. كان الحاضرون معلقين على شفتيه اللتين ستنفتحان على الدم الذي ساح في الساحات وفي الكوابيس المتعاقبة. حتى قبل أن يقول أية كلمة، كانت الوشوشة قد اخترقت الصمت الحزين، لتتحول إلى كلام مسموع:

- سيدنا قلبنا معك. أحك. نعرف أنك توقفت عند حدود البحر هو يقذف عند رجليك بأشيائه الحزينة. قلوبنا معك. لا نريد شيئا آخر سوى سماع نداءاتك. أحك يا سيدي عبد الرحمن الرحيم. في سحر حكاياتك، البحر ليس بحرا، والدابة ليست دابة والبلاد التي تسرق ويدلل بها في الأسواق ليست بلادا. أحك وأنفخ يا سيد العارفين. أنفخ في السور، يأتيك الناس مثل الضباب.

تأمل المجذوب وجوه المحيطين به. شيء ما فيها لم يكن طبيعيا. منذ مدة وهو يلاحظ هذه التحولات التي كانت ترتسم على الملامح.

كانت متعبة على الرغم من اللمعة التي كانت تشع فيها من حين لآخر. فجأة، رفع عقيرته بأعلى ما يمكن، حتى ارتدت الأصداء إلى قلوب الحاضرين.

يا البحر يا لهبيل داويني بملحك نبرا.
حبيت نبكي في قلبك، وأنا في سكرة،
وحبيبي ضاع، والدنيا صَبْحَتْ مُرَّة. . .

انطلق في حالة جذبة طالت للحظات. جاب كل الأبجديات المتقدة التي لا تسكن شعلتها الأشواق الميتة والوجوه الهاربة التي أكلتها العواصف. كانت الأزمنة الهاربة تعود شيئا فشيئا إلى التدفق، غامضة ثم واضحة الواحدة تلو الأخرى.

- لم يأكله البحر ولكن البحر هو الذي أكل نفسه. . . حين انزلق من السفينة. . .

- إيه؟ من بعد يا سيدي عبد الرحمن الله يحفظك؟ قل، تعبنا من الانتظار. ماذا وقع للموريسكي بعد ذلك؟ هل مات؟

قال أحد الحضور، ثم انكفأ على وجهه داخل جلبابه الخشن.

- يااااااه يا وليدي لو فقط كنت أعرف؟ كانت السفينة كبيرة. . كانوا يسمونها في ذلك الزمان الأرمادة. حين انزلق أو أجبر على الانزلاق داخلها، كانت رغوة الشوق إلى الضفة الأخرى ما تزال تملأ عينيه. كان الموج قد نزل حتى استوى مع صفحة البحر مثل مرآة مصقولة بماء الذهب والياقوت، جسدها معشق بالأحجار الكريمة والزجاج الملون، نصفها حورية والنصف الآخر جان. حين رأته لم تسأله لا عن شوقه ولا عن خوفه ولا عن وجه الله الذي تخلى عنه بين موجتين مذعورتين. حملته على ظهرها مغمى عليه، الزبد والموج يملئان فمه وعينيه وجزءا كبيرا من جسمه. الروح تدخل وتخرج. كان يتنفس آخر لحظاته، لكنه كان يحب الحياة كثيرا. قبل أن يغمض صدره ويضيق للمرة الأخيرة، رشق عينيه في النور الذي كان يحيط به. ملأهما بالشمس والهواء والبرد

الشتوي والأمواج المذعورة وبقايا سفينة القرصان الإيطالي التي كانت تغيب مثل النقطة داخل البحر الواسع. ثم انكفأ على فمه، وملأ عينيه مرة أخرى داخل زرقة الخوف، بوجه ماريانا وهي تحاول أن تسترجع دمعات مستعصية على مرأى من شاطئ مهجور. لكن السمكة كانت هناك، نقلته إلى أعماق البحر. حين فتح عينيه داخل الماء والألوان البرتقالية، قبلته بعشق ثم وضعته تحت سارية سفينة مسافرة باتجاه أفق قريب. كانت أيها السادة، تخاف من أن تسقط في حبه وتحترق، وتحرقه معها. لا هو قادر على البقاء وسط أدغال البحر، ولا هي قادرة على البقاء على السواحل والنخيل. حين استيقظ وجد نفسه بين وجوه تلبس الفراغ والسواد على حافة البحر. قالوا جانٌ؟ ردَّ، مجرد إنسان، منكم ومثلكم. قالوا ساحر أم جاسوس، قال لا هذا ولا ذاك، قالوا ذاك. قال اسمحوا لي أن أقص عليكم قصتي؟ لم ينتبهوا إلى أشواقه وحنينه إلى البحر المنسي. أصرّ من جديد: أسمحوا لي، ربما فهمتم بأني واحد من هذه البلاد التي شقت تربتها الحملات الشمالية. ظل يحاول إقناعهم، وظلوا مصرين على اتهامه بالجاسوسية لصالح السفن الإسبانية،. هو يحكي وهم يصرون على تكميمه. وظل كذلك.

كانت دهشة بشير إلموزّو صاعقة، مما كان يسمعه. شعر بدوار غريب لم يشعر به منذ زمن بعيد. لم يعد يفهم ما كان يدور حوله. فقد بدأت المادة الهلامية تغطي عينيه كليا في شكل ضبابة قاهرة. خيط الشك كان قد انسحب باتجاه تلافيف الدماغ. خيط من الخوف والذعر والدهشة. هذا جزء آخر من لعبة هذه البلاد التي لا تعطيك ذاكرتها وقلبها بسهولة ودفعة واحدة. وكان سيدي عبد الرحمن المجذوب صامتا وحائرا في اللغة التي انسحبت منه فجأة: كيف يواصل وماذا يقول؟ منذ مدة وهو يدور في الفكرة نفسها. لم يجد مسارا جديدا للحكاية. تدخل أحد الحضور ليخفف من ضيمه:

– قلبنا معك يا سيدي عبد الرحمن المجذوب. نعرف شططك أيها الصادق الأمين. قل لنا فقط ماذا وقع بعد ذلك؟

- ماذا وقع؟ تلك هي المعضلة. تريد أن تعرف البقية. . . ضع حزامك على بطنك وتأمل النجمة المنسحبة من عيون آرابيا المنهكة. كانت وجوههم مثل صفائح الحديد حين يعلوها الصدأ.لم يقل الموري الأندلسي شيئا، لكن الخيبة كانت قد أصبحت حقيقة، والشوق تحول إلى رغوة وإلي زبد على طرفي الشفتين. كان ممتلئا بالخوف والزغاريد. لكن الزغرودة الأخيرة ماتت عند تخوم الضربة الأولى التي ارتسمت بدمها الفائر على صدره. صرخوا بوقاحة: احك يا ابن الزانية، احك، أيها الجاسوس القشتالي، أحك لماذا أنت هنا؟ من أرسلك لتأخذ أخبار سفننا. بلع الموري ريقه بصعوبة. أراد أن ينظر إلى السماء، لكنه شعر بأنها تركته وحيدا أكثر من مرة يواجه الخوف والموت الذي لم يختره. التفت وراءه. كان موسى بن نصير قد غاب بالسفن في أعماق البحر هاربا من رياح الشمال العاصفة. الحيطان الأربعة التي كانت تحيط به من كل جانب، انغلقت على ذاتها بقوة. دارت عيناه بحزن. استعصت دمعات الغبن واليأس في قلبه. مدّ شاهده عميقا إلى حلقه ثم تقيأ. وعض بكل قوة على ذراعه حتى تجمع الدم بين أسنانه. يقال أن اللدغة كانت مسمومة. يقول أوائل القوالين الذين احتلوا الساحات في زمن متقدم، إنه لم يمت، ولكن أيادي ناعمة دفنته بين أشواقها حتى لا يمثّل جنود الخوف والصدأ والنحاس بجثته المتعبة. شيء واحد ظل عالقا بين عينيه قبل أن تمسسهما تربة الموت، وجهها المضيء، الذي يتحول إلى نجمة، أو إلى ألق، كلما كان الحزن عظيما. لست أدري هل كانت هي حبيبة، عشيقة، أو وطنا مسروقا؟ هل كانت حبا هادئا، أم قلبا مزقه الشوق والحنين؟ قالت له ذات مرة، وهي تلمّ شالها الغجري المطرز والملون بألف لون، وتثبت الوردة على طرف شعرها الذي تحيل أشعة الشمس سواده إلى زرقة مدهشة: مهبولي ومجنوني، قل لي، هل تحبني؟ قال بلا أدنى تفكير: وهل لي غيرك في خراب هذه المدن التي أفقدتنا لغتنا وحنينا الدفين؟ أحبك ماريانا. قالت مع ضحكة لمع معها صفاء أسنانها البيضاء: وقداش تحبني؟ قداش؟ قال وهو يقبل جبهتها:

أحبك قد[٣٢] الدنيا وما فيها. قد البحر وأمواجه الناهضة من أرحامه الحزينة. قد مرمى العين، حين ترى العين بالقلب والذاكرة التي لا تلين. قد رهافة جسدك وأنت تقفزين وراء الفراشات الملونة وعمرك زهرة بألف لون. قد حزني، عندما أواجه به الوحدة والقفر، مع إله يبحث عن شريك. قد الدنيا وأسرارها. قد اللي ما له قد، الله. قالت وهي عز انتشائها: عمري، حبّني قدر ما تستطيع، فأنا لن أكون إلا لك حتى وأنا نائمة بجانبه أو بجانب غيره في نفس الفراش. يروي الرواة الأوائل الذين سلموني سحر الحكاية، الذين مسحت أعينهم كل الحارات الفقيرة، أن ماريانا حبيبة سيدي الموري الأندلسي، كانت متزوجة من غجري مجرم، تعشق الورد والألبسة المزركشة، وعيون حبيبها الذي نسي مدينته ولم يعد يتذكر إلا ألَميريا، مدينة البحر، والزرقة والأفق البعيد. تلك حكاية أخرى يا سادة يا كرام، هي الآن أمامي. أسمعها بحزنها وأنينها الخفي، مثلما يأتيني صوت البحر وحشرجته وتكسر موجه على الصخور الرومانية القديمة. زرقة عينيها، شعرها الغجري، ملامحها الدافئة والطرية، يداها اللتان لا تتوقفان عن الحركة. كل ما فيها يوحي بأنها ابنة البحر المنسي، على أطراف مدينتها. كانت ألَميريا في ذلك الزمن البعيد، البعيد جدا، والقريب من جرح الذاكرة، مدينة للغجر العشاق. ظلت عالقة في حلق سيدي الموري كاللوزة المرة، كحبة الفرح، متدلية كعنقود عنب يتفقدها بعينيه وقلبه، وحين يتذكر أنها لم تكن إلا حلما طارئا يحزن كثيرا ويغرق في حنين لا شيء يرجعه منه إلا إغفاءة تفتح أمامه كل الأشواق. كان سيدي الموري عاشقا بكل حواسه، وكانت لالة ماريانا بحره العظيم.

زادت دهشة بشير إلموزّو أكثر مما كان يسمعه. كان قلبه متورما. وضَع يده اليمنى على فمه وهو يرى سيدي عبد الرحمن المجذوب يبكي بأعلى صوته، كمن يدخل لحظة الموت الخاطف. لم يفهم ما كان يحدث أمام عينيه. فقد كان يرى نشيده وخوفه أمام عينيه. تذكر بشير

---

(٣٢) يقصد بها الكمّ، أي قدْر.

إلمورّو نصائح الراعي وبعض العلماء الذين نبهوه مما قد يسمعه، ولكنه لم يكن يتصور أن قصته وصلت إلى كل هذا الحد من التفاصيل التي يكاد بعضها يغيب عنه هو نفسه. من جاء بنداءاته الداخلية حتى هذا المكان؟ تساءل وهو يحاول أن لا يصدق كل ما كان يدور أمامه. قال له العلماء، إنه سيسمع الكثير من الحكايات عنه، عليه أن يتحلّى بالصبر. فالناس في النهاية يحبونه كثيرا وينتظرون عودته بملء الصبر. في عودته سلام آرابيا حتى ولو تسبب في حرقها، فالنار التي أثاروها تتجاوز فرحته وخوفه، لا خيار لديه سوى أن يكتوي بأوارها. ولهذا أكدوا له أنه عليه أن يمشي وراء ذاكرته حتى التهلكة وأن لا يتوقف بسبب خوف أو حساب أو منع. فهو في النهاية ليس ملك نفسه وذويه ومن يحب فقط.

- ومن بعد، ماذا حدث يا سيدنا المجذوب؟

تساءل أحد الحاضرين بالكثير من القلق.

- لا شيء. لا شيء يا عمري. حدث الذي كان يحب أن يحدث فقط. أهم ما في الرواية هو أن المشكلة كانت أكبر من سيدي الموري نفسه ومن فهمه، لأن الحقيقة، كما يُروى، والعهدة على من وضع الكلام على ألسنتنا، تبدأ من اللحظة التي تأخذه فيها إحدى السفن بعيدا، بعيدا على أطراف المدينة. حتى الذين اتهموه فيما بعد بالجاسوسية كانوا كذابين وسفلة. بعضهم الآخر ممن استجوبه في الحفرة، سفهه. قالوا له، أنت لا شيء. أنت مجرد صناعة. أنت إنسان بسيط من جملكية آرابيا التي ابتلعتها ذاكرتك المتعبة. قرأت كتبا كثيرة عن الموريسكيين، أجدادك، وحين داهمتك أمطار غزيرة، وصوت البحر الذي كنت تظلل تحت زرقته، اختبأت في مغارة قريبة من قلعة العلماء السبعة، ومع الزمن أقنعوك، وحْولوك إلى شيء أنت نفسك لا تعرفه. كنتَ بسيطا. أحد أجدادك يقال إنه من الموريسكيين، فمن أدخل في جلدك أنك منقذ هذه الأكوان، وهذه المدن المتهالكة؟ نحن نعرف ذلك، قالها له أصدقاء الحاكم بأمره، القادمين من هدير بحر الشمال بعد ذاك بزمن بعيد.

- سيدي عبد الرحمن لا يمل من التخريف. يجرك من أنفك حتى

يكاد يدخلك في الحقيقة وبعدها يرميك في عمق الخرافة. المجذوب بدأ يضيع عقله.

- سيدي المجذوب هو الصدق عينه، وتحتاج إلى زمن آخر لتدرك السر الذي يتخفى وراء سحر سيدي المجذوب.

رد شخص ثان بعنف على صاحبه الذي ظل مصرا على أن ما يحكيه سيدي عبد الرحمن هو من أساطير الأولين التي يعرفها وهو طفل.

- إنما هي قصص تحكى عن سير الأولين، محشوة بخيال سيدي المجذوب الذي نحبه ولا نريد أن نحمله ما لا طاقة له به.

- هي الحياة عينها يا صاحبي. لو فقط كنت تعرف أن الحكاية محت بسحرها وعنفوانها، كذب التاريخ وبهتانه. أكمل الباخية يا سيدي المجذوب، الله ينصرك.

التفت المجذوب مرة أخرى تجاه الحاضرين الذين ظلت عيونهم جاحظة في انتظار ما خفي من السيرة الكبيرة. مسح عينيه من ثقل نزل عليهما.

- حينما تأملوه جيدا، أكدوا على تهمة الجاسوسية. أدخلوه إلى مغارة مليئة بالنتانة، ورائحة البول، والجثث المتفسخة، والأشواق الذبيحة، ومياه البحر المتسربة من بين شقوق الحيطان والقنوات المكسورة. كانت المغارة كانت ضيقة مثل يوم الحشر. يعطي موقعها الانطباع، وكأنها شيدت تحت البحر. هذا ما شعر به سيدي الموري الأندلسي وهو يعيش قيامته الثانية. في لحظات الخلوة والمكاشفة، خيل له، أن الحجرة المربعة التي كان فيها، بدأت حيطاتها تضيق عليه باستمرار. كان ضجيج فراغها يختلط بأصوات الأمواج المتكسرة التي لم يكن يعلم هل كانت تأتي من البحر المحاذي أم من رأسه المثقل بأمواجه القلقة والعاصفة. عندما أحتج سيدي الموري عند أحد المسؤولين على أنه مظلوم من رأسه حتى قدميه، لم يلتفت نحوه وكأنه لم يكن معنيا به أو لم يسمعه أصلا. شاع خبر أزعجه أغلق في وجهه إمكانات الخروج، ومفاده أن السفن الإسبانية تتهيأ لغزو البحر، من أجل إنقاذه من سلطان

الأتراك وبطشهم. سحبوه إلى الداخل، إلى أعماق الدهاليز، إلى مكان لا يتذكر منه إلا اسمه: الصراط المستقيم. ويتذكّر أنه قبل أن يصل إلى منتهاه، قطعوا به أنفاقا لا تحصى ومنعرجات مظلمة كأيام الحشر. فكّر في الهرب، لكنه في الأخير تأكد من أنه لن يذهب بعيدا. حتى ولو غاب كلّ الحراس داخل هذه المتاهة، التي لا يسمع فيها أصوتا كثيرة، ولا يرى فيها شيئا. قال الصراط المستقيم ولا التيه القاتل، فأنا إن خرجت من هنا، سأظل أدور ولن أعود إلى مكاني الأول وسأموت بين الغيران والدهاليز التي لا حدود لها ولتداخلاتها. على الأقل، حتى في لحظة اليأس، يمتلك الإنسان حق اختيار موته، ولن يسلم في نفسه بسهولة للتيه. كل هذا القلق لم يؤلمه، بل زاده إصرارا على الحياة. الذي عمق الجرح في قلبه هو أنه أدرك متأخرا، أن محاكم التفتيش التي هرب منها هي نفسها التي قادته باتجاه الدهاليز والأنفاق والموت. وأن الحنين الذي ساقه إلى هذه البلاد كان حنينا مهزوما. وأن الفرحة لم تكن إلا وهما هاربا. تساءل بحسرة ماذا لو بقي في بلاد اللوز والتفاح، والأشجار العملاقة وحليب النهر المشقوق ورغوة الشوق، ولم يجبر على ترك تربته التي لم يكن يعرف غيرها؟ وضعوه في الظلمة وقاتلوه بالتَّعذيب والنار. كانت عيونهم تتقد حقدا وضغينة. وكان سيدي الموري هو كبش الفداء لتخبئة هزائمهم المتوالية أمام الأساطيل الأيبيرية. في لحظة العزلة والخوف واليأس، تذكر الزمن الذي ظل يشتعل في داخله. كان كل شيء ينبئ بجرح لن يندمل أبدا، بل ستزداد عفونته عبر الزمن القاسي. لم يكن الاحتفال دينيا إلا في مظهره، في الجوهر، كانت تلك النيران التي وصلت أدخنتها وألسنتها حتى السماء تشتعل في أجساد ثلاثة وسبعين أندلسيا. كان ذلك في اليوم الأول، من الشهر الخامس، من سنة ١٧٦٩. ألحقوا بهم خمسة وأربعين مسلما، وفي الشهر الحادي عشر أضافوا ثمانية وعشرين آخرين من اليهود والمسلمين. أحرقوهم أحياء بعد أن شوّهوا أجسادهم. ظنوا بفعلهم أنهم كانوا يمسحون المدن من الهرطقة. يتذكر سيدي الموري الأندلسي أنه يومها تخلت السماء عن

زرقتها، وانسحبت وسط أقرب غيمة باتجاه الألوان المفقودة. الله لم يعد الله يومها، والشمس لم تعد شمسا. الأرض تسطحت وأصبحت مثل الصفيحة الخرساء. أينما تحركت، تبعتك العيون القاتلة حتى النهاية.

عاود سيدي عبد الرحمن المجذوب الالتفات نحو الناس. لم يكن يبدو عليهم أي تعب، بل أن عيونهم ظلت مثبتة في كل حركاته وشفتيه.

- أما تَعِبْتُم من الوقوف وانتظار نهاية الباخية؟

- مازلنا هنا، وقلوبنا كلها معك ومع سيدي البشير، ورهن إشارتك.

- آه يا أحبابي، طريق الباخية طويل جدا. العذاب في القلب يزداد تصلبا وحرارة. لكن الجد الأول أوصاني أن لا أحكي إلا لمن يسمعني. ولا أحكي له إلا ما يحسّ أن منبعه القلب والذاكرة الحية.

- نحن نسمعك. نسمعك بكل حواسنا.

- أفصح يا شيخنا... أفصح... نريد النهاية.

صاح أحد الحضور، وكأنه كان ينتظر أفقا آخر للحكاية، من فم سيدي المجذوب الذي لا ينطق عن الهوى. نهاية طال مجيئها. كلما اقتربت ضبّبها عبد الرحمن وأجّلها إلى وقت غير معلوم.

- أية نهاية أيها المسكين؟ ألا تدري أننا عندما ننتهي نحمل أثقالنا وننسحب من الساحة، وأنا لا أريد أن أنسحب من مكان ملكته بالمثابرة والمكابدة والصبر. لا نهاية لما يُقال، إلا عندما تتبادل السماء والأرض مواقعهما. كانوا يريدون إبادته، لكن حنينه الحي وضعهم على حواف الموت والنهاية. بل هو من سطر اندثارهم ولم يكن في النهاية إلا علامة عن زمن انتهى ومات. لولا أن الحاكم التركي الذي كان يملأ البحر دما، لم يأخذه باتجاه المتاهة والتيه العمدي، لأصبح سيدي البشير كائنا عاديا في هذه المدينة أو تلك، كآلاف الذين رجعوا يحملون في عيونهم أحلاما لم تصل، وأشواقا دفنت في أول شاطئ نزلوا على أطرافه. أي خراب كان يملأ قلب سيدي البشير وهو يشهد ذبح مدنه؟

- فهمنا يا سيدي المجذوب. ولكن واشْ جابْ رَبّ الموري إلى

مدن العَفَن. ألم يكن من الأفضل له أن يبقى في أندلسه؟ يا خويا عبد الرحمن كان عليه أن يبقى هناك وما يجيشْ، يهنّي روحه ويهنّينا.

تجاوب معه أحد الحاضرين. اقترب منه المجذوب وقد احمر وجهه حتى كاد أن ينفجر.

- قل لي أين يقع هذا الهناك يا السي بوعرّيفو[٣٣]؟

اقترب منه أكثر، سحبه من قميصه الفضفاض المتسخ. جره نحو الحلقة بعنف، لم يتمالك غضبه.

- أدخل. ورّيني واش تعرف يا شاطر؟ لو كنت في مكان سيدي الموري الأندلسي كنتَ بلتَ في سروالك عشرات المرات من شدة الرعب والخوف.

ثم جره أكثر نحو وسط الحلقة حتى يراه الجميع، ثم سأله عن الحضور: هل تعرفهم؟ قبل أن يسأل الحضور أيضا: هل تعرفونه أيها السادة؟

- هذا هو عمي الطاووس بن أمه؟

- والله عمي الطاووس الأغشى.

صاحت أصوات كثيرة في الوقت نفسه وبشكل جماعي. ما الذي جاء به على هذا المكان؟ تساءل الحضور.

تفحصه المجذوب من رأسه حتى قدمه قبل أن يطلق سراحه ويتركه يتخفّى بين الجموع التي لم تتركه لحظة واحدة.

- عمي الطاووس. هو بلحمه ودمه وأوساخه. تأملوه جيدا. كان يحكمكم قبل هذا الزمن. كان وجهه مثل الدمية فصارت لحيته المتسخة تبعد الكلب عنه، عمي الطاووس؟ وزير الثقافة والاتصال المخلوع قبل زمن. لقد جَنَّ المسكين مثلي أو يكاد. أصبح شحاذا يجوب المقاهي، وينظف المراحيض، وعلى رأسه الشاشية التونسية التي كتب عليها: **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**. في البداية، من ذلك الزمن

---

(٣٣) الذي يعرف كل شيء.

الذي أصبح اليوم بعيدا، أُدخل عمي الطاووس إلى سراديب السجن وكاد يُرمى في أنفاق الأسود. لم يكن يعرف لماذا. عندما وصل، وجد طاولة عليها مسدسا كاتما للصوت، وابنه مكتف مثل خروف العيد، قالوا له: ابنك اقترف الخيانة الوطنية، وعليك أن تعدمه بنفسك ليقوى حماسك الوطني. نظر إليهم بعينين مهزومتين، وقال: يا عباد الله إنه ابني الوحيد، زوجتي عقرت بعده. لا أستطيع. لقد خدمتكم أكثر من عشرين سنة. قالوا توّج رصيدك الثوري بفعل نضالي. الوطن في خطر. زمَّ شفتيه، ثم ضرب رأسه بكل قوة على حائط الزنزانة. صرخ بأعلى صوته مثل الذي كان يعوي: قلتم قصّ المقالات، قصصتها. أمرتم بمصادرة الكتب صادرتها. أن أحرق الأحرف المدسوسة، بحثت عنها في أكثر الأماكن أمنا، وأحرقتها. أن أمنع المجلات من الصدور، منعتها ودمّرتها في مطابعها، ودفعت بأصحابها إلى المحاكم. قُلتم كوّنْ فرقة من الزبانية لصيد الكلمات قبل حتى أن تخرج، كونتها وعملت معها ليلا نهارا. بدِّدْ الوجوه إذا اضطرك الموقف، بددتها قبل أن يضطرني الموقف. أَكْسِر التجمعات الصحفية، انتشيت بكسرها وتدميرها. . . . ثم ضرب عمي الطاووس رأسه من جديد، حتى ملأ الدم وجهه وهو في حالة هستيريا: افعلوا ما شئتم. أخرجوني من حكمكم، لكن حافظوا على ابني، لا تمسوه بأذى فهو عمري وحياتي. وحين تعب، سقط على وجهه مغشيا عليه. كانت الرغوة قد ملأت فمه، وضاق تنفسه. أصروا من جديد: قتلك لابنك سيدفع الثقافة باتجاه الصلابة والقوة، ويدفع الاتصال إلى مزيد من التطور والحرية. وحين استيقظ، غسلوا وجهه، وقالوا عد إلى بيتك. حاول أن يسأل، منعوه من الكلام. عند مدخل داره، وجد ابنه أزرق مثل الورم، مخنوقا بنفس الطريقة التي يُقتل بها عادة أعضاء الحكومة والحزب السابقين منذ الحقبة التركية. في الجرائد المسائية لليوم نفسه، قرأ خبر موت ابنه، مدبجا بصورته وهو يحمل المسدس، والتعليق الصغير من تحت: وزير الثقافة والاتصال يُعزل من منصبه بسبب قتله لأنبه في لحظة هستريا وجنون أدت به إلى ارتكاب الزلّة الكبرى. اخْكِ

يا عمي الطاووس بدل أن تتخفّى بجبن لا تُحسد عليه، وراء سر أصبح يعرفه الصغير والكبير. الدنيا كلها حكاية. احك ماذا رأيت فلن تخسر إلاّ القيود؟ لقد أصبحتَ اليوم أعشى وغدا سيلحقك العمى النهائي. افعل شيئا من أجل نفسك. احْك ماذا رأيتَ. لقد أفقدوك جزءا من بصرك، ولن يتوانوا عن طمس عينيك نهائيا.

مدّ عمي طاووس يده إلى فراغ عينيه يبحث عن دمعة استقرت في داخل المحجرين. تحدث بنوع من الخوف. لم أفهم حرفا واحدا مما كان يقوله، إلا الجملة التي ظل يكررها بلا توقف وبشكل يكاد يكون هستيريا.

- فهمتني خطأ يا عبد الرحمن الرحيم. أنا لست ضد سيدي الموري الأندلسي، هو علامة السر القادم، هكذا يقول عنه الأولون. لكن ما جدوى مجيئه إلى آرابيا الخراب؟ بلاد تأكل ما تبقى من زهر الرمان وفرحة اليتيم. كان عليه أن يبقى هناك حتى ولو مات غريبا في أرض هو من عطّر تربتها. هذا قصدي فقط.

هز المجذوب رأسه بحزن بشيء من السخرية.

- آه يا عمي الطاووس بن أمه، لو فقط كنتَ تدري؟ ولكنك لا تدري. عقلك لم يتغير كثيرا. لا تسمعنا الحقيقة كلها. تتخفّى وراء نصفها. ها أنا ذا أقف معك في هذه الساحة بجنوني الكامل لإعادة كتابة تاريخ آرابيا المسروقة. احك، القلم عندي، والكراسة الكبيرة فوق زربية لحنش سلطان زمانه، بوسكّة، بومريات، سمه كما تشاء. أنت مهزوم حتى الفم يا عمي الطاووس. الدنيا كانت سديما حارقا في غرناطة البعيدة، والنيران كانت تشتعل على جبالها وهضابها. وحين تشتعل النار من أجل الحق، تفتح أبواب الجنة على مصراعيها وتُطفأ جمار جهنم ويخفت أوارها. الله لا يسأل الشهداء حين يعودون إلى الجنة عن أسباب رجوعهم. فالجروح والدماء شاهدهم والأرق والعرق دليلهم. بل يحمل الأكاليل، ويضعها على رؤوسهم ويمسح على جباههم المتعبة ولا ينطق بكلمة.

ترمّد وجه عمي الطاووس، وتلوث بياض عينيه من جديد بلون داكن. عض على يده مرة أخرى وكأنه لم يسمع ما كان يقوله المجذوب.

- الله يرضى عليك خويا المجذوب، لماذا لم يتركوه يعود من حيث أتى. كان يجب أن يبقى هناك. لقد سرقوا مني ابني وعيني. سرقوني. هل تعلم فظاعة ذلك؟

- تحزنني يا عمي الطاووس. ما أبخس عقلك. صباح الخير يا مولانا؟ تذكرتَ الآن فقط أن هناك دنيا أخرى؟ أين كانت عيناك يوم عُيّنتَ وزيرا للثقافة والاتصال؟ نحن أيضا هلّلنا لك في الشوارع، وقلنا الحمد لله، جاء وزير منا، وأكثر من هذا كله، مثقف وعالم في التاريخ والسياسة. كنتَ شعلة المدينة، وكتبك عن العقل والعمران وآرابيا وتاريخها، تملأ الأكشاك والمكتبات. حتى بحثك العظيم عن ابن خلدون والدولة، لا أحد يستطيع تفاديه في المكتبات العمومية والوطنية. كانوا يريدون ابتذالك وسرقة قلمك، وكنتَ عبدا لطموحك. نسيتنا فنسيانك. كرهتنا، فكرهناك. دشّنتَ عصرك باستصدار القوانين التي تحجّم الطباعة، وتصادر الكتب التي لا تحمل صورة الحاكم بأمره. استوردوا لك عوينات أجنبية تنقب بها عن الأبجدية الممنوعة المهربة بين الأحرف. تجهد نفسك ليلا نهارا، فقط للعثور على حرف يستحق القتل. نسيت أبحاثك ومشاريعك العظيمة التي كانت تملأ قلبك. ومع ذلك، عذرناك يا عمي الطاووس. ذنب الفقراء أنهم يعذرون كثيرا. عذرناك، لأن من يدخل دوامة الفراغ والمسؤولية لن يخرج سالما منها حتى برأسه. وحين مسوك في عينيك، كان كل شيء قد انتهى. قلتَ بعد أن رفعت يديك باتجاه السماء: ربي أشهد، لست البادئ. لم تكن تعلم أنهم أنهوك في عيون الناس أولا حتى كرهك الجميع، ثم أخذوك في سيارة بلا لوح، ووضعوا محلولا في عينيك كاد يدمر بصرك لولا أن أدركك أحد أطباء القلعة. سلموك للشوارع الخلفية وتركوك تبحث عن الطرقات والممرات التي توصلك إلى بيت يأويك. كنت فارغا كالقصبة حيث لا شيء

ينتظرك! تريد من سيدي الموري الأندلسي أن يبقى غريبا؟ استح يا أخي، أنت بعثَ الناس والذاكرة وقَبِلنا بك، فهل تعلم درجة التضحية؟ ماذا فعلتَ يا عمي الطاووس عندما ذبحوا أمامك ذاكرة هذه الأمة الحزينة ابن رشد والحلاج؟ عندما شَوَوْا لحم ابن المقفع وهو حي؟ عندما قطعوا أنفاس طه حسين وفرضوا الرقابة عليه لدرجة الارتداد عن رأيه؟ يوم اغتالوا نشيد الأمة ونورها حسين مروّة ومهدي عامل ومحمد بوخبزة، بالحديد البارد والنّار الهالكة؟ يوم حاولوا ذبح حرف النور نجيب محفوظ أمام الملأ وحوّلوا كل أبجدياته الحية إلى عورة؟ يوم حكموا بتفريق نصر حامد أبو زيد عن زوجته وأشاعوا الضغينة في فراشهما؟ يوم اضطر الشعراء إلى بيع عفشهم في المزادات العلنية لأنهم تجرءوا على مقارنة حزب شاس الإسرائيلي بالمحتسبين الجدد في آرابيا؟ والقائمة طويلة يا عمي الطاووس. اترك سيدي الموري وشأنه، واهتم بنفسك قليلا وبجرحك. ماذا فعلتَ يا عمي الطاووس وأنت تشهد هذه الإبادة؟

- لم أقُلْ للظَّلام توقّف، ولكنّي أغمَضْتُ عينيَّ لكيْ لا أرى الدّم.

- أغمَضْتَ عينيك؟ برافو. ما أحلاك حبيبي. مثلما فعلتَ عندما قُتِل ابنك.

- طريقتي السّلمية في الاحتجاج ضدّ الموت الظَّالم.

- اعذرني على كلامي القاسي، ولكن طُزْ في احتجاجك يا عمي الطاووس لأنه بلا جَدوى. أغمضتَ عينيك حتى لا ترى، وماذا كان بإمكانك أن ترى؟ كانوا يراقبونك وإلا ما اختطفوك من الطريق العام ليضعوا محلول العمى في عينيك. ثم ضغطوا بأصابعهم على عينيك حتى كادوا يفقصونهما كالبيضتين. ما أنجسك يا عمي الطاووس. وماذا فعلتَ حين جيء بالكتب الممنوعة في الجملكية، ووُضِعتْ في الساحة باسمك وباسم وزارتك، وأشعلتَ فيها النار، في حفل بهيج كنتَ أنتَ سيّده؟

- زممت فمي وضغطت على أسناني بقوة. كنت عبدا مأمورا، وكانوا طغاة قساة على غير ما أبدوه معي حينما اقترحوا عليَّ منصب وزير للثقافة والاتصال.

- زمَمتَ فَمَك وضغطتَ على أسنانك، وماذا بعد يا همام؟ ماذا بقي من أسنانك اليوم لكي تضغط عليها؟ لقد هدّموها لك كلها في حكومة آرابيا السابقة التي لم يبق منها إلا أنت على قيد الحياة، لأنه ميئوس منك، يا عمي الطاووس. دخلتَ السلطة كبيرا، وخرجتَ منها أصغر من فأر. الكتب التي كنتَ تتصور أنها صودرت، موجودة في قلوب الناس وفي أماكن سرية متعددة ومخزنة في أقراص مضغوطة. من أراد أ ن يقرأ ما أُحرِق في وقتك، سيجده بدون صعوبة تذكر في ظل الوسائط الفنية الحديثة. نقدر جنونك وحالة يأسك، لكنك لا تستطيع أن تمنع العظام من أن تعود إلى تربتها وإلى بحرها. يا عمي الطاووس، التاريخ الذي رماك بعيدا عن هذا القرن، يجب أن يعيدك إليه إذا كنتَ أصيلا، وستحمل حزنك بين يديك أبديا، وتدخل به النار عندما يشتعل البحر. لن تفهمني الآن، فأنا لا أكرهك، ولكن عليك أن تبذل جهدا كبيرا لكي تستعيد قلبك المسروق.

كانت ماريوشا التي التحقت متأثرة جدا بما كانت ترى وتسمع، تتبع المشهد بحزن وانتباه مثل بقية الحاضرين. اندهش الجميع من حرقة دموعها. كانوا يظنون أن محاكم سيدنا الخضر قد داستها في الليلة الماضية، لأن الكثير من الحاضرين يقسمون برأس أعوادهم ونسائهم أنهم رأوها بالقرب من بيت سيدنا النينوي الصوفي تقبض على لباسه الذي أصبح داميا. كانت تلبس الأبيض وتبتهل أمام النار والرماد والصرخات، لكنها هاهي ذي تعود. سحب لها سيدي عبد الرحمن المجذوب سجادة جديدة لتجلس عليها. أرض الساحة باردة.

- بارك الله فيك يا لالة ماريوشا، السحب لن تمطر بدونك، ولا شيء يقوم في غيابك. روّضتُ قلبي على غيابك ولكن كلما تأخرتِ زاد خوفي.

كانت عينا عمي الطاووس مشدوهتين وفمه مفتوحا ببلادة. انسحب باتجاه زاوية، خفية داخل الحلقة لكي لا يرونه. كل شيء بدا له باردا كالموت، بينما ظلت عيون أغلبية الناس مثبتة بدهشة على ماريوشا، التي

تكوّمت داخل لباس صوفي قديم، وأدخلت عنقها بين كتفيها وهي تحاول أن تصرّ على شفتيها اللتين تعمق توردهما من شدة البرد.

- إيه يا لالة ماريوشا!

- خويا المجذوب. القلب ممتلئ. نبدأ من حيث انتهيتَ؟

اندهش بشير إلمورّو من تفاصيل وجه ماريوشا الناعمة. كل ما فيها يوحي بأنها غجرية هربت من الطقوس المغلقة إلى أفق لا تحده لا أرض ولا سماء. جاءت إلى هنا، بعد أن تركت حبها وحياتها الأولى وأصدقاءها. بينها وبين ماريانا شبه غريب. شبه الموجة والموجة. شبه رغوة الولادة عندما تقف في الحلق. شبه اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة، شبه الغيمة البنفسجية التي لا يلمسها إلا العشاق في لحظة الغفوة. هي، هي، وجهها ليس غريبا، صدق الرواة الذين يروون والذين يرون. نفس الوجه. نفس البياض. نفس الدمعة والتنهيدة عندما كان سيدي النينوي يُصلب ويحرق. هي بعينيها المائلتين، وشفتيها التي يُشعِر امتلاؤهما الجميل بالرغبة والملوحة والدهشة. لم يكن يعرف، هو الموريسكي الوافد من أرض بعيدة فقدت أشواقها، أن الوجوه تتوالد، في هذه البلاد، وأن الحياة والمدينة، والناس يمشون بقلوب متعددة وليس بقلب واحد، وأن الله تلبس بأحزان الغرباء ويأسهم حتى أصبح منهم. سيدي عبد الرحمن المجذوب، الذي يركب في لحظات فراغه، قصبة يلونها ويملأ بالشرائط الحمراء والخضراء والبيضاء، ويتخيلها حصانا جموحا، ليس مجنونا. يعرف الدنيا أحسن من الجميع. يعذبه ما تبقى من عقله.

رأى بشير إلمورّو النور يشعّ من عيني سيدي عبد الرحمن المجذوب حينما رأى ماريوشا، المرأة التي تملأ عليه فراغ هذه المدينة وتجعله صلبا مثل أحجار الوديان الزرقاء التي لا تلمسها المياه إلا مع حدوث الطوفان العظيم. كان ينط مثل العصفور. كان مثله بالضبط عندما يرى ماريانا بعد طول غياب. الشمس تخرج من قلبها. الزرقة تملأ عينيها الصافيتين. لباسها كان أسود حزينا، وليس كما تعود عليها الحاضرون، في لباسها

المزركش. يقولون، إنها كانت تسرق لون لباسها من إله المطر، أنزار، أو قوس قزح. عندما رأوها فهموا سر يتمها. أحنوا رؤوسهم إجلالا، الوزير المخلوع، عمي الطاووس لم يقل شيئا، ولكنه كان منهمكا في ترتيب جلسته الصعبة في الزاوية. انكفأ داخل جلبابه، وقبل أن يغرق في موجة حزن امتدت به حتى زمنه الأول وهو في عز سلطانه، عندما كان نجم المدينة ومثقفها، شعلتها المتقدة، قبل أن يعتلي الكرسي الذي أطفأ رؤيته وأباد نوره. عندما أراد أن ينكفئ على ذاته، ولو للحظه غفوة، كان البحر قد نسيه والشوارع لم تعد تتذكره، والأملاح خانته مثلما خانها منذ اللحظة التي وقف فيها بجانب الحاكم بأمره يقرأ تقريره المعهود من أجل حرق الكتب. الناس يحفظون خطابه عن ظهر قلب: **أيها الناس، أيها البشر، الديمقراطية ليست فوضى. الديمقراطية، احترام الأصول وعلو الهرم. وللثقافة شروطها، حين تمس أعراض الناس، قداسة أجسادهم، وتشتم أولي الأمر منا، تُحرق بلا رحمة. النار هي أكبر سلطان عادل والرماد أنبل نهاية. ولأننا نحب الكتب أحلناها إلى رماد. النون والقلم وما يسطرون، ألا هم الظالمون. نحن ضد نظام العهد الأول الذي فسخه مولانا الحاكم بأمره، سيد آرابيا، ونقله من النظام الإقطاعي الملكي، ثم النظام الجمهوري البارد، إلى النظام الجملكي الواسع الذي يستوعب الكبيرة والصغيرة. ألا بِئس الذين لا يفهمون.** لكن الكلمات التي رنت في ذاكرته، دفعت به إلى الاختباء أكثر داخل جلبابه، لأنه شعر بكل العيون مصوبة باتجاهه. شعر بالملح الذي قاوم في داخله من أجل البقاء يذوب قطعة قطعة. قفز المجذوب من جديد إلى وسط الرحبة. حملت ماريوشا البانجو بين أناملها الرقيقة. كانت شفتاها قد استعادتا توردهما واستدارتهما. نقرت على الخيوط الخمسة. شعر المجذوب بقلبه يطير بعيدا نحو سماء مجروحة. قالت بصوت هادئ وحزين.

- واصل يا عمي عبد الرحمن، واصل. قلبي معك. سأقتفي كل خطاك. البانجو جاهز. كان... ياما... كان... إيه يا خويا

المجذوب، ضع القلب بين يديك واضغط بلا هوادة، لن يعرف سرك إلا العشاق والأنبياء رجال التيه والغربة. ارْوِ ما سَمِعتَ وما رأيْتَ، وما أحسَسْتَ. قل كل الذي لم يقله أحد قبلك.

نقر على البندير. شعر به يصدح في قلبه.

- آه يا سادة يا كرام، يا حزاني هذه المدينة. يا تافهيها، ويا قدّيسيها. يا عفيفيها، يا سكارها، يا سراقها ويا أنبياءها، أني أراها. هي ذي الموجة تأتي، تسحق في طريقها الموجة. الريح تطرد الريح. البحر يزحف باتجاه المدينة والفيضانات تزداد في الرأس. أين وصلنا. هاه؟ لحظة الخوف شعر سيدي الموري الأندلسي بالبحر بكامله ينام على ظهره، ومع ذلك لم تغادر أشعة التشبث بالحياة، قلبه وعينيه. لم يفكر في الهرب، لكنه لم يستسلم لموت رخيص. عندما تيقن أنه سينتهي داخل المتاهات والأنفاق المعقدة، صمم أن يقول كل شيء. حتى عن الظلام الذي ملأ قلبه لحظة الحزن وسط فراغات الخوف.

- ماذا فعل يا سيدي؟

قال أحد الحاضرين وهو يستعجل النهاية.

- رفع رأسه نحو السماء فقط. أراد أن يلوّح غضبا، ولكنه لوى لسانه سبع مرات ثم صرخ لماذا فعلتَ بي هذا يا الله؟ كان عليه أن ينقذه عندما وقف وجها لوجه أمام الموجات التي تكسرت تحت ثقل الأرمادة، ورعب القرصان الإيطالي، قبل أن تأخذه السمكة التي كادت أن تسقط في عشقه كما تقول الكثير من الروايات. كان عليه أن يكتشف خيبة الأمل، أن يلمسها لا أن يحسها فقط. ولهذا عاد يا عمي الطاووس. شفت الفرق؟ هو منح حياته لحقيقته الهاربة، وأنت سرقت الحياة من الحقيقة التي كانت بين يديك. أنت خبأت رأسك كالنعامة حتى لا تدوسك العاصفة، وهو وضع مصيره بين كفيه ثم شق البحر. تريده أن يموت هناك، لأنك ترى فيه عذابك ومأساة حرائقك؟ ما دمتَ قد دخلت زريبة الخنازير، كان عليك أن تتحمل رائحة العفونة والزبالة. هو عاد يا ابن أمي لأنه رفض أن يشم هذه الرائحة وأن يكون نصف رجل. ترك

دنياه وآخرته، وجاء إلى هذه البلاد. ترك ماريانا، الوتر المكسور، وتفاح البلاد البعيدة، وجاء. ترك ألميريا، والبحر الذي كان يعشقه. ترك جبال البشرات التي التأمت تربتها على عظام جده الذي علّمه أن الحياة لا تعطيك صدرها ونهدها، وإلاّ عندما تشعر بقدرتك على التضحية، وعاد. هل تؤذيك العودة إلى هذا الحد يا عمي الطاووس؟

- احك يا خويا المجذوب ولا تلتفت وراءك. أحك الطوفان الذي بدأ بحبة مطر وانتهى إلى طوفان. أحك وشوف قدّامك، ولا تلتفت أبدا إلى الوراء. كثرة الالتفات تؤذي الرقبة يا حبيبي.

- سأحكي يا ماريوشا. سيدي الموري في دمي. حزنه في قلبي. ذاكرته مآلي. سأحكي وأموت على الرصيف منتشيا بصدق الحكاية وسحرها. بل علينا جميعا أن نشترك في صياغة الحكاية. إنهم يقتلون العيون التي ترى أكثر من مدّ البصر. يبيدون الوجوه التي تعودت على صفاء الحقيقة. لنشترك جميعا أيها السادة في وضع خطوط جديدة للمأساة التي لبسناها قبل أن أعود إلى حيوانات الحديقة الوطنية، وأركب عودي المرقط. هم يصنعون المهزلة ونحن نصدقها. كان الموري مثلنا جميعا، آدميا، وحساسا. يبكي لحظة الخسران، ويصرخ بأعلى صوته، فلا تسمعه إلا الأنواء التي تملأ الدنيا نحيبا، والبحار التي تبحث في قفر السماوات عن زرقتها المفقودة. كان حنينه يفقد الجبال شموخها، والجان سطوتها، ويجعل الحيوانات تبكي لحزنه، وآلامه. كان لسيدي الموري الأندلسي سحر شكلته المتاعب وأسواق غرناطة وحزاني حي البيازين. كان يعشق الدرب الذي فتح فيه عينيه على طفولة جميلة. وكانت الأرض أرضه، والجبال ملكه على الرغم من متاعب زحف الشمال. إننا نحمل نفس الجنون أيها الموريسكي الطيب. ها أنا ذا أرفع صوتي باتجاه صرخات الآفلين وأبكي بعد أن استعصى الدمع على الذاكرة. مثلك بح صوتي: يا الله، لماذا تخليت عنا في هذه الخلوة؟ لماذا؟ من أدخل بني كلبون إلى فراشنا؟ من جاء بالغرباء ليصنع المهزلة؟ من بدد هذا الجسد المنهك والمنتهك في حقه البسيط؟ من جعل هذه الوجوه تمضغ الكآبة

باستكانة؟ هرب الوراقون والمؤرخون إلى القصور، وتركوا المدينة والناس طعما للحرائق والنار. تعبت من الجنون، وحصاني العود بو بركات[٣٤] الملون، خسر جسده ووقعه، وصار قصبة هوائية فارغة من الداخل. كل شيء قُتل في عزه ونبله. أنت الآن يا حبيبي، يا سيدي الموري، ضالّتي وفرحتي وحزني في مدينة الحرائق. كنت أخاف أن أحكي همي فلا تسمعني من شدة الرعب والخوف، سوى الحيوانات التي تجاوزني في الحديقة الوطنية المهملة بلا شروط ولا مسبقات. الآن كل شيء استوى على هذه الأرض. لم يعد هناك ما يخيف يا ابن أمي. كل الفصول أصبحت فصلا واحدا. كل الوجوه الطيبة، اختصرت في دمعة أو في قطرة دم. كل الأسواق الشعبية أفرغت من ظلال النخيل والزيتون، لم يبق فيها شيء يستحق الذكر سوى الموت والخوف. حين عاد سيدي الموري الأندلسي من ظلمات الموت، كان رأسه ممتلئا بمحارق محاكم التفتيش المقدس، وقلبه ظل مفعما بأناشيد قوالي حارة البيازين. وحين وقف في مواجهة الحاكم التركي، قال: يا صاحب المقام المرفوع، أيها الباب العالي، سأقص عليك كل شيء وعليك أن تحكم، وسأكون راضيا بعد ذلك بقسمتك. حكى عن الكبيرة والصغيرة أغرقه في التفاصيل، عن حي البيازين، عن دموع ماريانا، عن الأرمادة والقرصان الإيطالي وزبانيته، عن الرجل الطيب الذي ساعده، عن الموجة التي تعانق الموجة وهو تحتها مثل اليتيم، أنفاسه تتمزق، عن البحر الذي أسود، وثقلت أملاحه، عن الأطفال أو القرصان الذي باعه. هو لم ير أحدا، ولكن حُكي له عنهم جميعا، كيف وجدوه، وكيف تلاعبوا به وكانوا يظنونه ميتا قبل أن يشتريه أحد التجار منهم ويقدمه إلى الباب العالي. عن السمكة/ عروس البحر، التي عثرت عليه فأنقذته ثم وضعته على الشاطئ قبل إن يأتي الأطفال، أو الرجل البدين ليبيعه بثمن

---

(٣٤) صاحب البركات، أي الحصان الأسطوري الذي يطير، صاحب الكرامات الذي لا قوة تلحق به. وهو قريب في اللاّوعي الجمعي من البراق.

لا يضاهي، لأن الرجل أكد أن وطنيته جعلته يغامر ويُلقي القبض على أحد الجواسيس لصالح السفن الإسبانية. كان سيدي الموري يلهث من شدة التعب والخوف، العرق يتصبب أسود من على جبينه وهو يحكي القصة. وعندما انتهى، أو كاد، ضحك الحاكم التركي من سذاجته، وقال بنوع من اللامبالاة: هذه أساليب الجواسيس، وكلهم تكلموا بنفس اللغة قبلك. ثم انسحب باتجاه أحد الصناديق القديمة وسحب منه وثيقة الإدانة كما سماها. اقرأ. تناولها سيدي الموري، فكاد يغمى عليه. عرف الورقة. وعرف توقيع ساموويل الذي ساعده، ودمغة القرصان الإيطالي. حاول أن يصرخ، لكنه أخفق. حاول أن يصمت، لكن لسانه الذي لا يلجم نطق بعكس ما أراده: في الأمر خطأ. هذه الورقة اشتريتها بواسطة أخي من أحد التجار اليهود، تخوفا من محاكم التفتيش، لاتقاء شرها. ضحك الحاكم التركي مرة أخرى، وقال بعينين حمراوين مسعورتين: تلعبها عليَّ يا عطاًي؟ أحك أمرا آخر أحسن لك. اندهش سيدي الموري الطيب والمهذب، من اللغة الظالمة التي كان الحاكم يحكي بها. لم يكن أمامه سوى قول الحقيقة، الحقيقة التي جاء بها. الحقيقة التي تفقد ألقها في مجلس الخوف. قال: يا سيدي هل أقول غير الذي أعرفه؟ أأحرق جلدي وأظلم عيني لكي تصدقني؟ ماذا أقول؟ التفت نحوه الحاكم التركي سيّد الدنيا، وسأله كأنه لم يكن يسمعه. ماذا قلتَ؟ قلتُ يا سيدي أن هناك احتمال خطأ ما. فأنا أحب هذه البلاد ولا يمكن أن أتحول إلى جاسوس للسفن الإسبانية. حكّ سيّد الدنيا أذنيه الخشنتين، ثم انكفأ على ظهره من جديد. وقبل أن ينطلق في شخير مقلق، صرخ في وجه أحد حراسه: خذوا دِينْ يَمّاهُ للصراط المستقيم، صراط الذين لم أنعم عليهم، صراط الضّالين والمغضوب عليهم. وأطلق ضحكة ثقيلة انفجرت بقوة، تلتها رائحة فمه الكريهة التي ملأت المكان. كانت الدنيا واسعة، لكنها أصبحت أضيق من قلب عاشق حزين. بقدر ما تتسع، تزداد ضيقا واختصارا. القلب موجوع، فماذا أحكي وماذا أقول؟ الكلمات تتصلب مثل الأحجار على أطراف اللسان، لأن الحقيقة تغيّمَتْ

تحت بذاءة عيني الحاكم التركي. الحقيقة التي كان يملكها سيدي الموري لم تكن كافية لتقيه شر المرضى والعصابيين. يا سيد العالمين، يا ابن القفار وموج البحر المكسور، يا ابن الدار المسروقة، يا ابن الحنين، يا سيدي الكبير. أينك؟ قل لي أيْنك؟ لقد بدأ العد العكسي في هذه البلاد، أنقذني من خراب الألسن والأدعياء. قيل أنك ستعود ولكنك يا مولاي تأخرتَ كثيرا عن موعدك. لقد صممت اليوم أن أقول كل شيء، وها أنا ذا أقوله بالبهاء الذي يليق بك. شيء ما يشبه الحقيقة، سيظل تحت التربة حتى تعود. اعطني أظافرك حتى أستطيع أن أنبش صلابة الأرض وأخرج بقية الحكاية. اعطني ما لم تعطه للآخرين من قوة، فالناس ينتظرون بقية الباخية التي غيبها القتلة والمأجورون. الحكاية التي يجب أن يعرفها الجميع، والتي لا أملكها. انتهى القص ولم ينته، ماذا أضيف؟ لا أعرفه... لا أعرف.... لا أعرف. لقد تغيّمت الرؤية وأصبح كل شيء متماوِجا وقلقا. اعطني يا مولاي قليلا من سرّك لأنهي الباخية بدون كذب.

- ها أنا ذي معك يا خويا المجذوب. تذكر، صدى البانجو الذي لا تموت أواصره. أحك يا سيدي، أنت مالك الحكاية ولا أحد غيرك. هي ذي الأغنية التي شغلت قلبك وأيقظت كل حنينك وحواسك. هو ذا صدى البانجو يغطي دمعك بخيوطه الخمسة. احك... احك فقط والبقية تأتي لوحدها.

القلب ولّى وحيذ.

آه يا لوليد... آه يا لوليد..

شكون باعك في سوق الدلالة والعبيد...

- آه يا ماريوشا أنت تسحبين ما تبقى من أنفاسي بعنادك. لماذا تصرين دائما على قول خويا؟ أنا لست أخاك؟ أنا حبيبك داخل خراب المدن، وعشيقك في وحدة الخوف.

ثم انكفأ على صمته وهو يتمتم بلا توقف. لا. لا يا عبد الرحمن

المجذوب، هي ابنتك، قريبتك، من دمك. أنت مجذوب والسلام. تملأ الأسواق، تقص الحكايات، وفي النهاية يذهب كل واحد إلى بيته، لينام على صدر عشيقته أو حبيبه. يتغطى بشعرها وجسدها. يمد يده إلى عنفوانها، يفليه زاوية، زاوية، ثم ينساب في العذوبة. وأنت أيها المجذوب، ماذا تفعل عندما تنتهي؟ تلم زوادتك وأغراضك، ثم تغادر باتجاه حديقة الحيوانات الوطنية وتنام هناك. طريقك الصدق، ومآلك الموت الأكيد.

- اخلكِ يا عبد الرحمن الرحيم، لماذا تتوقف اليوم في منتصف الرواية؟

- ماذا أقول يا ربي سيدي؟ الوعكة تقتلني يا ماريوشا. غامت الرؤية وغابت وجوه الثلج والياسمين. غاب النور، وحضر الظلام ليطمس الحكاية. أنقذني يا الله من الصمت... أنقذني من الخوف. لا أعرف ماذا حدث بعد الصراط غير المستقيم، بعد ظلمة الأنفاق. لقد تركه الله وحيدا في قفر الموت، قبل أن يصيح بأعلى صوته مستعيرا جرح سيدنا المسيح: يا الله لماذا تخليتَ عني! لماذا تركتني وحيدا، أواجه الموت بيدين فارغتين، وذاكرة متعبة وقلب أصبح عاجزا عن النبض! ماذا أقول؟ هل انتهى سيدي الموري الأندلسي، واستسلم للموت؟ أم أن قصة أخرى قد وُشِمت في ذاكرة ما من ذاكرات الخلق، عليَّ أن أجدها ولو قادني ذلك نحو الموت؟ عليَّ أن أبحث في وجوه كل الأطفال المولودين، علّي أجد من يتِّم الحكاية، قبل أن أعود إلى حديقة الحيوانات الوطنية لأدفن نفسي فيها ولا أستيقظ أبدا. يقول كثير من رواة الأسواق أن سيدي الموري لحظة الحزن أمام الحاكم التركي، دفن نفسه حيا واستسلم لجبروت الظلم. وهو لا يمكن أن يدفن نفسه، يُفضِّل البدد على الكمد ونصف حياة...

نسي عبد الرحمن المجذوب نفسه ودخل في عمق نوبة من البكاء الصامت. كانت الحرقة تملأ حلقه. ثم بدأ يتمرغ على التربة في حالة شبيهة بحالة الجذبة التي كثيرا ما تصيب الصوفية في حالة العجز عن

التوحد مع الروح العالية. قبضت ماريوشا على ذراعه. ووضعت مفتاحا صغيرا في عمق كفه المتصلّب. كان يردح كالذبيحة. يبحث في أنينه عن الخيط الضائع داخل الحكاية المروية. ثم شيئا فشيئا بدأ يعود إلى وعيه. عندما فتح عينيه لم ير شيئا آخر إلا وجه ماريوشا. تمتم:

- أنقذوني... أنقذوا الحكاية من التلف. لقد ضاعت الكلمات والحقيقة وسط الفراغ، ولم يبق إلا حصاني الملوّن والكلب قطمير الذي لا يموت ولا يتركني أموت، والثعبان سلطان زمانه الذي ينتظر نهايته، ويهيئ لموتي القريب. أنقدوني وانقدوا بحري من الموت والتلف الأكيد.

اندهش بشير إلمورّو من كل ما كان يقع أمام عينيه. ارتبك من كل ما سمع. هل يصدق أم لا يصدق؟ لقد روى الناس في القلعة الكثير عن سيدي عبد الرحمن المجذوب، لكنهم كانوا بعيدين عن الحقيقة. رآه كأنه كان يموت من أجل الحقيقة التي سرقت من تحت لسانه. الحقيقة التي يبحث عنها، والتي كان بشير إلمورّو يشعر أنه يملكها وأنه من واجبه أن يقولها قبل أن ينكسر الخيط المؤلم، خيط البانجو الرقيق، الخيط الخامس. كل ما حدث لم يكن مجرد حكاية ولكنه كان جرحا لن يندمل بسهولة.

لم يدر بشير إلمورّو كيف وجد نفسه في عمق الساحة. صرخ.

- حياتك أولى يا سيدي عبد الرحمن المجذوب. ستبقى. هي ذي الباخية بين يديك، يرويها من عاشها. عليك أن تعرفها لترويها للأزمنة القادمة إذا طال بك العمر قليلا أو اتركْهَا لمن يحملها بعدك في قلبه، فإن لم يستطع في عينيه، وإن لم يستطع، في سره وصدره، وذلك أضعف الحنين. سأقول لك ما خفي من سيرة مجروحة، ترويها وتخاف من مزالقها.

بحلق المجذوب بعينين مرتجفتين علتهما غيمات بيضاء مثل عيون الميت.

- أهذا أنت يا مولاي؟ لا؟ لا؟ بشير إلمورّو؟ إذا كنتَ بالفعل

أنتَ، لماذا تأخرتَ كل هذه السنوات؟ أم تراك خفت من جحيم هذه الأرض ومن عمي الطاووس؟

كان وجه المجذوب مليئا بالندوب والأتربة، مثل طفل صغير، على فمه دهشة يحاول أن يمحوها، ولكنها كانت تستعصي عليه بقوة. تفرّس طويلا بشير إلمورّو. فتش ملامحه الخفية. لامس بالكاد خطوط وجهه كأنه يلمس أجنحة فراشة قلقة. كان على بشير إلمورّو أن يصدّق، أنه هو المقصود بالحكاية كلها وليس شخصا آخر. الموري الأندلسي، الغرناطي الضائع في الأسواق الشعبية، حتى محاكم التفتيش لم تستطع أن تدفن لسانه. لا أحد غيره وهو العائد من الأنفاق والكهف الغريب.

كان أنين البانجو قد زاد توترا. ماريوشا بمجرد أن عاد المجذوب إلى وعيه، ورأت بشير إلمورّو، لم تسأل عن أي شيء آخر وكأنها كانت تعرف التفاصيل. دَوزنت الخيوط من جديد، وأدخلت بشير بحنينها، في العصر الذي سرق منه نور المدن التي أصبحت اليوم مجرد ذكرى. شعرتْ ماريوشا بتمزقاته الداخلية حتى قبل أن يبدأ في الباخية. نظر إليها من جديد بعينين ذابلتين كحيوان يطلب طلقة الرحمة، ولكنها لم تنصع له. تركت أصابعها تنحدر تحو الخيط الأرق في البانجو، الخيط الخامس دائما.

- من أنت يا سيدي، كل شيء فيك يبوح بسر عميق؟

- أنا ما تبقى من الحكاية. وربما كنت الحقيقة المخفية التي أمضى المجذوب عمرا يطاردها. أنا رغوة الصابون وغيمة النجدة. أنا نقرة البندير وصرخة العاشق وخيط البانجو الأرق والأنعم.

- أكبر مني هذا الكلام يا سيدي، سأقتفي أنينك بآلام البانجو.

قالت ماريوشا بعد أن نهض عبد الرحمن من مكانه بسرعة، كأن برقا سرى في دمه بقوة صاعقة. اقترب من بشير إلمورّو. تحسسه من رأسه حتى أخمص القدمين. ثم نظر إلى الراعي الذي كان يقف بعيدا عن الحلقة بعصا الزبوج المدببة. تبادلا الابتسامة والغمزة وسحر الحركة. هز الراعي رأسه في غفلة من الجميع إلا ماريوشا التي كانت تتبع كل ما كان

يصدر من المجذوب وكأنها كانت تعرف سر القلق والنشوة أيضا. فجأة التصق بها كقشة النجاة، ثم زم فمه ينتظر اللحظات التي لم يكن يعرف سرها.

- أهو أنت يا سيدي بشير؟ أنت بلحمك ودمك؟ هل علي أن أصدقك؟ لماذا تأخرتَ في الظهور أيها الموريسكي الطيب إذن؟ ورأس لالّة ماريوشا، لابد أن تكون أنت بكل شوقك وعنفوانك. مُتَّ بلباسك الصوفي وبُعِثتَ به. وجهك المتعب، لحيتك، عيناك الصافيتان. كل شيء يفضحك. سمعتُ بعودتك، وكدت أن لا أصدق. وها أنا ذا أقف قدامك في حالة هبل كلّي، خفيف كالريشة أخشى أن تهبّ ريح خفيفة فتسرقني، وأنا متشوق إليك يا سيدي العالي. أريد أن أشتعل بين يديك.

ثم اندفن داخل نوبة من العويل أثارت فضول ناس الحلقة الذين كانوا يحوطون به وحزنهم. تمتم أحد الحاضرين في أذن صاحبه وهو يهمّ بمد يديه إلى سيدي عبد الرحمن المجذوب ليساعده على النهوض:

- أيعقل أن يتحول سيدي عبد الرحمن المجذوب إلى فراشة هشة، مطرزة بالألوان، يقتلها حنين النار والغياب؟ هل يُعقَل؟

* * *

الفصل الثامن

يَقِينُ الشَّمْسِ

عينا الحاكم بأمره، بدأتا تبيضان شيئا فشيئا، ولكنه، قبل أن يقوم إلى السرير، دغدغته نسمة باردة، تسربت من بين الفتحات الموضوعة خصيصا لتبريد الجو. لكن حاجبيه ظلا مقطبين طوال فترة الحكاية، وفتها كانت دنيا، قد لملمت ثيابها حتى أوصلتها عند الصرة التي بانت استدارتها الكاملة على غير العادة. لم تكن تريده أن يذهب إلى الفراش لأنها لم تكن متأكدة أن الزمن سيمنحه ليلة أخرى بعد ليلة الليالي. اشتهاها ولم يقاوم جسدها. أراد أن يقولها لها، لكنه خاف من أن ترفضه كالعادة. في لحظة الخلوة، شعر بخوف ما يصعد من تحت قدميه. لقد وقع بين دم الرغبة، وسيولة الباخية المنزلقة في هدوء كأفعى. تمتم، كأنها لم تسمعه:

«- ابنة الزانية، تشعل اللذة وتراكمها حتى تنفجر فيَّ. تعرف جيدا احتراقي واشتعالي. ومع ذلك عليَّ أن أصبر. أن أتخطى صبر أيوب، لأتجاوز بسلام أهوال ليلة الليالي القاسية وبعدها أرى ما سأعمل بها. هناك حلول كثيرة تخص وضعها، سأستشير مؤرخي ومن أثق فيهم. تستفزني في حميميتي؟ وحق دين محمد سأقلع عينيها وإلا لن أكون أنا هو أنا؟»

مع ذلك لم يصبر عليها. مدّ يده إلى جسدها، نزعتها بهدوء. قالت: يا صاحب المقام العالي، بين الحكاية، والرغبة، مسافة صغيرة أتركها تسير على هديها الذي تختاره، لا ترغمها وإلا ستكون بلا معنى. اتركها تمارس سيولتها حتى تصل إلى جسدك المتعب. اتركها يا سيد البلاد والمدن جميعا. اتركها واختبر صبرك.

رسمت دنيا ابتسامة طفولية في عينيها.

- ألا تريد أن تعرف البقية؟ هل ارتوى مولاي من فيض الحكاية. في قصص الأولين أشوقنا المفقودة والآتية.

- خليني من رب الأوّلين، لم أعد معنيا بأحد. مللت من أحاديثهم. فأنا لا أحبهم، ولا أعتقد أنهم فخورون بي لأني غيرت كل نظمهم البائدة. أنا من بعث آرابيا من خواء الفراغ والعدم. حتى مجنونك ماكيافيلي، صاحب كتاب الأمير أو مدوَّنة العِبَر، لم يمنحني إلا الخوف والذعر. وشكّكني في قدراتي وثقافتي. يفترض أن يطلق عليه اسم: كتاب الموت والتأبين، أو حتى كتاب الخطايا الكبرى، وليس الأمير أو العِبَر. أية إمارة وأية عِبرة؟ ماذا فعل ماكيافيلي بجهلنا وقصورنا؟ عرّى مؤخّراتنا ثم قال للرعيان تعالوا وافعلوا فيها ما طاب لكم؟

- مازلت مؤمنة يا سيدي أن هذا الكتاب فُهِم بالمقلوب. وأن مقامك العالي يحتاج إليه بقوة قبل فوات الأوان، إذا بقي شيء من هذا الأوان؟

- ليس كتابا للأمير ولكن لأعداء الأمير. مآله الحرق ولا شيء غير ذلك. لم يدخل مكتبتي، فقد وضعته في المرحاض انتقاما من صاحبه.

- كما يشاء مولاي، أنت الآمر الناهي. أنا كذلك في لحظات يأسي وغضبي وضعته في النّار وتدفأت برماده. ومع ذلك، ما يزال مرجعا مفيدا للسّلطان.

تقلّب الحاكم بأمره، صاحب جملكية آرابيا على بطنه بسبب الانتفاخ الذي أحس به ينطلق من الأمعاء الغليظة حتى عروق القلب.

- ماذا وقع لهذا المنقرض الذي يخرّف، وحوّل الكذبة إلى حقيقة؟ لو أردنا قتله كنا فعلنا ذلك، ولكننا نحن كذلك كنّا في حاجة ماسة إلى أوهامه. من أية خرافة خرج ابن الزانية هذا؟ كان على الحاكم التركي البدين سيّد الدين والدنيا أن يبيده مثلما فعل مع غيره.

- اخلكِ... قولي... أنا أسمع ولكني بدأتُ أتعب.

ردّت دنيا بهدوئها المعهود الذي يحسدها عليه:

- سأقول يا مولاي، صبرك عليّ. سأقول. لم يبق الشيء الكثير.

لقد أسمعوك ما اشتهيتَ، وأُسمِعُكَ حقيقة لم تسمعها، كانت قريبة منك مثل نفسك ولكنك لم ترها، أو لم ترد أن تراها. أقسى الحقائق تلك التي نتفادها ثم نكتشف فجأة، بعد زمن طويل أنه كان علينا أن نلمسها ونعطيها الاهتمام الذي يليق بها. النسيان والتّفادي تأجيل للخراب لا أكثر.

- خَسِئَتْ كل حقائق الدنيا. أنا الحقيقة والحقّ. أنا الله؟ ألم يقلها أحد مجانينهم؟ ما في الجبة إلا الله؟

- قالها يا مولاي في سياق غير هذا.

- لم أفهم؟ أنتِ معي وإلا معهم؟

- أنا معك في حقيقتك وجبروتك، وفي حاجتك إليَّ. يجوز هذا هي حالة فناء وليست حالة وعي كما هي حالك الآن. وفي هذا الفناء قد يقول القائل: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، إذا فني بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكور عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه. كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقا في محبة آخر، فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني فظننت إنك أني. وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر. وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحاله حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى. ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليه فيما يصدر عنه من الأقوال والأفعال المحرمة، بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل أمراً محرماً. وكما أنه لا جناح عليهم، فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة، بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة[٣٥].

- ما فهمت والُو يا حنّونة. ألم تقولي بأن الحلاج قُتل بأقل من هذا؟

---

(٣٥) ابن تيمية، الفتاوي، فصل الفناء، ج ١٦، ص: ٤٠٢

- نعم يا مولاي وحبيبي ولهذا أخاف عليك من لسانك وتعبك. الكتب هي فيصلنا. بعض هؤلاء كالبسطامي مثلاً قال هذا الكلام - الذي لا شك في كفر من قاله بلا عذر - في وقت سكره واصطلامه وغياب عقله. لذلك نقل في موطن آخر عن البسطامي أنه كان إذا أفاق أنكر أنه قال ذلك، وهو وإن كان يرى كفر هذه الكلمات بلا شك كما في كلامه، لكن يرى أن التكليف يرفع عمن زال عقله بسبب غير محرم. فهم كالمجانين في هذه الحال، وهذا كلام لا غبار عليه. لذلك هو يشنع ويكفِّر من يقول هذه الكلمات وهو في الصحو. يفرق بين كون البسطامي ونحوه ذلك وقت الاصطلام، وقبول هذا العذر، وبين من يجعل الحلاج كذلك فيقول عن الحلاج: إنما كان يتكلم بهذا عند الاصطلام. فليس كذلك. بل كان يصنف الكتب ويقوله وهو حاضر ويقظان. يقول المناوي: وهذا وأشباهه إذا وقع من أولئك الأجلاء الأكابر - وذكر منهم الشبلي أيضاً - إنما يصدر عنهم في حال السكر، فلا يؤاخذون به. كما نقل عن أبي يزيد البسطامي من نحو: سبحاني. وما في الجبة إلا الله. إلى غير ذلك من شطحاتهم المعروفة، فنسلم لهم حالهم معتقدين لهم، ونبرأ إلى الله من كل من تعمد مخالفة الكتاب والسنة[٣٦].

- والله يا لألة قادرة على شقاك؟

- كل شيء تغيَّر وعلينا أن نكون أذكياء قبل فوات الأوان. يا مولاي، أنظر من وراء زجاج النوافذ التي أغلقتها حتى لا تطالك روائح الجثث والغازات السامة والقنابل المسيلة للدموع، وستعرف أن الحقيقة تغيرت أيضا أو هي بصدد ذلك. نحن لا نملك حتى يقين أنفسنا فكيف نملك يقينا أشمل. شيء في الدنيا يا مولاي نزل علينا كالنيزك ولم يترك لنا حتى فرصة التفكير. زلزال يا حكيمي انفتح وابتلع كل شيء حتى كدنا أن نكون أولى ضحاياه.

- أوكي معك حق. ماذا بعد الحكاية؟ العبرة؟ أعتبر ممن؟ من

---

(٣٦) المناوي: فيض القدير، ١/ ٤٥٦

المهزومين؟ لقد خسروا كل شيء وسلموا أمرهم للرعاع. أنا لن أستسلم ولن أسلم شيئا للصغار وجرذان جملكية آرابيا التي لن تفتح لأبناء الكلب عيونهم وتمنحهم من سخائها الكبير. أنا أيضا عندي واش نحكي... احكي... قولي...

قالها وهو يغمغم داخل وسادة نصف ممتلئة بالريش، كان يضعها على رأسه ويكزّ بأسنانه على كتّانته الحمراء المعتادة. قالت وهي تتربع من جديد عند رجليه وتحاول أن تقلل من غضبه:

- وجعك هو وجعي حبيبي. أتمنى أن أسمعك الخير كله، كن صبورا فقط، في القصة جروح عليك أن تعرفها. أن تشمّ عفنها قبل فوات الأوان. لقد غيّرتَ الدنيا المحيطة بك بكاملها، صحيح. غيَّرتَ أسماء الشوارع والمدن، صحيح أيضا. فرضتَ قائمة لأسماء المولودين الجدد لكي لا يموت إرث السلالات، صحيح. كتبت تاريخك وعطّلت تاريخ من سبقوك، صحيح. لكن هناك يا مولاي من يكتب في الخفاء تاريخا آخر ضدّك. سأصبح فيه عشيقة لأحد السيّاح، وسيصبح ولي عهدك، قمر الزمان، ابننا الوحيد، لقيطا، وتصير أنت آخر السلالات المريضة بوهم الخلود، وأنّ الطوفان الذي ينشأ في الخفاء ستجرك، وإذا نجوت منه ستأكلك الحروب الأهلية القادمة وأقبية السّباع التي رميت فيها كل معارضيك. انتبه يا مولاي لهذا التاريخ، سيطحننا جميعا.

غطى الحاكم بأمره وجهه من جديد بالوسادة وغمغم ببعض الكلمات بدت فيها جملة واحدة واضحة لأنه كررها عشر مرات: سأنزع لسان ابن الكلب... قبل أن يقولها أو يكتبها... سأنزع لسان ابن الكلب...

كان الشاطئ، يا صاحب المقام العالي، مقفرا في ذلك اليوم، ولا يُسمع في الليل الهادئ إلا تكسر الأمواج، وهي تتذابح الواحدة بعد الأخرى. كانت جملكية آرابيا، تبحث عن مفقودها وسط سيلانات الدم والجريمة.

على حواف آرابيا التي كانت تشبه جزيرة مرمية في الفراغ، كان البحر ينتحر بألوانه الداكنة عند أقدامها. نبتت على ظهر آرابيا من شدة

المد والجز سبع هضبات متقابلة يبدو أنها شيدت على بقايا مدينة رومانية قديمة. الوجوه مقطبة تبحث عن مرافئها، داخل الفضاءات الواسعة. كل شيء خسر ماهيته وألوانه، ويبدو أنه حتى التنفس سيصبح بعد أيام قلائل مستحيلا بدون ترخيص مسبق. تساءل الجميع، ما الذي تغير داخل هذه المدينة التي ينخرها الحزن والخوف من المجهول والدّود الذي جاء مبكرا؟ السرقة، القتل العلني، الإختطافات، أصبحت من يوميات آرابيا. الكلاب تعض الغادي والرائح، النباح يزداد ضراوة. الصرخات تُسمع في كل مكان، كلما نزلت الظلمة.

كل الناس يقولون إن التاريخ ملّ من تدوين الكذب، والحزن والجراح التي تعفنت. لا شيء تغير في جملكية آرابيا سوى بعض المسميات التي لم تغير شيئا. نفس الرتابة، ونفس القلق، نفس الرعب الداخلي.

أنا لا أفهم الشيء الكثير في كل ما أراه، قال بشير إلموِرّو في خاطره. كأني سحبتُ ورائي محاكم التفتيش المقدس. أصداء أوامر توركيمادا وزمنير تملأ الآذان. ما الذي تغير يا ابن أمي؟ الحاكم هو الحاكم. خرج من كتُب التاريخ المهزوم ليتحوّل إلى حقيقة مطلقة. أسماؤه تعددت مثل عظماء روما. الفقير في هذه البلاد لا يختلف عن سبارتاكوس، لا يحق له إلا اسما واحدا ويتيما. أما هو الحكيم، الحاكم بأمره، المولى الهمام، وفارس الفرسان، ملك ملوك العرب والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. الثوري الأعظم. له الأسماء كلها، مثله، مثل الأسلاف. الذين يعرفونه جيدا. يقولون إنه جِيء به من خلاء غير معروف، منذ زمن بعيد، يتجاوز الثلاثة قرون، ربما منذ الحاكم الرابع. بعضهم لا يبحث كثيرا في الحفريات، يقول إن أصله يعود إلى ٢٩٥ هجرية، كان عمره ثلاث عشرة سنة عند استولى على الحكم، وطُرِد منه بسرعة، وعندما اشتد الغليان، دَخَلَ بني كلبون البلادَ، واحتلّوا قلاعها ومداخلها. وضعوا على رأسه تاجا وأرجعوه إلى سدة الحكم وأجبروه على بعض الإجراءات الديمقراطية، من بينها نزع كلمتي،

جمهورية ومملكة لأن الوقت تجاوزهما، وأصبحتا نشازا في الفقه السياسي، وتعويضهما بمختصرهما المدمجين الجملكية، وسمّي هو نفسه حكيما لرزانته الكبيرة وسداد رأيه ورؤيته الثاقبة لعيون أعدائه. وحين دفعوا به إلى واجهة التلفزيون في خطبته الأولى، شرح كل الإجراءات التي قام بها: قال مرددا ما أُمليَ عليه: «**النظام الملكي أصبح مستهلكا وظالما، وقديما. فالملوك إذا دخلوا بلادا أفسدوها. أما الرؤساء إذا دخلوها نهبوها. فكرة النظام الجمهوري التي تملأ القلوب والأفئدة، لم تعد صالحة لأرض مثل أرضنا. يجب أن نختار دائما الطريق الوسط، فنحن في النهاية أمّة وسطا. الوسط هو أفضل الطرق نحو التطور. خير الأمور أوسطها. نظام الجمهورية أصبح من اليوم جرما يعاقِب عليه القانون. فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة.**» في الفترات التي أعقبت عملية التنصيب، أحاط نفسه بجلال الكرسي الأجنبي، فعين أمه قهرمانة في بيت الحريم. كان يذكُرها في كل خطبة رسمية أو غير رسمية، مقياسه الأعلى في التضحية، .كانت تقول له دائما، إذا أردتَ أن تحكم طويلا كلبك، فما عليك إلا أن تجوعه حتى الموت، سيلحس رجليك مع الزمن، ويطيعك بشكل أعمى. إحدى خادمات أمّه، كانت تقف في ديوان المظالم عندما تكون أمه نائمة أو متعبة أو غير مستعدة، وتنظر في الدعاوي وتوقع عليها. تعري الناس في حضرته، وتعبث بأجسادهم كما تشاء. علمته كل أنواع العبث بالأجساد، مكامن قوتها وضعفها، وطرائق إتلافها. أضافها إلى ما تعلّمه من أجداده من أساليب القتل والتعذيب.

يقول الذين تفحّصوا الورق السرّي، المخبوء في صدور المسنّين، إنه حتى عندما لعب لعبته الأخيرة، بعدها بزمن طويل، وواجهه ابنه الأوحد قمر الزمان، بالسيف ليقطع رأسه، وكان وزيره المخلوع الطاووس بن أمه أول من اندفع باتجاه دهاليز القصر والمخازن، فوجدها مملوءة بالجثث، كان زمن الحاكم بأمره قد انسحب نهائيا وقدره قد خُطَّ نهائيا. ديمقراطي في كل شيء. يقول الحاكم بأمره، إن الديمقراطية هي

الصّفة الوحيدة التي لن يتنازل عنها أبدا مهما كان الأمر ومهما كانت النتائج، ولهذا طلق زوجته الأولى عزيزة التي سمى القصر باسمها، ببيان رسمي متلفز أصدره في مجلس الأمة. طلّقها لأنّ الدعاية التي راجت حول شرعية ابنها هزت أركان الجملكية. في البداية عزلها، قبل أن يأكل رأسها. حتى دنيا كانت تخاف من تهوره وتدرك أنه إذا لم تأكل رأسه في وقت مبكر، سيأكلها هو لاحقا. قال في مجلس الأمة إن زوجته الأولى تجاوزت حدود الله ومع ذلك فقد سامحها، لكنها بعد أربع وعشرين ساعة ماتت بسكتة قلبية عند باب المسرح الوطني، الذي كان وقتها يعرض مسرحية جديدة عن خصال الحاكم بأمره. التقارير السرية تحدثت عن موتها بالسمّ. نفض هو يديه وقال في التلفزيون الوطني، في صورة مكبرة: الآن أتممت شؤوني، وأفضيت عليكم نعمتي. وهو يتململ في لباسه الحريري، ويهمّ بالخروج من مجلس الأمة تمتم: أبناء القحبة. ظاهرة على وجوههم، الابن لم يكن ابني أبدا، فرخ من فروخا الأحياء القصديرية. كان يشخط في وجهي وهو صغير، ويتدخل بيني وبين أصدقائي الأجانب، ابنة الكلبة يبدو أنها نامت مع زنجي لأن أسنانه كانت بيضاء مثل الحليب، وفي وجهه شيء ليس مني ومن أجدادي. كلفت الدارسين في الأعراق، من أصدقائي الشماليين طبعا، فلم يجدوا لي ما يبرر شكله. لو فعلتْها مع أصدقائي الأجانب لكان الأمر هيّنا، أولا تساهم في تحسين النسل، ثانيا وهذا هو الأهمّ، فهم متعودون على كتم الأسرار، أما خدامنا، الواحد فيهم لا يحلم بحظ مثل هذا ينزل عليه من السماء. إذا نام مع إحداهن، يعتبر ذلك فتحا مبينا، ومكسبا وطنيا عظيما. دنيا أعرفها، ليست مثل دابة الغواية شهرزاد، فهي تركبهم جميعا وتحولهم إلى مجرد حمير، قبل أن يركبها أي منهم. تعرف جيدا ما عليها فعله. تمارس الجنس مثل الجنية. علّمها أصدقاؤها الغربيون أن تكون في قمة البهاء قبل أن تنام مع عاشقها. عندما تدخل غمار اللذة تصبح فوضى التداخل الجسدي هي قوتها العالية. تحبّ الوفضويين الذين أكرههم. وتعشق الكلب الأعمى باكونين. النقطة الوحيدة التي أتفق فيها

مع الماركسية، هي هذه. أعرف ما لا تظن أني أعرفه. موتها لم يَحِنْ بعد. أنا في حاجة ماسة إليها لكي أخرج من هذا البؤس القاسي وبعدها نرى، فلكل حادث حديث. عليَّ أن أصنع لها مصيرا آخر غير الذي خصصته لعزيزة ولابنها الذي صلبته عند بوابات المدينة لأن الديمقراطية والمصلحة العليا للبلاد فرضت ذلك. دنيا أيضا ذئبة محترفة. عندما سألتها عن سرّها الدفين، قالت لي بذكاء غريب: وهل أخفي عن مولاي إلا ما يضرّه؟ اتْرُكْ كل شيء لليلة الليالي، فهي الأكبر والأضمن. بعد هذه الحادثة بزمن طويل، طويل جدا، أجابته بشيء من الدوران كان يكرهه: قالت إن الحاكم بأمره كان عقيما، وكان في حاجة إلى وريث يضع كل هذا الخير بين يديه ويسير به بعيدا نحو الرقي والتطوّر. وأضافتْ وهي تحاول أن تقرأ في عينيه المرهقتين وهو في النزع الأخير من صبره: لم أفعل شيئا يا مولاي سوى أني نِمْتُ مرارا مع أحد الصحفيين، ثم تلعثمت عندما هربت منها لغتها الاعتيادية: ربما كان سائحا عابرا لأني عرفت يا مولاي أنك كنت عقيما وعاقرا. حتى أصدقاؤه الأمريكي الفرنسي،الألماني يؤكدون على ذلك. كان عقيما وكان يعرف الحقيقة بينه وبين نفسه لأن كل الفحوصات التي أجراها في المخابر الدولية بينت هذا العجز. حتى حينما حاول أن ينتفض من مكانه بعد هذا بزمن قصير، أي قبل اجتياح القصر وحرقه بساعات قليلة، ولم يبق من ليلة الليالي إلا وقتا ضيقا، كان كل شيء قد انتهى. قالت له: يا مولاي أخطأتَ في كل شيء، حتى في قوتك. أجلستْ ابنها قمر الزمان على كرسي السلطان لمدة محدودة، ليظهر مرتبكا على شاشة التليفيزيون في خطاب الأمة، وتنسحب بعدها باتجاه المخازن والأنفاق، بين، الجثث تبحث لها عن معبر للمرور نحو الطائرة المروحية التي كانت تنتظرها في زاوية مظلمة. كانت ألسنة النار قد بدأت تدخل من النوافذ والأبواب، وأصوات البارود تزداد قربا لدرجة أحست معها أنها في عمق القصر. كانت الساعة الأخيرة من ليلة الليالي قد توقفت نهائيا. لم يكن من الممكن إطلاقا تمطيطها ولو ثانية واحدة، لأن ليلة الليالي كانت قد

ختمت الزّمن الماضي والحاضر الميّت نهائيا. انتهت الليلة الأخيرة، التي كان فيها حكام الجملكية، ينزلون إلى الأسواق، وإلى دور النخاسة، يتفقدون الأوجه الملونة للحصول على جارية تضاف إلى الحرملك، أو على بعض الغلمان المخلدين. فقد كان أمراء الجملكية معجبين جدا بصوت نشوان، ويحملون بأرواك خزامي. زيجات كثيرة، تبدأ بشهرزاد، وتنتهي بدنيا التي وضع صاحب آرابيا بين فخذيها اللذين لا يفتحان بسهولة، كل الأملاك، ورؤوس الرعية. قال للصحفيين الذين سألوه عن زوجته الجديدة بعد مقتل عزيزة أو موتها بسكتة قلبية؟: المرأة نصف ديننا وثلاث أرباع دنيانا. الواجهة النسوية الوطنية يجب أن تكون محلية وجميلة، لتعليم الرعية الهوجاء الذوق والرقة وفتوحات الموضة. وأحاط نفسه أيضا بالإنجلزيات والأمريكيات، والفرنسيات، والإيطاليات. يقول في خلواته لندمائه، إن المرء عندما يركب أجنبية، فهو لا يركب امرأة، ولكن حضارة بكاملها. لكنه في الهزيع الأخير من ليلة الليالي، ظل يستجدي أن تُضاف له بعض الثواني، لكن الزمن كان قد مر، وكانت فيضانات الدم تملأ الشوارع، والأدخنة تعمي نوافذ البنايات العالية، والشمس تحاول أن تصارع بصعوبة غيمة الشتاء والحرائق الثقيلة. كانت علامات النهاية قد تحولت إلى حقيقة مدمرة.

قبل هذا الزمن الذي انتهى في رمشة عين، بفترات قصيرة، وفي لحظات ارتباك مضيِّعة، قال الحاكم بأمره: الدنيا تدور دورات غير عادية، وغير آمنة، يجب أن نغير ترتيب الأشياء وأن نصلح كل شيء. ثورة جديدة على التقاليد الميتة. يجب أن لا يمس الإصلاح فقط أعلى الهرم، بل حتى المناصب الصغيرة، فالخراب قد يأتي من التفاصيل. وبموجب هذا القرار، أصبح الخياط قاضيا، والقاضي شحاذا، خلع هذا الوزير، وسمل عيني ذاك. عمي الطاووس بن أمه، كان ممن شملتهم هذه الرعاية العجيبة في ذلك الوقت. وزج بالكثير من أقربائه إلى السجن. رافق ذلك تسميمه لزوجته عند مدخل المسرح الوطني، وصلب ابنه الذي شكّ في نسبه أمام الملأ، كل ذلك من أجل تحسين وضعية

البلاد والسير بها باتجاه المجتمع الديمقراطي الجديد الذي لا يقبل بشخص فوق القانون. أحيانا يحلو للحاكم بأمره أن يعتز بأجداده، وفي أحيان أخرى يرفض كل نسب إليهم. يحبهم لأنهم لم يسلّموا الحكم للرعيان. قبضوه من رقبته، وحمّموا المدن بالدم والدموع حفاظا عليه. أرّخ هو شخصيا في كراسته الصغيرة، ثم في كتابه المذهب: *تاريخ الأجداد*، لأكثر من ألفي مأثرة من هذا النوع، لأكثر من عشرين جدا، الأول قلب نظام والده وسرق من تحته الكرسي الذي التصق بمؤخرته ولم يُنزع منه إلا بعد ما أحدث فراغا داميا في اليتيه المنتفختين. الثاني أكل رأس أخيه بلا تردد. والثالث قتل العائلة بكاملها والجيران، والذين يحملون ودا للسابقين من آل البيت، هكذا كان يسمّي عائلته. الرابع جلس على الكرسي، وفي يده سيف ثقيل هو نفس السيف الذي قطع به رؤوس العائلة ونفسه الذي، قُطع به رأسه قبل أن يُرمى في أنفاق القصر، ويُدفن بين الجثث بدون فونفار ولا موسيقى جنائزية وقيل إنه انتحر. وظل أبناء الحاكم الجديد، يتقاتلون، ولما جاء أكثرهم ثقافة وحبا للرعيّة، حكم يوما واحدا ثم قُتل. حينما أراد أن يصلح البلاد، طالبته قيادة الجيوش المستوردة من الخارج بزيادة الرواتب، كانت البلاد منهكة. استنجد بأمه التي كانت تملك أكثر من مليوني دينار ذهبي، لكنها فضّلت أن تتركه يموت. في البداية مُنِع عنه الماء والشراب، وحين أصرّ، لم يجد إلا سفودا ساخنا، أُدخِل في قلبه حتى خرج من الظهر وهو ما يزال يحافظ على حمرته. بعدها فُرجت رجلاه، وجِيء ببغل ثقيل، فرفس خصيتيه بقوة حتى صعد الدم اللزج إلى أعلى سقف حجرة التعذيب. أخوه الذي جاء بعده، مات مشنوقا. سلم كل شيء للعسكر نكاية في أخيه واستفادة من تجربته، فأكلوا رأسه وخلعوا أصابع يديه ورجليه، وتركوه يوما بكامله ينزف في أحد الدهاليز، ثم نكّسوه على شجرة خرّوب يابسة، وتركوه هناك حتى يبس وتحلل قسم كبير منه. استأثر الآخ الثالث بالحكم بعده، كان مريضا بالنقرس والفيل، وضَجَرَ الناس من حمله فقُتل مسموما. وحين جاء الجد القريب من الحاكم

بأمره، صاحب جملكية آرابيا، وضع الخزينة بين فخذي قطر الندى بعدما التهم نيران الثورات كلّها، ووضعها في جيبه وحوّلها إلى أيام زادت في عمره بعض السنوات، وانتهى بين منافذ البحرين وأبواب الجوقة. بعد زمن طويل من هذه الانتكاسات اعتلى الصبي الذي لم يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة، سدة الحكم. خلعوه، ثم أعادوه. ارتكب حماقة سياسية خطيرة، حينما قال، آن الأوان للتفكير في استقلال البلاد وإصلاحها. ويقول حكماء المدينة إنه كان ينوي تطهير الجيش من الداخل، والاكتفاء بالقربى وآل العشيرة، وتنظيف جهاز الحزب من البرائين التي تعيق تطوره. كان مصمّما على بعض التأميمات، فبعض القصور والفيلات التي كان يملكها أناس خارج العشيرة، سحبها بعد أن أخرج سكانها، وأعلنها أراضي مؤممة، وضمّها مع الزمن إلى حضيرة العائلة الحاكمة. كما صمم على تأميم القناة الوحيدة للتليفزيون قبل أن يعددها لتبث خطاباته، من القصر مباشرة. هي نفس القنوات التي ستبث، بعد زمن غير قصير، صورة آخر حكام الجملكية قمر الزمان ابن الحاكم بأمره بعد أن مُلئ وجهه بالمساحيق وملأت الطاولة التي كانت أمامه بالألعاب الحربية، بجانبه امرأة شقراء قوية البنية تصحّح كلماته المتقطعة والمرتبكة: أنا حاكمكم الجديد، لقد قمت باطلاق سراح كل المساجين، من بينهم عمي الطاووس بن أمه، وزير الثقافة سابقا والشحاذ حاليا، وطالبت بإعادة الاعتبار له ولغيره. وسمحت بالحوار اليومي في الطرقات وضدّ أن تختصر في الليلة التي تلي مرور سيدنا الخضر وهي تصادف يوم السوق الشعبي. أعلنت التعددية السياسية والإعلامية، ورفعت بدءا من الليلة حضر التجول وألغيت قوانين حالة الحصار المضروبة على البلاد منذ نصف قرن. لكنه وصل متأخرا، لأن كل شيء كان قد انتهى. لم يسمعه أحد. ربع ساعة الأخير كان كافيا لأن تروى فيه نهاية عصر بكامله من اللاجدوى. والد الحاكم بأمره، عندما انتعل البلاد، لم يكن الأمر صعبا بالنسبة له، فقد وجد جهاز التيليفزيون مؤمما قبل ذالك بزمن. فسخره لكل القضايا التي لها علاقة بمصير الأمة لمدة

نصف ساعة يومية. في عهد الحاكم بأمره، تحولت النصف ساعة إلى برنامج يذاع في كل أوقات الفراغ، حيث يذرف الحاكم بأمره الدموع المذرارة حزنا على الرعية والناس الذين يقاسمونه نفس الشعور بالحزن على السابقين الذين ملأوا تاريخ البلاد بطولات وتضحيات من أجل الصلاح العام. فتنكفىء وراءه كادرات الحزب، والدولة بكاملها وهي تذرف الدموع، مصطفين الواحد تلو الآخر، مثل صلاة الجمعة، يلبسون الألبسة الخضراء المزركشة، في أياديهم محارم مطرزة لتنشيف الدموع.
ذات مرة عثر عسس القصر على مواطن صالح يبكي قالوا له: مما تبكي يا هذا؟ قال: من دموع سيدي. قالوا كل هذا الحب؟ قال: أكثر لقد مللناها، كرهتنا حتى صرنا عندما نريد أن نبكي نشعر بالخزي والعار واللاجدوى. وأضاف: انصحوه الحاكم بأمره، قولوا له أنك لم تعد مقنعا، بهدلنا أمام الدنيا والآخرة، وإن دموعه أصبحت مثيرة للشفقة.
قولوا له إرحل... إرحل قبل فوات الأوان. إرحل، لأنه بعد فوات الأوان لن ينفعه أي شيء. بدون استفسار أو محاكمة، نزعوا لسانه من الحلقوم في اللحظة نفسها. حين حكوا القصة للحاكم بأمره، كان يستمع بغفوته الاعتيادية، قال لهم: آتوني به، أريد أن أشرب من دمه وأستعمل رأسه المقعر لشرب الخمرة. حين عادوا إلى الرجل، وجدوه قد لفظ أنفاسه من شدة النزف. ساورهم خوف من ردة فعل الحاكم بأمره. يعرفون جيدا أن العودة بدونه ستكلفهم رؤوسهم. انتظروا على أحد أطراف الشوارع الخلفية، ثم سطوا على أحد المارة، كان عائدا إلى بيته. لم يسألوه عن هويته. نزعوا لسانه، ثم كمّموه، وعيناه مشدوهتان لا يعرف سرّ ما كان يحدث له. وحين وضع بين يدي الحاكم بأمره، قال له أحك! ماذا كنتُ تقول يا ابن الكلبة في شخصي؟ لم يستطع لأن الألم كان يملأ فمه والدم يفيض من بقايا لسانه. عرف أنه سيموت. جمع بصقه دامية، ثم أطلقها على وجه الحاكم بأمره، فرسم خطا مستقيما لزجا على جبهته العريضة، فحز رأسه بسكين مثل الشاه ثم عاد إلى الكرسي يواصل غفوته، قبل أن يستيقظ على أحد الانفجارات القريبة.

طمأنه الحراس بأن الأطفال يمرحون بالألعاب النارية احتفاء بخطابه الأخير.

ابتسم، ثم عاد إلى غفوته الأولى بعد أن سمع ما كان يشتهي سماعه.

كانت الأفكار تتزاحم بقوة في رأس بشير إلمورّو. لم يستطع أن يتحكّم في اندفاعها كأمواج بحرية مجنونة، لكن وضوحها كان دقيقا.

إتّكأ بشير إلمورّو على بقايا حائط تكَسّر الأمواج. بانت له المدينة متداخلة على الرغم من وضوح دروبها وشوارعها. بحلق طويلا في تجاويفها المظلمة وفي بعض زواياها. المدينة التي تنام الآن على الهضاب الكثيرة التي أحدثتها الزلازل البحرية المتعاقبة لم تكن بعيدة عن ذاكرته. لا يمكنها أن تكون غرناطة، تمتم في أعماقه. غرناطة لا تشبه في شيء آرابيا. كانت قلعة علماء المدينة تبدو من موقعه الساحلي مثل نقطة ضائعة في الأفق، عائمة في كتلة من الضباب الكثيف الذي يرتسم كل صباح وكل مساء في الأعالي. لقد نصحوه كثيرا بالحذر فوضعية آرابيا لا تبشر بأي خير، ولكنه ظل عاجزا عن التخفّي والنوم براحة بين حيطان القلعة.

لم أكن أعلم أن الدنيا ما تزال حية في أفواه المجانين وأصحاب الحلاقي. عَلِمتُ لاحقا علاقة سيدي عبد الرحمن المجذوب بسكان القلعة، لأن ما حدث في السوق من قلاقل وحوادث، كانوا على علم به من الأول حتى الأخير. بل كانوا يحرّكونه من بعيد. في لحظة من اللحظات كدت أن أصدق أن ما حدث لي ليس إلاّ وهما، ولكن كان من الصعب عليَّ أن أنسى كل ما حدث لي، وما رأته عيناي. كانت ماريوشا هي ضوئي الوحيد. حتى عندما أُدخلت إلى السجن، كانت وسيلتي بيني وبين العلماء الذين قال لي شيخهم الأكبر، شارحا لي ما غمض من الحكاية، العيون التي كانت تستهدفك كثيرة، حتى سيدي عبد الرحمن المجذوب خاف عليك، عندما رآك تدخل إلى الساحة، محمَّلا بالغبن والحنين والحكايات التي لا تموت. كانت العيون الطيبة المندهشة تتسابق

نحوك. سمعوا بك وفوجئوا أن يروا وجها غائبا ومغيَّبا يعود من جديد. هل نقول لك مرة أخرى، إنه كان عليك أن تظل مختبئا وراء اللثام؟ تلك حكاية أخرى، لأننا نعرف أنك لن تكون إلا أنت، وأنك ستعصى كل الضوابط والأوامر. وأنَّ كلامنا الرّادع لك، سيكون كله قاصرا، لأنّ حنينك كان أكبر، ومجيئك تجاه هذه البلاد علامة. علامة كان على الجميع فهم سرّها وعدم كسر عنفوانها. كان المجذوب وماريوشا التي رأيتَها لأول مرة عند رماد سيدنا النينوي وتذكّرتها بقلق غير واضح في البداية، يريدان رؤيتك عندنا. لكنّنا أجّلنا كل شيء إلى الوقت المناسب. قلنا لهما يجب أن لا نستبق الزمن، لأننا عندما نسبقه أو نحاول أن نلحق به، نكون قد ارتكبنا حماقة تجاه العصر والوطن. العلاقة المثالية بالزمن يجب أن تأتي في أوانها. قلنا لهما أيضا، ستعرفانه في أعماق الناس، ولهذا، عندما رأى المجذوب، وماريوشا غرناطة والمارية في بؤبؤ عينيك، أخذتهما رجفة الاكتشاف. قال لك سيدي عبد الرحمن المجذوب، في لحظة الدهشة المصحوبة برجفة حادة: يا سيدي مجرد حمّى وتمضي، لكنّها لم تمض، فبدأ يعوي مثل الذئب في خلاء مقفر. وحين كنت قد توسطت الساحة، كان لحظتها المجنون قد مات، وحل محلّه الرجل العاقل المنظم سياسيا وحزبيا، وانسحب رقّاص الثعبان بوسكة، وبياع الأعشاب الطبية، ونهض الرجل الذي لم يعد مستعدا للتخفي من جديد. لقد تعب سيدي عبد الرحمن المجذوب.

سأل بشير إلموريّو، الشيخ الذي كان يروي الحكاية بتأثر بالغ ارتسم في عينيه وعلى كل ملامحه: وهل أسأتُ إليه أيها الشيخ الطيب؟ قال الشيخ وكأن الكلمات كلها كانت على طرف لسانه: لا يا ابني أنت لم تفعل أكثر مما أوكل لك فعله من حيث لا تدري. لقد أنهيتَ دوره فقط، وأدخلتَه في دائرة أخرى. الجنون ليس حالة فقط، فهو فعل حاد وكبير للتواصل الآمن. كان عليه أن يصبح شيئا آخر عندما تغيرّت اللحظة. لم يكن بإمكان الدنيا أن تتحمل حالات الاستسلام والخراب الذي لحق بآرابيا.

- أي حزن يا شيخنا يأكلني الآن؟ أيحدث هذا، وأنا الذي كنت أنوي أن أوقف لعبة الخراب التي أكلت البلاد وتاريخها، وأَنْشُدُ حنيني الذي في قلبي. وأساعد سيدي عبد الرحمن المجذوب على ملء فراغات الباخية؟

- أنت لم تفعل ما يضرّه. لقد حررته من ثقل أكيد. نقلته من الجنون إلى العقل ليجد نفسه في مسالك أخرى يرى هو أنها أهمّ.

أتذكر يا شيخي، يقول بشير إلمورّو، في المس الذي أصابه فجأة، كان فم سيدي عبد الرحمن المجذوب مليئا برغوة الأشواق والحنين، والدهشة. كانت عيناه تدوران لدرجة الاستكانة على البياض فقط، وغاب البؤبؤ داخل موجة الصراخ والندب والبكاء. تمرغ مثل الطفل الصغير. الحاضرون اندهشوا من دروشته العجيبة. أيعقل أن يعذب الجنون صاحبه حتى التهلكة؟ مسح الرغوة من طرفي فمه، بكم يده وبدأ يعوي من جديد في منتهى الدهشة والارتباك: هو أنت يا سيدي. لقد تأخرت كثيرا.. تسع سنوات بعد القرون الثلاثة أو الأربعة؟

تمنيت في تلك اللحظة أن أظل ملثما، أعيش قداسة المشهد، ولكني وجدت نفسي داخل الدائرة التي اتسعت وانغلقت عليَّ. صمت فجأة كل شيء. حتى سيدي عبد الرحمن المجذوب، وعينا ماريوشا اللتان لم ترمشا، ظلا في حالة هي مزيج من الخوف والرهبة. فجأة غابت جملكية آرابيا داخل نقطة دم استحمت بها عيناي، وسقطت في جوف المدن القديمة، فبدأت ملامح غرناطة تتشكل شيئا فشيئا... حي البيازين، جبال البشرات، هضاب المدينة السخية، حرائق المماليك وخياناتهم، انقلابات بني الأحمر... فجأة رميتُ اللثام، تخلّصت منه في سرعة برقية لم أكن قادرا على التحكم فيها، وأنا لا أدري هل اليد التي فعلت ذلك كانت يدي أم يد غيري؟ أردت أن أختصر الحكاية لكن وجه جدّي المتعب بتربة جبال البشرات، والأرمادة، وعيني القرصان الإيطالي، وصرخات حمود الإشبيلي، ملأوا علي حضوري. نسيت نفسي ولبستُ جنون اللحظة. كان سيدي عبد الرحمن المجذوب يغرق

داخل غيمة الدهشة، يغرق، يغرق حتى ينتفي في عمق الحكاية ولم أعد أسمع إلا صوتي الذي كان يأتي من رماد الحروب وأدخنة المعارك: يا سادة الخير، العمر مثل الفلك يدور والمتعة لحظة وتزول، والقيامة آتية لا ريب فيها. المراجل لم تعد تطيق الرماد، تبحث عن جمرتها المتقدة في قلوبنا أو ما تبقى منها. وقبل أن أنهي الدورة الأولى داخل الحلقة، قال أحد الحاضرين، وهو يحاول أن يوصل كلامه لجاره فقط: هذا السيد مجنون، أكثر من سيدي عبد الرحمن المجذوب. يقول إنه صاحب الحكاية، الله يحفظنا من مظاهر القيامة. كان وجه سيدي عبد الرحمن المجذوب قد بدأ يستعيد صفاءه المشعّ. تعذب كثيرا، قبل أن يولد من عمق الخوف الذي غادر عينيه فجأة. قال آخر: عرفت الآن لماذا أخّر المجذوب نهاية الباخية كل هذا الوقت. هذا كلام المهدي الذي وعدتْ به الحكاية والكتب السماوية. لا يمكنه أن يكون رجلا عاديا. لم أتمالك نفسي وأنا أسمعه. صرختُ بأعلى صوتي حتى اهتزت أركان الحلقة:

- لا. لا. لا لستُ المهدي المنتظر، لا أملك سحره ولا تاريخه ولا جبروته، ولا حتى جرأته. لست أكثر من بشير إلمورّو الذي أحرق قلبه وعشبة روحه الحية، مقابل التربة التي لوّنت الذاكرة. لست قصة أو مجرد حكاية. فأنا بشر من لحم ودم وعظام. أعفوني من أوهام المهدي المنتظر.

- أحك يا سيدي، أحك ولا ترد على الناس، قلوبنا معك.

ثم التفت سيدي عبد الرحمن المجذوب نحو الحضور:

- أطلبوا له السلامة، فهو في جحيم التاريخ المحروق ورماده.

- كل الخير والعودة الميمونة.

صاحت الأصوات جماعيا وعيونها مثبّتة على عيني.

- أحك يا سيدي، أحك ولا ترد على الناس، قلوبنا معك.

كرر المجذوب الجملة نفسها وهو يحاول أن ينام في حجر ماريوشا

التي لم تكن لتصدق ما تراه بسهولة. تذكرتْ لحظتها بالضبط أنها رأت بعض هذه الملامح المرتبكة، عندما صُلِب سيدنا النينوي في ذلك الفجر الأسود. حتى بشير إلمورّو يتذكر أنه رآها. رآها قبل هذا الزمن، في أرض ما، وربما تحت سماء أخرى. تذكر غرناطة في آخر حرائقها وشعلاتها. تسمر في مكانه. كان حريق مهول قد نشب بداخله بقوة حتى سمع جسده يتكسر كالحطب اليابس. رأى أشياء كثيرة، وهي تندفع بقوة باتجاهه، ولم يوقظه إلا صراخ أحدهم وهو يناديه باسمه:

- يا الموري الأندلسي، أو بشير. يا سيدنا الجليل. نحن ننتظر البقية. كل شيء بقي معلقا في الفراغ ونحن أيضا بقينا معلقين داخل اللاجدوى.

تمتم بشير إلمورّو بكلمات غامضة هو نفسه لم يلمس معناها.

- ن.ق.م.ي. نون، والقلم وما يسطرون. ل.ت.ف.ك.و.ي. ألم ترهم في كل واد يهيمون؟ سر الأسرار. حروف القلب وذاكرة العاشقين. وإرحمنا يا معين. ارحمنا وضعنا في قلبك وحنينك، فلن نقول إلا ما يقوله القلب من جراحات.

كانت غرناطة، يقول بشير إلمورّو، تلبسني، والمارية تفتح قلبي مثلما يفتح المحار قوقعته. وجه ماريانا كان ممتلئا بالفرح. روائح الأسواق الشعبية تغطي كل شيء مثل الغيمة الدافئة، العود القماري، عود النوار، أصوات الباعة، العطور الهندي، أشياء مذاقها مذهل على رأس لساني وحلقي.

كانت عيون الحاضرين متعلقة به. تتسلقه بهدوء، ثم تنزل رويدا، رويدا، كل واحد يحاول أن يجد تفسيرا لقصته في أعماقه. المجذوب كان، قد استسلم لأنامل ماريوشا ولدفئها. يغمض عينيه المتعبتين وهو الرجل الذي حارب الشرطة وكتّاب الدواوين على مكانه في السوق حينما أرادوا إزاحته، بقوة وصلت حد الصراخ والندب في قلب السوق. لم يفلحوا بالرغم من كل التهديدات التي مارسوها ضده. قال للذين يملكون زمام الأمور وسلطان القرار: مجنون. اتركوه، لا تحولوه إلى شهيد قبل

الأوان وإلا ستندمون. لا تخدموه بقتله؟ أخدموا أنفسكم بتركه حيا، سيأكل رأسه من تلقاء نفسه، وربما... مع الزمن سيموت في حادث سيارة أو بسكتة قلبية. لن يحرّك نملة، لن يصدقه أحد إلا المجانين الذين لا يقتلون ولا يحيون. وماذا لو استحالت الدنيا كلها إلى مجانين؟ فتح بشير إلمورّو ذراعيه عن آخرهما، في شكل صليبي. بعدها حدث الذي كان يجب أن يحدث. وسارت الحكاية مثل النهر الجارف آخذة في مسالكها كل ما كان يسدّ طريقها.

- كانوا يا سادة يا كرام صغارا، عيونهم تصفق للرايح والجاي، وتراقص مثل عيون الطير. شيء جديد كان يرتسم في الأفق لكن لا أحد كان يعرف أسراره. المصائر أيضا كانت معلقة على مناقر النسور التي كانت تذهب وتجيء مثقلة بالأخبار غير المطمئنة. كانت السواحل كل يوم تزيد انغلاقا عليهم وعلى أشواقهم. كانوا هنا حيث البحر يذكّرهم في كل لحظة بالمخاطر التي كانت تنتظرهم، واقفين، أياديهم على قلوبهم، ونظراتهم مرتشقة باتجاه الأمواج التي كانت تتكسر أصداؤها على الشاطئ المهجور. لو يتذكر هذا الرمل الذي يتسرب بين الأصابع سر الأشياء، سيقول ألما لن تكفي السنوات المتتالية لروايته في تفاصيله القلقة. لو كان الموج يتكلم، سيتحدث عن حرائق القلب التي اشتعلت في أعماق الناس وأردتها رمادا حتى قبل أن يضعوا أحزانهم الأولى على عتبات الركوب وتخطّي حواجز المهالك.

- مولاي الموري الأندلسي، حبيبي بشير الهارب، المنفلت كنور الصحابة، إبكِ... إبكِ يا سيد البحر والموج والألواح كلّها، ملك الحكاية وسلطانها، إبكِ، نحن معك... كلما هرب دمع منك شعرنا أن حرائقك فينا نحن أيضا...

لم يسمعه بشير إلمورّو لأنه كان قد غرق في سحر الحكاية. لم يكن يرى شيئا سوى حرائق وأحزان أندلسية كانت هي سيدة شجنه وكلماته.

- هو الرمل يغادر شواطئه بخوف كبير. هي الأسماك، يُسرق من عينيها لون البحر الذي لا يستقر على لون واحد. لقد ذابت الكلمة في

الحياة، والحياة في الحكاية. أحرّ الدمعات وأقساها ألما، سرقها القرصان الإيطالي والبحر الملوث بأصداء قاسية ومتواطئة. آخر الابتسامات وضعتها محاكم التفتيش المقدس على مناضد التعذيب والحديد والنار. سأصنع معكم أناشيد غرناطة المسروقة. سأبحث عن كلمات الجذب التي دفنت في الأزمنة الفائتة، استحضرها لكي لا تقتلني الشهقة، ولتكن شاهدي الأعظم في هذه الباخية. أنا لست هنا لاسترجاع مجد لم يعد لنا بعدما استرد صاحب المال ماله. الأندلس غزوناها واستعيدت منا بعد أكثر من ثمانية قرون إلى حضن صاحبها الأول. لقد بنينا الخراب، وشيدنا النور في الفلوات، ونحتنا في عمق الصخر الميت مساجد وكنائس لن تموت أبدا، في صلب مدن لم تكن تملك سوى البحر والكبرياء الزائف. كان طارق بن زياد البربري، هو سيّد الطريق البحري. لقد ركب رأسه واستقل سفنه بحثا عن عالم آخر. فوضع نفسه في مرمى الغيرة التي حكمت الأندلس حتى احتراقها النهائي. غيرة موسى بن نصير ملأت عينيه رمادا. وظلا يتبادلان الأدوار حتى الموت، حتى اتخذ الخليفة الوليد بن عبد الحق في ٧١٥ قرار استدعائهما من الاندلس. صرخ في وجهيهما بتعنيف شديد. الغيرة التي ظلت تحرق موسى بن نصير هي التي أوصلته على اتهام طارق أمام الخليفة بالاستحواذ على الغنائم هو وقُواد من الجيش المكون أصلا من الفيالق البربرية القادمة من جبال ولهاصة والزناتة والنفزاوة. كانت دمشق غربته حتى الموت أو القتل. الحقد أعمى. الأندلس لم تسقط بعد قرون ولكنها سقطت في اللحظة التي بدأت فيها المعركة السرية بين طارق وموسى بن نصير. عادت الأرض إلى ذويها، لكن هذه المرة كانت مليئة بأناشيدنا وأشواقنا وحنيننا الذي لن ينكره علينا إلا مجحف.

- واصل يا ابن أمي واصل، لقد أدخلتنا في دوار الهبل الذي لا يعرف سره أحد غيرك. واصل. كل الناس يرتقبون حوافك القلقة في سفينة الموت.

قال المجذوب وهو يحس عميقا بما كان يرقص في عيني بشير

اللتين اتّقدتا فجأة بنور غريب لم يفهم سره إلا بعد زمن لاحق وأن بشير إلمورّو لم يكن يسترجع ذاكرة فقط، ولكنه كان في صلب حرائقها.

- اسمع يا خويا المجذوب، بيننا ذلك الخيط الرفيع من النار المقدسة وشعاع شمس ملون بألوان لم نرها إلا في الأحلام. أنت تناجي حيوانات في الحديقة الوطنية وبشرا يركضون وراءك أنّا حللتَ على الرغم من المخاطر، وأنا أبحث عن حنينك الضائع والمسروق. أبحث عن جذبك لأقرأ عمقها وشوقها، وشوق هؤلاء الناس الذين تعودوا على آلام خيوط بانجو ماريوشا. الباخية تبدأ من أصل الحكاية. من تلك الليلة التي انتابتني فيها الرغبة المفاجئة لابتلاع البحر دفعه واحدة، لكن البحر قهقه كثيرا ثم نام بهدوء وطمأنينة على ألواح السفن قبل أن يرتد عليها في حرب ليلية قاسية. أصعب شيء أحسه حينما يغادرني البحر ويخون أملاحه ويتنكر لذاكرته وآلامي، هو أن يمر بالقرب من رجلي وكأنه لم يعرفني. وأنا أموت بين الموجة والموجة، سمعت أصواتا متعددة، غير متناغمة تأتي منكسرة قبل أن تتحول إلى سلسلة من الكلمات تمكنتُ من تفكيكها. عرفت لاحقا، أنها لم تكن أصواتا حقيقية، ولكن لحظات خوفي وضعفي، هي التي صَنَعَتْها. شعرت بندم كبير وأنا أفتح عيني، للمرة الأخيرة، على ظهر سفينة القرصان الإيطالي. رأيتها تغيب شيئا فشيئا، وسط قهقهات عالية سحقتها الأمواج التي تكسرت على أطراف الأرمادة بعنف شديد. تبعتني الحيتان الكبيرة طوال النهار والليل، ولكنها لم تزعجني، ولم تقترب من قطعة الخشب التي كنت أنام عليها بخوف كبير وذعر لا يوصف. ولكني كنتُ، كلما تذكرت عيني القرصان الإيطالي وبشاعته، ازددت تشبثا بقناعتي، وبالحشبة. شعرت برغبة كبرى لخوض الحرب المقدسة ضد الموت. قلت في خاطري وأنا أكتشف عزلتي ووحدتي المائية: عليَّ أن أقاوم موتا لم أكن أريده. تلك كانت إرادتي الأقوى ضد جبروت البحر نفسه. استقيت هذه الكلمات في الحقيقة من جدّي الذي سحقته صخور البشرات الجافة. كانت قدوتي الوحيدة في وجه الموت. عندما فتحت عيني مرة أخرى، وجدت نفسي

في عمق فلوكا، لا تشبه أبدا سفينة القرصان الإيطالي، كانت أقل اتساعا، ولكن أكثر تعقيدا لأن بها غرفة قيادة كبيرة، وقمرة فيها أجهزة كثيرة. سألوني أسئلة لا تحصى، لا أتذكر إلا بعضها، وليست لها قيمة تذكر. كان عقلي ما يزال مشدودا إلى البحر الذي نستني أملاحه التي أعطاها أجدادي أعمارهم وحبهم وأشواقهم وحبرهم. سمعتُ كثيرا عن الأطفال الذين كانوا يتصارخون في ألعابهم، ويعبثون بجثتي، قبل أن يفكروا في رميها من أعلى قمة قريبة من الساحل الروماني، ولكني لا أتذكر أبدا هذه الحادثة، ولا حتى أي تفصيل منها. أحيانا أشك كثيرا في حدوثها، ربما كان القصد من ورائها تتويهي. باعوني على أساس أني جاسوس لأن ثمني في هذه الحالة أرفع. طلبوا مني اسمي. أعطيته لهم. قالوا نريد اسمك الحقيقي. أعطيته لهم وقلت هو نفسه، لا ألقاب خاصة لي، لست أكثر من ابن صياد بحري. تغامزوا، لم أفهم السر جيدا. سألوني عن علاقتي بالقرصان الإيطالي ماتيو والأرمادة. حاولت، على الرغم من العناء والتعب الذي كنت أشعر به، أن أقصَّ عليهم كل شيء. قال أقصرهم: نعرف القرصان، وقد قدم لنا وثيقة تدينك، تحمل اسمك، مقدمة من محاكم التفتيش، وأنك هربت، بعدما سرقتَ ذهب الأرمادة، قبل أن يكتشف أنك جاسوس قشتالي. حاولت أن أقنعهم عن قصة الوثيقة، ولكن أحدهم أسكتني بعد أن ألحق بي أفظع الصفات. يا قواد اسبنيول، تسكت وإلا أبوِّلُك الدم. يا فرخ الطِّلْيَان تلعب بسذاجتنا؟ محاكم التفتيش المقدس لا تعطي أوراقها إلا لخدمتها، نحن نعرف كل ما في كرشك. سكتُّ خوفا ورعبا.

- خسئوا يا مولاي، فأنت سيّدهم ومولاهم.

- بين البحر، والبحر، بين السفينة والسفينة، وبين الموجة والموجة؛ وبين التهمة والتهمة كنت أصغر، وخيبة الأمل القاسية تزحف، وتزحف بقوة. رأسي يشتعل بياضا في الفراغ المخيف الذي أحاطوني به إذ لم أكن أسمع أنفاسا إلا أنفاسي. عندما أصرخ فيه بأعلى صوتي، لا أسمع إلا صداي. حاولت أن أستعطفهم، لكنهم كانوا قد

بدأوا يفكرون في مصيري. قال الأول يجب أن نرميه في البحر، وكأن شيئا لم يكن، لم ننل ما نريد، لسانه سيَلِين عندما يصل إلى الصراط المستقيم. سأعرف فيما بعد أن الصراط المستقيم، هو أنذل مكان يتذل فيه القراصنة الأتراك الناس ويحرمونهم من حق النوم بحرية حتى داخل نعومة الموت. قال الثاني أنا مع رأي قتله. فكر ثالث، وكان يظن أني ابتلعت الذهب، كما كان يفعل الموريسكيون الفارون، بعد أن هزني بقوة: لا يمكن لتيس بخشونته أن لا تكون أحشاءه مليئة ذهبا وفضة. فالذهب الذي ذكره القرصان الإيطالي كثير؟ في الأخير اتفقوا على أن يبقوا على وعدهم مع الرجل الذي كان ينتظرهم على الشاطئ الروماني المهجور، فقالوا نبيعه، ونتخلص منه. أعتقد أن رأسه ليس أكثر مما نتصور. قالوا للرجل الذي كان جالسا القرفصاء على الساحل المهجور ينتظرهم: لم نأتك هذه المرة بالدوقات الذهبية، ولكن أتيناك برأس يمكنك أن تجلب من ورائه أكثر من بضعة دوقات. هذا جاسوس قشتالي، هو نفسه الذي تحدث لك عنه ماتيو، صاحب الأرمادة. الوثائق التي معه تغنيك عن كل شيء أمام سيد الدنيا. سلّموني ثم خبّأوا الزورق وتفرقوا. قطعت الشاطئ أنا والرجل البدين ومسلحين. كنت مقيدا، وكان يمشي بعيدا عني ويهدّدني من حين لآخر، أنه من الأحسن لي أن لا أكون مجنونا، لأني إن حاولت الفرار سيقضي عليَّ بلا رحمة. عندما وصل إلى مقر الحاكم التركي، رحب به الحراس كثيرا. يبدو أنهم كانوا يعرفونه جيدا، سألوه: بأية غنيمة جئتنا اليوم، صيدك ليس سمينا كالعادة؟ قهقه هو من جهته بخبث تراقص في عينيه: كنز أثمن مما تتصورون. إنه جاسوس قشتالي لصالح السفن الإسبانية، ويملك معلومات خطيرة تجعل الباب العالي ينتصر على أعداء سيدنا، وأعداء الله. قالوا له بصوت واحد بعد أن خرج أحدهم من أحد البيوت الملونة بألف لون: أدخل يا ريّس، سيد الدين والدنيا ينتظرك. بعد لحظات خرج رجل ثقيل الظل ربما كان مستشاره، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها. قدّمني ككبش عيد ثم وقف ينتظر البركة تنزل

عليه من كفّيْ المستشار. جاء بعدها من وضع في عمق كفه صرّة من المال وهو يهمهم: جاسوس؟ هذه بركة البركات. احمر وجهه المدوَّر سعادة وفرحا. عند المخرج فتح الصرّة، وملأ أيدي الحراس التي امتدت نحوه. عادوا إلى أماكنهم وانسحب هو. وبدا بشكل واضح، أن أية محاولة لتوضيح وضعي، ستورّطني أكثر. وعندما أدخلوني على الحاكم التركي سيد الدين الدنيا، هكذا كانوا ينادونه، كان ثقل المحيط قد تحول إلى كومة من الرصاص، وانطفأت الأنوار التي كانت تضيء عيني في اللحظات الأخيرة في ألَميريا. ندمت فجأة لمجيئي. بحثوني طويلا حتى أنهكوني وأفقدوني كل حواسي. في النهاية رموني في الصراط المستقيم. وضعوني تحت أنفاق البحر المتلاطم الذي كان يصلني تكسر موجه بوضوح. كان يندفع بقوة وهياج فوق رأسي. كنت أشعر من حين لآخر بزلزال عنيف يدمِّر ما تبقى من صبر فيَّ، وكان واضحا أني إذا بقيت زمنا آخر في هذا المكان سأنتهي إلى الجنون لا محالة. أصوات المدافع والأرمادات، وصرخات الناس، وتكسر المياه كانت تصلني كلّها، تتسرب من بين شقوق الحيطان.

هل يُعقل أن تَنتهي حكاية بشير إلموزّو بهذا الشكل؟ قلتُها في أعماقي وأنا أبحث في الظلمة عن مكان أنام فيه. فالمياه كانت قد تسربت إلى كل الأماكن، محدثة رطوبة مليئة بالعفونة. مع تعاقب الأيام، بدأت أتعود على الجو العام. تذكرت فجأة حكمة رجال الحلاقي والقوالين: إن الله لا يلتفت إلى سحنة حزينة وكئيبة ورمادية. لا تنس أبدا أنك تملك سحر الحكاية الذي يرميك في عمق نور الحياة الموازية عندما تنغلق في وجهك كل السبل. لا تيأس. تملك ما لا يملك غيرك. حاولتُ أن أتوازن بهذا. حين جروني من جديد نحو دار الأسرار، أقسمت لهم، برأس كل الأنبياء، أني لست بكل الأهمية التي يتصورونها. مجرد قوال يعرف تاريخ غرناطة ويحفظه عن ظهر قلب، ويقصّ ما خفي من القصص. صرخوا في وجهي: أنت من باع غرناطة للخراب، وألحقتَ بها آرابيا. قلتُ: هناك خطأ في التصور والتقويم. أبو

عبد الله، محمد الصغير، هو الذي كتب تاريخه وستر فكرة مقايضة غرناطة بالقشتاليات. روى ما كان يريد روايته. أنا لا علاقة لي بهذا الموضوع. أصغر بكثير من ذلك. اسألوا حي البيازين، هضاب غرناطة وقلاعها، طرقاتها الصغيرة والضيقة، وشمسها الصباحية القلقة، ستجيبكم أن الحقيقة هناك. لست مهما إلى هذه الدرجة. مجرد إنسان، يسرق الحقيقة في لحظة عنفوانها من أفواه السابقين، ومن جراح المدن المنسية التي تورّمت من كثرة البهتان والكذب، وحين يشتهي سماع حقيقة أخرى، غير حقيقة الكتب، يخرج الربابة التي صنعها بيديه وينحت أشواقه المجنونة. فيروي المأساة التي بدأت ولم تتوقف، وحنين الأشياء التي انتزعت من القلب ولم نتوصل إلى لمسها. أشياء عشقناها، لكنها سُرقت حين بدأنا نتحسس وجودها.

لم يعد شيء يفصلني بين الحالة والحكاية. الكلّ أصبح شيئا واحدا. بيني وبين الحضور مسافات كانت تزداد اختصارا. استحضرت جرحا من جراحاتي القاسية. تذكرت أني حينما فتحت عينيَّ وجدت الأبواب مغلقة والرِّجلين غارقتين حتى الركاب في الوحل والنفايات التي كانت تمر تحت الأنفاق بهديرها المصحوب بصوت تكسر الأمواج على رأسي. لا أتذكر شيئا مهما سوى الكلمات الأخيرة التي خرجوا بها وهم على يقين: جاسوس قشتالي يعمل لصالح السفن الإسبانية، وعميل مندس، زُرِع منذ مدة في جسد المسلمين، من أجْل تدمير ما تبقّى من المدن البحرية. انزويت في مكان ضيّق وبدأت أتأمل نفسي. كنت منهكا ومنتهكا، أيعقل؟ أهذا هو الرجل المقدم على انتزاع عذرية المدن الساحلية وهو عاجز حتى على أن يقف على قدميه؟ حاولت أن أتأكد من مكاني لأني شعرتُ مرة أخرى أن رجلي لم تسعفاني للتحرك بسهولة داخل هذه المتاهات العفنة. في لحظة من اللحظات، خُيِّل إلي بأني لم أعد أنتظر شيئا سوى لحظة الموت القادمة من داخل هذه الأنفاق. انتظرتُ كثيرا قبل أن يحدِّدوا لي أسبوع الاعترافات. سبعة أيام بلياليها، كلها أنين وشقوة وعذاب وأسئلة تصمّ الآذان، وتخترق جدار الحميمية.

قالوا: إذا لم تعترف سنقوم بمحوك مثل الجرذ. في اليوم الأول من أسبوع الاعترافات لم يحدث شيء مما كنت أنتظر، زلزال؟ غزوة إسبانية تنسيهم فيَّ؟ موت سيد الدين والدنيا بسكتة قلبية؟. . . صعدوا بي إلى أعلى قمة في المدينة التي لم أكن أعرف لا اسمها ولا ناسها ولا وجهها، ولا حتى أسماء حيواناتها وحشراتها العجيبة التي عاشرتني طوال فترة حجزي في الصراط المستقيم. قلتُ في لحظة يأسي، من المستحيل أن تكون هذه هي المدينة التي كان على القدر أن يقودني نحوها. لابد أن يكون قد حدث خطأ ما في التقدير. مرّ على ذلك الآن زمن بعيد، لست أدري هل أنا الذي عدت منه، أم أنه هو مَنْ عاد في صورتي؟ لم تبق الآن منه إلا الخرائب والحرائق وبقايا السفن الخشبية التي ينام بعضها على أطراف الشاطئ المنفرد بحزنه كما قيل لي، وبعضها الآخر اقتيد إلى أقرب المتاحف الوطنية. تركوني وحيدا أواجه حالات متعددة للموت. قالوا، يجب أن تعترف لكن بأي شيء أعترف؟ وحين عاودتُ على مسامعهم قصة مجيئي، وقصة الأرمادة والقرصان الإيطالي ماتيو، وقراصنة البحر الذين اصطادوا غيبوبتي، أوقفوني في منتصف، الحكاية، وقالوا: إذا كنتَ تريد أن تعيد القديم على مسامعنا، فنحن نعرف كل شيء. ابحث عن شيء جديد ينجيك، أو أعترف بكل بساطة. ملئوا بطني باللبن المخثر والماء الساخن، ثم بسطوني عاريا في مواجهة شمس حارة وحارقة. يبدو أنهم اختاروا اليوم المناسب لممارسة هذا النوع من التعذيب، إذ بدأ بطني ينتفخ، وضربات قلبي تزداد تمزقا حتى شعرت بأني سأنفجر ولن يبقى فيَّ شيء. جاء أحدهم، كان شارباه مفتولين وطويلين على غير عادة من رأيتهم. كان يحمل ساطورا عريضا لمعت شفرته تحت الشمس الحارقة حتى أعمت بصري، وقبل أن يفتح بطني بضربة صارمة ارتسمتْ في عينيه، أوقفه أحد أصدقائه، قال له انتظر، ربما اعترف السيد قبل أن يُفتح بطنه ويمتلئ بالذباب والنحل، ويصبح طعما شهيا للكواسر. لكني لم أضف شيئا مهما، في لحظة من اللحظات أحسست بنفسي كأني لم أقل شيئا. كانت عيناي قد امتلأتا بالدم، ولم

أعد أرى شيئا وأصبحت أعوم في ظلام غريب كالذرة الهائمة. ثم أثقلوا جسدي بالأحجار البركانية وربطوني بالسلاسل الثقيلة وقربوني، بل وضعوني على رأس القمة المطلة على البحر، وهددوني بالموت الفظيع. بدأ رأسي يدور من هول الفراغ والفجوة المطلة على بقايا بحر، كانت أمواجه تتكسر على الشواطئ بعنف شديد. كدت أسقط لولا أن أحدهم قبض على الحبل الذي كان يحيط بخصري. مرة أخرى بدأوا يتشاورون فيما بينهم. عرفت في النهاية أنهم لا يريدون قتلي والتخلّي عني بسهولة. كانوا يحتاجون إلى معلومات مهمة وينتظرون منّي أن أبوح بها لهم. قال الأول للثاني: هل نتركه يموت، أم نتركه هكذا معلقا بين الموت والحياة ونستمتع به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ أجابه الثاني، ولكنه لم يعترف بعد، يجب أن نخرج لسانه أولا. ألم يقلها لنا الحاكم، سيد الدين الدنيا، وبعدها نُلقي بِدِينْ أُمّه من الأعالي نحو الفراغ؟ فكرة جميلة رد الثاني. نعلمه كيف يسخر من أسياده. هذا ما يكون إلا فرَخ من فرُوخة[٣٧] إيزابيلا القشتالية وبغلها فرديناند؟ كنت أصرخ في صمتي ويأسي، لكن صوتي وآلامي كانت تبتلعها المنحدرات والفراغات المخيفة. أحاول أن أسمعهم يأسي: يا أبناء الكلب، من جاء بكم إلى هذه الأرض التي أكلتموها وجوّعتموها بالسرقات والضرائب المجحفة؟ كنتم تدافعون عن أي دين، وضد منْ؟ من مَنَحكُم حق السيادة على هذه الأرض؟ من أتى بكم إلى هذه التربة لكي تتحكموا في أنفاسها؟ ها أنتم تتقاسمون الجزر وأعماق البحر وتحولونه إلى ذهب وفضة ونحاس وبارود ورهائن تتاجرون بها؟ جدّي كان محاربا عظيما، وشاعرا لا يُضاهي. كان عندما يُصاب بالغبن والحزن، يحمل الربابة ويجلس في حوش البيت الموريسكي الواسع، ويستخرج كل حنينه الذي ينام في أعماقه، ويخاف من أن يؤذي حشرة تائهة على وجه الأرض. يتأمل السماء منكّس الرأس إجلالا لعظمتها وهي تمنحه بسخاء زرقتها

---

(٣٧) جمع فرخ، أي اللقيط.

وعذريتها. تغادر العصافير أعشاشها وتركض مغمضة العينين لسماع نشيده. كان جدّي حينما تأخذه نوبة الغناء، تأتيه الشموس والأقمار وتجلس على ركبتيه وتنظر فقط إلى عينيه وهما تشعّان حياة ونورا. كان في نداءاته الخفية يحوّل أحزان الليل نهارا، والنهارات ليلا. غرناطة تتذكره، وتحفظ مجده وأسراه. كان جدي في أقسى درجات الشوق المسروق، يعلّمني كيف انتزع الفرحة من ظلال الأحزان، لكن الدنيا لم تعد دنيا، والبلاد لم تعد لذويها، وكل شيء فَقَدَ طعمه في عينيه ومع ذلك ظل معلقا على الخيط الرفيع الذي يسمونه الأمل ويسميه الحياة نفسها. يصرخ في عز اليأس والنار والرماد، والانكسار، وغبار البارود: يا الله. يا قلب الحق ونوره، عليك أن تأخذ بأيدينا وتظلّ معنا. لا نصير لنا إلا سواعدنا وعدلك. لا تتخلَّ عنا. لا تتركهم يسرقون مدنك ونورك. لكن الله كان في عمق البياض اللّدن، لا يسمع إلا دمدمة الرياح العاصفة وزمجرة الزلازل المدمرة.

ها هي ذي الهاوية إذن. وما أدراك ما الهاوية، قلوب ذاوية. وأنفس مكوية كاوية. ها هو البحر المسروق، والوجوه التي لا ملامح لها، تبعدني عن الشعر والقوالة وتجعلني لا أتذكر إلا الصخور والظلمة وخوفا لا شيء فيه يُسمع ويُرى. كانت النار قد اشتعلت في أعماق البحر والسماء والتاريخ. لم يكن ممكنا إيقاف الخراب والجحيم والخوف الذين كانوا يتسعون كل لحظة أكثر. كانت المدافع الإسبانية تدك البلاد، تحتل الأراضي المحروقة، وتزحف باتجاه السفن الراسية على شاطئ صار شبه مهجور. الباب العالي يبحث عن ملاجئ جديدة وسط الموج، ينتقل من بحر لبحر ومن سفينة إلى سفينة، بلا أي جدوى. كانت الحروب في ذلك الزمن البعيد تسحب وراءها الموت والمجاعات والطاعون والأمراض الفتاكة. لم يكن مهما أن يموت الإنسان، فقد كان الدفاع عن المدينة هو الشوق الوحيد والأوحد. حربي ظلت مستمرّة في دماغي وفي قلبي ولم تهجرني ولو للحظة. من شدة الإنهاك، الكثير من الوقائع استعصت على ذاكرتي. في اليوم السابع من التعذيب، عُلّقت

على الخشبة التي هُيئت في شكل صليب على قياس طولي تقريبا. كتفوني بواسطة الحِبال والمسامير ورفعوا الصليب عاليا في صحراء مسودّة الصخور، لا أتذكر فيها إلا الطيور الكاسرة وهي تملأ المكان. القوة التي جعلتني أقاوم الشر هي أني لم أكن أملك معلومات مهمة تفيدهم أو تقنعهم. كنت أعرف مسبقا أنهم لن يقدموا على قتلي بسهولة. بدأوا بالجلد بعد أن دهنوا جسدي بمادة لزجة، رائحتها كريهة. مع الضربة الأولى طار اللحم وتفسخ جزء من جسدي. شعرت بالنار تصعد من كل أعضائي. كتمت عوائي. قال الجلاد السمين، هذه هي الأولى، ستأخذ منها ألفا، أو تعترف بأسرارك وقتها سنمنحك من العزة ما يرفعك إلى السماوات. لم أعد أعي شيئا، لأنه بعد الضربة العاشرة كنت قد فقدت وعيي. وعندما استيقظت، كان رأسي قد وضع بين قطعتي خشب، كل واحدة صُنِعت بشكل نصف دائري بحيث أنه من المستحيل أن أحرك رقبتي المطوقة بدون أن أكسرها مما كان يعني الموت الحتمي. أصبح الأمر شبه يقيني بأن الرجل مقدم على قطع رأسي أو على الأقل، تعذيبي حتى الموت. ظل يسألني عن اسم المنطقة التي يحضِّر القشتاليون لغزوها. لم أجبه لأني بكل بساطة لم أكن أملك جوابا، الشيء الوحيد الذي استحضرته قبل أن أدفن عيني في سماء رصاصية فقدت مبررات وجودها، ماريانا وهي تنأى على ذلك الشاطئ الأصفر المهجور، المليء بالأشعة الشمسية المنكسرة على البحر، وعلى الرمال. كانت مشدوهة في الفراغ، تبحث عن كلماتها الضائعة وسط رعشة الخوف والعزلة. سمعت نداءات داخلية تنزل في داخلي كالمعدن الذائب: واش جَابَكْ لبلاد الناس؟ صرختُ بألم: كنت أظنّها بلادي، وكنت أظنّهم أهلي. شعرت بعنقي يؤلمني. قالت ماريانا قبل أن تغادرني في المرة الأخيرة: ضع هذه في عنقك لتتذكر أن امرأة لم يكن لها غير قلبك وجنونك وهبلها الذي لا حدّ له. سلسلة ذهبية خفيفة، مصنوعة باليد، هي نفسها التي كاد ساموويل أن يقتلني بسببها، مستحضرا، كل مظالم أجداده. الجلد كان قد نزع جزءا كبيرا من لحمي، لم يعد للألم معنى مهما.

رقبتي المحجوزة بين قطعتي خشب كأنها لم تعد موجودة. لم أقل شيئا. ظلوا يستعطفونني، بالخصوص الرجل البدين الذي أرعبني تحوله الفجائي. قال: نرجوك يا غالي النفس والنفيس، قل أي شيء، ستنقذ رأسك وتنقذني معك. إذا لم تفعل، سأُتَّهم أنا بالتسيب في عملي والتقصير في المراقبة. يا الله يا حبيبي، قلْ ما تعرفه عن الجاسوسية وعن السفن القشتالية وأرحنا وأرحْ نفسك. الله يهديك للخير والنجاة. مقاومتك غير مفيدة لأنها سترميك إلى جهنم ولن نخرج سالمين معك. رددتُ بكلمات متقطعة: لو كنتُ جاسوسا يا سيدي، لاعترفت منذ اللحظة الأولى، ولكني لستُ كذلك. بدأت فجأة أشعر بتعاطف ما مع الرجل المشرف على نزع جلدي وكسر رقبتي. كان مترددا في قتلي. أراد أن يستنجد بالحاضرين لإقناعي، لكنهم كلهم كانوا قد انسحبوا من الهضبة المطلة على البحر عندما تأكدوا بأني كنت مظلوما. عندما نزع معذبي الحبال التي كانت تربطني بالصليب، وفكّ أخشاب رقبتي، سقطتُّ على ظهري ككيس طحين ثقيل. ظلَّ يجلدني بشكل هستيري لأنه كان يعرف في أعماقه بأني نجوت من موت كان قريبا. ثم حملني بكل ثقلي على ظهره، ووضعني على الحصان. وعاد بي إلى مقرّ البحرية حيث سيد الدين والدنيا. في الطريق سمعته يتمتم مع صاحبه: مشكلة هذا الرجل المبهم؟ لو تركتُه يلفظ أنفاسه الأخيرة في الصّراط المستقيم، لانتهى كل شيء وارتحت منه، ولن أجد نفسي مورطا فيه من رأسي حتى قدمي. ظننا أنفسنا أذكى، نأخذ الحقائق ونقايض بها سيد الدين والدنيا. عندما وقف المسكين أمام سيده البدين قال:

- يا صاحب الباب العالي، يا سيد الدين والدنيا الذي تسجد له السماوات والأرض وما بينهما، فمن ذا الذي...

- خلّيني من الكلام الخاوي واذهب نحو الصحّ.

- لقد كدت أقتله يا سيدي، ولكنه لم يعترف، مما يعني بأنه لا يملك شيئا في بطنه يمكن أن ينفعنا به في حربنا ضد الشماليين. كل الذين عذبتهم من قبل اعترفوا إلا هو مما يعني أن...

- يعني نانّاك يا قوّاد. وماذا عندك أنت في بطنك؟ سنرى عندما نفتحه؟ أكلتَ كل مالي وذهبي لتقول لي مثل هذا الكلام؟

وبدون أن يستفسر عن التفاصيل وكيف جرت عمليات التعذيب واستلال الاعترافات، طلب منه أن يحضر له سيفا. صرخ المسكين في الحراس الذين كانوا بجانبه:

- أعطوني سيفا! بسرعة... بسرعة. مولانا لا ينتظر.

قال له ببرودة أرعشت معذّبي من داخله عندما رأى العصافير تموت في عيني سيده، والفراشات تفرّ مذعورة. التفت نحوه سيد الدين والدنيا.

- حتى سيفك ليس سيّئا، أعطيني إياه.

- أي سيف يا سيدي.

- حسامك البهيّ الذي تعلقه على خاصرتك.

- لم أفهم يا مولانا.

- سلمه لي وستعرف حالا.

- لكنه يا سيدي لم يعترف بأي شيء؟ إذا قتلناه الآن سنخسره نهائيا؟ ربما امتلك أسرارا يحتاج معها إلى وقت ليعترف بها؟

- اعطني حسامك، فأنا أعرف كيف أداوي الخيبات الكبيرة.

برقت عينا الرجل البدين الذي عذّبني، بشدة. تمتم في خاطره بأنه بريء من دم هذا الأندلسي المهاجر. مسؤولية إعدامه سيتحمّلها هو ومن أقنعه بفعل ذلك. لأول مرة يرى وجه سيده قد أشرق نورا. وحين وضع السيف الحاد بين يدي سيد الدين الدنيا. ضحك بثقل اهتز له بطنه:

- أنت حمار. حمار بالكامل. كنت أنتظر منك أن تأتيني برأسه، وها أنت تأتيني برأسك. لم أكن أريده ولكني أشكرك على كرمك الحاتمي.

وقبل أن يستفسر الرجل البدين عن الأمر، وتنفتح عيناه، عن آخرهما، كان رأسه المحلوق قد تدحرج حتى استقر عند رجلي سيده بعينين ما تزال الدهشة تملأهما، بينما ظل الجسد واقفا للحظات، قبل أن

يرتطم على الأرضية الملساء مخلفا بركة من الدم. ثم نهض سيد الدين والدنيا بعد أن أعطى الأوامر بتنظيف المكان، ورميي في الصراط المستقيم. وفي اليوم بعد السابع، خرج الناس في وقت مبكر، كانوا يلبسون الألبسة الجديدة، المزركشة بألوان غريبة غير منسجمة مع أجسادهم، وتحلقوا بي. كنت عاريا ومقيدا بواحد وعشرين قيدا ثقيلا. ثم جاءت جماعة من العمال، وبدأوا يحفرون الأرض بسرعة عجيبة، حتى شقوا في صلب التربة حفرة عميقة أدخلوني فيها. طاوعتهم. لم أبذل أية مقاومة. كنت مقتنعا بأنهم لن يقتلوني، ما داموا لم يفعلوا ذلك من قبل، ولم يتحصلوا على المعلومات التي كانوا يريدونها. كنت من حين لآخر أتساءل، هل كنت سأعترف، لو كنت حقيقة جاسوسا قشتاليا؟ ربما. بدأت كثرة الأسئلة تعذّبني. كنت أشعر بمضايقة كبيرة، لأن جسدي بكامله، بما فيه يديّ ورجليّ، قد دفن تحت الأرتبة. لم أضف شيئا جديدا إلى ما كانوا يعرفونه في البداية، لأن إجاباتي المرتكبة لم تكن ذات أهمية تذكر. أكدت لهم، حين أخرجوا وثيقة محاكم التفتيش، بأن أخي، هو الذي أتى لي بها من صديقه ساموئيل اليهودي. فجأة أخرجوني بسرعة، وصاحوا جماعيا: هوووورررراه... هذا هو الخيط الذي كنا نبحث عنه. يجب أن نعرف البقية الآن، الآن وليس غدا. لأول مرة أشعر برغبة لا تقاوم للحديث، لأني في لحظة ما، تصورت أنهم سيقومون بإطلاق سراحي والاستماع إلى حزني، فأنا لم أدخل إلى هذه البلاد جاسوسا ولكن عاشقا. أكدوا لي بأن أخي الكبير، يستطيع أن يساعدهم على اصطياد السفن الإسبانية التي كانت تخطّ معابرها ومسالكها داخل المتوسط. ولأن هذه السفن، على حد روايتهم، كانت كل يوم تحتلّ مساحة جديدة وتقترب أكثر من السواحل، وتهدّد أمن الميناء الذي إذا سقط بين أيدي البحرية الإسبانية، تصبح البلاد بكاملها تحت رحمتها مثلما حدث في وهران. تذكرتُ في لحظة ما من اللحظات، لماذا باع محمد الصغير البلاد بكاملها، ثم وقف على هضبة زفرة الموريسكي الأخيرة يتحسّر على السلطان الذي سقط بين فجوات أصابعه.

وقبل أن أتمّ القصة على الحاضرين من سكان جملكية آرابيا، كان عمي الطاووس ابن أمه، الوزير المخلوع، قد قفز إلى وسط الدائرة وبدأ يصيح مثل الكلب المسعور، الذي دخلت دودة الكلب إلى رأسه وبدأت تتحرّك بشكل جنوني.

- بربك قل لي من أنت أيها الرجل المرزكش بألف لون؟ هل أنت راوي الكذب، أم صاحب الباخية؟ قل لنا الحقيقة فقط، فلن يأكلك أحد.

- مجرد قوّال مهبول سُرقت من قلبه مدينته التي عشقها. هذا كل ما أملك يا عمي الطاووس. لا سرّ آخر لديَّ. الصدفة الغريبة هي التي قادتني نحوكم مثلما قادتني نحو سيد الدين والدنيا.

- كل شيء فيك غريب ويُبعدك عن أن تكون حقيقة. أنت مجرد حكاية أو صُدفة غريبة كما قلتَ أنت بعظمة لسانك.

- أتظنها سهلة؟ أنتَ تمنحني صفة لا أستحقها، أو على الأقل لم أصل لها بعد. المحظوظ فينا يا عمّي الطاووس من سيكون حكاية تُروى. الباقي يأكله التراب وتبعثره الريح. اسمع الباقي وستعرف أني بالفعل لستُ أكثر من حكاية. أنا من دم أقسم أن يظلّ ساخنا حتى الانطفاء الكلي للكون. أنا ابن هذه الأسطورة التي مزّقها كل واحد لمصلحته الخاصة وفصّلها على مقاسه. أنا هويتها يا عمّي الطاووس.

نهض سيدي عبد الرحمن المجذوب من مكانه بسرعة وقد تيبس الزبد على طرفي فمه، مثقلا بجسده وبشيء غامض فيه. كانت عيناه مليئتين بالدهشة. كان منزعجا من تدخل عمي الطاووس ابن أمه. صرخ في وجهه بلا أدنى تردد:

- الله يلعن اللي أتى بك إلى هذه الحلقة. هل تعرف أنه في الزمن الماضي كان القوال عندما يُقاطع من غبي مثلك في منتصف باخيته، يقتله ويربحه شرعا وقانونا؟ سيدي الموري الأندلسي، حبيبي بشير إلمورّو، وراس جدك الذي غزا جبال البشرات وركّع أحصنة جند الشمال، أرجوك أن تواصل. أكمل الباخية يا سيد الناس الطيبين.

ثم التفت نحو ماريوشا:

- وأنت يا لالة ماريوشا، يا عنبي ونبيذي. اعزفي، اعزفي كما تشائين، أمامك البانجو، والربابة، والسنطور. اختاري الآلة التي تشائين، اعزفي، فالله لن يسمع كلاما جافا ولو كان شعرا. نحتاج إلى حنين أناملك ودموع بشير إلمورّو. أحك، فأنت تعرفين سر النغمة، وما لا يعرفه المجنون صاحب العَوْد بُو برَكَات الملون بألف لون قزحي، الذي يقطع الفيافي والقفار. اعزفي كلنا هاهنا نريد أن نلمس هذا الجرح الطائر.

التفت بشير إلمورّو من جديد نحو عمي الطاووس. كان متسمرا في مكانه، لا يبدو على وجهه أي أندهاش أو خوف، أو حتى إحساس بالندم. مسد بشير على رأس عبد الرحمن المجذوب، قال: يا سيدي عبد الرحمن أنت أكبرنا، وماريوشا ابنتك التي عشقت سحر مدينتك وآمنت به حتى الجنون. عودك الملون، يخون كل الناس ولا يخونك، وهذا فخرك. يراه ناس الظاهر في هذه المدينة، مجرد قصبة جوفاء وفارغة من الداخل، ويراه ناس الباطن الأوفياء رمزك الذي لا يموت. عودك الذي يسعفك في حروبك العادلة. حصانك الأبي الذي لا يستطيع أحد غيرك أن يلمسه. براقك الذي تعبر به كل السماوات المغلقة.

كنتُ في ذلك الزمن الأندلسي البعيد، عندما أخرجُ إلى الساحات وأملأ الحلاقي بصراخي، كان العود المرقط الذي كنتُ أركبه، يبث الرعب في قلوب الذي يشكّون في أحزاني وآلامي. الباخية يا سيدي عبد الرحمن ما تزال طويلة، وعودي تعب من السير والشقاوة، ولكنه لم يستسلم أبدا. الظهر تمزق، وغادرني الأحباب الذين كان القلب مآلهم، وانسحبت الوجوه على أطراف الشواطيء الحزينة، فماذا أقول يا ابن أمي؟ أشياء كثيرة تغيرّت في ذلك البحر الترّكي البارد الذي يعرف ما تحمله العيون المهاجرة وما تخبئه من نور خفي.

في اليوم ما بعد السابع يا سيدي المجذوب، عُذِّبت حتى تقيأت الدم من فمي، وأنفي، وأذني. قالوا لي مرة أخرى وكأني ورّطت نفسي بنفسي عند حديثي عن ساموريل وأخي: هذا من سلالة الجواسيس

الخطيرين. طلبوا مني أن أدخل إلى الإسلام وأتخلى عن المسيحية. أكدت لهم أني موريسكي وأني لم أعرف من جدي إلاّ دينه الذي عشنا متخفّين في كنفه. وظلموا يقيئونني كل الأخبار، حتى قفزت إلى ذهني محاكم التفتيش المقدّس. ما الذي تغير؟ وجه يعذبك لأنك أنتَ، ووجه يقتُلك بالتقسيط في انتظار أسرارك وأنت لا تملك شيئا لا لهؤلاء ولا لأولئك. فجأة، وأنا بين دوخة الألم ولذة الهرب باتجاه الحكاية، هاجمني وجه زمنير وتوركيمادا. تذكرتهما من قسوة العجز. قالوا مَنْ هذين الشخصين؟ قلتُ وأنا أكاد لا أسمع ولا أرى من شدة التعذيب والإنهاك: مجرمان يشتغلان لمصلحة محاكم التفتيش المقدس. قتلوا من الناس عددا لا يُحصى. مرة أخرى أعطيتهم سلاحا جديدا. تأكدوا من أني جاسوس لصالح السفن الإسبانية وإلا لما كنت نطقت باسم الجاسوسين زمنير وتوركيمادا؟

- يا غريب القلب والدار، الصبر يا ابن أمي وأبي... الصبر... الصبر... ولا شيء آخر غير الصبر. من سرق المدن الهشة؟ من عبر جسد المرأة المشتهاة؟ من هشّم الروح ورماها في جوف الخوف؟ من كسر الإرادة ورهنها للقتلة؟ من أباد عفوية الخير؟ من أطفأ النور في العيون؟ همْ... همْ ولا أحدَ غيرهم... قلْ ما في القلب، قلْ.

قال عبد الرحمن المجذوب، وهو يتمرغ على الأتربة مثل الشاه الذبيحة، ثم التفت إلى الطاووس ابن أمه الذي كان غارقا في تفاصيل الحلقة وردود الفعل مما كان يسمع:

- وأنت يا ابن أمه؟ من سمّاك؟ من أهداك؟ من أشفاك وأغراك؟ فقدت العينين أو كِدتَ، والوزارة والإدارة؟ ماذا بقي لك تخاف عليه؟ حولوك يا صاحبي إلى شيء شبيه باللاشيء. تشجّع قليلا أنت أيضا، واخلِ عن السرّ الذي يعذب قلبك، إذا بقي لك قلب. اخلِ، إنها فرصتك الأخيرة قبل أن تشتعل المدينة وينساك الناس نهائيا ويعلّقون صورك في الساحات العامة والشوارع كواحد من زبانية النظام. كن ذكيا ولا تخسر فرصة الحياة كما يفعل حكامك الذين لا يخرجون إلا ليقادوا

نحو قبر منسي في قراهم إذا لم تأكلهم الكلاب والأسود، وهم الذين كانوا يظّنون أنهم أصبحوا ضمير الأمة. يدخلون بانقلابات وتصحيحات ثورية طارئة، ثم يستلذون المنصب ولا يخرجون إلا بانتقام إلهي أو يُسْحَلون في الشوارع. تعلم يا ابن أمه، لم يعد لك ما تخسره. لقد كنتَ تأكل من موائد بني كلبون، وتنام معهم في نفس البيوت وربما في نفس الفراش، قبل أن يُدخِلوك إلى بيوتهم وتتحول إلى كازانوفا مستغلا وسامتك وسحرك وبرودة فراش نسائهم. كرّرْتَ نفس كلام كازانوفا في خطابك في عيد الحب السّان فالونتن[٣٨] الأخير: **لقد أحسستُ دائما بجاذبية الجنس الآخر، ولهذا أحببتُه وحاولتُ قدر المستطاع أن أكون محبوبا لديه أيضا. أحبَبْتُ أيضا الطَّبخ الشهيّ وكل ما يثير الفُضُول... بالنسبة للنّساء فقد لاحظتُ أنَّ كلَّ اللّواتي أحببتُهُن وكُنّ زكيّات الرائحَة. كلّما كان عرق أجْسَادِهِن قويًا أَصْبَحْنَ ألذ وأَكْثَر جَاذِبية[٣٩]**. وقبل أن يرموك في فراغ المدينة ليأكلك التيه اليومي والخوف من الآتي. أحك يا الطاووس أحك، فأنتَ لم تُخلق لهم بدليل وجودك معنا.

- ماذا أقول يا المجذوب خويا، تعرفون الصغيرة والكبيرة عنّي. جرحني قلبي على رجل جاء من هناك محمّلا بالأحلام ليضعه القتلة هنا في حفرة نتنة. غاضني الحال يا خويا.

ردّ الطاووس بحزن كان باديا على محياه.

- لقد أعاشوك جحيما يا سيدي بشير إلمورّو.

- لا يا المجذوب. أنا لم أر إلا الدنيا. سوى الدنيا. ولا شيء آخر غير الدنيا. وأنت سيد العارفين الذين لا تغيب عنهم الأسرار المتوغلة في التخفّي. أيام الشدة والنار والدخان والدم ليست بعيدة. إنها تدق الأبواب الموصدة، وتصعد الآن من قلوب نساء الأحياء البحرية الفقيرة، من قلوب القوالين الذين أقسموا على رؤوس الشهداء أنهم لن يدلوا إلا

---

(38) La Saint-Valentin.

(39) Casanova: Histoire de ma vie.

بالشهادات التي يخاف الوراقون من ذكرها. ماذا يمكنني أن أرى غير الذي تراه كل ليلة في محنتك يا المجذوب خويا؟

في اليوم الثالث بعد السابع، حلقوا شعري عن آخره وقالوا بصوت جماعي مسموع: شعرك هو سبب التهلكة والبلاء. أنت لستَ إلا ساحرا من السحرة ومن بقايا الكهان الذين كانوا يتحلّقون كالقردة حول إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأرغوني. أحرقوا شَّعر الموتى وحجزوا دخانه في قناني بيضاء كالحليب، وبدأوا يبخرون وينادون الجني الذي يختبئ في الداخل، أن يخرج ويغادر سجنه، ولكن في النهاية،لم تخرج لهم لا خفافيش ولا جان. مجرد كومة من الدخان ذي الرائحة الكريهة. أما الشعر المحروق فكان قد تحوّل إلى كتلة سوداء بحجم الأصبع. ساقوها إلى سحرة شمال غرب آرابيا المشهورين بشطارتهم في تفسير الأسرار وفكّها. في باحة أحد البيوت العتيقة، قالوا وماذا نقول يا ترى؟ لا نستطيع أن نجزم، إنها المرة الأولى، التي نصطدم فيها بهذه الحكاية. استشاروا سادة المدينة الذين كانوا يتقاسمون الأرباح، والأموال، والسبايا القادمة من البحر. أجابوا بحماس منقطع النظير: إنها شعرة إبليس. لنتخلص منها قبل أن تأكل رؤوسنا. وقبل أن يرفع السيّاف نصله الحاد لحزّ رقبتي، سحبني مستشار سيّد الدين والدنيا باتجاه خيمة سيده المرابط على الساحل بسفنه، للتعرف على بعض الوجوه التي عثروا عليها في سفينة إسبانية تائهة. من بينها امرأة كانت ترتعد فرائسها من شدة البرد والخوف. رأفت لحالها، ولكني لم أكن أملك شيئا ينجيها من مضاجعة سيد الدين والدنيا، الذي كان منهمكا في نزع تكة شرواله العريض، ويمسد على ذكره لكي ينتصب. كانت ملتصقة بزوجها الذي التصق بدوره بالجدار المحفور بحثا عن منفذ. سحبها الحراس من حضنه، بطحوها على ظهرها وفتحوا رجليها وهيؤوها له. برم شاربيه. نبّههم إلى ضرورة تثبيتها على بطنها. فتح إليتيها بقوة وهو مقرفص على ركبتيه. ثم سفدها بوحشية. كانت تصرخ بأعلى صوتها، وهو يدفع بكامل ثقله إلى الأمام. عندما انتهى، كانت دماؤها تسيل، بينما لم يستفق إلا على صرخة زوجها الجافة، وهو

يخرج سكينه من حذائه الطويل، ويذبح نفسه بكل قوة بدون أية شفقة، حتى تلطخ كامل لباسي بالدم الفائر. بعد أن استراح سيد الدين والدنيا واستاعد كل قواه الجسدية، استشارني حول خارطة خُطّت بماء الذهب في قطعة قماش أسود، وَجَدوها في جيب الإسباني الذي قطع عنقه على مرأى من الجميع. خفت أن أقول لا أعرف، أن يقطع عنقي بدوري بدون أدنى إحساس بالندم. وعندما بدأت أخط بعض الخطوط الوهمية على أرضية غرفة الضيافة، كانت عيناه قد انفتحتا عن آخرهما: يا ابن الزانية تعرف كل شيء وتقول إنك لا تعرف؟ هههههه... ما عليهش أنا أحب الرجال الأذكياء الذين يستعصون ولا يستسلمون بسهولة. ثم قفز من مكانه بسرعة، وصاح لعسسه، هيا بسرعة... جهّزوا السفن لغزو البحر. الجاسوس القشتالي، فرخ إيزابيلاّ يعرف كل شيء. بسرعة، قبل أن نُسبَق إلى الكنز. جيء له بسحرة المدينة. قال العسكر، ماذا نفعل بهم يا سيد الدين والدنيا؟ صرخ في وجههم: أنتم أغبياء في كل شيء. دائما تقفون في حلقي في اللحظات المهمّة. صفق بيديه، جيئه بالسيف. سألهم. أنتم من قال إنّ هذا المخلوق العجيب شعرة إبليس؟ صاحوا بصوت واحد في قمة فرحهم: نعم يا سيدنا الكبير. في أقل من دقيقة كان قد خلع رؤوسهم جميعا، ثم التفت نحوي ونبهني إلى ضرورة أن أحكي بسرعة قبل فوات الأوان إذ لا وقت لتهييء السفن والبشر. سألني عن أية جهة؟ فأشرتُ بيدي ناحية صخور رأس البِينيون[٤٠]. قفز في مكانه حتى شعرتُ به يصعد إلى أعالي السماء: يا ابن القحبة تعرف حتى المكان وتدّعي بأنك لا شيء، أنا أحب الناس المتواضعين. رأسك يساوي ثمنا كبيرا. ثم ربتَ على كتفي: أنت جاسوس قشتالي ظريف ولهذا سأتركك حيا. موتك لا يفيدني في شيء. سنحلبك ذهبا وفضة حتى تشبع ونشبع معك. بعد العودة الميمونة سأطلق سراحك. أعاهدك على هذا. وفتح يدي واضعا بالقوة يده داخلها، وأشبك أصابعه بأصابعي وهو يتمتم ويحوقل: شباك

---

(40) Le Péñon.

النبي هو قسم القراصنة حتى لا نخون بعضنا البعض. عندما كان يعطي الأوامر لتجهيز السفن، كنت قد بدأت آكل لساني على الكذبة التي ستكلفني غاليا، وغاب عني طويلا، ولم أسمع إلا أصوات المدافع التي كانت تدك المدينة دكا. قيل بعد ذلك بوقت قصير، وأنا في الصراط المستقيم، إنه عندما خرج، واجهه أحد الجنود بخبر اجتياح السفن الإسبانية للمنطقة. صرخ بأعلى صوته، إنهم يريدون الذهب والفضة في رأس البينيون، في عمق البحر. منذ ذلك اليوم لم يعد ولم أره. في الليلة نفسها أعتلى الكرسي بحّار آخر من الرياس، سَمى نفسه محمد سيد الدين الدنيا الثاني. أصبح كلامه مسموعا منذ المجزرة التي أحدثها في جهازه عندما سمع بأن بعض عساكره وانكشاريته، يدبرون انقلابا ضده، ونُسيت أنا في الصراط المستقيم، حتى اليوم السادس بعد السابع، حيث أخرجوني من الحفرة النتنة، وقَيّدوني بشكل قوي، ولم أستطع حتى التعرف على وجه محمد سيد الدين والدنيا الثاني، إذ من بعيد أشر بيده اليمنى: هذا هو نذير الشؤم؟ شعرة إبليس؟ إنه يفوح بالروائح الكريهة. أرجعوه على حفرته لا أريد لا قتله ولا رؤيته. أعادوني، وكنت سعيدا بذلك. لا أدري ماذا حدث بالضبط، ولكن، في لحظات الحزن من فجر اليوم السابع بعد السابع، وقبل أن ينبلج الصباح وتتضح علاماته، تسلّل مجموعة من الملثمين إلى الصراط المستقيم، ففكوا قيدي. قال العسّاس الذي انضم إليهم ليصبحوا سبعة: شوفْ وما تتكلمش. اتبعنا فقط. زممتُ فمي لكي لا يصدر عنّي أي صوت، ولم أعرف سرّهم أبدا، ولا لماذا فعلوا ذلك من أجلي. لم أتكلم. لم أُنطِ اللثام عن ذلك إلا بعد زمن طويل... وبعدها...

صمت بشير المورّو فجأة وكأن قوة ضاغطة خنقته فمنعته عن الكلام.

لم يقل بشير كل شيء، لأنه هو نفسه أصيب بلحظة بياض لا يتذكر فيها الشيء الكثيرا بالخصوص عندما هربوه، ولا ملامح الملثمين. كانت العلامات الأولى من ليلة الليالي قد بدأت ترتسم في الأفق المر وتتضح

خيوطها شيئا فشيئا. يقول العارفون بسر الناموس ونظام الأكوان، إنها استمرت ثلاثة قرون وتسع سنوات بالتمام والكمال، في التقويم الهلالي وربما أربع قرون ونفس الشهور. لم يكن بشير إلموزّو متيقنا من أنه نام في الزمن الذي تلا خروجه من الصراط المستقيم، لأن ما حدث له، وما رآه كان حقيقة مرة ولم يكن مجرد كابوس. فوجه أبي ذر الغفاري ما يزال كالشمعة في ذاكرته، وجراحات الحلاج، تخط جسده من أعلى الصدر حتى أخمص القدم. كانت الحقيقة التي لا تخبئ سوى حقيقتها، ولا شيء غير ذلك. لعن في خلوته، حتى وهو يتذكر أمام المجذوب والطاووس وماريوشا وبقية الحاضرين، الشبلي على صمته. الوردة التي ألقاها على صدر الحلاج وهو في النزع الأخير، لم تكن إلا تبرئة ضمير وكذبة تحولت في لحظة الغبن والتسلط، إلى جمرة قاسية ألهبت قلبه. في تلك الليلة التي لفَّتْ جزءا منها غمامةُ البياض، رجع إلى نزف جده مرة أخرى ليتخفى داحل جراحاته وآلامه. رآه للمرة الأخيرة وهو يسقط من على ظهر جواده الأدهم. كان جريحا. حاول أن يتشبث بالدابة من جديد. سقط مرة أخرى. مدّ يده إلى لجام العود الذي أحنى رأسه ثم قفز على ظهره من جديد، قبل أن يسقط الإثنان، بين صخور البشرات الحمراء. كانت المشاهد تمر بعينيه لأول مرة وكأنها الحقيقة. كانت النيران والأدخنة تأكل الأخضر واليابس في مرتفعات البشرات وهضاب غرناطة، والطاعون يملأ الأتربة التي كان يتنفسها المحاربون. كان يجب أن ينتهي كل هذا الخراب منذ زمن طويل، منذ الليلة التي طوت العهد الأندلسي نهائيا، لكن الحاكم بأمره، صاحب جملكية آرابيا الذي جاء بعد زمن طويل من ذلك، ظل يصر على تمديدها حتى ليلة الليالي التي انتهى فيها كل شيء، ليضيف في الحكاية مشاهده الوهمية، التي تزيد في عمره، أو على الأقل هكذا تصور. وعندما انتهت ليلة الليالي، تمنى أن تضاف للزمن ثانيه واحدة ليقول فيها كل ما لم يقله عن زمانه وعصره، ولكن كل شيء كان قد انتهى، والعد توقَّف نهائيا عند تلك الحافّة.

- عذرا على ما ألمّ بي من صمت. لا تحزنوا. كنتُ فقط أقرأ سرّ

الحرائق ورماد البلاد المندثرة. سلاما أيتها الدنيا العالية التي أصبحت ذاكرة، وسلاما أيتها الروح الكبيرة التي أصبحت حكاية. سلاما أيها البحر المنسي في قلوبنا... سلاما أيها الرائحون في فلوات الخوف والعزلة. سلاما لمن لا سلام لهم، سوى سلام السماء وناس الخير والمحبة.

- سلاما يا يمّا لحنينيك وانتظاراتك التي لا تنتهي... سلاما...

ساعده عبد الرحمن المجذوب بصوته الأبحّ والشجي، بينما ضغطت ماريوشا على أرق خيط في البانجو وهي لا تستطيع أن توقف دمعها الذي نزل حارقا على خدّيها الطفوليين. ارتفع أنين البانجو، الذي ارتجف خيطه بارتعاشه بين أنامل ماريوشا، واختلطت خيوطه، داخل نغم وحداني حزين، وحنين يبحث عن المرفأ الذي كسرته سفن الخوف والمدافع العمياء ورماد الحروب الفائتة.

- سلاما أيها البحر... يا رعشة العشق الأخير... سلاما أيها الموج، لقد كنت سيد الشهداء المحبين، وألفة الهاربين من موت الجوع والرمال. سلاما في صمتك وجبروتك. ملحك لا يخون إلا الخائنين. الريح التي لا تموت، تزداد جسارة. القلب الذي تعب من همّ الدنيا سيخفق طويلا قبل أن يستسلم لعواصف الفناء. سلاما لكِ أيتها الشوارع والبنايات التي أقسمت أن تقاوم وتموت واقفة على رجليها وركبتيها، وعلى أياديها، ولن تستلم لعيون القاتلين. سلاما... كل السلام.

- أرفعي صوت حنينك يا ماريوشا، فالله لا يسمع إلا كلمات العاشقين.

لم يدر بشير إلمورّو هل هو من تكلم، أم عبد الرحمن المجذوب الذي كان قد دخل في نوبة من الجدبة؟ كلاهما كان قد تحول إلى رماد تقذفه عواصف الأزمنة الخريفية التي تملأ الأدمغة. جاءه الحنين دفعة واحدة من عيني ماريوشا كنسمة ياسمين في بيت غرناطي. امتلأ قلبه فجأة بالنور وانسحبت العتمة التي جثمت على صدره. جرحته أشواق ماريوشا وهي تبحث عن خيوط الحنين في البانجو، وتدفع بذاكرته إلى أقصى حالات جنونها.

- واش نقول يا ماريوشا العمر الهارب؟ في ملمسك سحر الذين مضوا وأصداؤهم الحية. بيننا حليب صاف ينبع من أعماق النبض المسروق. بيننا هذا البحر الذي سنخوضه سويا حتى التهلكة.

رأى في عينيها بريق الفرحة المؤجلة. عَضّت بنعومة على الوردة الحمراء، ثم أرجعتها إلى شعرها الذي لم يفقد إنعكاساته الزرقاء بالرغم من قتامة لونه وبداية انسحاب الشمس تحت غيمة ثقيلة. ارتسمت ابتسامة ممتلئة بين شفتيها، ولكن أناملها الرقيقة لم تتوقف عن العزف والتعذيب.

- قلْ يا حبيب الروح. قلْ يا جرح الخيبة. قُلْ يا مولاي... قُلْ.

همست ماريوشا في قلبه، أو بصوت عال، هو لا يعرف أبدا.

- ماذا أقول يا فرحة هذا الشطّ المهجور؟ ليلة الليالي لم تنته أبدا عند العتبات التي تصورتها. أنا أيضا كنت في أعماقها، وربما كلّنا. حين فتحتُ عيني على عذابها، وجدتُ نفسي فجأة بينكم، وسط هذا الخراب ووسط مدينة متعبة وحزينة، ولكنها لم تلعن بحرها وخبزها وزيتها وحليبها أبدا. ليلة الليالي لا تُحكي في جلسة واحدة، إنها غفوة تشبه تلك التي تصحب وراءها الموت الأكيد. بدأت وستنتهي مثلما تنتهي أية ليلة مُدد طولها قليلا بالقوة حتى زادت هشاشتها وأصبح تمزقها المؤكد قضية وقت لا أكثر. جحيم الزمن المسروق يجب أن يُروى والعيون مفتوحة عن آخرها. لم تكن، ولن تكون هناك ليلة أخرى بعد ليلة الليالي لأن زمنا آخر يكون قد بدأ لا أحد يعرف سرّه ولكنه لن يكون أسوأ عما كان. ليلة الليالي طالت حتى تعفّنت وعفّنت معها كل شيء. دامت أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون، ويَروى البعض أنها بدأت يوم رمَى الحاكم الثالث في السجن قبل أن يُعدم، بسيد العاشقين، أبي ذر الغفاري، الصحابي الجليل الذي سلب الشهادة والجنة ممن بُشِّروا بالحور والجنان والشراب الطهور.

- أعوذ بالله من الشيطان الرحيم. عدنا إلى هذا المعتوه أبي ذر الغفاري؟

- الرجيم وليس الرحيم يا مولاي الحبيب. نقطة واحدة تدمّر كل المعنى.

قالت دنيا وهي تحاول أن تكتم ضحكتها بصعوبة.

- لا مقصودة. إنه أرحم من كل البشر. ماذا حدث؟ أسمعتِ شيئا؟ هل الانفجار كان فقط في رأسي أم في القصر؟

انتفض الحاكم بأمره حتى اهتزت كل فرائسه من شدة رعب أصابه فجأة.

- مولاي وشوقي وحكايتي التي لا تنتهي إلا بنهايتنا. لا تخشى شيئا، كل شيء كان على الحواف. مجرد قذيفة انفجرت عند بوابة القصر. ستتبعها أخريات بعد قليل. وربما قد تنفجر إحداها في عمق الصالة العريضة، وتكسر المزهرية الهندية، وتحرق الزربية الفارسية الغالية، وتنسف كل طاولات وكراسي لويس الرابع عشر.

- أعوذ بالله. باسم الله الرحمن الرحيم.

- تعبت يا مولاي... أرى عينيك تتهاويان. أفهم ذلك جيدا.

قالت دنيا وهي تتأمّل وجه الحاكم بأمره وهو يحمرّ ويصفرّ.

- لن يُكسَر شيء في الصالون، ولن تُحرق أية زربية. هذه مدافع قواتنا التي تقاتل الفوضويين الذين ظنّوا أنها سايبة. سيرون بأي جمر سيُحرقون؟

- يا سيدي الهائم في الفلوات، تبحث عن عين ماء تسقيك، عن فرحة تؤسيك، عن فراش يأويك، عن فرج يرضيك، لا شيء يا كبير هذه الدنيا. آرابيا أغلقت أبوابها يا حكيمي، يا سيد الجملكية العظيمة ومبدع قوانينها. ما في الطرف الآخر من الحكاية أفظع وعليك أن لا تفوّت الفرصة. كل هذا كان مخبأ عليك يا مولاي. من واجبي أنْ أسرّك بكل الخفايا وأكون عند وعدي حتى ولو آذيتني. الوقت المسوح لنا يزداد في كل لحظة تضاؤلا وضيقا.

قالت دنيا وهي تستلم كفنها الذي كان يحمله وزيره في يده من أجل وضعها فيه ميتة بعد نهاية الباخية.

- كل شيء انتهى يا ملك الزمان، يا حاكم آرابيا وبشرها وهوائها.

- لا أريد أن أسمع إلى هذا البؤس، غيّري قليلا. عيناي تورمتا من

الحكي عن الحروب والموت. جيد أنك استلمت الكفن من وزيري. وقتك لم يبق منه الشيء الكثير. أنتظر...

- ماذا تنتظر، موتي أم الحكاية؟

- الإثنين معا.

- طيّب يا سيد المقام العالي. نشترك في وقتنا الضيق لأن زمننا واحد. كل شيء انتهى إلا المدينة والبحر والحائط المتآكل الذي هرب إليه الموريسكي ولحقته ماريوشا، بعد أن غادرت الإجتماع السري وذهبت نحوه بعد أن سُكِنتْ به. قال لها في البداية، أنت لستِ لي، أنت للمجذوب. قالت أنا لكل المجاذيب. سيدي عبد الرحمن عاد إلى رشده وأصبح عاقلا من عقلاء القلعة، وبقيتَ أنت يا بشير إلمورّو بكبريائك ووفائك وهبلك. أنت المجذوب الأوحد. لم يستطع أن يتفاداها أبدا. كانت عيناها آسرتين وجسدها موقظ للحواس النائمة. هبّت عليهما نسمة بحرية. فاضت ألميريا في عينيه. مسحت ماريانا على رأسه ووجهه بحنان. تأمل وجه ماريوشا التي أصبح، منذ ذلك اليوم، كلما التقى بها يهديها زهرة الكاسي الحمراء. يرشقها في شعرها الأزرق تحت أشعة شمس آرابيا، في الجهة اليسرى من رأسها. قبل أن يدفنها في صدره، في قلبه طويلا على مرآى السماء والبحر ويشعر بارتعاشة جسدها الغض ودفئه داخل غلالة من رذاذ موجة هاربة تكسرت على الشطّ المهجور الذي لم يكن يوحي أبدا بأن حربا غير مشهودة، كانت على الأبواب.

شعر الحاكم بأمره بلذّة كبيرة تسري في جسده الميت، وهو يرى الكفن ينام تحت ذراع دنيا. لم تعد المسافات بعيدة. من جديد، وحتى يتحمّل ما تبقى من الباخية، وضع الكتّانة الحمراء في فمه، عضّ عليها بقوة وصرخ ببحة كانت تسدّ صوته، كالغصة:

- تعبتُ. بسرعة... أتركيني أنام قبل أنْ آكل رأسك.

* * *

الفصل التاسع

لِسَان الأَفْعَى

أشياء كثيرة توقفت علاماتها وانسحبت أسرارها.

وضع عمّي الطّاووس ابن أمّه، مُخيِّبُ قبيلته وذويه وأصحابه، يدَه اليُمنى على جبهته ليقِيَ عينيه من النور وليتمكن مِن رؤية الأشياء بشكل أوضح. عادة جاء بها من مستشفى القلعة بعد أن أُنقِذ نظره بصعوبة. لم يفقد بصره نهائيا. العملية التي أُجرِيتْ له في الوقت المناسب، أعادتْ له بعضا من بصره على الرغم من الأذى القاسي الذي خلّفه المحلول الغامض. لقد تضرّر كثيرا من شدة الضّغط على عينيه من طرف جلاوزة القصر ومخبريه الذين اختطفوه من وسط المدينة، في عزّ النهار. وتلفت بعض الألياف الرقيقة، لكن العصب البصري لم يمس وهذا من حسن حظه. إلى اليوم، كلما أراد أن يدقّق في وجه جديد عليه جيدا، وضع يده اليمنى على جبهته.

ظل عمي الطاووس ابن أمّه يحمل سر رؤاه في قَلبه لأنَّ حزنه كان كبيرا. القليل ممن كان يعرف حقيقة خفايا حرائقه الداخلية. لا يخفي أمام المقربين كرهه الشديد لكل سكان قصر عزيزة لأنه ربما كان يعرف أكثر مما يجب عليه أن يعرفه. كان ينتظر ليلة الليالي ليقول جرحه ويندثر كما ظل يكرر عليه المجذوب صبحا ومساء.

- يا صاحبي، تخاف على ماذا؟ خسرت ابنك ومنصبك وكل محيطك. على صداقتك مع لالة دنيا التي ظللت تمدحها صبحا ومساء؟ هي الآن بين ذراعي بغلها ولا يهمّ من يكون؟ لم تكن أكثر من كلبها

الصغير، الكانيش[٤١] الذي تشتهي أن تزوق شعره بالشرائط الملونة. قلها واندثر لن تفقد شيئا إلا القيود التي كادت تعميك بعد أن أعمت قلبك زمنا وبصِيرتك.

أشياء كثيرة تغيرت في آرابيا. فقد زاد التوتر، ولكن زادت أيضا ثقة الناس بأن قصر عزيزة ليس قدرا إلهيا وأنه على حواف السّقوط. كل الناس يتحدّثون عن الشرارة التي أحدثتها جريمة مولاي النّينيوي التي ارتكبت في العلن. فقد جمّعتْ حولها كل الحاقدين على خرجات سيدنا الخضر الذي أصبح أعمى ومجرما مفضوحا.

سيدي عبد الرحمن المجذوب استعاد عقله. من يراه لا يصدّق أنه الشخص نفسه الذي ظلّ طوالَ سنوات عديدة يرابط في حديقة الحيوانات منذ سنوات طويلة. عاد إلى القلعة وتفرّغ للكتابة، ولبس لباس العلماء مثلما كان يشتهي دائما، تاركا الساحة للقوّال الجديد والأصيل سيدي الموري الأندلسي أو بشير إلمورّو.

وكان على بشير إلمورّو أن يتحمل ما تبقى من أسرار الرحلة التي كان وحده العارف بنهاياتها. في الأيام التي سبقت الحريق الكبير في قصر عزيزة، كان يملأ الأسواق الشعبية وحده، بنشيد، كلما اقترب من النار، زاد حدة. كان يقول للحاضرين من مريديه الذين التصقوا به لأنهم رأوا تناغما عشقيا كبيرا بينه وبين ماريوشا، إن في الباخية حواشي وبقايا مخفية من الحكاية عليكم أن يسمعوها ويعرفوها ويفهموا أسرارها القلقة.

مع أن كلّ شيء كان يبدو هادئا في جملكية آرابيا. حتى أصوات المدافع التي تصمّ الآذان توقّفت بشكل فجائي، وكأن آرابيا استعادت علاقتها بالسلام الذي لم تره منذ سنوات. وانسحبتْ رائحة الموت والبارود، وحلّت محلّها رائحة أزاهير الحديقة الوطنية التي تفتحت كلها دفعة واحدة وكأن شيئا ما في الطبيعة نفسها قد تغيّر فجأة، أو كأن شيئا ما، ربما، كان يحدث في الخفاء حيث يصعب التمييز بين الحقيقة والمناورة.

---

(٤١) جنس من الكلاب الصّغيرة Caniche.

المؤكد هو أن دوريات الشرطة والدرك الوطني زادت على غير العادة. من حين لآخر تظهر سيارة عسكرية محمّلة بشباب الخدمة الوطنية، كان واضحا، من خلال الألبسة المتربة والممزقة أحيانا، التي كانوا يرتدونها، أنهم في حالة طوارئ. كل الساحات العامة كانت محتلّة من طرف قوات الأمن ما عدا ساحة القلعة البعيدة عن وسط المدينة. وكذلك رحبة السُّوق، التي ظلت تتمتع بنوع من الاستقلال لأنها تشكل شريان الحياة بالنسبة لجملكية آرابيا الوسطى، وأحد الأمكنة الأكثر حساسية.

تمركزت إحدى الدوريات في محيط الساحة. كان رجال الشرطة والأمن السرّي وبعض وحدات الجيش الوطني الشعبي، يتأملون المشهد العام، ويتمتَّعون بحركة الناس القوية والهادئة، ثم ينسحبون قليلا إلى الخلف قليلا، بجانب حائط عتيق سقط من تلقاء نفسه، من كثرة الإهمال ليتمركزوا هناك بصمت كلّي، وكأنهم ينتظرون أمرا خاصا.

مدّ بشير المورّو يده إلى التربة. حمل حفنة منها ثم مسد بها على وجهه الحزين. أنَّ مثلما كان يئن بانجو ماريوشا. صدح بصوت شجي اختلطت كلماته بين العربية والقشتالية. استغرب الناس الحاضرون هذه اللغة التي كانت قريبة وبعيدة، ترجمها البانجو بقوة صامتة بخيطه الخفيّ والأنعَم.

- أينك أيها الحنين؟ من الذي أغرقك يا بلاد الخير؟ أينك أيها الوطن الشجي، الجريح، المحارب، الشهيد، الذي يُسرق ويُباد ويُغتصب ألف مرة ومرة، بين الاغفاءة واليقظة؟ ما الذي يجعل سحر هذه التربة ونبلها لا يفنيان؟

غمز الشرطي الأول صاحبه كاتِمًا ضحكته يجهد حتى لا يثير الحضور.

- الآن أصبح كل شيء يُرتكب في العلن. ألم أقل لك إنه سَاحر، يمارس طقوسه لتضليل الناس. وأن الدليل الآن أصبح قائما بعد كل هذه

الأيام من المراقبة، من حديقة الحيوانات حتى السّوق، حتى الشوارع الخلفية، حتى حواف القلعة.

- لماذا تشغل بالك؟ القانون واضح ولا يقبل التأويل. لقد أقسمنا على وثيقة جملكية آرابيا أن نحارب السحر والسحرة، وأنْ لا نرحمهم.

كان سيدي عبد الرحمن المجذوب بلباسه الصوفي، والراعي هما الوحيدان اللذان تنبها للحركة غير العادية للشّرطين. كانا على بعد مسافات محددة يراقبان فيها كل شيء بدقة. تزحزح المجذوب حتى وصل عند قدمي بشير إلمورّو الذي كان قد تحوّل إلى ريشة في مهب الريح، أو إلى زهرة كاسي في شعر ماريوشا الملون بألف انعكاس أزرق. لم يكن يعير أي انتباه لما كان يحيط به من شرطة ووحدات جيش متحركة باستثناء الناس الذين كانوا ما يزالون تحت فعل الدهشة.

تمركز المجذوب في مكانه بحيث يَرى كل شيء ولا يُرى إلا قليلا.

- الثلج الذي نزل في الصيف الماضي لم يكن إلا إيذانا بخراب الذين جلبوا ابن كلبون إلى هذه الارض، من المدن البعيدة التي تقع في شمال البحار المنسية، البعيدة عن قلوبنا، آلاف السنوات الضوئية. يجب أن أُنهي الحكاية قبل فوات الآوان. لقد رأيتُ كل شيء، حتى علامات انهيار هذه المماليك الخرافية البليدة. أجيد الإستماع إلى أنفاسها الأخيرة. وهو ما يحدث الآن في جملكية آرابيا.

- إروِ ما في قلبك. أنت لا تراني ولكني أراك يا سيدي بشير إلمورّو. عليك أن تروي كل شيء. أنت من خبر قلوبنا وقلوب الناس جميعا، وعرف كلَّ أسرارها. لماذا تخفي نظرك في التربة يا سيدي، أنا حبيبك المجذوب؟

التفتَ صوب صوتٍ ربما كان الوحيد الذي كان يسمعه، قبل أن يغرق في عينيّ ماريوشا التي كانت كلما نظرتْ إلى وجهه، استرجعت صورته وهو يقف على حافة رماد سيدي النينوي وهو يتفي على الصليب المعدني الثَّقيل.

- ماريوشا، سحر الذاكرة وعنفوان التيه. أغْزفي يا ابنة الحنين

والشوق. دقّي على السّنطور الفارسي ليفتح قلبه عن آخره، وليترك الغيمة تعانق الغيمة والشوق يواجه الشوق. الحنين المرهف لا يلمسه إلا القلب الحزين والذاكرة المتوحدة مع جرحها. إجعلي ينغمتك مدافع القتلة تسكت. أخرِجي هذا الخراب الذي يملأ قلبك. انحتي من جوف الأخشاب والأوتار، كل المكنون والمدفون. أطلقي دفعة واحدة نشيد الربابة وعويل البانجو، فلن أجد مسالك الحكاية إلا داخل إيقاع الحنين.

كأن ماريوشا قرأت كل ما كان يحترق في قلبه.

- حبيبي بشير إلمورّو، الموري الأندلسي البهي. أنت في صلب نار الحقيقة. ستجد مسالكك مع الذين قاسموك الدم والخوف والشوق، ورعشة الموت الأخيرة. الجملكيون يكرهونك لأنك خوفهم المبطّن وسرّ هزائمهم وهلاكهم. وجودك وحده يقضّ مضاجعهم. وأنت تحب الحياة وتقسم أنها تستحق أن تُعاش، وتعشق الأشواق الأندلسية التي سحبتها وراءك بعذوبة وعذرية لا تحدان أبدا. أشياء فيك يا سيّدي، لا تُلمَس ولكنها تُحَس، تتمايل مثل الأغصان الطرية. أشياء فيك أيها الكبير، تلفحها الريح الشتوية مع الفجريات الباردة. أشياء فيك غامضة مثل حكايتك، ركبتها الأنداء الصباحية لنهار جميل لا يمكن أن تمنحه إلا لمعشوقة عاشت معك حرقة ليلة الليالي التي أنشدتها وأنت تعرف مسبقا أنها ستكون حريقَك أيضا وفناءك. فيك سحر الحياة الذي يحول الموت إلى شهوة، وعشق المرأة إلى قداسة. كنت نبيا حينما عدتَ لها من محارق الأندلس، محمّلا بالأحرف والقصص والجراحات. أغرقتها في أنينك يا مولاي. جاءتك ماريانا حتى أرض آرابيا بعد أن رشقتْ زهرة الكاسي الحمراء بين شفتيها، وقالت هيت لك حبيبي! لم تكن عزيزا ختمت شهوته بفراغ، أو عابرا من العابرين. كانت سكنك وكنت دفئها الذي انتظرته طويلا ولم تيأس أبدا. اندفنت فيها حتى الأعماق، واندفنت فيك بنفس الدرجة والعنفوان. مددتَ يديك إلى نهديها النديين كوردتين، سال حليب بلون اللوز وطعم التفاح. شعرتَ بالحلاوة في حلقك، أخذتَ الحلمة ونمت على عطرها. قلتَ لها الدنيا شرود وعبور. ليكن،

إذا مِتُّ وأنتِ في قلبي، فقد وصلتُ إلى سقف الشهادة. وضعتْ رأسها على صدرك، ثم نامت على قبلة. الصباح وجدتَ الدمع يغلق عينيك. هل كان حلما أم كابوسا؟ حين فتحتهما بصعوبة، وجدتَ كومة رماد في كفك، وحريقا نشب في قلبك حتى الموت. احْكِ أيها القوال الأندلسي، لقد اختصروا زماني، وها هم الآن يحاولون اختصار شوقك. احْكِ أيها السّنطور الفارسي واهرب قليلا من أناملي. أرْوِ أسوار الآلام التي نبتت في القلب كالشوك المتوحّش. احْكِ أيتُها الربابة التي قاوم خيطها الأوحد خوف الجبابرة. احْكِ عن كل شيء يحرق قلبك ويوقظ ذاكرتك، لتتم القصة قبل أن تكنِّسَ وجوهُ الخراب شوارعَ المدينة وأسواقَها، وقبل أن ينزل نهائيا ستار ليلة الليالي.

حتى تلك االلحظة، أي قبل أن يسمعها،لم يكن بشير إلمورّو يعرف أن في قلب ماريوشا كل هذا الوهج الخفيّ. تشمّم بشير وجهه من جديد عطر الترّاب. استنشقه طويلا. فقد كانت الرائحة المنبعثة منه بعد الأمطار الخفيفة، تأسره. واصل سرد الآلام التي كانت تخرج بصعوبة من قلبه ولسانه.

كان بشير إلمورّو يعرف جيدا أنه يقف على حافة صراط غير مستقيم اسمه ليلة الليالي، وعليه أن لا يخطئ دَرْجتَه لكي لا تُكسر رقبه. ويدرك جيدا أن كل ما يحيط به يؤكد على أن الجميع في صلب ليلة الليالي. فقد بدأ الحاكم بأمره يعدّ الأيام على رؤوس أصابعه، ويدفع بما تبقى منها باتجاه يوم جديد حتى تمر الكارثة بخير، ويثبت للآخرين، أن كل ما حدث لم يكن إلا فعلا من أفعال الشياطين والسحرة الذين ملأوا آرابيا خدمة لأعداء الأمة، لأن الخوف من الدمار وصراخ الشوارع كانا يملآنه. لقد بدأ زحف ليلة الليالي ووصَل عدّها العكسي إلى مرحلة اللاعودة. يخافها مثلما يخاف مرض النقوس الذي يعاني منه منذ زمن بعيد. رغوة الالتصاق بالحكم كانت تملأ عينيه وغيّه.

يقول القوّالون وبعض المؤرخين على حد سواء، إنه في أواخر تلك الليلة الآسرة، حكت دنيا كثيرا، في انتظار خاتمة المطاف. قالت ما لم

يكن يريد الحاكم بأمره سماعه. كان يخاف من كلامها. لسانها لسان أفعى عمياء، ظل يكرر ذلك على مسمعها ومسامع مقربيه. لكنه يعرف جيدا أنها لا تنطق عن الهوى. كلما سمع منها خبرا سيِّئا، ينظر إلى وجهها، ويخاف أن يقتلها قبل أن يغتصبها للمرة الأخيرة، وقبل أن تنهي الحكاية. أراد أن يتجاوز الزمن الصعب الذي كان يمر ثقيلا ومخيفا، لكن دنيا كانت تغرق في التفاصيل وتريده أن يسمعها. لم تسأل دنيا إذا ما كان سيدها يهذي أو يقول كلاما متزنا، ولكنها كانت تعرف أن الضجيج ورشقات الرصاص، التي كانت في الخارج، أصبحت في الحديقة الكبيرة التي يتربع قصر عزيزة في وسطها. فرساي صغير[42]، كما سماه الأصدقاء الشماليون الذين بنوه وبنوا دهاليزه حتى المخابئ المضادة للقنابل الذرّية. هكذا كان المخطط منذ اللحظة الأولى عندما تم التفكير في بنائه بمناسبة مرور نصف قرن على اعتلائه كرسي الحكم على مدار عشر عهدات انتخابية ديمقراطية متتالية، لكن وفاة عزيزة عجّل بالتسمية حتى قبل الانتهاء منه. فخور أنه هو من كان وراء النظام الجملكي الجديد، وحصر عهدة الحِكم في خمس سنوات بدل العشرة أو الأبدية، التي كانت من قبل.

- انس يا مولاي كل الحكايات الكاذبة. المهم أنك هنا ويجب أن تظلّ. كل هذا يا عمري سيتحوّل إلى حكاية يختطفها الأطفال للتندر بها، ويتسابق عليها المؤرخون لتضخيمها بأوهامهم.

- تريحني كلمتك: المهمّ أنّك هنا، ويجب أن تظل. سأظلّ عمري... سأظلّ.

ردّ الحاكم بأمره وهو يمدّ يده إلى صدر دنيا المفتوح عن آخره. تلذّذ من جديد برأس الحلمتين. كانت الانعكاسات الضوئية تجعل من تفاصيل جسدها المتفتح حلما مدهشا. وضع نهدها الأيمن في حضن يده كمن يزن شيئا ثمينا. غمغم بكلمات غير مفهومة ومحروقة. تأمله طويلا. هذه

---

(42) Le petit Versaille.

المرة لم تمانع ولم تضع أمامه أي شرط مسبق. لكنها لم تشعر بأية رغبة تقودها إليه. تركته يفعل كان ذهنها كان في مكان آخر. ضغط على النّهد بقوة أكبر حتى آلمها. تأوهت ولكنها صبرت. تأمل اللحم الذي فاض بين أنامله. لم يستطع لجم حرائقه: كل هذه الأناقة وهذا الجمال بينما هو بدأ يشيخ وينكسر؟ ماذا كانت تفعل كل هذه السنوات عندما كان كلما سمع إضرابا أو حادثا يموت خوفا من هروب الملك. وضع النهد المعروك بين شفتيه. مص المصة الأولى بعمق، ثم توقف، متبعدا قليلا عنها، تاركا صدرها في العراء. شعر بشيء يشبه الحليب المر. اللوز المر. أول مرة ينتابه فيها هذا الشعور ولهذا شعر كأن نذير الشؤم بدأ يرتسم في الأفق. قال لها مرتبكا:

- ما الذي يجعل حليبك مرّا يا دنيازاد؟

- لا أدري يا صاحب المقام العالي. ربما جاءت المرارة من فمك؟ قلتُ لك لا تخف. كنتَ وستظل على الكرسي.

- مثلك مثل دابة الغواية، لا تعطين صدرك إلا لمن تعشقين. لحظات شبقك المجنون يتحول جسدك إلى سفينة، وحليبك إلى ماء زلال. وعندما تستنكفين يصبح جسدك مسموما وحليبك مرا.

- لا علاقة لهذا بذاك. مازلت مصرة يا مولاي وحبيبي على احتمال أن تكون المرارة متأتية من فمك الذي لم يشرب أو يأكل شيئا منذ أن بدأتْ ليلة الليالي في مسارها، لا بل منذ أن وصلتْ إلى طريق اللاعودة.

- أنت تهذين. لا وجود ليلة الليالي. كلها احتمالات أنا وراءها. الأمن استتبّ نهائيا في البلاد. التقارير التي تصلني تقول بأن الوضع عاد إلى طبيعته وأخليت كل الساحات العامة، ولم يبق منها إلا ساحة السوق التي تمّت السيطرة عليها. احتفظنا بها لنقرأ باروميتر الوضع العام من خلالها.

- ورشقات الحديقة؟

- لم أسمع شيئا. ربما كان الأطفال يلعبون بالألعاب النّارية على الرغم من أني حرمتها ومنعتها بقرار جملكي صارم. ولكن ما عليهش

ماداموا يحتفلون بانتصارات البلاد على أعداء الأمة.

- أي انتصار يا مولاي؟ كل آرابيا أصبحت مسلّحة.

قهقه في مكانه حتى اهتز بطنه المتفخخ طويلا.

- مسكينة أنت يا دنيازاد. دابة الغواية كانت أذكى منك على ما يبدو. لو كنت أملك قلبا من المرمر أو حجر الصوان لوضعتك بين ركبتي، وذبحتك مثل الشاه، ولأكلت رأسك لأنك أرهقتني كثيرا، بعدها أدفن فيك كل رغباتي المحمومة التي كسرتِها في عنفوانها. ولكني مازلت أحبّك. ثم. . . وعدتك أن أسمع الباخية حتى النهاية، ووعد الحر دين ودِين. ولهذا أقبل أن أظل لفترة قليلة بين ذراعيك لكنّ حليبك المر أصبح يخيفني.

- لن أقلقك يا مولاي مرة أخرى، لنفترض أن المرارة ليست من فمك؟ أليست من الحكاية نفسها التي تُحاول أن تواكب ليلة الليالي؟

- ليلة الليالي، ليلتك وليست ليلتي. نهدك هو المرّ. خلّصي ودعيني أعود إلى فراشي لأنام وأنسى كل هذا الجحيم الذي حكيتِ عنه. قولي. . . قولي. . .

صمت قليلا. ظلت دنيا صامتة أيضا للحظات.

بسمل الحاكم بأمره، وحوقل بحشرجة. فكر أن يذهب للنوم ويخلد في إغفاءة تمناها أن تدوم طويلا، لكن الرشقة الثقيلة كانت قريبة هذه المرة، سمع بعدها شيئا يشبه تكسر الزجاج. رفع رأسه تجاهها لسماع بقية الباخية:

- قولي. . . أنا اسمعك. لن أخلّ بوعدي.

انسحب صوتها فجأة. ظل يتابع تمتماتها وحركات يديها، وغمزات عينيها اللتين لم تكونا لتثبتا في مكان، أو على زاوية معينة. أحس كأنها تبحث عن شيء ضاع منها. لأول مرة يرى الحمرة تعلو وجهها والارتباك يمس كل حركاتها. فجأة رست عيناها على الساعة الحائطية الكبيرة ذات الأرقام الرومانية، التي واضبت عليها لدرجة الرتابة على مدار سنوات إقامتها في قصر عزيزة. كانت تدق دقتها الأخيرة قبل أن تتوقف حركتها

نهائيا، ويتحول فجأة القصر إلى مكان موحش. شعر الحاكم بأمره أيضا، ولأول مرة، أن الدقات التي كانت تملأ المكان أنسا وحضورا، حول غيابها القصر فجأة إلى قبر.

كان يجب أن يتوقف كل شيء مع توقف تدفق سحر الحكاية، عند خاتمة ليلة الليالي. لولا شغفه بسماع النهاية، لأوقف كل شيء عند الحواف التي لا هي النهاية ولا هي البداية. ثم أن سلطان دنيا لا يُقاوَم. لكنه والساعة الحائطية تتوقف فجأة، شعر في لحظة من اللحظات، أن شيئا ما غير سعيد كانت الحكاية تخفيه في أعماقها حتى لا يكتشفه. تذكر أن دابة الغواية في ذلك الزمن البعيد، شهرزاد، لم تحك ما كان يجب أن يُحكي. خبأت على شهريار الحقيقة التي كان يعرف سرّها حتى قبل أن يلمسها. ليس لدى دنيازاد ما تخبئه سوى جن الشّهوة، هكذا خمَّن، حتى قبل أن يدرك سرّ اللعبة المعقدة التي لا شيء ينفع فيها.

- لماذا لم تستسلم له دابة الغواية إلا في الليلة الواحدة بعد الألف؟ لماذا ختمت انتظاره بثلاثة أولاد ذكور وهو لا يتذكّر أصلا أنه جامعها في نفس الفراش؟ كان مولعا بإجدى محظياته حتى الغرق.

- مَنْ مِن الملوك يتذكر يا سيدي أنه جامع زوجته، وهو كل لياليه يقضيها متجولا بين أسرة المحظيات الكثيرات، من بلاد الهند والسند والصين والعرب والبربر؟

- ما المدهش في الليلة الواحدة بعد الألف.

- لا شيء يا مولاي وحبيبي. لا شيء. سوى أن شهرزاد خبأت فيها الحقيقة. فقد حاولت فاطمة العرة في تلك الليلة بالضبط أن تسرق من معروف، خاتم الملك والسلطان، الذي كان يدير به دفة الحكم.

- خائنة؟ ليس غريبا على النساء.

لم ترد دنيا. بلعت كلماته على الرغم من حرائقها.

- لا أعتقد يا صاحب المقام العالي. فقد فعلت فاطمة العرة ما كان يجب فعله لا أكثر. كانت فقط تنبهه لكي لا يغرق فيما يمكن أن يدمّر ملكه وعلاقته بالناس، ولكنه لم يفهمها جيدا، كعادة كل الرجال.

- يزّي من الكلام الزائد الذي لا فائدة تُرجى من ورائه إلا تعميق الأحقاد والشكوك. واصلي واحذري من مزالق الحكي إنها كثيرا ما توصل أصحابها إلى حبال المشانق...

فجأة عادت الساعة القديمة إلى حركتها التي كانت قد انطفأت فجأة مما رسم الابتسامة على محيا الحاكم بأمره من جديد. لمع النور في عمق عينيه وكأن كل ما كان يحدث هو مجرد كابوس عابر لا أكثر.

- هاااه؟ ألم أقل إنّ كل ما يحدث هو مجرد لعب أطفال؟

- لا أدري يا مولاي. لا أدري ولا أفهم أيضا سر كل هذه التحولات. امهلني لحظة تفكير لكي أعرف كيف أقبض على ما تبقّى من الحكاية. الساعة أربكتني.

رفعت رأسها مرة أخرى نحو حركة عقارب الساعة. شعرت باطمئنان لأن الحاكم بأمره كان سعيدا وهذا هو الأهمّ في كل الحكاية. يجب أن لا يتهور إذ منذ أن دخلت معه في سحر المغامرة وهي ليست متأكدة من بعض ردود فعله. فلم يكن ما كان يحدث أمام عينيها من تبدلات في الوقت، دليلا على أن الزمن عاد إلى طبيعته الأولى، لأنه من حين لآخر، كانت كل المؤشرات تتسارع بشكل مجنون أو تتوقف دفعة واحدة. وهذا يحدث معها لأول مرة. قبل أن يتوقف كل شيء مرة أخرى ويصبح الجو العام أكثر ثقلا عمّا كان عليه في المرة الأولى.

- أرأيت يا سيدي ماذا يفعل فينا الزمن؟ أكثر قسوة من البشر. الزمن الذي أمهلك أكثر من خمسين سنة، وربما ثلاثة قرون، وربما أيضا أكثر من أربعة عشر قرنا، لا يمكن أن يتحرك الآن ثانية واحدة حتى ولو استعملتَ كل الوسائل التي تملك وتغيّر بها ناموس الأشياء. لقد انغلقت الدورة يا مولاي وحبيبي. ولهذا قلتُ لك إن فاطمة العرة فعلت ما عجزت عن فعله شهرزاد بأن أوقفت الزمن بطريقتها.

كان عليها أن تحول الاستحالة إلى إمكانية لصالحها، قالت دنيازاد. في الليلة الواحدة بعد الألف، وقبلها بقليل، كان ابن الملك معروف قد بلغ السبع سنوات. كانت الزوجة الأولى فاطمة العرة قد عادت من بعيد،

من قفار الربع الخالي، تطالب بحقها المسروق، لأن الملك معروف، كما يقول الوراقون وأصحاب الدواوين كان قد اشتغل بحب الجواري الحسان، ولم يفكر في زوجته فاطمة العرة، لأنها شاخت بسرعة من فرط الفقدان. أرادت شهرزاد أن تحكي لشهريار، ما خفي من القصّة ولكنه لم يمهلها، مع أنها كانت تدرك أنه من المستحيل، أن يقتلها، لأن مصيره ظل معلقا داخل الحكاية. في الصباح روت له جزءا آخر مما تبقى. قالت له إن الملك يرحمه الله، كان إذا أراد أن يجامع نساءه، يخلع الخاتم من أصبعه احتراما للأسماء الشريفة المختومة عليه، فلا يلبسه إلا على طهارة. ومتى جامع المحظية، عليها أن تذهب من عنده خوفا على الخاتم. وإذا دخل الحمّام، يقفل باب القصر، حتى يرجع منه، ويأخذ الخاتم ويضعه في أصبعه. فاطمة العرة دخلت عليه، ولكن ابنه صاحب السيف القصير المصنوع من الجوهر، رآها، وحين سرقت خاتم الحكمة، رفع سيفه وقطع رأسها، وقال لوالده الذي استيقظ مرعوبا من فراش إحدى المحظيات: يا أبي كم مرة وأنت تقول سيفك عظيم ولكنك ما نزلتَ به حربا ولا قطعتَ به رأسا، أو عنقا مستحقا لذلك؟ ثم أخبره بفعلة فاطمة العرة التي سرقت خاتمه، وقال له أنه فتشها بكاملها ولم يجده إلا عندما فتح كفها، وجدها مطبقة عليه بين أصابعها. فقال الملك، الذي أختبأ في زاوية ليغتسل من نزال المحظية: أنت ولدي بلا شك ولا ريبة، أراحك الله في الدنيا وفي الآخرة كما أرحتني من هذه الخبيثة. لكن الذي حدث بعد ذلك كتمته شهرزاد على سلطانها خوفا من بطشه. كان يجب أن تقوله له ولو كلفها رأسها، لكنها وجدت نفسها بين المطرقة، والسندان. فضّلت أن تقفز كعادتها على حادثة قتل الملك. جاءه ابنه من زوجته الأولى وقال له: أبتي لا تخاف هذا أنا. عندما رآه لم يطمئن لعينيه ولكنه تضاحك معه: هل أصبح سيفك الخشبي قادرا على خوض الحروب لحماية الملك. قال له لا أدري يا أبتي، دعني أجربه. رفعه عاليا، ثم بضربة جافة قطع رأس والده. ثم مسح شفرته في فراش المحظية التي كانت ترتعش. طمأنها بأنها لا تعنيه، ثم خرج بعد أن أخذ

خاتم الحكم، ولم يجلس على الكرسي إلا بعض الساعات لأن عاصفة بشرية غير منتظرة كانت قد زحفت نحو القصر وأبادته عن آخره. ظل يصرخ ويستجدي موجة البحر، التي ملأت فمه بالملح والزبد، لكن لا أحد لنجدته. حتى مرآة القصر المقعرة التي هرب نحوها في اللحظات الأخيرة من عمره، لم تستطيع أن تعكس وجهه بالصفاء الذي كان يريده. رأى المدينة تهتز، والبحر يغادر مواقعه باتجاه القصر. بعدها أمتلأت المرآة بالوجوه القروية المليئة بالجراح والندوب. كانت تتوعد وترفع أياديها عاليا عاليا بشارة النصر. ومع ذلك ظل يصرّ على رؤية وجهه، ولكنه لم يستطع أبدا. وقبل أن ينسحب، رأى جثة منتفخة، عندما قلبها بيده، عرف وجهه. هو نفسه. صرخ: لعنة الله على هذه المرآة المسحورة، أنا حي يرزق وهي تظهرني جثة هامدة. ثم ضربها بحذائه العسكري، فتشققت، ومن بين الشقوق كان الدم القاني يسيل بغزارة. حسمت شهرزاد دهشة سيدها: هذه هي النهاية التي ظل شهريار يهرب منها طوال عمره.

تململ الحاكم بأمره في مكانه وهو يشعر بمغص غريب من الساعة أولا التي عادت إلى توقفها النهائي ولم تحرك ساكنا كما فعلت في المرة الأولى، ومن قصة فاطمة العرة البائسة التي تشبه في الكثير من تفاصيلها شيئا سبق أن رآه في أحد كوابيسه التي تكاثرت في الأيام الأخيرة.

- هذا ليس مَلِكًا، هذا مجرد رجل غشيم وغبي. كان عليه أن يتخذ احتياطاته حتى من ابنه، خصوصا إذا كان هذا الابن طماعا في الكرسي والملك. قتلتُ ابني الأول لأنه كان سيقتلني يوما ولو انتقاما لأمه، إذ سيجد يوما من أعدائي، داخل القصر، من يخبره بالحقيقة المرة.

- لقد فعل كل شيء يا مولاي وحبيبي وقرة عيني. لم يكن المَلِكُ غبيا، لكنه نسي أنه كان على حواف النهاية. أيام قبل أن يحز ابنه رقبته، استصدر العديد من القوانين والفرمانات التي يتم من خلالها الحفاظ على المستوى الثقافي للرعية، وعلى رشاقة البلاد. أصدر دفعة واحدة سبع مائة مجلة وجريدة وطنية ناطقة بكل لغات أصدقائه. وأصرَّ على توحيد مادتها

ومنهجها وإخراجها بالشكل الذي يليق بها. طالب الوزراء، بالحفاظ على الرشاقة وأعطاهم أسبوعا أمامهم لتنزيل سمنتهم تحت السبعين كيلو. وكل من تجاوزها ذلك، فقد ظلم نفسه لأنه عند ما يُسأل من أين لك بهذا البطن ولا يجيب بحسب تصور الملك وفي اللحظة المحسوبة، يشويه ويوزع لحمه على أبناء المدينة، على أساس أنه لحم بقري صافي. ذات مرة سأل أحد وزرائه السمينين، من أين لك هذا؟ فأجابه بابتسامة المنتصر: كل هذا بفضل خيرك ورزقك ونعمتك التي لا تفنى. لم يدر الملك ماذا يفعل معه. وضعه داخل دائرة مغلقة، وتركه في سرداب تحت القصر حتى خسر العشرين كيلو الزائدة ثم أعاده إلى منصبه، لكن المسكين، بعد شهرين مات جوعا، خوفا من السمنة. كان يعرف أن أي واحد يتجاوز وزن الملك، يصيبه الهلاك. تقاليد السلطة تشترط الصرامة. أحد وزرائه فكر في الاستقالة مبكرا، لأن قاعدته بدأت تتسع، وكان يعرف أن وزنه قادم وسيصبح فاضحا إن استمر في السلطة، وسيتهم بالمس بأمن الدولة والحكم.

قال الحاكم بأمره بانفعال شديد.

- خليني من رب النكات البايخة، والملوك البغال، عاشرتهم وأعرف عجزهم الدائم. كلنا في نفس المزبلة. إحكي لي بقية الباخية التي تركتها هذه المرة أيضا معلقة.

- ما يريده مولاي.

عندما صاح بشير إلمور للمرة الأخيرة، وعاد ليحتل ساحة السوق، كان كل شيء قد انتهى. وخسرت الدنيا قداستها، وعمَّ الفراغ عيون الأنبياء. امتلأت الدروب بالقتلة السريين والعلنيين. وسيدنا الخضر أصبح مضحكة عند القاصي والدّاني. أصبح يركب حمارا عجوزا ثقيل الحركة ولم يعد يخيف أحدا. لقد انتهى عند بوابات الأسواق القديمة بشكل مخجل. لكن جملكية آرابيا يا مولاي لبست الحداد لكي لا ترى الحرائق التي كانت تأكل دروبها وشوارعها وذويها.

قالت ماريوشا بعد أن سحبت من أعماق السّنطور الفارسي وصلة

حزينة دامت طويلا من شدة إلحاح الناس على تكرارها. كان العرق باديا على وجهها بالرغم من الزذاذ الذي ندى أرضية الساحة. ثبَّتت من جديد وردة الكاسي الحمراء في عمق شعرها الأسود الذي عاد إلى زرقته اللامعة عندما شعت شمس هاربة من وراء الغيوم الداكنة.

صدحت بصوت يخترقه الأنين:

قَلْبِي يَا قَلبِي طَاوِعِني...
يَاكْ أَنا مُولاَكْ... لاَشْ لغَيْرِي تَدِوِي[٤٣]؟
لله آقَلْبِي جَاوِبْنِي
آشْ نِدِيرْ مْعَاكْ... حَيَّرْنِي أَمْرَكْ[٤٤].

ثم تَفطَّنت إلى أن حلقها نشف، وأنها تبتلع ريقها بصعوبة زائدة، لا تدري إذا ما كان السبب الريح الساخنة التي هبت بسرعة ونشفت كل شيء، أم بقايا الكابوس الذي أصبحت تراه كل ليلة. حريق مهول نشب في جسدها لا هو أحرقها ولا تركها تعيش حياتها طبيعيا. عدَّلت من آلتها ثم توجَّهَتْ إلى بشير إلمورّو الذي ظلَّ معلقا على صوتها الذي قذفه حنينيه بعيدا بعيدا.

- يجب أن لا تتوقف يا مولاي. الزلزال بدأ يشق عذرية الأرض المسروقة، ويهز الدرج الأخير من ليلة الليالي. عندما تتصل إلى سقفها، فهي لا تستأذن الملوك والسلاطين، تمد يدها وتمسح الخراب، بخراب آخر قد يكون أكثر قسوة قبل أن تعمّ بعدها حالة البياض الكلّي. في الليلة نفسها تنفطر السماء، وتتناثر الكواكب في فوضى بحثا عن نظام جديد. تتكسر الأمواج، وتفيض البحار وتنفجر القبور مبعثرة كل العظام التي بداخلها لتشتعل فيها النيران المحمومة. وكل نفس تقف عارية أمام البحر، يحاسبها على أملاحه، تتكور الشمس حين تصبح قريبة من الأرض على غير عادتها. النجوم تتكدر، والجبال تسير والعشار تُعطل،

---

(٤٣) أنا سيّدك، فماذا تنحاز لغيري.

(٤٤) فرقة جيل جيلالة الشعبية.

والوحوش تُحشر. وحين يُسأل المؤيدون بأي ذنب قُتِلوا، يتدثر الملوك داخل أكتافهم، حفاة، عراة، بعد أن يذهب جبروتهم مع الريح. يا سيدي الكبير، وجودك هنا والآن، يعلن عن فجيعة النهاية. الذي لا يعرفك، لا يصدّق نبوءك، ولو عرف لهرب قبل فوات الأوان. هل يجب أن نصمت على خراب وشيك ونترك الوديان والبحار والعوصف والزلازل تتكلم وحدها؟ هلمّي أيتها الأنواء. هلمّي... الليل يزحف بقوة. إنه يأكل الأخضر واليابس. الأبيض والأسود. لم يبقَ لنا شيء نخاف أن تخسره. وجهك يكفي وحضورك البهي علامة. حنينك يا كاشف ستار الغيب، ويا حبيب نجمة الرعاة والتائهين، ينير أصعب المسالك التي لا يدخلها إلا من عرف شيئا عن سرّ الآتي.

كان المجذوب مأخوذا بحنين ماريوشا حتى الأعماق. سرحت به طويلا قبل أن ينزل إلى الأرض وهو يراقب مشهد الشرطة وهم يتواصلون مع كتيبة الجيش الأقرب. يعرف جيدا أن ماريوشا لا تتأوم ولا تعتنق السنطور إلا عندما يمتلئ قلبها بأناشيد الجنة. كان يدرك أكثر من غيره أن الحكاية قد تبدأ من هناك، من الشدو الهارب ومن آلتها.

- يا سيدنا الخضر، اتركهم لقد حلّسوا لك دابة ثقيلة وتركوك تموت في الفلوات، عد إلى رشدك وتعال. انتظرناك طويلا، ولم تأت برهانك يا سيد العارفين. لقد سرقوا نورك وعزك وحكمتك ورموك على أطراف المدينة ولم يأخذوا منك إلا اسمك. وأنت يا شيخي الأكبر، يا شعلة كل المدن المسروقة، أكتب تاريخك، فتاريخك الحقيقي يلعب به الوراقون، وكتّاب الدواوين. أنينك يا سيدي يصل القلب. يا مولى الساعة، في اللحظة التي تشعر بها أنك صرت وحيدا، على بني كلبون أن يدركوا أن ساعتهم توقفت. تتقاطعان يا سيدي الموجوع أنت وحبيب الألم بوزيان القلعي. كان بسيطا، لم يعرف إلا الصدق ورعي الأغنام، والقامة المستقيمة، والأنف الواقف والحاد كالسيف. جاؤوه ليلا في ذلك الزمن البعيد، كان المطر يسقط بغزارة. غسل وجهه بماء السماء الذي لم يفقد صفاءه بالرغم من العواصف والرياح والتربة المتصاعدة.

كان منهكا وجائعا ومنكسرا لسبب لم يكن يعرفه. قال: ابنتي أرجوكم؟ نوارة، عيناي. أقتلوني وأتركوها، إنها صبية في عز العمر. قالوا نريد قائمة الفوضويين الذين ساوا على نهج باكونين. يناهضون الجملكية ويحملون بتحطيم أسوارها الواسعة. قال افعلوا بي ما تشاؤون لكن انسوا نوارة، لا ذنب لها سوى أنها ابنتي. تضاحكوا طويلا. مدّدوها أمامه. لم يكن عمرها عمر الألم. ثم اغتصبوها واحدا واحدا. لم يستطع رؤيتهم. أغمض عينيه. كانت نداءاتها تأتيه كألسنة النار المتسلطة على جسده. ضغط على أسنانه حتى سمع تقاطعها وتطاحناتها الداخلية. كرّروا على مسمعه نفس الكلام: نريد القائمة يا بوزيان القلعي. ضرب رأسه على الحائط الاسمنتي حتى نزّ الدم من جبهته العريضة. وضعوا نوارة في كومة تبن في الحارة الشعبية القديمة ثم أضرموا النار فيها. لم يُسمع صراخها، لأن بوزيان القلعي ظل يعوي كالذئب المجروح ويتضور في مكانه. ومع انتهاء صرخته،كان تأجج اللهب قد بدأ يخفت شيئا فشيئا، لينطفئ بانطفاء جسد نوارة. رفع صوته من جديد صوب السماء، لكنها كانت فراغا جافا. مد يديه باتجاه قطرات مطر الخريف المبكر، التي بللته عن آخره، ثم غسل وجهه بها. لأول مرة يشعر بوزيان القلعي بأن الأمطار فقدت حلاوتها، وأصبحت مالحة مثل دموع الثكالى. صعد إلى الصخرة العالية ثم رمى بنفسه في البحر بعدما داخله حنين الموت. وحينما خرج من إحدى عيون الحيتان، كان مغسولا بالأملاح، يجر وراءه جيشا من الرعيان، والصيادين والمظلومين، لتحرير مدينته من غزاة الحجارة والأتربة. ويقال في إحدى الروايات المؤكدة، إنه هو الذي خلع رقبه الملك الذي قتل والده واعتلى العرش، في ذلك الزمن البعيدة. ويوم مات بوزيان القلعي، كان الناس يمشون، رؤوسهم مرفوعة إلى الأعلى باتجاه السماء احتجاجا على الظلم حتى في عز الشهادة لأن بوزيان كان يجب أن يعيش أكثر. يحملون القرابين، وفي أكفّهم طاسات النور، وفي كل وقفة يغسل أحدهم وجه بوزيان الذي كانوا يريدونه أن يظل مشعّا وحيا حتى وهو داخل القبر. بعد كل هذا. . . قولوا للحاكم

بأمره، إن الزمن الأغبر يدق على بوابات القصر. قولوا لصاحب بدعة الجملكية، إن الماريحا، تنشأ الآن تحت قدميه. قولوا لدنياه عليها السلام. ليلة الليالي ستطوى كتاب تاريخه، تاريخ الورّاقين وأصحاب الدواوين الكذبة. قولوا له لقد وضعت الليلة يدها على ساعته، فأوقفتها.

فجأة تدخل الشرطي الشاب الذي كان على أطراف الحلقة.

- بشير إلمورّو، أوقف هذا الحديث. إنك ترغمنا على إيذائك. قلنا أنك تعقلت عندما صاحبتَ العلماء والحكماء، وها أنت تعود إلى غيِّك وجنونك. قل م تشاء، ولكن لا تسم بالأسماء. أرجوك. لستُ عدوك ولكني موظف ولي دور حفظ الأمن الذي أؤديه. وأنت تعرف أن البلاد تمرّ بظروف قاسية.

- ولي أيضا دور أؤديه وعندما تصطدم الأدوار لا يبقى حل ثالث، إما أن نتقاتل، أو نضع اليد في اليد ونزحف نحو بني كلبون. لا يوجد مسلك ثالث يا ابني.

ثم التحق به شرطي آخر نزل لتوه من السيارة السوداء التي كانت كانت تجوب السوق الشعبية وتراقب الوجوه، وتنصح الناس بالعودة على بيوتهم بسبب الانفلات الأمني. كان وجهه باردا مثل قطعة حديد مصدأة. رفع رجله عاليا وقبل أن يهوي على البانجو لكسره، والسانطور، والبندير، كان المجذوب المنعزل في الزاوية المظللة، قد دفعه بعيدا بكل ما يملك من قوة حتى تدحرج في مكانه قبل أن يجد توازنه.

- من أعطاك حق قتل الروح؟ لماذا عندما تخفقون، تقتلون الأناشيد والأغاني؟ لماذا تمزقون الألحان التي تعيدكم إلى إنسان فيكم كدتم تنسونه؟ لن تمسس هذه الآلات إلا إذا مررت على جسدي. ديرْ عشرة واقرص[٤٥]. يا الله وريني شطارتك.

كان الناس قد أغلقوا الدائرة التي زادت ضيقا. الأغاني في قلب كل

---

(٤٥) مثل شعبي. معناه المباشر: ضع في البندقية عشر رصاصات إذا شئت واضرب. معناه العام: افعل ما تشاء.

الناس. صاح المجذوب في وجه الشرطة الذين ملأوا الساحة: حتى المجانين أزعجوا راحتكم؟ تخافون ممن؟ الحقيقة أصبحت الآن في الشوارع.

حقيقة قصر عزيزة وأسراره. دوّنها علماء المدينة في كتاب المدينة الذي فتحوه أمام المؤرخين، ومفادها أن الشرطة عندما تدخلت يومها لإسكات صوت بشير إلمورّو، كانت أطراف المدينة تتحدث عن أشياء غامضة تحيط بقصر عزيزة.

قيل إن حنين الماضي استيقظ في قلب الحاكم بأمره سيد جملكية آرابيا، فاتهم زوجته دنيازاد، بأنها استغلت طيبته والحرية المعطاة لها من طرفه، وعشقت سائحا، وربما عبدا من عبيد القصر، لتنجب منه الطفل الوريث، قمر الزمان. كان الحاكم بأمره يعرف عقمه مثل سالفه، لأن تعداد السلطة المتوارثة توقف عنده، ولم يكن ممكنا أن ينجب. حين بكى ليلا قال لدنيا: صدرك أصبح مرا، وسيفي عاجزا عن قتلك، مازلت اشتهي صبيا منك. ضحكت دنيا طويلا قبل أن تقول له: مستحيل أيها الحاكم الحكيم السعيد. أنت بغل يا مولاي. وأنا لبؤة. أنثى مملوءة بالحنين إلى الطفولة. قال لها أرجوك تدبري أمرك، لا يعقل أن نرمي الملك للريح وللرعيان ولعمال البحر، أو لسفلة القلعة الذين تحولوا إلى شوكة في الحلق؟ من يومها أدرك سر اللعبة. صار يغمض عينيه عن السوّاح الأجانب. في المساء يسألها وهو يداعب نهديها المكتنزين: هاااه. يا لالة دنيازاد، يا قطر الروح وندى العمر، هل من جديد؟ هل تأوّهت كثيرا وأنت تنامين عليه؟ أعرف أنك تعشقين هذه العادة. تريدين أن تركبي الرجل وترفضين أن يركبك. لا تجيبه، وإذا أجابته لا تتعدى كلماتها: لم يحن الوقت بعد يا مولاي. وعندما يكون، سأوري لك الحكاية من أولها إلى آخرها، أطمئن من هذه الناحية، لن أخفيك عنك أي تفصيل. لست شهرزاد، نحن من طينتين مختلفتين. وعندما جاءه الطفل الذي كان ينشده، راعه كثيرا أنه لم يكن بعينين خضراوين كما اشتهاهما دائما ليقطع نهائيا مع نسل السواد والسمرة. ذكره بابنه الأول

الذي قتله عندما سمم عزيزة. في شعره بعض التجعد لم يكن ليعجبه أبدا. في النهاية، سلّم بالأمر. بعدها بزمن طويل بدأ يصدق أن قمر الزمان ابنه حقيقة. ثم تنامت هذه القناعة مع الوقت مصحوبة بكراهية باطنية للوريث. كان يمكن للحكاية أن تُنسى، لولا عودتها في الأيام الأخيرة إلى الظهور والتداول حتى بين بعض سكان قصر عزيزة الذين كان الكثير منهم ينكّتون بقسوة: إذا استمررنا على هذه السيرة، سيحكمنا كبُّول ولد كبُّول[٤٦]. حتى الحاكم بأمره أصبح يسأل كثيرا، على غير عادته، عن السر المخفي؟ بالخصوص أنه لاحظ بأن الطفل مارس عصيانه في وقت مبكر، وينتظر لحظة موته ليعلو الكرسي؟ بعث به إلى الجبهة ليتخلص منه، ولكنه لم يسمع أخباره. قال: مهمتي النبيلة التي أوصى الله بها عبيده، أن أحرس قصر عزيزة حيث والدي ووالدتي. لكن كلما سأل عنه في القصر، قيل له إنه خرج في مهمته لاستطلاع أخبار الجبهة الوطنية. لاحظ الحاكم بأمره أن طمع قمر الزمن في السلطان كان واضحا، في الأسبوع الذي قضاه الحاكم بأمره طريح الفراش بسبب مرض النقرس. اعتلى الصبي الكرسي بسرعة وبقي فيه حتى نهرته أمه: عيب يا ولد؟ والدك ما يزال حيّا وأنت تلعب هذه اللعبة الخطيرة؟ نبّه الحاكم بأمره من جديد زوجته: يا دنيازاد، العمر يزحف نحو الموت، وهذا الولد الشقي ليس من صلبي، ولا شيء فيه يوحي أنه ابن السائح الذي كان يرتاد القصر. أنا أعرفه وكنت أراقبه بعيون كل حراسي السريين. من صلب أي عود جاء هذا الكبُّول الطمّاع؟

كانت دنيا مصرة على قول كل شيء، لكن في الوقت المناسب. كانت تدرك بحاسة الأنثى الحادة لماذا توقف العد، وتعرف جيدا قصة أختها، دابة الغواية، التي نسيت قول ما كان يجب قوله. لم تحدّثه أبدا عن سرها وعن والد صبيانها الثلاثة؟ كانت تعشق رجلا فارسيا من أصفهان. كانت به بعض الخشونة ولكنه كان أنيقا. كان مهندس حدائق

(٤٦) لقيط ابن لقيط.

القصور ويسمَّى المخصي. ولكنها كانت لعبته التي سمحت له بأن يدخل فراش شهرزاد أربع مرات في اليوم أثناء غياب شهريار. عيناه زرقاوان كالموجة النائمة. وجهه جميل وساحر وطفولي. لم تستطع أبدا مقاومته. الأولاد الثلاثة كانوا نسخة طبق الأصل منه الأمر الذي اضطرها إلى تسفيره إلى أصفهان حتى لا يفتضح أمرهما.

ما حدث لدنيا شيء آخر على الرغم من أن بعض المؤرخين، عن حسن نية أو سوئها، كثيرا ما أخلطوا بين أسرار الأختين. عندما ضغط عليها الحاكم بأمره في إحدى نوبات غيرته، قالت له إنها رأته لأول من النافذة المطلة على القصر يصوّر جوانب الدهشة من رخام قصر عزيزة. أشرت بأصبعها، فجاءها راكضا، قالت له، ألستَ مغرما بتصوير القصر من الداخل؟ قال نعم. قالت له أنا أمنحك هذه الفرصة. طار فرحا. سحبته وراءها. صوّر حتى كاد أن يغمى عليه من كثرة تقلباته على الأرض، وهو يأخذ اللقطات المتتالية للحيطان والأسقف، والحجرات، والكتابات. عندما انتهى، دعته على كأس. كأسين. سبع. أشعلت النار بداخله المتأجج لرؤية جسدها ملفوفا في لباس شفاف. لا يوجد ألذّ من جسد امرأة شرقية. سحبته إلى قاعة الحرملك المزركشة بالأجساد التي تحمل كل الألوان وكل أنواع العطور. كان مستمتعا، بهذا الجو. قالت له ألا يعجبك أخذ صورة لسيدة القصر؟ إذا سمحت سيدتي، قالها وهو يحاول أن يجمع مفرداته الممزقة. ثم اختفت، وبعد لحظات نادته إلى غرفتها بعد أن غيّرت لباسها من جديد، وعطرها، وبدا في عينيها شبق غير محدود. بدأ يصور، والآلة ترتجف بين يديه. ما كادت تنتهي من نزع فستانها حتى كان السائح الأجنبي قد أعوج وانهار. بالنسبة له، لم تكن زوجة الحاكم بأمره أكثر من جزء مهم من الديكور العام للقصر. لم تكن في حاجة إلى مقدمات. بعد الكأس العاشرة في الفراش، ذابت بين يديه كقطعة سكر. كان الضباب الملون، قد ملأ عينيه ولم يعد سيد جسده. يُقال، والعهدة على من يروي الحكاية، إنها نامت في حجره اليوم بكامله، بأشكال مختلفة، بل أبدعت وضعيات لم يكن يتخيَّلها وهو

الذي قرأ وأعاد قراءة الروض العاطر للنّفزاوي في ترجمته اللاتينية، وعرف حتى الشيناماستا(47) التي أتقنها بكل غوايتها الصعبة. والشيناماستا هي واحدة من الحكيمات العشر في الميراث الهندي، وهي تجسد الأنوثة في معناها الإلهي التي أطعمت بدمها خادمتيها الجائعتين، وأطعمت زوجها أيضا. وفي التقليد الإيقوني يتمّ إظهار الشيناماستا في شكل امرأة تحمل في كفها رأسها المقطوع، واقفة على جسدين في حالة اندماج جسدي كلّي. يقول العارفون إنها دلالة على قوة السيطرة على الغرائز للوصول إلى سقف اللذة الروحية. كانت دنيازاد موجة عاتية. لم يكن هناك شيء يمنعها من تحرير جسدها. حتى الحاكم بأمره لم يكن موجودا، كان دائما يقول لها بعد كل نزال، عاداتك سيئة ولكنها لذيذة. وتجيبه هي، الرقدة إذا لم تتجدد تموت. واللحم إذا خاوى، أي إذا أصبح متآخيا مع بعضه، سيفقد طعمه، وشبقه. ظلت مع السائح الأجنبي حتى تأكدت من أن هذه اللذة لا يمكن أن تكون فارغة. لابد أن تكون النّطفة قد علقت، والمضغة قد ظهرت. وظيفتها خارج هبل اللذة، أن تنجب وريث القصر. لكن بعض الوراقين الذين غادروا القصر باتجاه القلعة أو المنافي البعيدة، يقولون غير ذلك. يؤكدون على أن وجه قمر الزمن أصيل، من صلب الرمال والصحاري. وشعره لم يرث إلا الخشونة الرملية. يصر الضالعون في العلم، الراسخون في النبوءة والأخبار والأنواء والأجناس، وحكايات الأحياء والأموات، أن السائح في واقع الأمر كان همه التصوير فقط. واختياره لهذه المهمة هو نوع من العادة السرية لتجاوز ضعفه الجنسي، لأنه في الحقيقة ولد مختوما بفراغ في أعضائه التناسلية. وفي اللحظة التي شع فيها جسدها كالشمعة المسروقة من كنائس المدينة المظلمة، كانت الحكاية قد انتهت ووضعته على الفراش عاريا مثل الفأر. كانت النار تصعد من الفراغات الموجودة بداخلها. بحثت، فلم تجد فيه شيئا مهما سوى عينيه. صرخت متأوهة،

---

(47) Chhinamasta.

- خسارة فيك عينيك. تعذبني وتتركني فريسة لوحش الرغبة؟

كانت ترتعش، سحبت عبدها الذي كان يراقب العملية من وراء الأحجبة الخفيفة والستائر الهندية. قالت له تعال، مادام الأحرار قد فشلوا في ذلك. لم تبقَ إلا أنت يا وحش الغابة، ورّيني شطارتك. أكشف عن جرأتك وكنوزك يا عبد جهنم. لم يكن يعلم شيئا، ولا تساءل كثيرا. يعرف أن كلمة دنيازاد هي كل شيء، وعصيانها معناه الموت. انسحب وراءها، وفي الفراش أنار لها كل دروب الجسد. نام طويلا على صدرها. كانت تعشق الجسد القوي الذي يحتويها، ويملأ فراغاتها. رغت مثل الموجة المكسورة. لأول مرة، بعد الوهن الكبير تقبل أن يركبها رجل. لكنها قبل أن تعود لتنام تحته، قالت له دعني أقوم، ثم ارتخت على صدره بعدما غاصت فيه مثل الغيمة. لم ير شيئا سوى ضباب الدهشة ورائحة عود النوار والزهر، وعرق الجسدين الذي اختلط بالمسك والعنبر وأشياء أخرى غامضة. ثم وضعت الكأس في يده فشرب. وانتهى مسموما لكي تحفظ السر. صفّقت، فدخل عليها ثلاثة عبيد ملونين. كان السائح المصور قد استيقظ. حاول أن يرسم ابتسامة جديدة هي نفسها الابتسامة التي أشرقت بين شفتيه عندما دعته إلى الحرملك. تأملته بحقد، ثم بصقت على وجهه، طز فيك. خسارة هاتين العينين، وأمرت عبيدها بنزعهما. ووضعتهما بعد ذلك في محلول كحولي، كلما رأتهما، توحّمت عليهما. لكن الكثيرين أيضا شككوا في هذه الرواية. عيون الحاكم بأمره كانت حاضرة في كل الأمكنة، عرفت الحقيقة أو جزءا منها. خاف سيد الجملكية من الفضيحة، لأن رجاله أوصلوا له نصف الحقيقة. حقيقة السائح الذي ضاجع زوجته. طلب من كاتب تاريخ العائلة أن يدون: **اليوم حَمَلت صاحبة المقام العالي ونفح الطيب دنيازاد، من صاحب العزة والسؤدد، حكيم جملكية آرابيا، الحاكم بأمره. القادم من رحمها سيكون ذكرا. ولي عهد بار وتقي وحافظ لأختام الجملكية ودينها ودنياها. هو نفسه الذي تحدثت عنه كتب الأولين واسمه محفوظ في اللوح المستور من العين.** كُتبت

الوصية بماء الذهب الممزوج بالماء المقدس والمعطر بقشور الرمان ونواة علف حب الملوك، وقشور البرتقال. ظلت أطراف المدينة تتحدث عن القصة حتى نشر البيان الرسمي الذي اخبر الأمة بولي العهد القادم.

كأنه ظل غارقا زمنا طويلا في لحظة بياض ثبتت كل شيء في ذاكرته، قبل أن يستيقظ على هزة الشرطي الذي أعاده إلى السوق حيث كان.

- يا عبد الرحمن، يا المجذوب وين رحت؟ أنت توصل رأسك إلى التهلكة. أنت تضع الملك كله مضغة بين أفواه أعداء الأمة، وفي هذه الظروف العصيبة؟

ردد الشرطي بشكل شبه آلي. ثم هزّه مرة أخرى وهو يعنّفه. تدخل الشرطي الثاني، فضربه على فهمه فأدماه. نظر إليه المجذوب بعينين قاسيتين وحادتين.

- هذا كل ما وجدت أن تفعله؟ يبدو أنكم عميان ولن تستفيدوا من أية فرصة تُعطى لكم لإنقاذ رؤوسكم. لقد سبقك توركيمادا ويازمنير وقافلة من القتلة إلى المهنة نفسها ولم يحصلوا على شيء. لن تقتلوا الأناشيد. لن تصمت الأغاني. لن تموت الدهشة. قلت لكم ديروا عشرة واقرصوا. سأغني ملء قلبي. سأنهي الحكاية ولن أتوب. عصيت قلعة الحكماء من أجل هذا. وسأركض وراء الباخية حافي القديمين حتى التهلكة، وأصرّ على حقي في القول. اللي عندكم افعلوه...

في البداية خاف الشرطة من الناس المحيطين بالمجذوب، لكنهم عندما تذكروا أوامر الجملكية والحاكم ووحشيته المتبقية، وصرامته، أصروا على ضرورة سحب بشير إلمورّو وعبد الرحمن المجذوب وماريوشا، من الساحة العامة، بتهمة التشويس والمس بأمن البلاد.

- أنتم تشوشون على سيدنا المفدى، وتغالطون التاريخ.

- أي تاريخ يا مساكين؟ التاريخ الذي نرويه في الساحات، أم

التاريخ الذي يزوره الوراقون والقتلة في القصور ولا يقرأه أحد؟

- نحن لا نعرف إلا تاريخا واحدا، هو ذاك الذي نقرأه في كل مكان ولا يتغير أبدا، من المهد إلى اللحد. به فرض سيدنا الحاكم بأمره احترام الدول الأجنبية لجملكية آرابيا الفتية التي خرجت من صلب الرمل والنسيان والعطش.

- هذا تاريخ الوراقين الرخيص. أنا لا أتحدث عن هؤلاء. أتحدث عن الناس الذين يموتون جوعا وبلادهم تلد الخبز والماء والحياة كل صباح. عن الناس الذين يعيشون في الظلام وشوارعهم يملأها النور. الذين يموتون عطشا، وبلادهم تشتكي من الفيضانات. لا أتحدث عن الوراقين. أتحدث عن الجرح المظلم فينا. عن سيدنا الخضر الذي أصبح يخاف على حماره العجوز من الموت أكثر من خوفه علينا. لقد سرقوا نبله، وتركوه يموت خارج حدود المدينة. لست مهتما بتاريخ الوراقين الذي يكتب اليوم بماء الذهب المعشق بقشور الرمان والعطر النادر. تهمني العيون التي ترى قلبي وروحي، وتمنحني الرغبة في الوجود، مثل الحاضرين كلهم الذين رفضوا أن يكونوا حلقة في مهرجان الكذب.

فجأة علت احتجاجات الحاضرين الذين أغلقوا الحلقة على الشرطة الذين زاد خوفهم. كان ذلك يُقرأ في عيونهم، بالرغم من محاولة التماسك التي كانوا يحاولون التظاهر بها.

- نريد سماع حكاية سيدي بشير إلموزّو. نريد الباخية، ولا شيء سواها. صوت الوراقين للوراقين وليس لناس الظلال والبهتان.

عرفه بشير إلمورّو الذي ظل مشدوها مما كان يحدث أمام عينيه، من صوته. اقترب منه أكثر. سابع حكماء القلعة الذي كان يتكئ على هراوة ثقيلة، في رأسها دبوس يزن أكثر من خمسة كيلو.

- كلنا بشير، كلنا المجذوب، كلنا ماريوشا. اللي يتلمسهم رأسه يطير. لن يمنعنا أحد من تحقيق القفزة من زمن الموت والتوحش، إلى زمن يبدأ فيه عصر الإنسان. جملكية آرابيا بصدد الزوال. دعوهم يتمون

الباخية. باقي السحر لن يرويه أحد غيرهم، لا شهرزاد، ولا حتى دنيازاد بكل لعبها وحيَلها.

لكن الشرطي تغاضى عن كلام الرجل، فضربه وضرب المجذوب الذي اعترضه حتى لا يمس بشير إلمورّو باي أذى. رد على اللكمة بقهقهة عالية وزعيق مثل زعيق الجني في حالة خبله. في اللحظة نفسها كان العالم السابع، قد رمى لباسه الصوفي الثقيل، وأصبح أخف من البرق وأنشط من النار. رفع الدبوس إلى الأعلى وهوى على رأس الشرطي، الذي ظل دمه مرسوما على لباس المجدوب، ففجّه مثل الدلّعية. هوى على الثاني الذي أخرج مسدسه، فبعثره في الهواء. ثم رفع الدبوس ثالثة، لكن بقية الشرطة كانوا قد انزلقوا بين الأرجل وهربوا نحو سيارتهم. ثم صرخ العالم السابع في وجه ماريوشا وبشير والمجذوب:

- من اليوم لن نسمح بهذا. لن يوقفكم أحد. هذه الأرض لنا أيضا، والساحة ساحتنا. انهوا الحكاية ولا تتركوها مبتورة حتى لا يتمّمها غيركم.

ثم انسحب العالم السابع من الساحة وكأنه لم يكن أبدا، بعد أن سرب معلومات تخص مكان الاجتماع السري الذي سيعقده الليلة عمال البحر، وعلماء القلعة، وبعض أعيان المدينة وأهاليها. ساحبا في أثره بشير إلمورّو، بينما كانت السيارة السوداء من الجهات الأخرى من الساحة، تجوب المنحدرات، وتقطع أفواج الناس المتوجهين إلى الساحة بنداءات متكررة: **يا اللي تسمعون سماع الخير، سيزور سيدنا الخضر مدينته من جديد على غير عادته الليلة. لا تغادروا بيوتكم وإلا وقعت الفتنة. يحرص صاحب المقام العالي الحاكم بأمره على رعيته وشعبه العزيز حتى يمرّ كل شيء بسلام. و سيطلب رفقه لكي لا تحدث الطامة الكبرى التي تسبقها بالضرورة حالة هول ثم افتقاد البصر والبصيرة. سيدنا الخضر لا يزور المدينة إلا لتنقيتها من أمراضها لكي لا تستفحل. يا للي تسمعون سماع الخير، سيزور سيدنا الخضر...**

كل شيء كان واضحا. الإقدام على مقتل الشرطيين هو تغيير في

الاستراتيجية، والانتقال إلى مرحلة جديدة في الحرب العادلة ضد الحاكم بأمره. فقد بدأت ملامح السر تتكشف، وبدأت الغيمات السوداء الوهمية تزول من أذهان الناس.

قيل عن العالم السابع كلام كثير. بعضهم يقسم أنه رآه عندما دفن داخل السيارة السوداء التي كانت تنذر الناس، لكن آخرين يصرون على أنه روى الحكاية وحدّد لأصدقائه مكان الموعد ثم انسحب كالبرق وفي يده بشير إلموزّو الغارق في دهشته. لكن الذين حضروا الجلسة الليلية التي سبقت الحريق المهول بقليل يقسمون أنهم رأوا المجذوب في الاجتماع ورأوا العالم السابع الذي لم يكن يحمل دبوسا ولكنه كان مسلحا بسلاح أتوماتيكي يشبه الكلاشنكوف. الاجتماع كان مختصرا قياسا لاجتماع بمثل هذه الأهمية. الراعي الذي كان يقف عند الباب، ظل هو بدوره يقلقهم بضرورة الانتهاء بسرعة قبل النزول إلى البحر للاجتماع التنسيقي الكبير، وقبل بداية القصف. وهم في الاجتماع وصلهم خبر اعتقال الكثير من عمال البحر والملح. أخذتهم السيارات السوداء في أمكنة معزولة، في طريق عودتهم إلى بيوتهم، أو ذهابهم إلى عملهم الليلي مع الوردية الثالثة. لأول مرة تشعر ماريوشا أنها وحيدة في جنونها. فوجئت أن لا أحد كان يسأل عن بشير إلموزّو الذي سُحب من الحلقة وهو غائب في أنين البانجو. تحسّست من الأمر إذ من المستحيل أن تنسى الذاكرة آلامها بهذه السرعة، وتُختصر طيبة المدنية. قال أحد العلماء الحاضرين في الاجتماع السري: هل ننادى لسيدنا بشير إلموزّو؟ رد آخر: لا داعي، تنتظره أشياء أهمّ وأصعب. لنتركه هناك، فهو في مأمن أكيد. ما يزال ذهنه مشوشا بما رآه، ممتلئا بالصرخات القديمة. عين العمال والعلماء، تحرسه، فهو أمانتهما الكبرى. اطمأنت ماريوشا وهي تسمع هذا الكلام. انتابتها صورة وجه بشير السخي وهدوئه. ظلت عالقة بقلبها أسئلة كثيرة مثل النهر الجامح: من يكون بشير إلموزّو؟ هل هو إنسان فقط، عابر لزمن قد ينتهي بنهاياته أم حالة أكبر من ذلك كله؟ ابن هذه المدينة أم مدينة أخرى ما زالت عالقة في حلقه، يسمع بها

الجميع ولا أحد رآها؟ هل هو الحقيقة الحاضرة التي تتلون كل يوم بدم الشباب الذي يموت عند المنعطفات والأحياء المعزولة وساحات الاعتصام، أم الحقيقة المغيبة؟ في لحظة مسروقة على هامش الاجتماع الخاطف، تمنت أن يكون بشير إلمورّو الذي منحته قلبها من دون أن يطلبه، رجلا عاديا لتعشقه مثلما عشقت ذات زمن أستاذها في الاقتصاد السياسي بجنون، لكنها لم تكن محظوظة فيه. يوم اكتشفت نذالته وابتذال الجامعة له حيث تحول إلى مدافع شرس عن قتلة القصر بعد أن أصبح مستشارا لديه في الشؤون الاقتصادية. رمتْ بكتبها عرض الحائط ونزلت إلى الشارع تمارس طقوس الأمومة المفقودة وجنون الأحلام. ركض وراءها، قالت له: عد من حيث أتيت، إلى قصر عزيزة وإلا قتلتك. ثم أغمضت عينيها فرأت بشير إلمورّو وهو ينشد خوفه القديم. سمعت صوته يأتي من بين الأحجار البركانية وموجات البحر، ورائحة العشب، وقطرات المطر الشتوي. كانت رائحته تاتيها معشقه بعطر الطحالب وملح البحر.

قبل انتهاء الاجتماع بلحظات، قامت ماريوشا من مكانها وخرجت. لم يسألها أحد عن سرها واتجاهها. كانوا بحواسهم الحية يعرفون مسالكها. نزعت وردة الكاسي الحمراء من شعرها ثم أعطتها لأحد علماء المدينة وهي تتمتم في أذنه اليمنى: ضعها في كتاب الأمة واكتبْ تحتها: **من ماريوشا المجنونة إلى الرجل الهبيل الذي باع المدن والحياة والأجداد من أجل الحكاية. إلى حبيبي بشير إلمورّو ما تبقى من صدق التاريخ الذي قهر سلطان الوراقين**. ثم نزلت إلى البحر بجانب الحائط المتآكل حيث تنتهي أمواج البحر العاصفة، وهي تدندن أغنيتها الجميلة التي حفظتها عن قصة كارمن كما رواها بشير إلمورّو.

Me soy Maryucha d'el Bechir el Moro, Yo ne de me mincharro,
Yo solo quasto cuchillo a la hora de come(48)...

---

(٤٨) أنا ماريوشا بشير إلمورّو، ولست ملكا لعشيقي، لا أستعمل السكين إلا ساعة الأكل.

ثم انطفأت نهائيا في المنحدر المؤدي إلى الحائط البحري القديم، تقودها كل حواسها التي استيقظت دفعة واحدة نحو الحافة حيث كان يتسرب نشيد موريسكي قديم لم تكن تسمعه إلا هي بعطره الخفي الذي كان يأتي من بعيد:

فِي لَيالٍ كَتَمتْ سِرَّ الهَوَى... بالدُّجَى لَوْلاَ شُمُوسِ الغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ الكَأْسِ فِيهَا وَهوَى... مُسْتَقِيم السَّيْرِ سَعْدَ الأثرِ...
غَارَتِ الشُّهبُ بِنَا أوْ رُبَّمَا... أَثَّرَتْ فِينَا عُيُونُ النَّرجسِ[٤٩]

* * *

(٤٩) لسان الدين بن الخطيب الأندلسي (١٣١٣- ١٣٧٤)

الفصل العاشر

ابتسموا... أنتم في آرابيا

كل الهدوء الذي بدت عليه آرابيا في الأيام الأخيرة التي سبقت الحريق الأكبر، كان كذبة مكشوفة رضي بها الجميع: رجال القلعة والبحر، ورجال القصر أيضا. وكل ما حدث لاحقا بدّد الاعتقاد السائد أن جملكية آرابيا استسلمت لسلطان الموت الذي فُرض عليها ولم تعد فيها أية حياة. التغيُّرات التي حصلت تمت بسرعة غير مرتقبة لم يكن من الممكن لجمها بقرار أو بفرامانات متتالية فقدتْ جدواها بسبب كثرتها.

مكان موعد الجميع كان في المارينا، على حافة البحر. في بيت الصيادين المهمل، في زاوية لا يتنبه لها أي واحد، ولا تستثير المارين. أول من رأى الإشارة الضوئية التي أعطاها العمال لضرورة النزول، كان هو الراعي ولهذا ألح على الجميع بالخروج السريع من المداولات. استلم كل واحد سلاحه، وخرج. ملأ العلماء على الدواب التي كانت بالخارج، كل البوقالات التي فيها رماد الشهداء، وأنزلوها إلى مكان قريب من القلعة، في الأنفاق الجبلية الحصينة، التي يحفظ فيها أرشيف الحكام السابقين، وعُوِّضت الرفوف ببوقالات مملوءة بالرمل. بينما تأبط كبير العلماء كتاب المدينة المغلف بكتان القاطيفة وأشرطة الكمبيوتر المركزي الممغنطة، والأقراص المضغوطة التي تحوي كل المعلومات الخاصة بتاريخ آرابيا غير المعروف، والأشرطة الوثائقية المختلفة. كان يجب فعل ذلك لأن المعلومات الحقيقية المتسربة من قصر عزيزة تقول إن الحاكم بأمره مقدم على ركوب رأسه للمرة الأخيرة، وارتكاب الحماقة التي ستأكله، وأن سيدنا الخضر مصمِّم هذه الليلة على زيارة

القلعة باستعمال الوسائل الثقيلة كالمدفعية والطيران.

لأول مرة منذ أن أُنشئت الجملكية، كان الحاكم بأمره على يقين بأنه لم يخطئ في حكمه. المرض عندما يستفحل لا حلّ معه إلا الاستئصال قبل أن يصبح مستحيلا. لهذا كان الجميع، شرقا وغربا، في سباق محموم ضد الساعة.

في المساء الذي سبق الاجتماع، بعد حادثة السّوق، وصل رسول، يحمل رسالة عليها ختم حاكم الجملكية، الحاكم بأمره، نقلها العلماء حرفيا في كتاب المدينة بعد أن قدم لهم عمال البحر نسخة منها: **من فاتح البلدان، وقاهر الطغيان ومبيد المظالم، وعالم الغيب بعد الله العلي القدير، الرحمن الأرحم، الحكيم الألمعي، الحاكم بأمره، سيد جملكية آرابيا المصونة. نظرا للتطورات الخيطرة التي تعرفها البلاد في الآونة الأخيرة؛ سيزور سيدنا الخضر البلدة بكاملها مصحوبا بفيالق عسكرية مساعدة، نرجوا منكم إلبقاء على الحياد مقابل إعفائكم من زيارة سيدنا الخضر. نحن نقدركم ولا نريد أن نؤذي برنامجكم الوطني لتغيير البلاد بالإضرابات والوسائل السلمية على العكس من بعض القوى المرتبطة بدوائر خارجية المزكية للتطرف الديني وللعمالة. ننتظر ردكم. الجواب ضروري وأكيد.** وردَّ العمال في اللحظة ذاتها برسالة تؤكد على حيادهم، وأنهم غير معنيين بما يحدث بجوارهم. ولكنهم في المساء نفسه أخبروا العلماء، وبدأت الاتصالات التي أتخذت طابعا سريا تُعمم داخل آرابيا بكاملها. وبدا جليا أن المقصود بالحياد هو كسر اللحمة التي تربط العمال بالعلماء من شباب آرابيا الذين سيطروا على كل شيء علمي وثقافي، بما في ذلك التكنولوجيا العالمية الجديدة التي ظلت مدة طويلا حكرا على الغرب. كانت هذه أولى الحماقات التي يرتكبها الحاكم بأمره التي بينت نواياه الخبيئة. أمر قرأه العلماء والعلماء على أنه حالة ضعف وليس قوة. القراءات السميولوجية، النفسية، وحتى العسكرية، االتي أنجزت على هامش رسالة المبعوث المتسرعة، أثبتت بأن الحكيم مقدم على إبادة كل شيء بدءا بالقوة الفكرية التي تخطط

لآرابيا جديدة في أفق الألفية الثالثة، وانتهاء بإخضاع قوة العمال.

ما كان شكّا أصبح حقيقة. مع أولى علامات الليل وإطفاء أضواء الشوارع، ونزول العتمة، بدأت مدافع جملكية آرابيا وطائراتها تدك القلعة الواقعة على رأس المدينة. لا يسمع الهدير المتتالي إلا مصحوبا بالتكسرات، والانهيارات، والنيران التي كانت تشتعل على رأس الجبل. ثم ظهرت تحت بروق الليل وألسنة اللهب، أرتال من الدبابات وهي تزحف باتجاه القلعة التي لُغمت كل المنافذ الكبرى المؤدية إليها. كان العمال والعلماء السبعة، وجزء كبير من سكان المدينة المنظمين في شكل مليشيات مسلحة، يتأملون بحزن شديد المشهد، ويزيد يقينهم بأن ما كان يقوله العلماء للعمال دائما هو عين الصواب. سيدنا الخضر نسي وسط المدينة، وأطرافها وتوجه مباشرة نحو أسوار القلعة. كل شيء أصبح مكشوفا وعاريا.

وعندما اشتعلت النيران في القلعة، وعاد الخيالة الأوائل من مكان المعارك، متأبطين أحصنتهم باتجاه الشوارع الخلفية للمدينة، كان الحكيم يرفع الأنخاب ويقسم أن الذين راهنوا على ليلة الليالي، كانوا سفلة وصغار تفكير. في الليلة نفسها بدأ يشحذ سكينه من أجل الإجهاز على دنيا بمجرد الانتهاء من الحكاية.

وعلى الرغم من توقف الدبابات في سفح القلعة إذ فعلت الألغام الكثيرة فعلها، فقد حافظ دكّ المدافع وقصف الطيران المستمر، على وتيرته، طوال الليل بدون توقف، لأن أماكن كثيرة في القلعة كانت محصّنة بقوة والدخول إليها مستحيلا. مع انبلاج أولى تباشير الفجر الأول في الجملكية، وكانت ألسنة اللهب والأدخنة الكثيفة ما تزال تغلّف سماء القلعة، عاد كل الناس إلى مواقعهم وأماكن عملهم، وكأن شيئا لم يكن. ممرات القلعة الرئيسية ظلت مغلقة بعد أن تهدّمت بعض حيطانها الخارجية، ودمر رجال الخيالة الذين سُمِح لهم بالدخول وفق خطة مسبقة، بوقالات الرمال بعد أن تضاحكوا عاليا:

«- هذه هي بوقالات الشهداء التي تحدثوا عنها! مقبرة غريبة؟

- كل شيء انتهى. تطاولهم على الشرطة عجل بموتهم. »

مع الساعة السابعة صباحا، موعد فتح القناة التلفيزيونية الرئيسية: **الوطنية الأولى**[50] **NTV1**، كانت صورة الحاكم بأمره تملأ الإطار، بدل القرآن والنشيد الوطني. تقدمت المذيعة لتعلن لسكان جملكية آرابيا الذين تجاوزوا الخمسين مليونا: ابتسموا... **أنتم في آرابيا المعظمة. صاحب المقام العالي، الحاكم بأمره، نصره الله وسدد خطاه، يحدثكم، فاستمعوا، يستمع لكم الله ورسوله يوم القيامة.**

كان وجه الحاكم بأمره مقبطا. ملامحه ضائعة. عيناه زائغتان. أصدقاؤه الشماليون أوصوه أن لكل مقام، هيأة يجب احترامها، من أجل كسب عطف الآخرين. بقي أكثر من دقيقة مكدر الملامح. ثم فجأة، وبدون سابق انتظار، رفع عقيرته بأغنية قديمة للشيخة الرميتي وهو يحاول أن يكفكف دمعه:

يا عيني على اللي راح، مشى وما ولاش.
لو كان يعطوني مال فرعون، ما ننساهش،
يا عيني على اللي سرقته الغصة، وما بكاش...

الله يرحم الشهداء. لن ننساهم أبدا. شدد الحاكم بأمره على الجملة الأخيرة بقوة، حتى كزَّ على كل أسنانه: **البلاد تتعرض لعدوان سباعي خارجي، بخيوط داخلية. وقد فقدنا ليلة أمس أعز ما تفجر به الأمة...** ثم توقف لحظة، ومسح دموعه التي استحضرها بسهولة، لأن شخصا، لا يظهر بشكل واضح على الشاشة، كان يطلق برتابة، وبكميات قليلة، غازات لكريموجين. المذيعة نفسها، في نهاية الخطاب، كانت عيناها مورمتين وتسعل بقوة. بلع ريقه بصعوبة، ثم واصل: **علماؤنا. فلذّات أكبادنا. حكماؤنا السبعة رحمة الله عليهم جميعا. خساااارة. أعطيت أوامري التي لا تنتظر، أولا اعتبار كل من سقط في القلعة شهيدا يستحق التعويض. فقد سقطوا من أجل قضية**

---

(50) National TV one.

وطنية عادلة. ثانيا ضرورة جمع أشلائهم وإقامة جنازة عظيمة على شرفهم. أُقسم أن دماءهم لن تذهب هباء منثورا على الإطلاق. إنا لله وإنا إليه راجعون.

ظلت قناة NTV1 طوال الفترة الصباحية تبث الأناشيد الوطنية المعروفة وغير المعروفة، قبل أن تتبعا القنوات الفرعية الستة، لأن البث المسائي خُصِّص للنقل المباشر لجنازة علماء المدينة، وذكر مناقبهم وجهودهم العلمية للرفع من قيمة الأمة وعقلها. أما الجرائد الوطنية التي لا تُعد ولا تُحصى، فقد ظهرت مجللة بالسواد على غير عادتها. تأخر ظهورها ساعة. حتى الإطار الذي صور فيه جلالته وهو يتباكى، كان محاطا بالسواد والقتامة، وتحته مربع آخر لوجوه غير واضحة، تقول الملاحظة المسجلة تحت إنها آخر صور تُلتقط عن طريق القمر الصناعي عرب - سات للعلماء وهم يقاومون الهجمة الخارجية البربرية. كانت صور الجنازة مدهشة ومهيبة. حتى العلماء، وهم على أطراف البحر مع العمال في أمكنة آمنة، يتابعون البث المسائي، كادوا يصدقون أنهم ماتوا حقيقة. كان الديكور مدهشا. الناس يتدافعون مثل النحل في مقبرة الشهداء التي دخلتها السيارات السوداء المكشوفة التي كانت تحمل الموتى. قُرِئ القرآن، ودُفنت التوابيت السبعة في مقبرة الشهداء التي تقع بجانب القلعة التي كان يسكنها العلماء في أعلى الهضبة. كان هذا خطأ آخر، يؤكد على قصور نظرة حاكم الجملكية، وجعل ضعفة يتبدى واضحا أمام أعدائه وأصدقائه، وحتى الناس العاديين.

فجأة دوَّتْ الانفجارات هذه المرة في قلب المدينة وليس في الهضاب والأماكن التي ارتادها ليلا سيدنا الخضر. حتى في الهضبة التي ألقى فيها الحاكم بأمره كلمته. بعد انفجار ثان، صعد خيط أسود بالقرب من الإذاعة الوطنية وقناة التيليفزيون الرئيسية التي يسميها الصحفيون المستقلون اليتيمة NTV1. كل ما كان يُسمع من بعيد أصبح الآن يأتي من عمق آرابيا وشوارعها. بعد عدة ثوان تحطمت واجهة وكالة الأنباء الزجاجية التي تخترق السماء بطولها الفارع. الدوي العنيف صمَّ الآذان،

مختلطا بأصوات سيارات الاسعاف وهي تعبر الممرات والأزقة بسرعة غير عادية.

كانت البلاد تعيش في حالة استنفار. بدأ الجيش الجملكي ينتشر عبر كل مداخل المدينة وشرايينها الرئيسية، ونزلت الدبابات إلى النّصف التحتي من المدينة بدون أن تحاذي البحر، وشرعت في عملية تمشيط واقتحام البيوت سرّيا وفق قائمة أعدتها سلفا دوائر المخابرات المركزية، للحصول على المعلومات التي تسمح لهم بتدمير الآلة الحربية المضادة.

كلما أشرقت شمس الصباح قليلا، اتضحت الفداحة. الكثير من الجثث المتفحمة، والجرحى الذين ينتظرون وصول سيارات الإسعاف. امتلأت المسالك المؤدية إلى بعض هضاب القلعة، بسيارات جيب jeep العسكرية. حوصر حتى الذين شاركوا في تشييع الجنازات وأبيدوا سريا عن آخرهم. قُتِل في الحملة حتى بعض الوزراء، ممن تلقّو أمرا بضرورة حضور دفن العلماء السبعة. كانت المدافع الرشاشة المنصوبة في الزوايا الساخنة، في الشوارع، تحصد الناس حصدا وبلا رحمة. في المستشفيات أكد بعض الأطباء الذين يملكون قدرا بسيطا من الشجاعة، أنه في الكثير من المناطق استعمِل الرصاص الانفجاري الذي إذا دخل الصدر او البطن أو الساق، فجره لدرجة يصعب بعدها رتق الجرح.

الناس الذين تساءلوا عن بشير إلمورّو قبل هذا الزمن عرفوا فيما بعد تفاصيل كثيرة لم تكن في الحسبان. رأوه آخر مرة وهو يغادر رحبة السوق مصحوبا بأحد العلماء، مباشرة بعد حادثة قتل والشرطيين كان يستعد لمواصلة الحكاية. هناك من قال إنهم رأوه يغادر المكان بقلب مكتئب إرضاء لإرادة العلماء. كان دائما عندما يصاب بهذه الحالة، يفتح عينيه عن آخرهما وينزل إلى الشاطئ المهجور الذي يقضي الوقت فيه وهو يعدّ الموجات التي تذهب وتجيء في انتظار رؤية سفينة القرصان الإيطالي تأتي يماريانا. ليس بعيدا من أطراف الحائط القديم، بالضبط على حافّة الساحل، بالقرب من بيت الصيادين المعزول.

استنشق بشير إلمورّو هواء الصباح حتى امتلأت رئتاه برائحة الملح

والأصداف الملونة. انتابته حالاته القديمة. حمل كومة من الرمال، وبدأ يبعثرها داخل البحر. كانت طيور النورس البيضاء تنزل باتجاهها، ثم ترجع خائبة. حتى عندما يحادثها، لا يسمع إلا صوتها وهي تتمزق وترغي وكأنها خائفة من شيء يرتسم في الأفق. تعلو بكبرياء الأعالي الشاهقة وكأنها تركض نحو حتفها قبل أن تهوي بعيدا، في عمق البحر مختنقة بشجنها. وضع فجأة يده على فمه وهو يتساءل:

- هَلْ يُعقل؟ كل شيء فيها يقودني نحوها؟ عندما كنت أروي الحكاية رأيتها ولم أر ماريوشا. خفت أن أنظر إلى وجهها كثيرا. كانت نبية على القلب. لو اختار الله لرسالاته المقدسة نساء، لكن الأمر أفضل وأشهى. قلب المرأة أفضل وأرق، وأكثر قدرة على المقاومة والصبر والرحمة. في الرجال الكثير من الابتذال واليقين. بسرعة ينتقلون من صفات الموصوف إلى صفات الواصف. الحاكم بأمره ليس إلا داخل هذا المنطق. في خلوته أصبح يصدق أنه الرحمن الأرحم. الطاعم الكاسي. القوي المستجاب. كنت عاجزا لأني خفت على ماريوشا مني. أن أشتعل أمامها في اللحظة نفسها، وينزلق قلبي أمام عيني، متفحما، مرمّدا. كل شيء فيها كان يوحي بأنها غجرية. وأنَّ بينها وبين ماريانا شبها يثير الدهشة والخوف. في لحظة هاربة خشيت أن تكون مجرد استمرار لكابوس الكهف. وسيحاول البعض إقناعي لاحقا بأني كنت على الساحل، أقرأ تاريخ الأندلس والحضارات الآفلة، وعندما داهمتني الأمطار هربت إلى مغارة؟ قلت بيني وبين نفسي، لا يُعقل. ماريوشا من لحم ودم، وكل ما فيها يجعلها أقرب من نفسي منّي. عيناها الماثلتان ليستا بدعة، رأيتهما واشتهيت تقبيلهما. ماريوشا لم تكن حلما. كانت حريقا ينضاف على حرائقي السابقة.

رفع بشير إلموزّو رأسه إلى السماء، كان الرذاذ يزداد كثافة. نظر إلى البحر، كانت أمواجه تزداد علوا وهي تركض باتجاه الموت. مدَّ يديه نحوها، وحين تكسرت امتلأ فراغ كفية بالرغوة الباردة. تلمسها قبل أن تنساب بين أصابعه بهدوء. تمنى في أعماقه أن تكون ماريوشا حقيقة، ولا

شيء آخر غير ذلك. أو حلما جميلا يلغي الفراغ الذي كان يبحث عن ذاكرة هاربة كان المجذوب يصنع منها بقايا حكاياته الممزقة. أحس بأن ماريوشا كانت حقيقته الوحيدة الملموسة. لم يكن نبيا ولا مهديا منتظرا. بشر أكثر من العادي، عندما غلبه الحب، هاجر الأمكنة لكي لا يموت غبنا. ابن تلك الأرض التي كانت كل يوم تموت فيه قليلا، ويشعر أنه أصبح من واجبه أن يعيش عزاءه وحداده النهائي قبل فوات الأوان.

كم اشتهى بشير إلمورّو الوحدة فوجدها بهروبه. جلس بهدوء على الرمال المنداة، ووضع رأسه بين رجليه وظل يسمع فقط إلى أصوات الأمواج وهي تتكسر، يمتزج تمزقها بأصوات النوارس التي لم تغادر البقعة التي كان يجلس فيها على الرغم من أن الكثير منها مات اختناقا لسبب لا أحد يعرفه.

كانوا يعرفون أشياء كثيرة عنه حتى بعد أن تفرّقوا. السوق عندما خلت من الحاضرين بعد حادثة القتل، ظلت مملوءة بالحكايات وأصداء الأولين التي لا تروي بدون ندوب تخلفها في ذاكرة الناس. قوة المجدوب وتدخل الرجل الغريب، العالم، بدبوسه، أنساهم كل الخوف وخلق خوفا جديدا لم يكونوا مهيَّئين له أبدا. الكثير من الناس تساءلوا: هل يُعقل أن يموت حرقا وهو الهارب من حرائق المحاكم؟ تمتم وهو يفتح ذراعيه بشكل صليبي لاستقبال رذاذ الموجات الهاربة نحو صخور الشطّ.

- كان أيها السادة...

- كان رجلي العظيم... وحبيبي... ونور عيني...

سمع صوتها يأتيه من بعيد، ربما من تجاويف الجبال أو أعماق البحر المنسي. عرفه من بحته الجميلة التي تخبيء شوقا مدفونا.

أغمض عينيه كي يسمع موكب الأناشيد التي كانت في قلبه.

- كان بشير إلمورّو الجليل، يقضي كل أيامه، يروي في غرناطة الأخبار التي لم تحكَ. ولم يتجرأ الوراقون على قولها. قصة القوال الموريسكي الذي قاتل الموت ولم يستسلم له. قاتل البحر، ولم يخن

ملحه. مزق الليل، لكنه هو من دثّره في خلوته. رأته ماريانا، فقتلت عشيقها من أجله. وحين أراد أن يعود باتجاه صرخاته الأولى، قالت له بدمعة أمام بحر جريح: ليَكُن. في قلبك حنين وحرقة لا تطفئها إلا العودة، فافعل. لك البحر صديق. لك السفن كلها. لك السماء وطيورها. لك الحنين والأشواق التي لا تموت. لك الشوارع التي تنطفئ باكرا على أحزانها. لك الدموع المستعصية التي تتكسر داخل البؤبؤ كحبات كريسطال صافية. لك الدنيا التي عشتها وتخلّت عنك لحظة الحاجة. لك كل شيء، ولي قلبك الذي لا يخون. لي صفاؤك حين أصبح وحيدة وسط فراغات المدينة التي لم تتعود إلا على رؤية السفن المهاجرة وأفواج البشر العائدين من الحروب الخاسرة. لي وجهك يا ظلّي ولغتي التي لا تنطفئ أبدا. لي حزنك الذي يشق الذاكرة والقلب، ويقتحمني بدون استئذان ويخترق حميميتي بخجل لم أعرفه إلا معك.

- ماريوشا؟ لا؟ واشْ جَابها للبحر[٥١]؟

أغمض عينيه لكي لا يرى وهمه. كان الصوت أقرب إليه من قلبه.

- في غبني وخوفي، تساءلت، هل ينتفي البشير وأبقى يتيمة؟

صوت المدينة وحنينها وهو الذي كان يعرف السر من أوله إلى آخره. حين سألت خويا عبد الرحمن المجذوب في لحظة الاغفاءة، عما كان يحدث لي؟ هل هو الحب يا المجذوب؟ قال: ربما. ثم أضاف. أنا انتهيت. أشعر باكتمال كبير في نفسي. لقد عادت الحقيقة إلى حقيقتها، والرواية إلى مكانها، حق لي الآن أن أخرج من جنوني، لأن المجنون الحقيقي عاد إلى آرابيا، موقعه الأصلي. كنت المهبول المزور في انتظار الحقيقي. بشير إلمورّو الذي تأخر أكثر من تسع سنوات بالحساب القمري، قد عاد. لا يطلب شيئا. عمره في كفه. هذه علامته. ثم التفتُّ نحو الحاضرين معي، وبدأت أتفرس عيونهم بحثا عنك، عن شوق هارب. عن لعنة جميلة، لا يهم، فأمام الحقيقة يستوي كل شيء.

---

(٥١) ما الذي أتى بها إلى البحر؟

وظللت أصرخ بأعلى آلامي ومذابحي الدّاخلية عن غيابك، علَّ بعض الطيور المهاجرة تسمعني وتفهمني. تأملتُ بعضها في عزّ طيرانها وتحليقها، نظرتْ إليَّ قليلا، ثم واصلت تحليقها الجماعي باتجاه حافة الساحل. كانت دليلي وسط ضباب الشطّ الكثيف. كنتُ عمياء بدونها.

لَمْ يُقْتَل بشير، ولكن شُبِّه لهم. شُبِّهَ لَهُمْ.

سمع صوتا لم يكن يأتيه هذه المرة من بعيد. رآها في غفوة هاربة ترفع يديها إلى السماء، تقطف أولى القطرات التي نزلت من وراء غمية اسودت ثم انهمرت غيثا. كانت الجموع تستجديها. أناشيدها وشجيها يقطّعان القلب. خافوا عليها.

قَلْبِي يَا قَلبِي طَاوِعْنِي...
يَاكْ أنا مُولاَكْ... لاَشْ لغَيْرِي تَدِوِي؟

رآهم ينحنون عند رجليها لكي تتوقف. قالوا لها: ماريوشا نرجوك بحليب الأمومة توقفي. الصراخ يملأ الحارات، والسيارات السوداء بدأت تعبر السوق جيئة وذهابا. ضعي شالك الأسود على رأسك لكي لا يعرفك أحد. مياه المطر ضمّختك، وجسدك لم يعد يتحمّل. لقد ابتل عن آخره، والرعدة تملأ شفتيك. لم تجب. فقد شعرت بالأنوار تملأ قلبها وتسري في دمها. الزرقة المنعكسة غادرت شعرها، ولكن الابتلال جعله يسقط على وجهها خصلات خصلات، أعطت لوجهها صدق المتعبدين داخل خلوة العشاق الذين فقدوا العلاقة مع الحياة. لم تكن تعرف أين ذهب بشير إلمورّو. لقد انطفأ فجأة وانطفأ معه العالم السابع صاحب الدبّوس الذي كان يمكن أن تسأله، فهي تعرفه جيدا لكنها لم تفعل. انطفأ الموريسكي وهو يحاول إنهاء الحكاية التي كانت تعرفها. قالت وهي تحاول أن تستعيد نظرة عينيه الخجولتين: بني كلبون؟ القتلة؟ يملأون قصر الجملكية وحارات آرابيا. يتخفون في شوارع المدينة في كل الهيئات السرية. لقد جاؤوا من بعيد، ودخلوا معنا في نفس الفراش، واحتلوا كأس القهوة الوحيد الذي نجد متعة لشربه. شوهوا علينا حتى حميميتنا وخلوتنا.

من تعنين يا ماريوشا؟ بني كلبون؟

قال بشير إلمورّو في سرّه، وهو يعيد اكتشاف عزلته التي لا شريك له فيها إلا البحر الذي لم يهدأ موجه منذ أن وطِئت رجلاه هذه الحافّة.

- لم أقل شيئا، سيدي عبد الرحمن المجذوب هو من كان يقول وهو يضع فوقيته الفضفاضة على جثتي الشرطيين. لقد جاء بني كلبون من بعيد يا مولاي. قصتهم غريبة. قضوا سنوات وهم يحفرون معبرا في الجبل الفاصل بينهم وبين المدينة. يكررون الشيء نفسه يوميا بدون جدوى. يحفرون حتى إذا كادت الشمس تغيب، قال الذي عليهم، إرجعوا فستحضرون غدا. فيعودون إليه كأشدّ ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، حفروا حتى كادوا يرون شعاع الشمس ويدخلون إلى المدينة، قال الذي عليهم، أرجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله. فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرون، ليجدوا بحيرة صغيرة، فيقطعونها بعضهم سباحة، والأعيان في الزوارق. وعلى الضفة الأخرى يجدون هناك من ينتظرهم، سيد جملكية آرابيا، الحاكم بأمره. يسلّمهم مفاتيح كل المدن الوطنية وقوائم الثوار ويعود في جنح الليل إلى قصره. منذ ذلك الزمن يا سيدي، نشفوا البحيرة. هجَّروا أسماك البحر كلها أو سرقوها. بدأوا يبتلعون الأرض قطعة قطعة وذرة ذرة، وعندما لا يسعفهم جهدهم، يمزقونها إربا إربا ويدخلون آهاليها في حروب أهلية بلا بداية ولا نهاية. يتحصَّن الناس منهم في قصورهم وقلاعهم. لا يرحمون أحدا. يرمون بنبالهم وسهامهم باتجاه الغيوم والسماء فتعود لهم وعليها بقع الدم الساخن، فيقولون. الآن قهرنا أهل الأرض وركبنا أهل السماء. وهاهم بني كلبون، أو آجوج ومأجوج، يتناسلون يا سيدي مثل الخلايا السرطانية. يقيمون معك في نفس السرير الذي تنام فيه مع عشيقة، أو زوجة، أو صديق مسافر. يستعمون إلى دقات قلبك ويسجلونها واحدة واحدة ثم ينزلقون وراءك إلى دورة المياه، ويشربون في نفس الكأس التي ترفعها على أنخاب أصدقائك الشهداء. يرونك بعيون همجية ولا تراهم. ألسنتهم ضامرة داخل الحلقوم، ولا تخرج بطولها إلا لإصدار الأوامر

بالقتل والصلب والتعذيب، أو السجن. يعرفون كل شيء حتى تاريخ موتهم، لكنهم عندما يصلون إلى هذه النقطة الأخيرة، يقفزون فوقها وينظرون إلى السماء التي تتحول فجأة في عيونهم إلى فراغ أجوف. لن يموت منهم رجل إلا وترك من ذرتيه ألفا فصاعدا، تدفعهم ثلاث أمم من الوراء: تاويل، تابس ومنسك. لقد بدأ النفخ في الصور، وقيامتهم أصبحت وشيكة.

مرت تحذيرات عمّي الطاووس بن أمه مثل زفّ الهواء.

- هذا جنون يا مريوشا. انتحار. تعقّلي يا بنتي. أنت محاطة بالقتلة.

- واش من جنون؟ حتى عندما تنطق ما تعرفش واش تقول يا عمي الطاووس.

- يا بنتي، أنا خايف عليك. أنت لا تعرفينهم كما أعرفهم. إنهم كالطاعون، إذا مسوك يلتصقون بك حتى الموت.

- ألم ترَ ما حدث أمام عينيك؟ وهل يبقى للحياة معنى يا عمي الطاووس عندما تُقتل مدينتك، وتُباد أشواقك، وتُنحَر أحلامها، ويُحرق ذووك؟ قم من غفوتك التي طالت قبل أن تأكل رأسك يا عمّي الطاووس. لقد سرقوا حنين المدينة وأبادوا فضائلها. سرقوا قنينة النبيذ من عاشقها وكسروها على حائط المسجد وجرحوه بها. وضعوا في المداخل رجالا غامضين ينتعلون الساندالات القديمة والألبسة البيضاء والداكنة الفضفاضة، وعلى وجوههم لحى طويلة تخيف العابرين. لقد سرقوا من العاشق نهد حبيبته وأحرقوهما على الملأ. قالوا للمترددين: ديرْ كما دارْ جارك، وإلا بدلْ باب دارك[٥٢]. قالوا للمرأة انسحبي من المشهد وعودي إلى التفريخ والتربية. وقالوا للرجل لا مكان لك خارج الإجماع. قال لا أشبههم ولا يشبهونني في شيء؟ أكدوا: جرّب وستتعوّد. عندما لم يستطع، بحث عن قبر داخل البحر، ودفن نفسه

---

(٥٢) افعل كما يفعل الجميع وإلا اتخذ لك وجهة أخرى.

فيه. كتبَ على ورقة وضعها في قنينة نبيذ فارغة: هنا ينام الذي لا قيمة له. لا قبر له. لا حائط له. لا مدينة له. وفاء لحبيبة كان يجب إما أن يعشقها أو يدفن نفسه حيا في البحر، بين موجتين مكسورتين. وها هو ذا يفعل وهو في كامل قواه العقلية.

توغل بعينيه عميقا في البحر. غابت النوارس فجأة، وزادت الأمواج علوا، لكن صمتا قلقا كان يملأ المكان. رأى شبها غريبا بين بني كلبون والذين باعوا غرناطة، ثم وقفوا على أعلى هضبة مطلة على المدينة وتحسروا بألم، ليس على المدينة التي كانت شعلة اللهب تحصدها وتحصد عشاقها، ولكن على القشتاليات اللواتي تعود أن يداعبهن في لحظات خلوته بمد يده نحو زغبهن وتفتيشه برؤوس أصابعه. في لحظات الشبق ينزع شعرة منه، يضحك وهو يقول، إنه يحتفظ بها للذكرى، عندما يفاخر الأجداد أمامه بفتوحاتهم، يفاخر هو بفتوحاته، وفي كفّه كمشة من الدلائل التي يعيد تعدادها كل مساء... ألف وست مائة.. ألف وسبع مائة... لم تبق إلا القشتالية الكبيرة إيزابيل ويختم محمد الصغير العدّ. عندما كان يعدّ ويزهو متفاخرا بمنجزاته، كانت المدينة ترفع المذاري والفؤوس، وبقايا الأسلحة التي خبأتها للدفاع بيأس عما تبقى من حياة في غرناطة. كل شيء بدأ ينهار حائطا حائطا وزقاقا زقاقا، بدون أن يستطيع محمد الصغير حتى أن يرفع سبابته ولو بيأس لتوقيف المجزرة والانتفاض ضدّها، ويكون قد غيَّر المنكر بلسانه ويكون له شرف الرّفض بدل ذلّ الصَّمت.

قبل أن يلتفت صوب الصوت، بلحظة واحدة، عندما هدأت الموجة، شمَّ عطرا ممزوجا برائحة الموج، عرفه. أغمض عينيه لكي لا يصدّق وهمه، ولكنها كانت وراءه. أغمضَتْ عينيه بيديها الناعمتين وهي تمتم في أذنه بنعومة:

- هل عرفتني؟
- عرفتك. كنتِ فيَّ، منذ أن جلستُ في هذا المكان.
- كنتُ أسمع أنينك وعذاباتك حبيبي. كنتُ فيك، وكنتَ فيّ.

- كيف أحزان آرابيا يا ماريوشا؟

- خلاص. كل شيء يُلعب على المكشوف. إما نحن أو هم.

وصلنا إلى سقف ليلة الليالي. بعد حادثة المدافع، والقلعة، والبوقالات المهربة باتجاه السراديب لحمايتها، وبعد الجنازة الوهمية، وعملية التقتيل التي أعقبت ذلك والسحل، انتهى كل شيء. كل الأسرار خرجت إلى البحر، ولم تعد الغيوم تجرأ على تخبئة نجومها. أصبح الناس يتلاقون في الشوارع متجاوزين كل الطقوس المعهودة ويبدو أن الخوف غيَّر مواقعه. حتى رجال الشرطة، بعد حادثة السّوق أصبحوا يتفادون كل شيء، يغمضون عيونهم عند الضرورة لتفادي إشعال الفتيل أكثر. لكن النار تأكل النار. والحرب تطلب الحرب. كل شيء تغيَّر. مياه السواقي المتجمدة عادت إلى حركتها الاعتيادية. الأشجار العملاقة المتآكلة هزَّت رؤوسها من ندف الثلج التي تثقلها. انتفضت النباتات الصغيرة من جراء الريح التي بدأت تهب بسرعة متوسطة. وعلى الرغم من رائحة الموت وحضر التجول، خرجت الأغنام والأبقار إلى المراعي مبكرا. سرى خبر الجنازة الوهمية بين الجميع، وشاع خبر عودة العلماء السبعة إلى الحياة، ما عدا العالم السابع الذي قيل عنه إنه في السجن. سمعت أخبارا أخرى تهمك، تقول إن بشير إلمورّو لم ينجُ من القصف، ومن الحملة التأديبية. أكثر من ذلك كله، فقد وضعوا على حواف آرابيا وراقين في هيئة ڤوالين وطالبوهم بخوض حرب الحكاية ضد العلماء وأتباعهم.

كان مشدوها فيه ملامحها وهي تتحدث. ابتسم في أعماقه:

«- سبحان الله، نفس جنون ماريانا؟»

عندما استنشق عطرها ممزوجا برائحة الحناء وملوحة الصدف البحري، أحس برغبة ملحة لتقبيلها. للركض معها بلا حدّ نحو عمق البحر والتخبئ بين موجتين حالميتن، ويترك نفسه ينام في أحضانها بعيدا عن العيون الهمجية. أن يدعوها إلى أقرب بار في جملكية آرابيا، ويرفع على نخب جمالها كأس أقدم نبيد. شعر بها قريبة من قلبه أكثر من أي زمن مضى. كانت فيه بكلّها.

لم يكن ما روته ماريوشا لبشير إلمورّو من محض الخيال والذّهن المتعب. فقد جنَّد زبانية الحاكم بأمره جيشا من الورّاقين للقيام بمهمة الدعاية المضادة للثورة. ظل أحدهم يصرخ في عمق المدينة، ويكاد يكون وحيدا: عودوا إلى بيوتكم آمنين أيها المؤمنون قبل فوات الأوان. فالأوان إذا حان لن تجدوا فرصة للعودة إلى الصواب. أبواب الجنة تُغلق في وجه الذين يعرفون طريقها ويتجاهلونه، ستُصْلَون نارا ذات لهب، وتصعدون جبال جهنم على وجوهكم حتى إذا وصلتهم إلى قمتها وقلتم يائسين. ربي أغفر لنا، قَذَفتْكم بحِمَمِها وبراكينها. عودوا إلى رشدكم أيها القوم الآمنين. فقد وضع الله لسارقي جهنّم أربعة جدران سمك كل جدار، مسافة أربعين سنة مشيا على الأرجل والأيدي، بدون توقف. ماء جهنم أسود وهي سوداء ووجوه ساكنيها سوداء. ماؤها يشوي الوجوه. إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه. وإذا اقترب من صهده، وقعت فروة رأسه، وقطعت أمعاؤه. وحين يجوع أهل النار من عصوا أولي الأمر منهم، والذين لم يدخلوا إلى بيوتهم عندما مر سيدنا الخضر، سيستغيثون بشجرة الزقوم. يأكلون منها فتجتث جلود وجوههم فيها، ويصب عليها من جديد، فيسقون بماء كالمهل وبئس الشراب يا عباد الله... يا سكان جملكية آرابيا، احفظوا الباقيات قبل فوات الأوان. سأله سكير، كان عابرا من هناك بالصدفة: ما هي الباقيات يا شيخ الخير؟ انتفخ الورّاق وقال بزهو وتعال: هو نفس السؤال الذي طُرح على أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وبعده على فقيهنا ومولانا الحاكم بأمره، فقال: الصالحات. فقيل له ما الصالحات؟ فأجاب هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سأله السكير مرة أخرى: أنت قلتَ الباقيات، والآن تخزّ[٥٣] بي وتشرح لي الصالحات؟ أنت دائما كالبندير المقعور. قل لي ما الباقيات يا شيخ آرابيا المصونة؟ هههه. لم يستطع السكير أن يكتم ضحكته.

---

(٥٣) تسخر مني.

فصرخ الوراق في وجهه: أغرب عن وجهي. اتْلَع الله يتلَّعَك خَسِئتَ. يا ناس الخير... عودوا إلى بيوتكم ولا تدخلوا أنوفكم في السياسة، فهي كفر وإلحاد. إن الساسة كانوا إخوان الشياطين إلا من آمن بالله واليوم الآخر. عودوا قبل أن تتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعا صفصفا، وقتها سيقوم الخلق بين يدي الله صفا صفا، وكل واحد يحمل كتابه. من كان مؤمنا سيحمله يمينا، ومن كان كافرا، زنديقا سيحمله يسارا. ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه عندما أفرغ من غزوة حنين، نزل قفرا ليس فيه شيء، فقال لأصحابه: اجمعوا من وجد عودا، فليأتِ به، ومن وجد حطبا أو شيئا فليأتِ به. فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاما. فقال النبي صلى الله عليه وسلم أترون هذا؟ فكذلك تُجمَع الذّنوب على الرجل منكم كما جمعتُم هذا.

مسح الوراق على لحيته باعتزاز وانتصار، بعد ما لاحظ أن الكثير من الأطفال بدؤوا يلتفون حوله. قال لهم، أنتم ذرية الرحمن. أنتم الذرية التي تقدّر عمل الأجداد. صلوا يا عباد الله في بيوتكم حتى لا تقوم القيامة على رؤوسكم. صلوا حتى ينبلج الصباح القادم. صلوا حتى لا تحشروا في نار جهنم. إن الله يحشر العباد، عراة، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ، كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصّه منه... ويأتي الناس إلههم حفاة، عراة، كما خُلقوا وكما خرجوا من بطون أمهاتهم. سَعْداتَكْ يا اللي خدمت لآخرتك وربحتَ قصور الجنَّة. نَعِمْتَ بالخير والخمير يا اللي أطعْتَ كبارك. وأطيعوا أولي الأمر منكم ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. ولا ترفعوا رؤوسكم، فإن الله لا يحب المتجبرين والمتكبّرين. لم يفعلها إلا إبليس عندما أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى واستكبر. قال أنا صُنعت من نَار، هو من تراب صلصال. تعرفون ماذا وقع له يا شباب الخير؟

- أنا أعرف. تدخل شاب بدأ الزغب الصغير ينبت على وجهه. أنا

أعرف. الشيطان عنده حق يا خُو[٥٤]؟ هو من النار والإنسان من التراب؟ واش جَابْ السماء مع الأرض. في داخل كل واحد منَّا شيطان رجيم يا عَمُّو.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هذه هي ذرية الفاسقين التي كان يجب على سيدنا الخضر قطع رؤوسها قبل أن تظهر وتبرز وتفتح أفواهها. وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال وحمإ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. هل تعلمون يا إخوان الشياطين ماذا حدث بعدها؟، فسجدوا، إلا إبليس كان من الجن. خاف على أصله، خلق من ماء مارج ومن نار، وأصْل خلق الملائكة من نور، فعصى الله، فسخط عليه، فمسخه شيطانا رجيما. الله عز وجل وعلا بنيانه، هو الذي خلقنا قبائل وشعوبا، فينا الغني وفينا الفقير، فينا الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف. فإذا كان إبليس قد طغى فلا تطغون. والحاكم بأمره لا يطلب منكم إلا الوفاء، للعهود القديمة التي قطعتموها على أنفسكم في الانتخابات الديمقراطية. أوفوا عهودكم. . أوفوا عهودكم. . أوفوا عهودكم حتى لا تكونوا من القوم الخاسرين.

- الله يعلن اللي علمك هذه الصنعة؟ وين سيدي عبد الرحمن المجذوب وسيدي الموري الأندلسي، مولاي بشير إلمورّو؟

قال السكير، ثم ضرب زجاجته الفارغة على الأرض، فكسرها من قاعها. حافظ على مقدمتها في يده وجهها باتجاه صدر الوراق. حاول أن يسمل الوراق، لكن الدائرة كانت قد بدأت تضيف عليه. تفرس العيون، لاحظ أنها كانت قاسية. لم ير الشرطيين الحارسين. شعر بالوحدة والخوف. عَلَتْ فجأة رائحة البول التي انبعثت من سرواله الفضفاض. ماذا حدث يا رجل؟ اتّق الله. حاول أن يستفسر من السكير وعيناه مرتشقان على رؤوس بقايا الزجاجة الحادة. لا شيء. قال السكير بشكل جاف. لا شيء يا ابن الكلب. آرابيا تحترق، والناس يموتون كالنمل،

---

(٥٤) أخي. شتان ما بين السماء والأرض؟

وأنت تحدثنا عن القيامة وأهوالها، التي تطبخها على نار كتبك الصفراء؟ نظر مرة أخرى صوب مكان الشرطيين الذي ظل فارغا. رأى الأطفال فقط وهم يضحكون من تهديدات السكير ومن البول الذي ارتسم في مقدمة الشروال. حاول أن ينزلق، لكن اللباس الفضفاض التصق بأرجل الحاضرين، فنزعه بسرعة، واستغنى عن لحيته المزورة التي كان يضعها على ذقنه، فظهر لباسه العسكري الأسود، والنجوم التي تؤكد على رتبته في جهاز مخابرات الجملكية. انهالت عليه الأحجار، وركض وراءه الأطفال وهم مفقوعين من الضَّحك على مؤخرته التي تعرَّت كليا، حتى تجاوز الحاجز الأول الذي كانت الشرطة تقف وراءه.

- أولاد الكلب الأجرب، يظنون أنَّ حرفة القْوالة لعبة أطفال.

قال السكير مرة أخرى ثم اندفن في إحدى الزوايا المظلمة.

يومها أَغلقت المدينة باكرا أبوابها. الإذاعة الوطنية لم تبث إلا الأناشيد التي تمجّد سيد جملكية آرابيا، الحاكم بأمره، ملك ملوك البربر، ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. بينما ظل بشير إلمورّو مع ماريوشا التي كانت تعرف كل شيء في مخبئهما.

الرّاعي لم يتغيب لحظة واحدة عن حافة البحر. كلما انسحب الغيم قليلا، كان يُرى من بعيد وهو يلوح بعصاه في الهواء، أو يركض على الساحل وراء النوارس التي كانت تأتي جماعات جماعات، متتبعة حركة أسراب السمك في البحر. تغطس، ثم تقوم وتطير في الفضاء محمّلة بصيدها وحتى بدونه. وفي أحيان كثيرة، عندما تتعب من الطيران وتكلّ من الصيد، إما تصعد عاليا عاليا حتى تغيب نهائيا، أو تقف على الموج وتترك جسدها الخفيف يتهادى على سطح الموج،كأنها ترقص رقصة البحر، قبل أن تمر عليها موجة من الغيم الكثيف المحمل بالرذاذ، فتغطيها نهائيا ويغيب الراعي في أثرها، ويصبح العالم كله كما في بدء الخليقة، كتلة لدنة بلا ملامح ولا شكل.

* * *

الفصل الحادي عشر

سِحر الباخية

ماذا حدث؟

- كان يجب أن أفعل ذلك بلا تردد.

- لكنك يومها دمَّرتَ كل أعالي المدينة ولم تدمّر القلعة.

- دمرت من طمع في الملك لا أكثر باسم الديمقراطية وحرية الرأي. ومحوت ذاكرة شهدائهم وأفرغت بوقالاتهم من فراغ الرميم، فأصبحوا بشرا كالجميع.

ما الذي تغيَّر في أدمغة الناس؟ النار تأكل النار، والسماء لا تمطر إلا قليلا؟ والحقيقة، حقيقة السلطان ابتذلت حتى أصبحت مضغة على الألسن؟ كلمة الرعية من الرعاية والرّعيان؟ قال الحاكم بأمره. فجأة تزبَّبُوا قبل أن يتعنَّبوا؟ وها هم يحصلون على ما أرادوه. مسؤولون عما حصل لهم.

- ألم تكن فكرة القصف جميلة؟ أنتِ التي كنت تظنِّين أنّ كل شيء انتهى؟ لست بغلا عمري يُسَلِّم في عالم بناه قطرة قطرة وأسال عليه وفيه ومن أجله، دما كثيرا. أرادوا ذلك وكان لهم ما أرادوا. كلُّ ما بين أيدينا لنا إذا عرفنا كيف نجعله مثل الكرسي الذي يلتصق بنا ونلتصق به. على الرعيان أن يعرفوا كل هذا. هم الخاسرون! ألا هم المفسدون. هم يركبون رؤوسهم، وأنا أعطي الأمر بركوب الطائرات الحربية والدبابات، وقصفهم بلا رحمة. يظلمون أنفسهم ثم يبكون كالنساء اللواتي فقدن العمر في انتظار المستحيل.

- هناك نساء يا سيدي، أبكين الرجال.

- من الزانية التي تستطيع أن تُسيل دموعي وتبكيني، أنزع رأسها قبل أن تفعل ذلك. لن أتركها تلعبها عليَّ. أقسى شيء هو الحَشوة. تفتح عينيك يوما فتجد نفسك في عمق كذبة تبعتك طوال حياتك. سأكون حاضرا حيث لا أحد ينتظرني أبدا. فتحوا أفواههم في القلعة، ردمتها عليهم وردمتهم تحت ركامها. وبكيتهم مثلما نبكي الشهداء. الشهيد هو ما نصنعه نحن، وما نمليه بعد ذلك على الذّاكرة.

- يا مولاي، الكثيرون قالوا وقتها إن العلماء لم يمُوتوا، لقد هربوا نحو جهة مجهولة حتى قبل أن تبدأ قصفك، ولكنك لم تسمع إلا لرأيك. قتلتَ حتى من أخبروك بالحقيقة.

- لا شهيد خارج ما نشيعه من حقيقة وما نرفضه. لا أريد مَن يُخبرني بحقيقته هو. أريد من يغيرها ويأتيني بحقيقة ترضيني. المهزوم يبحث عن حججه الميّتة. كان يجب أن يموت العلماء لأفتح النار على العمال؟ لكنهم كانوا خبثاء هم أيضا، ولهذا وجبت الحرب الشاملة. تعذِّبني الكلمة. لو كانت لديَّ قنبلة ذرّية ما ترددت لحظة واحدة في إلقائها عليهم، بلا ندم؟ طلبت شراء واحدة صغيرة من أصدقائي الشماليين لإبادة أعدائي من محتلّي هذا البلد، لكنهم خافوا. في هذه هتلر كان على حق، جزء من البشرية عليه أن يترك الطريق للجنس الأقوى والأذكى، وللشعوب الأكثر قدرة على الإبداع والاستمرار.

- يا مولاي المسألة ليست هنا. ليست في القوة ولا في الشّراسة. أردت فقط أن أقول لك إن الكثير من الناس بكوا عندما عرفوا ضعفهم من فم امرأة وضعتهم أمام الحقيقة التي هربوا منها طوال عمرهم. لا أقلّ ولا أكثر. ثم، لا الرجال يتشابهون ولا النساء. وفاء لك، أوصلت لك ما كان يصلني من الضواحي المجاورة لنا من أخبار. كل الناس يؤكدون على أنَّ لا أحد من العلماء مات، أو أُصيب بأذى. الباقي عسكرك وأصدقاؤك الغربيون يعرفونه جيدا. ما فات فات، سأصمت وأواصل حكايتي.

- يُفضَّل. أنا كذلك متعب ولست قادرا على التحمّل.

استعادت حماس حكايتها عندما لاحظت صمته، وبداية تفكيره فيما قالته. لاحظت ارتباكه الخاطف عندما أبلغته أنهم لم يموتوا، وانكسار حاجبيه على عينيه. لم تتوقف عند هذه الحواف الخطيرة.

- مولاي. حبيبي وملاذ روحي حتى في غضبه. مسكن جسدي بجبروت سلطانه على قلبي وحواسي. يا سيد الأكوان القائمة والمندثرة لو تعلم! الذي حدث للموريسكي لم يكن هينا ولا قليلا... ولا قليلا. أوصل لك الأصدقاء والعيون كل ما اشتهيتَ، وكل ما يُظهر قوتك، ولكن لا أحد أرشدك إلى الحقيقة التي كانت كل يوم تزداد مرارة وانتشارا حتى أصْبَحتْ تضيّق علينا المساحة والأنفاس. أعود إلى حكايتي. لن أواصل في هذه السيرة. لن أواصل.

كرّرتْها دنيا مرتين وهي تحاول أن تسرح بيدها الناعمة على بطنها وفخذيها المنفرجين قليلا، اللذين ظهر امتلاؤهما واضحا تحت اللباس الشفاف الذي تداخلت انثناءاته المغرية بانثناءات جسدها، قبل أن تنزل بأناملها نحو الأسفل في انحدار متواتر، من نهديها إلى خصرها قبل أن تستقر في ملتقى الفخذين. كان الحاكم بأمره يرى ذلك كله، ويحاول جاهدا أن يوقف شعلته بقوة ليحسّسها أنه ما يزال قادرا على مقاومة شياطينها الدفينة ومتابعتها بكل حواسه وقواه العقلية.

الذي حدث يا مولاي، قالت دنيا، يرويه الآخرون ولا يرويه بشير إلموزّو، لأنه كما تعرف، غاب فجأة داخل المدينة، وذاب فيها عندما سرقه صاحب الدبوس من رحبة السوق. كانت ذاكرته مليئة بالحياة، وعيناه تستعرضان امتداد روائح المدينة الممزوجة بالبحر، والزّعتر والأخشاب المحروقة. كان يحاول عبثا أن يعيش عزاءاته القديمة على كل من فقدهم. بعد زمن بعيد من القصف الدامي، وتدمير القلعة، وبعد اجتماع العلماء والعمال الطارئ الذي كان استعدادا لحرب أصبحت وشيكة، وبعد زمن من مقتل عالم الذرة الشاب، الذي كان شعلة المدينة، والمهندس ماسينيسا، وقوة الشارعين اللذين خرجا منهما تزداد اشتعالا، وحدثت أشياء كثيرة غيّرت كل الحسابات. لم يكن موت عالم

الذرة الشاب صدفة يا سيدي وأنت خير العارفين. ولم يكن موت المهندس ماسينيسا صدفة. فهو صاحب نظرية السور الواقي من الحاكم بأمره. لقد طلب منك الصديق الذي جاء من أمريكا أن تقوم بالواجب، لأن الشخص متابع من الموساد لأنّه في وقت من الأوقات انتمى إلى المجموعة العراقية العاملة في الأبحاث النووية. في الظاهر رفضْتَ لأن الشاب مواطن درس في أمريكا على حساب الدولة ورجع إلى وطنه لخدمته، لكنك في الجلسة الخاصة بعتَ رأسه. قلتَ لهم أنك أنت كذلك مللتَ من وجع الرأس. خرج الشاب، عالم الذرة، عندما سمع بجنازة العلماء، فحصدته نار الدبابات وحرب الشوارع غير المتكافئة. حتى الخبر الذي ظهر في الصحافة في اليوم الموالي، كان مقتضبا، وُضِع تحت صور العلماء التي قيل إنها التقطت بالقمر الصناعي عرب-سات: أيدي الإجرام والغزو الخارجي البغيض تمتد إلى شعلة الأمة، عالم الذرة الشاب. الموساد متورطة. الموساد لم تكن الصيغة تزعجها. ما كان يهمّها هو اغتيال الشاب وتوقيف أحلامه النووية بعدما قبلت آرابيا بالتحول إلى منطقة مسالمة بلا سلاح نووي، لا عسكري ولا مدني. ويأمر من الحاكم بأمره، دمّرت مل المفاعلات التي أنشأها السابقون الذين كانوا يحلمون بإحداث تكافؤ بينهم وبين دول المنطقة المالكة للسلاح النووي. في لحظة واحدة تحوّلت الملايير من الدولارات إلى رماد. كان ذلك إيذانا بالعهد الجديد الذي دشّن به الحاكم بأمره، سيد آرابيا، عصره ونظامه الجديد.

ما حدث هنا أيضا، واصلتْ دنيا، يرويه اللاحقون، بعد زمن ليس بالقصير، لأن بشير إلمورّو تعرض لقسوة لم يتعرض لها حتى عندما رأى نفسه في الأندلس. فقد فَقَدَ الذاكرة تحت التّعذيب بالسّطل الألماني الذي قتل فيه كل أعصابه الحيوية.

- أعرف هذا؟ ولا داعي لاجترارِه.

- تعرف شكله يا مولاي، ولا تعرف سرّه ولا تفاصيله، وهو ما أريد أن أوصله لك. الذين نصحوك بتدميره، لم يقولوا لك بأنّك أنت

أيضا كنتَ تصنعُ أسطورته التي ستأكل، ليس آرابيا وحدها، ولكن كل النّظم التي تأسست عليها.

- مشاكلنا متأتية من انهزام أصدقائنا وبدايتهم في التخلي عنّا. يبدو أنه لا أصدقاء لنا في النهاية، إلا مصالحهم ومواعيدهم الانتخابية.

- لو سمحتَ لي يا مولاي ستعرف بأن الأمر أكبر من ذلك بكثير.

ظلت عينا بشير إلمورّو ممتلئتين بالحنين الذي عجز لسانه عن التعبير عنه، بشوق لم يلمسه ولم يستطع أن يفعل ذلك بسبب ضياع ذاكرته. ظل معلقا ومعاقا عن قول ما كان يريده. الناس الذين اقتربوا من أنينه عرفوا بعضا من تفاصيل قصته. المعلومة التي تسربت للجيش كانت حقيقية. أرسلوا كوماندوس إلى الساحل متنكرا في زيّ مدني أقرب إلى هيئة العلماء، وسحبوه من البحر هو وماريوشا سرّيا. أقنعوه بأنهم هنا لحمايته لأن الحرب بدأت تتسع إذ لم يعد فيها أي مكان آمن. البعض ذكر أن سجنه جاء عن طريق الصدفة إذ لم يكن هو المقصود. المعني بالاعتقال كان هو الراعي.

وقفت الشرطة يومها عند رأسه وهو يرفع الأنخاب مع ماريوشا والشهداء في أحد زوايا المارينا، في أحد البارات القريبة من الطريق الذي يؤدي إلى مصعد القلعة الذي جمّد نهائيا. يقولون إنه قال لماريوشا وهما يمشيان على حافة البحر، كلاما كثيرا وسريا وحدها كانت القادرة على فهمه. وحين شعر بعجز اللغة في توصيل حنينه، قال لها اعذريني، لساني يصمت أحيانا، تعالين أحتاج إلى أن أحرره. وسحبها من يدها باتجاه أقرب حانة، **بار حافة المارينا**. ولم يكن تهمه أصوات المدافع، والنيران التي كانت تشتعل هنا وهناك. كانت الأمواج قد انتقلت من البحر إلى رأسه. الأمواج التي كانت ترغي بالقرب من قدميه، أصبحت تتكسر الواحدة تلو الأخرى في قلبه.

عندما فاجأوه في البار، ظنّوه في البداية ساحرا. الأوامر في المدينة كانت صارمة لأن الحاكم بأمره يكره السحرة ويطبّق عليهم ما طبقه القدامى: الجلد والحرق. فهم كما يقول سيد جملكية آرابيا، يَحشِرون

أنوفهم في السياسة، حتى أن بعضهم تجرأ وقال: إن أيام الجملكية معدودة، وستشرق شمس جديدة على آرابيا. القوانين التي سنَّها لا تحتمل التأويل: حرق أو شنق الساحر متى ما ثبتت التهمة عليه. بعض القوالين سُحِبوا من بيوتهم في عزّ نومهم. البعض الآخر ضُبط يحكي في الأسواق، فأُخِذَ منها وهو في صلب الحكاية. قسم ثالث أُخرج من كوخه وهو في عنفوان لحظات الإشراق التي لا تأتي دائما. لم يكن ممكنا أن يتقبل حاكم جملكية آرابيا مثل هذا الوضع لأنه تدخل سافر في شؤون الحكم. حتى بشير إلمورّو عندما سحبوه، بحسب إحدى الروايات، كان يحكي لماريوشا عن حنين غرناطة، وعن سحر ناسها، عن جنون ماريانا ومقالبها وقتلها لزوجها. اقتربت الشرطة منه بدون أن تثير انتباهه. في البداية خافوا من التبعات التي لم يكونوا يعرفونها لأن ما كان يحكيه بشير إلمورّو خاص، ولا يدخل في أية خانة التي حدّدها القانون. لكنهم سرعان ما تشجَّعوا، قالوا: رأسه ولا رؤوسنا. يمكن أن يكون ساحرا أو مثقفا معارضا ما دام يحكي عن غرناطة، وعن محاكم التفتيش المقدس، وعن جرائم السلطان، وعن الملكة القشتالية، وعن رحلات البحر والبر، وعن ماريانا التي تدفقت مثل الغيمة على ساحل ألَميريا المهجور، ثم اندثرت. لابد أن يكون ساحرا، فبيننا وبين هذا التاريخ قرون، ويمكن لهذا الداعية أن يكون قد تلبس بحياة إنسان آخر وجاء المدينة بجسده. يجب أن نستفتي رئيس الشرطة أو العسكر، قال شرطي ثان. ردّ صاحبه بوضوح أخاف الجميع: في هذه الحالة سنقدم رؤوسنا للقطع. إما أن نسكتَه في الحال ولا أحد يضمن مصيرنا وسط هذا البار، وهذه العيون المملوءة خوفا وحقدا، أو نسحبه باتجاه مجهول ونقضي عليه. الساحر في قوانيننا يحقّ قتله بدون محاكمة ولا استشارة. مجرد مهبول، قال آخر. الأفضل أن نهمله. الذين عادوا من غرناطة، أصبحت عظامهم رميما وترابا، ووجوههم خسرت بريقها. حتى الكتب التي حكت عنهم انمحت ملامسها وآثارها. هربوا من مدينة كان من المفروض أن يظلوا فيها. المدينة تحتاج إلينا في لحظات الوحدة والعزلة والفراغ والخوف

وليس في لحظات الرخاء. تركوا ملوكهم وحيدين يواجهون الزحف القشتالي وخراب قوات الشمال الموحّدة. سمعت بعضهم يقول إن محمد الصغير، أبو عبد الله، قاوم بكل ما أوتي من قوة. وعندما نفذت قواه، صلَّى في الساحات الغرناطية صلاة الغائب، وامتطى جواده وسيفه الحاد وخرج يقاوم. قال لمحبيه وبقايا رعيته، أدعوا معي الله لكي أحصل على الشهادة. لكن الله أمده بعمر آخر. حين خرج إلى هضاب غرناطة، نادي في الناس، لكن الرعية الخائنة كانت قد تخلّت عنه وتركته وحيدا في مواجهة الخوف والفراغ. نادي البحر البعيد، نَسَتْهُ الأمواج وتكسرت قبل أن تعلن عن حضورها في المعركة المقدسة. نادي التاريخ الفاطمي، فانسحب مع أولى القوافل العائدة إلى مصر. نادى العدوة الأخرى في لحظات اليأس، فلم تجبه إلا طيور النورس التي ظلت تحلّق على الشواطئ ولم تكن معنية أبدا بما كان يدور في الهضاب. وتقول كتب التاريخ أن عَدُوِّيه، إيزابيلا القشتالية، وفرديناند الأراغوني، اعترافا بفضائله الكبيرة عبر التاريخ الأيبيري. كتب التاريخ لا يمكنها أن تزيّف الحقيقة؟ فقد دوَّنت فتوحاته بحرف المطابع الملون بماء الذهب وعروق الزعفران. حتى الكتب والمجلدات الضخمة المطرزة بماء الذهب والقطيفة، تقول الشيء نفسه. في اجتماع سري عقده على هامش صهد الحرب والمعارك، انتقم محمد الصغير من كل الرعاع وسلَّم القلاع والمدينة في اتفاقية سرية. ولم يأكل أصابعه ندما، وتركهم للتهلكة. قال في رأسهم ولا في رأسي. فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. هم أرادوا ذلك، فكان لهم ما أرادوه. قال له الشماليون سلِّم تَسْلم. أتركهم يجربون معنى التخلي عن بركاتك. فالذي يخون أرضه وأهله لا يستحق أن يحيا، وهم خانوك. ثم انسحب هو وأحصنته إلى فاس لكي ينسى جرح الأهل، حتى مات بها، في خيبته وآلامه. قال الشرطي الشاب للبقية: مادام السيد وصل إلى هذا الحد من الجنون، نأخذه ونسلمه لأولي الأمر حتى لا نتعرض لأية عقوبة. اتفق الجميع على المقترح. وضعوا السلسلة الثقيلة في يديه وسحبوه وراءهم، وماريوشا

تتبعه بقلق كانت تعرف سره. لكن شيئا ما ظل يسد حلق بقية الشرطة لم يستطيعوا الإفصاح عنه: الخوف من ردة فعل مدير المخفر الذي لا يريد أن تُعطى له الملاحظات من الجهات العليا.

قالت دنيا وهي تتأمل عيني شهريار المتورّمتين:

- يا سيد الأكوان والأصقاع، أرأيت كيف تفسر رعيتك خيانة محمد الصغير؟

- الرعيان، أولاد قحبة محترفة، يستأهلون. كان يجب أن يفعل فيهم أكثر من ذلك حتى يقدّروا فارق الحياة في كنفه، وتحت سلطان القشتالية. كانوا ملوكا، فأصبحوا مشردين في السهول والجبال والبحار. اللي ما رضى بالخبزة، يرضى بالنُصْ. هكذا شاءوا، فكان لهم ما أرادوه.

- مشكلته فقط أنه قايض البلاد بثمن إنقاذ رأسه. حالة حكّامنا دوما. إلى اليوم لا يوجد فيها بطل تراجيدي واحد قادر على الذهاب وراء قدره حتى الموت. كلهم في النهاية يتحوّلون إلى أصغر من جرذ يبحث عن غار يخبئ فيه رأسه.

- بلاده وهو مولاها واللي ما عجبوش الحال يخرج، الله لا يرده. هُمْ يريدون إسقاط النظام، ونحن بعد أن أفنينا عمرا في إسعاد الشعب، نريد إسقاط الشعب. المسالة لا تحتاج إلى عبقرية خاصة.

- لكنها البلاد يا سيد البلاد، لا تُباع ولا تُشترى!

- البلاد التي يصبح فيها الرعيان سادة القوم، ليست بلادا.

- وماذا هي يا سيدي؟

- كنت أريد لهم جملكية تناسب مزاجهم القبلي والحداثي، ولكنهم فشلوا في أن يكونوا بشرا. بعتُ كل الشركات النفطية للشماليين نكاية في الرعاة، والكثير من أراضي الجملكية ليستثمرها من له القدرة على فعل ذلك، وليس هؤلاء الخونة للحليب، وجوه الشر والبؤس.

- الأرض مقدسة يا مولاي، مثل العرض والدّين.

- نحن من يصنع المقدس والمدنس أيضا. نحن من يبني مقابر الشهداء ونحن من يهدّمها. نحن أيضا من يمنح الاعتراف بالشهيد ومن

ينزعه عنه حتى ولو كان شهيدا. ألم يقل صاحبك ماكيافيلي: جوّع كلبك، يتبعك؟

- لم يقل هذا الكلام يا مولاي. قال: من يصبح أميرا برضى الشعب، يحتاج أن يحافظ عليه بمحبة وبصداقة. وهو أمر غير صعب لأنه لا يتطلب منه الشيء الكثير سوى أن يكون رحيما معه وأن لا يضطهده. لكن من يصبح أميرا ضد الشعب، بمساعدة الكبار، يحتاج قبل أي شيء آخر أن يستعيد ثقة الشعب فيه، ولا يصبح ذلك ممكنا إلا إذا وفّر له الحماية(٥٥). هذا ما قاله بالضبط.

- يا امرأة خلّيك من الكلام الفارغ الذي تقرئينه في كتُب التاريخ. التاريخ كله مزوّر. ماكيافيلي يتحدث عن شعب وليس عن مجموعة من الرّعاع.

- لا سيدي، كان يتحدث عن وضع القرون الوسطى، وهو شبيه بأوضاعنا.

- شعوبنا مع الواقف. عرفتُ ذلك بعد أن خسرت الكثير. إن التاريخ الحقيقي، عندما نقوله لا يُقبَل منّا، ولهذا نتصرّف وفق ما يرتضيه الآتي.

- واصلي، ودَعينا من الكلام الهشّ.

قال الحاكم بأمره بنوع من التعب، وهو ينتظر بقية الباخية، التي رواها كثير من الرواة، في غياب بشير إلمورّو ووصلت إلى الناس بروايات مختلفة. ويحتاج المرء لكي يفهم كل ما حدث أن يعيد تفكيك كل التفاصيل المتناقضة لكي يصل إلى جوهر الحكاية. تفاصيل كثيرة يشوبها بعض الالتباس.

حسم الشرطي كل التردد الذي سكن أصدقاءه. فأخرج كتيبا صغيرا من جيبه، تقول دنيا، وبدأ يتلو على زملائه المادة القانونية التي تريحهم أمام مدير المخفر: كل من يضبط ساحرا، أو شبيها له، عليه أن يقوده

---

(55) Machiavel: Le Prince. P: 96.

إلى دار القصاص ويحاكمه. وإذا ثبتت تهمة السحر ضده يقتل شنقا أو حرقا يحسب ثقل التهمة. الشرطة مخولة بتنفيذ الحكم. أي تقصير تتحمل هي نتائجه استنادا إلى القسم الجماعي واليمين الذي أدته أمام ضباط وقضاة صاحب الجملكية، وأمام التاريخ الذي لا يرحم أبدا. المشكل لم يكن في كلمة ساحرا ولكن في كلمة شبيها له الواسعة التي تغطّي على كل شيء. وضعية بشير إلموزّو لا تدخل في الأولى، ولكنها تدخل شبيها له. كان يسير مقيدا، ويحاول أن يلمس قلب ماريوشا، بينما كانت هي تتبعه بعينيها وتمسح عن شعرها المبلّل بماء المطر الفجائي الذي هاجمها وهما على الساحل، في لحظة غفوة عشقية. شعر بقربها منه، بظلّها يغطيه كلّيا. كان يمشي وكأنه لا يمشي. يتمتم في حالة شبيهة بالهذيان: **أيتها العظيمة التي باعت مدينتها من أجل البحر والسفن التي لا تعرف إلا الهجرة، لك في قلبي سكن ودار من النور. أيتها القديسة التي فتحت ذراعيها لا لاستقبال حبيب هجرها منذ الزمن الأول، ولكن لاستقبال جرح الشهداء، بكبرياء. أيتها البلاد المسبية التي تُسرق آلاف المرات بين الإغفاءة والإغفاءة، وتُنتَهك في شوقها وتُغتصب في حميميتها. أيتها الشوارع التي تعودنا أن نكبر معها وفيها وبها، واسعة مثل ساحات الحلاقي ورحبات الفوالين، وضيقة مثل عين إبرة عندما تحزن القلوب. ها أنا ذا يا ماريوشا، يا موجة تهاجر دوما نحو الأصقاع البعيدة، وتعود مجللة بالحكايات التي تبحث بشغف عن نهاياتها. ها أنا ذا أرفع كأسي وألوّح بها في فراغات البلاد التي ملأتها الصرخات وكواتم الصوت وأزيز الطائرات الحربية وأخبار الموت، وأعلن أني ما جئت إلى آرابيا إلا لاستعادة الحكاية التي بدأت تُسرق مني، منّا جميعا.**

- كعادته، لا يتوقف عن هذياناته؟ كذبة وصدّقها.

- علامته أن يؤمن بكل ما يراه ويحسه، وإلا لن يكون هو بشير إلموزّو.

يُجمع الرواة الصّادقون الذين استعادوا وجه المدينة المسروق، واستعادوا الأسواق، أن بشير إلموزّو سُحبَ على ألسنة النار، على مرأى

من ماريوشا التي كانت ما تزال تحت دهشة صوته النبوي، وفي عمق وجع نشيده.

عند باب السجن المحاذي للقصر، قبل أن تنزل الضَّربة الأولى على فمه، رأى البحر الذي شيد قصر عزيزة في زاوية من زوايا شاطئه الواسع. شاهد الأسواق التي كانت فراغاتها تصرخ بحثا عن حنينها المسروق. رأى القلعة التي بدت سوداء اللون من كثرة الأدخنة المتصاعدة ومن كثرة النيران التي اشتعلت على أطرافها. انسابت نسمة بحرية، إثر لفحة باردة قادمة من زرقة الموج، تنفسها بكل عمق. لم تفقد هذه المدينة بعد رغبتها في الحياة والعودة إلى شوارعها التي تعوّدت على هدير البحر وصرخات الأطفال. رأى النوارس البيضاء تهاجر جماعات، جماعات، تعبر الأسطح القرميدية الواطئة متسابقة باتجاه مرتفعات القلعة. قبل أن يدخل إلى السجن، حاول للمرة الأخيرة أن يغمض عينيه على ما تبقى من الأشياء الجميلة في هذه المدينة.

الشرطة حين جرته من البار، لم تكن تعمل أكثر من تنفيذ نصوص الجملكية التي أدت اليمين عليها وتعرف أن موقف الحاكم بأمره، من السحرة واضح ولا يستثير أي جدل مسبق. كان يصر دائما على عدم قتل الضحية قبل محاكمته والاستماع إلى حججه، لا لتبرئته، ولكن لإدانته أكثر وقتله حرقا. حدث ذات مرة، تحت تأثير مرض النقرس والغضب، أن أكل الحاكم بأمره، رأسي ضحيتين اتهمتا بتعاطي السحر، وشُويَ جسداهما. وكانا من كتيبة الحرس الوطني المكلف بالسهر على راحته. يومها أعاد النظر في كل القوانين السابقة التي تسير عليها جملكية آرابيا بعد أن قرأ كتاب الأمير أو مدوَّنة العبر، لماكيافيلي وارتبط به وبنصوصه الحادة. كانت دنيا قد أهدته له بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتلائه عرش الجملكية. قال وقتها: إن العفن إذا مس طرفا في الجسد، يجب بتره بلا تردد. أعاد النظر في المواثيق الوطنية التي تسهل التعامل مع الكفار الذين انزلقوا إلى الإسلام وإلى جهاز الدولة متنكرين. بدأ يشكّ في كل الناس القريبين منه والبعيدين. شعر في لحظة من لحظات الضعف وما أكثرها،

أن جهازه الداخلي مُخترق. وتفاديا لكل الشكوك التي يمكن أنت تضرّ بمصالح الرعية، أصدر القوانين الرادعة، تماما كما ورد في كتاب الأمير. وفتح كتاب الأمة الواسع على كل منجزاته، ودوّن فيه القوانين الجديدة لتصبح وثيقة وطنية ملزمة. تماديا في الإصلاحات الجذرية، فقد اشترط الحكيم أن تخضع البلاد بكاملها لعملية إعادة مراقبة الختان، لمعرفة أعداء الإسلام المتسربين، من المسلمين الحقيقيين. وأُذيع الخبر في التلفزيون بعد نشرات الأخبار الرسمية: نهيب بالمواطنين السعداء، أن يمرّوا على جهاز مراقبة الختان. والذي لم يقم بواجبه الوطني عليه أن يفعل ذلك في أسرع وقت، وقبل فوات الأوان. وثيقة إثبات الختان ضرورية من أجل مغادرة الوطن سياحيا، أو استخراج الأوراق والوثائق الإدارية. وتُظهر إجباريا أمام السلطات العسكرية والمدنية كلّما دعت الضرورة إلى ذلك. غيابها يعرّض صاحبها لأقسى درجات العقوبة تصل حدّ الشنق، والصلب والحرق. وبعد أسبوع من سيران القوانين الجديدة، حوصرت الطرقات وأغلقت مطارات الجملكية وأوقف النقل، وحوصرت الغابات، إلا البحر، فقد ظلت ملاحته حرة نسبيا. حاصرت الشرطة الشواطئ التي كانت تحت سيطرة القصر وجيوشه، وامتد الخبر كخيط النار، من القلعة إلى البحر، إلى قصر عزيزة. وسُيِّجت المدينة بدائرة عسكرية مجهزة بالأسلحة الفتاكة، حتى الفم. وحُلَّ قتل السحرة والرجال غير المختونين، بعد محاكمتهم بشكل حر ومستقل. وفي الخطبة التي سبقت عملية مراقبة الختان قال الحاكم بأمره، صاحب آرابيا السعيدة: بدءا من اليوم، القانون هو السيد، وفوق الجميع. ماذا يقول عنا أعداؤنا؟ إن جهازنا الأمني ضعيف وأننا مخترقين من الرعاع والحثالات؟ كلاّ وألف كلاّ. يجب أن نُظهر للآخرين سطوتَنا في المراقبة، وصرامَتنا في تطبيق القوانين الحيوية. وعلى الرغم من حضر التجول، فقد فُتحت استثناء، المستشفيات ومراكز مراقبة الختان حتى ساعات متأخرة من الليل. انطلقت العملية مع الفجر بتنظيم دقيق، وتحت رقابة أمنية صارمة. وقفت الطوابير الكثيرة بانتظام، ممتدة في

طولها عبر كل شوارع آرابيا وهضابها، في استقامة وهدوء. وصمّم المشرفون على أن لا تتجاوز العلمية أياما معدودات مثل الحملات التلقيحية التي تعودت الدولة أن تجريها مرة كل خمس سنوات. خصص اليوم الأول لأسلاك الدولة العليا من ضباط الجيش من الجنرالات، والعقداء، يتقدّمهم الحكيم وابنه قمر الزمان. اليوم الثاني خُصص للضباط و رجالات الحزب، وضُم إليهم أعضاء السلك الدبلوماسي الممثل في الخارج الذي استدعى في مهمة عاجلة. اليوم الثالث، لمسئولي المقاطعات الكبرى، والولايات وإطارات الدولة من ذوي المناصب العليا. اليوم الرابع، للتجار، والحرفيين. اليوم الخامس للموظفين الصغار في سلك الدولة والقطاع الخاص. اليوم السادس، لأئمة المساجد والمعوّقين، والذين استُقدِموا من مستشفى المجانين. اليوم السابع، خُصِّص لأفراد الجيش البسطاء والجنود، وبقية المواطنين الذين يحتلون آخر المراتب في السلم الاجتماعي. كانت الرقابة مشددة جدا، منعا لأي تسرب أو أي تدخل أجنبي في شؤون الجملكية التي كانت تزهو دائما أمام غيرها بديمقراطيتها المتميزة والمحلية جدا. لأول مرة يستطيع الحاكم بأمره، صاحب جملكية آرابيا أن يثبت للجميع أن الديمقراطية لا تنتزع، ولكن يمكن أن تقدم هبة من رجل حكيم، يعرف احتياجات رعيته. الوحيد الذي كان يتعامل مع الظاهرة بسخرية كبيرة هو سيدي عبد الرحمن المجذوب، لأن الشرطة التي نهته عشرات المرات عن التبول في الشوارع وتحت النصب التذكارية. كلما أوقفوه قال: أنا لا أفعل ما يعاقب عليه القانون، أظهر للأمة أنني بالفعل مختون.

كانت الطوابير تتدافع بانتظام، للمرور على جهاز مراقبة الختان وفحصه عن قرب. كل شيء كان يمر بسرعة. يدخل الرجل إلى الصالة مصحوبا بزوجته. تُؤخذ شهادة الزوجة إذا كان الرجل متزوجا، وشهادة الوالدين إذا كان أعزب. وإذا حدث أن كذب الطرفان يعاقَب الجميع. القاعة التي يدخلها المتعرض للفحص معطرة بشكل يعطي رغبة عالية في الانتصاب والجنس مما يسهل مهمة المراقبة. يقولون إن العملية مقصودة

لأن فحص ذكر منتصب لا يدع مجالا للشكوك أبدا حول مسألة الختان. تسهيلات كبيرة ساهمت في نجاح العملية. الشيء الوحيد المقلق فيها هو أنه لحظة الدخول ينزع المعنى سرواله ويضعه في يده ومعه ألبسته الداخلية. يستقبله أحد الجنود، ويُسلّط على عضوه الضوء الحاد في الغرفة المظلمة، فإن أمِن من الحرق، يسلِّم على الأرض تيمنا بالتربة التي آمنته من خوف وأطعمته من جوع كما تقول حكمة الحاكم بأمره التي تملأ الحيطان. يُقاد بعدها إلى قاعة مجاورة، وهناك يُمنح سندوتش التّونة أو الجبن، يأكله لاسترجاع الدم الهارب من وجهه من شدة الخوف، ثم يُغادر إلى شؤونه منتشيا بخروجه سالما من هذا الفحص المقلق. وقد استُعمل العقل الإلكتروني من أجل السيطرة على العملية الحسابية بكاملها. ظهر في النهاية أن هناك وزيرين تسربا إلى الحكم بدون أن يكونا مختونين، وزير المالية، ووزير الخارجية. يقول بعض الرواة إن الحاكم بأمره، كان يعرف مسبقا أنهما من غير دين الإسلام، وكانا يزعجانه في اتخاذ القرارات. لهذا فقد فبرك هذه العملية بكاملها، بمساعدة مستشاريه الشماليين. كما أقرت نتائج الكمبيوتر بوجود خمسة أشخاص عاديين غير مختونين. الأول رجل طاعن في السن، لم ينتصب ذكره بشكل يعطي للجنة حق القول بأنه كان مختونا أم لا، فاختار الكمبيوتر اعتباره غير مختون. الثاني، شاب سلك هذا الطريق، يوم ختانه هرب من البيت، ولم يعد إلا بعد سبع سنوات. والثالث كان مشلولا بالولادة. الرابع ولد مختوما بفراغ في مكان جهازه التناسلي. والخامس، وضعُه غامض. لا هو امرأة ولا هو رجل. أضيف إلى هؤلاء، عضوان من السلك الدبلوماسي الممثل للجملكية في الخارج. كانت المحاكمة جماعية، والقرار جماعيا أيضا. كان الحكم صارما، لأن مرجعيته كانت تستند مباشرة إلى الخطبة الأخيرة التي ألقاها فخامته على الأمة. لم يكن من الممكن العفو على الجواسيس المدسوسين في المدينة، الذين سرّبوا الكثير من المعلومات إلى الخارج. جيء بالمندسّين والمحكوم عليهم، ومن أعلى البناية التي كان يقف في شرفتها

المغلقة بزجاج مضاد للرصاص، رمى الحاكم بأمره قطعة الكتان المشتعلة على الأجساد المهيأة للحرق، التي كانت قد طُليت بالزيت وبالبنزين. كان الجميع مربوطين إلى صليب حديدي قديم، ما يزال القديد البشري عالقا به. بدأت بعدها ألسنة اللهب تتصاعد، ولم تعد تسمع إلا صرخاتهم المتوالية وكلماتهم المبهمة، وخرخشة عظامهم التي كانت تتحول شيئا فشيئا إلى تثار من الرماد الأبيض. يقال في الجملكية إن الرعية التي تحتل مسؤوليات كبيرة في جهاز الدولة، أصبحت تراجع في نهاية كل شهر المرآة البيتية الحميمية، لتفحص ما إذا كان هناك جسم قد بدأ يتكون حول محيط حشفة الذكر أو لحمة غريبة، قد تبدو للفاحص أو للكمبيوتر كأنها اللحمة التي كان يجب ختنها. ويقال كذلك إن عمليات كثيرة جرت في تلك الشهور التي تلت الفحص الإجباري الذي سنه الحاكم بأمره.

وتحت الضغط الدولي، كثرت الانتخابات المتوالية والاستشارات القانونية فيما يتعلق بحقوق المواطن، لضمان تجاوز معضلة التحولات الدولية التي كانت تدق على الأبواب الوطنية. استجابة لجمعية النساء الحرّات، فقد وسن الحاكم بأمره التشريعات التي تقدس الأمومة وتمنح المرأة حق التعلم واختيار الزوج بحضور الوكيل، وسياقة السيارات في حالات عجز الزوج أو الوالد.

استمر سيدي عبد الرحمن المجذوب في نداءاته بعد غياب بشير إلمورّو من الساحات الشعبية. يعرفه الناس في الأسواق الشعبية بأنينه وبكائه الذي لا يتوقف عن الغائب. ويستعيد قسوة عصر محاكم التفتيش الذي كان يحكي عنه بشير إلموزّو وهو يسترجع أسواق غرناطة وأزقة المدن الهاربة من قلبه ومن ذاكرته. كان يعرف بحواسّه الدفينة أن كل شيء يسير بخطى حثيثة نحو موت مؤكد.

- سيطعنوننا من الخلف باسمك يا الله. ستدخل السكاكين في قلوبنا، ويحاسب المجنون على جنونه. العاقل على عقله. المرأة على أنوثتها والرجل على ذكورته. الوطن على كبريائه. الفنان على حماقته.

والله على تسامحه. إني أرى الآن الستائر السوداء القاتمة تنزل على البلاد لطمس ما تبقى من نور الشمس. لن تموت القلعة. لن يذهب الصراخ مع الريح. لن ينسى البحر قتلاه. العلماء لم يموتوا وإنما شبهوا لهم. سيعودون. يا سيدي بشير، أنت أعرفنا بسر الظلام الذي بدأ يزحف نحو البحر والمدن. إنهم يقسمون من الآن، بأننا لن ندخل ترتبهم، ولن نُدفن في قبورهم، ولن يقرؤوا الفاتحة على أرواحنا المنهكة. لقد نزعوا الرحمة من قلوبنا.

يلتفت المجذوب صوب الوجوه القلقة التي تنظر في كل النواحي، خوفا من مفاجأة ما، أو من سيارة ما، أو حتى من بلطجية ما يبعث بهم النظام للتشويش على راحته وراحة من يريد أن يسمع إليه. منذ الصلح الشكلي، بين القلعة والبحر وقصر عزيزة، ساد شيء شبيه بالفراغ. لا أحد كان مقتنعا بما كان يحدث أمام عينيه.

لم يفهمه الناس بعد أن غيّر لغته ورموزه إلا بعد زمن طويل، عندما كان الناس يدوسون على الصحف المجللة بالسواد، ويضعون أختام أحذيتهم على وجه الوريث الجديد لجملكية آرابيا الذي أعادها إلى النظام الملكي القديم، ووعد بسنّ دستور جديد ديمقراطي يواجه به طغيان والده الحاكم بأمره، وغيَّر حتى اسمه باسم آخر أكثر قوة وعدلا وجاذبية: من قمر الزمان إلى قمر الزمان المعتصم بحبله. لم يفهم بأن زمنا بكامله كان قد انتهى بعد أن وصل إلى سقفه، وأخذ في مسالكه كل شيء. بدأ الناس يفهموا شيئا فشيئا سرّ عواء سيدي عبد الرحمن المجذوب، كلما توسط الحلقة في ساحات أسواق آرابيا:

«- ما قتلوه، ما صلبوه، ولكن شُبّه لهم. ما قتلوه، ما صلبوه... البحر لن ينسى قتلاه. موجه غاضب. حزنه قاتم. جنونه جامح. أناشيده لن تموت. سره لن يفوت. سيأتي من يتم شوقه. كل سجونهم لن تخفي الشمس، ولا الصباح الهارب، ولا نور الحقيقة الذي يملأ قلوب الناس.»

يا الرايح، وين رايح، اذّيني، وإلا جيب لي أخبار.

ريت غيمة جافله، ما دريتْ لا من البرد ولا من النار. . .

تذكَّر المجذوب كل ما سمعه من البشير وحفظه عن ظهر قلب. كان يقول له دائما إن الطريق الذي سلكناه منذ البداية لم يكن صحيحا. لقد ركب الناس رؤوسهم على حفنة من الكذب والهواء الساخن. كانت هناك إمكانية للتوقف ومعاودة المسلك لكن لا أحد تجرأ على فعل ذلك. فاستفحل المرض، وتُرك ابن رشد يموت وحيدا في فراغات المدن الحية. يبحث عن قلم آخر أكثر مقاومة بعد أن كسر إخوته قلمه وحنينه. ووقف الجميع يصفّقون عندما طُرد خارج أسوار مدينته بعد أن صمت الجميع أمام مشهد حرق كتبه. سرقوا عقله من محيطه ورموه عند بوابات الكنائس والجامعات الغربية التي عرفت سره وجبروت قوله. ظل يصرخ في أسواق قرطبة دون أن يسمعه أحد. صموا آذانهم بالصمغ لكي لا يسمعوه. في كل العصور جبناء يستمرون في الحياة. في كل العصور أبطال يموتون مبكرا. في كل العصور أطفال ينشأون في الخراب، ولا أحد يعرف كيف سيتصرفون عندما يصبحون شبابا تملأهم حرائق الذين مضوا. وضعوا له الكمائن في كل مكان حتى أخرجوا أبا الوليد من أسوار قرطبة، إلى العراء. زاد قلبه ضيقا عندما سأله أبو يوسف يعقوب الذي كان قد تولّى الخلافة إثر وفاة والده عن أن ما يفعله يثير الناس ضده. أجابه أنه لم يفعل أكثر من إيقاظ العقول من سباتها التي دامت طويلا. فرد أبو يوسف: اترك لهم دنياهم فهم سعداء فيها. فرد عليه: ولكني غير سعيد، ولن أكون سعيدا بظلام الجهل. فالدنيا دنيايان، دنيا قائمة، ونرفضها، ودنيا مغيبة، نبحث عنها حتى نموت. أريدهم أن يعرفوها قبل أن يملأ التراب أفواههم. انزعج أبو يوسف يعقوب، فوبخه: إنك تؤلب الناس ضدي؟ ثم لكز أحد ورّاقيه التابعين: أكتب ما أمليه عليك أيها المؤرخ الوفي. اليوم نفينا أبا الوليد خارج أسوار قرطبة حتى لا نقدم على قتله. لقد تعدى حدوده وحدود الله وحدود الحاكم. أولا أنا خليفة المسلمين كلهم، ولست أخاه. ثانيا، الدنيا دنيايان، واحدة نعيشها وأخرى ستعيشنا، وما غيرهما، كفر وزندقة. ثم أخيرا

وليس آخرا، هذا الرجل يؤلب ضدي الرعية بكتاب ألفه سيقلب كل شيء لو كتب له أن يُقرأ من الجميع: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال**. ولهذا وجب حرقه قبل استعار الفتنة. الفلسفة علم يخلب العقل ويُذهب الدين.

الأحداث لم تغير شيئا في عادات سيدي عبد الرحمن المجذوب، فقد تعود على أن يوقف الحكاية في منتصفها ويترك العيون والقلوب ومختلف الحواس معلقة في الفراغ. الناس لا يكتمون أشواقهم، وأحيانا انزعاجهم:

- عمي المجذوب؟ هذه المرة زودتها. الحكاية في منتصفها. وبعدها واش وقع لابن رشد مع أبو يوسف يعقوب؟

- تتحدث عنهم كأنهم أصحابك؟ الأول أعظم علماء زمانه، والثاني خليفة أدار شؤون الأمة زمنا غير يسير. ادهن السير يسير. أدخل يدك في جيبك وأخرج دينارا على الأقل لكي تسمع السرّ الباقي، وإلا روح تسرح.

يمد الشاب يده على مضض إلى جيبه، ثم ينتظر مرور المجذوب على كل الناس المحلقين به ليستلم النقود التي يتكرمون بها.

يواصل نشيده حتى انكسار شمس العشية نحو المغيب، فيعلّق الحكاية مرة أخرى قبل آذان المغرب بقليل. يحمل زربية السيد علي التي رسمت عليها ثلاثة أوجه: علي وهو يضع على ركبتيه ابنيه: الحسن والحسين. ثم يعتذر ويغادر، بينما يتفرق الناس في كل الاتجاهات. حتى عندما يقول بأنه سيعود بعد الصلاة، يعرف الحاضرون بأنه لن يعود إلا في اليوم الموالي، فيتفرقون. يدركون بأنه سينزلق مباشرة باتجاه الزقاق المتقاطع مع المسجد، المؤدي إلى **حانة الحافة**، أو إلي ماخور الرومية. يشتري في طريقه قنينة نبيذ أحمر، ثم ينزل إلى زاويته المفضلة في حديقة الحيوانات الوطنية. هناك يجلس بين الطيور، ويبدأ شربه وحواراته التي لا تنتهي. حتى الشرطة تعودت على وجوده في ذلك المكان، فتحاول دائما أن تتفادى لسانه الطويل بالخصوص بعد اتفاق

السلم الأبيض الذي لم يُعمِّر طويلا بين العلماء والعمال والحاكم بأمره. بعدها ينام على الكرسي الطويل، متدثرا بزربية السيد علي. لكنه بعد أن يكون قد أنهى طقوسه اليومية، بإطعام ثعبانه وكلبه، وتحديد المكان الذي ينزع منه، مع الفجر الأول، أعشابه الطبية وهي طرية.

حين ينام المجذوب، ينكفئ على فمه ويسترجع اليوم بكامله، بصرخاته، وحزنه، ووجوهه، ثم يغمض عينيه على أجمل امرأة صادفها في يومه. بعض الوجوه تستعصي عليه، لكنه في الأغلب الأعم يتوصل إلى استحضار ما يريد. ثم يبدأ في استرجاع كل ما حكاه طوال اليوم وتحديد اللحظة التي توقف عندها، واللحظة التي سينطلق منها أيضا في اليوم الموالي. وعندما يعجز عن إيجاد بقية الحكاية، وهو يروي، لا يستطيع أن يكذب. يقول لا شيء أصدق من الحلم، هاكم رؤياي. وعندما يستحيل عليه كل شيء، يرفع عينيه إلى السماء ويحتج كالرعد، ثم يعوي كالذئب: خمسون سنة... نصف قرن وأنا أتأملك يا الله، والآن تسحب بي الحصير؟ تمد يدك إلى ظهري. تربت على كتفي، ثم تهمس في أذني: لا عليك يا المجذوب. ستأتي البقية من تلقاء نفسها. أنا الذي كنت أريد أن أعرف غير الذي ترويه الكتب ذات الحروف الذهبية وذات التجليد بالقطيفة الملونة والورق المصقول، المسروق من أروقة الجنة. فهو يدرك جيدا أن الكتب بقدر ما تصر على البهرجة، فهي تخبئ كذبا عظيما. يحمل لها عداوة ظالمة أحيانا. يقول إن الحقيقة تموت داخل أروقة الجنة. الكتابة لا تنشأ إلا داخل المعصية لأن العالم مبني في أساسه على الغلط. على الرغم من أعطاب الدنيا، ذاكرتها تظل حية. قِيل له في ذلك الزمن البعيد، عندما وقف حائرا في قصة سيدي الموري الأندلسي، الذي دخل إلى هذه البلاد: قل إنه مات في البحر وواصل بقية الباخية؟ يغريه الذين يحبونه. يعوى مثل الذئب ثم يزأر كالأسد: يا أبناء اللعنة؟ تريدونني أن أصبح من كتاب الدّواوين، أملأ البياض المقدس بالبهتان والرياء؟ ما تعرفونيش. أنا رجل الحكاية، ولستُ ورّاقا يساعده الحضور باحتمالات يرمونها على مسمعه من كل

الجهات: قيل إن محاكم التفتيش المقدس صرعته، ورمته داخل المحرقة. يسمع صوتا آخر كأنه يأتي من وراء الحائط: كان من الرعية التي فرت من غرناطة. حملت أشياءها الثمينة ولم تلتفت وراءها، إلى المدينة التي كانت ألسنة اللهب تأكلها... يضحك بسخرية عندما يسمع تدخلاتهم: لا يصحّ. سيدي البشير كان آخر المغادرين. يعود له الصوت نفسه من جديد: ربما كان بشير إلمورّو مجرد خرافة، أو حكاية من الحكايات التي تُروى لتمضية الوقت؟ أنت تعذّب نفسك على الفراغ والموت. يلتفت نحو أصوات المستفز مرة أخرى باستقامة: لا. سيدي البشير لا يساوم في الحياة. يوم الرحيل، اشتعل البحر عند قدميه وانحنت له الأمواج العاتية. الليل بكل جبروته لم يثنه عن عزمه، ولا حتى محاكم التفتيش المقدس. تنازل عن ماريانا التي كانت قلبه وذاكرته، مقابل حلم رآه، وشوقه لمدن نبتَتْ فيه. لا. لا. لا... سأظلّ هاهنا، أعوي مثل الذّئب الجريح، في الخلاء يكثر صياحي حتى تتم الحكاية. ثم ينغمس في نشيد الألم الذي ورثه من فم قوال آخر قتله الحنين الخفي:

عَشْتْ حْيَاتِي فِي بَابْ مَسْدُودْ

بيِّنْ لِي أَبْوَابَكْ يَا الغَافِلْ لا تَخْفِيها(٥٦)...

إذا تحتم عليَّ الانتظار، سأنتظر حتى يجيء من يعرف الحقيقة ويهمس لي بها. لن أملأ فراغ الموت بالكلمات التي خُطَّتْ بالذهب والمداد الكاذب، الذي لا يروي إلا أخبار الملوك والرؤساء المخدوعين. سأظلّ أعْوي حتى يأتي الصادقون، الراسخون، العالمون علم اليقين. لن أتنازل عن ثِقلي الذي على ظهري إلا عندما يعود سيدي الموري الأندلسي. وعندما عاد بشير إلمورّو، قضى المجذوب زمنا طويلا يبحث عن مكمن الصدق في العودة. تلوّى يومها طويلا حتى سحبته الغفوة نحوها، ولم يستيقظ إلا عندما وجد نفسه مع ماريوشا يصرخان:

---

(٥٦) العربي باطما، ناس الغيوان.

«- ما قتَلوه ما صلَبُوه، ولكنْ شُبِّه لَهُمْ.»

مع الزمن أصبح حلم المجذوب، بعد أن رأى ما اشتهى، أن يموت بهدوء، قرير العين. وأن يوضَع في بوقال الشهداء رمادا، لا ترابا ولا حجرا. كان يعرف أيضا أنه لا موت في الموت. لن تموت أصداء النوارس ولن تبدد أصواتها. تهرب النّجوم، تتخفى، لكنها لا تموت ولا تندثر نهائيا. هناك خيط من النور سيظل العشاق يحملونه إلى آخر العمر في عيونهم وقلوبهم. لا بيت في الجنة ولا في النار، ولكن في عمق البؤرة حيث مساحة النور المعمي للأبصار. لا موت في الموت، إلا حياة مؤجلة.

لم يكن عبد الرحمن المجذوب يكذب أو يهذي، فقد كان من القلة القليلة التي تعرف أسرار المدن المسروقة، وسر بشير إلمورّو الذي عاد متأخرا بعد ثلاثة أو أربعة قرون، وتسع سنوات. حتى عندما كان يغضب من تأخر ظهور علامة بشير، يلتجئ إلى العلماء فيروون له حقيقة الزمن، ودورة الأرض والقمر، وانفكاك النّهارات والساعات والدقائق والثواني وكسور الثواني. يؤكدون له بشكل متواتر، أن كل شيء يأتي في أوانه. إذا سبقه، تُنكس الأعلام، وتُطمس العيون ويتبخر حبر الصدق. وإذا تأخر، يكون الزَّمن المستعاد قد مضى، ربما بدون رجعة. لهذا أصبح أكثر قدرة على تحمل الانتظار. عندما عاد بشير إلمورّو، عرفه من الجملة الأولى التي أخرجها من فمه. عرفه من عينيه. من لباسه. كل ما دونته الكتب المذهّبة، المغلقة بالقطيفة الملوّنة، كان كذبا وتلفيقا. منذ الحاكم الرابع وهي تفعل ذلك حتى وصلت إلى سقفها بالحريق المهول الذي حلّ بها، فأكلها.

منذ سجنه في حانة المارينا، كانت أخبار بشير إلمورّو تصل أول بأول إلى ماريوشا، العلماء والعمال، وعبد الرحمن المجذوب الذي كان يوصلها بطريقته إلى كل الناس. عندما وقف بشير عند مدخل السجن، رأى أشياء كثيرة حاول أن يتذكرها ولكنها استعصت عليه، قبل أن يندفن في أعماق الحفرة التي كان لا يخرج منها إلا للحديث مع الحاكم بأمره،

صاحب جملكية آرابيا. هو من طلب ذلك. كان يريد أن يعرف شيئا عن رجل مبهم لا شيء فيه واضح. قادم من بعيد، يكره الحروب، ولا يرتاح إلا لسماع الباخية التي تروي الأزمنة الفائتة. في كل مرة يؤتى به ويُعاد إلى حفرته لأن اللغة تخونه في اللحظة التي يريد الحديث فيها. شيء واحد ظل يملأ قلبه، ولا يدري إن كانت ماريوشا أن ماريانا. حتى وهو عمق الحفرة، ظل يملأ قلبه حنين الزمن الغائب. يشعر بمذاق عود النوار يملأ فمه، بحلاوة حادة تسري في حلقه.

كانت ماريانا ظل مدينته المسروقة، ومقصد المجانين، وحليب اللوز المر. عندما اقتحمت عليه عذريته في البيت، أول مرة في ذلك الزمن البعيد، لم تكن أكثر من غجرية مجنونة تعيش على ما تسرقه من المدينة. وكان هو رجل الحكاية لا أكثر، يتساءل أحيانا إن كان إنسانا حقيقة أم مجرد لغة هاربة. يومها قرأ في عينيها جنونا خاصا. وردة الكاسي الحمراء التي لا تغادر الشعر الذي يصبح أزرق، كلما كانت الأشعة الشمسية، قربتها منه أكثر. قالت له بسذاجة عندما وقفت بالقرب منه: لماذا صوتك يملأ الأرجاء عن أشياء انتهى زمانها وعصرها؟ ضحك قليلا. تراجع إلى الوراء ثم تأملها طويلا: لماذا تسأله عن أشياء لا تعرفها؟ صمت ولم يقل أي شيء. بعد لحظات رد عليها: لأني أحبها؟ أليست هذه حجة كافية؟ لكن شيئا فيها لم يستطع مقاومته، كان قريبا إليه. نظرت إليه ثم التفتت نحو أصوات كانت تأتيها من بعيد. كانت غجرية، ولم تكن تهتم كثيرا بردود فعل الآخرين. تقول كلماتها الخام ثم تمضي كالريح، أو كموجة هاربة من يمّ يصعد وينزل. خرجت إلى ساحة البيت تتنفس رائحة المسك الغرناطي. أول مرة حينما تعرفت عليه، كانت تمشط الأسواق لشيء تسرقه. فكرت في سرقة النقود التي كان يرميها الناس على الزربية. قالت لإحدى صديقاتها: هذا الموريسكي محظوظ. لديه سحر خاص. يدفع بالناس إلى دفع أموالهم بسخاء دون أن يسرقهم، ثمنا لما يرويه لهم. بينما كان منهمكا في قص حكاياته، دارت عيناها السوداوان بقوة في محجريهما الواسعين. بعدها نظرت إلى

وجهه. لم يأبه بها ولا بحركاتها. كان منهمكا في ممارسة سحره الحكائي. كلما التقت عيناها بعينيه الهادئتين شعرت بحرقة في بؤبؤهما وببرودة في رغبة السرقة.

«- عليه اللعنة، يملك حتى سحر السيطرة على الغجر؟»

تَمتمتْ وهي تحاول أن تتفاداه. حين اقتربت من ألبسته الموريسكية المزركشة وعطره، أعجبها امتداده وامتشاقه في الأرض كالرمح. نست المهمّة التي ظلت ترابط من أجلها. كانت خيامهم منتصبة على أطراف وادي المدينة. زوجها في الخيمة ينتظر عودتها محملة كالعادة بالأكل والشرب والهدايا. أفسدت محبته وعفويته وصوته الشجي، كل خططها التي دخلت السوق من أجلها. عندما انتهى وتفرق الناس، أسرَّت له بالحقيقة:

- كنت أريد سرقتك، ولكني لم أستطع.

- لماذا؟ وهل هناك ما يُسرق؟

- لا أدري، ولكني اشتهيت فعل ذلك، ولكن قوّة غريبة منعتني وكبَّلتني.

أفرغ كل ما تجمع على الزّربية، ووضعه في جيب لباسها البنفسجي الواسع والفضفاض. كانت مولعة بالبنفسجي والأصفر. زادت دهشتها وشعرت بغرابة كبيرة في رجل لم تر شبيها له في حياتها.

قال لها وهو يجمّع النقود التي سقطت على الأرض ليعيدها إلى جيبها:

- اشترِ ما شئت، لك ولأهلك. لستِ في حاجة للسرقة، اليوم على الأقل.

- سأفعل. شكرا.

ثم انسحبت من ساحة سوق غرناطة في البيازين. تأملها حتى غابت عن نظره. كانت مثل السكران إذ لم تصدّق ما حدث لها: أما يزال هناك بشر من هذا النوع؟ فكرت أن تخبر زوجها كالعادة عن كل مسروقاتها، ولكنها هذه المرة لم تجد ضرورة لذلك. كذبت عليه، ثم سرعان ما

أهملت القصة، لكن شيئا ما ظل يؤرقها. حتى عندما عادت إلى ألَميريا ظل وجه الموريسكي يشغلها. تمنته قريبا منها لتسأله عن كل ما كان يملأ قلبها وجسدها الناعم. الغجر لا يحبون بسهولة، وعندما يعشقون، لا يحبون فقط بنهم، ولكنهم يأكلون من يحبون من شدة الجنون. في البداية لم يكن موج ألَميريا يعني لها الشيء الكثير، لكن مع الزمن بدأت الصور تتقاتل في أعماقها. صورة الموريسكي الذي نست أن تسأله عن اسمه، وصورة زوجها التي تشوهت فجأة، كانت تدفعها في كل مرة إلى النفور منه. ذات مرة فوجئ بشير إلموزّو بها في نفس الرحبة. عادت نحوه بنفس لباسها البنفسجي الذي أعجبه. عندما انتهى، جمع كل ما جمع، قسمه على اثنين، قسم وضعه في جيبها مثل المرة الأولى، وقسم زحلقه في جيبه. ثم ضحك:

- تعرفين لماذا لم أعطك كل المحصول؟

- لم آت من أجل هذا، ولا حتى من أجل السرقة.

- أعرف، ولهذا سرقتُ من المحصول قليلا لأدعوك لغذاء طيب في حيي الشعبي، وأعلمك سحر صنعة الڤوالين، سهلة ولذيذة.

قالت بانكسار وهشاشة لم تعهدهما في نفسها.

- جئت فقط لأراك. أريد أن أسمع من قلبي كل أناشيدك. كنتَ لذيذا وشيّقا. أنا التي لا تحب الحكايات وقصص الحب، سحَبْتَني من أنفي كأية طفلة صغيرة لا سلطان لها على قواها الداخلية وهواها. كنت تسحبني وأنا أسير وراءك مغمضة العينين. يااااه أية غرابة هذه؟ لا أعرفني أبدا.

ابتسمت. شعر بإشراق خاص يشعّ من بين شفتيها الممتلئتين، وفي عينيها المائلتين. ثم انسحبت بعد أن وضعت كل النقود التي أعطاها إياها في جيبه.

- ضمها مع النقود الأخرى، حتى يكون الغذاء دسما وإلا لن أقبل بدعوتك.

- وعد؟

- وعد ونص وربع. احسبها هههههه.

ثم انسحبت من الساحة، حتى قبل أن يسألها. لم يستطع أن ينسى حركاتها وهي تتكلم معه. حاول أن يمحو صورتها من ذهنه، ولكنه لم يستطع. ثم عاد إلى نفسه بتعقل: مجنون أنا إن كنت أحلم بترويض غجرية؟

في المرة الثالثة، لم ينتبه لها، فقد فاجأته وهو يندب حنينه عن أندلس كانت كل يوم تموت قليلا. كانت تحمل على ظهرها ربابة مصنوعة من جلد الماعز. قبل أن يسألها، قالت له: هذه المرة جئت أملأ معك السوق. مصممة ومقررة على جنوني حتى ولو رفضتني. صوتي ليس، سيئا، كل الغجر يقولون لي ذلك.

لم تكن أغاني بشير إلمورّو تستحق تدريبا خاصا. قال لها اتَّبعي صوتي وإيقاعي. غني معي، وسيأتي النشيد من تلقاء نفسه. لكنه فوجئ أن في صوتها شقوق الخوف، وشغف المتصوف، ونعومة الطفولة، وهدير البحر المجنون. لأول مرة يشعر أنه يمكن أن تنام في حلقها الشجي، آلاف الحكايات والقصص الحية. غنَّت يومها كثيرا عن الضّياع والتّيه. عن التشرد والوحدة. عن عشق الغجر الدموي والشهيّ. عن قسوة الذين أحرقوا أزمنة الحب. واستعارت من الموريسكوس، كما كانت تسميه، الكثير من قصصه، عن سفن الموريسكيين التي أحرقت في عرض البحر، عن الرجال الذين اختاروا الجبال ليموتوا في عمق صمتها. اندفن هو أيضا في حنين أجداده والرجال الآفلين. أغمض عينيه لكي يرى فقط ما كان يشتهي رؤيته. وحينما فتحهما، لم يجدها. بحث بعينيه في كل مكان، لم يرها. افترض أنها لم تكن أكثر من حلم هارب. لم يصدّق أنه من بين الغجر يمكن أن تخرج امرأة استثنائية بهذا الشكل. بقلب مليء بالأشواق التي ترفض أن تموت، وعينين مائلتين وزهرة الكاسي التي تخترق شعرها الذي يصبح أزرق اللون من شدة سواده، كلما لامسته شمس الظهيرة. يعرف جيدا عادات أغلب الغجر: الحيلة، البيع والشراء، السرقة والقتل لأتفه الأسباب. تساءل طويلا من أي حقل

خرجت، وأية موجة مجنونة رمت بها على حواف الأسواق الأندلسية؟ ثم انتهى إلى إقناع نفسه بأنها ليست أكثر من عابرة سبيل، تسلت معه قليلا بربابتها وصوتها الشّجي، ثم انسحبت من المشهد.

لم يكن بشير إلمورّو يعرف أبدا، أنه سيأتي يوم ويُصاب بلوثتها التي أفقدته الحركة والحياة كما تعوّد أن يفعل، ويصبح من الصعب عليه الوقوف في أسواق غرناطة بدونها. كل شيء مرَّ بسرعة غير محسوبة. فضّل في ذلك المساء الخريفي أن يغادر الحلقة مبكرا، حاملا على ظهره ربابتها التي تركتها وراءها عمدا قبل أن تنسحب، وفي قلبه وذاكرته كل ذلك السيل اللاّمتناهي من قصائد الحب والجنون والانتقام. حتى عندما أراد أن يناديها، كانت قد غابت في الزقاق الخلفي. ثم فقد لسانه لأنه نسي يومها أن يطلبَ منها اسمها. ثم كالمجنون، ركض وراءها حتى أدركها. وقف أمامها وجها لوجه. نظرت إليه بعينين فارغتين. قالت بعض الكلمات المسروقة قبل أن تركض ولم تعد تمشي كما كانت:

- تحدثْ بصوت خافت. زوجي في الزاوية. توقف هنا. سأعود إلى أَلميريا هذا المساء. تعال إلى هناك، مثل اليوم، أرجوك. من أجلي. أريدك أن تأتي. ستجدني عند البحر، في مقهى قديم اسمه مقهى الميناء، في السّاحل.

- طيب سآتي... ولكن...

أراد أن يسألها عن اسمها، وعن بعض التفاصيل، لكنها كانت قد اختفت نهائيا بينما ظل هو مسمرا في مكانه. لا يعرف من أَلميريا إلا أخاه المقيم بها وصديق أخيه سامويل، وبحرها وسلاسلها الجبلية التي تنحدر من الأعالي حتى تصل منبسطة إلى حواف الساحل.

لم يبق في المكان إلا عطرها القوي.

- سآتي إلى أَلميريا عمري. سآتي.

بعد أسبوع كان يخترق المدينة ويركض وراء ظلالها.

لم يغب أي تفصيل من تفاصيل وجهها عنه. كانت قريبة منه كروح تبحث لها عن مستقر ترتاح فيه. كان ساحل أَلميريا خاليا تقريبا، لا شيء

به إلا موجه الخريفي المتقلب، ونوارسه التي تذهب وتجيء في مهرجان من الرقصات التي تبدأ صباحا ولا تنتهي إلا في المساءات الأخيرة. حتى مقهى الميناء كان فارغا أيضا. كان سعيدا بعزلته الجميلة بحيث لا أحد يسأله عن وحدته، ولا عن مسالكه. من أين جئت؟ أين تذهب؟ اختلط وجهها بزرقة البحر ودفء السماء، وشهوة ألوان قوس قزح الملونة التي خطت السماء بكاملها بشكل فجائي، وحنين السفن العائدة، التي لا تنتظر إلا إشارات الانطلاق من أماكن رسوّها داخل البحر، نحو أماكن، الربابنة وحدهم كانوا يعرفون وجهتها. في ذهنه صفاء لا شيء يربكه إلا هزات الحكايات القديمة. قصص الذين حملوا الفؤوس، والسكاكين الحادة، والمناجل، وبقايا الأسلحة التي لم يسلّموها لشرطة محمد الصغير، ثم وقفوا مثل الحجارة في حلق الوافدين من الشمال الذين كانوا يحملون الموت في حدوات أحصنتهم.

ارتكن بشير إلمورّو إلى الحائط الصغير الذي كان يفصل البحر عن اليابسة. كل هذا لم يمنع الموجات المتكسرة عند قدميه من أن تغسل وجهه المتعب. تعالى الرذاذ، ثم تساقط بهدوء على جسمه حتى مس ذاكرته. من هذا البحر شقّت الأمواج البشرية طريقها. من هذا البحر عُجِنت ملامح امرأة غجرية. من الملوحة والزرقة ارتسمت ملامحها الجميلة. لم يخبر أخاه بمجيئه حتى يكون حرا. لقد اختار فندقا، هو عبارة عن بيت قديم ليقضي فيه ليلته الأولى. بالعادة لا يرى أخاه إلا نادرا، وفي فترات متباعدة. أخوه الذي اختار التجارة، يكبره بأكثر من عشر سنوات. عرف بدهاء يتميز به، كيف يستولي على أموال والده في حياته، وفي مماته. قبل أن يأكله البحر، نبهه والده: أخوتك! آلامهم في عنقك... حتى الوالدة، لم يولها الاهتمام الذي يليق بها. تُوفيتْ في قسوة العزلة، يوم أنجبته. كل العائلة، وهو صغير، كانت تقول له: لولاك يا وحد الجنّي لبقيت المسكينة حية؟ كان من المفروض أن تموت أنت وليس هي.

انتظر طويلا قبل أن ينتبه إلى أن الوقت مر بسرعة، وأن النوارس

بدأت تهاجر نحو مخابئها الليلية. فكّر في البداية أن ينزل نحو مقهى الميناء من جديد، ثم فكر في العودة إلى فندقه ليرتاح قليلا من عناء السفر، ثم مرت بذهنه فكرة زيارة أخيه. لكنه شعر بالمسافة بعيدة بينه وبين هذا الأخير. نهض من مكانه. استنشق رائحة البحر التي كانت ملوحتها قاسية. حمل حفنة من الرمل ثم رماها في الفضاءات وتمنّاها أن لا تعود إلى الأرض، ولكنها نزلت على البحر مشكلة دوائر متداخلة صغيرة وكبيرة. دندن وهو عائد إلى فندقه الذي كان على بعد خطوتين من هدير الساحل.

يا موجة يا موّاجه، خذيني في معاكْ.

لا دَارْ ليَّ ولا دوار، راني في حْماكْ.

وهو يتسلى برمي حفنات الرمال ويتأملها وهي تتساقط بتواتر على سطح الماء، شعر بنعومة يد تنزل على كتفه الأيمن. التفتَ نحو العطر الذي مسَّه في قلبه.

احتضنها بشوق. نظر طويلا إلى وجهها. إلى عينيها الهاربتين.

- ماذا تساوي ألميريا بدونك؟

- قلبك وأناشيدك. منذ وقت وأنا أتابعك وأقرأ قدراتك على مقاومة الوحدة.

- لو أتأكد من أنك ستأتين، لا يقهرني انتظار عمر بكامله.

- كل هذا من أجل امرأة لا تعرف حتى اسمها.

- عرفتُ أكثر من اسمها. قلبَها. لم أصدّق قسم الغجر أبدا، حتى جئتِ أنتِ، فنسفتِ كل يقيني الكاذب.

- يا مجنون بأي سحر سرقتني؟ في عينيك جاذبية غريبة.

- مجرد غرناطي فقير، قلبه مليء بالحنين إلى الحكايات التي يريدون قلتها فيه.

قبضتْ على يده بقوة حتى شعرتْ بحرارتها. سألته من جديد.

- لم تسألني عن اسمي؟

- الأهمّ من كل شيء هو أنك هنا. هذا وحده يكفي لأحبك.

- ماريانا. اسم تحفظه بسهولة.

- أنا بشير. بشير إلمورّو. ماريانا! ماريانا! أي حظ وأنا ضيف على بحرك؟ نشيدي وألقي وهبلي. وجدتك ولن أعود إلا وأنتِ في كفي وقلبي. أنت ممن يدخلون القلب بدون استئذان مسبق.

- سرقتَ كل قواي وأَشْعَرْتني مشلولة أمامك.

- تصور؟ التقينا على شاطئ قلّما أعرته انتباها. بدءا من اليوم سيدخل ذاكرتي.

- أنت من قرطبة؟

- من أم المدن التي سُرقت على رؤوس أهاليها. غرناطة.

- ساحرة.

سألته عن حياته. عن جده الذي اختار السلاح على الاستسلام. عن حرب البشرات التي أكلت كل شيء صادفته. عن لباسه الموريسكي الملون والمطرّز الذي يلبسه تيمُّنا بماض انسحب بخطى حثيثة نحو الموت. مرة لأخرى خوّرت عينيها الواسعتين قبل أن تسأله عن نسائه وحياته الخاصة.

- امرأتي الساحرة هي الحكاية وغرناطة المسروقة.

- لا تسخر من غجرية، تدخن الرجال ويدخنونها. احذر؟ تعرف أن غيرتي يمكن أن تصل حد القتل. أنت روضتني بلا قوة ولا أدري كيف؟

- لم أروّضك. قلبك هو الذي كلّمك لأول مرة بشكل مختلف.

- المرأة في عرفنا يا بشير، إما أن تكون امرأة أولا تكون. الرجال تافهون، يمارسون نفس العادات السخيفة. ينامون معك ليلة طائشة. يحبونك في لحظة سكر، ثم يرمونك على أطراف الطرقات الضيقة، ويستعيدون سيرتك باتساخ في بارات المدن الغريبة وهم يقرعون الكؤوس ويرفعون الأنخاب. ينهشونك. يتنافسون حول من استطاع تعذيبك أكثر من غيره. من أشبعك؟ يتكلمون عن شيء لا يعرفونه أبدا. كلهم جرذان.

- وزوجك؟

- كنت سأحدثك عنه. ليس أحسن منهم. هو أيضا يتنافس معهم، ويكرهني في أعماقه لأنه يظن دائما أني من عِرق موريسكي. عِرق لا أعرفه ولم أبحث عنه. يكفيني أن أكون ابنة هذه الأرض. سيقتلني لو رآني معك. لكنه يصمت عندما أغلقُ فمه بالدوقات، ولا يسأل من أين جاءت؟ قواد حقيقي.

- يا عمري منغلقون على يقينهم الفارغ. المرأة في أرضنا مثل هذا البحر الواسع والسخي، تعطيك بقدر ما تعطيها، وتأخذ منك روحك عندما تستهين بها.

مد يده إلى شعرها. رفعت عينيها من جديد نحوه. بانت هشاشتها. شعرت بالدمعة تتكسر في البؤبؤين.

- أشعر بتفاهتي. تخيّل درجة خِسَّتي؟ كنت أريد أن أسرقك، وكأن الله قادني نحوك فقط لتعيد لي ما سرقه الآخرون مني.

انحنت برأسها على ساعده الأيسر. شعرت بسكينة كبيرة افتقدتها زمنا طويلا، فهي من أرض إلى أرض بلا راحة ولا استقرار، بحثا عن حياة معلقة على منقار عفريت. لا تعرف متى تتوقف ومتى ينتهي هذا النبض الذي يسكنها بطعمه القاسي والمرّ. لأول مرة، منذ زمن بعيد، ربما كان سن المراهقة، تشعر بنفسها امرأة جميلة ومشتهاة أيضا. امرأة سعيدة بأن تكون أنثى، مسكونة بحس الغواية. بشير حَسّسَها أنها ببساطتها يمكن أن تكون استثناء. رشيقة، بشعر أسود غامق كلما انعكست الشمس عليه تخلى عن السواد لصالح الزرقة، وعينين مائلتين يجعلان منها امرأة تتهيأ لخوض حرب قاسية من أجل أنوثتها. وأصابع من النعومة ما يجعلها تتدفق بالحياة كلما عزفت على الربابة.

- أكثر من هذا، بوهمية ومجنونة. قطعت الدنيا، وحرثت الأرض مع عائلتي. جئنا من جبال بلنسيا، في الحملات الحربية القديمة التي لا أعرفها، لكن يقال إن جدي كان واحدا من البرابرة الذين ماتوا على

أطراف البحر. يقال؟ ولا أهتم كثيرا، إن كان هذا صحيحا أم غير صحيح.

- فينا شيء يجمعنا اللحظة بنداءاته الخفية: الحب. الناس يا روحي لا يلتقون هكذا بمجرد نزوات هاربة؟ وإلا ما الذي منعك من سرقتي وأنت السيدة التي تعيش بذلك وعلى ذلك مع زوجها الذي لم يعرف ما معنى العمل في حياته.

نظر إليها طويلا وهي تمشي، تتهادى أحيانا بجانبه كريشة في مهب الريح. تمنى أن يأخذها بين يديه. أن يقبّلها طويلا من دون أن يسألها أبدا، لتستعيد شوقا دفينا، ويغيب معها داخل هذا البحر حتى الموت. هذا الألق الأندلسي الصاعد من جسدها كان يفتح أمامه كل أبوب الأمواج المغلقة على أسرارها. يأتيه رذاذ تمزق الموج فيزيد اشتهاء لها ولكل ما كان يحيط بها وبطفولتها التي اندفعت نحوه بقوة. تلتصق خصلات شعرها التي تحلق في الفضاءات، على وجهها، وتلتصق بشفتيها المبللتين بهذا الجو الخرافي الذي يخترق كل الصمت الذي كان يصحب لحظتهما. ماريانا كانت تجمع استحالات ضافية في جسدها مخترقة مقاييس المدينة في الجمال: عينان، لا يرى دفؤهما إلا خلف الشراسة الظاهرة. أنف حاد يعطي الانطباع دائما بأنها تتهيأ لرد فعل عنيف من الحياة ومن الناس. يدان لا تتوقفان عن التلويح وكأن الحب جنون أيادي وأصابع أيضا. أسنان بيضاء عاجية، في استقامة لا تشبه مطلقا أسنان الغجر التي يأكلها السوس بسرعة بسبب الأكل الفوضوي والحلويات. جميلة كانت، ورائعة على طريقتها. في جسدها شيء من عود النوار، واللوز المر وقشور الرمان والصدف البحري، وشيء من الياسمين الذي يملأ حدائق ألَميريا. رائحة ماريانا هي ذلك المزيج مجتمعا، الذي يصعب لمسه. كانت حارة مثل الشوق والحنين، وناعمة كلحظة أنين. في خزرتها الحادة شيء من نظرة الذئاب كما يقول سكان ألَميريا في أمثالهم الشعبية. قال لها وهو يشبك أصابعه بأصابعها في غفلة من عسس حواف البحر وزوجها.

- احْك وقولي لي ما في قلبك؟
- أتريد أن تعرف الباخية؟
- إذا كان ذلك يريحك؟
- إيه . . . laguna, eme bihotsarena

تمنَّتْ لو كانت الربابة معها، لجلسا عند حافة الصخرة ولأنشدت كل ما كان في قلبها، لكن الشمس كانت تخدعهما كلما تدحرجا قليلا على حافة الموج. عندما رأتها تنسحب من وراء الجبال، وقمم الكنائس وبقايا المساجد، نظرت إلى بشير إلمورّو نظرة مخطوفة، ثم قالت: الخنزير ينتظرني، قال لي أحتاج إلى الكثير من الدراهم. اذهبي وأقحبي مع من تشائين، المهمّ أن تعودي بجيب ممتلئ. قلت له سأصطاد سائحا عابرا، أو رجلا بلا هوية، يبحث فقط عن امرأة، أو حتى عن رجل دين يدفع عينيه مقابل أن يلمس نهدين في قمة انتشائهما، ويدفع عمره إذا أراد أن يُقبِّل ويُضَاجِع. أنوّمه تحتي، وأخرج مرارته، وأفرغ جيبه قبل أن أسلمه فاقد العذرية إلى كنيسته.

قبَّلته ثم غابت وراء عاصفة الأوراق الخريفية التي كانت تتهيأ وهما يقطعان مسافة طويلة بين الشاطئ وكومة الصخور القريبة من جهة فندقه.

- أرجوك سأعود إلى مقهى البحر، إنهم ينتظرونني.

فكر أن يسحب من جيبه بعض النقود التي كان يحملها، على الأقل، لكي تستطيع تبرير موقفها أمام الآخرين. قرأتْ ما كان يدور في قلبه وعينيه، حتى قبل أن يتكلم.

- لا تهتم يا قلبي. لا تفكر فيهم. لقد سكروا، ويمكن سحبتهم من أنوفهم بسهولة. عند الضرورة سأقول له إن الحصاد كان ضعيفا. إلى الجحيم إذا لم يقتنع.

لم يتحمل عودتها. أراد أن يتبعها لكنه خاف عليها من الأفواه القذرة كما تسميهم. لم يركض وراءها. لم يصرّ بشير إلمورّو على الذهاب معها ولو أن قلبه لم يكن مطمئنا. في أعماقه تفهم وضعها، فهي تعرف زوجها أحسن منه. لا يمكنه أن يطلب من بوهمية أن تعطيه أكثر مما أعطته.

عندما دخل إلى فندقه المتواضع، كان من الصعب عليه نسيانها. استحضرها بكل تفاصيلها. لأول مرة يدرك هذه اللمعة في أعماقه التي يسميها حبا، ويسميها آخرون: لحظة الضعف. افترض كل الاحتمالات، حتى عدم رؤيتها ثانية. في اليوم الموالي عاد إلى غرناطة محملا بحنينها وبحكاياتها الغريبة التي لا تشبه حكايات الغجر في شيء.

استغرب صورتها، المنفلتة في ذاكرته. لأول مرة أيضا يتذكر كائنا بتلك الطريقة، بشكل مجزأ. وجد صعوبة كبيرة في تجميعها. كانت حاضرة فيه بعينيها أحيانا. في أحيان أخرى بشفتيها. ثالثة كانت تسكنه بخزرتها الحادة كلما حكت عن الخنزير الذي كان يبتزّها. بصدرها النافر مثل قرني ثور هائج في كوريدا إحدى مدن الشمال. حكاياتها التي لا تنتهي عن زوجها الذي حملت سكينا وكادت تفتح بطنه المنتفخ. في اللحظة الأخيرة اعترض الضربة بيده، فارتشقت السكين في ذراعه الأيمن، حتى شعرت بها تمس العظم. كاد يقتلها ليلتها لولا تدخل أحد أصدقائه، ولكنه تأكد أنها كانت قادرة على كل شيء، ولهذا يتركها وشأنها كلما رآها منفعلة. وردة الكاسي التي كانت تضعها دائما منذ أن عرفها، إما في صدرها، بين شقي نهديها البارزين حتى النصف، والمكتنزين، أو بين شفتيها عندما تلعب لعبة الغواية. أو تدفنها داخل شعرها الذي يزرورق كلما اخترقته أشعة شمس منتصف النهار. وجسد ممتلئ كسنبلة قمح. سلسلة من الصور الممزقة.

فجأة أعاده السجان إلى وضعه الذي كان فيه.

- واش يا الغزال؟ وين راكْ هَايم؟

سخر منه وهو يُلبسه لباس السجناء المرقّط.

- جاء عليك مليح. بصحتك. دير روحك مهبول، تشبع كسور. أمْش.

- في هذه لم تخطئ. أنا مجنون حقيقة. كان يفترض أن أموت هناك، فجئت لأُقتَل على أرض أجدادي البرابرة. دنيا غريبة والله.

- لا تَخفْ، كلها أيام وتصبح عاقلا يا السّي بشير الذي يرفض

محادثة سيده: الحاكم بأمره. تنقصك بعض المهارة التي تطيل في عمرك. أنت لا تعرف مصلحتك. أطلب غفرانه، فهو الرحيم الأرحم، ماذا ستخسر؟ سترى الخيرات التي تنزل على رأسك. في آرابيا الدنيا هكذا يا حبيبي وعليك أن تتأقلم معها.

ثم دُفِع به في أعماق الصندوق المعدني مع الكثيرين لينزل بهم نحو الأعماق، كعمال المناجم، تحت حراسة مشددة. باتجاه الحفرة الموجودة في أعماق الأرض التي يُدفن فيها الناس أحياء. قال له السجّان: أغمض عينيك يا الدرويش، واقبض في الحديد حتى تتحمل الهزات العنيفة. ووضع على عينيه قطعة قماش سوداء. عندما وصلوا تم فصله عن البقية، وقالوا له: وأمش بدون الْتِفَات لا إلى اليمين، ولا إلى الشمال، ولا حتى إلى الأمام، ولا الوراء. أمش ولا تسأل لا أين أنت، ولا إلى أين يقودك قدرك ونجمك. بعد أكثر من ساعة مشيا أو تزحلقا، حتى تأكد أنه وصل. بعدها نزعوا الغطاء من عينيه. قالوا له افتح الآن. حين فتحهما، كأن شيئا لم يحدث، لأن الظلمة كانت قاسية. بعد لحظات بدأت أشعة قليلة تتسرب من مكان ما دخل السرداب. كانت تزرع بعض الضوء في المحيط القاتم. لم يكن هناك أي واحد من العسس ما عدا السجان الذي طلب منه فتح عينيه ثم انسحب. في لحظة من اللحظات المكسورة، شعر كأنه لم يعش يوما واحدا في آرابيا. ولا لحظة واحدة، وأن كل ما حدث له كان مجرد كابوس ما يزال مستمرا ولم يتوقف أبدا. لقد عاش كل شيء بذاكرة مفقودة هاربة باتجاه بحر لم يكن له، كلما حاول أن يسترجع بعض تفاصيله، زادت ظلمته عتمة. بما بقيَ حيّا من حواسه، اختار زاويته في الحفرة، كحيوان أعمى. سكّان جملكية آرابيا وحكامها، ورثوا المدينة بسراديبها، ولهذا عندما اصطدم بالأنفاق وبرائحة رطوبتها وعفنها، شعر كأن شيئا لم يتغير في هذه البلاد. سمع بعدها صرير الحديد والآلات التي كانت تصعد وتنزل برتابة مقلقة. تورث أصواتها طنينا دائما في الأذنين. أدرك نهائيا أنه كان مدفونا تحت آلاف الأطنان من الأتربة والأحجار البركانية الثقيلة.

الذاكرة هي الأخرى أصبحت شبه شبه معطلة مثل البصر. لا يتذكر الشيء الكثير، سوى قصف حاكم جملكية آرابيا للقلعة، وكيف أباد أناسا كثيرين ممن حضروا جنازة العلماء الوهمية، وأعدم عالم الذرة الشاب استجابة لأصدقائه الشماليين الذين رهنوا تطبيع العلاقة مع إسرائيل بهذا الثمن الذي لم يره باهظا كثيرا لأنه مقابل هذه الخطوة سيستفيد من التكنولوجيا التي طورتها إسرائيل مع الأمريكان في ميدان البحث عن مصادر المياه. هذه المادة الحيوية هي القنبلة الموقوتة التي عندما تنفجر، ستأكل الأخضر واليابس.

تسربت إلى أنفه الروائح الكريهة التي كانت تملأ المكان. سمع أصوات الحشرات والجرذان وهي تتقاتل على ضحية محتملة. حاول أن يرتاح قليلا ويغرق في عمق الحكاية، لكن الروائح الكريهة أورثت دماغه حالة من الغثيان والتعب. بدأت الأصوات المتداخلة التي كانت في حالة غليان في رأسه تتكشف شيئا فشيئا، حتى صفا صوت البحر ولم يعد يسمعه إلا هو. هذه المرة لم يحدث له ما حدث لجده البربري. لم يعد البحر لا أمامه، ولا وراءه، ولكنه كان فيه. تذكر الزمن الذي مضى، عندما حشره حاكم البلاد، سيد الدين والدنيا أو الباب العالي كما كانوا يسمونه، ووضعه داخل الأنفاق، ولو لا صدفة الهجمة الإسبانية على أسوار المدينة البحرية لكان طعما للجرذان بسبب كذبة لم يقدر عواقبها، وأنه على علم بأسرار الإسبان وخريطة الكنز المدفون في جزيرة الياقوت. لا شيء تغير. ما تزال الأنفاق هي نفسها، تُستعمل لخنق الأصوات الحية، وخنق حشرجة المتعبين، وإبادة حنين المفقودين والعائدين من الأسفار البعيدة. تساءل بألم وخيبة لم يستطع لجمها: هل يُعقل أن نرمي الذاكرة المتقدة أو نطفئها، ونفكر بعقول مستعارة لم ترث من تاريخها إلا الخيبة؟ ما زلنا بعد كل هذا الزمن في العراء المفتوح على فراغ مهول. ظهورنا للنار، وصدورنا لبحر هائج، ملٌّ من ترقيع جروحنا بأملاحه. كانت الحياة قد خسرت ألقها في عينيه، والحرب قضت على ما تبقىّ. في كل زاوية ما من جسده جرح لو يفتح فمه سيقول ما تكل

عنه الألسن. كان منهكا، فلم يفكّر في أية لحظة اللحظات في الهرب. فكر فقط، كيف سيكون داخل الخراب الذي وُضع فيه. وهل عاد من مغارة لينتهي داخل حفرة؟ هذا يعني أن كل حسابات العلماء كانت مخطئة من أساسها، وأنه لم يكن مهديهم المنتظر الذي وضعوا كل شيء على ظهره. كيف سيواجه الموت؟ أهو موت الجبن، أم موت الكبرياء؟ لم يواجهوه بأية تهمة واضحة، سوى أنهم عزلوه عن الجميع ووضعوه هنا، في صلب العتمة، التي تزداد أكثر كلما غادر المرء المكان الذي يقف فيه. لا تهمة واضحة. كل شيء حدث بسرعة. كان على الساحل مع ماريوشا، في بار الحافة، في قلب المارينا. حتى الحرب لم يقترب منها. شعر أنه فقَد كل ملامحه داخل الجحيم الذي زُجَّ فيه. هل بدأ التآكل؟ تمنى فقط أن لا يضيع رماده، وأن يوضع بجانب رماد سيدنا النينوي الذي صلب وهو يصرخ أن لا أحد يقتل الروح القدس. لا أحد يلمس وجه الله بسوء. لا أحد يقتلني. لم يقتلوه، ولكن شُبِّه لهم ليلتها. هذا ما أكّده العلماء لاحقا بيقين وثبات. حتى الصلبان المعدنية لم تكن كافية لإبادته ومحوه من عيون الناس. هو الآن ينام في أحد البوقالات البيضاء المليئة برماد الأخيار الذين لا ينتهون. الرماد لم تبعثره الرياح في الفراغات الواسعة. ثم وضع يده لا شعوريا على قلبه. أقنع نفسه بأنه لو يعود التاريخ ألف مرة إلى الوراء، فهو لن يعود أبدا حتى ولو شاء الناس، فلن يكون إلا بشير إلموزّو المليء بالحنين، والمتحرق إلى الحقيقة التي عاد من أجل استعادتها، أو خسران نفسه ثانية. وأنه سيروي عن كل القوالين الذين شاهدوا الحقيقة ولم تتح لهم فرصة قولها. وسيقول نفس فصول الحكايات المنسية. وأنه سيكرر نفس الحماقات، ولن يتوانى أبدا عن الجري على حافة الساحل المهجور بحثا عن ألمه الذي ظل يحمل اسما واحدا ووحيدا: ماريانا.

على مدار أيام عديدة لم يسألوه، ولم يقتربوا منه. كان يعرف أن كل ذلك ليس إلا محاولة يائسة لترويضه. أغمض عينيه ثم نام بهدوء منزويا في ركن داخل بطانية، رائحتها كريهة جدا، هل سيأتي، العلماء؟ هل

ستحولون إلى الملثمين السبعة كما حدث معه في ذلك الزمن البعيد، حين أخرجوه من نفس الحفرة التي لم تتغير كثيرا. نفس الزمن الذي نسي أنه يجب أن يكون قد انتهى منذ فترة بعيدة، الفارق الوحيد هو أنه لا يتذكر هل أنقذه القرصان حقيقة، أم اشتراه رجل من الأطفال، أم الرجل البدين الذي قبض ثمن رأسه سلفا؟ حتى الأطفال الذين جاءتهم الفكرة الجهنمية باللعب بجثته، ورميها من أعلى قمة، والتسابق معها في الفراغ العالية، لا يتذكرها أبدا ويشعر بأنه فُبركتْ للمناسبة. كل ما يعلمه هو أنه لم ير لا المدنية، ولا البحر. ولكنه سمع أشياء كثيرة، وتخيَّل مالا حصر له من الإمكانات المجنونة للحياة. تخيل أحاديث الناس، أشواقهم عاداتهم، صورة البحر وهو يزمجر فوق رؤوسهم، السفن وهي تقاوم تكسر الأمواج على ألواحها القديمة، ملامح الناس التي تغيرت كثيرا باتجاه التشوه. حتى المدافع التي لم يكن يسمع إلا طنينها، لم يرها أبدا. عواء الذئاب الذي كان يأتي من بعيد، من الغابات التي تحوّط المدينة بخضرتها، لم يكن له أي معنى أمام زرقة البحر وارتطام موج كان يؤكد له، كلما أصابه اليأس وعمّ عينيه السواد، أن الحياة ما تزال مستمرة.

يقول بشير إلمورّو في حفرته المعتمة التي بدأ فيها نور حاد يتسرب من كوة صغيرة انفتحت فجأة في الأعلى، أقرأ الآن كتب التاريخ المطرزة بماء الذهب التي وفّروها لي بكرم وسخاء. تلحّ كلها على أن أسطولنا العظيم أرْعَب أوروبا في مياه المتوسط. أضحكُ في أعماقي. أية مياه؟ أي أسطول؟ قراصنة سلبوا البلاد والعباد، وعادوا بها إلى التاريخ البدائي المريض، قبل أن يتخلُّوا عن كل شيء ويعودوا إلى بيوتهم وأشجارهم وبحارهم. سيد الدين الدنيا وأمير البحار والقفر، لم يكن حتى سيد نفسه. علينا أن نعيد لفنّ لقوال مجده. الحقيقة لا تُردم ولا تموت. تؤجل؟ تُخفى؟ تمُوّه؟ لكنها تظل قائمة. المآذن التي ترتفع عاليا، ذ بحثا عن سماء كلما اقتربت منها زادت بعدا. صورة غرناطة تعود. مآذن اشبيليا التي سرقوا أفراحها وأبادوا عقولها. مآذن قرطبة العالية، العالية التي ترتفع من وراء البيوت والأزقة الواطئة، باعوا قاضيها وأبادوا

فارسها، وأخرجوه من أسوار المدينة. لم يطلب ابن رشد شيئا سوى تحديد طريق الدنيا الذي أصبح ممزقا إلى آلاف الطرق التي لا تؤدي إلا إلى الفراغ. قال أفصلوا وسيروا. دعوا الجحيم للجحيم. الدين دين، والدنيا دنيا. لم يخلط القلب بالعقل. انفتحت العيون عن آخرها في وجهه. قالوا له أخرج قبل أن تخرج عمرك. حملوه ورموه خارج الأسوار. هي ذي الدنيا نفسها تعود إلى عكازها القديم، تريد أن تعطي معنى لنفسها، ولكن لا شيء يسعفها. ضع رأسك بين يديك وأصرخ، وأصرخ حتى تُهد الجبال، حتى تُخرج الأرض أثقالها، وحين يقول الإنسان مالها، لا تلتفت نحوه، وإذا أصرّ، أردم فمه بالأتربة. زمِّه. قلها له علانية: تسألني الآن؟ تسألني مالها وهي تتحرك من تحتك يوميا آلاف المرات؟ إلى الجحيم... إلى الجحيم. قل له إني أرى سوادا، ينشأ من خراب، هو بدوره نشأ من عاصفة وخراب. قل له إني أرى بشرا مكممين بالخوف والأشلاء، ونساء مضمدات داخل لفائف الأموات، يعلنون العودة الميمونة إلى العصر البدائي الأول، ويبحثون عن تأويل لموتهم داخل الحروف التي فقدت سحرها. أرى الأرض أصبحت سماء، والسماء صارت أرضا، وما بينهما صار ظلاما ثقيلا وفقرا يشبه الخلاء. أرى ما لا يراه الآخرون. كل الفصول تتشابه. كل الفصول تصفر فيها الأوراق وتسقط. كل الفصول يموت فيها الأطفال قبل الأوان. كل الفصول ينشأ فيها الحزن ويحفر القلوب، وتتفصد الجراح. هذا الخريف يسحب وراءه حنيني وشوقي الذي يسكن قلبي. هو أنت يا ابن هذه البلاد وتلك، هل رماك البحر في قفر الحرف من دون أن تدري، وفجأة توهمتَ أنك عشتَ حياة سابقة عن زمنك؟ هل جئتَ من القفر، أم من غفوة الساحل الروماني المهجور، أم من تكسر موجة اندحرت عند صخور الشط؟ هل هي لعنتها تتبعك، أم لعنة المدينة التي باعها محمد الصغير لجيوش القشتاليين والأراغونيين؟ التاريخ يا أبا عبد الله محمد الصغير ليس فقط عند كتاب الدواوين، ولكن في حلوق الناس، وفي العيدان اليابسة التي عندما تحتقرها تعميك، وفي الجرح المفتوح أبدا،

تجففه أملاح البحر، ثم تفتحه من جديد نيران الحروب الحقيقة والمفتعلة. التاريخ يا سيدي الحاكم بأمره، ليس آرابيا كما صنعتها وفبركتها، هو بالضبط ما تحاول بيأس أن تتفاداه ويتبعك. هو الخريف الذي يأتي محملا بالرغبات المجنونة لإحياء الأحزان الدفينة، يمر هذه المرة ثقيلا كالرصاص. سيُفكّر العلماء طويلا قبل أن يضعوا رمادي في بوقالات القلعة وقبل أن يكتبوا عليها بخط بسيط: هنا ينام فْوال غرناطة الذي نسي كل شيء إلا ذاكرته المجنونة التي لم تصدّقها إلا الأقلية القليلة.

والإغفاء تهزه، والصحوة تنسحب عن عينيه، تأتيه ماريوشا محملة بالأسئلة العالقة. يهرب نحو وجهها وعينيها في لحظة مسروقة عن رقابة الحارس ذي الوجه المظلم، ثم يغرق بين موجتين هاربتين. يراها تقف أمامه باستقامة كما فعلت في ذلك اليوم على حافة الشطّ المهجور. لا يعلم لماذا كلما داهمه حنين المدن البعيدة وأشواقها، اخترقت هي المكان، ووقفت في الوسط كشعاع نور يحمل آلاف الألوان والتدرّجات. عندما رآها، في ذلك الزمن الذي لم يعد بإمكانه أن يحدّده، شعر كأنه يعرفها منذ أكثر من قرون عديدة. متعود على ملامحها وتقاطيع وجهها التي تتجدد كلما التقى بها. وردتها الحمراء التي تضعها في نفس المكان الذي كانت تتشهاه ماريانا: بين فجوة النهدين، على الشفتين، أو تغيّبها، بدفعة ناعمة داخل شعرها. حين رآها للمرة الأولى في حرائق المدينة، كانت الأحزان تتكسر داخل عينيها الواسعتين. كانت تنظر إلى صليب المحرقة وهو يحمر، والشيخ النينوي يتحول إلى رماد. لم تقل شيئا، لكن دمعها كان ينزل بغزارة، ملونا ألبستها البيضاء الناصعة بخطوط حمراء. لم يدر وقتها هل ما كان يراه كان حقيقة أم مجرد إرباكات سببها قلة النوم والتعب المتكرر، كما سمع ذلك فيما بعد، إذ شكك بعضهم في عودته من بعيد وعلاقته بغرناطة. وجه ماريوشا لا يغادره وهي تحمل رماد سيدنا النينوي وتضعه في البوقال الزجاجي، ممزوجا بالصنوبر المحروق، قبل مجيء العلماء. أراد وقتها أن يسألها،

ولكن الأمر بدا له محزنا فرأف لحالها و لحاله. حتى الراعي، لم يكن من الممكن أن يعطيه إجابة تتجاوز حدود القلعة. كانت صورتها واضحة في ذاكرته. مثلما التقى بها في المرة الأخيرة، قبل أن يسحبوه من الخمارة. استرجع كل اللحظات الهاربة في الأنفاق. كانت الذاكرة وسيلته الوحيدة للهرب من قلق كان يأكله كل يوم قليلا. لم يكن خائفا ولكنه في لحظة من اللحظات، شعر بأن محمد الصغير، عاد إلى المدينة حاملا لسانه بين يديه، ويقسم بأعلى صوته بأنه سيبيع المدينة والخلائق، لأنهم أبناء كلب، يصفقون لك في قوتك ويبيعونك لأول القادمين الأقوياء؟ **رفعوني في القصر على رؤوسهم، ولكن عندما دخلت القشتالية الكبيرة إلى البلاد، نسوني، وظلوا يؤلفون الكتب عن كرمها وشهامتها. نسوا كل الخير اللي درت فيهم.** محمد الصغير كان يزحف داخل الشوارع، ولهذا كان على بشير إلمورّو أن يتفاداه، لأن بينهما دينا لا يمحوه إلا الدم. حتى عندما نظر إلى البحر طويلا؛لم يتلقّ من الأمواج المتكسرة إلا الأجوبة الحزينة.

عندما فاجأته ماريوشا وهو جالس، يواجه الحائط المتآكل، بعد أن غادرت الاجتماع بسرعة، حتى قبل نهايته، لم يصدق نفسه، في البداية وضعت يديها على عينيه، ثم قالت قلْ من أكون بدون أن تلتفت؟ هل عرفتني؟ ماريوشا قالها بلا تردد. قالت: برافو. عرفتَها، أتعس طالبة في العلوم السياسية. قالت بابتسامة مثقلة بالأنوار والألوان. تأملها جيدا كمن يريد أن يحفظ كل تفاصيلها. نفس الوجه، نفس القسمات، نفس الحالات الحزينة، نفس الكآبة نزلت على وجهها عندما بدأت تتكلم عن أستاذها المعارض، الذي عشقها، واكتشفت فيما بعد أنه ليس أكثر من عميل تافه ومخبر صغير لقصر عزيزة، ومستشار للحاكم بأمره، يومها أقسمت أنها لن تعود إلى دروس العلوم السياسية التي لا تعرف إلا فتوحات الجملكية وكرم الحاكم بأمره وأياديه البيضاء التي فرضت الديمقراطية الوطنية، التي لا تشبه أية ديمقراطية في العالم. ديمقراطية نابعة من خصوصيات الوطن، ومن تقاليده العربية الإسلامية.

خاف بشير إلمورّو مرة أخرى من أن تكون ماريوشا مجرد وهم يتكرر من جديد، ثم يصدق بوجوده بعد فترة طويلة عندما يصطدم بجوهر الأشياء. ماريوشا موجودة. امتلأ قلبه بالنور الذي محا الظلمة قليلا، التي كانت تحيط به من كل الزوايا لولا الكوة العلوية الصغيرة التي تنفتح وتنغلق وفق نظام إلكتروني سنته إدارة السجن. غمرته ابتسامه لم يستطع لجمها. كان يسترجع كل تفاصيلها وهي تبهدل عمي الطاووس ابن أمه، الوزير المخلوع، بأقسى الكلام. مسحت به الأرض. ولم يجرأ على كلمة واحدة. عمي الطاووس يرد من حين لآخر على المجذوب ولكنه أمامها لا يجد كلماته بسهولة. يعرف أن لسانها طويل، ولكنه كان يدرك كذلك أنها تركت مقاعد الجامعة وهي في السنة الأخيرة. كانت أكثر جنونا وبوهمية من سيدي عبد الرحمن المجذوب نفسه. يتذكر أنها عندما همدت قليلا والتفتت نحوه تستجديه بعينيها أن يواصل، أن يستعيد رحلته المقهورة التي ظلت زمنا طويلا معلقة في حلق المجذوب الذي جفّ:

«- إني أتناهي و أفنى يا شيخي في مسمع الذين سقطوا ولم تتح لهم فرصة الشهادة. م. ح. ف. ل. ع. هي حروف القلب والجنة، مسطرة في كتاب العاشقين والكتب الصفراء النادرة. وإذ تأتيك على حين غفلة في سهوة من سهواتك، يتسع قلبك وتقوم الملائكة من أمكنتها حاملة سجاد الأنبياء، تبحث عن نبضك الضائع وسط المذابح المتكررة، تدفن في قلبك كلماتها المعصومة من النار ثم تعود إلى أمكنتها الأولى، كلمات مصففة ومرصوصة، مثل أرواح المقتولين الشهداء. تأتيك واحدة، واحدة تبحث في عينيك عن السر المكنون. إذ تسألك الملائكة، فلا تقل أنك تعرف. لا تدَّعِ المعرفة حتى في عرفانك، قل هي في علم الغيب. قلْ لست بعارفٍ. المعارف أخت المهالك. وإذا يقول المجانين والمنتظرون سرّك، يا شيخنا أفصح؟ قل حديث القلب يبدأ بالميم (م) وينتهي بالعين (ع) وما بينهما حروف الوهج المكين. وإن أصروا، يا شيخنا أفصح قليلا ليعرفوا قلبك؟ قل ما لم تقله في الأول. قل تلك حكاية أخرى سيأتي من يفتح سرها ويدفنها إلى الأبد داخل دمعة

في العين. هي العين المائلة مثل آلام الأنبياء التي سحبتك من غرناطة حتى هذا المكان، حتى هذه الأسواق التي لا ينتهي ضجيجها وشوقها. وإن سألوك مرة سابعة وهمسوا في أذنيك: يا شيخنا صمتك يذيب الحجر الصوان والبراكين، فقل إنها هي، الحروف التي لا تموت، تأتي صافية مثل الماء الزلال، تنزل مع الحلق بهدوء، ناشبة حرقتها في الذاكرة والقلب المطعون. هي الشعلة الزرقاء المقدسة التي تسبق الانطفاء أو الحريق المهول بقليل. قلْ إن في كشف سرها زوال زمن وإشراق صعب. الله لم يأتِ بسر حروفه، فاتركها كذلك.»

ثم تذكر ماريوشا في أدق تفاصيلها وهي تقوده من يده وتشرح له سر الموج في المدينة وخديعة الرياح. حكت له تفصيلا حادا من حياتها لكي لا ينخدع فيها: لا تنخدع عمري في هذا الوجه الذي تحوله المساحيق الصباحية مشرقا. حتى والدي ملّ من هبلي. يبدو أنني خُلقت خارج النظام. والدي طردني من البيت بعنف. قال لي عليك أن ترددي علي كل مساء خطب الحكيم مصحوبة بآية قرآنية، فهو الصراط المستقيم. بذهابه تموت الأمة وتذهب ريحها. قبل هذا طلب مني أن أدفن نفسي داخل رداء أبيض ولا أظهر مفاتني إلا لبعلي. مرة قلت له عندما هبَّلني بملاحظاته: يا أبي، لقد حفظت الدرس جيدا. لا أُظهر مفاتني إلا لبغلي. إلا لبغلي يا والدي العزيز. قفز من مكانه بجانب الصينية حيث كان يشرب شايا منعنعا، وصرخ بأعلى صوته: لبعلي يا حمارة وليس لبغلي. خرجتُ. رجوته أن يعفيني من هذه الأثقال التي لا تعني أي شيء أخلاقيا. قلت له أعرف الكثير من صديقاتي يبتن مع عشاقهن، ويمارسن الجنس بحرية، وفي الصباح يتحولن إلى قهرمانات صالحات بخِمارات لا ترى من ورائها إلا النفاق الجميل. قلت له حرام عليك تقتلني في هذا العمر إذ تضعني خلف سياج لم يُصنع لي؟ قال إنها تعاليم الحكيم. والإسلام يؤكدها. قلتُ الآية نزلت في نساء الرسول وأنا امرأة نفسي. **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ**

يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٥٧] أصرَّ وكأني لم أقل له شيئا. وكان إصراري أكبر. حاولت الانتحار ثلاث مرات. في الرابعة قبض عليَّ من يدي، ونظر إلى وجهي كالكلب المسعور، ثم صرخ مثل المجنون: اغربي عن وجهي، ما نحبش نشوفك مرة أخرى. إلى الجحيم. لا أريد أن أثقل آخرتي بذنوب انتحارك. لو صادفتك في أي مسلك بدءا من اليوم، سأقتلك. قلت له لست في حاجة إلى خراب يقتلني كل يوم قليلا، ونزلت إلى المدينة. تارة أبيت عند أختي الكبيرة، وأحيانا في الحي الجامعي حيث سكنت مع صديقة لي، وفي أغلب الأوقات في الحديقة عندما صادقت خويا المجذوب الذي غادر مخبأه ليتركه لي، وهو عبارة عن شباك حديدي يوضع للأسود قبل ترويضها، وسكن في مخبأ الكنغر الأسترالي الذي مات ولم يتحمل جو البلاد. وبعدها صار العلماء يستقبلونني بعدما زكاني سيدي عبد الرحمن المجذوب. بل أصبحت جزءا من العائلة الكبيرة، عائلة القلعة، أساعد في الكتابة والتنظيم.

وجهها النوراني هو الذي بدد عتمة المكان، وقلل من وحشة السراديب. قال في أعماقه، وهو يعدّ الأيام التي قضاها في نفس المكان، بعد أن تقلص الزمن نفسه وأصبح يوما واحدا، مظلما لا ينتهي: إني أرى الآن كل المدن في عينيك يا ماريوشا. سأخرج ما في قلبي، وأضعه بين يديك. نفس الموجة التي قادتني من البلاد البعيدة، تقودك الآن إليّ. مياه ألميريا اختلطت بمياه آرابيا، وجنون ماريانا انتقل

---

(٥٧) سورة النور، ٣٠-٣١.

إلى قلب ماريوشا. حتى عندما تتحسس جبهته وتجد أن الحرارة تحرق جسده، سيقول لها قبل أن تبدي أية ملاحظة: ليس سوى الموت الذي يثلج الجسد، دعيني أهذي، فأنت الوحيدة التي تعرف سحر الكلمات وروعة الخرافة. اسمعيني الآن. بعد زمن قصير سأتبدد وأصبح أتربة وغبارا تبعثره الرياح في فضاء الدنيا. اسمعي. في قلبي بحر لا يحد ولا يوقف. الشعلة تصعد من دروب المدينة الفتية، ثم تندلع في وسط البحر. سيقول الناس تلك علامة القيامة؟ أخطأوا ولو صدقوا. قولي لهم تلك علامة الحماقة الكبرى التي جاءت بالحاكم بأمره من حرملك القهرمانات اللواتي ظللن يتسلّين به بين أفخاذهن الملحمة التي يغري دورانها وملامستها بلحظة انزلاق بينها. ستحسين بي وستلامسينني بشفتيك. ستوقظين مدافني وحرائقي الميتة. ستعبرين مسالكي وستقولين لي: احْكِ حبيبي. أحك أيها الجرح النازف من العصر الممتد من الوريد إلى الوريد. احْكِ ولا تتوقف. احْكِ عن حرف التوهج الذي يوقظ لحظة الابتهاج. احْكِ الأبجدية كلها، التي تقولها وتقولك.

عندما سرقوا منه فرحة البار، كان مذهولا، غارقا في عيني ماريوشا، يقرأ أزمنة آتية في مواكب النار والحرائق في الساحات العامة. كان كل شيء يتحول إلى رماد، ويعيد ترقيع جرحه بنفسه. تمتم وقتها والأيادي تمتد لتسرقه منها أو تسرقها منه: م. هـ. ح. ف. ل. ع. ها أنا أرفع يدي في هذه الظلمة وأشهد أن الحرف كان دائي ودوائي، وأنك كنتِ حياة القلب، قبل أن يتصلب ويموت. بدون ألم لا معنى للحكاية. بدون حكاية ينتفي تعبير الحياة كلها.

وعندما زارته لأول مرة، كان ما يزال غارقا في حيرتها. كيف تحب امرأة جميلة، رجلا تخطى حدود اليقين ليصبح فكرة، وكيف يحب هو امرأة لا يعرف إن كانت حقيقة أم مجرد عطر كانت ماريانا تضعه بين نهديها قبل أن يأخذها غياب اللذة وجنونها؟ وضع يدها على قلبه كما تعود أن يفعل مع ماريانا كلما طال غيابها وتمتم في أذنها اليسرى الأكثر قربا إلى القلب:

- بدونك لا معنى لهذا السرداب الذي بني على الظلمة وتغييب زرقة البحر.

قالت ماريوشا وهي تحاول أن تتخطى حاجز الرعشة الأولى وتدفن رأسها في صدره تاركة شعرها المعطّر بالحناء والمسك يغطي جزءا من وجهه:

- حبيبي.

- يا عمر التائه وروحه.

- سيدي ومولاي. قلبي معك. لن تكون وحدك مع سرّك. الذين يملكون الحب كثُر، والذين يشتهون سرّك لا يُحصون. العلماء يعرفون كل الأسرار المتخفية، ما ظهر منها وما خَفِي. لستُ هنا إلا لأبلغك شوق العلماء، وحنيني المجنون إلى قلبك ولأقول لك، غيابك يتَّمني وضيَّعني. البلاد خالية بدونك ومفجعة في وحدتها. أجلك ما يزال بعيدا. عمرك لا يحده زمن. لقد أمضى العلماء عمرهم ينتظرون عودتك، ولن يسلّموا فيك بسهولة. الحاكم بأمره سجنك وهو لا يعرف قيمتك. وعندما عرفها زاد يقينه بأنك علامة. كان يريد أن يختبر سرك لكن صمتك ضيَّعه. لن يفعل أكثر من سجنك لأنّك غيَّرت موازين البلاد. لن يقتلك لا حبا فيك، ولكنه أجرك بأنَّ حاجته إليك كبيرة. بدأ ينتابه خوف أزرق من المد الشعبي الذي يحتلّ الشوارع والساحات العامة. أنت تعرف يا سيدي، وهم يعرفون أيضا، وقصر عزيزة يعلم والحاكم بأمره يدرك، أنه لا خيار لهم سوى الحفاظ على حياتك. لقد وصلته كل المعلومات المتعلقة بك. لم يصله في النهاية إلا ما أراد العلماء وعمال البحر تسريبه له. ارتح قليلا من أنين المدينة ومدافعها وشططها.

- أشتهي أن أكون هناك لأوقف التّيه الذي يملأني، لأرى عمران الوهم يهوي كالبنايات الزجاجية المجوّفة من داخلها. لأضع يدي على الحواف والحدود السرية للأشياء وأقول: باسطا. انتهى كل شيء في اللحظة التي كان يجب أن ينتهي فيها.

- ليس مهما يا مولاي. في كل شيء أنت حاضر.

كانت ماريوشا هي الوحيدة التي سُمِح لها بزيارته في سجنه. كان عليه أن يهرب داخل اللغة. يشمّ رائحتها حتى قبل أن تتوغل في قاعة الاستقبال للتفتيش السابع، ثم إلى غرفته الصغيرة. يسمع أنفاسها وهي تتقطع في الأدراج الملتوية التي تصعد وتنزل. الزوار لا حقّ لهم في المصاعد. ثم يسمع صرير الأبواب الثقيلة وهي تُفتح، قبل أن تسكن نهائيا. لا تنتظر أمر الحارس بعد التفتيش السابع ليدلها على المكان، قبل حتى أن ينزع الغطاء من على عينيها، تفعل ذلك وحدها. هي أيضا تراه بحواسها المعلنة والخفية. تركض نحوه بكل قواها. تتلمسه. تتشمّمه كحيوان متوحش. تحاول أن تتأكد من أنه ما يزال كما تركته في المرة الأخيرة. يبدو لها وجهه مليئا بالنور والسحر. تقول بعفوية وهي تتحسس قسماته:

- حبيبي؟ هل أتعبوك؟ هل سرقوا منك شيئا. النّور في عينك لا يموت؟

ثم تنزع ورده الكاسي وتضعها في جيب البيجاما الرمادية التي تخترقها خطوط بيضاء بالطول كلباس السجناء اليهود في محتشدات أُوشويتز[٥٨] الحارقة. يشعر بشير بأنفاسها وهي ترتعش وتتقطع باحثة في عينيه عن مرافئها المنكسرة وحنينها الهارب. يشمّ رائحة القرنفل الاشبيلي التي تملأ جسدها وألبستها التي لم تتخل عن توردها الدائم. تمّحي في رأسه المتعب الحدود بينها وبين ماريانا، ليصبحا نورا واحدا يضيء أعماقه. هل تراني؟ سمع همسها الجميل وهو يتأمل شرودها من فرط السعادة. قالت من جديد، هل تراني يا سيدي وحبيبي؟ ردَّ في شكل همسات متتالية: أراك مثلما يرى شيخي الحزين معبوده. أراك مثلما كان يراني سيدي النينوي وهو يحترق تحت جمر الصنوبر المقدس، ويؤشر إلي بعينيه أن أبتعد، خوفا علي. لم يكن خائفا، ولكني أشهد أني رأيته

(58) Auschwitz.

يصعد إلى السماء في شكل أدخنة معطر بالصنوبر ونباتات المارمان الجبلي وزهر الرمّان. أشهد أني رأيه يضغط على شفتيه قبل أن ينسى أن له جسدا، ويترك نفسه يغرق طويلا في احتفالات النوروز التي كان الوحيد من يراها. ارتسمت دمعات حارة في عيني ماريوشا. ضغطت على كفه بقوة ونعومة لتحسسه أنها كانت في عمقه. سألته: هل رأيتني في ذلك اليوم الذي أصبح بعيدا؟ وكأنه لم يسمعها في همهماته. وقبل أن تعيد السؤال قال: رأيتك مثل الذي يرى نوره في حرائق الخوف. رأيتك إذ رآني سيدي ومولاي النينوي. كنتِ حرفا ملونا في أبجدية الحياة، التي كلما خسرت حرفا، نبتت في مكانه حروف جديدة. رأيتك أكثر مما أراك الآن، في لباسك الأبيض وشالك الأحمر، ووردة الكاسي المنغرسة في صدرك حيث ملتقى النهدين. رأيتك تحت انعكاس شعلة النار على شعرك الذي أصبح كتفاح المجانين والمأخوذين بحب المستحيل. أراك الآن أيضا مثلما يرى الليل نجومه، وألمسك مثلما يلمس سيدي عبد الرحمن المجذوب جنونه، ومثلما كان يفعل شيخي الحلاج، عندما يستعصي عليه وجهه الله. كيف لا أراك وأنا أراني كل يوم؟ قالت: بشير... أنت تُدخلني في دوار لا عهد لي به. ثم انتبهت فجأة إلى أنها لم تستعمل كلمة سيدي؟ أرادت أن تقولها، ولكنها بدت لها ثقيلة وفي غير مكانها. واصلت بصوت يكاد لا يسمع، بعيدا عن الكاميرا الصغيرة الموجهة نحوهما من السقف، وعلى الجهة اليمنى. لم تكن بالمكان الذي مسحته بعينيها أية كاميرا أخرى: لو تعلم يا روحي، قلوبنا لا تنبض إلا بك. من كان سيعرف هذه الدهاليز لولاك. أنت الوحيد الذي بإمكانه الخروج حيًّا من هذا الموت. فيك شيء غامض لا يقدر عليه غيرك.

- هل تعلم؟ لقد جئتك لأجرب نفسي وأتجاوز خوفي. في البداية أصرّوا على عدم دخولي، وعندما عرفوني، تركوني. إنهم يكشفون عن ضعفهم من خلال كل هذه الممارسات. أسكن الآن عند العلماء وعلماء البحر. انتظرت كثيرا عند الباب الخارجي، مع سيدي عبد الرحمن،

الذي ما يزالون يظنون أنه مجنون. عندما أخذوك، عاد إلى ساحات المدينة وإلى حديقة الحيوانات وإلى ثعبانه سلطان زمانه الذي يقول عنه إنه وصل إلى نزعه الأخير. يقول إنه لا يترك الحكاية ليعبث بها الضَّالون، إلا عندما يعود صاحبها. يذهلني أنك رأيتني بالقرب من سيدي النينوي؟ ما تقوله أكثر من صحيح.

- رأيتك ولم أشك لحظة واحدة في عمق جرحك.

- حينما رأيتني يا بشير بجانب سيدي النينوي، وراء النبتة، ثم وأنا أضع الحفنة الأولى من رماده في بوقال العلماء، كانت في عيني دمعات مليئة بالدم والرماد. كان يُفترض أن أجمع أنا كل رماده كما كلّفني العلماء بذلك. حضروا لأنك أصررتَ عليهم. كانوا يعرفون كل شيء.

- كنت أسمع إلى نداءاتي الداخلية فقط.

- شعرت بك ليلتها تملأ قلبي.

- حدث ما كان يجب أن يحدث، ولا يمكن تفاديه بأي حال من الأحوال؟

قال وهو يعبر نعومة شعرها بهدوء بأنامله، وفي قلبه ارتجافه خفيفة لم يدر ما مصدرها.

- حدث ما كان يجب أن يحدث، وذهب سيدي ومولاي النينوي ممتلئ القلب، متيقنا أن لا أحد يستطيع أن يسحب ألق آرابيا من عينيه وعينيك. لا أحد يستطيع أن يلوث ذاكرتك ويفسد صدق ما رأيتِ. حدث ما كان يجب أن يحدث. وكانت النار هي الأقوى وكان سيدي ومولاي هو المنتصر على كل شيء بصبره ورماده. سبحان الله؟ أنت وماريانا، فولة انقسمت على اثنين.

- قالها لي المجذوب وهو غارق يبحث عنك في الحكاية التي ظلت نهايتها تهرب من يديه. كلما رقص في الحلقة، تحت المطر مع ثعبانه ذكرني بهذا الشبه، ثم يغني لي: يا النو يا صبي... ما تصبيش عليَّ... حتى يجي خويا حمو ويغطيني بالزربية... صبي يا النو. ما تصبيش علي... ثم يحرف الأغنية: سيعود خويا الموري الأندلسي

ويغطيني بالحكاية. الحكاية الحقيقية ماشي الحكاية طايوان، فالسو[٥٩] انتاع الوراقين وكتّاب الدواوين. هههههه. يتضاحك الناس الذين يحيطون به. يواصل عمي المجذوب بيقين يُحسد عليه: عندما يعود سيدي الموري وتسمعينه يا ماريوشا لأول مرة، ستظلين سنة بكاملها مشدوهة في عينيه المليئتين بالصدق والوفاء. يومها سأسترد عقلي وأتنازل عن جنوني لغيري. قلت لك من زمان، أنتِ وجه آخر لماريانا التي فجّرت مكامنه الغرناطية.

سمعا معا صوتا حادا كأن بابا أغلقته الريح بقوة. نزلت ظلمة شبه كاملة على المكان. لقد تم سدّ الكوة العلوية الصغيرة التي تفتح ساعة وتغلق ساعة. قالت ماريوشا من جديد بعد أن كسرت الظلمة كل ألق ملامحها، وهي تحاول أن تضع هي أيضا يده على قلبها. كانت حارة ودافئة كفجر ربيعي: حبيبي... هكذا إذن يفرضون عليك الظلمة وقسوة المبهم؟ إنها العتمة التي نزلت من السماء. إنها تزحف لتحتل كل شيء فينا. إني أسمع يا روحي أصوات الجرذان وهي تتقاتل على لحمك وعظمك، وأنت مازلتَ على قيد الحياة. أسمع صوت مزالق المياه وهي تتسرب من كل الزوايا لكي تمنعك من النوم. أسمع صرخات بشر يُعذًّبون لينزعوا منك ما تبقى من روحك الخيّرة والطيبة. أسمع صوت الانكسارات التي تأتي نحو أذنيك، ليشعروك بالزلزال الذي يأكل كل شيء فيك. أنت خوفهم. إنها العتمة القاسية التي تمحو كل التفاصيل، فهل تراني يا سيدي. كل شيء انطفأ إلا نورك ونبض قلبك ودفء جسدك. أراك إذ أراك ولا شيء غيرك. أراك بملء قلبي وروحي. قالها بدون أي تردد. أراك تملئين هذا الخراب بالنور وتسحبين البحر من شعره وتجبرينه على الجلوس بجانبنا داخل هذا القلق. تنادين الموجه الهاربة، من الشط تأتيك وتموت باستكانة عند قدميك. أراك مدينة يدجّنون فيها الخلائق ويفشلون أمامك. هل تراني؟ تردد صوتها مرة أخرى من أعماق

---

(٥٩) الحكاية الكاذبة التي يرويها كتاب الدواوين والوراقين.

السراديب المظلمة. أراك. ولا أحد سواك. لا امرأة إلاّك سبحانك. ولا دنيا لولاك. لن يعود محمد الصغير إلى موج آرابيا. سيمشي طويلا طويلا مسافات تقاس بالسنوات، وربما بالقرون، وربما بمئات القرون، وسيجد نفسه دائما عند باب البحر الذي غادره وغدره، تاركا وراءه الوجوه للنار والأشواق للجحيم. لم يكن بوعبديل(٦٠) كما يسميه أحبابه من الشماليين، مجبرا على المقاومة فالمدينة لم تكن له ومنه، لكن كان عليه أن يحفظ وجه آخر المماليك التي ملأت الدنيا بألقها وأناقتها وسحرها. سيمشي زمنا طويلا في القفر الموصل إلى الموت والإفناء، هو وسيده الخضر الذي صنعه على شاكلته. تقتلهما الشمس الحارقة في آرابيا. يصيبهما عطش السنين. يمدان أياديهما لدرء الحرّ، لكن الأشعة تزداد استقامتها وحرقة. يجدان صخرة كبيرة، يحفران تحتها من أجل أن يختبئا احتماء من نار جحيمها، لكن الصخرة التي تنام على التربة والرمال، سرعان ما تميل وتقبرهما. قرن من الزمن وهم يحفرون لغيرهم وانتهوا بحَفْرِ قبورهم، مثل بني كلبون. نتوهم يا ماريوشا إذ نظنهم سيتركون كراسيهم؟ هم هكذا، إما أن يموتوا وهم عليها، أو يُستأصلون مثل المسامير الصدئة الملتصقة عميقا في الأخشاب.

- لا أحد غيرك حبيبي يملك هذا النور في عمق الظلمة.

- لا دهشة فيما أرى. إنها حقيقتنا جميعا. جميع الذين جرحهم ظلم ذويهم.

- علماء المدينة يعرفون كل هذه التفاصيل مثلك يا بشير الخير.

نزعت يده من على صدرها ووضعتها على وجهها الذي كان باردا من شدة الرطوبة في السراديب. واصلت.

- يعرفونك ويعرفون كل التفاصيل. منذ أن دخلت تلك الحفرة، أو أدخلك الملثمون وهم يتداولون على مراقبة المكان جيلا بعد جيل.

---

(٦٠) هي التسمية الاختزالية التي أطلقها الإسبان على أبي عبد الله محمد الصغير Boabdil.

خاضوا حروبا كثيرة من أجل أن لا يحرك أحد راحتك. بعضهم كان يريد أن يحول الكهف إلى مكان للانفصال والتوحّد، وآخرون قالوا ليكن ثاني أقدس غار، بعد غار حراء. الحاكم بأمره والذين سبقوه، أرادوا أن يستثمروا المكان لصالحهم، ولكن بدون فائدة، فقد وجدوا دائما من يقاطع أوهامهم وحيلهم. أحد أجداد الحاكم بأمره أراد أن يقنع الرعية بأنه من سلالتك، لأنك، كما قيل في كتب الأولين، من سلالة الأنبياء والمرسلين، لكن عمال البحر، وعلماء القلعة دحروه بقوة، وفضحوه. من يومها عرفوا ألعاب حكام آرابيا، وجنونهم الذي لا حدود له. لهذا فكروا في طريق سري تحت الأرض، مثل النفق، يوصل القلعة بعمال البحر، تفاديا لكل المفاجآت. وشُرع في العمل سريا. ودخل قصر عزيزة في اتفاق ضمني غير مكتوب، ترك بموجبه علماء القلعة وعمال البحر في سبيلهم بشرط أن لا ينغّصوا عليه حياته وحكمه بالانتفاضات والإضرابات. كان يدرك أن الجملكية على حافة الانهيار إذا مسَّها شيء من هذا التحالف الخطير.

وقبل أن تتمادى في تفصيلات حديثها، سحبتها يد خشنة كانت تحمل فانوسا صغيرا لا يُظهِر أكثر من مسلك صغيرة، ولم تسمع بعدها إلا صوت الرجل الخشن بلكنته الصحراوية:

- لالة مولاتي... الزيارة انتهت.

وقفتْ باستقامة. وضع الغطاء الأسود على عينيها وجرّها الحارس وراءه. سمع بشير إلمورّو بعد ذلك صرير الباب الحديدي وهو يُغلق خلفها بكل ثقله، وتكسر خطواتها غير المتوازنة على الأدراج الملتوية، وكلماتها الأخيرة المرتبكة، قبل أن يسحبها الحارس، وتغيب وسط هذه المتاهة.

أغمض عينيه ثم حاول أن ينسى كل شيء، وينام على وجهها وهمس كلامها.

* * *

الفصل الثاني عشر

عتبات الجنة

فكرة بناء السور قديمة بقدم الصراع بين العمال والعلماء في آرابيا، حتى قبل إنشاء النفق الرابط بين القلعة والبحر. نشأت الفكرة عندما انتبه العمال بأن سلطة الحاكم بأمره وأجداده من السالفين كانت تأتي دائما من الفجوات المفتوحة على الساحل. ولا حل يحميهم من قسوة ومفاجآت الحاكم بأمره ومن جنون العظمة الذي ينتابه من حين لآخر، واستفحل بشكل مفضوح فيه في السنوات الأخيرة لدرجة الاعتداءات على الجيران وعلى شعبه الأعزل لأنه لم يستفد من كتابه الأخير الذي تختطفته شعوب المعمورة فتحررت وتطورت.

كان الشباب يبنون وكأن الحرب انتهت مخلفة وراءها خرابها الكبير. كانت ماريوشا جزءا حيويا من هذا الديكور المتحرك بقوة مثل النمل. تساهم مع العلماء والعمال وبقية الناس في الأيام التطوعية المقدسة للانتهاء من إنجاز السور الطويل المواجه للبحر، لدرء أي هجوم محتمل من طرف حاكم الجملكية. السور المنجز يكاد يفصل قصر عزيزة ومحيطه عن بقية المدينة. يتسرسب كالثعبان. عندما يقترب من حواف البحر، ينكسر باتجاه الجزء العلوي من الشاطئ ويبدأ في الانحدار باتجاه الواجهة المطلة على بحر آرابيا الرائع الذي يشكل معمارا مدهشا نصف دائري، لم يصنعه أحد إلا قوة الطبيعة. يطوّق قسما كبيرا من فوضى آرابيا.

قالت ماريوشا وهي تمسح عرق أحد العمال:

- بالفعل، عندما نتأمله من الأعالي نشعر بأنه يشبه سور الصين،

بطوله وسمكه. كان أجزاء متفرقة بُنِيتْ على مدار عشرات السنين كواقيات هوائية من البحر والرياح، وها هي ذي الآن تتلاقى فيما بينها كلعب الأطفال، مشكّلة صرحا مانعا للمفاجآت القاتلة.

أجابها وهو يتأمل جبروت السّور الذي لم يبق منه إلا جزءا يسيرا لينغلق نهائيا على البحر الغاضب.

- شُيِّد السور بطريقة جديدة تكاد تكون مبتكرة، تحمي المدينة من قوة البحر التي أكلت جزءا مهمّا من الساحل، ومن أطماع الحاكم بأمره. وعندما ننتهي من إنجازه سنسميه باسم حائط سِين، وهو اسم المهندس ماسينيسا الذي صاغ فكرته العجيبة منذ قرابة النصف قرن، واحتفظ باسمه سرّيا، قبل أن يُقتل هو أيضا في الجنازة الوهمية التي دبَّرها الحاكم بأمره، لينتقم من كل المشاركين فيها. كان مهنيا وعالما متميزا، من بقايا العصور السالفة حين كان العَالِمُ يتقن أكثر من علم واحد وأكثر من تخصص. أكبر تكريم له كما قال العلماء والعمال، هو الانتهاء من سور المدينة ومنع ابن كلبون من غزوها. نعرف أنه من الصعب أن تكون فكرة السور سرا على الحاكم بأمره. عندما وصله الخبر، لم يرفض الفكرة مادامت تمنع البحر من قضم المزيد من رمال الشط، وتصدّ أمواج المقطعين من الفقراء والعاطلين الذين أصبحوا يشكلون حزاما من الفقراء، خطيرا على استمرار الدولة. وإذا حدث أي شيء مشين سيعطي الأمر لسلاح المدفعية والطيران لتحطيمه عن آخره ليحوله إلى عصف مأكول. مع الوقت، أهمل المسألة على الرغم من التقارير التي كانت تلح على أن علماء المدينة اختلطوا بعمال البحر عن طريق الأنفاق السرية، بل لبسوا ألبستهم، وأنهم هم أصحاب الفكرة، وهم من أقنع العمال بضرورة التفكير في الانتهاء من بناء السور وربط أجزائه المتفرقة التي شُيِّدت في السنوات السابقة للتمويه بأنها مجرد صادّات للريح وموج البحر. حلّل الحاكم بأمره ذلك بالهروب إلى الأمام، وبداية ذعر العمال الذين شاهدوا حرائق القلعة بدون أن يحرّكوا ساكنا. حتى اللحظة، لم يبرر قضية العلماء الذين قال عنهم أنهم استشهدوا بسبب قصف الأعداء، ثم فجأة

يظهرون من خلال سلسلة من الرسائل المشفرة الموجهة للحاكم بأمره بشأن بشير إلمورّو؟

ماريوشا المنشغلة بالبناء وبجهد السور العالي، لا تنسى شيئا. لا تنسى الوجوه والبحر والحلقات التي كانت تتسع كلما زاد الحزن توهجا. لقد أصبحت الأشواق تملأها والحنين إلى بشير إلمورّو يعذبها ويقودها مغمضة العينين. حين واجهته بعد أسبوع من المقابلة التليفزيونية الكارثية التي مسخت حكام قصر عزيزة، قالت له، كنتَ عظيما يا بشير إذ كشفتَ كذب الحاكم بأمره وجهله. عظيم. أنت قادم من عصر بعيد، لوضع أناملك الرقيقة على نار الجحيم بحثا عن السرّ المبتور في جملكية آرابيا. فتحت له يومها قلبها عن آخره. كان صامتا في سردابه، يتأملها من شعرها حتى حذائها الرقيق الذي كان يعطي لحركتها خفة ورشاقة. قالت له مواصلة حديثا سابقا قطعه عليها حارس السراديب: أنت تعرف أني غادرت الجامعة، لأن الآفاق فيها أغلقت، وأن الوجوه المشبوهة تكاثرت. فنزلت إلى الشارع بحثا عن معنى آخر غيَّبته الجامعة. قال لي يومها عمي المجذوب، وكانت عيناه متورمتين في ذلك الصباح الحزين: دراستك يا ماريوشا؟ أرجوك، دراستك يا ابنتي. حلم والدك وحلم المدينة؟ أي والد يا عمي؟ تتذكر جيدا أنها ردت عليه ببرودة قاسية. لقد باع والدي كل شيء جميل فيه، ولبس لحية أكبر منه وأوامر سلطانه. حكيت له القصة بكاملها من أولها على آخرها، فتفهَّم وضعي قليلا. كان قلبي ممتلئا بالرماد. لم يكن الأمر مهما، فقد قرأ كل آلامي في عيني. ثم قال: يا بنتي الدنيا التي أعيشها صعبة، وتحملك لها أصعب، أنت امرأة في مدينة كفِّنت المرأة وهي حية. قلت له: متأكدة من أنك تحتاج لامرأة مثلي. صوتي جميل، وأناملي قادرة على العزف على القيثارة والربابة والسانطور والبانجو، لماذا لا أبقى معك. ردّ عليَّ بأنه سيتدبر أمر إسكاني في الحديقة. كان بشير إلمورّو يهز رأسه، من حين لآخر، بالموافقة مع ما كنتُ أرويه له. يتأملني مثل الطفل المندهش تحت الضوء المتسرب من الكوة التي أصبحت تفتح كثيرا بعدما تشكي بشير والعلماء

والعمال من الأوضاع المزرية التي فُرضت عليه. كلما نظر إلي طويلا، شعرتُ بأن بشير إلمورّو يتوغل فيَّ ويقرأ قلبي الحزين. كان الوحيد الذي يملك هذه القدرة بعد عمي المجذوب. أنظر إلى قسمات وجهه، فأكتشف أنه نحف كثيرا وبدأ شيء مثل المرض يسكن بياض عينيه. كنت أرى فيه الرجل الذي لا يحمل شيئا سوى حبه، وصدقه الذي قاده إلى الجنون في أثر الحياة الهاربة من بين الأنامل كالماء الزلال. ثم سألني بدون سابق إنذار وخارج كل سياق عن سيدي عبد الرحمن المجذوب:

- توحَّشت خويا عبد الرحمن.

- عمي المجذوب... مولى الساعة كما يسميه بعض أصدقائه، هو من سمح لي من أن أكتشف سحر الحكاية في دفء صوته، وزيف كل ما دوِّن في كتب التاريخ المجلدة بالكذب والقطيفة. جاءني ذات يوم مشحونا بسحر الأندلس. قال إنَّ ناس القلعة يحكون قصصا عن رجل سيأتي من بعيد، لا أحد يعلم من أين ولا كيف. في الحقيقة كانوا يعلمون كل شيء. أصيب فجأة بعدواهم، وبسحر انتظارك. لقد مسَّه عشقك. قال لي أنك ستأتي بعد ثلاثة أو أربعة قرون بالتمام والكمال، ولكن حساب الأنجم والأفلاك والأنواء أراد غير ذلك، فأضاف إلى الخطوط تسع سنوات وقد وردت هذه السنوات في القرآن الكريم مع أهل الكهف، التي يقول فيها الشارحون، إنهم بقوا ثلاثة قرون مضافا، إليها تسع سنوات بالحساب الهلالي. وكان يجب أن يصاب عمّي عبد الرحمن المجذوب بلوثة الهبل ليحمي نفسه. فهو إذا لم يصدق شيئا بحاسته الحيوانية الرهيفة والمتوفزة، لا يحكيه. الحقيقة عنده كان لها معنى آخر. يقول: الحقيقة التي لا تشعل في داخلك نيران براكين الجنون، لا حق لها في الدخول والاستكانة داخل قلبك.

- من قال إن المجذوب مجنون؟ كان أعقل العقلاء جميعا.

- ممتلئا كان بقصصك. لكن صدقه كاد أن يقتله. عندما تنطفئ شعلة الحقيقة أمام عينيه لا يعوضها بالكذب ولكن بالبياض المعذّب. يقول إن الذي يجعل القوال يختلف عن الوراق هو كيفية التعامل مع هذا

البياض بالذات. يصرخ بأنين شجي: صعّدي يا ماريوشا من أنين الربابة أو البانجو، أرجوك يا ابنتي صعّدي إلى الأقاصي، لقد جَرحَتني الكلمة الغائبة، والوتر المنسي. اعزفي داخل عذاب النسيان، فسيكون اللحن شجيا. . . داخل البانجو، أو حتى السانطور أغزل حنينه الغائب والتصدّعات التي ملأت قلبه وقلبي أيضا. يسحبني اللحن الذي يخرج من خوفي شيئا فشيئا باتجاه سماء تهرب كلما حاولت أن ألمس ألوانها. يقترب المجذوب مني أكثر، يهمس: اعزفي أرجوك ولا تستغيثي، صوتك يغيث. إن الله الآن يقف على عتبة الجنة واضعا يده على قلبه، يستمع إليك بحزن ويستعيد كل الوجوه التي تماهت فيه، ويضعها داخل شعلة الأشواق هذه، داخل برزخ دمعاتك لتغتسل وتمر باتجاه الجنة. الله الآن يتأمّلك بتواضع العظماء. اعزفي، اعزفي ولا تتوقّفي أبدا. أعزف بكل جرحك وجرحي. وحين يصعد الحنين داخل وتر الغياب، يعوي سيدي عبد الرحمن المجذوب بأعلى صوته. عووووو. . عووووو. . عوووووو. . . ويتلوى أرضا يجنون: أين الحقيقة يا سيد العاشقين! ارحم انتظاري أيها الرحمن الأرْحم. لقد تأخرتَ كثيرا، والدنيا تزداد انغلاقا في غيابك. يبكي الحاضرون. يقرؤون كل شيء في عينيه. بعضهم يقول، بمسحه حزن ترتسم على ملامحه المنكسرة: تلك نوبته الاعتيادية التي تنتاب عادة المتصوفة الممتلئين بالإيمان. إنه يحس بقسوة الحقيقة المنفلتة، التي يعرفها ولا يعرفها. كان هناك أناس كثر من بني كلبون، عيونهم مدورة مثل الفراغ، يسرقون كل كلمات الحنين التي يقولها المجذوب. ويذهبون بها مباشرة إلى زبانية الحاكم بأمره. يكتبون التقارير. يوصلون الأخبار في حرارتها، قبل أن تُنسى لتكون المكافأة أكبر. ثم يعودون لكي يتشتتوا داخل شرايين آرابيا، يلتقطون تنفسها وحزنها، وشتائمها، ويعودون إلى القصر ثانية، وثالثة وأربعة قبل أن يملّ منهم ويعفي أغلبهم من مناصبهم الوهمية ليبين حسن نواياه تجاه كل من يكرهه. عندما أصروا إمعانا في خدمة القصر، صلبهم، بعد أن أتهمهم بالعمالة والعمل المزدوج لمصلحة العمال والعلماء مع إيهام

القصر بأن المعلومات التي تصله صحيحة، ولكنها كانت كلها تافهة ولا قيمة لها. حكام الجملكية تأكدوا بما لا يدع مجالا للشك، من أن سيدي عبد الرحمن المجذوب ليس إلا مجنونا، لا قيمة لما يقوله، يلهي الناس عن التفكير في شؤون آرابيا والجملكية. يقص الأوهام، ويداوي المرضى بالأعشاب التي ينتقيها من حديقة الحيوانات الوطنية، ويرقِّص الثعابين مثل العيساوي، ويقسم عندما بتعب بأنه سيقتلها عندما ينتهي دورها، أو تقتله إذا كانت أقوى منه. يجرّ وراءه من حين لآخر كلبه الهزيل قطمير الذي بانت عظامه، يقول إنه الوحيد المتبقي من أصدقائه الآفلين من أهل الكهف، إذ كان قطمير رابعهم أو خامسهم. يحكي بجنون عن رجل ركب سفينة أندلسية محملة بالحنين والانكسار، وقطع أهوال البحار مثل السندباد، وعاني ما عانى من الخوف والمظالم. سمع بروايات متضاربة تقول إنه حل بالبلاد. دخل من أجل تحريرها من بني كلبون الذين تسلطوا على المدينة مثل القوارض، ولا أحد يعرف الآن مكانه ما عدا العلماء الذين يقول عنهم، إنهم يملكون كتبا ثمينة هربّوها من هناك قبل أن يحرقها توركيمادا في شعلة محاكم التفتيش المهولة. لهذا فهم يعرفون الحقيقة أكثر من غيرهم. أول شيء فعلوه في ذلك الزمن البعيد، أنهم بنوا القلعة بمساعدة عمال البحر، في أعلى قمة مطلة على المدينة، حتى أن بعض الروايات غير المؤكدة تقول إنهم وعمال البحر شيء واحد، بالخصوص بعد أن انظم العلماء قبل أكثر من قرن إلى فرق بناء النفق السري الرابط بين القلعة والبحر، ثم إلى مشروع بناء سور البحر الذي وصل إلى مراحله الأخيرة بعد أن تمّ تجميع كل أطرافه.

وحين حاول القصر في ذلك الزمن الذي أصبح اليوم بعيدا، أن يتخطّاهم، ليحتل المغارة التي لم تكن بعيدة عن القلعة، جرب أن يدك القلعة، ولكنه ووجه بصرامة وعاد مهزوما. جرب ثانية، فسُحق من رجال المقاومة المتسبين إلى العلماء، فتراجع. وفي الثالثة وبعد أن أعدَّ العدة، صرخ الحاكم بأمره هذه المرة في وجه قادته الكبار: اسمعوا يا ناس

وعوا، يجب أن لا نيأس. la troisième est toujours la meilleure[61]
وبعد فشله الأخير، ثم سرح جنوده الذين عادوا إلى مواقعهم الاعتيادية، ورمى ضباطه في السراديب الباردة، بتهمة الخيانة الوطنية العظمى، وقيادة الجيش إلى التهلكة. في خطبته التليفزيونية الاعتيادية، صرخ والزبد يتطاير من فمه: إني أرفض، أرفض، أرفض، أن أرمي أبنائي نحو التهلكة. أرفض أن أضحي برجالي في معارك وطنية وحروب أهلية يمكن أن تُحل دبلوماسيا. أنا أرفض وأرفض ثم أرفض أن يُقاد جيشي إلى التهلكة، وأن يفقد سمته الوطنية بقتل الشعب. الجيش وُجِدَ لحماية الشعب لا لقتله. أرفض أن أنزله إلى الشارع. وسيُعاقَب كل الذين أعطوا الأوامر لإنزاله في المرات السالفة. وأظهر التليفزيون في المساء نفسه كبار الضباط وهم ينزلون حفاة عراة، إلى السراب، على وجوههم حيرة لم تعرف أين تستقر. وفي الهجمة الأخيرة وهي الرابع في سلسلة حروبه ضد ذويه، قصف القلعة، ولكن العلماء كانوا قد عرفوا سر المقلب وتفادوه. تركوه ينظم الجنازة قبل أن يعملوا على فضحه ويثبتوا له وللعالم أنهم ما يزالون على قيد الحياة.

عبد الرحمن المجذوب، سرّ المدينة وألقها الهارب، كان يركّب ويعيد تركيب قصصه داخل الحلم، وعلى كرسي الحديقة الوطنية للحيوانات، وهو يجمع الأعشاب ويحاول أن يداوي الجرحى بالحكاية والطب الشّعبي. عندما كان يسأل عن العودة التي عُلِّقت أسرارها، يجيبه العلماء بإعانته بكتب التاريخ، والسِّير القديمة، والروايات المتداولة التي رواها ناس عاهدوا أنفسهم على أن يظلّوا أوفياء للحقيقة حتى الموت. قالوا له عندما قرؤوا الدهشة في بؤبؤ عينيه: اسمع يا عبد الرحمن الأزحم، إذا كنتَ تريد أن تصبح وراقا، ملزما بالحقيقة التي رواها من لا تثق فيهم، فما عليك إلا أن تلتحق بقصر عزيزة، أحسن من أن تعذّب نفسك وغيرك، وتحوّل الأسواق إلى مكان للمداعبة الفارغة، أمّا إذا

(٦١) المحاولة الثالثة هي دائما الأصوب.

كنتَ تريد أن تروي الألم الحار... قاطعهم بعنف وهو يصرخ بأعلى صوته: الويل لمن يظنّني ورّاقا. تموت الدنيا وأظل حيا داخل قطرة الحقيقة الأخيرة. ليست لي حقيقة إلا حقيقة يتخفى فيها النور الذي قضّيت العمر كله، وما زلت، أركض وراءه حتى ولو أحرقني في النهاية كالفراشة. كان المجذوب يكره الورّاقين الذين يبيعون ويشترون في الكلام. ظل وفيا لجنونه حتى في أصعب الظروف وأقساها مما جعل العلماء يعتبرونه امتدادا لأشواقه. كان يقوم بما لم يستطيعوا القيام به ويدافعون عن وجوده كلما اقتضى الأمر ذلك.

قال لماريوشا في مرة من المرات: اسمعي يا ماريوشا، إمّا أن نكون أو لا نكون؟ أن نرفع رؤوسنا أو أن نبقيها منكسة إلى الأبد؟ أمنيتي الوحيدة الآن أن أموت في الأسواق المليئة بالوجوه الطيبة، حاملا في قلبي كتاب الحقيقة، مخطوطة كتاب المدينة، الذي أتمنى أن المسه، أن أشم رائحته الزكية لأن به عطر الشهادة والشهداء. أعاشر حيوانات الحديقة لأنها الأضمن ولم تشوهها يد أو عقل. هي سبيلي الأسمى والحي، وسط هذا الفراغ المخيف والهوة التي تزداد كل يوم اتساعا.

حيوانات الحديقة هي رفيقه الدائم. هو من يعطيها الأكل والشرب. يحدثها عن همومه اليومية، عن أشواقه وانكساراته. وإذا جاء الليل، يتركها بعد أن يطمئن عليها. يدخل إلى بيته الحديدي، بيت الكنغر الذي مات، وينزوي في المكان الأكثر ظلمة وظلالا، بينما يختبئ كلبه قطمير تحت الكرسي. يخرج زجاجة الرّوج[٦٢]، ويبدأ في شربها وتعذيب ذاكرته التي تستعصي عليه أحيانا. يقولها صراحة مع صرخة قلقة، تشرئب لها أعناق بعض حيوانات الحديقة الوطنية التي لا تنام بسهولة: أيها الموري الهارب! لماذا تأخرتَ عن المجيء كل هذا الوقت؟ لماذا تأخرت؟ أما آن أوانك يا سيد الحزن والكآبة والبحث الدائم عن الأشواق المنسية؟ حكت له ماريوشا أشياء كثيرة بقيت في ذهنه وترسّخت فيه. عن

---

(٦٢) هو النبيذ الأحمر، أصل الكلمة فرنسي: Le rouge

الثورات وكيف تنشأ، ثم كيف تُكسر في منتصف الطريق عندما تدخلها الأنانيات. عن الذين يخططون للشوق ثم يموتون في الخلوة والعزلة كأنهم أخطأوا في حساباتهم. وعن الذين يأتون من تحت رماد الخراب والخوف، ويجدون كل شيء جاهزا، فيسرقون الحنين من قلوب أصحابه، وينزلون إلى المدينة في الصباح مثل الجراد، وفي المساء نفسه يعلنون أنفسهم حكاما وطنيين. كان مثله الأعلى نيرون. وفي يوم جمعة، في عز عزلته، قالت له ماريوشا:

- يا عمي، ويا خويا، ويا حبيبي عبد الرحمن الأرحم. المجذوب الأعظم. لا يكفي أن تحرق مدينة الظلم لتصبح نيرونا يحبه الناس؟ المدينة الأخرى تحبك وتحسدك على استماتتك لتجعلها مدينة حية. أما نيرون الذي أحرق روما، يا عمِّي عبد الرحمن، فقد كان طاغية ومكروها حتى من حيطان الشوارع الضيقة والأزقة والتربة. أنت ابن المدينة، وأشواقها أشواقك. حنينها حنينك. ما يمسها يمسك.

- لكن نيرونا أحرق روما توغلا في حبها.

- لو أحرقنا كل شيء نحبه لبدأنا بأنفسنا. كان نيرون يحب نفسه بجنون ككل الطغاة الكبار. ولكنه كان أجبن من نارسيس الذي أغرقه حبه لنفسه. أشعل النار في روما ثم وقف بعيدا يتأمل مشهد ألسنة اللهب وهي تأكل الأخضر واليابس. لا يا عمي المجذوب أنت تحب الخير لكل الناس ولمدينتك أيضا. جنونك جنون الخيبة والأنانية، والأمل المسروق، والركض وراء النور الغارق في عمق الظلمة.

بسرعة فهم المجذوب أن الثورة مثل الموت والحياة، عندما تأتي لا قوة في الدنيا تؤخرها أو تقدمها. الثورة إذا سبقتَها أو سبقَتْك، فقد خسرتها. توقيتُها هو حياتها. ثم فجأة حول كل شيء إلى حياة في الأسواق التي كان يؤمها، ظل يرويها للقاضي والداني بدون أن ينتبه القصر لهبله الذي لم يكن يشبه هبل الآخرين.

وحينما سألها بشير إلمورّو وهو يبحث بملمسه عن شعرها، الذي بدأ ينزل على وجهها، وماذا بعد يا ماريوشا؟ لا شيء يا سيدي، ردّت

عليه وهي تمد يدها لتدفنها في عمق يده التي لم تفقد حرارتها بالرغم من الجو البارد.

- لا شيء سوى أن نارك المقلقة ظلت تحرق قلبه وشرايينه. طلب أن يراك في ذلك الزمن البعيد، فوعدوه بأنك ستنزل حتما إلى السوق الشعبية في يوم ما، بعد العودة الميمونة. كان متأكدا من أنه سيراك في ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى الساحة لتوقف وجعه ونزيفه الداخلي. كان متأكدا من أنك ستأتي. كان يقول عنك إنك في قلبه، وأنه بدأ يراك في فراشه وفي أمكنة كثيرة لم يكن قادرا على ضبطها. وكان يعرف جيدا أن نداءاتك التي لا تموت ستملأ الأسواق يوما، ولهذا لم يفرط لحظة واحدة في حلقته ولا حتى في عمله اليدوي. كان من النشيطين في الجهد العام لبناء الحائط البحري. علماء كانوا يتوقعون دائما هجوما فجائيا يقوم به القصر. لم يخطئوا ولا مرة في الجوهر وإن لم تأت التفاصيل مواكبة دوما لتصوراتهم. القصر عملهم دهاءه وحيله.

- والمدينة؟ والساحات العامة التي سكنها النشيد العظيم؟

- المدينة تنتظرك. تنتظرك. . .تنتظرك. لا تنام في غياب ذاكرتها.

كل ذلك حدث في السراديب، بعد مدة من المقابلة التليفزيونية التي ألَّبت الرعية ضد الحاكم بأمره، من حيث لم يكن يقصد ولا يرغب. الرسائل المتعددة المبعوثة إلى حاكم الجملكية، من طرف العلماء، أكدت للمرة الأخيرة على أنهم ما يزالون على قيد الحياة، وأن الجنازة التي نظمها لم تنفعه إلا في تصفية عالم الذرة الشاب، وماسينيسا مهندس سور البحر وغيرهم ممن شكلوا حجر عثرة في طريق مشاريعه العدمية. حتى المتخصصون في صياغة الأخبار، لم يكونوا مقنعين بالنسبة له. صعب عليهم إعادة إخراج كذبة استشهاد العلماء. لقد خاب ظنه مثلما خاب في المرة الأولى عندما حاول أن يستولي على المغارة التي كان ينام فيها بشير إلمورّو. منذ قدوم هذا الرجل الغريب، والمدينة تتحرك حركات غير اعتيادية. أصبح العصيان المدني هو حديث القاصي والداني. في نقاط مختلفة من الجملكية، كان الناس يتحدثون في

الشارع، في الأزقة، في المنخفضات، في الظلمة، في النور، عن كذبة القصر فيما يتعلق بالعلماء، بالرغم من صرامة الأوامر التي أعطيت للشرطة. لم يحدث عصيان مثل هذا، منذ ثورة الجوع التي أعلنها ذات صباح خريفي، عمال البحر، على رئيس السفن، ونائب وزير الصيد البحري، المرتبط مباشرة بقصر عزيزة. أكلوا رأسه وأعلنوا جهتهم منطقة حرة، ونصَّبوا واحدا منهم لتسيير شؤون البحر. منذ ذلك اليوم وقبله بكثير، استفحلت الحرب التي اشترك فيها العلماء والعمال ضد قتلة النظام، فملكوا قسما كبيرا من البحر وبعض بواباته، قبل أن يفكِّروا في بناء سور عازل. جاء هذا الخيار بعد محاولات متعددة من القصر للاستيلاء على الشواطئ بالعنف والإغراءات المتتالية، الفاشلة. في الأخير، أعلن الحاكم بأمره عن نواياه الحسنة بضرورة حقن الدماء الوطنية، وتفادي حرب أهلية مدمرة تأتي على الأخضر وتحرق اليابس. عمال البحر ظلوا مصرين على موقفهم السابق على تشييد السور لدرء أمواج البحر وعلى ربط أجزائه التي بنتها الأجيال المتعاقبة لحماية نفسها؟ لأنهم كانوا مثل العلماء يدركون جيدا أن المُلك شيطان قاهر. كان شعار العمّال والعلماء، هو أضرب عدوك قبل أن يضربك، أو على الأقل توقع ضربته وحضّر نفسك لردة الفعل الحامية. الحذر قبل أن تُفاجأ بقنبلة موقوتة توضع في قلبك بعد أن يثبتها أقرب الناس إليك. كانت التحذيرات تأتي إلى حاكم الجملكية تباعا. حتى عندما حكمت محكمة أمن الدولة على بشير إلمورّو بالإعدام حرقا على طريقة سيدنا النينوي، أدركت أنها ارتكبت خطأ فادحا قرّب العلماء والعمال أكثر. فضّلت بعدها محكمة أمن الدولة استشارة الحاكم بأمره، فهو سيد الأمر أولا وأخيرا. بالخصوص بعد التأكد من أن العلماء لم يمسسهم أي أذى. ما فعله حاكم جملكية آرابيا، الحاكم بأمره، لم يكن إلا كذبة، سرعان ما تكشفت خيوطها للجميع، وتكشَّفت معها الخيبة التي ملأت عينيه. كانت رسائل العلماء تصله تباعا، وعليها أختامهم السرية. مباشرة بعد القصف والجنازة الكاذبة التي نظمها، وصلته أولى الرسائل وعليها توقيعات

العلماء وشريط يظهر جزءا من اجتماعهم مع تبيان التواريخ كشاهد. إلا سابعهم، فق ظل غائبا في كل المشاهد المعروضة. قيل عنه الكثير، إنه قُتِل، في ظروف غامضة. كل الرسائل كانت تحذر الحاكم بأمره من السقوط في اللعبة الانتقامية ضد بشير لأن ذلك سيكون هالكا له ولسلطانه. قتل بشير إلموزّو، بالخصوص بعد صدور حكم الإعدام الذي لم يوقعه أبدا الحاكم بأمره سيدمر كل شيء. آرابيا كانت على حافة النار. القصر أصبح مقتنعا بهذا الخطر المحدق به من كل الجهات، ولهذا فكر في حلول أكثر ذكاء من إعدام فجّ ومباشر.

الكثير من القرارات ظلت بين يدي محكمة أمن الدولة التي أوكل لها أمر التفكير في مصير بشير إلموزّو. ظل القاضي الأعلى مصرا أيضا على استشارة الحاكم بأمره، قبل الإقدام على أي فعل. طلب القصر أن تهيّأ للمحكوم عليه كل ظروف طلب الغفران. فهُيِّئ بيت الرجاء لاستقبال بشير إلموزّو. وهو البيت الذي يُفترض أن يستجدي فيه المتهم المحظوظ سيده للعفو عنه، وقد يعفو عنه و قد يرفض طلب الغفران ويوقع الحكم نهائيا بالخصوص في حالات الإعدام، بحسب مزاج الحاكم بأمره. وقبل ذلك، أرسل عيونا سرية تستقصي المكان الذي جاء منه بشير إلموزّو، هل حقيقة هو أم شخصيته مزورة، متنكرة في زي بشير إلموزّو؟ لأول مرة، يغمض العمال، وعلماء القلعة، عيونهم، من أجل عبور رجال الحاكم بأمره نحو الكهف. عندما وصلته الرسالة الأولى، التي تؤكد بأن العلماء والعمال أيضا سمحوا لزوار الكهف بالمرور، لم يكن مفاجئا. حينما عاد الوفد المتنكر في لباس سياح أجانب إلى قصر عزيزة، من الرحلة الاستقصائية، قدموا للحاكم بأمره كراسة ضخمة مليئة بالمعلومات الدقيقة أو التي تبدو كذلك، وأكدوا له بأن الكهف أصبح مفتوحا على الشمس، وبأن الحجارة التي كانت تسد مداخله، لم تعد موجودة. حتى التبليط الذي بُني بالتربة السوداء المحروقة، انهار، وبدأ يتساقط ولم يعد قادرا على مقاومة فصول المدينة المتحركة بسرعة عجيبة. أما الكهف، فشقوقه الداخلية تزداد كل يوم اتساعا مثلما أكد ذلك أحد الرعاة، ولم

تبق إلا بعض الظلال الهاربة، وخطوات غير متوازنة، بدأت الرياح تمحوها يوما بعد يوم. المكان الذي كان ينام فيه الرجل العائد ما يزال على حاله، وكأنه مكان إنسان قام لتوه من داخل الكهف. ويمكن أن يكون هو الرجل المعني. كان يهم حاكم آرابيا أن يستولي على هذا المكان، من أجل توجيه الرأي العام، وإقناع الرعية بأنه من سلالة تنتمي إلى هذا الرجل العائد من بعيد، لكن هذه الورقة خسرها في وقت مبكر. العلماء كانوا يعرفون كل هذه التفصيلات، وكانوا يريدون إيصالها إلى القصر بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، بما في ذلك وسيلة السياح المزيفين، لأن وصول المعلومات كما شاؤوها، فيه بالضرورة إمكانات واسعة للحفاظ على حياة القوال بشير إلمورّو. كان على القصر أن يدرك أنه أمام ذاكرة وطنية يجب أن لا تتلف إذ أن استمراره في الحياة مرتبط بها. ثم أرسل العلماء وثائق أخرى ومراسلات تظهر بأنهم على علم مسبق بالوفد السياحي المرسل للتحقيق.

جُهِّز بشير إلمورّو كما يجب ولكنّه انتظر طويلا قبل أن يُسمح له بالدخول إلى بيت الرجاء. شعر بصدره يزداد اتساعا، والأقمار والنجوم تملأ قلبه وذاكرته. المدينة التي دخلها عاشقا لم تتخلَّ عنه أبدا. أكد له الحراس بأنه سيمتثل أمام جلالته الذي تفهم وضعه جيدا ولم يؤاخذه على صمته كلما قابله. وعليه أن يملأ صدره بالإيمان، ويقابله بطلب الغفران والرهبة، والكثير، والكثير من الخنوع. قالوا له إذا أردتَ أن تنجو بجلدك، قَبِّلْ رجلي سيدك، فهو الوريث لقوة الله في أرضه، ولا ترفع رأسك فتكوننَّ من الخاسرين. الله، الحي القيوم، لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. العسس أنفسهم لم يكونوا يعرفون سر هذا التشريف، لأن الحكيم الحاكم بأمره، قليلا ما يطلب رؤية مسجون إلا عند الضرورات القصوى وبتدخل حاسم من أصدقائه الشماليين: الفرنسي. الإنجليزي، الأمريكي، الألماني، والإيطالي أحيانا، وحتى الأنجلوسكسونيين من إنجليز وأمريكان. وقليلا ما يخرج المسجون سالما، بل كثيرا ما يزيد المسجون من حدِّ العقوبة المسلطة عليه بسبب

إجابة في غير مكانها. مزاج الحكيم صعب، وعلى المعني بالأمر أن يستبق ردود فعل الحاكم بأمره ويتجاوب مع مزاجه.

حضَّر خدم القصر بشير إلمورّو مثلما حضَّرُ عروس وسط الألبسة والمسك والعنبر، وحمامات قشور الرمان، والبرتقال، وورق الليمون المغلي والمصفى، ثم عُطِّر بآخر مكتشفات إيف روشي[٦٣] الفرنسية التي كانت لالة عزيزة مولعة بها قبل اغتيالها، وعطور وباكو ربان[٦٤] الإيطالية التي يجلبها له أصدقاؤه مع الويسكي الأسكتلندي، والبيرة الألمانية والهولندية، والهمبورغر الأمريكي. لم يندهش بشير إلمورّو لهذه الأجواء، فقد ذكرته بمأساة محمد الصغير. لم تدهشه أيدي الخادمات الملساء وهن يقمن يغسله بصمت مطبق. ومع ابتسامات شاردة من حين لآخر. أراد أن يسألهن هل هنَّ من جملكية آرابيا أم من مدن بعيدة، لكنه أهمل الفكرة مع لذة الماء الدافئ والمعطر الذي كان ينزل على رأسه ثم نحو كامل جسده. الذي أدهشه داخل هذا القصر، هو أن اللغة العربية تكاد لا تُستعمل لأن الحاكم بأمره شاء ذلك عملا بالمقولة: من عرف لغة قوم أمِن شرهم. وأكمل الوراقون المجهزون لإنقاذ حاكم آرابيا: إن جهل اللغة الأجنبية مسلك نحو جهنم. ألبسوا بشير كل ما يروق للعين والروح. كل شيء كان أخضر وبلون واحد، ما عدا التطريز، الذي كانت ألوانه لامعة مثل النجوم. قال الحاكم يجب أن تعرف الرعية، بأن أساس سلطانه هو أن يكرم ضيوفه مهما كانت نواياهم. السّجين مثل الضيف، ليس أقل. كانت الدهشة قد بدأت تنسحب شيئا فشيئا، وبشير إلمورّو يرى نفسه، قد تحول إلى غابة من الألوان. حاول أن يجد أعذارا خاصة لأبي عبد الله محمد الصغير، وأن من يعيش داخل هذا الريش، لابد أن يُصاب بزهو نعيمه. محمد الصغير قبل أن يحرّك مؤخرته، ضمن أولا قصرا في فاس حتى قبل أن يعبر البحر، ونام داخل عذوبة القشتاليات

---

(٦٣) Yves Rocher

(٦٤) Pacco Raban

وأكثرهن مخملية. يقول عن ذلك أنّه فسحة الرجل الذي يخوض حربا طويلة ضد أعداء الأمة، فإذا خسر هذه اللحظة، لا يستطيع أن يقف على قدميه المنهكتين. قليلة الحظ، هي المحظية التي يكون دورها يوم انكساره. بعد أن ينتهك جسدها، يأكل نهديها ويمتص داخلها. يقلبها بثقل ويضع وسادة تحت جسده المنهك، يسألها سؤاله المعتاد، هل هي المرة الأولى التي تنام فيها مع رجل؟ يا صاحب المقام العالي، تقول المحظية، لم يلمسني لا إنس ولا جان، إنك أول من يقتحم عذريتي. يداعب شعرها للمرة الأخيرة، ثم ينادي السيّاف ويقول له جرّها إلى الجنة يا صاحبي، فهي دَيْن عليك، تقول إنها بكر ولم يمسسها ذكر. حياتها خير من موتها. حسبت نفسها مريم؟ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**(٦٥). إلى أية جنة يا مولاي. قال السيّاف؟ ردَّ عليه الحاكم بأمره: تلك التي تعرفها يا حبيبي. لا أحد يعرف بالضّبط أين تقع ما عدا المقربون جدا؟ بعضهم يقول إنها الدرج السابع تحت القصر، حيث يُرمى في السرداب كل من لا يرضى عنه الحاكم بأمره. المكان مليء بالجثث التي اختلطت رؤوسها وأجسادها وبقية أطرافها. عندما دخل عمي الطاووس، في ذلك اليوم المشهود، اكتشف هول السراديب القاسية. كان من أول الداخلين إلى الأنفاق الأرضية لأنه كان يعرف أشياء كثيرة كان من الصعب عليه الإفصاح عنها أمام الناس. حتى ماريوشا عندما نزلت بعده، وجدت الدار الباردة التي كانت تعلق فيها النساء، ما تزال وجوههن باردة، ولكنها محافظة على رونقها ودفئها الداخلي وكأنها وجوه حية. كنَّ يخنقن بهذه الطريقة، إذ كان الحاكم بأمره كلما انتهى من تفتيش جسد محظية ما، تصبح ملكا للعسس والعسكر. لا يتوانى عن القول: خُلقن للمتعة ليس أكثر؟ نهايتهن الدار الباردة للحفاظ على أنوثتهن أبديا. كثيرا ما كان يقتل إحداهن خنقا في لحظة جنونه، ثم ينزل

---

(٦٥) سورة آل عِمران، ٣: ٤٧.

بعدها للدار البادرة، يعيد تعريتها من جديد. يتأمل جسدها الذي ما يزال لم يفقد بعد رونقه. يلمسها في سكينة تامة. يسخّنها. يمتص نهديها. ينزل حتى عانتها، حيث يغيب برأسه ولا يُسمع إلا شخيره المتقطع. بعدها يتمدد على صدرها عاريا، يفتح فخذيها بقوة، ويلِجُها ثم يستكين طويلا، قبل أن يقوم مذعورا من عينيها المفتوحتين، المرتشقتين في وجهه وهو يبسمل ويحوقل: باسم الله الرحمن الرحيم. لا حول ولا قوة إلا بالله. لعنة الله عليك، أنت هكذا دائما تبدئين، هادئة، مطواعة، وفي الأخير تفتحين عينيك بدهشة مثل أية قحبة تريد أن تنتقم من معشوقها... أشيع عنه في بعض الدوائر الضيّقة، بأنه يمارس الجنس مع الجثث كلما أصيب بانتكاسة مع دنيا، أو مع إحدى محظياته. قبل أن تسري الإشاعة بليلة واحدة، قطع كل الألسنة التي رددت الخبر بغباء بدون أن تتحقق منه وتتمحّصه، وقطع الآذان التي ضُبطت تسمع الأخبار، وسمل العيون التي شكَّ في أنها رأت، أو تلك التي أقسم أصحابها أنهم رأوا المشهد بأم أعينهم.

قبل الدخول لمواجهة الحكيم في المناظرة التليفزيونية، كان على بشير إلمورّو أن يمر على الباب السادسة. التي تنفتح على قاعة تحمل اسم **قاعة الوصايا السبع**. جلس على كرسي مريح وقابله أحد الكهنة المحنَّطين مثل المومياء. يحيط به وجهان وسط جمع من الحضور استُدْعِي خصيصا لمرور بشير عبر بوابات الوصايا السبع. الحدث كان مشهودا. حتى الحاكم بأمره نفسه، أصر على طابعه غير العَادي. كان الكاهن يتكلّم مع بشير إلمورّو، والبقية يترجمون إلى كل اللغات الأجنبية المتداولة داخل القصر الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، وأحيانا الإسبانية والإيطالية. يقول الكاهن وهو يوصي بشير: سيوضع بينك وبين سيدنا الحاكم بأمره الزجاج المقوى، لأنه يخاف من عدوى الأمراض المعدية التي تجتاح القصر هذه الأيام، كالسيدا وسرطان الدم، والبواسير والنقرس التي عانى كل أجداده من آلامها، ويخشى أن تنتقل إليه. في الحقيقة لم يفهم بشير جيدا ما كان يقوله الكاهن، بل لم يشعر أبدا أنه

معني بما يحدث أمامه، لأن كل الأمراض التي ذكرها ليست أصلا معدية، فلا معنى للزجاج إذن. اقترب الكاهن من بشير، حتى كاد أن يلمس وجهه بأنفه الطويل والحاد، ثم قال له: اسمع يا المسكين، إننا نقول ولا نكرر، هذه هي الوصايا أضعها بين يديك، فارحم نفسك.

أولا: قبّل الأرض بين رجلي مولانا الحاكم بأمره.

ثانيا: أذرف الدموع المذرارة بأية وسيلة كانت، وأطلب الصفح والعفو.

ثالثا: لا ترد على مولاي إلا إذا طُلب منك ذلك.

رابعا: لا ترفع صوتك، فتكوننَّ من الخاسرين.

خامسا: أجب في حدود السؤال بما يرضى مولاي الحاكم بأمره.

سادسا: لا تدخل واقفا ممتشقا، واخرج معوجا. الاستقامة تعادل فعلة الكبائر.

سابعا: استعمل لغة أجنبية في حديثك ربما جلبت لك بعض الرحمة.

صرخ بشير إلمورّو بأعلى صوته داخل قاعة الوصايا السبع: اللعنة على هذه الوجوه التي لا تعلم إلا البؤس والمذلة. اللعنة على امرئ يحرم امرءا آخر من قول الحقيقة. اللعنة على كل كلام يُقال بغير حق، يلغي لغة القوال ويعوضها بكلام كُتَّاب الدواوين. اللعنة على كل صغير حوّل نفسه إلى إله ميت وتنفس أمراضه. اللعنة... الزمن كان يمر بشكل غير منطقي. حتى الساعة الحائطية التي أصبحت مجنونة، تتوقف متى تشاء، وتتحرك بسرعة جنونية متى تشاء، أصبحت مجرد ديكور. شعر بشير إلمورّو برغبة مبطنة للصراخ لكي يرجعوه إلى أرضه الأولى، فهو على الأقل يعرفها وتعرفه. أن يقبل بأي موت قاس، حتى عذاب محاكم التفتيش المقدس، وأن يعفوه فقط من النهايات المفجعة في الحفر. حاول منظمو الجلسة مع الحاكم بأمره، أن يقنعوه بأن لا يعقّد وضعه بالكلام الزائد. نصحوه للمرة السابعة بالصمت لأنّ الأمور ستسير بالشكل الذي يشتهيه. لكنه أصر على أن يقول ما في قلبه، فتخلوا فجأة

عن عفتهم وشجاعتهم الوهمية وبدأوا يتباكون عند رجليه بما فيهم الكاهن الذي فعل ما بوسعه لتلطيف الجو.

- يا مولانا وحبيبنا وروحنا الزكية. نرجوك أن تفعل ما تشاء، ولكن طبّق النصائح ولو ظاهريا، لأننا مهددون بالحرق أحياء. الحاكم بأمره يا سيدي بشير إلمورّو لا يرحم. أرحمنا يا رحيم. نعرف اتساع قلبك وعقلك وهيامك بالخير يا صاحب الخير والنور.

قام بشير إلمورّو من مكانه الذي كان يجلس فيه. شعر بالأرض صغيرة جدا وبالدوار يمس كل حواسه. التفت باتجاه الكاهن وهو ينظر في عينيه الغائبتين المتعبتين عما كان يدور حوله:

- طيب يا سيدي الكاهن، لماذا تريدون قتلي قبل أن يحين وقت موتي؟ أي خطر أشكله؟ لماذا تؤذونني بالسؤال؟ سيوفكم كثيرة، افعلوا ما شئتم، فلن يحاسبكم أحد سوى هذه الذاكرة المسروقة من عصور قد لا تعود أبدا إلى هذا الظلام؟ روحي لا قيمة لها. مجرد همسة كانت في كف طفل، مثقال ذرة، مضغة غير متشكلة، نسي أنها شديدة الهشاشة، فضغط بقوة، فانتهى كل شيء في ثانية عابرة. عمري! ليس مهما، سوى أني سعيد أني قضيته في فضح محمد الصغير الذي قايض كل شيء، حتى بقايا التربة التي ظلت عالقة بيديه. حتى كلمات الله الطيبة لم تنج من تلفه، فقد وضعها في متاحف المدن التي احتلها الشماليون. كل هذا العمر المجروح يا سيدي الكاهن، قضيته، أبحث عن الحقيقة المسروقة، لأجد نفسي في النهاية أمام أحد أحط أحفاده؟ المطلوب مني أن أستجديه بخشوع الجبان أن يعفو عني؟ من ماذا؟ أنا خارج زمنه وزمنكم. مجرد غيبة عابرة قد لا تجد مرساها أبدا... أعفوني من تلبس أقداركم وأنقذوني من كلام لم أعد قادرا على تحمله. أنقذوووووني، أنا رجل غير موجود. أنا وهم. مجرد حكاية هاربة.

اصفر فجأة وجه الكاهن، فجرى نحو الباب الزجاجي ويداه ترتجفان. أغلقه بإحكام. ثم عاد يحبو على بطنه، يستجدي بشير إلمورّو:

- يا سيدي. مولاي وحبيبي. مسيحي المظلوم. لا أطلب منك شيئا، خفف فقط من صوتك عندما تحكي. الحيطان قاتلة، مجهزة لتسمع حتى الندى. لا تستعمل الكلمات النابية والخطيرة، سنهلك جميعا. أنت في حضرة مقام صاحب الأمر والنهي. نزوح فيها مثل شربة مية. الله يرضى عليك ويحفظك من العين والكيد، كلمة منك طيبة تغير كل شيء، بل تنشئ مصائر جديدة.

هز بشير رأسه بأسى ثم وضعه بين يديه. تمتم وهو لا يعرف هل عليه أن يصرخ حتى يفجّر القلق الذي ملأ قلب الكاهن، أم يصمت ويترك العاصفة تمر كما تشتهي؟ أيعقل أن يخاف الإنسان من الموت إلى هذه الدرجة؟ ثم مد يده إلى رأس الكاهن وهمس في أذنه:

- قم. قم لا تكسر ظهرك إلى الأمام كثيرا. التماثيل تنكسر عندما تنحني. في قلبك يجب أن يظل الله كبيرا وإلا فأنت قد أخطأت مسالكك. هو من ينحني لك.

- من يا سيدي؟ الخادم؟ الإمام؟ العسكري؟ سأقول لهم. كلهم خائفون.

- هو. الحاكم بأمره. عليه أن يدخل زاحفا إليَّ. لقد تنازلت لرؤيته وكان يُفترض أن أتمنع. أنا وهو من طينتين مختلفتين. لا تتعبوا أنفسكم.

- يا سيدي قلنا لك نرجوك.

- أنا هنا. أنتظر الآتي كيفما كان.

بدالهم واضحا أن إثارة البشير قد تزيد من عنفه وصراخه وشتائمه. فكّروا في قتله وإبادته، وإتلاف كل آثاره، لكن خوفهم من أن تكون العيون قد أوصلت جزءا من الحقيقة إلى قصر عزيزة، جعلهم يتغاضون عن الفكرة.

الأصدقاء الشماليون كانوا قد أقنعوا الحاكم بأمره بضرورة عدم قتل بشير إلموزّو، لأن قتله سيجعل منه شهيدا للمدينة. نصحوه بابتذاله حتى يفقد ألقه وسحره ويصبح تافها وجبانا. قالوا له: امسخه أمام الرعية، ثم اتركه يسيح داخل المدينة، سيقتله الناس بلا تردد، في احتفالية تليق

بالخونة والكذابين والمدعين والسحرة. سيخسرك الناس إذا أعدمته. ابعث له من يبتذله. شهر في وجهه ديمقراطيتك واتركه يتحلل من تلقاء ذاته. سيمّحي من الذاكرة الجمعية بسهولة.

أمر العسس أن يتركوه يمر حتى الباب السابعة المؤدية إلى القصر مباشرة. كانت عدسات التليفزيون منصوبة في كل الزوايا، والشاشات تعلن في بلاغ هام، مع موسيقى وطنية عسكرية، عن شيء غير اعتيادي سيحدث في الجملكية في المساء. تتبع الناس مفاجأة الحاكم بأمره في إنجاز ديمقراطي جديد، يضاف إلى المكاسب القديمة التي حققت في عصره الميمون. عندما دقت الساعة الصفر، انفتح إطار الشاشة على وجه الحاكم بأمره المضاء بألف مصباح ملون وألبسته العسكرية الخضراء الفضفاضة والفسفورية المضيئة، وفي الخلفية علم الجملكية الجديد. ظهر بشير إلمورّو، وهو يدخل، في شكل رجل مرتاح، لم يكن لا مكبلا ولا مقيدا، بلباس مزركش بعشرات الألوان المتداخلة مثل ألبسة الموريسكيين التي جاؤوا بها بعد حملات الطرد الجماعي. كان المعلّق يروي الاستقبال الحار الذي خصصه الحاكم بأمره لضيفه الكريم القادم من بعيد، ويؤكد على كرم فخامته وتسامحه الكبير. السجناء الذين أساؤوا إليه هم ضيوفه. فجأة تعب صوته وعلته بحة تشبه الغصة، وهربت الكلمات من شفتيه عندما مد الحاكم بأمره يده إلى البشير، وبدل أن يقبّلها هذا الأخير، مدَّ له هو كذلك يده ببرودة قبل أن يتهالك على أقرب كرسي، حتى بدون أذن مسبق. أمره بالجلوس بجانبه مع ابتسامة مصطنعة.

- تفضل أيها الأندلسي الطيب.

- ليعذرني مولاي، لقد قضيت عمرا، طال أكثر من اللازم، بعيدا عن كراسي الحكام، أبحث عن الوجوه التي ضيعتْها كتب التاريخ والسير القديمة، المكتوبة بماء الذهب والمجلدة بالقطيفة. الوجوه التي سُرق عزها وألقها، فوجدتها في الأخير يا سيدي، مرمية في صحراء الربع الخالي تخيط جراحها، وتمسح آخر قطرات الدم الذي سرق منها في لحظة غفوة. لقد بَنَتْ الأوطان، ورفعت الأركان، وبعدها نُفيت من

بلدانها لأن عيونها كانت ترى أكثر مما ينبغي، وألسنتها تجاوزت الخط الأحمر الذي يفصل بين الكلام المسموح والكلام الممنوع.

- نحن نكرمك إذ نضعك بيننا. الماضي كان قاسيا علينا جميعا، ولكننا فتحنا مسلكا ديمقراطيا متميزا. أتينا بنظام الجملكية لنحفظ أصالتنا وتاريخنا من التلف، ونرفع تحدي التطور والتأثير في النظام العالمي. نحن في زمن العولمة، إما أن تكون مضيفا إلى البشرية وخلاّقا أو تكون مضافا إليها بلا معنى.

- لا أفهم يا سيدي كثيرا ما تقولونه. لقد أوقفت حياتي كلها على الساحات الشعبية في غرناطة وفي جملكية أرابيا، أستعيد التواريخ المنسية أو المسروقة. وعندما تعبت وأردت أن أجلس، أجبرتُ على الجلوس على خازوق دمَّر كل خلاياي الحية. أرجوك يا سيدي لا تجبرني على الجلوس في مكان لم أختره، فقد فعلتْ معي محاكم التفتيش المقدس قبل عدة قرون الشيء نفسه.

ابتسم الحاكم بأمره وكأنه اكتشف فجأة منفذه:

- أنت عشتَ عدة قرون؟

- بين ثلاثة أو أربعة قرون وبعض السنوات.

- أريد أن أسمع شكواك لأفهم ما حدث لك. تفضل.

- حدث ذلك عندما عدت في المرة الثانية إلى أحد أحلامي الممنوعة التي ملأت بها أسواق غرناطة، وبدأت أصرخ يا سيدي: يا ناس؟ أنا من تلك البلاد التي لا يعرفها إلا قلبي، ما الذي جاء بي إلى هذا الخراب وتركني داخل هذه الوحدة المقلقة؟ ما الذي أحرقني بنار غير ناري؟ كنت أعرف الجواب يا سيدي، أعرفه أكثر من غيري لأني كنت صريحا مع قلبي. وكثيرا ما أدنت طارق بن زياد وحتى موسى بن نصير على جنونهما. تمنيت في أعماقي لو لم يحرق طارق سفن جنده، وعاد من حيث أتى. وُرَثاؤُه يا سيدي، باعوا رؤوسنا بأتفه الأثمان. كانوا سادة البلاد وحكامها، فمزقوا لحمي بوسائلهم الجهنمية. قالوا أنت تمارس الهرطقة. اتهموني بكل الجنون الذي مر بأذهانهم. في المرة

الثانية، رماني سيد الخرابين، خراب الدين، وخراب الدنيا، في سرداب يقع تحت البحر، الذي ملأت أمواجه دماغي. كانت الردم عميقة ومندّاة. بعد ثلاثة قرون يا سيدي، أو ربما أربعة بحسب رواية المؤرخين، عندما اجتاحني الحنين الصوفي لعشقي القديم وصرخت في أسواق آرابيا عن سر قصة السلطان الذي حاول أن يعمي الشمس ويسكن صمت الليل، عسكر آرابيا أي عسكرك، قادوني إلى هذه الحفرة التي أكلت لحمي، وشقّت عظمي.

وبدون سابق إنذار، فتح بشير إلمورّو لباسه عند الصدر، الذي بدت فيه الندوب التي علتها خضرة ما بسبب تعفن الجروح، واضحة للعيان. ارتبك المخرج والمصوّر أيضا، ومسئول الإضاءة والمكلّف بالإرسال ولكن لا أحد تجرأ على توقيف البثّ.

- ردموني في نفس الحفرة القديمة. أقسم برأسك أنه نفس السرداب الذي عبرته قبل قرون. بنفس خيوط العناكب. نفس المواسير التي تمرّ عبرها المياه متّجهة إلى البحر. نفس وجوه الزبانية الذين كانوا في الحفرة في ذلك الزمن البعيد.

تعكر صفو كل الوجوه ومرحها الذي دخلت به. عملا بنصيحة أصدقائه الغربيين، كان الحاكم بأمره يحلم بأن يُظهر بشير إلمورّو مجنونا أمام المشاهدين. كان يطبق حرفيا تعاليمهم، لكن يبدو أن النتائج كانت عكسية تماما. فقد اندفع الكثير من الناس، في اليوم الموالي، إلى الوقوف في محيط القصر والمطالبة بإطلاق سراح بشير إلمورّو. تولد عن اللقاء موجة غريبة من التعاطف.

في لحظة ما بدا واضحا قلق الحاكم بأمره. سأل بشير إلمورّو بنوع من الخبث الظاهر الذي لم يخف على المشاهدين، وأعاد الروح لتقنيّي التليفزيون الخائفين:

- تقول يا السّي بشير إنك موريسكي، أي أنك قادم من غرناطة الغالية علينا جميعا؟ متى غادرتَها؟

- في ١٦٠٩، أي مع الأفواج الموريسكية الأخيرة المطرودة.

- بمعني أن الشخص الذي يقف أمامنا عمره الآن أكثر من أربعة قرون؟

- هوّن على نفسك يا مولاي. جئت من عصر انقرض ولم يعد شيء يوحي بوجوده اليوم بعدما بعنا كل القيم بأبأس الأثمان.

- أي أنك قادم من الأندلس، وأنك كنت تعيش في غرناطة قبل أربعة قرون؟ أي قبل سقوطها بين أيدي الشماليين.

- هي لم تسقط يا مولاي، ولكن رجلا اسمه محمد الصغير يختزل في صفاته حكام الجملكية، قبض الثمن، ثم أُرُكِبَ على ظهر دابة وبُعِث به إلى فاس ليعيش ويموت هناك، تاركا وراءه شعبه يموت في الصمت والقلق.

- إذا كنت قد فهمتك جيدا، فأنت غادرت الأندلس في سنة ١٥٩٥؟

- يبدو أنك لم تسمعني يا سيدي. لست خائنا لأفعل ذلك. طُردت في ١٦٠٩. أي قبل أربعة قرون بالضبط. من هذه الناحية لا أنسى أي تاريخ جرحني وأدمى ذاكرتي.

- عمرك الآن لا يقل عن أربعة قرون؟

فهم بشير إلمورّو قصد الحاكم بأمره، وما كان يرمي الوصول إليه.

- نعم، وربما أكثر. أنا ثمرة الهزائم التي ألصقها بنا الحكام، والانتصارات التي كانت وراءها سيول من الشهداء والناس الطيبين. وهل سيدي الحاكم بأمره سلطان نفسه؟ أليس هو ثمرة سلسلة سبقته في الخوف والهزيمة وتقتيل الرعية وتجهيلها؟

تماسك الحاكم بأمره وبلع رماده.

- غير مهمّ. أنا أوقفت الزمن عند حده، وبدأت مع رعيتي زمنا آخر حلَّت فيه الجملكية كل المعضلات التاريخية. قل لي أين كنت طوال الأربعة قرون هذه؟

- كنتُ في الكهف. متأكد يا سيدي، من أنك تعرف بقية القصة. لا يمكن لأي نظام أن يدوم وهو بعيد عن رعيته ولا يعرف ما تعانيه.

البعد والمسافة يا سيدي يقتلان الحكم والحكمة. وضع لا يريحك أمام رعيتك؟

طار عمال البحر والعلماء فرحا من الإجابة الأخيرة التي قالها بشير إلمورّو، ولم يستطيعوا أن يكتموا سعادتهم. كانوا مشدودين بصورة كبيرة إلى التليفزيون. ابتلع الحكيم ريقه واصل بصعوبة أسئلته التي ظلّت تدور حول نفس الفكرة.

- هل يُعقل أن يعيش الإنسان الفاني أربعة قرون؟ هذا مستحيل يا بشير إلمورّو، هذا مس أو جنون. من غير المعقول؟

- هل أنت مسلم حقيقة يا سيدي؟

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله. الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

- كلامك يكفّرك يا مولاي. أنت تحكم البلاد باسم الإسلام وليس بالبوذية أو الماجوسية أو الهندوسية أو اليهودية أو المسيحية؟

- أعوذ بالله.

- إلا تؤمن بالقرآن؟

كاد الحاكم بأمره أن يقفز من مكانه، ويذبحه بيديه. هو يعرف أنه يستمد جزاء مهما من سلطته من الدين. بل إن الدين هو سلاحه الكبير والاستثنائي. تمتم وهو يتنفس بصعوبة كبيرة: ابن كلب هذا، يريد أن يكفرني أمام الأمة بكاملها. سأعرّيه.

- وهل هذا سؤال يا بشير؟ القرآن مآلنا الأول والأخير في الحكم.

- طيب. أهل الكهف عاشوا أكثر من ثلاثة قرون.

- ولكن يا بشير!؟

- لا يا سيدي، يبدو أنكم لم تقرؤوا قصة أهل الكهف؟ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**[٦٦] قصة أهل

(٦٦) سورة أهل الكهف.

الكهف في المسيحية أيضا محبوكة بشكل جميل. تحدد قصة أهل الكهف المسيحية الإمبراطور الذي كان معاصراً قبل أن يناموا والإمبراطور الذي أصبح موجوداً بعد استيقاظهم، وبهذا حددوا عدد السنين بـ ٢٠٠ سنة.

- ليس مهما.

- ولكن يا سيدي من أين لك بسيدنا الخضر إذا لم تقرأ أهل الكهف؟

- سيدنا الخضر هو سيدنا الخضر. مولانا العالم الجليل.

بدا ارتباك الحاكم بأمره واضحا. ابتسم بشير إلمورّو منتشيا بإحساس عميق.

- سيدنا الخضر ليس هو سيدنا الخضر. هو العالم الجليل الذي بُتِر لسانه، وسُملتْ عيناه ورُمي على أطراف المدينة، وتُرك يدور في حلقه مفرغة على ظهر دابة عجوز. لقد صنعتم منه آلة موت وقتل وليس رمز خير ومحبة.

ارتبك وجه الحاكم بأمره من جديد، وبدأ الدم يغيب من ملامحه. لم يستطع أن يكتم غضبه الأعمق. فقد شعر بأن بشير إلمورّو بهدله أمام الملايين، وحوّله إلى مسخرة في عيون الناس والكاميرات المسلّطة عليه. ابتلع ريقه وحاول أن يمحو من على وجهه صورة المنهزم. يجب أن يبدو بشير أمام الرعية في آرابيا مجرد درويش مجنون، يعيش في الفراغ كلما توهجت ذاكرته بخيالاته الدفينة بالأوهام الغرناطية والأشواق الأندلسية.

- إذن أنت هنا، قادم من الأندلس لنشر الفضيلة؟

- لا يا سيدي. لا رسالة لي. رجل دون العادي صنع القدر مني شيئا أنا نفسي لا أعرفه. العدالة يا مولاي لا يمكن أن تنتشر في العفن. أنا مجرد علامة عابرة لا تمثل إلا نفسها. المحمي بالوكالة والثائر بالوكالة يلتقيان في صلب الخيانة.

- أفصح يا بشير، نحن نعيش في مجتمع تعددي وديمقراطي؟

- من يحمي نفسه بالأجانب خوفا من شعبه، خائن. ومن يثور

ويضع مفاتيح ثورته بين أيدي أصحاب القوة والمصالح كوكلاء عليه، ليس أقل خيانة.

- آرابيا نظام متفرد، ديمقراطي وحيوي واستقلالنا دفعنا ثمنه غاليا.

- وبعتموهم بالرخيص. هل تعلم يا مولاي أن أبا عبد الله محمد الصغير، فتح أبواب السجون من هنا. ومن هناك باع البلاد كلها للقشتالية؟ وفي الغد، كان على الهضبة يتأمل المشهد المريع لرجال عاهدوا قلوبهم أن ينتفوا ولا يسلموا في المدينة التي صنعوها وبنوها وشيدوا أسوارها. الخائن بالوكالة جبان يا سيدي.

علا الغضب وجه الحاكم بأمره. وقف شعر رأسه. بدأ الغليان يمحو خطوط وجهه ويفكر في الضربة القاضية. كل النصائح باءت بالفشل. فكر في الطريقة التي يصفيه فيها من حيث لا ينتظر. أدرك أنه يضعه في صف محمد الصغير: أنا لم أبع البلاد، وإذا كان يقصد الشماليين، فهؤلاء أصدقائي. ومثلما يستثمرون في البلاد، استثمر أنا في لغاتهم وتكنولوجياتهم، وفي نسائهم أحيانا. الاستثمار متبادل. سمَحُوا لي بفتح حسابات بالعملة الصعبة في عواصمهم، وفتحتُ أمامهم صحاري النفط؟

لم يعد بإمكان الحاكم بأمره أن يضف ولا كلمة واحدة. كان الزبد قد ملأ طرفي فمه. في اللحظة نفسها التي كانت فيها الحيرة تشل مخ الحاكم بأمره، تدخل أحد المثقفين الكبار الذين كانوا قبالة الحاكم بأمره، من وراء الكاميرا. عرفته ماريوشا التي كانت تشاهد الحصة. أستاذها في الاقتصاد وحبيبها السابق الذي باعته للخراب لأنها رأت في لحظة من اللحظات أنه كلما لمسها شعرت بأنها مومس، وأن شيئا عميقا فيها انكسر فيها.

- أنت لم تفهم قصدَ حبيبنا وسيدنا. هو يريد فقط أن يعرف منك، إذا كان ممكنا أن تدخلنا في أجواء حياتك؟ الكثير من الناس كان يراك يوميا في الحلقات في الأسواق، ولا يعرفك؟ وجودك يا سيدي غامض في آرابيا. من أنت؟

- أيها الرجل المأمور، الخائف بلا سبب؟ رجل الاقتصاد الألمعي الذي باع نفسه بلا ثمن يُذكر وشعبه كل يوم يموت قليلا، الفناء ليس شيئا كبيرا. لحظة عابرة، تخط طريقها ساحبة وراءها كل من كان في مسلكها. الرجل رجل يا ابني حتى لو كان في صلب المحرقة. كل الخلائق التي أحبت مدنها وأوطانها، حين استفاقت من لذة العشق، وجدت أنفسها خارج جدران مدنها أو في صلب المحارق القاتلة. أنا أيها المثقف المأمور، حفيد ورقة بن نوفل، والحلاج وابن رشد.. عشقت مدينتي التي وجدت نفسي غارقا فيها حتى الجنون، ويوم أحسست بأن المدينة ليست لي، حملت نفسي، وعدت إلى أرض اكتشفت متأخرا أنها هي أيضا اغتصبت من قلبي. من أنا؟ هل في الأمر أهمية بالنسبة لشؤون البلاد والعباد في ماذا تهمكم التفصيلات؟ ليقول من يراني أني مجنون؟ فهم كانوا يرونني يوميا في الأسواق الشعبية التي أغلقت خوفا من سحر الحكاية ورسائل القوّلين؟

- نريد سماعها يا السي بشير إلمورّو من فمك. الناس يريدون معرفتك عن قرب. عرّف بنفسك. هل أنت إنسان أم مجرد خرافة؟

- أنا بشير إلمورّو. بشير فقط، لأن الفقراء في الأعراف القديمة، لا يحقّ لهم أكثر من اسم واحد، مثل سبارتاكوس الذي حكيت عنه كثيرا في حي البيازين، ليس مثل الأغنياء الذين يحتكرون كل الأسماء السلالية. سبارتاكوس كان منا، من أحزاننا وأفراحنا. ملوك الرومان مجتمعين، اندثروا وأبيدوا وبقيت الحقيقة: سبارتاكوس. ماذا بقي من محمد الصغير الذي تعددت أسماؤه؟ سيدي الكبير، يحمل الأسماء كلها، الحكيم، الحاكم بأمره، قرن الغزال، العادل، الصادّ، المادّ، الشادّ، الهادّ. الذي سك اسمه على كل النقود الوطنية، واستصدر القوانين المتعددة لحذف الكثير من أسماء الحيوانات من قائمة القواميس العالمية، ماذا سيبقى منه؟ لا يستطيع أحد أن يدوم في السلطان وهو يفتح عينيه ويغلقهما على الكذب. أنا لا أستحضر عند الحاجة سوى دمي الأندلسي مصحوبا بزفرة الفقير الذي رأى غرناطة تسقط، راح

ليموت بين صخرتين في جبال البشرات. عمري يبدأ منذ زمن بعيد، بعيد جدا. يبدأ في اليوم الخامس أو السابع لا أعرف، من الشهر العاشر، أو الحادي عشر. كلمات السر يا سيدي، عندما يلمسها قلبك، يسقط سيفك مبتلا بدمك وتتفتت كل الأسوار التي تفصل الحاكم عن المحكوم. ن.ض.ق.ف.و... هي نحن يا صاحب الباب العالي ولا شيء غيرنا وغيرها. وإذ يأتيك وهج الكلمات، فلا يبقى أمامها سوى أن تقوم أو تترك النيران تنحتها. نحن نأتيك بالحرف الوهاج لنبين لك وللأولين، أن الحرف سجن مكين، للطغاة والظالمين. حرف يتوقد مثل النار داخل الظلمة حين يعم الشر. تلك أحرف وكلمات لم تخسر شوق البلاد إلا عندما خسرناها نحن وأهملناها إلى أبد الآبدين وابتذلنا سحرها. تركناهم يعبثون بالفاء والقاف والسر المكين. حروفنا يا سيدي ليست حروف الحاكمين. نحتت من جروح الحنين وآلام العاشقين. دفناها الواحد بعد الآخر وبعد قرون متعددة، ومتكررة مثل الداء، استيقظنا على بطش القتلة الذين لم تتغير أقنعتهم. نستحق أن يحكم رؤوسنا رجل مثل محمد الصغير. عرفنا بعد زمن طويل كم كنا أغبياء حينما رمينا أحرفنا الحية لذاكرة الموت. تريد أن تعرف أكثر؟ وُلدت في منخفضات الأحياء الفقيرة، في غرناطة أو في مدينة صغيرة على حواف آرابيان يُقال إن أصل سكانها أندلسيون. لا يهم. قضيت العمر بكامله أبحث عن السر الذي خلفه الناس الطيبون الذين ركبوا الموجة المكسورة ولم يتركوا وراءهم إلا آلامهم وأصداءهم. كانوا يستنيرون بالبحر الذي لم يفقد زرقته إلا في أيام الحشر العسيرة. هل تريد أن تعرف أكثر؟ أم تترك الحكاية لخرير الوديان وعصافير الجنة التي لا تموت؟

- نريدك أن تتحدث عن نفسك، عن أجدادك . . . عنك.

- وماذا فعلتُ حتى الآن؟ سمعك يا سيدي أصبح ثقيلا ومنهكا من شدة الرغبة في إيذاء الآخرين، وصرخات المنتهكين والمقتولين.

كانت الأسئلة مرتكبة ومختلة وغير مبرمجة. الأمر لم يكن يستوجب فطنة كبيرة لإدراك أن الكل أصبح في ورطة. لا يمكن أن يوقفوا

التصوير، لأن المفاجأة الديمقراطية ستموت. قتله يحتاج إلى حسابات دقيقة لكي لا يتحول إلى محرك للرعية. الخيار الوحيدة المتبقي، هو محاولة توجيهه بما يخدم الجلسة والتصورات المسبقة التي عقدت من أجلها.

استجاب بشير للسؤال المرتبك.

- من أنا بعد كل هذا؟ جدي الأول كان فحّاما. الجد الثاني كان بحارا أورث أشواقه وآلامه إلى الجد الثالث الذي جاء من بعده. سافر جدي إلى غرناطة يبحث عن سيف آخر يمتلك قدرة المقاومة. في النهار محارب، وفي خلوته الليلية يمتشق المخطوطات التي كتبها أصحابها وقبل أن يضعوا لها خاتمات، أُغلقت أفواههم بالحجارة والتراب. أبي كان يريد أن يراني بحارا ريسا عظيما، . يقودني معه دوما إلى أعماق مياه البحر. يقول إنها مهنة الموت، ولكنها هي ما تركه لنا الأجداد، لكن تأثير جدي فيَّ كان الأقوى. ذات صباح، حملت زادي وألبستي المقطعة والزاد، وأعطيت يدي الصغيرة لجدي، قلت له خذني معك إلى غرناطة. والدي أبدي اعتراضا. أخي الأكبر كان هو الوحيد الذي قرأت في عينه فرحة خاصة لم أفهمها إلا لاحقا. كان جدي، كلما قرأ كتابا في التاريخ، يرفع صوته عاليا ويصيح بألم: يا الله لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ إنهم يكذبون يا بشير حبيبي، وعليك أن لا تصدقهم. إنهم يكذبون حتى على الله. ثم يسحب سيفه ويضرب بقوة على الأرض. يخرج إلى سطح البيت وينظر بعيدا، عبر مرتفعات غرناطة، أو بحر ألميريا، بحثا عن الوجوه المنحدرة من الشمال، يحملون الموت والخوف في رؤوس المدافع الإيطالية. يؤكد جدي أنهم كانوا يزحفون مثل الجراد على المدن التي كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، كحبَّات اللوز اللي طابت بزّاف، بزّاف. لقد باعوها للقشتالية والأراغوني. تأكدت يا سيدي، بعدما امتلأ صدري بالحرف الوهاج الذي كان يقدسه جدي، أن التاريخ يكتبه المنتصرون، ويجب أن نبحث عن عين أخرى، عن قلب آخر نلمس من خلالهما أشواقنا. كان جدي يعرف سر

الحكاية، ولهذا عندما دخلت لأول مرة إلى أسواق غرناطة، كانت أول حكاية أحكيها هي عن جدي الذي سلّمني سيفه وكتابه وأشعار صديقه حمود الاشبيلي الذي شق البحار، والأشجار، وطاردته محاكم التفتيش، وطلب من البحر أن يفتح له طريقا، لكن البحر أبى واستكبر. في الحكاية استدركت، لأن عيون الناس كانت مندهشة، فغيرت النهاية وكان يجب أن لا أفعل: ضرب جدي بيده على الموجة البيضاء، فانشقت على اثنتين لتهيئ له طريقا داخل البحر. رماني الحاضرون في السوق بالحجارة، وكل واحد يصرخ ورائي، وأنا أشق الأزقة الضيقة، كنتُ صغيرا: ظننت نفسك موسى بن نصير يا فرخ سبنيول؟[٦٧] . . . القصة ليست ملكك حتى تعيث فيها فسادا. كنت أحاول في الحقيقة أن أصنع نهاية ترضى حنينهم إلى الحرية، لكن الكذب بدا واضحا على وجهي. حين رويت القصة لجدي المريض، لم يكلّمني أسبوعا بكامله. ثم جاءني ذات مساء وكنتُ منكفئا على فمي تحت شجيرة الياسمين الإشبيلي في بيتنا الغرناطي الضيق، المليء بالحنين. ضحك بسماحة: هه يا موسى؟ كنت حزينا ومقهورا. لكني عندما رأيت الابتسامة ترتسم على ملامحه من جديد، فرحت، ونسيت كل قطيعته السابقة. قال، ومازلت إلى اليوم أتذكر استقامته وهو يحكي: لا يا بشير ابني، أنت لم تُخلق لهذا. خُلقتَ لفك الرمز المكنون، المحفوظ في الصدر، بين الضلع والضلع حيث تختفي حروف التوهج. اروِ ما تراه صادقا مع ذاتك، لا تكذب على الناس لأنهم يعرفون حقيقة أخرى قد لا تعرفها أنت. فهم لا يصدقون كتب التاريخ منذ أن اكتشفوا أنها مملوءة برماد حرائق محاكم التفتيش والناس المأجورين. إنه تاريخ الدواوين والوراقين الذين يكتبون وعيونهم مثبتة على جيوب سادتهم. بعد هذه الحادثة التي تعلّمت منها كل شيء، تجوَّلَ بي في كل الأسواق، وعرَّفني بأصدقائه. سمعته يتحدث معهم. ويوم أمتشق سيفه وحصانه وذهب مع الذاهبين

---

(٦٧) أيها اللقيط الإسباني.

إلى البشرات التي كانت تعيش أخر فترات مقاومتها للزحف الشمالي، شعرت بالوحدة القاسية لكني تذكرت كلماته التي ملأت قلبي وعيني نورا: الذي يحبّ الحياة، عليه أن يعرف كيف يموت من أجلها. حين وقفتُ أودعه في ذلك الصباح البارد، مسح عيني من دمعتين ساخنتين وهو يقول: لقد أصبحتَ كبيرا يا بشير، الحياة كلها أمامك، أما أنا فسأعود إلى حرائقي وترابي. ما يزال السيف حارا، والحصان قادرا على الركض والمقاومة والبارودة لم تفرغ من نارها. وحينما أردت أن أصطحبه، أبعدني بهدوء: لا يا بشير، أنت صوت القوالين القادمين في هذه المدينة، دافع عن الضمير الحي. الأسواق تحتاج إلى وجودك لمقاومة كتب التاريخ المزور. قل الحقيقة ولو كانت مؤذية. الأذى وقود الذاكرة، لا تخف. قُل إننا دخلنا بلادا لم تكن لنا، ولكن قل كذلك أننا بنيناها من العدم، وعشقناها بصدق، وحقّ لنا أن نعشقها، فيها عرقنا ودمنا وعظامنا وبعض أجدادنا ممن نحب. الوراقون يملئون الدنيا، كتاب الدواوين يزوّرون حتى وجه الله، لا تسالِم. وتعلّمْ كيف تقاوم. أكتبْ تاريخنا قبل أن يتمّموه هم. اذهب وكن نورا يملأ عيون الأطفال والبلاد.

حتى المصوّر نسي نفسه وهو يصغي إلى كلام بشير إلمورّو المأخوذ بسحر الحكاية. لكزه مدير التصوير والمخرج ليغير حركة الكاميرا باتجاه الحاكم بأمره.

- تعلمت من هزة جدّي علاقتي بالصدق والحقيقة. عمي حمود الإشبيلي بذل جهدا كبيرا ليجد لي مكانا داخل الأسواق الشعبية، ليس بعيدا عنه. كان يقول لي دائما، جدك كان أميرا وحبيبا، تعال على هنا. خذ هذه الزاوية إنها أجمل مكان وقريبة من المسجد. كلما خرج الناس بعد الصلاة، يمرون بجانبك، يستمعون إلى حكايات قطعت نهائيا مع الكذب. كانت الأخبار تدخل إلى البيوت والحلقات والشوارع بدون خوف. وصراخي كان كل يوم يتعالى قليلا. كل هذا لم يكن مهما بالنسبة للشرطة، كانوا يقولون دائما، واحد من القوالين، اتركوه يحكي ما يشاء،

لا يقتل ولا يحيي، لا يضر إلا نفسه ولا يضيع إلا وقته. لكنهم حين فتحوا متأخرين عيونهم على هول الحكاية، كان كل شيء قد انتهى. فكروا في جرّي من الأسواق الشعبية إلى السجن، لكن الأمر استعصى عليهم بسبب عيون الناس الذين كانوا مستعدّين لحرق المدينة. فحتى محاكم التفتيش يا سيدي، وكلاب الصيد التي كانت تُربي خصيصا لتمزيق اللحم البشري، أصبحت عسيرا على هضمها. مع الزمن وجدتُ نفسي داخل تنظيمات موريسكية مركبة، تحاول أن تعترض فرق محاكم التفتيش لتخويفها ومطاردتها. كانوا عندما يحاولون الدخول إلى حي البيازين يحسبون كل الحسابات. في مرة من المرات، اضطرّنا الموقف إلى قتل قائدهم، بينما هربت بقية الفرقة. كنّا في حالة دفاع عن النفس. أعفيك يا سيدي من سؤالك المحير الذي لا تستطيع الإفصاح به: لماذا هربتَ يا بشير من المدينة التي ملأت أناشيدك؟ أنا نفسي لا أعرف. أتساءل يوميا لماذا تركتُ المدينة التي امتصت أهلي وطفولتي وجئت نحو مدينة ظننتها ذاكرتي البعيدة. أبعد من الذاكرة الأندلسية. قلت في نفسي يا سيدي، يا بشير، يا شاعر الأندلس، يا قوال مجانين غرناطة وحي البيازين، ألم يكن أمامك حل آخر يا ابن أمي غير ترك المدينة؟ ألا تشبه محمد الصغير الذي ترك البلاد والعباد؟ نعم يا صاحب الباب العالي، يا حكيم الجملكية، أيها الحاكم بأمره، كانوا يأتوننا من بوابات القصور، يلبسون لغة الشعب ويستعيرون صورته المحزنة، وحين تعلو النار في الأزقة، يحملون سيوفهم وينزلون بها على رقابنا، مما يضطرنا إلى امتطاء فلائك العودة باتجاه أي بحر كان، حتى بحر جهنم خوفا من مدينة أصبح فيها الموت أمرا حتميا. لم أكن أريد الهرب، لكن المدينة التي خسرناها كانت قد خسرتنا هي أيضا. الأسواق التي خُنَّا تربتها، خاننا البحر، ورمى أملاحه باتجاه الغير وتركنا نموت. من أين تأتينا الثقة يا سيدي؟ من العمق أم من السطح؟ أنت تراني جيدا، لا أصنع لا قنابل فتاكة، ولا مدافع إيطالية ولا دبابات أوجهها ضد جملكية آرابيا، لا أنجز سوى أناشيد الحنين والإعتاق التي لا تخيف إلا محمد الصغير وورثاءه. لا

أحمل في قلبي سوى الحكايات التي تروي قصص الرجال الأخيار. أخيفك مع أني لا أخيف طفلا.

تململ الحاكم يأمره من جديد في مكانه. كان الحزن والخيبة باديين على وجهه. ومع ذلك، فالحركات التي كانت تأتيه خفية من أصدقائه الأوروبيين ومستشاريه، كانت تشجعه أكثر، على الذهاب وراء المغامرة حتى نهايتها.

- أي حكاية وأي نشيد أندلسي؟

- النشيد الأندلسي المليء بالحنين. ملكي الوحيد الذي لم يمسسه القتلة طوال العمر. جاء معي ويبقى معي، وقد يموت معي. وصية جدي قبل أن يموت. قال لي: أمامك النشيد إذا ضيَّعته، ضاع منك صدقك. قالها قبل أن يتعثر ويموت بين صخرتين مثخنا بجراحه هو وحصانه. تريد أن تعرف النشيد الذي قاله جدي وهو يقف على الصخرة المحاذية للهضبة التي وقف عليها محمد الصغير متحسرا يصرخ مثل الذئب؟ اسمع:

يا هضبة الهزيمة المنسية.

وها نحن نعود. لا شيء في أيدينا سوى السيف وحنين الجبال.

طارق، طرق الأبواب ثم عاد.

وحيدين نواجه الوحدة والخراب في مدن نستنا شوارعها...

كان صوت جدي شجيا يا سيدي. أسمعه الآن يتدفق في قلبي كشلالات الضوء المسكوب في كؤوس الجنة. حين فتحت عيني، كان أخي يقول لي دائما أنت نذير بؤس وشؤم. أكلتَ رأس أمك يوم ولادتك، وبسببك تعثر حصان جدي بين صخرتين فماتا، وبسببك أيضا غرق أبي في البحر. قلتُ والدي أكلته الزرقة وصرخات الموج وهو يواجه الموت بكبرياء الأبطال. أخي كان أكثر تفاهة من محمد الصغير، تجارته الميتة مع ساموبل كانت فوق كل شيء، أعمته نهائيا.

في لحظة من اللحظات، انتعش وجه الحاكم بأمره، تحت الانعكاسات الضوئية المتعددة للكاميرات المسلطة على وجهه المليء

بندوب الجذري. حرك مؤخرته بشكل دائري بدون أن يغادر مكانه. كانت آلام البواسير قد استيقظت فيه. رسم على شفتيه ابتسامات محسوبة بالسنتيمتر. ها.. ها.. ها.. ثم تمتم في أعماقه. هاه... حالات الجنون بدأت تخرج من فم هذا الفرخ الأندلسي. الآن ستتغير صورته أمام الناس. يجب جرّه نحو هذه المساحات التي لا يستطيع تفاديها.

- واصل يا ابني. واصل. أمامنا الليل كله، والقناة مفتوحة حتى الصباح.

قالها الحاكم بأمره وهو يتململ في مكانه، مفتعلا حالة ارتياح خاصة، وكأنه يتقن إجادة الإصغاء. في اللحظة نفسها كان مخرج المناظرة يركز أكثر على أذني الحاكم بأمره الكبيرتين. كتبت تحت الصورة مادة من مواد الدستور الجديد الذي جاء مع الإصلاحات: **الذي يجيد الحكم عليه أن يجيد الإصغاء كذلك.**

- لو فقط كنتَ تعلم يا سيدي، ولكنك لا تعلم.

ردّ بشير إلمورّو وهو يغرس عينيه في الأرض بحثا عن تربة دافئة وسط هذا الرخام، ووسط الذاكرة المهزومة.

- النشيد الأندلسي، مازالت حرارته تملأ قلبي وذاكرتي. لقد أنشده جدي في ذلك الزمن البعيد مصحوبا بالنغمة الإسبانية، ممزوجا بعذابات الفجر الغرناطي. حين استيقظ جدي في الصباح الجريح وجد نفسه وحيدا، أكثر من ثمانية قرون ذهبت مع الريح. الأندلس لم تكن لنا، لكننا بنيناها بدم لا يجف. في اليوم العشرين من الشهر الثاني عشر كنت أعرف أنهم سيلقون القبض علي، أنا وكل القوالين الذين كانوا يملئون حي البيازين. في السبعين يوما السابقة لهذا التاريخ، وضعنا تحت الرقابة الجبرية. لكن الأصوات ظلت عالية والنشيد الأندلسي لم يسقط أبدا تحت نعل محاكم التفتيش المقدس. أناشيدي التي حفظتها عن جدي، ظلت تقاوم وتقاوم. كانت تأتي مثل الريح الساخنة وتتحول إلى وخز في قلوب كتاب الدواوين ومحرزي القصور الموبوءة، مليئة برائحة شجيرات الياسمين التي جاء بها جدي من إشبيليا في ذلك الزمن الذي صارت

أعوامه لا تحصى. يا سيدي، منذ أن غادرت الكهف وأنا غارق في الرواية. رواية ألم يقتل ولا يموت. كلما غفونا أيقظتنا إبره الحادة. شتاءات غرناطة قاسية. قبل أن أؤخذ في كابوسي الطويل إلى نار الحديد الساخن وأرى الوجوه التي سرقوا أشواقها وأفراحها للمرة الأخيرة، وقبل أن يصم ناقوس الخوف أذني ويدمي أنفي المتعب والضربات والكلمات، كتبت نشيدا أندلسيا جديدا، سميته ريح النار. أنا يا سيدي لا أكتب إلا في الشتاءات، أو في الفترات الفاصلة بين الخريف والشتاء. غنيت بالرغم من كل شيء لديسمبر. أحفاد جدي نهضوا في ذلك اليوم يبحثون عن رأس محمد الصغير يأكلونه. كانوا يريدون أن يموتوا، موت الأنبياء، قبل التفسخ في فراش الفقر. فالموت يا سيدي واحد. لقد فهموا سر الكلمات التي ختمت بين الضلوع منذ ذلك الزمن البعيد، منذ الحاكم الرابع، أو ربما منذ أن سلم محمد الصغير غرناطة لقاتلينا، القشتالية إيزابيلا وعشيقها المسلول فرديناند. قبل ذلك كله، بزمن بعيد، تذكرت كل الوجوه التي خاضت الحرب الضروس لا لاسترداد الأندلس التي كان جزؤها الشمالي قد سقط نهائيا، ولكن لاسترداد العقل الذي سرق منا؟، الكثير من مقاطع أناشيد ديسمبر كتبتها في ذلك الزمن. كانت ماريانا تملأني حتى القلب. لم يكن مهما أن أملكها وتبقى معي، مثل ظلي الذي ذبل تحت ضغط الهزال الذي أصاب جسدي، فقد كنت لا أنام إلا إذا استحضرتها واستحضرت من خلالها رائحة الياسمين الإشبيلي، جدي الموريسكي الأخير، وشوقي الغائب. ماريانا غنت معي لليالي الباردة، للحزن القاسي، للنوافذ التي أغلقت على مآتم الدفن والخوف، للزجاج الملون الذي تنكسر عليه في كل صباح، الشموس الغرناطية الملونة بألف لون. ملأتني ذاكرة الصفاء mémoire clairière بالرغم من الآلام والكسور والدم والعزلة. لم يستطع أحد أن يسرق نورها مني. كان يجب أن ندفع الثمن غاليا. دفعناه. هو ذا أنا يا سيدي، لا أعلم شيئا مهما عن قصتي. سوى ما قلته لك. ربما أنت تعرف مالا أعلمه أنا نفسي. جهازك يراقب حتى درجة حرارة الإنسان خوفا من الحرائق. ستقول لي إنها

ليست الحقيقة؟ لكني يا سيدي لا أملك غيرها، ولن أجبرك على تصديقي لأني لست معنيا بذلك. بيني وبينك الآن أيها الحاكم الحزين مسافة ذراع ونصف، داخلها تتحدد أشياء كثيرة يصعب حصرها الآن. صرخات كثيرة، وظلم كبير، ووجوه أحرقت في عز عنفوانها وشيخي النينوي الذي صلب وهو ينظر بعينين مفتوحتين باتجاه البياض حتى لا يكتب عنه الوراقون أنه مات وهو يستجدي الناس من أجل إنقاذه. لا أحد ينقذ الآخر عندما تشتعل الحرائق. لا أنا قادر على إنقاذك وجبر خاطرك، ولا أنت قادر على إنقاذي حتى ولو شئتَ ذلك. هناك تفاصيل كثيرة تتجاوزك وتتجاوزني يا مولاي.

- فهمنا جيدا يا السي بشير إلموزّو. فهمنا.

قال الحاكم بأمره هو يغمز أصدقاءه الأوروبيين الذين كانوا خلف الكاميرا، بنوع من السخرية التي تنم عن إحساس دفين بالانتصار.

- معك حق. لا أحد يستطيع إنقاذ الآخر حتى ولو شاء ذلك.

- عندما بنيتَ هذا القصر، لم أكن موجودا، وعندما باعنا محمد الصغير للشماليين لم تكن حاضرا. الدم الذي لم يفقد لونه ما يزال يجري فينا منذ أكثر من أربعة قرون، وربما منذ أربعة عشر قرنا. هو الذي يعمق الهوة والمسافة والنيران التي تملأ القلب والذاكرة بيننا، ويفصلنا عن بعضنا البعض حتى الموت. الأمر خرج من يدي وخرج من بين يديك. أنا أعذرك يا سيدي ولا أحاسبك.

- لا أحد يحاسبني إلا الله عز وجلّ.

- والشعب الذي أقسمتَ في الدستور باسمه وإلا لا معنى لكلمة الله.

- الشعب؟ طبعا؟ حبيبي وقرة عيني.

فجأة خسر الحاكم بأمره الحمرة التي علت وجنتيه للحظات قليلة. تغيرت ملامحه نحو سواد غميق. نشوة الانتصار المؤقتة سرعان ما تحولت إلى مجموعة من علامات الاستفهام القابعة في رأسه. بدا

واضحا أن بشير إلمورّو لم يكن لا مجنونا ولا مهبولا، كما كانت تؤكد له دائما عيون المدينة التي لا تغادر الأسواق والزوايا الضيقة، وكما زكّى ذلك أصدقاءه الشماليون. كان سيد العقل والرزانة. تذكر الحاكم بأمره وصايا دنيا بعد أن سلحته بكل الأسلحة الفتاكة التي تحولت إلى قنابل موقوتة انفجرت فيه قبل أن تنفجر في غيره. كاد يصرخ على المباشر: القحبة ابنة القحبة، أخت القحبة، تمتم الحاكم بأمره بغضب شديد، تريد أن تمسح جسدي بالتربة وتمرغني في الأوحال أمام الملأ لتستولي على السلطان؟ من يدري؟ إن كيدهن لعظيم؟ مسألة استراتيجيه كما يقول أصدقائي الشماليون، هم لا يخطئون إلا قليلا ولكن يجب أن أعترف أنهم يقيسوننا من خلال هواجسهم المريضة. لا يعرفون سحر خصوصياتنا أبدا ولهذا كثيرا ما جانبوا الصواب. اللعنة! ثم اللعنة! أين كان هذا البؤس مختبئا بدوره؟ ازدادت الأسئلة وتعمَّقت الحيرة أكثر ولا أعرف فكاكا منه. كيف قبلت الدخول في لعبة المواجهة التليفزيونية كأني في انتخابات رئاسية أمريكية؟ حشوة صحيحة أقلّ المستفيدين منها هو أنا.

كانت أضواء التصوير قد أُطفئت، والكاميرات سحبت من على مرتكزاتها وظهور أصحابها. البثّ انقطع بشكل فجائي، حتى بدون أية مقدمات وعُوِّض كل شيء بالأناشيد الوطنية القديمة ومطولات أم كلثوم الليلية: أغدا ألقاك. الأطلال. ألف ليلة وليلة... ظل بشير إلمورّو فترة طويلة مندهشا، يتأمل الزرابي الفارسية، والأيقونات اليونانية، والمياه التي كانت تسيل من كل الأطراف بأشكال وألوان مختلفة، والستائر العملاقة التي جيء بها من سمرقند والهند، وعطور بلاد السند، وورود بلاد الواق واق التي لا تذبل ولا تموت. انسحب الفريق التليفزيوني من قصر عزيزة، ولم يبق إلا بشير والحاكم بأمره ومؤرخ الجملكية الذي كان يجلس القرفصاء في الزاوية المظلّلة، والمضاءة بأشعة خافتة كانت تنبعث من لمبة نيونية لا تكاد تظهر. كان الوراق دقيقا في سؤاله.

- ماذا أكتب يا مولاي يا صاحب آرابيا الخالدة.

- وهل دوَّنتَ كل ما قاله هذا المجنون الهبيل، مخصوص العقل والدين؟

- دونته يا سيدي في كتاب تاريخ الأمة، وبه أنهيت المجلد السبعين الخاص بمآثركم.

- يلعن دينك ودين والديك، ودين الطاسيلا أنتاعك.

- مأمورك يا مولاي. لم أدوّن إلا ما يبين بطولات وفتوحات سيدي العظيم الأعظم.

- يا خرا، أنا لا أريد منك ذلك. أنت لم تفهمني بعد كل هذه العشرة؟

ارتسمت الحيرة في عين الوراق من كلام الحاكم بأمره الذي كان يشبه لغة قطاع الطرق، وأهل الشوارع، والسراق، وليس كلام حاكم يحكم البلاد، والعباد.

- ولكن يا سيدي هذا ما كنت أشعر أنك تريده!

- أنا لا أريد من يهدِّم عزي وبهائي الذي صنعته بمعاناة لا تُحصى. أنت تريد أن تخرب كل ما كتبته في المجلدات السابقة؟ إنزع عليَّ رب هذه المناظرة التافهة، وارو الرواية كما يجب أن تُروى. كما كُتِبَ لها أن تُحكى.

نهض الحاكم بأمره من مكانه بينما تصاعدت في اللحظة نفسها رائحة البول التي فاحت من سروال المؤرخ الذي كان كل شيء فيه يرتجف. امتشق الحسام الحاد من الشفرة على الجهتين. شعر الوراق بالزلزال يصعد من تحت قدميه. تعمقت الحيرة في عينيه.

- من أين أبدأ؟ أي عنق أكثر نضجا؟ عنق الوراق أم رقبة بشير المورّو؟ عليَّ من الآن أن أتفادى الرعاع. لقد سلمت للرعية سلاحا جديدا ضدي. قنبلة موقوتة ستنفجر داخل القصر كان يمكن أن أتفاداها بكل سهولة لولا توريط دابة الغواية الثانية وأصدقائي.

- لستَ مورَّطا يا سيدي، أنت في عمق خراب شبيه لخرابي، لستَ فيه إلا عنصرا يتحرك وتتحرك به الأشياء الميتة. لا تستطيع أن تتفاداني

مطلقا، لأني الحقيقة التي تصطدم بها يوميا، ولا أن أتفاداك لأنك حقيقتي التي أتفادى السقوط في براثينها المغرية. النيران يا مولاي تصعد الآن من تحت رجليك. القنابل الموقوتة أصبحت فيك.

نظر إليه شذرا، لم يعلق، ولكنه صرخ بقوة وهو يرمي السيف باتجاه الحائط محدثا شقا كبيرا في الزليج.

- قُدوه إلى الحفرة وعملّوا دين أمه الزنباع وين ينباع. ليمتْ في السراديب.

لم يقل بشير إلمورّو شيئا ولكن في لحظة من اللحظات الهاربة، رأف لحال الحاكم بأمره إذ شعر أنه فقد كل شيء حتى إمكانية أن يسعد بحكمه. لم يستطع أن يكتم كلمته الأخيرة.

- كُتِبَ عليَّ يا سيدي أن لا أفيدك، وكُتِبَ عليك أن لا تفيدني.

التفت الحاكم بأمره ناحية الوراق الذي كان القلم يرتجف بين أصابعه.

- وأنت واش راك تستنَّى؟ أغرب عن وجهي قبل أن أقطع رأسك. سكيني. سكيني أنا متعب... أخرج... أخرج...

قبل أن ينهي جملته الأخيرة، كان المرؤخ الذي ارتسمت في حجره علامات البول، قد غادر المكان نهائيا، بينما بدأ الحاكم بأمره يعض وسادته الحمراء عوض الخرقة التي تعود عليها. جاؤوه بالسكين الحادة من الجهتين. ثم انسحب وهو في حالة هياج كلي، باتجاه الحرملك الذي تعالت صرخاته حتى وصلت إلى السماء وإلي الدهاليز. لا صوت يُسمع في الخارج، لأن النوافذ وممرات الهواء والأبواب كانت قد سُدَّت نهائيا. لا يُسمع في داخل الحرملك إلا هسهسة السكين وهي تنغرس بقوة في نعومة الأجساد النسوية الطرية.

* * *

الفصل الثالث عشر

فَرْخُ الورّاق

لا شيء في الأفق إلا الخوف الذي سرق الفرحة من كل العيون التي كانت تترقب شيئا لا تعرف ملامحه، طال مجيئه كثيرا. كانت الغيوم في السماء المجوفة والباردة، قد تحولت إلى أشكال تقترب من الأفاعي والحيوانات الأسطورية التي تتربص بأنفاس العابرين باتجاه قلق ينتهي بالعابرين إلى الموت الحتمي.

الليلة الماضية كانت قاسية. المدافع بدأت دكَّها منذ الساعات الأولى من الليل حتى أولى علامات الفجر الغامض، الذي سبقته أسراب طيور النورس البيضاء التي ظلت تحوم على شواطئ آرابيا، جماعات، جماعات، قبل أن تنتحر كعادتها في أقاصي الساحل عندما تنغلق في وجهها كل السبل.

الضباب الكثيف الذي كثيرا ما ملأ فجر المدينة، بدأ يزول شيئا فشيئا مبرزا الصوامع أولا ثم الكنائس القديمة التي هدمت بعد أوامر الحاكم بأمره بتمديد الإسلام إلى كل زوايا آرابيا وفرضه. بسبب مصالحهم الكبيرة والضخمة، فقد أغمض الأصدقاء ومنظمات حقوق الإنسان عيونهم. فعلوا الشيء نفسه عن حملة الختان التي مست كل طبقات الشعب. يتضح الأفق البعيد رويدا رويدا، بدون أي لون، ما عدا السفن التي كانت ما تزال راسية على الأطراف، بعضها ابتعد نحو أعماق البحر، خوفا من قصف الليل إذ كان العمال كلما انتهوا من إفراغ باخرة، أو ملئها، يدفعون بها باتجاه البحر لتأمينها، ويؤشرون للسفينة الموالية بالاقتراب تحت حراسة مشددة. لم يكونوا ليتركوا أي شيء لحسابات

الصدفة. يعرفون جيدا عملهم. علمتهم التجارب القاسية أن الثقة في الحاكم بأمره هي جزء من الغباء الذي يمكن أن يمارسه الإنسان بشعور أو بدون شعور.

عادت له فجأة صورة الانتحار الجماعي لطيور النورس. يبدو، كما يقص أهل المدينة، أنه عندما تتكاثر طيور النورس في السماء، فذلك يعني أن نذير شؤم بدا يرتسم في الأفق وعليه تفاديه بكل ما يملك من قوة. ولا يريد مطلقا أن يراها وهي توقوق وتحلق فوق قصر عزيزة. يتمناها بعيدة دائما. حتى النافذة المطلة على الزرقة البحرية، كثيرا ما يضطر إلى غلقها بعنف ليتفادى رؤيتها قبل أن يغرق في إغفاءته الاعتيادية التي يستحضر من خلالها صورة الأجداد الآفلين الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها. تتدحرج في أعماقه صور أحد أجداده الذي حكم البلاد حتى دوَّدت إليتاه من كثرة الجلوس على الكرسي. أجدادي. . . يااااه على الأجداد؟ تمتم الحاكم بأمره وكأنه كان خائفا من أن ينزلق صوته نحو آذان لا تريد له أي خير. أجدادي حكموا البلاد والعباد، الإنس والجان وحتى الحيوان. كانت أسماؤهم عالية، عالية مثل صوامع المدينة، ولم يقتلوا إلا من استحق القتل. أهدروا دم الهاربين والهاربات، واعفوا على من شاءوا. المغفرة والرحمة كانت في أياديهم. هكذا كانوا. هكذا سيكونون. وهكذا سنكون نحن أيضا. هؤلاء البشر إذا لم يُلجموا بعنف سيأكلون بعضهم بعضا، مثل الحيوانات المفترسة والضالة. مثلهم مثل بني إسرائيل يوم تنكروا لألواح موسى التي خطت فيها الوصايا العشر بأصابع الله التي لا تخطيء. يبدو أن الأمور يجب أن تعود إلى ضوابطها الأولى. المُلك تفسده المغفرة الزائدة. علينا أن نتعلم كيف نحبط خطط أبناء الكلاب الذين يحملون بإجتثاث النظام الجملكي من على وجه الأرض. بدأت خطوط الطول والعرض تضيع وتختلط. كيف يتجرأ ابن الزانية أن يقف في وجهي بتلك القوة ولا يقبِّل رجلي؟ مسكين! أمي وجاهل. كيف يقول أني لا أستطيع أن أفعل من أجله شيئا وهو لا يستطيع فعل شيء من أجلي؟ نكتة لا يصدقها حتى طفل صغير. ماذا

يحدث لو أمرت بنزع رقبته؟ لا شيء. لن تنقلب السماء على الأرض. ومع ذلك لن أتيح له فرصة الشهادة أبدا. في هذا كان أصدقائي الأجانب على حق. من السهل أن نقتل إنسانا مهما، ولكننا من حيث لا ندري، نعمل على تخليده في قلوب الناس. لن يخلد إلا في السراديب قبل أن يتحول طعما للسباع الجائعة.

تململ من جديد في مكانه وجحظت عيناه من شدة التصاقه بالوسادة التي كان يعض عليها بكل ما يملك من قوة. أنا لم أفعل شيئا لابن الكلب وكان عليَّ قطع رأسه على المباشر. سيُعدم بالطريقة التي يقترحها أصدقائي. طرقهم الأنيقة لا تحصى. علينا أن نتعلم من دهائهم وإلا لا قيمة لحكمنا ولعلاقاتنا بهم. ها هي ذي دابة الغواية الصغيرة تخطئ في حساباتها وتقويمها. دنيازاد هبَّلتني بحديث ليلة الليالي في جملكية أرابيا. انا من سيجبر قحبة الغواية في أواخر ليلة الليالي على الركوع عند قدمي، والهذيان حتى الصباح. وعندما تخترق الشمس الجبال البركانية التي تغلف المدينة، سأكذّب النبوؤة الوهمية التي تنهي عرشي، وأذبحها من الأذن حتى الأذن. المحظيات كثيرات. ثم أنزل على الرعية بالبلاغات والبيانات حتى تسقط عند أقدامي مثل الحشرات. وقتها لن أتشاءم برؤية طيور النورس التي تحمل في مناقيرها نُذُر الشؤم، وأفتح النافذة المغلقة، لأن رائحة الكافور والأجساد المحنطة التي تنام في البيوت الباردة، تسد الأنوف. لقد غسلت لحظة اليأس والغضب العارم بالأجساد النسوية الناعمة، والدم الفائر. ونظفت يديّ من نساء الحرملك قبل أن أنام مع هذه البغلة الفارسية التي أنجبت فرخا من عاشق أسود، وجاءت لتقنعني أنه ولي العهد. أنا أعرف، وهي تعرف أيضا أني لا عاقر وجاف الماء. صحيح أني أغمضت عني وعيون غيري عن السائح الأجنبي المولع بالمنمنمات والقصور الإسلامية، لكنها مدت جسدها لوجه آخر. لو كنت أعرف أن ذلك سيحدث، لحولته عشيقها السري إلى كاسترا إذ كان صوته جميلا وشجيا. ولنزعت خصيتيه ووضعتهما في فمه، وأتركه يأكلهما على مرآي وهو ينزف حتى الموت. لو فقط كنت أعرف الذي

رغت على صدره كنت قتله قبل أن تستمتع هي بقتله؟ أمر قاتل ومهلك أن شخصا غيرك فتش جسد المرأة التي تحب واختبر أسراره؟ كل حركة نشوى بجسدها، تفسرها به وليس بك. دنيازاد. . . ليست امرأة عادية، ذكية وعالمة وشهية أيضا. جملية ومحزنة حين ترغي من شدة اللذة التي تجعلها تصرخ مثل الحيوان المتوحش. تقول بأني أول وآخر زوج تغمض عينيها عليه، وأنها انجبت قمر الزمان من أجلي. وهل طلبت أنا أن يتحول القصر إلى بورديل[٦٨] أو مفرخة كبابيل[٦٩]؟ ربما هي الآن تخبئ عشيقها في زاوية ما، وتنتظر وعكة سقوطي، لتنصيبه حاكما على البلاد والعباد. تفتح الستائر بهدوء مقلق، ثم تبتسم في وجهه: أخرجوا يا الفيران مالغيران! ويخرج هو مطأطأ رأسه كالضحية. ليس لا سائحا ولا أي شيء شخص آخر يساهم في تحسين النسل. وجه عربي صحراوي، محرود ومخدوش بآلاف الجروح، ومحروق بأشعة الشمس القاسية. لا يمكن أن تكون سمرة قمر الزمان من شخص إنجليزي أو فرنسي أو حتى إيطالي ولا حتى سربي أو مالطي، أو حتى سيريلانكي أو باكستاني. كيف أدخلته إلى البيت؟ لا يهم. يمكنني أن أتخيل الكارثة. تعرت أمامه قطعة قطعة كما تفعل معي دائما. كانت النيران تشتعل في دمها. اختبأت وراء الفاصل الخشبي الفارسي الملون، وعندما عادت له، كانت تلبس غلالة فضفاضة، أعطت لإنثناءات جسدها رغبة قصوى لا تقاوم للنوم تحت أي رجل قوى وقادر على شقاه. أغمضت عينيها. تدحرجت باتجاهه. شربت الكأس السابعة، فهي عادة لا تتجاوزها. ثم تزحلقت بيدها إلى إنفتاح فخذيها. أدخلت أصبعها ملفوفا بالغلالة البيضاء الفضفاضة وهي تتأوه. تجيد إغواءات الشهوة. كان كل شيء فيه يسيل مثل الكلب المسعور. الحرُّ يملأ أرجاء البيت والأجساد التي بدأت تنزّ عرقا حادا يشبه رائحة الحلزون وشجيرات المارمان الناتئة. تسحبه

---

(٦٨) الماخور. كلمة من أصل فرنسي Bordel

(٦٩) جمع كبّول، وتعني الكلمة في اللهجة العاصمية بالجزائر اللقيط.

غمامة رائحة عصير كروم آرابيا المسكرة. تتمدد على الفراش بكامل طولها شيئا فشيئا. كانت نيران جهنم الجسد قد وصلت إلى دماغة وبدأت تثير الشعلة المقدسة في داخله. ينعكف اللباس الفضفاض عند حدود الانفتاحة الخفيفة للفخذين. تتمتم بحرقة مسكونة بالشيطان الأخرس: تعال عمري. تعال. هذا الكنز لك وحدك. يزحف نحوها. تفتح فخذيها أكثر فاكثر بينما هو يتوغل فيها كالسكين القاتل. لا يظهر إلا بياض عينيها الذي يقود إلى تهلكة الغوص حتى الموت في الجسد المنهك والمنتهك. ثم يَرفع ابن الزانية اللباس الشفاف. يُدخل رأسه بين رجليها. تقبض على شعره من تحت الغلالة يقوة. يضع نهديها النافرين في عمق كفيه ويضغط بكل قوة ونعومة. تغرق في صرخات وغمغمات غير مفهومة، ثم في تيه بلا نهاية. ثم يبحث برؤوس أصابعه عن استدارة سرَّتها. يمد لسانه. يلمسها في كل الأمكنة الحساسة. تغمغم من جديد. فحيح الأفعى... آ... حححححح... حبيبي... من علمك كل هذا السحر؟ مع محظيات الحاكم بأمره... أكث... ر... أكث... ر... لا تتوقف. ترغي مثل الموجة المكسورة. تتحرك بجنون في كل الاتجاهات. أكث... ر... يفتح فخذيها، يمد يديه إلى نهديها المتصبين، اللذين لم يفقدا استدارتها وامتلاؤهما، يسحبها من كتفيها بكل قواه للمرة الأخيرة. تصرخ بأعلى صوتها المحروق... واااااو ما أحلاك. يتسع بياض عينيها ثم تتهاوى في دوخة اللذة وهي تتمتم بلسان يشبه لسان الأفعى... ما ألذك يا عمري... لقد كان الحاكم بأمره... بغلا عاجزا... عنينا ... سخيفا... تافها ... مريضا ... واااااو خذني واعرقني كما أوراق الخريف... كان خائنا لوطنه.... ولأمته... ولدينه... أدخل ... أكث ... ر ... امح كل أثر لابن الكلب... يضغطها مثل الورقة حتى تتحول بين يديه إلى حفنة من النور الهارب يعقبها صمت يشبه صمت الرعشة الأخيرة لنبض الحياة. إنها الحالة القصوى التي لا تعطيها المرأة إلا لمعشوقها مرة واحدة في العمر.

« - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا شيء من هذا حدث؟ مجرد

استيهامات وخوف لا مبرر له. ما يزال زمام المبادرة بين يدي.»

لا محظية بريئة حتى ولو أظهرت لك أقاصي عشقها. يفعلن الشيء نفسه مع حراسهن في الخلوات التي تأتي بين الفسحة والفسحة، والفجوة والفجوة، وحين يتعبن تقولن لعشاقهن، لنغير المواقع سنركبكم مثل الأحصنة. ثم يغرقن في لذة لا نهاية لجنونها. لكن؟ ألم يكن أمام دنيازاد حل آخر لإنجاب ولي العهد، سوى هذا الرغي، وهذا الصراخ الذي يذكّر بجهنم عندما تتمزق الأجساد على صخور البراكين. كان بإمكانها أن تمتلئ بمنى رجل، بصمت. الرغبة وحش. هل كانت تريد طفلا أم كانت تنتقم من رجل لم يمنحها إلا العجز؟ أحيانا أعذرها بالقدر نفسه الذي أحقد عليها. ما أبأسك يا جدي. كانت شهرزاد تحكي لك خرافاتها، وحين تغيب عنها لشؤون الدولة، تخرجه من وراء الستائر وتحكي له عن عجزك وعن غلظتك وعن ثقل صدرك وبدانة بطنك وانتفاخ خصيتك بدون أي معنى رجولي. كنتَ مثل الدابة العجوز التي انتهت وظيفتها ولم تعد تصلح لأي شيء. كيف لم تفطن لحيلها؟ تقص عليك خرافات الدنيا كلها وتشهيك فيها حتى تنتفض فيك كل حواسك الميتة، وحين تضع يدك المرتعشة على نهديها تحت غلالة شفافة، تقول لك، يا سيدي لقد لاح الصباح ويجب أن أصمت عن كلام المباح؟ وبدل أن تفكر في حيلها، تظل مشدودا لبقية القصة. ألف ليلة وليلة، قرابة الثلاث سنوات وهي تلعب بك مثل الدمية وفي الأخير خرجتَ فرحا مثل الدابة بذكورك الثلاثة؟ كيف صنعتهم يا طويل العمر وأنت لم تلمس شهرزاد في حياتك؟ من قال لك أيها المسكين أنهم لك؟ الأول أبيض، والثاني أصفر، والثالث أحمر مثل البرتقال البلنسي، ووجهك أسمر مثل الصخور البركانية؟ لا أحسدك، لأني لست في وضع أحسن منك. أنا وانت، فولة انقسمت على خوفين. افتح لي فقط قلبك يا جدي، أفتح لك قلبي. لن أنزل إلى الشوارع وأفضح سرك في الحلاقي مثلما يفعل مجانين هذه المدن. في هذا العصر المتأخر. سأموت مثلما مت، محافظا على سري وسرك معا حفاظا على سير الحكم والدنيا في

آرابيا العتيقة التي قاومت كل الحملات القاتلة وظلت واقفة. أنت عقيم يا طويل العمر وورثت عجزك جزئيا. لن اسأل من أين جاء والدي ولا كيف. الذي يستلم العرش بعدي ليس من صلبي يا حبيبي. تعبت كثيرا، مثل المجنون، ولم أحصل عليه، بل لم أحصل مرة واحدة على جسدها كما أشتهي. كلما لمستها تكمشت على نفسها كالأفعى. عندما انتهي من جماعها، ينتابني الإحساس بقماءتي وبجيفتها. ماذا حدث يا الله؟ إنه الجنون المخبوء داخل ذاكرة تتزين بزيفها وأنت يا جدي، تحزنني جدا. يؤلمني صمتك وأنت منزو في ركن تفكر في مصير الأمة، ولم تحل معضلتة ليست أبعد من فخذيك؟ من أدراك من تكون؟ في الهم نشترك يا صاحبي. أنا عقيم، وهذا الوريث الأرعن بدأ منذ الآن يقلد كل حركاتي، تقول عنه أمه دنيازاد، أنظر يا حبيبي وقرة عيني... أنظر يا حكيم جملكية آرابيا وسيدها... أنظر ما أعظم طلعته. ينتابني ذعر باطني. دنيازاد تبيعني الآن وتأتي بخطيئتها لكي تحكم البلاد. لن يحدث هذا، ولن يتحول قصر الحاكم بأمره، جليل القدر، إلى مبغي شعبي. هذه الطيور المشؤومة ما أبشعها. لست أدري من أين دخل عليَّ هذا الغراب الأسود؟ قبل قليل كانت النوارس التي تحملتها على الرغم من أنها نذير شؤم. الآن تقفز إلى القصر هذه الغربان؟ كيف نسمي هذا؟ أذكر الكلب يأتيك الغراب!

كان الغراب قد وقف على أكواريوم الأسماك وبدأ يدوِّر عينيه باتجاه كل ما يحيط به بشكل غريب ومخيف. من حين لأخر يحاول أن ينفذ من وراء زجاج الأكواريوم للفتك بالأسماك الملونة المسالمة. حركاته لا تبشر بأي خير إذ كان عندما ينظر إلى وجهي أشعر بخوف غريب لانّ شيئا في نظرته كان يخترقني بقوة. يجب أن يغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن وإلا قتلته بلا تردد. هششششش طزْ... هششششش طزْ...

نشه بالمروحة التي كان يطرد بها عادة الذباب. قاوم الغراب. كان ينتقل من مكان إلى مكان داخل الصالون ولا يريد الخروج على الرغم من اتساع النافذة التي تقود إلى الحديقة. كلما وقف على شيء، نظر إليه

بعينيه المدورتين كأنه يريد أن يقول له شيئا. نظر طويلا، ثم من تلقاء نفسه غادر الصالة متجها نحو النافذة المشرَّعة. أغلق الحاكم بأمره الشباك بسرعة وعاد إلى مكانه الأول. وضع رأسه بين يديه بحزن وبدأ يتأمل كل ما كان يحيط به ويستعيد فشل المناظرة التي تكون قد صغَّرته أمام الرعية ولم تفده في شيء.

«- بوووووف. هذا المغربي لم يحمل معه إلا الشرور؟ لماذا لم يبق في أرضه؟ من قال له إننا بحاجة لأمراضه؟ كنا سعداء قبل أن يأتي؟ وقبل أن تنفتح عيون الرعية على مصراعيها. لو كان قتله يفتح أبواب الجنة، كنت محوته بيدي؟ لكنني أخشى، كما قال أصدقائي الأوروبيون، أن يفتح عليَّ أبواب جهنم.»

لن تَصْدُقَ أبدا نبوءة هذا المغربي الكئيب الذي جاءني من مغارة، همس الحاكم بأمره من جديد لنفسه المرهقة. معتوه لا أكثر. ظن نفسه عاش دهرا، وعاد لينشر الفضيلة. لن يكون إلا أحد المجانين القادمين من مدن مجاورة، وربما من هذه المدينة ذاتها. قرأ كتبا كثيرة قبل أن تسكنه، فمحت كل المسافات بينه وبين الحقيقة. يقول أصدقائي الأوروبيون، إنه رجل مريض عقليا، مصاب بالصرع في الأصل. كان على الشاطئ، تعرض لضربة شمس، أو داهمته أمطار، فاختبأ في حفرة وجد نفسه بالصدفة بجانبها درءا لشر الطبيعة. وفي غفوته، حين نام، رأى كوابيس المجانين. فجأة صدّق نفسه أنه عاش الزمن الذي سكنه من خلال كتبه التي ظل يقرأها بلا توقف. صحيح أن تاريخ السلالات التي يذكرها تنتهي به إلى جد موريسكي كان يملك مكتبة في غرناطة، ولكن ليس أكثر من ذلك. فحصت ذلك بنفسي بمعاينة ومساعدة من أصدقائي الشماليين. المشكل أنّ هذا المعتوه هو ابن هذا الزمن ويريد تدمير كل عبقريتنا. جاءني من حفرة سقيمة ليحدثني عن أبي عبد الله محمد الصغير وكأن الامر يعنيني. إلى الجحيم، هو ومحمده الذي قصَّر كثيرا في حق شعبه، إذا بدل أن يترك غرناطة، كان عليه أولا أن يحرق الشعب الذي باعه بالرخيص. كنت سأفعل ذلك بلا تردد، وليكتب التاريخ ما

يشاء لأنه سيأتي بعد زمن قصير أو طويل من يعيد ترتيب الأشياء وفق منطق آخر قد يكون في صالحي. ما شأني أنا إذا كان هو قد باع غرناطة للقشتالية. الشعب شعبه والمدينة مدينته، والعشق جنون. لقد سحرته القشتالية الكبيرة ومنح لها كل ما اشتهته. على الناس أن يقرأوا كتب الحب ليعرفوا الخراب الذي يخلفه وراءه. أنا لم أكن هناك لأحاسب على حماقات غيري. أعرف الحقيقة التي لا يقولها المؤرخون، ولكنها لي، ملكي، تنام في قلبي وفي ذاكرتي.

وأعرف أن ما دُوّن ليس بالضرورة هو الحقيقة. أخبار الملوك يجب أن تُقرأ مقلوبة. كان المسكين يضاجع القشتاليات، بينما في لحظات سهوه وانطفائه، كان القشتاليون يدفعون بخوازيقهم نحو الأعماق حتى تخرج من فمه. وهو لا يعرف شيئا، سجين اللذة والأجساد الصهباء. كانت الأفخاذ والزغب له، لكن رؤوسهن كانت لايزابيلا وفرديناند ومحاكم التفتيش المقدس التي كانت تعرف كل تفاصيل القصر من خلالهن. يجب أن أقول الحقيقة لهذه النفس الأمارة بالسوء. عليها أن تسمع ولو خفية ما لم تتعود سماعه وطز بعد ذلك. سأحكم ولو بالدم، وأعلن القطيعة بعدها، مع كل ما سبق، حتى مع حكم والدي وجدي لعنة الله عليهما. أعتقد أن كليهما كان يشك في أصوله. لم أخطئ عندما نزعت رقبته الواطئة التي اختبأت بين كتفيه. يومها حينما اقتربت من والدي وهو بين افخاذ المحظيات، كان في البداية يسخر مني قبل أن يرتجف مثل الدودة عندما أدرك بأن عمره انتهى وأن النصل الحاد لمع في عينيه مكشرا عن لحظة الموت التي لم يكن من الممكن تفاديها. قال أرجوك لا تفعل. تذكرت صرخة أمي الأخيرة ثم شخيرها. هو الذي خنقها. شدها بين ذراعيه، حتى تدلت عيناها، وغادرتا المحاجر، ثم طلب من وراقه أن يدون الحادثة: **توفيت يرحمها الله، لحظة الوضع. المولود عاش وهي ماتت في القصر.** في الأيام التي تلت، بعدما نُكست الأعلام، صرّح بأن المولود بدوره مات. سُخّرت الصحافة الوطنية لنشر خبر الوفاة مجللا بالسواد. عندما دخلت عليه، كان أحمر مثل الدودة،

في الحرملك. كان مصرا على الحكم حتى آخر لحظة من عمره. منظر جسده كان بشعا. قلت له جئتك مصمما على شيئين، إما أن تنعزل أو أعزلك بنفسي. كان أصدقائي الشماليون يقفون ورائي في الصغيرة والكبيرة. تمدد في حجر إحداهن بكامل نتوئه، وهو يقهقه: هذا أنت يا صغيري، تريد تنحيه المقتدر بالله، بكل هيبته وجلاله؟ عيب يا ولد! تريد أن تتزبَّب قبل أن تتعنَّب؟ مازلت، صغيرا على الحكم. ربيتك مثل القط الخلوي، والآن تترجل علي يا ابن القحبة مثل أمك؟ سأطيِّر عينيك إذا حاولتَ. ابن أمك؟ أمك مثلك، لعب الفأر بعبّها، كان يجب أن أحسم الأمر معها. مرة أخرى صرختُ في وجهه بحدة أكثر، أعزل نفسك تسلم، أو أعزلك إلى الأبد. لا.. لا... قالها بصوت فيه غضب ظاهر. ثم التفت إلى إحداهن يمصمص نهدها القائم مثل قرن ثور. وضعت يدها على كنزه القديم وزغبه. بادلته نفس الضحكة التي تحولت بسرعة إلى زعيق. قام من مكانه بسرعة عاريا كما ولدته أمه بعد أن تدلَّت كال أشيائه المتعبة والمقهورة. صرخ كما تعود أن يفعل: حسامي حسامي يا محظيات ويا حرس الزبالة، كيف سمحتم لهذا المعتوه بالدخول؟ لكن أصدقائي الشماليين أحاطوا به، فانسحبت كل نساء الحرملك باتجاه أعماق القصر وهن يرتعدن. بسليقتهن، عرفن أن الأمر في غاية الخطورة. واصل وهو يتمايل بعد أن اصفر وجهه وفقد ألوان الألق الأولى: تريد أن تقتلني أيها المطَّنزة[٧٠]؟ سأقطع رأسك ودابرك قبل أن تمسني يا وحد... وقبل أن ينهى جملته، كنت أمسح السيف من دمه. تدحرج رأسه في الصالة الواسعة، مثل الكرة، حتى وصل عند الزاوية المحاذية للمخرج، هناك استقر. ظل يتأملني بعينين مفتوحتين وفَم مليء بالدهشة والخوف. بعد لحظات أغمضهما مثل الدمية الصينية. وأنا أغادر الصالة، ضربته برجلي مرة أخرى وأنا في حالة هيستيريا. تدرحرج ليستقر في الجهة العاكسية من الصالة مخلفا وراءه بركة من الدم: إلى الحجيم.

---

(٧٠) أيها التافه، المثير للسخرية.

مصير من يتشبث بالسلطان حتى عندما تموت كل حواسه. واصلت سيري باتجاه الحرملك، فنظفته عن آخره من نسوة المذلة. كان يجب أن أفعل ذلك. يا أنا يا هو، لأن رأسي كان سيسقط بعد زمن قصير. في الليلة السابعة، كما تشترط التقاليد، أعلن خبر وفاته البطولية في التليفزيون، وأُنجزت حصة خاصة تتحدث عن مآثره ومناقبه، وأقفل ملفه إلى الأبد. هذه هي كتب التاريخ المحفوظة في الصدور. الكتب التي لا تقال إلا في اللحظات الحميمة. ونسلّم لكتب المخمل والقاطيفة ما نريد. آآآآخ يا رأسي! من أين تأتي كل هذه الروائح الكريهة؟ هل هي لجثث متفسخة أم لغربان ماتت فوق الأسطح؟ المشكلة الكبيرة هي أني إذا فتحت الباب، دخلت أسراب النوارس، وإذا أغلقتها تقتلني مثلما هو الحال الآن، الروائح الكريهة التي تشبه حيض النساء والبيض الفاسد. تغيير هذا النظام النحاسي الأخرس كان ضرورة. فعلت ما أملاه الواجب الوطني والأصدقاء الذين رأوا ضعف والدي عن قرب. العلماء والعمال، لست المسؤول عن وجودهم، توارثتهم عن والدي، جده هو من تركهم يقوون شيئا فشيئا. كان يقول دائما: هؤلاء، يحب أن نعطيهم عظما، يتلهون به، يتركوننا ونتركهم في حالهم. ذهاب قطعة أرض من الملك لم يكن مشكلة بالنسبة له، ليست القيامة كما كان يقول؟ فالقواعد العسكرية الممنوحة للأصدقاء الأوروبيين تتجاوز ذلك بكثير. ثلث الأرض الصَّلبة. هذا كان منطقه ولكن الفجوة التي تركها في الحكم تطورت وأصبح من المستحيل كسرها اليوم. كان يجب أن ينتهي، لأن الإنسان عندما يطول في الحكم يتفسح ويتحلّل ويصبح معوقا لأي تطور. في اليوم الأول من موته أعلنا أن الملك مريض بمرض خبيث. تأثرت الرعية عن حقيقة أم عن خبث لا أدري. الرسائل التي غزت القصر كانت لا تحصى. كان يغدق عليها من الأموال النفطية والغازية الموجودة في أعماق البحار والصحراء. يؤمن بسياسة غريبة هي أن يمنح كل ذي حق حقه سنويا ليفعل به ما يشاء. لم يبن مستشفى واحدا باستثناء بعض المراكز الاستشفائية المبثوثة هنا وهناك، لا دور لها إلا العلاجات الأولية. كلما اشتكى له أحد يجيبه بأنه

استلم حقه من أموال النفط والغاز، وما عليه إلا أن يستعمله ويذهب إلى الخارج نحو مستشفيات كانت الدولة متعاقدة معها. حتى العلماء لا يمكنهم أن يتصوروا بناء دولة بدون الاستيلاء على قواعد النفط البحرية المحروسة من الأصدقاء الشماليين، وسيضطرون مع الزمن إلى الرجوع والتوبة. ووقتها سأصلبهم علانية في الساحات الشعبية، وأهدم حائط العار الذي سرق جزءا من الساحل، وأعلن البحر بكامله منطقة محررة. في اليوم السابع أبكينا الجميع، فقد نقل موت والدي مباشرة على الشاشات المبثوثة في كل المدينة. خرج الناس من فكرة السماع إلى الحقيقة المرة. فتأكدوا أن ملكهم مات، وأن الوريث الشرعي يرفض تولي الحكم خوفا من عدم العدل. فأظلمت شوارع آرابيا المطالبة بقبول تولي السلطان. بدأت أدير شؤون الوطن بيد مفتوحة أكثر منه. أغرقت الأسواق بالبرادات والتليفزيونات، والهوائيات البارابولية، وكل البضائع التي كانت قليلة في فترة حكم والدي، بسبب الندرة وبسبب جزء من الأزمة النفطية. بعدها بقليل بدأت البلاد تغرق. كان لابد من وضع حد نهائي لهذا الرخاء المؤقت. فالرعية مثل الدواب، لا تعرف إلا الأكل والعلف والصرط، والرهج! الحكم جاء بالدم، وإذا استدعى الأمر سيحافظ عليه بالدم. اقترحت على البرلمان الميت نظاما جديدا امتاز بكل الخصائص الديمقراطية، فهللت له حتى أحزاب المعارضة بما في ذلك العمال والعلماء. بدت الجملكية كأنها النظام الوحيد الأنسب لآرابيا. منها وإليها. كل شيء كان يسير مثلما أشتهي حتى مجيء هذا الأندلسي المعتوه. سأثبت لهذا المجنون القادم من الأغوار الوهمية، بأني قادر على تغيير الأقدار، بما في ذلك قدره هو. سأتجاوز ليلة الليالي التي كان يريدها نهاية لي. يقولون إن هذه الليلة بدأت منذ الحاكم الرابع في دولة الخلافة وستنتهي عند رأسي ولن تنضاف لها ثانية واحدة. أنا هنا لتمديد زحف الليالي إلى ما لا نهاية. دنيازاد، دابة الغواية الثانية، ستنتهي تحت قبضه سكيني الحاد من الجهتين. سيقفز الزمن من أهوال ليلة الليالي إلى الليالي الباقيات التي لم يعرفها أحد من المحللين والمنجمين ولا بشير

إلمورّو. متجاوزا بذلك ليلة الشؤم. كل المشكوك فيهم سآكل رؤوسهم قبل أن يأكلوا رأسي. في السلطان يجب أن يتم كل شيء في وقته وأوانه. لا نسبقه بثانية ولا نتأخر عنه بثانية أيضا. سأجبر دنيازاد أن تنهي الحكاية بالشكل الذي يليق بي، وفي الصباح الموالي لن أكون شهريار المسكين الذي لعبت برأسه شهرزاد بعد أن فاجأته بثلاثة صبيان من رجال غامضين. سأنادي الكفان، ومؤرخ الأمة، وأجبرهما على رؤية وتدوين الحقيقة التي يريانها أمام أعينهما. الكلبة رفضت أن تتابع المناظرة في نفس الصالة مع الأصدقاء. قالت: عفوا يا مولاي وحبيبي، متعبة من كل ما يحدث في جملكيتنا، أريد أن أتفقد الرعية، وأشم هواء الدنيا. الهواء هنا تأكسد كثيرا ولم أعد قادرة على تحمله. كانت شهية في الليلة الماضية ولكني استمنيت ولم أتمكن من إيلاجها لأنها تمنّعت طويلا بسبب الحكاية وبسبب الإرهاق الذي نزل عليَّ فجأة. بدون شك هي الآن معه. أصدقائي الشماليون يقتفون أنفاسها ويسجلون بدقة كل خطواتها. يمتلكون آلات تسجل شديدة الحساسية ويأتون لي بكل التفاصيل ولو أنهم أصبحوا بخلاء قليلا في السنوات الأخيرة لأنهم لم يكونوا راضين على سياستي وصمتي المقلق تجاه العلماء والعمال. قلت أن وقتهم لم يحن بعد. كان هذا قبل القصف الفاشل. عندما انتقدوا النظام الجملكي لأنه يربي الأمراض القاتلة المضادة لمصالحهم، قلت بلا تردد: مصالحنا تهمنا أيضا. هذه شؤون داخلية تخصنا. النظام الجمهوري الذي نصحوني به، لا يصلح لنا. وأعطيتهم أمثلة عن بلدان سارت على النظام الجمهوري وظلت تمارس طقوسا ملكية في الحكم. يأتي الحكام عادة عن طريق انقلابات عسكرية. يرفعه العسكر إلى السماء وينزلونه إلى الحضيض متى ما شاؤوا. يلعبون به مثل القرد لضمان مصالحهم التي تكبر بسرعة في البلدان النفطية، ويتنامى معها الجشع المفني للسلطان. والملكية، تشدد على الحريات الديمقراطية للناس. التشديد، ضد دوام الحكم، ونحن نريده أن يدوم. لهذا اخترعت النظام الجملكي ونظرت له في الكتاب الملوّن. الوسطية كانت هي رهاني عملا بسنة نبينا الكريم: خير الأمور

أوسطها. هو نظام يتيح قليلا من الديمقراطية غير المضرّة للناس، ويتيح فسحة من التأمل للحاكم. حين يأتي المؤرخون، حتى أكثرهم عداوة لي، لن يستطيع أن يقفز على مرحلة حكمي، بدون الوقوف عند هذا الإنجاز العظيم. ولولا إزعاجات العلماء الذين خربوا عقلية الشعب، لحدث شيء آخر أكثر أهمية.

كان يمكن أن أطلق سراح هذا الدرويش المغربي الذي لا مكان يناسبه إلا ساحة الفنا في مراكش ليلعب مع ثعابينه ويظهر كل سحره. على كل لن أجعل منه شهيدا في غير وقته. فكرة الشماليين جيدة. لن أسلمه إلى أصحابه إلا عندما يفقد هذه الذاكرة الهرمة، وأرميه في الشوارع الخلفية داخل المدينة، يبحث بيأس عن غيمة صيفية تائهة في سماء بدون معنى. أصدقائي الشماليون أخطأوا في تقييمهم. كنا نريده أن يظهر مجنونا أمام المشاهدين، لكن يبدو أننا كنا المجنونين. الشماليون كانوا يفكرون بمنطق وبعقل غربي لا يفهمنا أبدا إلا انطلاقا من ذاته. قلتها لهم في العديد من المرات: ما يبدو لكم غريبا، عندنا هو عين الصواب. لو خرجوا إلى الشارع الخلفية لعرفوا الحقيقة. لكنهم يظلون رابضين هنا بالقصر، يتأملون الصغيرة والكبيرة ويكتبون التقارير لمن ينتظرونهم من وراء البحار. وظيفتهم الاستشارة. حتى أن بعضهم تحول فجأة إلى محافظ لوحات فنية يعرف الزائف منها من الصحيح. دخلوا القصر الجملكي الجديد، وهم من اختاروا له اللوحات الأصلية المناسبة من دولاكروا إلى رونوار إلى فرومونتان إلى كنوز الفاتيكان المسروقة والمنمات الفاريسية ومنقوشات غاودي وميرو النادرة وغيرها التي كانت تعرض عليَّ بأثمان مجنونة وتجبرني دنيازاد على قبولها. حتى هم، يجب أن نقولها، لا يعرفون إلا النفط والذهب والمصلحة الخاصة. تعجبني صراحتهم. ليكن، فهم على الأقل يوفرون لنا الحماية عند الضرورة. في الحوزة[٧١] يجدهم الإنسان أمامه. إنهم قرشنا الأبيض

(٧١) عند الضرورة القصوى.

ليومنا الأسود الذي لن يكون في ليلة الليالي مطلقا، ولا في الليالي الباقيات. سأجبر دنيازاد على الانتهاء، وفي الصباح أنحرها مثل البعير الهرم. وأخوزقها، وأترك البقية لمؤرخ الأمة ينجز نعيا يحزن الله، والبلاد والعباد. ثم ألحقه بها. لا أمان في عيون ترى الذي لا يرى. أجبره على الكتابة. أكتب ولا تنظر إلي بعينين مدورتين. لقد ماتا، دنيازاد وولي العهد وهما يؤديان واجبها الوطني في الدفاع عن حصون المدينة التي لن تسقط على الرغم من شدة ضرباة الأعداء. أكتب ولا تنظر إلى وجهي وافتح الكفن، وقل لحانوني القصر، أن يجهز كل شيء. رشّوهما بقشور الرمان والبرتقال، وماء الياسمين وعطر الندي. أريد ياسمين بلاد الهند والسند، وليس ياسمين آرابيا الذي فقد سحره وأصبح مشاعا. سأخطب على الملأ في الصباح الثامن من موتهما: الدنيا تغيرت. لقد انفتحنا على صراط جديد لن تسود فيه إلا العدالة، وأعلن الحرب المقدسة لتوحيد البلاد بعد أن أنظفها نهائيا من العمال والعلماء. لن أضيف لدابة الغواية ولو ثانية واحدة. في الصباح عندما تنتهي من حكايتها، سأحز رقبتها. بعدها سأعلن أمام الملأ، بأن تسمية الحاكم بأمره غير ديمقرطية، ولا يتناسب مع الدناميكية الديمقراطية الجديدة. أنزعه من تاريخي، واحتفظ فقط بالحكيم التي ألصقها بي في الأصل أصدقائي الشماليون. أكتب يا ابن الزانية. اكتب. أنتم الوراقون دائما مع المنتصر. مع الذي يحز بدم بارد رأس سابقه. أكتب أنت، قبل أن يكتب عني كتاب الحلاقي والساحات القادمون مع الآتين الجدد. أكتب كل ما قلته لك.

- يا سيدي ماذا أكتب. لم تقولوا شيئا واضحا، كنتم تمتمون.

قال المؤرخ الذي امتثل لأمر سيده بعد أن اغتسل ورش على نفسه عطرا قويا بدّد رائحة البول، وتربع واضعا قلمه في عمق يده. فوجئ أن مؤرخه الوفي الذي يتبعه ككلبه لم يغادر المكان لحظة واحدة إلا للاستحمام، وظل ينتظر أوامره.

- أنت هنا يا ابن الـ . . .

- ابن الزاتية... الكلب الذي يلحس بول سيده... المنعدم الوجود... مؤرخك الوفي... نعم أنا هنا. منذ توقيف المناظرة وأنا أنتظر أوامرك يا صاحب الشأن العالي والسلطان الغالي.

- أكتب أنني أتبرأ من لقب الحاكم بأمره، لأني فجأة أكتشفت أن الخليفة الذي كان يحمله، كان يتعامل مع الروم والفرس، ويبيع البلاد للوافدين، ولهذا فلست في حاجة إلى هذا اللقب الذي ورثته ولم أصنعه.

شعر بشيء بارد ينزل على جسده وعينيه. الخوف. لم يكن خوفا ولكنه كان شبيها به. لحظات التيه التي تسبق أمرا جللا غير منتظر.

حتى في هذه القضية، قال الحاكم بأمره، يصعب على الإنسان أن يقول كل الحقيقة. فقد جئنا من صلبه. لعنة الله على هذا الصلب المليء بالرغوة. إذا قذفت في أصل الوالد علانية، ستسقط الذرية كلها في نفس الهوة، ونصبح بالضرورة لقطاء، ويتحول القصر الجملكي إلى بورديل أومفرخة. يكفي أن نعرف نحن الحقيقة. الحقيقة إذا اشترك فيها أكثر من اثنين شاعت، وأنا لا أريدها أن تصبح ملكا مشاعا. يجب الاحتفاظ بالسر حتى نستطيع القفز، بدون كسور، باتجاه الليلة الجديدة، متخطين الكذبة أو الخرافة التي نبتت مع بشير إلمورّو ودنيازاد. لقد خسرت المعركة معهم يوم المباغتة ولكني لم أخسر الحرب. لو استطعت إبادتهم يومها، لوجهت الرأي العام باتجاه الحرب الوطنية المقدسة لتوحيد جزر البلاد الممزقة. لكن... ندفع ثمن حماقات الحسابات الضيقة أحيانا والتسرع القاتل. في هذه لم تكن دنيازاد مخطئة عندما قالت إني حفرت حفرة جديدة في قبر الجملكية وعليَّ أن أنتفض بسرعة لأحول الخسارة إلى انتصار. أعرف أن دنيازاد لو توقفت في منتصف ليلة الليالي، الليلة الوحيدة بعد الألف الماضيات، لكنت قد قتلتها. أختها شهرزاد، دابة الغواية الأولى، كانت أذكى. سحبت بعلها من شاربيه مثل البهلول باتجاه الليلة الواحدة بعد الألف لترويضه ووضعه في ظل فرجها الذي استقبل الكثير من الضباط المرشحين لمسؤوليات كبرى، وحاجبها الأمين الذي

لا يشك فيه أحد. في النهاية، وخارج أي انتظار وضعت الفروخا[٧٢] الثلاثة أمامه. مسكين شهريار. مسكين هذا الجد المخدوع أبدا. ابتسمت ثم قالت له: ها هم ذكورك الثلاثة، خلفاء السلطان يا مولاي الغالي. عانقَهم بدون أن يسأل حتى من أين جاءوا، وكيف خلقوا وهو لم ينم معها إلا ليال معدودات عندما كانت تنهي حكاياتها قبل صلاة الفجر. يسفدها، ثم يتوضأ ويصلي في جامع القصر. كانت تعرف ضعفه وجنونه على الخلفة. هنَّ هكذا منذ بدء الخليقة. لا يستأهلن إلا الذبح. عندما يخرج الدم الفائر من الرقاب الناضجة، يلطم الوجه بقوة اندفاعه. يشعر المرء بمتعة لا تضاهي. كان عندما يصيب شهريار الوهن من شدة السهر والاستماع، يتمدَّد على فراش الطاعة والراحة. لا يحرك ساكنا. يبحث عنها بعينه. ثم يستسلم للذة النوم لأنه يعرف أنها في الغرفة المجاورة لأنها لا تريد إزعاجه في راحته. بينما هي تنام بين ذراعي عشيقها المخبأ وراء الستائر. تمارس الجنس بكل الأشكال الشهية مع حاجبه الأمين الذي يسهر على راحتها. من مكانه، لا يسمع إلا تأوهاتها وشخيرها. غبي؟ يظن أنها تبكي حبا فيه، وقد انعزلت إلى الحجرة المجاورة حتى لا يرى دمعها.

«- ما هذا الهذيان الذي سكنني من رأسي حتى أخمص قدمي؟ ربما كان التعب الذي أصاب كل حواسي، هو السبب. ويبدو أن مسّا أصابني في الصميم. مالي ومال شهرزاد؟ تكفيني بليتي. ما أسوأ ظني، وما أصغر حسِّي. يجب أن لا أفكر إلا فيما يخص الجملكية وأهمل كل ما عداها، وإلا على الدنيا السلام. لكن»

ماذا لو يدخل عليَّ أحدهم الآن، من الطامعين في سلطاني، من الذين أطعمتهم من جوع، وآويتهم من خوف؟ ويقف عند الباب، متكئا على مقبض سيفه، ويطلب مني التنحُّي عن السلطان؟ ماذا سيحدث؟ هل سيبقى في عقلي ومخي منطق قابل للحياة والجدل؟ سآكل رأسه نيئا حتى

(٧٢) جمع فرخ، أي اللقيط.

قبل أن ينظر إلى عيني اللتين يسكنهما الخوف. لكن حين أقوم من مكاني، يكون قد رفع سيفه ونزل به على رقبتي ليقطعها. أتمنى أن أجد الوقت الكافي لأشتمه وألعنه إلى يوم الدين، وألعن من خَلقَه وصوّره وسواه على شاكلة بني آدم وهو بهيم. لن أموت بسهولة. أحاول أن أفتح عينيْ رأسي المقطوع لآخر مرة. أتأمل مشهد الدم، وزليج القصر وهو يغيب شيئا فشيئا، ووجهها وهي تضحك بين ذراعي رجلها الذي بدّلتني به. ثم أرى النجمة وهي تنكسر في الفضاءات الواسعة حاملة معها ما تبقى من ذرات روحي نحو الملكوت الأعلى. إنها ذاكرة الحزن تزحف إلى وجهي وجسدي الذي بدأ الوهن يدخله. بعد أن يقطع رأسي، يضربني ابن الكلبة بحذائه العسكري ليرميني بعيدا. يتدحرج رأسي حتى يستقر عند مدخل التواليت. كل هذا المجد العظيم، ينتهي عند هذه البوابات التي ندخلها مكرهين؟ الورّاقون حاضرون دائما. أسوأ خلق الله وأكثرهم انتهازية. بمجرد ما تنقلب الأمور، يتغيرون، ثم يبدأون في رواية الحقيقة التي أُمليت عليهم ويؤجلون تلك التي رأوها ليحكوها قبل موتهم. الثقة فيهم مغامرة، يجب أن يسمعوا دون أن يروا. من العبث أن يجد القادم بعدي كل هذه الخيرات تحت أمرته. عندما يهزّني مولى الساعة، سأحرق كل شيء، ومن بعدي الطوفان. إلى الجحيم. النار أولى منهم بهذا العز. الستائر القادمة من سمرقند. الخشب الفارسي بنقوشه الاستثنائية. عطور ومرايا بلاد الهند والسند. الزليج المغربي. لن أمنح القادم الجديد على جثتي أي حظ ليدخل فراشي. سأسمم الأغطية والهواء الذي يتنفسونه. لن تُتاح لدنيازاد فرصة فتح فخذيها لاستقبال عشيقها، ولكن لاستقبال الخازوق القاتل هذه المرة. في المرة الأخيرة حين أنجبت ولي العهد، ولي الزفت، أغمضتُ عيني ولم أتكلم كثيرا. قضيت أسبوعا بكامله صامتا، لا أنطق بكلمة واحدة. اشتعل نارا كلّما رأيت الفرخ يقلّب عينيه فيّ. إمعانا في حرقي تأتي به إليّ وهي تضحك: خذه حبيبي بين يديك. دعه يتعود على رائحتك. أليس قمر الزمان ثمرتك؟ أحاول أن أقنع نفسي، أن ما حدث كان من أجل استمرار الملك

والسلطان. أقنعتني كالأفعى بأن أقبل بكل شيء يأتي منها. قبلت ببلادة المهزوم الذي لا حلّ آخر له. الفرق الوحيد بيني وبين شهريار هو أنه سلّم باللعبة وقبل منها الفروخا الثلاثة الذين فرضتهم عليه، أما أنا فسأوقف اللعبة في الهزيع الأخير من ليلة الليالي. وأنقل الجملكية إلى عصر آخر، سيده الصفاء والعودة إلى النفس وانتصار السلطان على كل البغاة.

ارتعب فجأة.

هزه انفجار عنيف أخرجه من غفوته واستيهاماته. ثم انفجار ثان. ثم انفجارات متتالية سمعها هنا وهناك، بعضها قريب، وبعضها الآخر بعيد. حتى حيطان القصر الجملكي الخارجية، كانت من حين لآخر ترتج بعنف. لا شيء جديد، ربما فيالق الجيش الجملي تتدرب على صد الهجمات التي ترتسم في الأفق عندما تبدا الحرب المقدسة ضد العمال والعلماء. أو ربما كان من الحرس الذي كان يطارد فلول السراق وقطاع الطرق الذين يتسربون من حين لآخر باتجاه الحدائق الملكية التي تنتهي كل طرقاتها السبعة باتجاه بوابات القصر، مشكلة نجمة فاطمية سداسية. فقد أُعطيتْ أوامر صارمة بعدم التساهل مع كل من يتخطى العتبات المسموح بارتيادها.

هو يعرف جيدا أن طمع العابرين كبير، ويكبر مع الأيام في ظل الأزمات، ولهذا وجب التنبه والتصدي. في آرابيا من يسمح بفتح نافذة، عليه بعد مدة قصيرة أن يقبل بفتح باب وبعدها بإسقاط الحيطان الواقية، وأخيرا التعرّي أمام الملأ. تذكَّر نصائح والده الذي كان يرى استمرار السلطان في احترام طقوس الحكم. على مدار عشرين سنة وهو يعلمه ما يجب فعله وما يجب تفاديه. قال له: ستفرض احترام شعبك لك، عندما تحترم هذه الطقوس، اللباس العسكري الأخضر المطرز الذي يوحي للناس بأن البلاد تتعرض لعدوان غير محدود. الاستنفار الدائم ضد عدو يضرب ويهرب. ضرورة تمطيط الكلمات التي تريد أن توصلها إلى الناس. لكنه لم يقل له أبدا، إن ذلك كله يمكن أن ينهار في ثانية حتى

بدون سابق إنذار فيصبح الحاكم كقط هارب في الخلاء بعد أن يرفض حتى أصدقاءه الشماليين استقباله ويحجرون على أمواله. إمعانا في الإهانة، يمكن أن يخرجه شعبه (العزيز) إلى الساحات العامة، ساحة التحرير، ساحة الشعب، ساحة الحرية، الساحة الخضراء، ويلبسه جلد حمار عجوز ثم يجبره على الركض في الشوارع الفقيرة، قبل إعدامه. لا يسمع أحد احتجاجاته الباطنية المستعرة إلا بالكاد: أنا الملك الجبار يا أبناء الكلبة، الذي كنتم تمسحون مواطئه. أنا سيدكم الأعلى العظيم، الأعظم؟ ويقهقه الناس من كلامه، بأصوات مسموعة، وينضم حتى الأقرباء إلى المطَّنْزَة الساخرة. كلهم يمرون عير المسالك نفسها. يتحولون في شبابهم إلى آلهة قبل أن ينهاروا ويستسلموا لقدر الموت الحتمي. يحبون الحكم ولذَّاته حد الموت، ويتناسون النهايات المتربصة بهم.

«- النساء والخدم كالأفاعي، تخبئهم من البرد، فيخدعونك في أول فرصة. كان يجب خصيهم جميعا منذ البداية. الرحمة من شيم الضعفاء. شهريار المسكين، لم يكن يعرف أن بين الجنس والحكم ألف علاقة. به تقوم العروش، وبه أيضا تزول. به نحكم، ومن خلاله نُباد. ماذا يفعل الإنسان بالخصوص إذا كان حاكما، وهو يواجه الخيانة في الفراش الذي يسكنه، وكأس القهوة الذي يسكبه، وفي الماء الذي يشربه؟»

لا يُعقل. تعب ذبح المحظيات كان مرهقا ولم يخفّف من شطط الخيبة والهزيمة الداخلية. أعضّ على يديّ وأصابعي المرتعشة. كان يُفترض أن أبهدله في المناظرة التليفزيونية فبدهلتُ نفسي. كنت أريد تدمير الخرافة التي أسسها بشير إلمورّو، وأُظهِره أمام الملأ الأسفل والأعلى، مجرد رجل عادي فقد العقل فتشبث بذاكرة ماتت منذ قرون. لكن العكس هو الذي حدث. أنا على يقين من أن الرعية ضحكتْ كثيرا من غبائي. كان يجب أن أغسل العار بالدم. لولا نصيحة أصدقائي الشماليين، لأحرقت المدينة بمن فيها، وأمتطيت طائرتي الخاصة باتجاه الشمال ولتنتهِ الدنيا بعد هذا. صبِرتُ كثيرا. لولا محاولاتهم لرفع

معنوياتي، لذبحته في تلك اللحظة. حسنا أني لم أفعل ما أندم عليه أو أدفع ثمنه غاليا. المسألة كان يمكن أن تتطور باتجاه الأسوء. بهدلة الشاشة كانت كبيرة، وجَلَدي كان أشدّ. حين غادرت الأستوديو الذي جُهِّز في القصر، كنت منفعلا حتى الموت. طلبت السكين البوسعادي[٧٣] الحاد من الجهتين والمعقوف في الوسط كهلال. وقلت لمؤرخ الجملكية سجل ما يلي: وخرج عظمته على الحرملك، فوجدهن هناك، الخائنات العشرَ اللواتي خدعن ثقة فخامته. كان طيب القلب يثق في عمق الإنسان وطويته الخيرة. نصحهن بالعودة إلى جادة الصواب وأنه سامحهن وغفر لهن ما تقدم وما تأخر من ذنوبهن. في غمرة الرحمة، أقسمن عند رجليه على عدم العودة إلى رذيلة الخديعة. رمى عزته وعظمته، السكين البوسعادي الأبيض الذي لمع في عيونهن جانبا، ومسد على رؤوسهن بيديه البيضاوين، وتركهن يذهبن إلى مراقدهن. من يومها لم يحدث أبدا ما يعكر صفو الحرملك، وأصبحن من أعظم خادمات القصر الجملكي، وأكثرهن تقوى. ويوم أخطأت إحدهن من جديد. هزها قداسته من كتفها، وقال لها، يا بنت!! يا بنت!! يا بنت!! . . . ثلاث مرات. فردت وهي تحاول أن تزحف على ركبتيها سمعتك يا سيدي منذ المرة الأولى. فقال لها يا بنت الناس، شوي للرب وشوي للعبد. وقضى سيادته الصبيحة بكاملها معها. من يومها أصبحن كلّهن وفيّات للحاكم بأمره، حتى توفَّين في كنف جلالته وهنّ في عزه ونعيمه. ولله في خلقه شؤونن إذ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

يتذكر جيدا أنه عندما انتهى من الرواية، طرد المؤرخ الذي تعوّد على سيده، فاختبأ وراء الباب الخشبي المطل على الحرملك، وبدأ يتأمله وهو يتعامل مع محظياته. دخل إلى بيت الاسترخاء ونادى عليهن جميعا، كن جميلات كفراشات. عرفن من عينيه المحمرتين أن في الليلة، أما لذة جهنمية أو دما فائرا. طلب منهن أن يهيئن أنفسهن، ثم

---

(٧٣) نسبة إلى مدينة بوسعادة الجزائرية التي تُصنع بها سكاكين خاصة تتميز بها المنطقة.

انسحبن بسرعة. صفق بيديه، فجاءه الكفّان يتأبّط موتا أبيض. دخل عند الأولى قالت، هل يحتاج سيدي إلى حكاية للهدهدة أرويها له، وهو ناعس على صدري، أرضعه من حليب نهدي كعادته؟ قال لها لا. افتحي رجليك فقط وطاوعيني. طاوعته مثلما اشتهى. تمنى أن لا يتوقف لأنها كانت لذيذة جدا لكن الوقت كان يدفع به إلى الأمام أكثر. كان الكفّان بصحبة المؤرخ، يقفان من وراء الستائر الثقيلة. أكل نديها وأدمى شفتيها ولم تصرخ. ظلت واجمة كدمية صينية. دمعة شقية فقط بقيت ملتصقة بطرف العين اليمنى. قلبها على بطنها، فطاوعته بدون مقاومة. كانت تظن أنها عادته الغلمانية التي تستيقظ فيه من حين لآخر. لم يدر كم دام وقت ذبحها، فقد غرس السكين البوسعادي في رقبتها حتى التصق بعظمة رأس العمود الفقري. كان لحمها طريا مثل لحم الأطفال. صمم منذ تلك الليلة أن لا يسمع إلى كذبهن الساحر. ثم انزلق عند الثانية. كانت محظية ممتلئة وجميلة. شعرتْ من خلال عينيه بخطر الموت الذي كان يداهمها. قالت يا سيدي أرجووووك، اقتلني ولا تعذبني، فأنا لم أكن إلا لك. وقبل أن تنتهي من الجملة الأخيرة، كان صدرها قد صار أحمر من جراء الطعنة الثانية، مع ذلك ظلت واقفة كأن لا شيء مسها. ملأ الدم عينيها وفمها. مع الطعنة الرابعة التي مزقت جزءا كبيرا من حوضها حتى اعوج رأس السكين البوسعادي القوي، تدحرجت، ثم سقطت كالحجرة الباردة. حتى الكفان وجد صعوبة في لملمة جسدها الممزق. ثم مرّ على الثالثة، الرابعة، الخامسة، السادسة، وعندما وصل إلى السابعة كان منهكا لكن رغبته في الدم كانت تزداد كلما قطع صدر إحداهن. قاومتْ كثيرا. ولولا تدخل الكفان بجثته الضخمة لأسقطته أرضا وذبحته بسكينه. رغت كثيرا قبل أن يجمدها الكفان أرضا ويسلم السكين لسيده ليذبحها بهدوء وسكينة، وتظل عيناها مفتوحتين عن آخرهما. لا يدري أي جنون أخذه. لم يبلع فكرة أن تسقطه امرأة ارضا. لم يرتح إلا عندما فصل رأسها عن جسدها، وضربه على الحائط بكل ما أوتي من قوة حتى ارتسمت خيوط سرياليه من الدم على البياض

والزليج. . . العاشرة لم تقاوم كثيرا، لكنها حاولت أن تفعل ما فعلته شهرزاد مع شهريار. الحيلة الملعونة. قالت له: سيدي وحاكمي العظيم، وحبيبي الذي لا ينافَس. أعرف أنك جئت لقتلي وأنا اقبل بقرارك. قدري. إعطني ليلة واحدة من نعيمك وأعطيك عنقي لتفعل به ما تشاء. كانت مضاجعتها غريبة لم يشعر أبدا بطعمها سابقا، حتى أنه تساءل في أعماقه كيف أن المرأة يمكن تصبح مبدعة حتى أمام الموت، وفي آخر لحظات عمرها؟ عندما انتهى من مضاجعتها في المرة الأولى، قالت له هيتَ لك ثانية يا حاكم العرب البربر، وسيّد العجم. سفدها مرة أخرى. كانت خلاّقة أكثر من المرة الأولى. ساخنة مثل الحمام التركي. شعر فجأة بالوهن. غيرت لباسها من جديد. تعطرت بماء البرتقال والرمان والياسمين. كان اللباس شفافا وسماويا. هذه المرة، على الرغم من الوهن، فقد شعر بطعم الماندرينا على رأس لسانه. لم يتمالك إلا عندما وجد نفسه يركض وراءها من جديد تحت الطاولات والأسرّة. ولولا تدخل الكفان مرة أخرى وهو يسأله إذا ما كان يحتاج إلى مساعدة خاصة؟ قال له انتظر، وكان قد عاد إلى رشده الذي سرقته منه اللذة. كانت قد ارتدت لباسا أخضر، شفافا مثل ضباب يظلل الحديقة الملكية بكاملها. حين فتح عينيه في وجهها الطفولي، كان السكين بالبوسعادي قد خطها طوليا بجرح اخترق الصدر حتى الحجر. رشه الدم على وجهه. شعر بملوحة طعمه. لم تقل شيئا. لم تصرخ. ولكنها نامت على دهشتها. فمها كان يحاول جاهدا أن يرسم ابتسامتها الأخيرة التي سرقتها سرعة ضربة النّصل الحاد. تهاوت مثل شجرة. كان لون غلالتها الأخضر البارد، قد احمرّ كليا من جراء الدم الذي اسودّ بسرعة كالقطران. تنهد الحاكم بأمره بعمق لأول مرة. شعر بعرق الجماع والراحة ينزل في داخله كالمطر الدافئ. أدرك في اللحظة نفسها أنه لو لم يفعل ذلك، لكان قد ذبح دنيازاد بلا تردد، وذبح معها المغربي المجنون. فشعر براحة جسدية واستكانة كبيرتين.

التفت نحو النافذة، كان كل شيء قد هدأ نهائيا. طيور النورس

المشؤومة انسحبت ومعها الغربان. الشرطة الساهرة على راحة آرابيا كنست شوارع المدينة من كل ما يضر راحة الرعية وحاكمها، وحررت أعلبية الساحات العامة من الناس ولو أن الوضعية أصبحت مضحكة قليلا، مثل لعبة القط والفار. تُفرغ ساحة، تمتلئ أخرى. وما تكاد الثانية تُفرغ حتى تمتلئ الأولى من جديد، وهكذا. لم يعد يسمع شيئا إلا صوت المغربي الهارب، بشير إلمورّو الذي عاد من جديد يملأ صمته. بماذا كان يتمتم المجنون؟ تساءل الحاكم بأمره. لماذا كان يريد إقناعي بأن الدنيا بكاملها بنيت على رموزه. **حروف الشدة والنعيم. (ن. ض. ق. ف. و). إنها الأسرار! وإذ تأتيك الكلمات إما أن تقوم، أو تترك نار القيامة تنحتها. نأتيك بالحرف المكين، لنبين لك وللأولين، أن الحرف سجن للطغاة والظالمين. تلك حروف ذهبت مع الريح، ولم نخسر البلاد، إلا لأننا خسرناها.** وماذا بعد؟ هل كان يريد أن يقنعني بتخريفه وحماقاته؟ بدأ يصدق حقيقة جنونه، وأنه قادم من مدافن ثلاثة قرون؟ لا يعقل؟ مسكين بشير إلمورّو. ما يزال بعيدا عن الحقيقة. هو لا يعرف بأني مثل السابقين، مستعد لإبادة الثلثين لإصلاح الثلث. لكن سر هذه حروفه يعذبني. النون (ن) والقلم وما يسطرون، وردت في القرآن. كلمات الشلل والخوف، مازالت هنا؟ لن أسلّم في الدنيا بسهولة. سأنام على هذا السرير الفارسي طويلا، وبعدها أبيع البلاد للذي يقدم أكثر من أصدقائي الشماليين. لا وريث لي سوى البحر والصخور والبراكين. خدعني الكل، حتى زوجتي، أعوذ بالله، هي ليست كذلك؟ محظية من نساء الحرملك المحظوظات لا أكثر. لابد أن تُرجم عندما تنتهي الحكاية، ولا مانع لديَّ من أن تُسجل في كتاب الأمة، على أنها كانت عظيمة وساهمت في الدفاع عن حصون الجملكية من الأعداء والمتربصين. كُتَّاب الدواوين كثُر، وكتاباتهم لا تكلّف الكثير. صحيح أن هذا كله كذب، ليكن. ولا يصدقه أحد، ليكن. لكنني ابن النار وجهنم. فكَّكت الحروف الوهاجة، وفتحت الدروب المغلقة ولن أجد صعوبة في رواية حكاية دنيازاد كما أشاء. لتأت نهاية ليلة الليالي. مرحبا

بالفجيعة. لن تكون إلا فجيعة المدينة ودنيازاد، وبشير إلمورّو. سيبدأ بعدها العد الزمني كما أراه لا كما شاؤوه. سأغير الدنيا بكاملها، بل سأغير الألسنة والعيون والملامح.

سمع انفجار قذيفة جديدة ليس بعيدا عن النافذة التي كانت مشرعة قبل قليل ليدخل منها هواء بارد ومنعش أعاد له الثقة في الحياة. كان دويها قويا وقريبا. لم يهتم كثيرا. الطرقات كلها موصدة، وأبواب المدينة أغلقت عن آخرها. حتى الذبابة لا تستطيع النفاذ. كان الزمن يركض بسرعة. بسرعة مذهلة. أراد أن يوقف انسيابه باي شيء يمكن أن يلهيه عنه. نزع الساعة الحائطية التي تشبثت طويلا بالحائط قبل أن تستسلم لقبضته. ضربها على الأرض بقوة، فتراقصت أرقامها وعقاربها الذهبية الثابتة، لكن الليل الذي كان يعيشه لم يغير دورته. كل شيء كان داخل نظامه المتكرر. بشير إلمورّو لم يكن أكثر من معضلة طارئة. لقد أعطى أوامره الصارمة بردمه في الحفرة، لا شمس ولا هواء إلا بما يحفظ حياته، وبعدم قتله. في هذا يتقاطع مع أصدقائه الشماليين الذين يشاطرونه نفس الأفكار. قالوا له لا تشغل بالك به. سيسقط من تلقاء نفسه. سنغريه بالحكم، فالحكم يسيل اللعاب. سنوفر له أجمل الشماليات، من الإسبانيات، والإنجليزيات والفرنسيات والألمانيات والسويديات، والأمريكيات، وإذا لم نستطع، سنلغي ذاكرته، ونرميه في الشوارع ولن نتيح له فرصة التحول إلى الشهيد. نلغي ذاكرته؟ تساءل الحاكم بأمرهز قالوا: اتركها علينا، نحن نعرف كيف نسيّر شؤوننا وأسرارنا. قَتْل بشير إلمورّو لن يغير من مسار ليلة الليالي شيئا. ولكنه سيوحّد القلعة والبحر، وسكان المدينة الشعبية.

كان الحاكم بأمره يدرك جيدا أن المقتل كان هناك. هناك فقط.

المؤمن يلذغ من الجحر مرة واحدة، أكّد الحاكم بأمره. الحلاج، على عظمته أسقطناه بهدوء. ردمناه في السجن طويلا، حتى نسته الرعية. لكنها كانت متأكدة من أنه ما يزال حيا، وهنا بيت القصيد. ومع الزمن نسيه حتى مريدوه. ويوم أنزلناه إلى أسواق بغداد للرجم، مسبوقا

بالتهمة القاتلة، زنديق، وساحر، وصاحب كرامات، ومدبر ثورة القرامطة الكافرة، كان كل شيء قد انتهى. حتى الشّبلي، الذي كانت تتآكل في أعماقه حرائق صديقه وحبيبه، رماه بوردة ثم انسحب. لم يلتفت وراءه، اكتفى بسماع آلامه وهو يصرخ بصوته المكتوم على غُبن:

«- آه يا سيدي، قتلتني آه يا الله. آه يا أنا ما أبعدك عني وأنتَ فيَّ... هل تعلم يا سيدي الشبلي أنك أخطأتني؟ من هذّب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات، ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حل فيه روح الاله الذي حل في عيسى بن مريم ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله الله تعالى. هل نسيتَ أن تفعل ذلك لترتقي نحوه؟ ألم تقل لي يا شيخي وحبيبي الشبلي، إنك والله شيء واحد، فلماذا تخلّيت عن الله فيه؟»

الدنيا لم تكن مستعدة لتتحمل إلهين، يا هو، يا جدي المقتدر؟ موته كان قاسيا، أعترف بذلك. لقد صفته النار حتى أردته خيطا من نور. المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين. الخطأ كان ههنا. لقد غسلت جسده النيران، ليواجه بعدها ربه الذي لا يتحمل أوساخ وأدران الزندقة، هكذا قلنا لكُتّاب الدواوين. لكن في الحقيقة، فقد كان المقتدر لا ينام إلا وحملة ثدي إحدى محظياته في فمه ممزوجا بالقرفة وعود النوار والزعتر والقرنفل. الحلاج قتله مريدوه حتى قبل أن نقدم نحن على قتله. مات قبل أن يُصلب وقبل أن يُحرق. قلنا إنه كان كافرا، وكنا نعرف أنه كان قرمطيا. ومن كان مؤمنا في ذلك الزمن؟ لقد باع جدي المقتدر الحكم والدنيا لقهرماناته الفارسيات والتركيات. لم يكن أحد يتجرأ على مخالفتهن. لكنه جدي العظيم الذي حافظ على الحكم بأسنانه وأظافره ولم يتركه للرعاع. السلطان يعمي الأبصار. والحكم قيامته. هو دم يحل دمه، وجرح يفتح جرحه، وفرح ينجب خوفه. لو لم يقم المقتدر بذلك من خلال ابن الفرات، لقاد الحلاج العصيان الشعبي، ولدخل العرايا قصور العباسيين، ولأكلوا عنفوان بغداد بكامله مثل

الجرذان. كان يجب أن يحمل دمه بين كفيه كسيدنا المسيح. محونا الذاكرة، وكتبنا تاريخنا، لكن القوالين، أبناء الكلب، أعادوه إلى الدنيا من جديد، ولا أعرف كيف؟ حتى الطبري، شيخ الورّاقين، كان معنا على الرغم من أنه كان من حين لآخر ينتمي إلى حلقة القوالين في بعض تاريخه وتخريفه. كان لا يكتب إلا بالإشارة. قلنا له دبج يا شيخنا ما يمر بقلبك ويحفظ حياتك ومالك. فرصف الكلمات الثقيلة: **يقال إنه كان زنديقا. أُلقي عليه القبض في أسواق بغداد التي قُتل فيها يوم الثلاثاء الموافق لـ ٦ ذي القعدة سنة ٣٠٩ هجرية، والموافق لـ ٦ مارس من سنة ٩٢٢ ميلادية.** السيادة لن تكون إلا بالقوة، والتاريخ الذي نكتبه ونعيد كتابة، ونعيد تصحيحه هو تاريخنا. لن أرتكب حماقة قتلك يا مهبول أندلس لا توجد إلا في ذهنك. أصدقائي الشماليون يقرؤون الطالع. كل ما توقعوه، باستثناء المناظرة البائسة، حدث بالفعل. لن أرتكب حماقة قتل النينوي مرة أخرى لأحيط قصري بالشهداء الرعاع. أعطيناه فرصة الشهادة، فقابل الموت بابتسامة. يقال إن النينوي عندما رأى بياضا، فتح عينيه بدهشة المتصوف، ثم فجأة غرق في نيران الصنوبر المقدس. مهبول. لم يقل ولا كلمة واحدة. لم يستجد أبدا. الكثير من الناس، يكونون قد تعلموا من كبريائه، بالرغم من أوامر سيدنا الخضر، أوامري، الصارمة، فقد خرج الكثير من الناس نحوه. هذا الشعب مصنوع من حجر البراكين، لا يمكن ترويضه. لا يصلح إلا للحروب الوطنية والزلازل. لو تغلق الدنيا كلها في عيونهم، سيجدون حتما ثقبا يرون الشمس من خلاله. ولو أغلقنا كل الممرات، سنفاجأ بهم يشربون معنا قهوتنا المسائية. سيدنا الخضر لم يعد نافعا لهذه البلاد. عندما أتخطى مصاعب ليلة الليالي، سأعطي أوامري الصارمة، لإلغائه من تراث الجملكية. وسيخرج من حدود آرابيا نهائيا، سأنفيه نحو تونس أو مصر أو اليمن، وربما إلى طرابلس ليختلط هناك مع القتلة السريين. سأعيد النظر في كل شيء في سيدنا الخضر، في برامج التليفزيون، في التاريخ، في التراث، في السياسة، في الحب، في الدين، في نظام

الحكم ذاته، في القصر الجملكي وأبني غيره، في الوضع الاعتباري للمحظيات وإعادة ضبط وظائفهن ... بعد هذا كله سأسمح لبشير إلموزّو بمغادرة السرداب. أرميه في شوارع المدينة الشعبية، وأتركه هناك يحكي ما يريده، فلن يسمعه أحد. زمن ليلة الليالي يكون قد سقط من الحسابات والتقويمات الهجرية، والميلادية، وتكون ذاكرته قد تفتت مثل تربة الكهف المحروقة. أرميه داخل مجموعة تروي الحاضر الذي يعد بالخير والنور. سيموت من تلقاء نفسه. ألم يخلق من الشبه أربعين؟ سنصنعهم على شاكلته ونمنحهم تاريخ الوراقين لإشاعته.

الضربة كانت قوية والانفجار كسر بعض زجاج الصالة. فجأة دخل الحاجب وأنفاسه تتقطع، فعكر كل صفوه الذي كانت القذيفة قد أربكته.

- عذرا يا مولاي الغفور الأرحم. أنت قلت لي، في الحالات الخطيرة لا تستأذن، أدخل مباشرة وأخبرني. وها أنا ذا أفعل.

- أنت احميدا، القوال ديالنا!؟

- يبدو أنك متعب يا سيدي. أنا حاجبك الخاص ولا أحد غيره.

في تلك اللحظة بالذات تفطن إلى أن جهنم التي كان يعيشها، كانت فيه، وكانت مساحتها تزيد في كل لحظة اتساعا وتمدّدا.

- لولا ثقتي فيك لقطعت رأسك، ماذا وراءك لم أسمعك جيدا؟

- مدخل المدينة الأول استولى عليه عمال البحر.

- فقط؟ هذا ما أخافك؟ للمدينة سبعة مداخل يا حمار. شكرا على نباهتك على كل حال. لنا مدينتنا وبحرنا. لنتركهم يستنزفون قواهم. لن يغيروا شيئا في الخرائط المستقرة. ماذا فعل العلماء عندما احتلوا القلعة منذ أكثر من قرن؟ لا شيء! بنوهان ثم في رمشة عين جعلناها كعصف مأكول.

- ضباطك السّامون يا سيدي يقولون إن في الأمر خطورة.

- الضبّاط يغالون دائما بحثا عن الترقيات العسكرية. احتلال مدخل واحد لن يغير موازين الحرب. الصباح رباح يا ابني. نم قليلا، أنت متعب أيضا.

- وضع مثل هذا لا يريح. القذيفة سقطت على مقربة من الحديقة الملكية.

- لا تخف. جيشنا يتدرب لا أكثر.

كان دوي المدافع يزداد قوة وحدة وقربا، أكثر من المرات الأولى. بينما طيور النورس والغربان، كانت ما تزال تضرب بمناقيرها على زجاج النوافذ والأبواب والأسقف المغلقة في وجهها، خوفا من القذائف والدوي الذي كان يصمّ الآذان. كشر من جديد بالرغم من الكآبة التي نزلت على قلبه فجأة. لتمت هناك، طيور الجحيم. لتلتهمها النيران، فقد كانت دائما نذير شؤم. ثم أغلق كل الفجوات حتى أصبح التنفس مستحيلا لولا بعض المكيفات التي كانت ما تزال تشتغل.

في آخر الليل، خفتت أصوات المدافع شيئا فشيئا حتى انتفت نهائيا. تمدد على فراشه الوثير، في بيت الخلوة. مطّط رجليه جيدا. شعر برغبة لا تُقاوم للنوم.

- يااااه... أخيرا أستطيع أن أغفو. للمدينة سبعة مداخل. أجدادي قرأوا العاقبة لكل شيء. فكّروا حتى في أسوأ الحالات وأكثرها قسوة وخطرا. واااو ما أغباني كدت أنسى. يجب أن أنهي أمر دنيازاد. باعتني لمخاطر الدنيا، وباغتتني بولي عهد آن الأوان أن يلتحق بأمه في جهنم. يسافران مع بعض. الرفقة في الطريق إلى جهنم مريحة، أحسن من أن يموت الإنسان غريبا ويسافر غريبا. عليها أن تشكرني. فكرة تصفية قمر الزمان في الجبهة لم تنفع. فشلت. حمته أمه حتى النهاية وهي تحاول إقناعي: افترض أننا متنا، من يحمي ملكك؟ لا تترك الحقد يسكنك والشرّ يأكلك.

«- ثقيلة هي الحياة. ماذا يحصل لي؟ نسيت...»

تذكر لحظتها الخرقة البالية، الكتّانة الحمراء التي كان يعضّ عليها كلما زاد الألم عليه ولم يستطع أن يتحمّل حكي دنيازاد الذي يصيبه في عمق كبريائه. يعض عليها لكي لا يأكلها مثلما كان يفعل رئيس إفريقيا الوسطى بوكاسا. كثيرا ما اشتهى أن يكون بوكاسا حيث لا قانون يحكمه

إلا قانون الهبل والأدغال. تأمل الكتّانة الحمراء للحظات. همَس: أنت أيضا وصلتِ إلى نهايتِك. كنتِ ذاكرتي. بك ريقي وناري وأحقادي، لكن آن الأون أن تتحولي إلى رماد مثل أوراق ماكيافيلي الذي لم يكتم حقده ضد الحكّام والسلاطين الذين أزاحوه. فيك كل جراثيم الخيبة والنار الحارقة والذلّ ومهانة التحمل، بسبب باخية لا أدري على أي مرفأ ستتوقف.

«- كتّانة الكَلَبِ والغضب، والمهانة. إلى الجحيم.»

فتح زجاج المدفأة. قوّى نارها أكثر، تردد قليلا شعر بأن جزءا من ذاكرته سيموت، ثم أغمض عينيه، وكزَّ على أسنانه، ورمى الكتَّانة الحمراء في عمق المدفأة حيث تعالت ألسنة اللهب، وأغلق عليها بإحكام. أخذ يتأملها وهي تتلوى وتحترق فوجئ بأنّها لم تتحول إلى رماد كما هي عادة المحروقات في مثل هذه الدرجة، ولكن إلى كتلة سوداء، تجمَّعت على نفسها ثم انسحبت نحو الزاوية اليسرى للمدفأة، واستقرت هناك.

بِتعَب كبير وقلق ظاهر، أغمض الحاكم بأمره عينيه على نجمة هاربة، تفتَّتْ في الفضاءات العليا إلى آلاف الشظايا مخلفة وراءها خطّا من الذرات اللامعة، وشريطا من النور الهارب. لم تكن مخيفة، لكنها لم تكن فأل خير أبدا.

* * *

الفصل الرابع عشر

هُوَ لَمْ يَمُتْ... ولَكِنْ شُبّهَ لَهُم

- نسيتَ يا مولاي أن تضع الكتّانة الحمراء بالقرب منك؟ يبدو أنك برأت من مرض الغضب العارم وضيق النفس؟

- انتهى ذلك الزمن عمري. أنا في كامل صفائي. بعد كل الذي حدث؟

- طيب. أما يزال مولاي يريد أن يعرف نهاية الباخية، أم أنه شبع منها؟

قالت دنيازاد وهي تلملم غلالتها الجديدة ذات اللون الزهري المعشّق بالنجوم التي كانت تتلألأ تحت الأضواء الحمراء الخافتة.

- من يشبع من باخية لم تنته؟

- أعرف أنك منهك ولكن قصة المناظرة التليفيزيونية التي عشتَها لم تكن إلا بداية لأشياء الله وحده يعلم أسرارها.

- كنتِ بعيدة جدا في تلك اللحظات العسيرة.

- أعرف انشغال مولاي بشؤون الأمة، ولم أكن أريد أن أثقل عليك. تركتك تتصرف مثلما يمليه عليك داخلك، وكنتَ حكيما.

- لا أعرف من أين تنحتين سحرك، ولكنك تبدوين صادقة فيما تقولين.

- من فم لا نعدمه. عندما نحب علينا أن نعرف كيف نريح من نحب أيضا.

مسحت بمنديلها المعطر بالقرنفل وزهر الرمان على وجهه الذي أصبح يتعرّق كثيرا على غير العادة. شعر بالنعومة تنتابه وتتدرج به في

فراغ من الألوان مثل فراشات الحدائق الملكية التي تحيط كليا بالقصر الجملكي.

- نواصل؟

- أنتظرك.

كلهم يا مولاي خافوا من المناظرة، مثلك. إظهار بشير إلمورّو في شكل رجل مجنون كان ضربة قاصمة للظهر ولكل مشاريعهم. لكنَّهم بعدها خرجوا فرحين واحتفلوا في ما تبقى لهم من ساحات عامة أخفق الجيش الجملكي في السيطرة عليها. الكثير ممن لم يكن يعرف القصة بسبب انشغاله، ظن أنها واحدة من انتصارات الفريق الوطني لكرة القدم. هو الحزب الوحيد الذي كان قادرا على كل هذا التجينيد.

«- لم يمت يا مولاي ولكن شبه لهم... لم يمت ولكن شبه لهم.»

تمتمت ماريوشا وهي تقطع الشوارع الضيقة والأزقة القديمة. شعرت برغبة كبيرة في الدفع بكل ما في قلبها إلى الخارج لكي لا تيأس. همست فلم تسمع إلا أصداءها. كان شيء يشبه الحرائق يشب في أعماقها. شعرت بأشياء كثيرة تموت فيها وتتهاوى كالزهر الميّت. كانت النار تصعد من أقدام المدينة وتأكل كل ما كانت تصادفه في مسالكها. يعيش العابرون على وقع الأخبار المتضاربة عن وضع بشير إلمورّو بعد المناظرة. وجع يذهب وآخر يعود مثل الريح الساخنة. قالوا مات. لا هو لم يمت. بشير إلمورّو لم يمت ولكن شبه لهم. يخلق من الشبه أربعين؟

كانت ماريوشا متأكدة من أن الموريسكي لا يمكن أن ينتهي عند تخوم مدينة عشقها ولم يرها. كانت تتألم وهي تقطع الأزقة الضيقة الأخيرة باتجاه السوق والساحة الشعبية المحررة من رجال الأمن الذين تحصنوا في أماكن أخرى، قبل أن تتوغل في أعماق الحائط الفاصل الذي يقود نحو الجهة البحرية للقصر الجملكي، ثم للسراديب التي سُجِن فيها بشير إلمورّو. بعض الأبنية العالية أصبحت الآن داخل السور الجديد الذي تلاقت كل أجزائه المنفصلة مؤخرا بعد الاستيلاء على قسم من المدينة الجديدة، وعلى أحد مداخلها السبعة.

كانت تشعر بثقل المسؤولية. حمَّلها العلماء والعمال برسالة عليها ختمان، ختم العمَّال وختم العلماء.

انتظرت ماريوشا أكثر من ساعتين في القاعة الواسعة قبل أن يُؤذن لها بالدخول. ولكن في النهاية سُمِح لها بالدخول وسط حراسة مشددة. شعرت في لحظة من اللحظات، كأنها المرة الأخيرة التي ترى فيها بشير إلمورّو مشعا كعود النور على الرغم من أنهم غيروا مكان حجزه. فقد أصبح داخل قاعة جد مريحة بها كل الحاجات الضرورية. مثل أية غرفة في نزل محترم. سرير واسع، مكيّف، زاوية مطبخ صغيرة لتهييء الشاي والقهوة، وشاشة تليفزيون بلازما واسعة كان يلعب بها كلاسيكو إسبانيا بين برشلونة والريال.

- ماذا فعلوا بك يا عمري؟

قالتها ماريوشا وهي تتحسَّس وجهه الغائب والحزين.

مع ذلك كان بشير إلمورّو يبدو في قمة صفائه وعنفوانه. كان مرتاحا وهادئا على الرغم من أنّ حزنا عميقا كان يملأ قلبه ويرتسم في عينيه. من حين لآخر، تأخذه غفوة، أو سِنَةٌ من النوم، فينسى محيطه وأصدقاءه وحتى الكلام الذي سمعه قبل لحظات قلائل. كان على ماريوشا، أن تلمس دفء يده وتدخلها إلى صدرها، تضعها بين نهديها، ليحس بوجودها. يتأملها من جديد. يغرس عينيه في كل تفاصيلها. يعود إلى صفائه راسما ابتسامة ثانية بين شفتيه، عليها بعض التعب. كان يشعر بحاسته البعيدة كأن شيئا ما يمشي على غير عادته، في خط مستقيم، وأن سفينة نوح التي رآها لأول مرة في الحلم، بدأت تغرق بسرعة. أثارت انتباهها اللوحات التي كانت تتسلق الحائط لرونورا، وبكاسو ورفايلو، ولوحات سلفادرو دالي، ودافنتشي، وكلها لوحات مؤطرة بشكل مذهب تكاد تعطي الانطباع بأنها أصلية. مقطوعات موسيقية لتشايكوفسكي، بيتهوفن، الأخوة ستراوش، سان سونس، فيفالدي وغيرهم تنبثق من أمكنة متعددة من الغرفة. عندما سألت الشاب الذي طلب منها إذا كانت تريد شيئا: شاي، قهوة، بيرة، ويسكي، لم تستطع أن تكتم ضحكتها

وهي ترى الكاميرا الصغيرة التي كانت تتدلى من زاوية الغرفة:

- تحوّلات كبيرة. الدنيا تغيرت بسرعة. لجنة حقوق الإنسان الدولية ستندهش من مشهد السجن. خدمات لا توجد حتى في أكثر الدول تقدما.

- لا أعرف يا سيدتي. كل ما أعلمه هو أن سيدي الحاكم بأمره مصمم على أن يذهب في الإصلاحات إلى منتهاها. الباقي الله ورسوله أعلم.

- أين كنتَ تعمل قبل مجيئك إلى هذا المكان؟

- في الشّيراتون يا سيدتي وهو ملكية لاخوي مولانا. بكل صراحة هنا أفضل بكثير. أنا لا أخدم كل الناس، ولكن تحت أمر سجين واحد. ثم أن عمي بشير إلمورّو لا يطلب مني أي شيء. يتناول أقراصه البرتقالية ثم يُحقن وينام. رجل غير مؤذي إذا لم ننبّهه للأكل لا يأكل.

تنهدت ماريوشا عميقا.

- الموفق بالله. اسمي هنا. اسمي الحقيقي يمنعني القانون بكشفه.

- شوف يا الموفق بالله. هذا الرجل الذي تشرف على أكله وشربه هو الذي يمد يده كل صباح للشمس لكي يوقظها من غفوتها، وفي المساء يأخذها بين يديه ويضعها في فراشها بكل هدوء ونعومة. هذا الرجل يا الموفق بالله، هو الذي يختنق لكي يترك لك القسط المتبقى من الأوكسوجين لكي تتنفسه.

- ساحر؟ ولكن يبدو أنه طيب.

- لا يضرّ أحدا، وإذا فعل فهو لا يضر إلا نفسه.

- يبدو غائبا يا سيدتي.

- غيّبوه يا حبيبي. سرقوا منه ألقه ونوره.

كان بشير إلمورّو يستفيق يتحدث قليلا إلى ماريوشا أو يوشا كما كان يسميها، عن مشاغله بشكل واضح، قبل أن يغيب في استيهامات كان من الصعب عليها تتبع منطقها. ثم ينام ويكاد لا يعرف ماريوشا.

كانت تظن غفوة النوم والتعب هي السبب، لكن بعدما سمعت الموفق بالله يتحدث بعفوية، بدأت تفهم قليلا ما حلّ به. ربما كان محقونا بدواء مدوّخ حتى يهدأ قليلا ولا يطالب بخروجه من السرداب الذي غاب عفنه وأصبحت رائحته قريبة من عطر إيف سان لوران[٧٤] الذي وُلِد بهذه الأرض ولهذا اختير كعطر نموذجي لهذا المكان. عندما استيقظ قليلا طلب منها قهوة. وبمجرد أن هيأتها في الإبريق الآلي، كان قد عاد إلى نومه من جديد.

كانت مجروحة وهي تغادر السجن مجبرة. شيء ما يقول لها بأن بشير في حالة جد خطيرة. وأن ما يعيشه من إغفاءات متكررة هي من فعل فاعل.

قبل أن تغادر، سلّمت ماريوشا الرسالة لمدير السجن الذي استقبلها بدون أي إشكال وباحترام كبير. كان ينتظرها. ناداها باسمها وكأن بينهما صداقة قديمة. عندما سألها عن رأيها في الخدمات الجديدة التي يقدمها السجن لزبائنه، والذي تغير اسمه من سجن، إلى المركز الوطني لإعادة التأهيل. والسجناء أصبحوا يُسَمّون: زبائن وأصبحت الكلمة الإنجليزية هي الطاغية: The Guest. لم تجد ما تقوله. قدم لها الكتاب الذهبي بكل لطف لكي تقول رأيها. كتبتْ: لا أعرف. مخّي منغلق. سأسأل من هو أهمّ مني. ثم غادرت المكان بوجع لم تستطع كتمه ولا تحمله. تقيأت طويلا عندما أُغلق وراءها باب السجن القديم والثقيل، قبل أن تعود إلى حالتها الطبيعية.

في طريق العودة إلى القلعة، بعد أن تخطت السور البحري الفاصل بين القصر والعمال، فاجأها عمي الطاووس ابن أمه بلباسه العسكري وسلاحه الأتوماتيكي.

- يوشا؟ كيف وجدته.

- في حالة غريبة. شروط إقامته ممتازة، لكنّه كان غائبا عن الدنيا.

---

(٧٤) Yves Saint Laurent

عرفني ولم يعرفني. شم رائحتي فقط. ربما كانت حاسته الوحيدة التي ما تزال حية ولم يقتلوها.

- ربما كان متعبا فقط من كل ما قيل عن المناظرة التليفيزيونية.

- يا عمي الطاووس أنت تعرف دهاليز النظام أحسن مني. أياديهم قاتلة حتى عندما تُصبغ بالبياض. انا خائفة عليه ويجب أن نفعل شيئا من أجله.

- أعرف أنهم لا يرحمون ولا ينسون أبدا.

- هو ذا بشير إلمورّو يا عمي الطاووس. لقد خُلق للعذاب ليرتاح غيره. جاء لإنقاذنا من المسرحية السخيفة التي حيكت منذ أكثر من ثلاثة قرون، وربما منذ أكثر من خمسة عشر قرنا. هو لا يبيع الله، لإنقاذ ذاته. الله في دمه وفي عروقه. في عينيه وفي ذاكرته. في الملائكة التي شُوِهتْ وظائفها الرمزية كما يقول، وفي الزبانية. في عيني ماريانا وفي البحر الذي شقه وحيدا، بالرغم من جهنمية القرصان الإيطالي. لو كان أنانيا، لبقي هناك. فقد كانت ماريانا الغجرية كل عمره، ومع ذلك عاد. لا يحمل سوى أصداء البحر وذاكرة مليئة بالجروح والدم. أرأيت يا عمي الطاووس مفعول المواجهة؟

- نعم. معك كل الحق يا يوشا.

قال عمي الطاووس وهو يحني رأسه ويغرس عينيه في الفراغ المحيط به.

- ألم أقل لك إن الحاكم بأمره لن يغفر له ذلك أبدا. تفَّهه بقوة صفائه فقط. لم يستعمل أي سلاح إلا سلاح صدقه. وأنت تريد أن تقنعني بأنهم لن يؤذوه كأنك لا تعرفهم يا عمي الطاووس. حركتك تتأخر دائما بلحظات قليلة، ولهذا فهي كثيرا ما تفقد قوتها وصدقها.

- نعم. عليَّ أن أومن أولا أن في البشر شيئا غير منتظر من الضغينة والسوء.

- أنت تعرف ماذا حدث في الصباح الموالي للمواجهة التليفزيونية؟ كل شباب القلعة والبحر كانوا يريدون أن يلتحقو بالفرق الانتحارية لإنقاذه

أو الموت عند عتبات القصر الجملكي. شعروا بأن لهم صديقا عظيما جاء من أجلهم جميعا لم يكونوا يعرفونه. سجلنا أكثر من عشرة آلاف متطوع، قمنا بتدريبهم وتجهيزهم. لم تعد النية الطيبة كافية يا عمي الطاووس. ويوم أردنا اقتحام المدينة الجديدة، كانوا هناك. ويوم احتفلنا بالانتهاء من بناء السور البحري، كانوا هناك أيضا. كل ذلك كان بالنسبة لهم مجرد تدريب في انتظار يوم الزحف النهائي. وحين طلب منهم العمال والعلماء، بوضع قنابل حارقة ليلا، في البنك الوطني الرئيسي، وفي دار التليفيزيون، والإذاعة الوطنية، وفي الكثير من مراكز المدينة الجديدة، قاموا بذلك بدون أي تردد. وحين دخلنا إلى الجهة اليمنى من السوق الداخلي كانوا هناك. لقد أخرجوا سيدنا الخضر من ذاكرة الناس، لأن سيدنا الخضر لم يعد يزور المدينة القديمة، فقد انسحب، وخرج من أكثر المنافذ ضيقا.

- لكن وضعية بشير تشغلني يا يوشا.

- هو لم يمتْ، ولكن شُبِّه لهم يا عمي الطاووس. وحياتك، لم يمتْ ولكن شُبِّهَ لهم. ليفعلوا ما شاؤوا، فالشمس لن تغير دورتها. ستظل تشرق من شروقها وتغيب من مغيبها. لن تتغير الأدوار بأمر الحاكم بأمره أبدا. لقد أصبح الناس على يقين من أن ما حدث ويحدث سينتهي ذات يوم كما تنبأ له بشير وليس قدرا من الأقدار. الطغاة هكذا، من حيث لا يدرون، يحفرون قبورهم بأيديهم. المناظرة كانت مقتله الحقيقي. وهو الذي كان يريدها تدمير حلم بشير إلمورّو برؤية شيء آخر ينبت في هذه البلاد. أرأيت يا عمي الطاووس؟ البحر لن يفقد أملاحه والسماء لن تخسر زرقتها أبدا.

غرقت ماريوشا في تأملاتها وهي تستعيد وجه بشير إلمورّو الذي بدات ملامحه الحية تغيب وتحل محلها صفرة غير معتادة. تذكرت كل ملاحظاته المتقطعة، حتى ما قاله لها عندما استمرت قليلا لحظة صفائه، قبل أن يغفو: أنا على يقين يا يوشا، أن هذا النعيم الذي أنا فيه، لن يدوم طويلا. شفتِ كيف أصبح جلدهم يتحسس من التاريخ؟ يخافونه.

يرتعدون من الحقيقة. هذه المرة لم يعذبوني منذ زيارتك الأخيرة. يعطونني كل ما أطلبه من أكل وشرب، وفوق هذا يهدّؤونني بحقن الراحة النفسية. لكني كلما رغبت في شرب كأس ماء، يقدمونه لي مصحوبا بقرص برتقالي اللون. عندما سألتهم عن طبيعة هذه الأقراص، قالوا لي إنها تساعدني على استرجاع طاقتي الفكرية. قلت لهم لا أشعر بأي وهن وأن ذاكرتي في عز نشاطها. قالوا إنها تساعدني على تنظيم تنفسي، لأني أشخر في الليل كثيرا. قلت نومي يكاد يكون شبيها للموت، ولا أشخر مطلقا. قالوا يجب أن تشربها حتى تقاوم رطوبة السرداب. قلتُ الغرفة دافئة ومكيفة. انزعجوا من كثرة أسئلتي. وصرخوا دفعة واحدة، كانوا أصدقاء الحاكم بأمره الشماليين: الحكيم خائف عليك من الموت الفجائي ولا يريد أن يتحمل مسؤولية موتك. منذ مدة وأنا أشربها يا يوشا. ليس لها أية مضاعفات جانبية، حموضتها تشبه حموضة البرتقال. دائما، قبل أن يخرجوا، يفتحون فمي، يتأكدون ما إذا مرَّ القرص عبر البلعوم أم أنني خبأته تحت لساني، ثم ينسحبون بكل أدب بألبستهم البيضاء وكأنهم طاقم طبّي. مع أني قبل أيام، في الفترة التي تلت المناظرة التليفزيونية، كنت أنتظر أن أُخرَجَ إلى الساحة وأُعدَمَ حرقا، بشجر الصنوبر، أمام الجميع، كما فعلوا بسيدي وحبيبي النينوي. هكذا الحكام، يقبلون منك أن تكون تافها، ونصف إنسان، لكنك عندما تحاول أن تكون أنت، تصبح وجوههم باردة مثل رماد النسيان، ويدخلون بعنف إلى قلبك، وينزعونه من جذوره... **إيه يا يوشا... يا دنيا يا دانية... يا بنت السيرة الفانية... الناس يموتوا عليك، وأنت ديما هانية... يا دنيا يا دانيا...**

ثم رأته يغرق في دندناته الطفولية ويغيب شيئا فشيئا عن كلّ ما كان يحيط به، بين النائم واليقظ، الذي يرى ولا يرى. شعرتْ ماريوشا لحظتها أن شيئا ما غيّر بشير إلمورّو. كانت تقاطيع الحزن تبدو واضحة على وجهه الذي غزته علامات غريبة تشبه الموت المبكر. لا تدري كم دام زمن الإغفاءة، ولكنه كان كافيا أن يسرق منه خيط الحديث الذي كان

قد بدأه. قال في حالة تكاد تشبه التمتمة تتذكر جيدا أنها قرّبت أذنها اليمنى من فمه لتسمعه جيدا، واستطاعت أن تفكّها كلمة كلمة.

«- على العلماء أن لا يتركوا ليلة الليالي تمر بهدوء. إذا مرت لن تعود. الكتاب المفتوح، يجب أن تبدأ الكتابة فيه انطلاقا من هذا الجرح الذي يحتاج إلى فصد جديد حتى ولو كان مؤلما جدا. ن.ف.ق.ف.و. لم يعرفها الحكيم، حتى وهو يغسل يديه وذاكرته في دم محظياته. قلبه مليء بالظلام... يوشا الحبيبة...»

تتذكر ماريوشا أيضا أنها قبل أن تغادره همست في أذنه بحيث لا أحد يسمعهما، حتى الكاميرات المعلقة في الزوايا التي حاولت أن تتفادى المرئية منها على الأقل:

«- يا سيدي وحبيبي وحنيني الأكبر، نحن فهمنا وصيتك جيدا وفككنا أسرارها. أدركنا أنك تدعونا للوحدة لكسر الشوكة. النون (نحن) الفاء (الفقراء) القاف (قوتنا)، الفاء (في)، الواو (وحدتنا): نحن الفقراء قوتنا في وحدتنا. نعرف أنه شعارك وأصبح اليوم شعار العلماء والعمال. لم تمنع الحيطان السميكة وصول وصاياك. بفضلك ربحنا نصف آرابيا. وتحوطنا أكثر، وأغلقنا فجوات الأسوار لحماية السكان من الهجمات المحتملة. ننتظر عودتك يا سيدي بشير، نورك في عيوننا، ونارك تملأ قلوبنا.»

غفا قليلا بدون أن يغيب عن وعيه. وبعدها عاد ليتحدث بصعوبة كبيرة. كانت مسحة الحزن تُقرأ بسهولة على وجهه. تمتم بصوت كانت مخارجه واضحة على الرغم من ثقل لسانه:

«- بدأتُ أنسى كثيرا يا يوشا. أتعرفين ماذا طلبوا مني؟

- لا يا عمري وحبيبي.

- أوصلي هذا إلى العلماء. جاءني الشماليون. كان الصباح باردا. هم الذين عملوا على نقلي إلى هذا المكان. قالوا إن حكام البلد رعاة، ومتخلفون، وعرب عاربة لم يخرجوا أبدا من عقلية الجمل والرمل والقبيلة والثأر. ولا يقدّرون جهود العلماء وصدقهم. كنت أظن أنها كلها

مقدمات لطمأنتي، قبل قيادتي، للذبح والسلخ والصلب. ما حدث للحكيم لم يكن هينا أبدا. كنت قد بدأت أفكر بجدية، كيف أواجه الموت، قلت في أعماقي، ليكن. عليَّ فقط أن أقف شامخا في صلب المحرقة. وإذا كان لابد من الموت، فلأمت واقفا. قال الشماليون تستحق أن توضع في المكان الذي يليق بك. قلت لهم، إن الأمور عندي سيان، النور الذي في داخلي، لا يهرم ولا تلينه الرطوبة ولا تطفئه حماقات الحكيم الحاكم بأمره، أو خياناته الوطنية. لا أطلب تكريما، أطلب منكم أن تدعوني وشأني؛ فذاكرتي مليئة، وأستطيع أن أعيش معها قرنا من الزمن بدون ندم، وبدون الإحساس بعذابكم وخرابكم. قالوا لي بعدما بدت الهزيمة منكسرة في أعينهم. جئنا بك إلى هذا المكان لأننا نقدرك ونحترم كل ما قمت به من أجل شعبك وذاكرتك. ونقدر جرأتك الكبيرة في تجاوز خرافات الكثير من الحكام، حتى العلماء لم يقوموا بما قمتَ به أنتَ. شعرت أن وراء ذلك، أشياء كثيرة، ودقيقة لا يمكن لمسها بسهولة يريدون توصيلها إليَّ، أقربها إهانتي أمام ميراثي وذاكرتي.»

صمت للحظات بدون أن يفقد وعيه. ظلت عيناه مليئتين بالنور. ثم أخذ يدي، تقول ماريوشا، ووضعها على صدره. كانت دقات قلبه خافتة لدرجة أني احيانا كنت لا أحس بها أبدا. حرارته لم تكن مرتفعة، بل كانت تنزل من حين لآخر لدرجة أن تأخذه رعدة مقلقة قبل أن يعود إلى حالته الطبيعية.

«- وعندما وصلوا إلى حديث المواجهة مع الحكيم في التليفزيون، قهقه أحدهم وهو يمد يده باتجاه المكيف لينقص من حرارته الكبيرة. بووووف؟ آرابيا ليست للملوك فقط، من حق الناس أن يعرفوا أسرار الحكم في هذه البلاد. أنت عالم كبير يا سيد بشير. لقد جئت من زمن يتجاوز الثلاثة قرون لتعيد الأمور إلى نصابها. من حقك أن تلقى الرعاية وليس المظالم. سألوني حول هذا الموضوع كثيرا، لكني كنت متأكدا من أنهم خرجوا بنتيجة واحدة وهي أنهم يقفون أمام مجنون مسلوب بعشق

المدن التي لم تعد موجودة، وأنه لا فائدة من شرائه. وكانوا في كل مرة يحاولون أن يوحوا لي، بأني كنت مولعا بحب قراءة الشقاء الأندلسي في كتب التاريخ، في المكتبة الوطنية، وأني مع الزمن التبستُ بالحالة فتحول المقروء إلى حقيقة مادية، وذكروني بشخصية أعرفها جيدا، حدث لها ما حدث لي: دون كيخوتة دي لا مانشا[٧٥]. يقول أحدهم، كان من العارفين بخبايا علم النفس بأنها حالة تقمص عادية. حدثت معي يوم تلقيت ضربة شمس على الشاطئ الساحلي للمدينة، أو حينما هاجمتني الأمطار، فأختبأت داخل مغارة. خرجت منها بعدها متوهما بأني من بقايا أهل الكهف. كل كلامهم كان يوحي لي بأني مجرد رجل أصيب بحالة مس من الجنون ليفرغوني من الداخل. تكرّرت زياراتهم، ولكن عبثا. في المرة الأخيرة، قرأت التصميم في عيونهم. قالوا، المدينة تهتز بسببك وعليك أن تدفعها إلى الصمت بوسائلك الخاصة. استعملْ حكمتك، فلستَ رجلا عاديا. قالها أحدهم باللغة الفرنسية والإنجليزية، وترجمها آخر إلى العربية. لا نريد أن نجرح عودتك أمام الناس. لن نقول لهم إنك رجل عادي، هرب من الساحل خوفا من الشمس أو المطر، ولكن عليك أن تفهمنا أنت أيضا. تأكدتُ من عيونهم مرة أخرى أني مجرد مجنون استعصى عليهم قتله. أكدوا لي جميعا، أني إذا أخليت المدينة من الناس والمتاريس والعودة بها إلى الوضع القديم، سأجازي على مبادرتي التي لن ينسوها أبدا. لكني ضحكت ورفضت، لأني لم أكن أفرق بين الحقيقة والكذب عندهم، ولهذا افترضت منذ البداية، أن كل ما يقولونه، كان موجها ضدي. يستحيل عليَّ أن أتخيل نفسي محمد الصغير. لن أكون إلا الشوق الأندلسي، وحزن شواطئ ألميريا، ووحدة جبال البشرات. ظلوا يصرون بدون جدوى. في الأخير، قال كبيرهم، العالم النفساني، وهو يربت على كتفي، يا بشير، كن فقط رجلا، نكون رجالا معك، لم أفهم جيدا. نظر إلى عيني بهدوء وقال: بشير إلمورّو،

(٧٥) Don Quichotte de la manche

تأكدنا من أنك بالفعل رجل قادر على إدارة البلاد. كنت أظن أنه يلمّح لي بمنصب مشرف على مركز الوثائق الأندلسية القديمة بالمكتب الوطنية مثلا، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك. صفّق العالم النفسي، فأغلق الحراس كل الأبواب. سكّروا الأجنحة. علقوا المصاعد بعد أن عطلوها مؤقتا في أعلى السرداب. لم أعد أسمع على الإطلاق صريرها وهي تصعد وتنزل. اقترب من أذني اليسرى وقال: سنفضيك سرا. يجب أن تحافظ عليه، لأنّ رأسك مرهون به. قلت لا أستطيع، ما أسمعه ليس ملكي. فهو ملك للأسواق والشوارع. وإذا كتب لي أن أعود للمدينة ثانية، سأكرر نفس الشيء وفي كل الأسواق. قال لا يهم. المهمّ أن لا يصل هذا الخبر الخطير إلى الحاكم بأمره. قلت لا أعتقد أن الحكيم بعد الذي حدث، يرغب في رؤيتي. لن يحدث ذلك. شعرت بالفرحة تملأ عيونهم. فقد كان هذا الأمر أساسيا بالنسبة لهم، قالوا: البلاد تغلي، والناس يزحفون باتجاه الحصون الأخيرة والساحات العامة. في يدك خاتم سليمان السحري. إلعن الهدوء والطمأنينة وانهض لرؤية الشمس، إنها تأتيك محمولة في لفافة زرقاء. أنقذ البلاد من بحر الدم. أعطها رحما جديدا للولادة. أخرجها من عسر الولادات القيصرية. بأقصى درجات السذاجة قلتُ لهم لم أفهم ما تريدون الإفضاء به. أشياء كثيرة ضاعت عني داخل حديثهم، قالوا. نريد أن نقفز بك باتجاه عصر آخر مع احتفاظك بذاكرتك.

- أوقف هذا البحر من الدم الذي يلوح في الأفق. الحرب الأهلية ستأكل الأخضر واليابس. نريدك صديقا وليس عدوا.

- لا أملك الوسيلة.

- بل تملك أعماق الناس. لوح بيدك يتعبك الجميع. قل لهم موتوا، سيموتون عند قدميك. قل لهم أحرقوا أنفسكم من أجلي، فلن يترددوا أبدا.

- قلتها للحكيم، الحاكم بأمره، لا أنا قادر على حمايته ولا هو قادر على إنقاذي.

- لسنا في حاجة له. نحتاجك أنت. الخراب سيعم البلاد إذا لم تمد يدك نحو الحرائق الصغيرة التي ستتجمع قريبا لتصبح حريقا مهولا يأتي على كل شيء.

- ليكن. لن يخسر الناس شيئا، لقد أصبحوا رمادا. لكن جذوتهم لم تمت.

- اسمع يا بشير نقولها لك الآن، صراحة، نريد إلغاء النظام الجملكي، وننصبك على البلاد. أنت تستحقها أكثر من غيرك. لقد تعذبتَ كثيرا عليها، فانت نبيُّها التائه.

- ههههههه.... أنتم تسخرون مني.

- لم نعد نفهمك. هذا جمود عقائدي. لا نريد منك شيئا سوى الحفاظ على أسواقنا وعلى حصتنا الثابتة في النفط الوطني والغاز. الباقي هو لك ولذريتك ولكل ما يشتهي خاطرك. هل هناك إغواء أكثر من هذا؟

- والحكيم... الحاكم بأمره؟ الذي وضعكم في منصب الاستشارة...

- هو ملكنا. أتعبنا كثيرا بحماقاته. يريد أن يكون ملكا، رئيسا، امبراطورا، ملك ملوك إفريقيا والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. نتكفل به نحن، نستطيع أن ننزعه متى نشاء. نريد رجلا يحافظ على الاستقرار والهدوء وعلى وحدة البلاد.

- ماذا تربحون من ورائي؟

- لن نكذب عليك، تعرف أن شركاتنا تسيطر على السوق النفطية في البلاد. وهذا يعني الكثير بالنسبة لنا. إقبل فقط. نتوجك الآن. ونحول آرابيا إلى أعراس دائمة.»

لحظتها شعرت ماريوشا أن بشير كان قد أدرك بنباهته سر اللعبة التي كانوا يحضرونها له. كانوا يريدون حرقه في وجه الناس الذين قُتلوا على أسوار المدينة من أجل إنقاذه. جاءه مرة أخرى وجه محمد الصغير، في شكل شيطان أحمر يزعق ويرقص من حوله. دغدغه، لكزه بكتفه مثلما يفعل الصديق مع صديق قديم. تمتم في أذنيه: لا أحد يسمعنا إلا الله.

أنصحك بأن تقبل يا صاحبي. لا تضيع الفرصة. الملك إن لم تأخذه، سيستلمه الرعاع. أنا أكرهك لأنك شوهت سيرتي في الأسواق، ومع ذلك فأنا أقبل بنصحك لله. أسامحك وأصادقك إذا قبلتَ أن تتعاون مع الأصدقاء الشماليين مثلما فعلتُ أنا منذ زمن بعيد مع القشتالية والأرغوني. يملكون القوة يا ربك، والزين، وممو العين، والزغب الأصهب، لا تكن غبيا، فلن تنطح السماء. حضارتهم أقوى منك ومني ومنّا جميعا. الرعاع سيتخلون عنك في لحظة الحسرة ويبيعونك للحجارة مثلما باعوا الإتقياء من قلبك. تعودوا على السوط والجلد. استعملهم قبل أن يستعملوك. ثم انسحب محمد الصغير بسرعة عندما عوذ وبسمل بشير إلمورّو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمن الرحيم. لم يكن يحمل أي موهبة من مواهب محمد الصغير. حتى أنه في لحظة من اللحظات لشدة ارتباطه بما كان يحدث أمام عينيه، تساءل هل حقيقة عاد من غرناطة، ونام زمنا تجاوز الثلاثة قرون في الكهف؟ أم أنها الكتب التي أخذت من عقله الكثير، كما أكّد على ذلك الشماليون؟ لكن من أين جاءت كل تلك التفاصيل الثقيلة؟ تساءل. جدّه الذي التهمته البشرات؟ ماريانا التي أحرقت قلبه؟ أرمادة القرصان الإيطالي؟ أي خيال أبدعها وأسكنها في أعماقه؟ ثم ما الذي جاء به إلى هذا المكان؟ أين كان قبل هذا الزمن؟ نظر إلى سماء تخيلها شديدة الزرقة ثم همس قبل أن يدخل في إغفاءته: لا. لن أقبل. ليعيدوا البلاد إلى ذويها، وسأندثر مثل الغيمة الممطرة. مثل الضبابة الفجرية الهاربة. مثل شعاع يطل ثم ينكسر في الفراغ. ثم التفت نحوهم من جديد.

- لا يا سادتي، لن أكون أبا عبد الله محمد الصغير.

- ولسنا لا إيزابيل القشتالية ولا فرديناند الأرغوني. نعمل لمصلحة دنيازاد وابنها، ولي العهد قمر الزمان. أردنا أن نشركك في حكم أنت أولى به. برفضك، لم تترك لنا خيارا آخر. أنت تدفعنا باتجاه الخيار الثاني وإلي مزيد من الخراب. في هذا، تتحمل المسؤولية التاريخية كاملة. دم كثير سيسيل مثل الوديان. أنتم الخاسرون. نحن نعرف أن

ساعة الحكيم بأمره قد توقفت. سنجد حلا لتمطيط زمنه في انتظار إيجاد البديل. تريد الحقيقة؟ سنغامر بابنه في حالة رفضك. ولتكن دنيازاد قهرمانته الكبيرة. نريدك أنت يا بشير إلمورّو لانقاذ البلاد، لأنك أكثرنا حكمة.

- حكمتي الوحيدة، أن تنسحبوا بسرعة، وتعيدوا البلاد إلى ذويها. أما أنا فلست شيئا آخر سوى ذاكرة متقدة سيأتي زمن وينتهي ألقها إذا لم تجد من يرثها.

ثم دخل من جديد في حالة هي أقرب إلى الاصطلام منها إلى العقل، حيث لا شيء يُرى ويُلمس إلا غمامة عالية، ملونة بعشرات التدرجات اللونية، كان معلقا فيها مثل الشعاع. لم يكن قادرا على ضبط الأمكنة والأزمنة. كنت أستمع إليه، تقول ماريوشا، لأني كنت متأكدة من أن حبيبي بشير إلمورّو لا ينطق عن الهوى، إنما هو شيء مثل وحي يُوحى.

«- يوووووشا... آه يا شيخي الحلاج، يا روحي ومنبع شجني ودمي. ما قتلوك وما صلبوك يا مولاي. وضعوا الملك في يمينك. ضحكتَ. لم يفهمك أحد فنطقت بالسر المحفوظ. قلتَ وما الملك؟ أنا الله. ضاعت سبلهم يا مولاي وعمَتْ أبصارهم. أخذوك بالحرف. قلتَ لو كان القرآن بالحرف لمات في زمنه الأول. ولأنه أكبر من الحرف علينا أن نكبر معه أيضا. وضعوا الأقمار والشموس مجتمعة في كفك الأيسر. ضحكتَ. قلتَ أصغر من حملي الذي لا يحدّ. لم يفهموك. قالوا طمعك أكبر مما نتصور. كانت جراحك غائرة وصوتك صافيا كشمعة في لحظات إحتراقاتها الأخيرة... يااااه هل الناس صغار إلى هذا الحد؟ كنتَ صغيرا وحرفيا يا أبا حامد الغزالي، أيها المتكلم الأشعري الصغير. حين قال شيخي أنا الحق، قلتَ له: فمن قال أنا الحق مغتر، ويُعتبر الأمر محل إلتباس، إذ المتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة، فيظن أنه لون المرآة. ما الذي صغَّرك إلى هذا الحد يا سيدي؟ هل هي نيران الغيرة أم أقواس الخوف من الإلتباس؟ من لا يلتبس لا

يعرف سرّ الحياة. أصغر من سؤالك يا سيدي. ألا تعرف سحر الكلمات وصوفية الموت عشقا؟ الكلام لا يعني ما يعنيه وإلا لا صوفية يا أبا حامد. ما الذي غيَّرك؟ حين قتلوا مولاي وحبيبي الحلاج، كان مصطلما بحالات العشق التي لا تحد طاسين النقطة. دخل إلى قلبك كالإبرة. قلتَ يا سيدي وأنت تخيط جرحك وتقطع الخيط بأسنانك: تحيَّر فأبصر، أبصر فتحيَّر. شُوهد فشاهد. وَصل فانفصل. وَصل بالمراد، فانفصل عن الفؤاد. ما كذب الفؤاد ما رأى. كان قابَ حين تابَ وأهَاب. ودُعي فأجَاب. وأبصر فغاب. وشرب فطاب. وقرب فهاب فراق الأمصار والأنصار والأبصار والآثار.»

كان غائبا عندما ملأ النور قلبه.

- يجب أن أخبر العمال والعلماء بكل ما حصل. هم ينتظرون على أحرّ من الجمر. أشعر كأن الوقت لم يعد في صالحنا. كأننا بدأنا نخسر بشير إلمورّو كل يوم قليلا.

قالت ماريوشا لعمي الطاووس ابن أمه الذي ظل منهمكا في مقاومة دمعات نزلت بحرقة على خديه. شعر بالإنهاك. تحسس للمرة الأخيرة سلاحه مخافة مغبة المفاجأة. التفت صوب البحر الذي لم يكن بعيدا. سمع صوت انكسار موجه غضبا، على السور الذي بناه العمال والعلماء لاتقاء شر الحاكم بأمره.

ثم انزلقا في ظلال السور قبل أن يدخلا في عمق المدينة وساحاتها وبعض أحيائها الشعبية سالكين نفس الطريق الذي جاءت منه. في المنتصف، المؤدي إلى المسلك الضيق، سلّمها عمي الطاووس لمسلح آخر ظل يتبعها من بعيد وهي تتعرج بشكل شبه آلي عبر دروب آرابيا القديمة التي سقط معظمها بسبب الإهمال الكبير، حتى وصلت إلى المنفذ الضيق الذي دخلته قبل أن تجد نفسها في قاعة الاجتماعات الواسعة.

كانت منهكة. سألوها كل ما كان يمكن أن تُسأل. أصغر العلماء هو من كان يريد معرفة كل التفاصيل الغائبة. ثم فجأة طرح عليها سؤالا غريبا لم تكن تتوقعه، أو على الأقل جاء خارج السياق.

- أمازلتِ تحبينه؟

ارتبكت بقوة، بل شعرت بثقل في رأسها. كاد أن يُغمى عليها. طلبتْ ماء وقرص أسبرين للتخفيف من وجع الرأس. تدارك العالم سؤاله.

- عذرا يا ماريوشا. سؤالي كان مباشرا، وبلا لطف، ويبدو كأنه تدخل في حياتك الخاصة. أعرف أنك تحبينه، ويثق فيك بشكل يكاد يكون أعمى ولهذا بعثناك، وربما لهذا السبب أيضا لا يمنعونك من زيارته. لو كان غيرك لأبعدوه من البوابة أو ربما لسجنوه. هم مثلنا، يريدون أن يعرفوا كيف يفكر، وما ينوي فعله. من المؤكد أن الجلسة بكاملها تم تصويرها.

- رأيت بعض الكاميرات المعلقة. كنت أعرف أنهم لن يضيّعوا فرصة مثل هذه. حاولت تفاديها قدر المستطاع ولا أقول أسراري.

- كنت أريد أن أعرف إذا كنت مستعدة لرؤيته مرة أخرى، نحتاج إلى التأكّد من وضعه لأننا لم نعد نشك إلا قليلا في أنهم شرعوا في قتله بالأقراص البرتقالية. لم يبق الشيء الكثير في ذاكرته. ربما استطعنا إنقاذه أو مقايضته بأحد جنرالاتهم المسجونين لدينا. نريد أن نعرف كل شيء قبل فوات الأوان.

- كنت بالفعل أفكر في ذلك.

- لا تكلمي أحدا في الموضوع. زوريه واستمعي إليه فقط.

عندما زارته في المرة الثانية شعرت بوجهه المنور، وقلبه الدافئ ولكنها أحست أيضا وكأن شيئا ما فيه تغير بعمق. كان ينكّت كثيرا وهذا ليس من عاداته. لكنه، في الوقت نفسه، يشرب بين الآونة والأخرى أقراصا ليمونية اللون. قال لها ضاحكا:

- الحمد لله. لقد وجدوا الأنتيدوت[٧٦]. الدواء المضاد للألزيمر. قالوا إني كنت على قاب قوسين أو أدنى من السقوط نهائيا في مرض

---

(٧٦) الدواء المضاد. Antidote

الخرف المبكر. كانوا على حق. الآن الحمد لله. كلما احتجت إلى التذكر، وجدت أمامي أقراص الليمون. صحيح أني أصبحت مدمنا عليها، ولكني أحتاجها لأن ذاكرتي بدأت تظلم يا يوشا الغالية. كلما افتقدتها شعرت بهوة غريبة في دماغي تشبه الحفرة المظلمة.

كانت سعادتها مشوبة بحيرة كبيرة. ضمته. قبّلته. نامت في حضنه. تمنت أن تتعرى له وتتحول إلى ماريانا ولو للحظة أو ليوم. أن تنام في فراشه كما ولدتها أمها. لولا وعدها للعلماء بأن تظل عاقلة ومتيقظة وأن لا تضعف أمامه لأنها مراقبة من كل الجهات، لطلبت من مدير السجن الذي استلطفها في المرتين بمودة زائدة، النوم معه الليلة بكاملها في سجنه. شعرت ماريوشا بقسوة الكاميرات التي كانت على رأسها، لكنها لم تعرها أي اهتمام كما أوصاها العلماء. حاولت أن تنسى ما يحيط بها.

- يوشا الحبيبة.

ابتسم بشير إلمورّو قليلا وهو يشبك أصابعه بأصابعها. شعرت ماريوشا كأن كل شيء فيه عاد إلى ألقه الأول. كان وجهه تفّاحيا، متوهجا. في نظرته الكثير من النعومة لم ترها فيه إلا عندما كان ينتهي من نشيده الأندلسي وينام بين ذراعيها. هي لا تدري لماذا أوصاها العلماء بالصبر والتحمل. شعرت كأن معلوماتهم لم تكن دقيقة. ربما ضخّموا الأشياء أكثر من اللازم من شدة خوفهم عليه.

- قُلْ لي حبيبي كل ما في قلبك.

- عذرا عمري. لحظة.

ثم شرب قرصه الليموني اللون. شعر بالراحة.

- لا أريد أن أدخل في الحفرة السوداء التي أصبحت تتهددني في كل لحظة.

- لا تهتم، سنداويك. قل لي الآن ما يحرق قلبك.

- لا شيء إلاّك يا يوشا الحبيبة. وجدتك فَضَيَّعْتُك، تخيَّلي؟ أشتهيك أن تسمعيها قبل فوات الأوان. ما ينتظرني في الأفق سيكون

شديد القسوة ولكن لا يهمّ ما دمتِ هنا، بالقرب من نَفَسِي المتعب. يبدو أني خيبت كل الآمال التي وضعها فيَّ الشماليون. من يومها لم يكلمني أحد في موضوع الحكم، ولكنهم عوّضوا حديثهم بمضاعفة القرص البرتقالي. قالوا إن الحكيم يريد ذلك حفاظا على ذاكرك من التلف بعد أن عجزوا عن إقناعي. حينما نبهتهم في إحدى زياراتهم لي، بأن ذاكرتي تضيع. لم يقولوا الشيء الكثير سوى الجملة التي سمعتها مرارا في هذا المكان: لن نجعل منك شهيد آرابيا. وبعدما اسودّت الأيام، وغابت الشمس، ورجعت الأصوات التي تملأ رأسي، وأصبحت الحفرة التي في الدماغ أكثر اتساعا، قالوا لي، هل انصعت أم مازلت؟ قلت أرجوكم دعوني أموت بهدوء. لقد سرقتم البلاد، وسرقتم خيرها، فلا تسرقوا ذاكرتي. أكدوا لي بأنهم سيطلقون سراحي بعد أيام، بعد أن أرتاح من الحفرة السوداء التي أكلت كل خلايا الدماغ. قالوا إنهم يختبرون جدوى القرص الليموني لمكافحة مرض الخرف الذي بدأ يصيبني في وقت مبكر. وعندما وضعته لأول مرة تحت لساني، شعرت بالدنيا كلها تنفتح أمامي وبالحفرة الصفراء تضيق. وُضِعت تحت المراقبة الصحّية ليومين أصبح الأمر بعدها عاديا.

- هل تشعر بنفسك مرتاحا؟ ألا أثقل عليك؟

- يااااه لو كانت كل أثقال الدنيا بوزنك لوضعتها ليس على ظهري ولكن في عمق قلبي. أنا مرتاح. في كامل عنفواني الذي كدت أضيّعه. يوشا...

- يا عمر يوشا.

- اشتقت لخُويَا عبد الرحمن المجذوب. أشعر دائما بأن شيئا ما ينقصني في هذه الحياة. سيدي عبد الرحمن، حديقته الوطنية، ساحات المدينة وأسواقها. هل تدرين ماذا يقولون عنه؟ يقولون إنهم يعرفون كل أسراره. وأنهم هم من تركه يتدروش كما يشاء، يتناول جرعته يوميا من السّموم التي تقتل على أمد متوسّط أو طويل. وأنهم يوصلونها له بوسائط لا يشك فيها أحد.

- ربما لتخويفك فقط.

- ربما. لكني خفت حقيقة عليه وليس عليَّ. قالوا إنه سيدخل في مرحلة الهذيان، وبعد زمن ليس بالكثير ستتعطل وظائف مخه، وحواسه. بعدها تتوقف كامل أعضائه ويُصاب بشكل سريع، بشلل كلي. بعدها بلحظات قليلة سيموت مختنقا برغوة ستصعد إلى حلقة وقصبته الهوائية، وتسدها نهائيا. ثم تضاحكوا: هل بيدك ما يغير مصير المجذوب؟ سيقول الجميع إنه مات ميتة عادية في الشوارع الخلفية من المدينة. لكنك لو قبلت مقترحاتنا لتغير كل شيء. نحن نخلق السم، ونخلق بجانبه الدواء المضاد الذي لا يعرف سره الكيماوي إلا نحن. لم أتمالك نفسي. صرخت في وجوههم الباردة: أنتم تكذبون. تريدون إقناعي لتذليلي. قال كبيرهم صاحب اللحية البيضاء وربما كان أكبرهم سنا ومعرفة أيضا. خليّك هادئ قليلا. أنت مخطئ يا بشير. لم نعد الآن في حاجة إليك. لقد حسمنا كل الأمور. نحافظ على حياتك لأننا لا نريد أن نجعل منك أحد شهداء آرابيا. أنت لست أكثر من رجل توهم أندلسا لم يقرأها إلا في الكتب. وربما كنّا نحن من خلقها له؟ الأيام ستكشف لك ما غمض من الأمور.

- أندلسي في قلبي وليست في الكتب.

ردوا بصوت شبه جماعي وكأنهم تدرّبوا على ذلك.

- أندلسك أيها المسكين في رفوف المكتبة الوطنية التي كنت مولعا بها. يجب أن تشكر ضربة الشمس التي أصابتك، أو المطر الغزير، أو تلعنهما معها، فهما السبب في أوهامك. الباقي نحن من صنعه ويصنعه يوميا.

- لن تصنعوا إلا الموت. سيدي عبد الرحمن سيبقى.

- اسْأَلْ عن نفسك أيها المسكين قبل أن تسأل عن غيرك.

- غيري هو أنا. وأنا هو غيري. كل شيء يموت ويفنى ويندثر، حتى أنتم وطغيانكم. شيء واحد يبقى أبدا، اللمعة التي تتقد كلما بدا

أنها خفتَتْ. وإلا عليكم بإبادة البشرية جمعاء ليطيب لكم المقام. من هذه اللمعة ستنشأ حياة أخرى، لا ترونها إلا عندما تفاجئكم أنتم ودُمَاكُم التي صنعتموها لنا.

- من حظك أننا مازلنا نؤمن بحقوق الإنسان وإلا لتركنا الهوة تتسع في دماغك حتى الموت. عندما يتسع فيك الخرف الذي أصابك، سنرميك في الشوارع، ونعوّضك بأحد سكان المدينة الفقيرة ليحكي عن السيد علي وراس الغول، وأهوال القيامة، وحرب البسوس، وسيرة بني هلال، وينشر بين الناس أهوال القيامة التي يحتاجونها في أخراهم، أحسن من تخريفك الأندلسي... الأندلسي... الأند... يوووشاااا... يووووو....

لاحظتْ ماريوشا توقفه الفجائي كأن خيط التفكير ضاع منه. فجأة تحولت عيناه إلى محجرين فارغين، وبدأ الزبد يسيل من جانبي فمه، وأصبح تنفسه ضيقا. ارتعبتْ. شعرتْ بالموت ينشب أظافره في جسده. قبل أن تنادي للحارس الطبيب الذي كان قريبا منها. كان يتابع المشهد من بعيد. أخذه بين يديه. فتح فمه مثل الطفل بشيء من القسوة. نظّفه جيدا من الزبد والرغوة. ثم أفرغ محلولا أصفر فيه. ثم نوّمه.

- مادام أنتِ السبب. أنسيتِه في القرص الأصفر. كان يمكن أن يموت.

- لم أعرف يا سيّدي أنه مرتبط به إلى هذا الحد.

- إنه يعيش على ذلك. مخه أصبح مثل الإسفنج النّاشف. داء الخرف المبكر يصيب الكثير من الناس بلا نظام ولا سنّ أحيانا. احذري فقط أن تكرري الفعل. يجب تذكيره بالقرص كل ربع ساعة، وإلا ستتحملين المسؤولية على عاتقك.

ثم خرج. بينما بدا الوعي يعود شيئا فشيئا لبشير المورّو. بدا له كأنه يخرج من تحت الماء بعد أن غرق حتى كاد أن يختنق.

- عذرا عمري. هي حالات لا أستطيع تفاديها أبدا.

- لا تهتم حبيبي. خفت عليك فقط.

- رأيتني أغرق يا يوشا الحبيبة، في بركة آسنة من المياه، ولم أكن قادرا لا على العوم ولا حتى على الحركة. أتذكر اللحظة الأخيرة، واللحظة التي تعقب مباشرة فقدان الوعي، وبعدها يتحول كل شيء إلى فراغ أسود. يستعصي كل شيء عليَّ. أين كنتُ؟

- مع سيدي عبد الرحمن المجذوب.

- مصممون على ابتذالنا حتى النهاية. لهم القوة المطلقة ولهذا بدأت أصدّق أنهم اخترقوا ذاكرتي بالأقراص البرتقالية وهم من يعيدها بالأقراص الليمونية الصفراء. يتحكمون فينا ويشكّكوننا في كل قوانا العقلية. سيقتلون سيدي عبد الرحمن المجذوب بالتقسيط. على العلماء والعمال أن يفعلوا شيئا وإلا ذهب كل شيء مع الريح. عندما يأتي الأمر المأذون، لا يقدمون ولا يؤخرون ساعة، وإلا سيخسرون موعدهم الذي لا ينتظر.

استغلّت ماريوشا، على مدار مرتين، الفرصة وهي تضع القرص الأصفر في فمه، لتأخذ قرصين. تضع واحدا في فمه، وتزحلق الثانية في كمّها بحيث تخفق الكاميرا في التقاط أي شيء. أوصاها العلماء بالحصول على نماذج من الأقراص البرتقالية التي يتناولها. لم تجد أمامها إلا الصفراء. بدأت تصدق كلامه. لم يكن هذيانا ولا كلاما بلا معنى. أخذ مرة أخرى يدها اليمنى وسحبها نحوه. دس في كمّها قرصا أحمر وقرصا أصفر. وطلب منها همسا أن ترجع القرص الأصفر لأنهم يكونون قد رأوها. شعرت بخيبة داخلية. أخرجت القرص من كمّها ووضعته في فمه. برقت عيناه من شدة السعادة. مما يعطي الانطباع للّذي يكون قد رآها بأنها احتفظت بالقرص فقط ليكون في متناولها بشكل أسهل عند الحاجة.

- لا شيء مهمّ غاب من الذاكرة التي انمحت أجزاء كبيرة منها. يجب أن تسمعي ما تبقّى من الحكاية، لأنها ستمّحي، بعد زمن قصير، وإلى الأبد. بعدما فشلوا في إقناعي، هددوني باستعمال السطل

الألماني[٧٧]، المضخِّم للأصوات. هم مصرون على إبادة الذاكرة لأنهم يظنون أنها سبب كل المهالك التي تلحق بمخططاتهم. جدّي حين قاوم في جبل البشرات، كان يعرف، أن الزمن وصل متأخرا، ومع هذا، قاوم الموت الرخيص لأنه أصبح يدرك أن الموت أصبح رفيقه شاء أم أبى. ينام معه في نفس الفراش. يأكل معه في ماعون أكله. لقد قنط جدي من الانتصار، لأن القشتاليين كانوا يحتفلون بدخول المدافع الإيطالية، ويرفعون الأعلام على المدفع الدمشقي الذي كانوا يقودونه باتجاه متاحف غرناطة الضيقة، تحت تصفيقات القشتاليات المعجبات بذكاء إيزابيلا وفرديناند. يوشا أنا أيضا أريد أشتهي أن أسمعك. قلبي لا ضغينة فيه ولكنه حزين. أحك لي عن سيدي عبد الرحمن المجذوب. عن القلب الكبير الذي حوى المدينة وناسها، والأسواق، بدون أن يشعر بأدنى تعب. ماذا يفعل الآن؟

- مثلنا جميعا، حزين على غيابك الذي طال. قلبه أصبح ممتلئا بالكلمات والشفرات الغامضة. لا أحد ينقذه من خراب أكيد إلا أنت. يقول مالا يفهم. ويفهم مالا يقال. سيدي عبد الرحمن المجذوب سحرته لغة الحنين التي تملأ قلبك. مثلك حين، يُسأل عن حزنه وعن أسرار الكلمات، يقول إن هذا كلام شيخي ومولاي. لا يتحدث إلا قليلا. يقف في الصفوف الأمامية. في المتاريس التي أغلقنا بها مؤخرة الممر الأول المؤدي إلى الساحات الجملكية. قال سأموت هنا. واختبأ بين المتاريس. يدوخ أحيانا في عمق الساحة، فيحمله سكان المدينة الشعبية إلى المصلحة الطبية، يرتاح قليلا ثم يعود إلى نشيده. يقول إن دوره انتهى، ويعد قوَّالا منذ أن أصبح محاربا من أجل الدفاع عن الجمهورية الفتية التي تنسف كل الأشكال القبلية والجملكية المنحطة. كلما سئل عن الساعة، ضحك وقال: إنها تزحف باتجاه الرقم الذي يرفضه الحاكم بأمره. لقد آن أوان جمهورية آرابيا الفتية التي ترفض أن

---

(٧٧) Le casque allemand

يتعلها الجملكيون الجدد. يؤكد بأنه سيكون بكامله أو ببعضه، في عمق المعركة القادمة. سيكون أول شهيد يسقط في الاندفاع الأول وهو الأصعب والأقسى. وأنه لولا الدم المقدس الذي ساح كثيرا، دم الشهداء، ولولا شعلة نيران الصنوبر التي أكلت أتقياءنا، لخاننا البحر ولنسيئنا السماوات والنجوم.

- هذا هو بالضبط حبيبي وخويا المجذوب.

- مكتئب جدا لأنهم أخرجوه من الحديقة العامة.

- آخر مرة عندما وقف عند الباب الواسع للحديقة الوطنية وأراد الحراس طرده، قال لهم، لا تشغلوا بالكم. جئت لأرى أصدقائي فقط. لقد اشتقت إليهم. كان يتبعه كلبه الأمير قطمير. تنبّه للمرة الألف إلى أن وظيفته انتهت وعليه أن يبحث عن صديق غيره. يكرر دوما على مسمعه: اذهب يا عزيزي لتموت بعيدا عن هذا المكان المليء بالخوف والضغائن. لكن الكلب لم يتركه لحظة واحدة. حتى عندما يسقط المجذوب، هو من ينبّه المارة.. سلّم على الحيوانات كأنه يودّعها، تعرفه جيدا من لطفه معها ورائحته، ثم تدحرج في الطريق المؤدي إلى السوق الشعبية، على ظهره كيسه الذي يحوي الأعشاب الأخيرة، والكيس الأسود. نصحه العلماء بأن لا يبتعد كثيرا عن حواف الحائط الجديد، خوفا من اختطافه. أحاديث الاختطاف أصبحت تسري بشكل مخيف بين أزقة المدينة. قال للعلماء الذين كانوا مصرين على إخفائه: أعذروني، فأنا لم أتعود على رؤية شيء آخر سوى حنين المدينة، وشوارعها. اتركوني، مثلما تركتم سيدي النينوي يعيش. أنا لا أطلب منكم سوى ذلك. حبكم في القلب، لكن أرجوكم لا تقتلوني قبل الأوان. ما يزال في قلبي متسع للمقاومة والفرح والكآبة. آخر مرة، عندما التقيت به على حافة البحر، شعرت بتمزقه وآلامه المفجعة التي ارتسمت على محياه، فحوّلت حمرة وجهه إلى صفرة باردة، ثم إلى خضرة تقارب خضرة الموت. قلت له، يا عمي عبد الرحمن، نحبك، فأنتَ لستَ وحيدا في هذه الدنيا. لست أدري هل سمعني أم لا، لأنه

أجابني وهو ما يزال مأخوذا بالبحر: لحظة وتمر الشعلة. ميشا. . . بشير ينتظركِ على حواف اليوم القادم. كوني نوره الذي لا يموت. قلت له يا عمي المجذوب، إننا نخاف عليك. قاطعني وهو يردد: الخوف هو الذي يقتلنا. ثم عاد من جديد، لينكفئ على تكسر الموج عند قدميه، فيمتلئ وجهه المنهك بحبيبات رذاذه ورائحة بحره.

- لم يكذبوا يا يوشا. لقد قتلوه بالتقسيط، إنهم يفعلون الشيء نفسه معي. يقودونني باتجاه الموت البطيء لي ولذاكرتي. حولوا مخّي إلى قطعة إسفنج ميت.

- ذاكرتك أكبر من أقراصهم يا حبيبي.

- ما أطيب قلبك يا يوشا. هي السفن الهاربة يا عمري. نحلم كثيرا بالسفر على متنها، وحين نركبها، نشعر بالخديعة القاسية. كم نُصاب يا يوشا بالحزن عندما ينسانا الله في رحلتنا، والموج، والسماء، والنجوم. حزن نعيشه وآخر يعيشنا، وثالث يعيش فينا. حزن نواجهه وحيدين، وحزن نحكيه للغير بحرقة لنخفف وطأة الزمن عليهم وعلينا، وحزن نتدفأ به عندما نفقد الأمل في كل شيء إلا فيه. عندما نحكيه للغير، يرق كالخيط الرفيع، ويزداد ألقا وتجليا. سيدي عبد الرحمن المجذوب، أراه الآن، يجوب الدروب بآلامه. يبحث عن شيء مفقود يحسه ولا يعرف ملامحه. يقتفي خطى نجمة الرعاة، والصيادين حتى لا يضيّع السبيل، وآثار قمر ما، لم تكتمل دورته. يركض كالطفل وراء غيمة كان يُفترض أن تمطر ولكنها ماتت قبل الأوان في سماء تحولت إلى حطب يابس. عظيم يا يوشا أن يتوسد المرء ساقي غجرية اخترقت كل طقوس الحياة المفتعلة، وجاءت لتنام في جسده وقلبه. ساعديه يا يوشا، ربما هي نفس الحكاية التي تحترق في قلبه، التي كان يمكن أن أرويها للناس لو كنت خارج هذه الأسوار الفاسدة. حينما مشى على واجهة البحر، واستقبل رذاذ تكسر الموجات العملاقة، كان يبحث عن عينيك، عن وردة الكاسي الضائعة في شعرك الأسود الذي يزداد زرقة كلما انكسرت عليه أشعة الشمس العمودية. كان يريد أن يتلمّس بكل حواسه ماريانا

ليحكي عنها بالصدق الذي يليق بها. في خلوته، يشعر أنه هو السبب في سجني. قولي له يا يوشا إن ما حدث يتجاوزه ويتجاوزني، كان يجب أن يحدث. سيصعد النشيد الأندلسي من قلب ساحات آرابيا: ساحة التحرير، الاستقلال، الشهداء، بور سعيد، ساحة العمل وغيرها.

- لقد بدأنا نخسره يا بشير.

- ليكن. لكن لا توقفوا حنينه للحلم. إنه يحبك ويرى فيك ما لا يراه غيره. أنتِ لا تعرفين، ولكنك حلمنا جميعا الذي ننتسب له. عندما ضيّعت مرافئي، جئت أبحث عن حنين وشوق غامضين، ولكني جئت. وضعت قلبي تحت قدمي بكل ما أملك من قوة حتى سمعت تكسراته المتوالية، التي كانت تشبه تكسر خشب عتيق. تذكرت عمي حمود الإشبيلي، صديق جدي، وهو ينشد حزنه الهارب.

لو كان لي قلبان، لعشت بواحد،
وتركت قلبا في هواك يُعَذَّبُ...

لم يقدني شبح الخوف، إلى هذه البلاد الواسعة ولا طمع البحار، وكنوز الرمل. قادتني لحظة واحدة بحثت فيها عن زرقة البحر التي كاد أبو عبد الله محمد الصغير أن يضيِّعها مع الوجوه التي أتلفها. ماريانا القلب المجروح وشوق المجانين المنسيين. حين تركتها عند بوابات شاطئ المارية، كانت تنظر إليَّ بعينين مقهورتين غطتهما ظلمة المساء الذي اسود بسرعة، والدمعة الحارقة. رفعت ملايتها أو على الأقل هكذا تخليت، ثم غامت بسرعة وسط رمال الشط المهجور وتهديدات سامويل. قلت في أعماقي، في ذلك الزمن البعيد، البعيد، إني بدءا من اليوم، سأوقف نشيدي عند هذا الحد. قلبي ضاع وسط الفراغ. وفجأة، شعرت بنفسي وحيدا داخل هول البحر وتكسرات الأمواج الجبلية. تعرفين يا يوشا، حلم المحارب العظيم، قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة ويواجه مصيره بكبرياء؟ يتمنى فقط يدا عاشقة، تمسح دمه وعرقه البارد والبارود الذي علق بصدره. تتلمس جرحه الذي فتحته حرارة الرصاصة الطائشة، وتقرأ في عينيه شجاعته، ثم ينكفئ مغمضا عينيه لينام

حتى الموت، على ركبتيها. يحلم أن يصبح طفلا، ليغادر الحياة رضيعا، وعاشقا مثلما جاءها. ربما كان المجذوب الآن في هذه الحالة، أو حالة شبيهة لها.

«- يوم غادرت ألَميريا للمرة الأخيرة، كانت أسواق غرناطة كلها تنام في عيني ماريانا. إقتحمتني. هي. هي. بلبسها الفضفاض الذي طُرّز بألف لون ولون وردي. ووردة الكاسي تختبئ بين شفتيها الممتلئتين. إنها الصورة الأخيرة التي ارتسمت في قلبي عن غرناطة. عندما سمعت الأناشيد التي كانت تنزل ممزوجة بآذان المغرب، شعرتُ كأنها المرة الأخيرة التي ألثم فيها المدينة المعشوقة. عندما اندفنت ماريانا في صدري للمرة الأخيرة، قالت امش ولا تتكلم. لا تلتفت لكي لا تموت غيضا. مشيت، وعندما التفت لم أر إلا بياضا ما يزال إلى اليوم يرتسم أمام عينيّ كلما تذكرت ماريانا مصحوبا بسلسلة من الحروف المبهمة: م.هـ.ل.ف.غ. عندما ذكرتها للسحرة والعارفين، قالوا لي إنها حروف التوهج. النون، والقلم وما يسطرون. لا أعرف من سرها أي شيء ولا حتى كيف نزلت عليَّ. سوى أنها من شقوق القلب، ومن نور النجم المتصدع في الأفق العالي. ذات مرة عندما كنت أئن تحت حدوتي حصان أبي عبد الله محمد الصغير الذي أدمى ذاكرتي ودمي، رأيتها بين الوجوه المتعبة التي كانت تبحث عن أي أمل تلتصق به. كانت تستمع إلى الحكاية قبل أن تشترك في نحيب الخيبة الذي كان يخرج من قلبها. كان تلبس تنورة بألوان الجنة. وعندما تصل الركبتين تنفتح كأجراس الكنائس، حيث يظهر سروال حريري رقيق، وحذاء جلدي أحمر مربوط بأشرطة لونها خليط من الصفرة والحمرة. تنزع شالها الأسود من على ظهرها، ثم ترمقني بعينيها المائلتين اللتين تسودان أكثر كلما حزنتْ. ووردة الكاسي التي تنام داخل شعرها بحنان وعنفوان تمنحها سحرا خاصا. تمد يدها إلى رأسي. تشدّ الدهشة قلبي وتأسر كل حواسي. عندما بدأتْ في قول حرائقها أُصِبتُ أنا بالخرس، قبل أن تنزلق من بين شفيتيها الممتلئتين، ابتسامة مشرقة.

- Oh Laguna, ene Bihotsarena[78].

كنت مندهشا في سحرها وألقها. لم أتمالك. في عمق الساحة، أخذتني رعشة الكلمات: لك حنين الشوق المسروق ورغوة الولادة والصرخة الأولى. لك آلام جدي وهو ينكفئ ليموت جريحا بين صخرتين في جبال البشرات. لك كل حنيني النائم في عمقي. كان نشيدها وصوتها أكثر ألما مما تعودت عليه من نفسي ومن غيري. في طريق العودة، حكت لي مطولا عن أشياء كثيرة، عن زوجها، صاحب القبعة الزرقاء، الخنزير البرّي، الذي أهانها في الطابرنة[٧٩] البحرية. صرختْ في وجهه بأعلى صوتها: أيتها الدابة؟ لعنة الله على اليوم الذي التقيت بك فيه! كان سكرانا، لم يكن يملك حتى طاقة النهوض. تمتم بكلمات ثقيلة. ع..ا..هـ..رة؟ يعني قَ...حْ...بة...ثم انكفأ على الطاولة وبدأ يشخر. أرادت أن تجرجره إلى الخارج، ولكنها تركته هناك حتى يفيق من تلقاء نفسه. سألتُها ونحن في بيتي، في الدرب الخلفي من حي البيازين، لأخرجها من حالة قلقها: أما زلت تأكلين خبزك بنفس الطريقة؟ ابتسمت. رأيت في عينيها المائلتين إشراق جميل. العطور النباتية تتصاعد من جسدها الذي تعرق من شدة الغناء والإنشاد في ساحة القوالين. قالت: Chuquel Sos pirela, Cocal terela[80] عندما رأت ظلال شجيرات الياسمين الإشبيلي تنسحب باتجاه الباب، نهضت من فراش الجنون الذي جمعنا، بكامل عريها. كان جسدها مصقولا وناعما مثل رقائق نحاس شكلتها يد ماهرة. لبست بسرعة لباسها الفضفاض. قالت وهي تأكل بعض كلماتها: الدابة الآن تكون على وشك الاستيقاظ. عندما خرجنا واجهنا مطعم كانديليخو Candelijo في أحد أزقة غرناطة الضيقة، يرتاده القوالون، وبعض الغجر الغرباء. عند باب كانديليخو بالضبط، سألتها: هل يمكن أن نتلقى مرة أخرى؟ ابتسمت كعادتها: هل

(٧٨) آه يا رفيق قلبي...

(٧٩) Taverna.

(٨٠) الذئب التائه لا يموت جوعا.

غرق عاشق غرناطة في حب غجرية بها شهوة مجنونة للحياة، لا تعرف شيئا اسمه الوفاء؟ دعك من هذا الحنين وهذا الحب، إنه يؤذيك كثيرا. كنا سعداء في فراش الصدفة، وهذا يكفينا. نحن لا نصنع لا يومنا ولا غدنا ولكننا أصحاب القرار في لحظتنا. أحبك يا بشير، اليوم، لكن Manana Sera Otro Dia[81]. وافترقنا على هذا الأمل المعلق. عندما بدأ المطر يسقط، خرجتُ إلى الزقاق الضيق. هل حدث لك أن مشيتِ يا يوشا في زقاق ضيق، لحظة سقوط المطر، وأنت سكرانة حتى القلب؟ تمنيت أن تكون معي، لكني مع تعب السير، تآلفت مع رائحة الأتربة التي كانت تتصاعد من الأزقة وهي تتلقى الأمطار. في ذلك المساء الغرناطي، تأكدت من أني كنت أحب ماريانا كل يوم أكثر. مازالت تحفر في القلب حتى الآن. وكلما تذكرتها، أشعر بجرح عميق، وبلذة تتصاعد في الأعماق لدرجة الألم. حين تأتي، تصبح كل الأشياء جميلة دفعة واحدة، وحين تغيب تملأ الرياح الساخنة قلبي. عندما أقول لها بأننا سننزل إلى أقرب مقهى، تمر بسرعة لتشتري بيضة، تكسرها على حائط المقهى ثم تجلس بجانبي. عادتها حتى تلهي الذباب في شيء ويتركنا أحرارا على الطاولة بلا منغصاته. وتقول وهي تفتش في عيني عن فلانكها المكسورة: هل أترك الذباب يتسلى بي مثل أية قطعة حلوى سخيفة؟ تعرفني يا بشير، نحن الغجر، عيوننا كالثعالب الجائعة والحاقدة. Me Dicas Vriarda dejorpoy, Bus Ne Sina Braco[82]. لا شيء يساوي حريتنا. بحركاتها المجنونة التي يضبطها أي ميزان، كانت كل يوم توقظ غيرة زوجها. أكثر من عشر مرات وهي تخرج ناجية من سكينه الحاد. عندما تلطمه احتجاجا على وجهه في لحظات سكره، يمسح خده، ثم يواصل السكر ولعب الكارطة[٨٣]. آخر مرة، كانت

---

(٨١) غدا يوم آخر.

(٨٢) نلبس الصوف ولكننا لسنا نعاجا.

(٨٣) لعبة الشدة أو الورق. أصل الكلمة إسباني: La carta

ترقص في طابرنا البحارة بألميريا. ترفع ساقها عاليا، لدرجة لمس وجهها. يظهر ثبانها الحريري واضحا مبرزا كل انثناءات جسدها الغض. كان مثقلا بحالة غيبوبة، سكرانا عن آخره. شعر بالإهانة تمس دماغه المتعب. صرخ في وجهها: أوقفي هذه الرقصة أيتها العاهرة. لا أريدها. قالت هي ليست لك يا ختزير. إنها للبحر الذي لا يغيب ولا يموت. لحبيبي الذي في قلبي. كان الحضور يصرخون ويضربون على الطاولات ويصفّقون. أنا أريد إثارة شبق البحر ذاته، أما أنت، كل شيء مات فيك من زمان ههه. تعالت الضحكات داخل طابرنا البحارة. صرخ بجنون مرة أخرى: قلت لك انزلي من على هذه الطاولة، وأوقفي هذه الرقصة الخليعة. لم تعره أي انتباه. أعاد الصراخ، وهو ينهض من مكانه، ويفتح سكينه بأسنانه، أو ما تبقّى منها، التي اسودت من كثرة الشرب.»

فجأة قفزت ماريوشا من مكانها كمن تذكر شيئا مهمّا فجأة.

- حبيبي. ذكرتني بقصة جميلة. كارمن المهبولة. هل قرأتَها؟ بين هبلك وهبلها شبه غريب. أنت تُدخلني في غمرة عالم ساحر ليس غريبا عني.

لم يرد بشير إلمورّو وكأنه لم يسمعها أو لم ينتبه لها.

- لم تأبه ولم تخف من الخنزير. ظنت أنه يهدّدها فقط. رفضت أن تنصاع لأمره. شتمته كعادتها ونعتته بالخنزير. اندمجت مع لحظة السُّكر وأقسمت أن تجعل البحر يفيض وتركبه حالة غليان غير محدودة، وبعدها تمنحه جسدها كله. انزلي أيتها العاهرة، صرخ وهو يحاول أن يضع السكين على وجهها. سأقتلك وأبكي عليك. أرجوك انزلي لا أريد أن أفقدك. مممممم. مصمصت شفتيها الممتلئتين بلسانها. Sarapia Sat pesquital ne punzava[84] كانت يقظة مثل الثعلب. مصَّ السكين كالمتعطش على الدم من جديد. ثم دار في مكانه دورة سريعة كعادة الغجر في لحظة المواجهة القاتلة. وقبل أن يمسَّ السكين عنقها

---

(٨٤) التمتع بالملذات لا يؤذي.

الممتلئ كانت قد سحبت رأسها بخفة إلى الوراء، لكن رأس السكين مس زندها العاري، فختمه بجرح خفيف. مصّت دمها ثم عانقته بقوة: تحبني إذن يا أحمق... وبعدها واصلت رقصتها متأكدة من أن الخنزير ما يزال يغار عليها، بينما كان هو سعيدا بما حدث له معها. أكثر من شهر وهي تظهر ذراعها للناس، فخورة بالندبة الغائرة التي ختمها زوجها بسكينه. هكذا النساء الأندلسيات، تُثرن غيرة العاشق حتى تؤكدن للناس أنهن مازلن مرغوبات ومعشوقات. ماريانا، لا يضبطها لا عقل ولا منطق، بقدر ما تحجزها تنفرك. عاشقة للرقص، حتى الإغماء. بسرعة اتسعت سماءها في عيني وملأتني. حتى قبل أن تأتي إلى غرناطة لتقيم معي نهائيا بعد مقتل زوجها. لولاها يا يوشا لانتهت عظامي في نيران محاكم التفتيش. كانت حين تحزن، تواجه مصيرها بأظافرها وعنفها. تتمزق كل ما تصادفه في طريقها. ترقص حتى تسقط مغشيا عليها. وعندما تخفق في تحقيق الغيبوبة، تكسر كل شيء. تجد متعة خارقة في كسر الأواني وكل ما تصادفه في طريقها، ثم تبدأ بعدها في هدأة الغضب في تأمّل المشهد وتجميع كل شيء محاولة عبثا رتق الكسورات. أتحسس وجهها والحرائق التي تنشأ في داخلها وأحاول أن أتفهم جنونها وفيضاناته كموجة عارمة. أسمعها تقول في غمغمتها وغضبها الذي لا رادع له إلا هدوءها الذي يطول قبل أن يستقر في عينيها، فتعتذر مثل طفلة حمقاء. تمتم وهي تنام في حضني: شوووف... إلهي هو سكيني. سأقتلك يوما لو تذهب مع امرأة أخرى. الخنزير اختبرت غيرته، أما أنت يا حبيبي سأدميك قبل أن اقتلك. ماريانا كانت أكثر من مجرد امرأة عادية. حليب الأمومة الذي تبقى حلاوته عالقة في الحلق حتى آخر العمر. كانت روحي وامتدادي وبعض جنوني وهبلي. غنت معي كل الأناشيد الأندلسية الضائعة. صرخت معي بأعلى صوتها في لحظات الحزن والوحدة. لعنت حتى جف لعابها محمد الصغير الذي باعنا جميعا بثمن تافه. تقول: لو اختارني الصغير بدل القشتاليات، كنت أريته ما معنى أن يشتهي رجل امرأة؟ هؤلاء يشتهون ولا يحبون أبدا. كنت علقته كل ليلة

على جنون الرغبة وتركه يموت أمام عيني. بي نزعة انتقامية غريبة تجاهه. أحبني ناس الأسواق لأني كنت أروي عن الجبال المنسية وعن الأبجدية التي أحتكروها وابتذلوها، وأحبوها لأنها لحظة النشيد، كانت تفتح الأرض بحنينها الذي لا يموت، يتأوه الناس معها قبل أن يسكنوها. يصيحون: اعزفي ماريانا. اعزفي! اعزفي بلا توقف واتركي الباخية تطول مثل النهر. القلب في عمق الآلام والأحزان. اعزفي يا عطش الروح، إنها قطرات الدم والمطر التي تفتح جفاف الأرض الميتة التي لم تنجب إلا الندوب والحسرة. أصرخي ماريانا واغرقي كما عودتنا في نوبة رمل الماية التي لا حدود لحنينها وأشواقها.

Yo soy la maryana de Grenada
Yo no la de me mincharro[85]...

تصوري يا يوشا، أصدقاء الحاكم بأمره، الشماليون، سخروا مني كثيرا عندما قلت لهم أن حنين ماريانا هو ما يملأني ولا شيء غيره، فهقهوا عاليا. قال كبيرهم، بعدما يئس من إقناعي بمخططه: كل الدلائل تدل على أنك رجل فقد عقله أو هو في طريقه إلى ذلك. أنت ابن هذا العصر الذي يمور في داخلك يجنون. هبلتك قراءة الكتب الأندلسية وحنينك الغرناطي إلى ما يقوى عندك شهوة جدك الأول. حتى المرأة التي تتحدث عنها لا توجد إلا في الكتب التي رسَمَتْ لك صورة عنها في ذهنك. أقرأ هذا الكتاب. ثم وضع بين يدي قصة كارمن[٨٦] كارمن لبروسبير ميريمي، وهو يردد: القراءة أعمتك عن الدنيا وعن الناس. أنت لست أكثر من ابن لهذا الزمن. الشعلة التي كانت تتسع في دمي لم يكن بإمكان أي واحد أن يلمسها. لم أدافع عن نفسي لأني لم أكن في حاجة إلى الدفاع عنها أمام يقين كان يملأني عن آخري. قال لي الشماليون عندما رأوني صامتا وكأنهم قرؤوا قلبي: عندك قوة عقل وخيال حي، يرممان من تلقاء نفسيهما فجوات التاريخ. تخيلي؟ ماريانا تتحول في

---

(٨٥) أنا ماريانا ابنة غرناطة، ولست ملكا لعشيقي...
(٨٦) Carmen. Prospère Merimée.

عيون القتلة إلى مجرد حكاية مليئة بالفراغ والرياح الساخنة؟ أراها. . . . أراها يا يوشا. . . أراها يا عمري إذ أراني.

فجأة تذكَّرت ماريوشا القرص الللّيموني، فوضعتْه في فمه مع كأس ماء. في اللحظات الأخيرة من نهاية مفعول القرص الأصفر يتحول بشير المورّو إلى جسد يتضاءل بسرعة وإلى روح هاربة، تحتاج إلى من يضعها بين يديه كالعصفور البردان لكي لا تنكسر.

- . . . يا يوشا النبيلة والغالية. أعرف أني أجرح قلبك بسكينة حادة، ولكن عليك أن تعرفي الباخية في حقيقتها المطلقة. القوّال لا يملك إلا هذا الصدق الهارب. لا شيء غيره. أراها إذ أراك، بكامل طولها. وجهها. ملامحها النقية. وردة الكاسي التي لا تغادر شعرها أو شفتيها. أراها تمسح دمعات انزلقت من عينيها في غفلة منها وهي تروي قصة أهلها الطيبين. يااااااه أيُّ صبْر كانت تعيشه؟ أحسدها في صمتها الثقيل عندما يكون القلب منكسرا وجريحا. أحسدها في أسواقها المفترسة التي تعرف كيف تروضها بجنونها ورقصها ونشيدها. أحسد جرح الزند الذي يعيد إلى قلب عشاقها كل غيرتهم الدفينة. أحسد الأرض التي تلمسها اليوم في غيابي. أحسد القبر الذي لملم عظامها في وحشتي. أحسد الهواء الذي يدخل رئتيها ويحرمني من قبلتها المسروقة ومن أنفاسها المتقطعة في لحظة هبل لا قوة في الدنيا تجمعها. أحسد الدنيا أو الآخرة التي تراها في كل لحظة ولا أعيشها إلا بقلبي وما تبقّى حيا من حواسي وجوارحي. أحسد الذي كلما أراد أن يعود إلى عمقه المدهش ناداها ليتأملها طويلا قبل أن ينسحب ممتلئا بيقين أنّ الله لم يخلق العالم عبثا. أحسد ذلك اليوم الممطر الذي هزّني جنونها وكاد يفقدني عقلي، أو أفقَدَنيه:

- حبيبي. يبدو أنّك لا تريد أن تعطيني يومك الممطر هذا.

- ليست مسألة يوم، ولكن مشكل ارتباط.

- ارتباط؟ هل هناك من هو أهمّ مني؟ عند الفجر لا يوجد نصف الحب. الكل أو لا شيء. عليك أن تتعلم أن تغار عليَّ وإلا سأنتهي بين

ذراعي غيرك. عندما نحب، يلتبس كل شيء، الحب، الشهوة، العنف، الجنون، الانتقام من كل شيء ولا شيء، حتى من أجسادنا المهادنة بغباء أحيانا.

- يا عمري أغار عليك. ولكني لست صاحب القبعة الزرقاء، ولا الخنزير البري.

- أنت أكثر من ذلك كله، هبلي. عليك فقط أن تستحقك، وأن تكون مبدعا في كل وقت مع جسدي، لكي لا يسرقه منك غيرك. الظاهر أنَّك لا تريدني؟

ثم أَخَذَتْ الكأس المليئة بنبيذ الكروم الإشبيلية بين أناملها الناعمة، ثم ضربتها على الأرض حتى تشلأت إلى آلاف القطع الصغيرة. صرخَتْ بشكل لم أكن انتظره: يااااي... أنتَ دائما تكسرني قبل الأوان. قلتُ لك أحبّك يا أحمق، معناه أني مستعدة أن أموت من أجلك. برودتك تكسرني وعقلك يقتلني. أنا عندما أقول لك أحبّك، أحتاج منك إلى كل شيء إلا عقلك. أن تأخذني عارية كما خُلِقت، تمزقني، تأكلني بتوحش، أن تقبّلني حتى تدمي شفتي، أن تأخذني بين ذراعيك وتطوّح بي أنّا شئت شرط أن تستقبلني وأنا أسقط بين يديك كتفاحة الخطيئة. أن تمددني في قبر النهايات وتنام بجانبي لكي لا أشعر ببرودة المنافي.

- أنت كل شيء.

- لا. ربما كنتُ بعضه، ولكني لست كله. أرجوك اتركني الآن ولا تلمسني حتى لا أنفجر فيك.

ثم صفقت الباب وراءها وخرجت. أتذكر أني في ذلك اليوم تكوّمت على نفسي بيتم. تمددت أمام الجمرات التي كانت تنفجر وتتفرقع بهدوء في تنّور الفخار. حاولت أن أستعيد وجهها في غيابها، لكن الأمر صعُبَ عليَّ كثيرا. كان حريقها كل يوم يأكل فيَّ مساحة من الشوق. بعد أسبوع رجعت. في يوم من الأيام، رأيتها تقف عند العتبة. انكسر الضوء القادم من الخارج على وجهها وعلى شعرها المنسدل فبدت كقديسة وسط تيه الدنيا المدهش. مكثت لحظات طويلة وهي

تأملني، ثم ارتسمت بين شفتيها ابتسامة عذبة جعلتني أختل في وقفتي. قالت وهي تهز رأسها:

- الله يعلنك يا بشير، ما أعذبك وما أقساك على حبيبتك. لا أعرف ماذا فعلتَ لي ولا أدري أية قوة نحوك أسكنتها فيَّ. كان يفترض فيك أن تكون ساحرا تنتهي أنت وقصصك في النار، لا أن تكون مجنون الساحات الشعبية، وأنتهي أنا في نارك.

- في أي شيء كان ينفعني السحر إذا لم استعمله لهبلك.

نزعت زهرة الكاسي من على رأسها ثم وضعتها بين شفتي وقبلتني. هذه زهرتي، قالت، وأنت حبي أوووووه Mi Mincharro! لم يكن ممكنا أن أسألها عن غيبتها. فقد كانت كالعاصفة، كلما اقتربت منها زادت دوختي ودواري. في مطعم Candelijo سألتها إذا كانت مازلت تحبني. نظرت إلي بعيين مائلتين غائرتين ومليئتين بالغرابة. كدت أقول لها عذرا قبل أن تنزلق من يدي. تمتمت: أنت غبي. ثم ضحكت. ألا ترى أني أحبك مادمت لا أطلب منك نقودا كلما نمت في فراشك، وأني عدتُ لك؟ انتابتني رغبة حارقة لخنقها ولكني تمالكت أعصابي. غادرت الطاولة. تبعتني. رفضتها. أصرَّت وهي تلثم شفتي: أهكذا تغار علي يا أحمق؟ لماذا لم تفعلها من زمان وتركتني أجن عليك وربما. . . أفكر في قتلك. هههه. ثم التصقت بي فتناهت إلى أنفي رائحة شعرها، وعطر وردة الكاسي والنباتات الموحشة. كانت مثل طفلة شقية تتلذذ بهبل الآخرين. في اليوم نفسه، قالت أشتهيك ولست مستعدة للانتظار. توحشتك. سحبتني نحو بحرها، ثم وضعتني على سريرها. لم أعد أسمع إلا تكسر الموج وهي تستحم فيّ. في المساء راحت نحو الحمام ثم عادت ملفوفة في إزار أبيض، قالت: أغسل نفسي من هبلك لأوعود لك بشكل أقوى. شيء واحد ظل عالقا بذاكرتي زمنا طويلا. طعم شفتيها وهي تنكسر على صدري كالموجة. رائحة بشرتها التي تلازمت مع الياسمين الإشبيلي واللوز المر. كانت عذوبتها مغرية. قالت، أحببتك، لا لكونك تتقن اللغة القشتالية التي يسحرني شعرها، ولا

لكونك موريسكيا من رجل البلاد وابن غرناطة، إلى رجل تائه، ولا لكونك منشدا عظيما، شيء أعظم من ذلك كله. فأنت آخر عشاق المدن المنسية. تعطي المعنى للموت نفسه وللتفاصيل الضائعة. أنا لا أستطيع فعل ذلك يا بشير، لأني أحب الحياة كثيرا. لقد ربيت على السكاكين الباردة وجنون اللحظات الهاربة... ويوم ركبت الفلوكا التي تقودني نجو أرمادة القرصان الإيطالي، بقيت في ذهني الصورة الأخيرة لامرأة أودى بها عشقها للحياة إلى التهلكة بلا أدنى ندم. كانت عيناها مليئتين بالدموع مثلما تفعل في لحظة النشوة والصمت. قالت وهي تصطنع ابتسامة منتشلة من لحظة صمتها.

- أنت تؤمن بجنوني أليس كذلك؟ هل تريد أن أقرأ لك حظك لآخر مرة؟

لم يكن يعنيها الحظ، كانت فقط تريد الهرب من قدر قاهر. التفتَتْ باتجاه البحر تمسح خفيه دمعات انزلقت بالرغم منها، رافعة في اللحظة نفسها خصلات شعرها الذي غطى وجهها باتجاه الجهة اليمنى، وهي تحاول أن تخبئ حزنها القاسي الذي انكسر على ملامحها. سحبتها نحوي أكثر. لم نتكلم. كنت أعرف أن حظي سيكون صعبا داخل بحر يملكني ولا أملك موجه. رأيتها كما تعودت عليها تحمل البانجو، والموندولينا، وتعزف جنون الحلقات الغرناطية والإشبيلية في فصل الربيع. شعرت بها وأنا أسمع أنينها تُنزل السماء من عليائها وتلصقها بقشرة الأرض. بينما قوة العشق تزداد وتتسع مساحاته. رأيت في تلك اللحظة العيون تتسع. الألوان القزحية تملأ ذاكرة التائهين إلى أرض رحيمة. رأيتها على حافة آخر سواحلي في تلك الأرض، تحمل سانتور اجدادها وأجدادي، وتختار الخيط الأكثر حزنا وتستعيد ذكرى شهيد مات في العزلة ولم يجد من يتذكره أو يذكر اسمه لأنه كان مقطوعا من شجرة. كان يقف وراءها كورس شهداء البشرات والمدن المغتالة، ينشدون النشيد الأندلسي الأخير. يووووشا... حينما يسالك القتلة عن جريمتك، أو حتى عندما يسألك الله، قولي إنك عاشقة. قولي بلا تردد

إنك كنت عازفة النشيد الأندلسي الجريح والمتلاشي. سيضع الله ذنوبك وحسناتك جانبا، ويجلس بالقرب منك. بالضبط بجانب دفئك ليستمع إلى أجمل حنين داخل الباخية[٨٧] وسيعرف الله كم كنت جميلة، وشعلة الشوق، وتفاحة المنسيين. وذلك أكبر من الذبوب، وأكبر حتى من الحسنات. أمامك يا يوشا ينكشف كل شيء. كانت ماريانا حليب العذارى وحنين الغرباء. عندما تحزن، تتكسر أشياء كثيرة فيها لا يرتقها إلا قلبها الطيب وحبها الذي يشبه موجا عاتيا وموجعا. نسمة يمكن القبض عليها في الهزيع الأول من فجر العاشق. فيها الكثير من ألقك وجرأتك وتسامحك. فرصتك يا يوشا... لا تضيعيها.

- أنا معك وفيك يا بشير.

- أنا لم أعد موجودا أو أكاد. افتحي قلبك لسيدي عبد الرحمن المجذوب مأساته أكبر من مأساتي، ويقينه لم يُمس بعد. لقد سكنني ماض حارق، ويسكنه مستقبل من النور، هو منارته في الليالي المظلمات. إنه يبحث عنك في الأحلام. لا تتركي يده تعوج متلئة بالأشواق الميتة وبرودة الفراغ. الزمن يمر، وسيدي عبد الرحمن يموت... ويموت... يجب أن يُمنع من الموت. في قلبه حكايات وسحر لا يُحد وصدق كبير، على الناس أن يسمعوه وأن لا يتركوه وحيدا حتى في اللحظات الأخيرة.

عندما ناداها الحارس وحدّد لها الزمن المتبقي، كانت ماريوشا قد التصقت به أكثر، كعصفورة مذعورة، هاربة من رياح عاتية أو من قناص مظلم. شعرتْ بطعم القبلة على عنينيها وجبهتها، ثم بعد تردد على شفتيها. أغمضت أحزانها وفتحت شهية ما تبقى من أشواقها. شمَّت رائحة نوار اللوز والتفاح والورد والفجر الغرناطي الهارب. شعرت كأنها كانت تقف على عتبات البحر المسكون بموجه التائه. لم يتغير الشيء الكثير عما سمعته عن بشير إلموروّ عندما نام زمنا طويلا في الكهف. لا

(٨٧) الحكاية والمغامرة. أصل الكلمة من الإسبانية القديمة Bajia.

شيء تغير في حجر القلوب وفي الزمن الحاضر الذي نكس أعلامه. بشير إلمورّو ينام اليوم في نفس الحفرة كعصفور نزعت أجنحته وبُدِّدَتْ إرادته. نفس المحارق. نفس المحاكم. نفس الوجوه الذي ظلت تخدم محمد الصغير وتُصغرُه كل يوم قليلا. ما الذي تغير؟ لا شيء. أغمضت عينيها طويلا وهي تشده نحوها مخافة أن تخطأ أي نفس من أنفاسه الزكية، لتنسحب في عمق خيالاتها المتعبة، باتجاه البحر الذي كان يبحث وسط هذا العنف عن زرقته وعن أصدقائه. كان يبدو هادئا على غير عادته. سمعت همسه الخاطف. يوووووشا. عِيشي واعط للحياة معنى وأنوثة. هشاشة العالم واستمراره الإنساني في أنوثته وليس في ذكورته الطاغية والطغيانية. من يدري؟ في الغد نور أكيد، لكن أيضا الكثير من الظلام الذي يعمي البصر والبصيرة. سيقتلونَكِ فقط لأنك امرأة. فقط لأنك تستثيرين الحياة الميتة في عمق الناس لتنهض من جديد. فقط لأنك تمنحين الحياة بسخاء حتى لمن لا يستحقها... سَأفعلُ تمَتَمتْ. لا تدري أبدا إذا ما كان بشير قد تكلَّم وهو يحضنها. ولا تعلم أيضا إذا ما أجابته أنَّ قلبها هو من مارس سحره عليها. واصلت. يا بشير، ايها الحكاية المسرقة من زمن لم يعد لنا، أحلم فقط أن أستيقظ ذات فجر، ولا أجد أحدا أمامي سوى ملامحك وقد دخلتها سمش فجرية هادئة وجميلة.

سَمِعَتْ حشرجته: يوووووشا... ثم صمتَ طويلا. كلّمتْهُ، لم يتكلم. عندما قدَّمتْ له القرص الليموني للمرة الأخيرة، رماه من فمه. ظلَّ عالقا بها، تقول ماريوشا. حتى غاب نهائيا في إغفاءة حولته بين يديها إلى ريشة في وقفة تشبه رقصة التّانعو. لا تعرف كيف انتهى ذلك كله، لأنها وجدت نفسها بعدها خارج السّجن كليّا. كانت الشمس على حافة المغيب. عندما رفعت رأسها، شعرت بتعب كبير وبثقل في كامل جسدها. كان كل شيء مغلقا والسجانون لا يسمعون شيئا من الداخل بعد أن أشتعلت أنوار آرابيا ومحرّكات الأسلاك الكهربائية في محيط السجن والثكنة المحاذية والأمكنة الحساسة.

* * *

الفصل الخامس عشر

مُنتَهى اللّيلَة

القذيفة التي بدت في الأوّل طائشة،لم تكن كذلك. فقد كانت موجهة بدقة بحيث لا تصيب إلا الجوانب غير الآهلة. كسرت قبَّة القصر الجملكي وعرّت جزءه العلوي، بينما بقيتْ الطّوابق التحتية غير معنية بحالة الاستنفار والذّعر التي أصابت الجميع. أعطت دنيا أوامرها الصارمة لكي لا يُزعج الحاكم بأمره في راحته، فهو متعب وقلق جدا مما يحصل في الجملكية من انفلات أمني مفاجئ. أكَّدت لضباطه الذين لم يعد يراهم، أنه منذ أن اشتعلت آرابيا وهو لا ينام من شدة التفكير في مأساة أمّته.

- سيد البلاد يهيء لإصلاحات سياسية ودستورية هامة، ويحتاج أكثر إلى راحة البال. هناك تغيير حكومي يلوح في الأفق. سيترك بموجبه وزارة الدفاع لرجل مدني أو شبه عسكري استجابة للمطالب الجماهيرية الواسعة.

- لكن يا سيدتي الكثير من المراكز الاستراتيجية في البلاد تحترق. والناس بدأوا يحتلون الساحات العامة حتى تلك التي حرّرناها بقوة الرصاص والدم. يجب التفكير في حلول آنية وعاجلة لإرجاع الناس إلى بيوتهم.

قال رئيس المخابرات، الجنرال حوحو الذي يسميه الجميع، شكّار روحو لأنه لا يتوقف كلّما تحدث في التليفيزيون، أو في أي وسيلة إعلامية أخرى عن ذكر منجزاته العظيمة إذ من كان وراء إعادة تجهيز الجيش. وهو لا يترك فرصة أمام الحاكم بأمره إلا وزحلق فيها برامجه

ومنجزاته. كان الجنرال حوحو يجد صعوبة كبيرة في الحركة بسبب بطنه الذي كان يسبقه، ويزعجه كثيرا.

فجأة تذكر حوحو جملة دنيا الشاردة. **سيترك بموجبه وزارة الدفاع لرجل مدني أو شبه عسكري**. لم تكن الجملة عادية لتترك تمر هكذا.

-ألم يقل سيدي من سيكون وزيرا للدفاع؟

- قال.

- من؟ هل ذكر اسمي؟ عفوا قصدي... قالها حوحو بحماس بدون وعي منه قبل أن يتفطّن لحماقته ويتدارك أمره.

- على كل حال. المواصفات تنطبق على عدد لابأس به من الأشخاص المقربين، مِنَ الذين يأتونني بكل الأخبار قبل أي شخص آخر. ادهن السير يسير، هم من جهتهم يقومون بما أريده منهم، وأنا لا أقصر من ناحيتهم للكلام مع الحاكم بأمره.

- والشماليون؟

- في الجيب.

- إذن ضفيني مع اللي في الجيب.

كل ما كان يبدو مستحيلا وبعيدا أصبح يُلعبُ الآن في عمق الأماكن الأكثر حساسية أوعلى حوافها القريبة. هل هو انقلاب في ناموس الحياة أم مجرد ميلان خفيف في المجرة التي تَلعبُ فيها أرضنا لعبتَها التي لا أحد يعلم متى تدفع بها نحو فراغ هالك؟

ما حدث في ليلة الليالي كان مذهلا.

الشمس هربت قبل غيابها. وقَصُر النهار على غير عادته. الظلمة كانت معتمة. الأقدار التي لها عادة من يحكمها ويوجهها، وقفت تعد دقائقها، وتنتظر المرشحين لآلتها الساحقة. أخذ الحاكم بأمره كل الكتب وأعاد النظر فيها طوال الأيام التي تلت مناظرته المتلفزة مع بشير إلمورّو. كان كتاب ماكيافيلي: **الأمير، مدوَّنةُ العبَر**، هو الذي استحوذ على اهتمامه كليا. حفظه عن ظهر قلب، ولكنه شعر فجأة كأنه لم ينفعه في شيء، بل ورّطه في تصورات لم تكن مفيدة أبدا. استعاد إحدى فقراته

التي كانت قبل المناظرة تعجبه: لم يحدث أن جاء أمير جديد ونزع السلاح من بين أيدي رعيته. العكس هو الصحيح. عندما وجد رعيته بلا سلاح، قام بتسليحها. لأن بهذه الطريقة تصبح الأسلحة ملكه لأنه يعرف أماكنها بدقة. وكل الذين كانت تنتابهم الشكوك يعلنون ولاءهم له، بينما يزداد الأتباع ضمانة. ومادام الأمير لا يستطيع أن يسلح الجميع، يصبح من سلّحهم ووثق فيهم وكافأهم، هم رأس حربته(٨٨)... لكن أبناء الكلب انقلبوا عليَّ على الرغم من أني طبقت نظرة المعتوه نيكولا مكيافيلي حرفيا. سلّحتهم، وعندما بلغوا أشدهم، أداروا أسلحتهم ضدّي وبدأ طمع السلطان يحرق قلوبهم. لأيّ شيء يصلح هذا الأمير الهالك الذي ألفه ماكيافيلي؟ للرعاع ولم يؤلفه للأمراء؟ لقد انتقم من أجيال متتالية من الأمراء وخسّرهم مُلكَهم، بل كان السبب الأساس في هلاك الكثير منهم. أيُّ خراب هذا تريدني المجنونة دنيازاد أن استمر فيه؟ أي دمار... أيّ حريق؟ من أين تأتيني القذائف التي بدأت تأكل حائط الحديقة الملكية القديمة؟ إذا لم تكن هي نفسها أسلحتي التي سلّمتها لهم في وقت مبكر لأجعلهم يأكلون بعضهم بعضا. في اللحظة التي تقول فيها أنهم انتهو، تفاجأ بأنهم فرخوا وعوضوا قتلاهم بالولادات المحملة بحقد مبطن لا تعلم متى ينفجر. إلى الجحيم يا كتاب الأمير، إلى جهنم يا ماكيافيلي.

ثم بدأ يمزق نسخة جديدة من كتاب الأمير ورقة ورقة كمن ينتف دجاجة بيضاء، في حوض ماء ساخن، ويرميها في عمق المدفأة التي كانت تأكل كل ما يصلها في اللحظة نفسها من شدة اللهب الذي زاد الحاكم بأمره في قوته. عندما انتهى من الحرق كان وجهه قد احمر عن آخر، وكان يتصبب عرقا. شعر ببعض الراحة.

في الحقيقة منذ استيفاقته المبكرة، في ذلك الصباح كان الحاكم

---

(٨٨) ماكيافيلي: الأمير. ص: ١٤٣. عن الترجمة الفرنسية لـ: Marie Gaille-Nikodimov

بأمره قد صمّم على حرق الكتاب. فقد رآه في المنام ينزل عليه في شكل أمطار وكرات سوداء. عندما مد يده إليها كانت كلها عبارة عن أوراق الأمير ملفوفة ومكورة في شكل حبات الزيتون. كلما فتح ورقة وجد فيها درسا يؤدي إلى هلاك أكيد. حتى دنيا التي فتحت الباب بهدوء حتى لا تعكر صفوه، عندما رأته يمزق كتاب ماكيافيلي، عادت على أعقابها بدون أن يحس بوجودها.

كان كل شيء جاهزا.

جلس على كرسيه الوثير وأكثرهم راحة تفاديا لإيقاظ البواسير. ثم بدأ يعد أصابعه وأسنانه، والأضواء التي كانت تحيط به، والقذائف التي كانت تسقط هنا وهناك، وقطع الزليج الأرضي الأسود والأخضر والأصفر وحتى الأسود والأحمر. شعر كأن شيئا انسحب منه نهائيا ولم يعد قادرا على تحمله. تمنى أن يستمر العد إلى ما لانهاية. كأنه كان يريد أن يهرب من شيء لم يكن قادرا على مواجهته. تساءل بمرارة عن الزوايا المظلمة المتخفية في ليلة الليالي وهو قد اتخذ لها كل الاحتياطات اللازمة. أيعقل أن تودع دنيا الهزيع الأخيرة من ليلة الليالي بهذا الشكل المضحك من الخوف والذعر. هم من يجب أن يخاف وليس أنت؟ تذكّر تشجيعات دنيازاد. لم يستطع أن يكتم ضحكة السخرية التي انتابته.

شعر بوخز خفيف في مؤخرته، فتململ قليلا وبلع ريقه بصعوبة. جاء بكل الكتب التي كانت بحوزته، الخاصة بالنجوم والرمل، والغيب، والأدب والسحر، ثم ألحقها بالتاريخ والسير النبوية، ثم بعد تردد طويل، أضاف لها القرآن. تماما كما فعل طوال الأيام التي تلت المناظرة مع بشير إلمورّو. كانت المدفأة الغازية ما تزال مفتوحة. الحمد لله أني لم أثق في أي واحد منها. كذب المنجمون ولو صدقوا. نتفها واحدا واحدا بعصبية كبيرة ثم رماها في عمق النار. تردد لحظة ثم ألحق بها كتب السيرة النبوية. لم يحتفظ إلا بالقرآن. لا يصحّ. تمتم. فقد أنقذني في اللحظات العصيبة وحكمت به على الكثير من أبناء الكلب على الرغم من أنه منح لهم وسيلة كبيرة لتذكيرهم بظلم الحكام. لكن ما رمزية هذه

القصة الغريبة التي تحدثت عن الخروف الذي أكل ذئبا في لحظة خلوة؟ عن سيدنا الخضر الذي نزع رقبة طفل بريء لا يعرفه لا من قريب ولا من بعيد؟ ما معنى أن يهدِّم حائطا لناس فقراء ويغرق سفينة جديدة لصيادين لا يملكون شيئا؟ لا. لا. تنتابني شكوك كبيرة في أشياء كثيرة نظنها في صالحنا، ولكنها هي القنبلة الموقوتة التي تدمر كل شيء في مسالكها. أنت أيضا يا صاحبي خنتني وتخلّيت عني في اللحظات الأصعب. من النار وإلى النار. أراد أن ينتفه ورقة ورقة، مثلما فعل مع الكتب الأخرى. ولكنه سرعان ما تراجع وهو لا يعرف بالضبط لماذا، كأن يدا قوية منعته من التمزيق، ولكنها لم تمنعه من الإقدام على الحرق. أغمض عينيه ثم رماه في عمق اللهب، وزاد من قوة النار، فالتهمته في دقائق. لم تبق إلا ظلال الكلمات مرتسمة في الرماد: قرآن كريم. فجأة شعر بأنه تعرى من كل شيء، حتى من الأثقال التي كانت تضغط على ظهره وقلبه. كان على يقين من أنه العارف الأوحد للحقيقة المخفية. تأكد من أن محيطه لا يعرف السرّ المكين الذي يخبئه لهم، بما في ذلك دنيا، وربما كانت هي المعنية بالسر أكثر من غيرها. العد في ليلة الليالي، لن يبدأ بالشكل الذي توقعوه، لكن بالشكل الذي خطَّط له هو. حتى أصدقاءه الشَّماليون لا يعرفون شيئا كثيرا عن السر. التجربة علّمته الكثير من الحيل من بين بينها أن يظلوا بعيدين عما هو حاسم في المسائل الشخصية. أنوفهم الشماليين تشمّ أي شيء، حتى ما هو بعيد عنها.

فجأة رفع رأسه. لم ير إلا البياض ومكان الساعة الفارغ الذي ارتسم قبالته. صفَق. جاءه الوراق الذي يختبئ كعادته خلف الستائر في انتظار أوامره:

- أمر مولاي وولي نعمتي.

- اقرأ عليَّ الصيغة النهائية أيها الوراق. اقرأ ما سجلته في كتاب الأمة. اقرأ بشكل جيد ومسموع. ستكون كلمتك تاريخية لأنها ستذاع مباشرة في التليفزيون في اليوم الموعود، بعد الانتهاء من مهزلة ليلة

الخوف التي يسميها كل الذين أعرفهم من الأصدقاء والاعداء: ليلة الليالي. اقرأ على مسمعي ماذا سجّلتَ. لا أريد أن أترك أي تفصيل للصدفة.

مسح الوراق على شاربيه بظاهر يده اليسرى. رشف رشفة عميقة من ماء الزهر الذي كان أمامه لتزداد حيويته. ثم وضع القلم بين أصبعيه محترما كل طقوس الكتابة. ثم بدأ يتلو على مسمعه الصيغة النهائية.

«- مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى[٨٩]. في السنة العجفاء التي سقطت فيها ملامح الناس بعد أن باعوا وجوههم للشيطان بأرخس الأثمان. في السنة الصّعبة التي خاب فيها ظن الحاكم بأمره في الرعية. في آخر نفس من ليلة الليالي التي ذُكرت في كتب الأولين والتابعين من أصحاب العلم واليقين، حدث هذا. توفِّيتْ صاحبة المقام العالي والإيمان الزاهد في الحياة، دنيازاد حرم الغالي المفدّى، صاحب الشأن الذي لا يضاهي، الحكيم الحاكم بأمره، مؤسس جملكية آرابيا العُظمى، توفِّيتْ هي ونجلُها، ولي عهد آرابيا قمر الزمان، في حادث تحطّم المروحية التي كانوا على متنها أثناء طلعتهم اليومية لتفقد حال الرعية. في ظل هذه الظروف، العصيبة التي تمر بها الجملكية، سيتم تنكيس علم آرابيا القزحي سبعين يوما، ويُعوض بخرقة سوداء. رحم الله شهداء الأمة وتغمَّدهم بواسع رحمته، وأسكنهم فسيح جنانه.»

ثم قدم له الورقة بروتوكولي الوثيقة. وقعها الحاكم بأمره. وضع المداد الأحمر على كامل يده ثم حطّها على الجزء الأبيض من الورقة.

- هذا توقيعي في حالات الحزن القصوى، والرغبة المحمومة في الانتقام. ولكن هل ننتقم من حكمة الله؟

- لا يا مولاي. لا ننتقم من رحمة ربنا الغالية.

- لهذا يجب أن يحتوي النعي على فقرة تخصّ اليد الأجنبية الخفية

---

(٨٩) سورة طه، آية ٥٥.

التي كانت وراء سقوط المروحية. أذكُرْ أن مصالح الدولة قد فتحت تحقيقا عن هذا السقوط المفجع والفجائي. الناس بلا ذاكرة، ينسون بسرعة. يريدون فقط أن يأنسوا لما يشتهون سماعه. ونحن نستجيب لهم. والآن يا مؤرخي...

- أوامر سيدي، هل نغيّر الصيغة باستثناء فقرة التحقيق؟

- لا. الصيغة رائعة. حضر نفسك للآتي فقط. الأمور الجدية ستبدأ الآن، ولا تُسجِّلْ أي شيء بدون إذن مسبق مني. حتى ولو كانت دنيازاد هي من يأمرك.

- أوامر مولاي وولي نعمتي هي الكلّ، ولا شيء آخر غيرها. الرواية مسؤولية تاريخية أمام الأجيال القادمة. ما غدا كلام سيدي، فراغ يأتي مع الريح ويموت فيه.

- برافو. هكذا أحبك. تلتقطها وهي طايْرَه.

عاد إلى تأمل الفراغ الذي كان يحيط به. حتى خشخشة المدفأة توقفت بعد أن أكلت النار كل شيء ولم تبقَ إلا الارتسامات الباهتة لأغلفة الكتب. المدافع التي كانت من حين لآخر تهز بعض أركان القصر صمتَتْ نهائيا هي بدورها. لن تتأخّر دنيازاد. يعرف وقتها جيدا. منضبطة في كل شيء. فهي لا تزعجه في لحظة غفوته. ذهبت لتلقي نظرة أخيرة على المروحية هي وابنها قمر الزمان، ولي العهد والطيار. مرة أخرى لم يستطع كتم ضحكته المبطنة جدا:

«- هههههه... مسكينة ماما دنيا؟ هي لا تعلم أن بالمروحية برميلا من بارود سريع الاشتعال، تكفي رنة تليفون لينفجر كل شيء، ونفتح بعدها، كما جرت العادة، التحقيق ضد الأيادي الآثمة التي حرمت البلاد من امرأة كانت سيدة خير، أنشأت أكثر من ألف جمعية لمساعدة المعوزين. التحقيقات السرية بيَّنت أشياء أخرى من بينها أن هذه الجمعيات كانت تأخذ ملايير الدولارات كمساعادات وطنية ودولية، كانت تذهب كلها نحوها ونحو ابنها قمر الزمان.»

كان الكفان واقفا باستقامة في الزاوية، ينتظر أمر الجلولس من الحاكم بأمره. كل ديكور التراجيدية الشكسبيرية جاهز. طلب الحاكم بأمره من الكفَّان أن ينسحب قليلا، ويحضِّر نفسه في الزاوية، من وراء الستائر ولا يخرج إلا عندما يناديه هو شخصيا. في اللحظة التي اختفى فيها الكفَّان تحسَّس هو حدة السكين البوسعادي الذي يقسم الشعرة إن مسَّها، تحت الوسادة الموضوعة على سرير الليلة الأخيرة. ليلة الليالي.

«- سأسْمع إليها كيف تَروي خرافاتها عليَّ. لن أتيح لها فرصة البقاء حتى الصباح حتى لا تعود من جديد إلى خداعي. باسْطاااا. هذه المرة لن أكون شهريار الذي لعبت به أختها مثل الدمية. كان بغلا ثقيلا لا يصلح إلا لحرث الأحراش الجرداء. لم يتخذ احتياطاته اللازمة. مصيره لُعِبَ على التفاصيل الصغيرة التي لم ينتبه لها. كانت تخونه في لحظة الغفوة مع أقرب الناس إليه، ولهذا لم يتفطن لأي شيء منها حتى استولى على حكمه ثلاثة لقطاء قتلوه قبل الوقت بمساعدة أمهم، شهرزاد.»

عندما تنتهي دنيا من حديثها، سأرفع نخبها الكأس الثامنة متجاوزا بذلك الطقوس القديمة. ثم أبسطها على الفراش. أُشبع جوعي منها وهي حيّة، ثم أسفدها وهي ميتة انتقاما. بين لحظتي الفراش وسفدها ميتة، أكون قد ذبحتها كالشاة واستحممت في دمها. أُخْرِجُ الكفان من وراء الستائر وأتركه يعمل عمله. أما ابن الزانية، الكبُّول، الفرخ، قمر الزمان، فلن ينال مني أكثر من ضربة سيف كتلك التي حززت بها رقبة جده. واحدة خاطفة سبق أن علَّمتها له عندما كذبت في لحظة من اللحظات، على نفسي، وصدّقتُ أنه من صلبي. علَّمته كل حيلها. كنا نتسلى بلعبة السيف، وكاد أن يلعب برأسي لولا أن تفاديتُه. قال ذات مرة، لهذا أنقَذْتُك يا والدي العزيز بهذا السيف المرصع بالجوهر والحجر النفيس والمعدن النادر، من مخاولة انقلابية كانت تُهيِّأ لها إحدى القهرمانات في الحرملك. يذكرني في كل لحظة أنه فعلها من أجلي ليكسب ودّي وثقتي، فأتذكر قصة فاطمة العرة، ولكن من يثق في كبُّول؟ لماذا لا يكون قد قتل القهرمانة خوفا من أن تبوح لي بأحد أسراره الخطيرة لأنها

كانت قريبة منه ومني؟ كنت وقتها بغلا ثقيلا مثل شهريار. صدقته بكل سهولة. عانقته بحضور أمه واحتضنته بقوة لأول مرة. وبكيت مثل الغبي. قلت له أمام الدائرة المقربة من ضباط الجيش وقواد النواحي العسكرية في مختلف نواحي آرابيا: هكذا الرجل ابني! من صلبي، عندما تغيب النمور، تحضر الأسود والفهود. كدت أقول له أيضا إني تعبت. خذ الجملكية وحافظ عليها في عينيك. الحمد لله لأني في لحظة من اللحظات أحْجَمْت عن قول أي شيء. خفت من أن يدور عليَّ كعادة الكَبابِيل. كنتُ محقا. ها أنا ذا الآن يزيد يقيني في أن أمّه كانت وراء هذه اللعبة الخطيرة. لا شيء في هذا الولد مني. لا يشبهني إلا في الرغبة القاتلة للحصول على مفاتيح المدينة والبلاد. أي متعة ستنتابه وهو ينزع رأسي مثلما فعلت ذلك مع والدي؟ حتى أدخلها في سحر دهشتها الليلة، قلت لها البارحة يا دنيازاد أكملي لي الليلة الواحدة بعد الألف من حكاية شهرزاد. ابتسمت ولم تمانع. قلت لها قولي ما لم تستطع دابة الغواية قوله في الواحدة بعد الألف. رممي التاريخ مثل الأندلسي المجنون. هو أيضا، ابن المجانين والمهابيل، يقول إني لن أتخطى عتبة ليلة الليالي. سأبيّن له أنهم هم الباقون داخل ظلمات فراغ الليلة، وأقفز أنا وحاشيتي خارج هذا الفراغ مثل شعاع هارب. سأتخطاها ليبدأ عهد آخر. المغربي المجنون، وصلتني عنه تقارير متعددة من الأصدقاء الشماليين أنَّ ذاكرته بدأت تتلاشى، بفضل الأقراص البرتقالية، والحقن الذي بدأنا نكثفه في الآونة الأخيرة، والسطل الألماني. اكتشاف القرص الليموني كان بردا وسلاما لأنه يمنحنا كل ما كنا نريده منه بأقل الأثمان. هؤلاء البشر إذا أردت أن تعزلهم عن الحياة لا تعطيهم فرصة الموت في سجونك. سيتحوّلون إلى شهداء يستفزونك في فراشك ونومك ويسكنون حتى أحلامك. لن يصبح شهيد آرابيا ولا إيقونتها الخالدة. سيموت كأي بهلول متسخ في شوارعها. مع الزمان، سينساه حتى الذين أحبوه. سيتحول إلى تسلية الأطفال المفضلة في الشوارع. يرفعون حناجرهم التي تبحُّ من كثرة الصّراخ: عمي بشير المهبول! عمي بشير المجنون!

يضربونه بالحجارة ويركضون وراءه. يدفعونه من الأمام ومن الخلف إلى أن تكون في يوم ما الدفعة قوية على حافة من حافات طرقات المدينة، فيموت وتنتهي حكايته وكأنها لم تكن. مثلما بدؤوا يفعلون الآن مع عبد الرحمن المجذوب الذي بدأت الأسواق تنسى خرافاته التي كان يقصُّها منذ زمن بعيد. الناس لا يحفظون إلا الصورة الأخيرة للإنسان حتى ولو كان نبيا. اللحظات الأخيرة من حياة الحاكم حاسمة. محمد الصغير، أبو عبد الله، قدّم حياته لشعبه وانتهى كفأر هارب، لو لم يهرّبه الشماليون إلى فاس لأكله الغرناطيون حيّا. المقتدر بالله، حارب الرومان والفرس والأتراك، وأسس لاستقرار البلاد، وفعل ما لم يفعله غيره، انتهى إلى السَّمل والموت القهري. الحاكم الرابع، الخليفة الثالث الذي دوّن القرآن وجمعه قبل أن يحرقَ النسخ الأخرى حارما النص المقدس من ذاكرته، انتهى تحت النصُل والسكاكين ولم تستطع زوجته نائلة بكل إخلاصها من إنقاذه من موت كان مكتوبا.

غريب؟ كلما تذكرت شجاعة نائلة في الدفاع عن الخليفة أحسست بها قريبة من قلبي وأقول في خاطري تلك هي المرأة الاستثناء. لو كانت دنيازاد في مثل ألقها وإخلاصها كنت قَبِلتُ بالموت مغمض العينين؟ لكنها ليست نائلة ولن تكونها. كلما قلتُ لها اقرئي رسالة نائلة لمعاوية، تجد دوما سببا للهرب والالتفات نحو بياض الحائط.

ماذا بقي من كل هؤلاء الذين قطعوا الدنيا بسرعة تجاوزت حركة الجميع؟ لا شيء، سوى ذاكرة معطوبة. الأموات ليسوا على حق أبدا. اشتعلت كل الألسن لتشويههم. قيل إن محمد الصغير باع البلاد والعباد. لم يفهموه. لم يقدِّروا تضحيتَه. انسحب بعدها عن أرضه مرغما وجريح القلب. كانت القشتالية الكبيرة هي المرأة الوحيدة التي مست حواسه. قيل عن المقتدر بالله إنه باع البلاد التي استعان فيها بالعقول المشعَّة لأعدائه. لم يبق في الذاكرة منه إلا الطفل الذي كانت تضعه القهرمانة بين فخذيها وتفتح باب الشكاوي ورسائل الاحتجاج. الحاكم الرابع في الرواية المؤكدة، هو نفسه الخليفة الثالث، لمَّ شمل البلاد

والدين الممزق في الصدور، لم يبق منه إلا الأمر الذي أعطاه لمعاوية لنفي صاحب النبي وحبيبه أبو ذر الغفاري في صحراء الربذة. بشير إلمورّو الذي ملأ الدنيا بتضحياته وعذاباته، وهذه مزية لن ينكرها عليه أحد، لن يتذكروا منه إلا حالاته الأخيرة وهو يمشي في الشوارع تائها بدون وجهة. لا يكلم الناس ولا يسمعهم. يسقط، ثم يقوم عندما توضع في فمه الأقراص الصفراء الليمونية. وإذا كلَّم من يكلِّمه، يتحدث عن مواضيع عجيبة لا علاقة لها بالزمن الذي يعيشه. سيدخل في هذيان الهبال، ومع الزمن سيكرهونه. سيتركونه طعما للعب الأطفال، وهو يخبئ رأسه درءا للحجارة التي تأتيه من كل الجهات. التحاليل العلمية تقول إن مخّه سيتقلص حتى يصبح كتلة صلبة جامدة، لا حركة فيها. لن تُتاح له فرصة الشهادة، ولا حتى فرصة أن يُبني له نصب تذكاري في مدخل شارع المدينة الرئيسي. وسنعيد كتابة تاريخه بالشكل الذي نريد. سنقول إن بشير المجنون، كان يريد حرق المدينة مثل نيرون يوم صمم على إشعال روما. سُجن بسبب نزعاته الإرهابية وليس عدالته مع الناس الهامشيين. سيقول مؤرخونا أنه لولا رأفة الحاكم بأمره عليه، وتبني علاجه في الخارج لما طال به العمر إلى هذا الوقت. لا يستطيع ڤوالو آرابيا أن ينكروا حقيقة الأقراص الصفراء، آخر مبتكرات العلوم الطبية، التي تعيد له ذاكرته بسبب مرض الخرف المبكر. سنَبْتَذِلُ كل حكاياته المروية في الأسواق الشعبية، لتتحول إلى مجرد تخريف سبق أن قرأه في الكتب التي تباع على أطراف الشوارع والأسواق المنسية. سنقول حقيقته التي يرفض الجميع رؤيتها وهي ولعه منذ صغره بمرض القراءة. عندما شب، استفحل، فيه ليتحول إلى مجنون ضيعت الأبجديات عقله. الزمن علمنا نحن اللاحقين، أن لا نرتكب حماقة الحاكم الرابع، ولا غلطة المقتدر ولا سهو الذين شووا لحم ابن المقفع وأحرقوا وصلبوا الحلاج، ولا الذين رموا بشار بن برد بالزندقة. سأترك دنيازاد تروي حكايتها الأخيرة. ومع أولى تباشير الصباح يكون زمن آخر قد بدأ بعد رفع أعلام الحداد وتنكيس الرايات الوطنية. لن أتأخر لحظة في الموعد مع فجر

التاريخ. في الصباح، أذيع مباشرة نبأ الوفاة في حادث المروحية الخطير. بعد أن أضع قطرتين من ماء البصل في عيني، لتعميق درامية المشهد. بعدها أعلن عن الإصلاحات بحل الجيش والشرطة ومحاكمة قادة النواحي العسكرية لأنهم رمز الفساد، وتغيير الحكومة التي يكون الجديد فيها وزير دفاع بلباس مدني ويكون في الوقت نفسه هو مسؤول المليشيات السرية التي سأنشئها. أطلق سراح بشير إلمورّو. وعندما انتهى من هذا كله، أعلن الزحف المقدس على البحر ثم باتجاه القلعة ولن يموت عسكري واحد. لأني سأرسل الميليشيات. أدفع بها إلى النار بعد شحنها بقاموس الدفاع الوطني. سأغير وجه الأرض ليبدأ عصر بلون أجنحة الفراشات. سأعطي الأوامر الصارمة، لإعادة كتابة القواميس وكتب التاريخ الأجنبية وحتى الجغرافيا، ونزع كل ما لا يناسب حضارتنا وخصوصياتنا. سنعيد خلق الدنيا كما نشتهيها في احتفالية القرن. سنقوم بالنقد الذاتي، ونعلن عن عيوبنا بجرأة. هكذا نغلق الطريق في وجه القوالين. سأصرّح علانية أن والدي خان وطنه. المشكلة الوحيدة هي أن المخابرات الإنجليزية عقَّدت علينا المسائل في الآونة الأخيرة عندما نشرت بعض الوثائق السرية. سجلتُ احتجاجي رسميا من خلال الصديق الشمالي الذي يمثلهم لديّ. كان بإمكان جهاز المخابرات البريطانية الزفت أن يستشيرنا قبل نشر فضيحة مقتل والدي بيد أحد أبنائه. مما كشفته وثائقهم السرية هي أن الفضل الكبير يعود لوالدي في انتصار اليهود على العرب في حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧ بواسطة المعلومات الكاذبة التي سلمها لجيوش الإنقاذ العربية، والبنادق المحشوة بالنخالة التي استوردها خصيصا لهذه الحرب المقدسة. كان والدي يرحمه الله، تقول الوثائق السرية، ضامنا للنصر دائما، ولكنها لم تفسر ولا مرة واحدة ماذا كان يقصد بالنصر المؤكد؟ انتصارنا الأكبر لن يكون إلا على النفس الأمارة بالسوء. يكررها دوما في خطبه الطويلة، آخرها خطابه الذي ألقاه بالقرب من دار البلدية وهو داخل المكعب الزجاجي المضادة للرصاص. وهذه طريقته الدائمة في الخطب الجماهيرية. اللي خافْ، سْلَمْ. هذا

شعاره. يقول خسرنا الكثير من حروبنا لأننا كنا دخلنا المعارك بقلوب فارغة من الإيمان. النفس أمارة بالسوء يا ابن آدم؟ شوف القدام فقط... شوف واش حضَّرْت لهذيك الدار. الآخرة تنتظرك تطلع وإلا تنزل. نفس ما قاله أبو عبد الله محمد الصغير وهو يودع غرناطة، ويشنشن الدوقات الذهبية، ويحاول أن يستعيد وهو على الهضبة، زغب القشتاليات الناعم، الذي تعود أن يفليه برؤوس أصابعه في لحظات الارتخاء. كانت لعبته المفضلة ولحظة انتصاره على الشماليين. حتى عندما وقف في المرة الأخيرة على حافة هضبة El ultimo suspiro d'el Moro[90] لم يندم على أي شيء، لا على الملك، ولا على المدينة التي كانت تدكها المدافع الإيطالية، ولا على المدفع الدمشقي النائم الذي لم يستعمل أبدا. الذي كان يؤرقه، هو كيف سيأتيه النوم في غياب الزغب القشتالي وهو الذي تعود على نعومته ومخمليته؟

تقول الوثائق الإنجليزية السرية التي سربت الكثير من المعلومات الحربية، كان يرحمه الله يخاف على رعيته ولم يفعل ذلك إلا لأن هاتفا أتاه في آخر الليل في ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ونفخ في أذنه كما يُنفخ في السور: يا ملك الملوك، وخليفة الله في أرضه، لا تدخل حربا ليست لك. حافظ على أمتك وعلى الذرية الحية من الهلاك، سيأتي من ينوب عنها ويحول الأعداء إلى عصف مأكول. الأعمال بالنيات، وكانت النية أننا حملنا السلاح حتى ولو كان محشوا بالنخالة، ونثار النجارة الدقيق. نوينا أن نقاوم، وكانت النية فوق الحيلة. وعندما خسر جزءا من آرابيا، لم يتحسر. قال ليكن، قليل من الأرض للعدو، مقابل الحفاظ على وحدة الشعب والأمة. لقد أعطى عدوه درسا في السلام. لم يكن الإنجليز مجبرين على إخراج هذه الفضائل دفعة واحدة في هذا الوقت بالذات. يقول الوراقون إن والدي لم يحكم طويلا، على الرغم من أنه عمر أكثر من ثمانين سنة. عندما رأيته في المرة الأخيرة عاريا بين

(٩٠) زفرة الموريسكي الأخيرة.

محظياته، عرفت كيف أن العمر يأكل الجسد ويشعل الرغبة المدفونة إلى أقصى درجاتها. وهو السبب في موته لأنه رفض كل الخيارات التي وضعتُها بين يديه. الاحتياط لأدق التفاصيل أكثر من واجب.

شعر الحاكم بأمره بسرعة الزمن الذي كان يحيط به من كل الجهات. دنيازاد تأخرت على غير عادتها، على الرغم من أن وقت مجيئها إلى فراشه لم يحن بعد. شعر بان للموت سلطانا غير سلطان الحياة، يساوي الأشياء لدرجة إلغائها بما في ذلك الزمن. وجد لها أعذرا أخرى غير أعذار الوقت. افترض أنها كانت تتجمل من أجله لتقوده على جناحي فراشة نحو الساعات الأخيرة من ليلة الليالي التي حولتها إلى أحجية لم يعد يطيق سماعها. فجأة شم عطرها الذي كان يسبقها، خيط من ماء الزهر، والمسك الهندي، والعنبر والياسمين، وعود القماري. ثم شعر بظلها الذي يغمره، ثم بدا له أنه رآها. وأخيرا رآها. جاءته بعد أن استحمت سبع مرات في ماء قشور الرمان والبرتقال والليمون كعادة نساء آرابيا الثريات للحفاظ على صلابة الجلد ونعومته، ورشاقة الجسد. خيط من الياسمين الإشبيلي يصل حتى الأنف، ليسحبه تحت نشوة لا تقاوم إلى السرير المحضر في أدق تفاصيله، بالأغطية اليونانية، والأفرشة الهندية، والرسومات الفارسية، ووسائد بلاد السند.

انزلقت دنيازاد أمام وجهه كنسمة الجنة. انكفأت على السرير بهدوء. بان نصف جسدها العاري. كانت جميلة ومدهشة لا يدري ما الذي أعاد لها كل هذا النور فجأة. في اعماقه تأسف لأن كل هذا الألق سيتحول بعد قليل إلى جريمة موصوفة على فراش السلطان. ما أجملها. تنهد عميقا. مقاومة تفاحة الجنة الخادعة، التي تسد الحلق، ضرورة حياتية. تأملها من تحت عينيه نصف المغمضتين. تعمقت تفاصيل جسدها بلباسها الأخضر الذي كانت تشتهيه. تقول إن أختها شهرزاد كانت ترتديه كلما قابلت شهريار.

ليكن! همس الحاكم بأمره في خاطره.

« - هي الليلة الأخيرة في حياتها، لنتركها تفعل ما تشاء وتمارس كل

غواياتها وعشقها. مسكينة! لو فقط كانت تعلم حدة السكين الذي ينتظرها؟ المفاجآت مدهشة دوما حتى في قسوتها.»

عندما شقت قذيفة المدفع جزءا من الصالة، ارتعب في مكانه، قالت له دنيا بغنج.

- لا تهتم عمري. ولي العهد يتدرب على حماية القصر الجملكي عند الضرورة.

- جيد أنه أخيرا رضي أن يقف بجانب ذويه في هذه الحرب الخطيرة والمدمرة، على أن يصطاد في المياه العكرة.

- صغير وما يفهمش. يتعلم. وقد تعلم. حبيبي، خلينا من الآخرين وتعال إليَّ. جسدي يحترق في غيابك. خلاص عمري. من الآن لن أعذبك. سعيدة لصبرك حتى تسمع آخر الباخية. تعال فقط بالقرب مني أريد أنا ايضا أن أشمّ ذكورتك الصلبة. أن أمسك بكل حواسي حتى الخفي منها. تعاااال... أوووووه

لم توقف تأوهاتها وهي تمسح شفتيها بلسانها الرقيق. تعمقت حمرة جسدها أكثر تحت الانعكاسات الضوئية المختلفة التي كانت تأتي من زوايا البيت. وضعت يدها بين فخذيها وعقفت سبابتها فارتسمت تفاصيلها الحميمة. تعاااااال... تعاااااال يا روحي... قالتها متقطعة على مقطوعة الدانوب الأزرق... الدانوب الأزرق... لا... لا... أنت تحب الديفا كما تسميها، الشيخة الرميتي، وخويا أبن عبد الله الوجدي. كلهم هنا. اسمع أصواتهم تدخلنا في غمرة اللون الساحر والجسد الطري الذي يشبه القشطة والزبدة ولا ينتظر إلا سكينه.

ارتبك فجأة وكأنه خاف من أن تكون افترضت موتها. لا. كان حاسما في شكوكه التي لم تكن مؤسسة. الصدفة جعلتها تحكي عن السكين. قالها وهو يغمغم ويحاول مقاومة سحر اللحظة التي لا تتكرر:

- يااااه أين كان كل هذا الألق.

- ينتظر ليلة الليالي. تعال يا أجمل حاكم بأمره في الدنيا. تعال

لتسمع نهاية الباخية التي لا تروي إلا بين عاشقين لا يسمعان إلا لنبضهما. كل حضور ثالث سيفسد القصة بالضرورة. لهذا أردتك الليلة وحدك. سأبدأ من اللحظة التي توقفنا عندها في المرة الماضية.

- رجاء واحد أن لا تسمّمي ليلتنا بحكاية المغربي المجنون.

- بشير إلمورّو في الأنفاق يا سلطاني العظيم، فهل تخافه وهو لا شيء؟ لقد سُرقت ذاكرته وأصبحت كلها رهينة القرص الليموني.

- نساعده لكي لا يموت.

- لكي لا يُحسب عليكم. معك حق. كل موت الآن سيحوله على إيقونة للشهادة. لا يوجد إذن ما تخاف عليه.

- لا أخاف من أي عزرين، حتى من الله... استغفر الله. ملاحظاتك البايخة تقهر.

بدا انفعاله بشكل واضح. كان يتمنى من قلبه أن تتحرك دنيا قليلا بعيدا عن الوسادة التي ينام تحتها السكين البوسعادي الذي يقطع من الجهتين.

- سأسمعك الليلة نهاية الباخية التي تريد سماعها. لأن دابة الغواية كما تسميها خبأت الكثير عن شهريار ولا نية لي في فعل ذلك. الأمور أبسط مما تتصور يا حبيبي.

شعر بأنها كانت فقط تريد كسب الوقت إذ يبدو أنه لم يبق لها ما تقوله. كان يدرك أن نهايتها الوشيكة ستكون على يده. استغرب كيف أن حياة البشر تُلعب على لحظة. لمحة. سهو. صعب أن يكون الإنسان مزهوا ومصيره معلق على كف غيره؟ ويتعامل معه كأن شيئا لم يكن، الله غالب، لستُ مخيرا وليست مخيرة كما يقول المغربي المجنون، لكنها تفاصيل السياسة في عالم لا يرحم، يا قاتل يا مقتول. يا هالك، يا مهلوك. شعر بالانتشاء وهي تلمسه حيث يستيقظ شبقه ملتبسا مع الرغبة الجامحة في القتل. لم يترك شيئا للصدفة. حتى الشماليون على علم بتفاصيل ليلة الليالي. قالوا له لن نحضر ولن نقول شيئا، إنها انشغالات الجملكية والنظام. لن نرى ولن نسمع. وعدوه بأنهم سيكونون بجانبه

في الوقت المناسب، لإعادة كتابة التاريخ ورواية الحقيقة التي يشتهيها. لن يرتكب حماقة والده عندما غضب منهم، فأغرق اسواقهم بالنفط فأصبح أرخص من الماء. نقل البرميل من ٥٠ دولار إلى عشرة. ثم إلى دولار واحد فوق التكلفة أي عشرة دولارات. هو يعرف أنهم لو يخدعوه سيكون متهورا، وسيجعل النفظ بلا ثمن. سيطلب من أصدقائه الأوفياء أن يأتوا فقط بحاملات النفط والغاز ويملأون الكميات التي يريدون. ويضرب الأسواق التفطية ضربة نهائية، قاسمة للظهر لن تقوم لها قائمة بعدها. وسيكون الحدث تاريخيا. ذلك شرفه الأكبر في مقاومة اليانكي والمد السرطاني للغرب. مثلما يستغلوننا نستغلهم. قالها وهو يبتلع أنفاسه المتقطعة بصعوبة. مجرد احتياطات لا أكثر. لم نصل بعد إلى كل هذا التطرف.

«- أبشري أيتها الأفعى المسمومة. سأكون على صدرك بعد قليل. أفلي جسدك لكي لا يهرب مني شطط اللذة المؤجلة. لو تعلمين؟ الموت ينام قرير العين تحت وسادتك. بسرعة البرق سأخط جرحا في جسدك الغض من النهدين حتى ملتقى الساقين. عندما أصفق سيدخل الكفان. أحز رأسك ورأس فرخك قمر الزمان، وأسد فرجك إلى الأبد بقطنة مثقلة بالكافور، وتنتهي الحكاية. حكايتك. وتبدأ قصة أخرى. ومثلما أضاف شهريار ليلته على الألف، سأجعل من ليلة الليالي لحظة يحفظها التاريخ إلى الأبد. سأنقل البلاد عبر شعاع فضِّي نحو زمن آخر سأكون أولى علاماته وإيقونته الأبدية. حتى بشير إلمورّو سيستسلم لهبل الليلة ويقف مشدوها حتى الموت.»

- أحك يا نور العين. حبيبك الآن خاتم في أصبعك . . . الصباح يداهمنا.

- الصباح يا عمري هذه الليلة لن يدركنا لأننا سننهي الباخية قبل صلاة الفجر.

انفجرت سبع قذائف متتالية بجانب القصر. تحركت من مكانها وهي تحاول أن تسمع مصدرها. أرادت أن تقوم طمأنها بهدوء.

- الأولى لم أعرف مصدرها فقلت إنها لقمر الزمن. هذه أعرفها جيدا. إنها لفرقة المشاة الأولى، تتدرب لحماية القصر الجملكي عند الضرورة.

- تعال إذن. من افتض بكارتي غيرك؟ عليك الآن ان تعرف كيف تسعدني كما لم تفعل أبدا في حياتك. أن تغتصبني. اقترب إلي مدينتك المفتوحة.

«- ها قد شارفنا على الكأس السابعة! سأغتصبها كما أشتهي وأستعيد في ليلة واحدة كل الشبق المؤجل. بدأ الهذيان يعلو دماغها. مسكينة كأنها تقرأ كتب الغيب. لو تعلم بأن المؤرخ سجل كل شيء ستأكل رأسها. حتى كيف تنكس، الأعلام القزحية وتحلّ محلها الخرق السوداء.»

- أحك يا قرة العين ويا صفاء عرق الجبين. يا خيط الروح. أحك آخر حكاية في الباخية التي طالت زمنا قاسيا حرمنا من راحة البال وغوايات الجسد. أحك...

كانت دنيازاد قد تمدّدت بكل طولها على سريرها. بالضبط على الوسادة التي وضع تحتها الحاكم بأمره سكينه. تأملها وهي تتوزع وتتبعثر لذة وعطرا على كل ما كان يحيط بها. في لحظة من اللحظات شعر بألم في قلبه. ربما كان هذا السرير هو نفس الفراش الذي استقبلت فيه السائح الذي حملت منه بقمر الزمن. ولكن الحكاية لم يصدقها أبدا. وجه قمر الزمن المعجون برمال الصحراء، وحر الشمس لم تكن توحي بذلك أبدا. أبو الكبول قمر الزمان لابد أن يكون كبّولا مثله، من نبتة هذه الأرض الميتة والمحروقة.

- نبدأ يا طويل العمر؟

- إبدئي. كلّي أشواق صاغية.

- بلغني يا ملكي العظيم وحبيبي وقرة عيني، أن شهرزاد توقفت عند جحيم الليلة الأولى بعد الألف التي تعرفها جيدا. كنت معها

وأستطيع بعد كل هذا الزمن أن أشهد، يا مولاي وولي نعمتي، ووالد فلذة كبدي. أقسمت أن أخرج ما أخفته دابة الغواية، لأني أعرف جيدا الحقيقة السرية. لم تكن بينها وبين شهريار أية محبة أبدا. و كان عليها أن تلعب اللعبة الملعونة من الأول حتى الأخير لتثبت غباءه في التفكير، وفي الحكم، وحتى في أسلوب المضاجعة. لابد أن تكون قد تعبت كثيرا من شدة الصبر. الصبر يدبر يا مولاي. تصور امرأة في نفس وضعيى على مدار ثلاثة أعوام؟ تقاوم الموت في كل لحظة لمدة ألف ليلة وليلة؟ ورجلا مثل الجبل، يتبجح بانتفاخه وقوته، فقط لأنه رجل؟ يجب أن تتخيل يا مولاي لأن الكلام أحيانا يختزل عمق الأشياء. مصلحة الحكم، أيها الرجل السعيد، تقتضي أحيانا الدخول في لعبة الصمت السرية. وهو الخائف بشكل مرضي من خديعة النساء، لماذا لم يسألها من أين جاء الذكور الثلاثة الذين قدمتهم له في نهايات الليلة الأخيرة، من ألف ليلة وليلة؟ هو يعرف أكثر من غيره، أن ماءه المنهك ضاع في الفراش وبين حيطان المحظيات وبيت الماء[91] في لحظات الشبق المحروق والانتظار العبثي وكأن الحكي مثل الحج مقدس ويُمنع فيه الجماع. في بيت الماء وحده كان يجد حرية استعادة جسد شهرزاد الغض الذي حُرم منه في لحظات الحكي إذ يظل يسمع الباخية حتى تأخذه سِنة من النوم، غفوة يأتي بعدها النوم الطويل والاستمناءات المتتالية.

- هذا دابة وليس رجلا.

- تلك قصة أخرى يا عظيمي ومولاي. هي حيثيات يجب أن تعرفها أيها الحاكم السعيد ونحن على حواف نهاية ليلة الليالي، قبل أن ننتقل إلى قصة فاطمة العرّة التي أوقفتْها شهرزاد في منتصفها لأنها كانت تعرف سلفا أنها لو أتمَّتها سيُفصل رأسها عن جسدها، كما كان شهريار يفعل بالأخريات اللواتي لم يكن لهنّ شيء يمنحنه له إلا أجسادهن. ليس

---

(٩١) المرحاض.

مهمًا ما جرى من حوادث خطيرة، لأنها كثيرة وقد لا تحد، وهي مدونة كلها في كتابك العزيز، **كتاب الأمة**. كل هذا ليس مهما يا سيدي لأن ما سيحدث في الليلة الأخيرة يختبئ في عمقه سر فجائعي.

فجأة دارت عيناه في محجريهما فسبقه لسانه كالعادة، قبل أن يصحح حماقته. يعرف نفسه أن صبره قليل عندما يسمع شيئا هو على يقين أنه كذب، ولكنه درب نفسه على إيجاد البدائل في اللحظة نفسها التي يستعيد فيها توازنه لكي لا يُربك محدثه. في هذا يدين بالكثير إلى أصدقائه الشماليين الذين علّموه لباقة الحديث. قالوا له إذا اردتَ أن لا تخسر محدثك اعطه الانطباع، الانطباع فقط، بأنه على حق، وبعدها افعل ما تشاء.

- أكاد أقول كل امرأة أفعى، تحفظ جسدها لحبيبها، وسمَّها لزوجها، إلاَّك طبعا يا أحلى صدفة من صدف العمر وأجمل حظ.

كانت دنيازاد تعرف كذبته، وتعرف سرّ النهايات، وربما حتى نهايتها. فقد قرأت في عينيه الدم المحقن في عروق البياض. لاحظت تحولات وجهه وتصرفاته التي توحي بأنه لم يعد هو، الحكيم، الحاكم بأمره الذي تعرفه عن ظهر قلب. كل شيء فيه تغيَّر فجأة. انسحبت كل التجاعيد بسبب جلسة البوتوكس والحقن التي اخترقت كل أعضائه ليهئ نفسه ليلية الليالي. مع أنه أبدى معارضة مطلقة في البداية، عندما اقترحت عليه البوتوكس في عدة مواقع من جسده، رفض قطعيا. قالت له إنَّ إليتيك نزلتا، يمكنك أن ترفعهما قليلا بقليل من البوتوكس أو حتى السليكون، سيعيد لهما استدارتهما. قال لا أحد يرى عربي غيرك، وأنت لستِ مهتمة بهذه التفاصيل. بعدها لان وأصبح طيعا وقَبِلَ بكل العمليات التي جعلته يحافظ على نضارة وجهه وجسده. انتفخ حتى في شكله وجثّته منذ أن احتدمت القلاقل. فقد أوقف الرياضة البيتية أو الدوران في الحديقة. تعوّد مثل الطفل البليد أن يُظهِر انزعاجه لإثارة الآخرين.

في الحقيقة للكارثة، تاريخها القديم. يبدأ من اليوم الذي طلب فيه الحاكم بأمره من دنيازاد أن تُنجب له ولي العهد. قالت له بصراحة: فيك

علّة تعرفها جيدا. فلستُ امرأتك الأولى التي تخفق فيها في الإنجاب معها. لكنه أصرّ متخطيا حتى التقرير الطبي الذي بيّن بما لا يدع مجالا للشك ضعف حيوانه المنوي. نصحته هي ببعض الأعشاب سمعت أختها شهرزاد تقترحها على شهريار. كانت في الحقيقة أعشابا تخفف من حرقة البول التي لا علاقة لها بتقوية الحيونات المنوية. وذات فجر فتحت الدنيا المغلقة في عينيه، ففاجأته أنها حامل. فرح. ولكنه كلما تذكر سرّها ينكسر، ويحاول أن يعرف التفاصيل. أن يُخرج لسانها لتقول المزيد من معلومات المضاجعة. لأنه كان يرى في عيني دنيا إشراقة عجيبة، كلما تحدثت عن الرجل الذي أنجبت منه قمر الزمان. في الحقيقة هو نفسه لم يصدق أية كلمة مما قالته، ولا مفعول الأعشاب التي لا تتعدّى فوائدها حرقة البول. كان يعرف أن ابنه الأوحد لم يات من صلبه، ولا حتى من السائح المولع بتصوير القصور. الذي كان يقضّ مضجعه ليس فكرة أن قمر الزمن ليس ابنه، ولكن هو ابن من؟ هل هو ابن أحد خدمه؟ أحد عبيده الذي فاجأته زهو يتأمل مشهد المضاجعة من وراء الحجاب، فقتلته.

كانت دنيا تعرف مقتله الحارق. وتعرف السر الذي لم يتجاوز اثنين. هي تدرك جيدا انها ستحدّثه عن الرجل الطيب الذي عشقها في طفولتها، ومن ذلك اليوم لم يتركها ولا لحظة واحدة. كان حبيبها وأبوها وعشيقها الذي يسعدها في الفراش وفي الحياة الخفية. فكرت في يوم ما أن تصفعه بتلك الحقيقة ولكنها خافت عليه أكثر من خوفها على نفسها، وانتظرت أن يكبر قمر الزمان. مريض بالمرأة. يكرر دائما في لحظات غضبه: أمقتها لأنها التي أخرجتني من الجنة. أكرهها لأنها هي التي وكّلتني تفاحة الغواية التي لم أكن أرغب فيها. أحرقها كل يوم عشرات المرات لأنها علّقتني كما شاءت على الشهوة. ويستحضر كل الكتب السماوية التي قرأها وفلاها، والسير القديمة التي كان يرويها له الوراقون، عن خيانة المرأة، بحثا عن قليل من الراحة.

- يا عمري لولاك لكرهت كل شيء اسمه المرأة. هي المخلوق

المسكون أصلا بالشيطان منذ بدء الخليقة. وضعها الله للغواية في الأرض ولتكون حطب جهنم في الآخرة. ليس للمرأة حائط آخر في النهاية إلا حائط الخيانة والموت الحتمي.

- سلمتَ أنك اخرجتني من حلقة الكراهية، وهذا يكفيني الآن.

في لحظات القلق والخوف والأزمة العابرة التي تنتابه ولا تترك له مجالا للتفكير، ينسحب في ساعة متأخرة من الليل نحو الحرملك. لا تسمع دنيا إلا أصوات المياه وهي تتكسر في المغسل الإيطالي الأنيق، وهو يفرك يديه من دم المحظيات المذبوحات. كلما تلقى إهانة قاسية، فشّ خلقه في المرأة، حقده الأبدي. الإهانة القاسية التي تلقاها في المواجهة التليفزيونية سرعت كثيرا في الوضع. كان بإمكان الحاكم بأمره، تقول دنيا، أن لا يورّط نفسه في عالم لم يكن يعرف تفاصيله، لكن جنون العظمة ويقين القدرة المطلقة أوديا به نحو تهلكة لم يكن قادرا على تفاديها. الوضعية المستجدة خدمتها وخدمت ولي العهد قمر الزمان الذي كان أسعد إنسان في المناظرة. ما حدث كان يجب أن يحدث. إصراره على أنه المثقف الأعظم في آرابيا، والمؤرخ الأول، والحاكم الأكمل، والرزين الفريد، وزين الشباب، والفحل الأقدر، هو الذي قاده إلى هذه النهاية المفجعة. تلك المهزلة أسقطته نهائيا في عيون الأصدقاء قبل الأعداء. ما حدث، كان يجب أن يحدث منذ زمن بعيد ولكنه تأخّر لأسباب لا يعرفها أحد كما قال بشير إلمورّو القادم من أغوار الخوف. للدنيا قانونها العادل الذي يعدّل ارتباك الأشياء ويعيد الموازين إلى طبيعتها. لا أحد يملك وسيلة لإنقاذ الآخر.

القذيفة التي اخترقت بيت الخدم الجانبية لم تثر أحد منهما. هل هو فعل الكأس السابعة، أم الكأس العاشرة، لأول مرة يضيع العدّ. لم يعد للأمر أية أهمية. كل شيء كان مرتبا كما يجب له أن يكون.

تململ الحاكم بأمره في مكانه وهو يحاول أن يرفع رأسه الذي بدأ يثقل شيئا فشيئا بعد الكأس السابعة... لأول مرة يتخطى هذا العدد، ويغيب عنه الحساب. أكد لنفسه أنها اللحظات الأخيرة من ليلة الليالي

التي يجوز فيها ما لا يجوز في الليالي العاديات التي يتسطح فيها كل شيء ويفقد معناه الأصلي.

- هه؟ إخْكِ؟ واش بك ساهية؟ إنها القصة التي انتظرتُ نهايتها بملء الصبر.

- تعجبني صراحتك حبيبي حتى في عمق الأشياء القاسية.

- طيب. اسمع إذن نهاية الباخية. بلغني حبيبي، وحكيمي الرشيد والراشد المرشد، أن الملك معروف، صار لا يعتني بزوجته من ناحية النكاح، وإنما كان يطعمها احتسابا لوجه الله تعالى. فلمّا رأته ممتنعا عن وصالها ومنشغلا بغيرها، بغضته، وغلبتْ عليها الغيرة، ووسوس في رأسها الموسوسون. أقنعوها أن تأخذ خاتم الحكمة والحكم الذي كان في يده، وتقتله، وتعمل ملكة مكانه. ثم أنها خرجت ذات ليلة من الليالي ومضت من قصرها متوجهة إلى القصر الذي كان فيه زوجها الملك معروف. واتفق بالأمر المقدر والقضاء المنتظر أن معروف كان راقدا مع محظية من محاظيه ذات حسن وجمال(٩٢).

- واش بك يا دنيازاد؟ أنت تقصّين على مسمعي الليلة الواحدة بعد الألف، من ألف ليلة وليلة؟ أين الجديد؟ أعرفها، بل حفظتها.

- أمهلني بعص الوقت يا مولاي. للحكاية سوابق وذيول عليك أن تعرفها.

- لم أفهم.

- ستفهم بعد لحظات. وحدث يا عظيم حكّام زمانه، أن كان للملك معروف ابنا آخر من زوجته الجديدة. خرج ليلتها إلى ديوان والده متقلدا سيفه المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة. كان يعتز بهذا السيف، ويقول عنه والده دائما: سيفك عظيم يا ولدي ولكن ما نزلتَ به حربا ولا قطعتَ به رأسا، فيرد عليه ابنه بيقين يتجاوز عمره: سأقطع به عنقا يكون يانعا جاهزا للقطع، طمّاعا في جبروتك وملكك. نفس الدورة

---

(٩٢) من ألف ليلة وليلة.

تتكرر أيها الحكيم الفاضل. بالضبط مثلما حدث لك مع والدك الذي كنتَ تكرهه. مشى ليلتها وراء زوجة والده، فرآها تسرق الخاتم وتدفنه في باطن كفها. فأدرك قصدها لأنه كان يعرف اللعبة من أولها إلى آخرها. ضرب عنقها، فزعقت زعقة واحدة ثم وقعت مقتولة. انتبه الملك معروف ونهض مذعوا. لكن الابن أفهمه القصة كلها بعد أن فتح كفها الذي كان خاتم الملك ينام فيه. ثم مازحه: يا أبي كم مرة وأنت تقول لي سيفك عظيم ولكنك ما نزلتَ به حربا ولا قطعتَ به رأسا، وأنا أقول لك لا بدّ أن أقطع به عنقا مستحقا للقطع. وها أنذا قد وفيت بوعدي وقطعت لك هذا العنق. ثم انسحب الولد بطقوس الخجل بعد ما سمع من والده الكلمة التقريضية التي يحفظها كل الملوك لإخراجها في مثل هذه الأوضاع: أرحتَني يا قرة العين منها، وأرحتَ أركان الحكم المكين من الرعاع والطامعين، أراحك الله ورسوله يوم اليوم المبين، وفي الآخرة أنت من الفائزين. لا تنهرهما ولا تقل لهما أفّ، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة، وقلْ لهما قولا كريما. ثم دمعت عيناه.

يا سيدي العظيم، يا باني جملكية الخير والنعيم، ما لم تقله شهرزاد شيء آخر وأكثر خطورة. الابن، طوال حياته،لم يخرج من فراشه بعد نشرة الأخبار الليلية. لماذا فعلها في تلك الليلة بالذات؟ لقد اتفق مع فاطمة العرة للانتقام من والده الذي كانت هي أيضا تكرهه. التقت الضغينتان في نار واحدة. فاطمة العرة كانت حاقدة على الملك معروف، لأنه رماها، وهو كان خائفا على الملك أن يسرق منه. وكان يريده له بالاتفاق مع أمه. التفت الرغبتان الجهنميتان، السلطة والجنس يا سيدي. قال لها أنت اسرقي الخاتم لسلطان شرفك، ونزع الرقبة سأتولاه بسيفي. وحين سارت باتجاه القصر، تبعها خطوة خطوة، وحدث ما حدث يا طويل العمر وجليل القدر. كان يريد أن يكسب ثقة والده بأية وسيلة. أقنعه بأنها كانت تستهدف قتله بعد الاستيلاء على خاتم الحكمة والحكم والرغبة، ولهذا حز رقبتها من منبتها.

- لماذا إذن أخفت دابة الغواية شهرزاد كل هذا عن شهريار؟
- خافت يا مولاي. الخوف سلطان. قفزت على سر الحكاية. أقسمت وأنا أستمع إلى كذبها، أن أروي هذا السر عندما يعود الزمن الآخر، وها هو قد عاد اليوم يا سيدي وأنا بين أحضانك وفي نعيمك. زعق الملك معروف على خدمه وحشمه وأتباعه، وطالب بدفن فاطمة العرة بعد غسلها وتكفينها مثلما تمليه الشرائع والطقوس الإسلامية. فهي كانت طماعة ولم تكن كافرة. هذه اللاحقة روتها شهرزاد بهذا الشكل، لكن الحقيقة هنا أيضا كانت شيئا آخر. حفظها القوالون وتناساها الوراقون وكتاب الدواوين. تقول الرواية المؤكدة إنه عندما أخبره ابنه بالسر، وضع جثتها بين أربعة أحصنة، ووضع كل واحد في اتجاه، ثم ضرب بالسوط عليها فاندلعت الدواب بكل قواها في الاتجاهات الأربعة. فتحول جسدها إلى مزق مختلفة، قدمها للأسود التي كان مولعا بتربيتها خصيصا لهذه القضايا المتعلقة بالحكم. وزوّج ابنه من فتاة بديعة الجمال وأقام الجميع في أرغد عيش وطابت لهم المسرات، إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، ومخرب الديار العامرات وميتم البنين والبنات. سبحان الحي الذي لا يفني ولا يموت. بيده مقاليد الحكم والملكوت.
- وانتهت القصة ككل الحكايات.
- لا يا مولاي وقرّة العين. لا تتعجل. الحكم كالدّين، حمّال أوجه. أنت خير من يعرف أسرار الأنظمة وإدارتها. الذي حدث، هنا، كذلك، كان شيئا آخر، بلعته شهرزاد في قلبها وخبأته خوفا على رأسها. كانت عيناها ترتجفان رعبا. عيْن على نهاية الحكاية وخاتمتها، وأخرى على السيف الذي كان ينام كل ليلة في حجر شهريار. ما حدث كان مرعبا يا صاحب الفضائل وعالي الهمم. الملك معروف من يومها كان لا يطيب له المقام إلا إذا كان بجانبه ابنة، قرة العين. يقول لضيوفه الذين وفدوا إليه على مدار سنة بكاملها بمناسبة نجاته من موت محقق: هذا حبيبي، قرة عيني، من صلبي. في دمه سلالة الملوك والأخيار. أنقذني

Twitter: @ketab_n

من موت كان مكتوبا. لكن الابن الذي لم تذكر الكتب اسمه الحقيقي وتفترض أن يكون قرة العين بسبب تكرر هذه التسمية على لسان والده، كان يحمل في قلبه سوادا كبيرا وينتظر اللحظة المناسبة للفصل في اللعبة التي بدا له وكأنها طالت كثيرا. كان يحسب لكل شيء، بتفاصيله الدقيقة حتى المغرق منها في الصغر. واختار أن يكون الليل الذي أنقذه فيه، هو نفسه الليل الذي ينهي فيه قصته.

- ابن الكلب...

قالها وهو يغمغم حتى لا تبدو واضحة.

- لا تشتم قرة عيني وحبيبي؟ ألم تقم بنفس الفعل؟

- بلا، ولكن... أكملي، بدأت أتعب.

- لن أطيل على مولاي. في ذلك المساء سامَرتْ زوجة والده الجديدة والشابة، قرة العين، مطولا. قالت له أنت مثل أخي الوحيد الذي أثق فيه. والدك شاخ يا حبيبي والحكم يحتاج إلى يفاعة الشباب. وجسده ترهل كثيرا ولم يعد قادرا، لا حياء في الدين، حتى على النكاح. جسدي غضّ ولا أريده أن يموت قبل الأوان. لماذا يا قرة العين، يتزوجون بنات الملوك وهم في نهايات العمر، وغير قادرين على شقاهم. لاطفها طويلا ليلتها قبل أن يختبئ بها في زاوية ضيقة داخل القصر لا يؤمها أي أحد، قال لها انتظري، فأنت خلقت لي، فأذاقها كل ألوان اللذة. كانت منتشية حدّ الجنون. وانفتحت أسراريها وكل جسدها كالوردة. من يومها أصبحت معشوقته التي سحرته. في مرة من المرات، وقف بين يدي والده، قال له: يا ملكي العظيم، لقد تعبتَ كثيرا من الحكم، وشؤون الرعية تزداد تعقيدا، أستطيع أن أخلفك واخفف عليك شطط السلطان. ليس في الحكم، ما عاذ الله؟ ولكن في شؤونك العامة. فرح به الملك معروف كثيرا وبوأه أعلى المناصب. استطاع في زمن قصير أن يفرض نفسه حتى على الوزراء والولادة. رئيس الوزراء نفسه احتج بقوة لدى الملك بأن ولي العهد يتدخل كثيرا في شؤون الدولة السرية. فكاد الملك معروف أن يقتله وهو يصرخ في وجهه: هذا

ابني يا فرخ الحومة، وليس غريبا! كاد أن يقطع رأسه لولا تدخل قرة العين. هدّأه: إغفر له أيها الملك العظيم، فأنا قد صفحت عنه. المؤمن من يصفح عند المقدرة. أقبّل الأرض بين رجليك. اغفر له. في المساء اختطفه بفضل زبانيته، ورماه في سرداب الأسود. ومع الزمن جرد والده من كل شيء، وحوّله إلى مجرد جثة تنام على كرسي دوّار، مصرة على الالتصاق فيه. تشخر هناك، تبول هناك، تغرق هناك في فضلاتها، تستمني هناك، تفعل كل شيء فيه، ولا تُغَيَّر إلاّ القصعات التي وضعت تحت الكرسي، خصيصا لهذه المهام البيولوجية، حتى أصبح في الكثير من الأحيان يأمر خدمه فيضربون صفحا عن أوامره إلا إذا كان قرة العين حاضرا. علاقته كانت تزداد سوءا بزوجته الجديدة التي كان يكبرها بأكثر من ستين سنة. كانت في آخر كل ليلة تتركه نائما على كرسيه وترتمي في أحضان قرة العين. تظل كذلك حتى آذان الفجر. ذات ليلة، عندما أكثر عليها الملك من الملاحظات، أهانته ومسّته في رجولته الواهية، وفي حالته المتآكلة، حمل سيفا كان ينام بجانبه، وصرخ.

- هااااااه يا بنت الحرام. آويتك من خوف واطعمتك من جوع، واليوم لم أعد صالحا؟ لن أوسخ يدي بدمك. سأنادي على قرة العين يمزقك يا فاجرة.

ضحكت. زاد جمالها حينما لمعت تحت اللمبة القديمة المعلقة على مسافة قريبة من رأسها، أسنانها البيضاء كأسنان ممثلات هوليوود المغريات. ثم قالت له: بربك؟ شوف روحك في المرايا؟ هل بقي فيك ما يصلح؟ شيء تحكم به؟ لقد أصبحتَ جثة نتنة. صفق بيديه المرتجفتين، وهو لا يصدق ما كان يسمعه. دخل قرة العين مسرعا وقد بدا على وجهه انزعاج مفتعل. كانت زوجة الملك معروف ما تزال تتمرغ من كثرة الضحك. رفع أصبعه عاليا، آمرا ابنه.

- اقطع رأس هذه الفاجرة. افعل ما فعلته مع فاطمة العرة، وسيكون سيفك المرصع، هو سيف العدالة والأمان وقاطع رقاب الخائنات.

زاد ضحك الزوجة الشابة التي تحفّظ المؤرخون عن ذكر اسمها. حتى شهرزاد لم تقله في روايتها المسالمة. كانت مدهشة في جمالها. التفتت إلى قرة العين، وفتحت الرباط الذي كانت تشد به غلالتها الشفافة التي نزلت حتى وصلت عند سرّتها. بان جسدها مصقولا ومتناسقا تحت الضوء الذي عمق انثناءاته المغرية، كانه تمثال يوناني لهلينا. ثم غمغمت في أذني قرة العين: حبيبي... واااااووو... روحي.... إنها فرصتك فرصتك اليوم وليس غدا. الليلة وليس غدا. لا تتردّد، فأنا لك بكلك وببعضك. ثم التفتت صوب الملك معروف وهي ما تزال تشد بيدها اليمنى على خصر قرة العين، وترفع يده اليسرى باتجاه نهديها النافرين، وتمررها على الحلمتين الموردتين.

- اقطع رقبته يا قرة العين. لقد ثقل علينا كثيرا، وأكل من شبابنا زمنا طويلا. كل ما فعلته لم يكن إلا من أجل هذه اللحظة يا ملك الزمان. وهل يقتل العشيق عشيقته حتى وإن كان الأمر من السُّلطان؟

التفتت نحو السلطان حتى أصبحت على بعد خطوة:

- قلتَ للناس إنك تزوجتني على سنة الله ورسوله، قلت لي إني أول امرأة تدخل حزنك وتسري في دمك. ويوم فاجأتك بقصة فاطمة العرة قلتَ مجرد حماقة قديمة. والآن تريد أن ينزل هذا السيف على رقبتي لتقضي بقية عمرك مع المحظيات اللواتي فشلت حتى في إسعادهن في الفراش. لقد أخطأتَ يا عمري في الزمان والمكان. يوم اختطفتني من عائلتي وطلبتَ من خادمك أن يغتصبني أمامك حتى يفتح لك طريقا في جسدي كنتَ عاجزا عن فعله، أقسمتُ أن أخونك مع أعز شخص لديك وأنتقم منك لي لكل من هلكتهم. من قال إن الحقد أعمى، لم يكن مخطئا يا ملك الزمن.

كان الدم قد انسحب كليا من وجه الملك معروف، وعلته صفرة غميقة، تشبه الصفرة التي تسبق الموت حين يهرب الدم كليا من الوجه.

- لا يا أفعى حماها الرسول من البرد وقسوة الشتاء، قرة العين تربيتي، لن يسقط في شراك الغواية.، لقد كبر في الدلال الملوكي.

أعطيته من عمري وشعبي. اقطع رأسها وبرّد لي خاطري نهائيا.

تقدم منه قرة العين، حتى أصبح قريبا من وجهه. كانت رائحة الملك معروف كريهة إذ جعلته المفاجأة يفرغ كل ما في بطنه دفعة واحدة في القصعة التي تحت الكرسي.

- سأنادي بعد قليل المنظّفة. يبدو أنك لم تستعمل الواقيات لتفادي الروائح الكريهة. هذه ليست حالة سلطان يا بابا حبيبي.

- خلّيني من الكلام الفارغ. برّد لي خاطري من عظام جهنم هذه.

- ألم تقل لي في ذلك الزمن البعيد إن سيفك عظيم يا ابني، ولكن ما نزلتَ به حربا ولا قطعتَ به رأسا. استعملتُه ضد فاطمة العرة، وها أنذا أقطع به رأسا أصبح يانعا وجاهزا للقطف.

ثم رفع يده عاليا فيها سيفه المرصع بالزمرد والأحجار الكريمة...

رفعت دنيا أيضا يدها عاليا. قبض عليها الحاكم بأمره الذي كان غارقا في هذه القصّة التي لم تروها شهرزاد لشهريار. لم يتمالك من الصراخ بأعلى صوته:

- أرجوك يا دنيازاد... لا تقتلي الملك معروف إنه من سلالة النبي. لا تقطعي رأسه أعطه لحظة واحدة. واحدة فقط ربما أعاد النظر في ماضيه كله قبل شهقته الأخيرة. ربما شهَّد ليموت ملسما على الأقل.

نزعت يده بهدوء. وضعتها على حجرها ليتحسس ما تخفى تحت انطاف لباسها الشفاف، عند مفترق ساقيها. كان العرق قد بدأ يملأ وجهه. الشجاعة التي بدت عليه في بداية الحكاية انسحبت نهائيا، مخلفة وراءها رجلا تائها.

- لا يا سيدي العظيم، لست أنا التي صنعت هذه النهاية، لقد صنعها هو لنفسه.

- أرجوك توقفي هنا، لم أعد قادرا على مواصلة هذه اللعبة الرديئة.

- تعبتَ؟ لم يبق الكثير على الهزيع الأخير الذي يهدأ فيه كل شيء نهائيا، كما في بدء الخليقة. تحمَّل قليلا وينتهي كل شيء، وينسحب بعدها كل واحد منا نحو شأنه.

- لا أعرف ماذا حدث لي، ولكنني لأول مرة أشعر بالإنهاك. ربما لم أتحمل أن يُقتل حاكم هو من سلالة الرسول.

- لا تشغل بالك حبيبي بهذا الأمر. كل الخلفاء ماتوا مقتولين بسيوف المسلمين. أنت تعرف جيدا ماذا حدث للخليفة الثالث؟ ثم... ألم يصنع والدك شجرة قادته حتى فاطمة الزهراء؟ الملك معروف من السلالة نفسها، قام بالشيء نفسه. لا تصدق يا طويل العمر كل ما تقرأه.

- خواتمك لا تنتهي بخير.

مد يده اليسرى تحت الغلالة الزرقاء الشفافة. شعر بعمق سرتها، ثم بنفور النهدين الجامحين. تركته لأول مرة يفعل ما يشاء. يفتش الزوايا السرية من جسدها. كانت في حالة وجوم وعيناها مرتشقتان في الفراغ. بينما زحلق الحاكم بأمره يده اليمنى بهدوء باتجاه الوسادة التي بدت فارغة من كل شيء. عمَّقها أكثر. فلم يجد شيئا. فجأة امتقع لونه، وكأن خيطا من الموت ملأ عينه. نزع الوسادة بعنف من تحت رأسها، فلم يجد شيئا. فهمت كل شيء. التفتت نحوه بعد أن خرجت من تيهها المفتعل، ونزلت من على السرير وهي تمدّ ذراعيها عرضا وطولا كمن يستيقظ من نومه.

- لا تشغل بالك يا ساكن قلبي وروحي. لم تجد السكين البوسعادي الحاد الذي يذبح من الجهتين؟ ألم أقل لك يا عمري، تصل دائما متأخرا بلحظة، هي الحاسمة في نهاية المطاف. لن تجده، هو عند غيرك يا مولاي.

ثم صفقت بيديها. فخرج من وراء الستائر الخشنة ابنها قمر الزمان ممتشقا سيفا مرصعا بالجواهر الحمراء والخضراء التي لمعت بقوة تحت ضوء اللمبة.

- هل تريد أن تعرف بقية الحكاية، أم أنك قرأت النهاية بنفسك؟

شعر الحاكم بأمره، فجأة بكل قواه تنهار، وبفشل كبير في كل أعضائه. ضاق تنفسه وبدأ يلهث من شدة الخوف. حتى تلك اللحظة لم يكن قد خسر كل أوراقه، أو هكذا بدا له على الأقل، وأنه سيكون هو

من يكتب نهاية الباخية وليست دنيازاد. التفت نحو قمر الزمان الذي وقف باستقامة، ولم يقل أية كلمة ولكنه ظل ينتظر أمرا يأتيه. تأمله من رأسه حتى قدميه.

- هذا أنت يا ابن القحبة. الكبوُّل. صنعتما لي نهاية مشتركة لتنفردا بالسلطان؟

- أتركه وشأنه حتى لا يقطع رأسك قبل الأوان. مسكين أنت يا سلطاني. الغباء بلية من بليات الحكم. كنتَ تريد أن تكون عالما، منحناك الفرصة، منظرا للنظام الجملكي، عقدنا لك الندوات العلمية لنظريتك الثالثة عن النظام الذي شمل مزايا الجمهورية ومزايا الملكية. شاعرا، وزمّرنا لعظمة صورك، روائيا، جلبنا لك كل نقاد بلاد المغرب والمشرق من التاريخيين والبنويين والسميائيين وقلنا لهم اضربوا على طبل الرفعة، فأعلوك في السماء العاشرة. لم تكن في ذلك كله إلا مغفّلا، أسوأ من الذين سبقوك.

- حسني ملافظك، لا تنسى أنك أمام الحاكم بأمره.

- انتهى كل شيء حبيبي. في اللحظة التي فكرتَ فيها في قتلي، كان كل شيء قد تحول بيننا إلى ضغينة. حتى المقابلة التليفزيونية التي بهدلتك أمام الرعية، نحن من صنعها لك يا طويل العمر ليكتمل المشهد. حقيقة أخرى لابد أن تعرفها وليلة الليالي تستعد للانسحاب ونحن معها. تأمّلْ قمر الزمان جيدا يا مولاي. هل عيناه خضراوان يا طويل العمر؟ هل ترى شبها ما بينه وبين شخص آخر؟

- في ألف داهية أنت وقمر الزمان ديالك. واش يهمني فيه.

- لا يا عمري، هذا الموضوع الذي أرّقك طويلا. سائحك المولع بصور القصور الذي بعثته لي ليجامعني، كان مختوما بفراغ في حجره. عبدك الذي اشتهاني من وراء الستائر، قتلته ثم رميته طعما للأسود. خفتُ أن يفضحني سواد بشرة ابني. إنه ابن مؤرخك يا طويل العمر. قمر الزمان هو ابن الوراق الذي دون كل أكاذيبك يوما بيوم، وحتى نهايتي التي صنعتها لي في حادث المروحية.

ثم صفَّقت بيديها، فدخل المؤرخ من وراء الستائر، تحت دهشة الحاكم بأمره. لم يصدّق عينيه. هزّ رأسه ليتأكّد للحظة بأنها مجرد لمعات سوداء من كابوس هارب. قالت دنيا كمن يشرف على اللمسات الأخيرة لمسرحية مأساوية.

- أيها المؤرخ هل دبَّجت النهاية كما رويتُها لك؟

- نعم يا مولاتي وحبيبتي.

قال المؤرخ وهو يحني رأسه حتى كاد أن يلمس به الأرض.

كان الحاكم بأمره فاغر الفم، لا يصدق ما كان يدور أمام عينيه، كأنه في كابوس. يتأمل تارة وجه قمر الزمن، وتارة أخرى وجه المؤرخ. كيف غاب عنه هذا الشبه؟ الشفتان الغليظتان، الجبهة البارزة، تقاطعات تكاد تكون واحدة في ملامح الوجه، والأنف، والشعر الأشعث. وحتى القامة الفارعة. الغمازتان التي تفصلان الفكين على مستوى الذّقن.

«- ابن الكاااااالب كل الملامح تقود نحوه. هو ولا أحد غيره» تمتم الحاكم بأمره بألم وخيبة. هكذا إذن قضّتْ معه كل لياليها الخاليات؟ أفعى... »

لم يجد لغته التي خانته. تمنى في لحظة من اللحظات أن يصرخ كالذئب بأعلى صوته، لكن الزمن كان كان يركض بسرعة تجاوزت قدرته على التفكير. راوده أمل أخير. أصدقاؤه الشماليون لم يقولوا بعد كلمتهم الأخيرة. ربما كانوا هم من يضع نهاية لهذه المهزلة. التفت نحو المؤرخ يريد أن يعرف حقيقة ما كان يحرق قلبه.

- وأنت يا ابن الزانية، ماذا فعلتُ لك؟ منحتُك ثقة كتابة حياتي وسيرتي. وضعتُ بين أصابعك الخائنة كل تاريخ الجملكية؟ لماذا خنتني؟ لماذا غيَّرتَ النهايات؟

- لا يا سيدي أنا لم أغير شيئا. الأسماء فقط هي التي تبدلت، هذا كل ما في الأمر. ثم يجب أن تعرف أن دنيا هي زوجتي على سنة الله ورسوله وأن قمر الزمان ابني وحبيبي، ربّيته على خبائث الملك، فهو يعرفها جيدا.

قالت دنيا وهي تقترب من الحاكم بأمره أكثر فأكثر.

- طمّئنه حبيبي، لا تتركه معلقا. اسمعه النهاية أو الصيغة التي اشتهاها هو بنفسه، ربما يكون قد نسيَ ما أملاه عليك.

بدأ ورّاق الأمة تلاوة المكتوب. بعد أن مسح شفتيه ووجهه، بظاهرة يده اليسرى، ورشف رشفة عميقة من كأس ماء الزهر، واضعا القلم بين أصابعه، محترما كل طقوس الكتابة.

«- مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخرِجُكُمْ تَارَةً أُخرَى[٩٣]. صدق الله العظيم. في السنة العجفاء التي سقطت فيها ملامح الناس بعد أن باعوا وجوههم للشيطان بأرخص الأثمان. في السنة الصعبة التي خاب فيها ظن الحاكم بأمره في الرعية. في آخر نفس من ليلة الليالي التي ذُكرت في كتب الأولين والتابعين من أصحاب العلم واليقين، حدث هذا. تُوُفّي صاحب المقام العالي والإيمان الزاهد في الحياة، الحاكم بأمره، حكيم أهل زمانه المفدّى، صاحب الشأن الذي لا يضاهي، في حادث تحطم المروحية التي كان على متنها أثناء طلعته اليومية لتفقد حال الرعية. في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمرّ بها الجملكية، سيتمُّ تنكيس علم آرابيا القزحي مائة يوم ويوم، ويُعوّض بخرقة سوداء. رحم الله شهداء الأمة وتغمدهم بواسع رحمته، وأسكنهم فسيح جنانه.»

- كما ترى يا مولاي لم نغير شيئا، سوى بعض الشكليات الخاصة باللغة والمقام، لا أكثر. لقد احترمنا أمنيتك الطيبة. ورفعنا الحداد إلى مائة يوم ويوم.

زاد تعبه. يقينه الذي بدأ يضعف في احتمال تدخل أصدقائه الشماليين. قرأت دنيا انشغاله في عينيه. صفّقت من جديد، فدخل الشماليون في خط مستقيم، مدججين بالأسلحة الأتوماتيكية. أشرقت لمعة صغيرة في عينيه للحظات قبل أن تنطفئ وينطفيء معها أي أمل في النجاة. أراد أن يصرخ. قال بكلمات بدت متقطّعة ومنكسرة.

---

(٩٣) سورة طه، آية ٥٥.

- أنتم أعرف وأنبل. وفاؤكم ليس للأفراد ولكن للمصالح. ضمنت لكم قرنا من استغلال آبار النفط والغاز بأثمان زهيدة تتجاوز بقليل فقط أسعار التكلفة. أعجبتكم الفكرة وقلتُم نوقّع العقود غدا. ولم تبق على الغد إلا ساعات قلائل. مصالحكم قبل كل شيء. هؤلاء رعاع لا يعرفون شيئا عن حركة أسواق النفط والعملات.

لم يسمع شيئا منهم. انكسر نهائيا حينما وقف الشماليون بين دنيازاد وابنها قمر الزمان. وحينما تيقّن من نهايته الوشيكة، طلب منهم أن يتركوه حتى الصباح إذْ لم تبق إلا ساعات قلائل على بدء النهار. لم يتكلموا أشروا فقط برؤوسهم أن لا. تدخّلت دنيا. كان وجهها صارما.

- كل شيء انتهى يا جليل القدر. التليفزيون سيفتح مع الفجر على غير عادته. وسيقرأ ابنك، وولي عهدك تأبينك. وسينصبه وزير دفاعك الجديد ملكا رسميا على البلاد. هل تريد سماع بيان التنصيب يا جليل القدر؟

- لا. لا. هذا كابوس قاتل. ربما تكون الكأس التي تخطّيت عتباتها التقليدية هي التي لعبتْ برأسي؟ لا يمكن. . .

- يا روحي، أنت في عزّ نباهتك ووعيك. اسمع بيان التنصيب لا شيء تُرِك للصّدفة. الأعمال الكبيرة يجب أن تكون متقنة ولا تشكو من أية نقيصة.

نهض الوراق، مؤرّخ الجملكية من جديد من مكانه، وكان قد نزع ألبسته التقليدية وارتدى لباسا عسكريا مبرزا رتبة جنرال على صدره وعلى كتفيه. فتح الورقة الطويلة وبدأ في تلاوة بيان التنصيب.

«وزير الدفاع في المملكة الفتية يحدثكم. تحت وطأة الظروف الأليمة التي حلت بالبلاد، تضطر الجملكية إلى العودة إلى تاريخها القديم: النظام الملكي الدستوري، العادل والمتجدد، حفاظا على تراث الأمة وتاريخها وأصالتها وحق الشعب في الحكم والعدالة الاجتماعية. وسيُنصّب الابن الشرعي للحاكم بأمره، قمر الزمان، جليل

القدر ملكا دستوريا على البلاد وماريشالا، للبلاء الحسن الذي أبلاه في مقاومة أعداء الأمة من الخارج الذين طمعوا في أراضيها وخيراتها. »

شعر الحاكم بأمره بالحيطان وبكل الأشياء المحيطة به تتسابق لخنقه وتضيق على جسده المنهك. كاد أن يسقط. فجأة تذكر مَثَلا صِينيا قديما: التماثيل عندما تنحنى تنكسر. صمّم في أعماقه أن يظل واقفا ومستقيما. في تلك اللحظة لم يتذكر شيئا إلا وجه بشير إلمورّو وهو لا يدري في عمقه لماذا بالضبط هو وليس غيره.

كان الزمن يمر بسرعة. رأى وجوها مظلمة تأتيه من كل الجهات. حينما رأى الفتحة الأخيرة التي أحدثتها القذيفة التي شقت حائطا خارجيا من القصر، ركض باتجاهها مغمض العينين وهو يتمنّى عندما يفتحهما أن يجد كل شيء قد انتهى. مجرد كابوس عابر. في ركضه المستميت باتجاه الفجوة، وقبل أن يفتح عينيه، اصطدم بالكفان العريض مثل حائط حجري. قبل أن يدفعه ليخلي له الطريق باتجاه الفجوة التي كانت النار ما تزال تشتعل فيها، كان الكفان قد أدخل نصله الطويل في صدره حتى تكسرت شفرة الرأس على الحائط المقابل. ثم سحب السيف بقوة وبسرعة، وأعاد دفنه من جديد في الجهة السفلى من بطنه. ارتشقت عينا الحاكم بأمره في وجه الكفَّان طويلا متشبثا في لباسه الفضفاض بكل قوة، قبل أن يفيض الدم في فمه وينزل على طرفي شفتيه اليابستين.

سقط على ركبتيه. سمع صوتا يأتي من بعيد مختلطا بصوت دنيا:

- لا تكلف نفسك يا مولاي وحبيبي بأن تسألني مرة أخرى، هل قرأتِ رسالة نائلة التي وجهتها لمعاوية بن أبي سفيان؟ حتى لا تأخذها في قلبك مثل الجمرة، لم أقرأها فقط ولكني حفظتُها.

أغمض عينيه. وصله صوت نائلة ناعما وشهيا وهي تقرأ رسالتها:

« - أما بعد، فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة. وأنقذكم من الكفر. ونصركم على العدو. وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق

خليفته أن تنصروه بعزم اللَّه عليكم فإنه قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فإن أمير المؤمنين بُغي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام، وحسن بلائه، وأنه أجاب اللَّه وصدق كتابه، واتبع رسوله، واللَّه أعلم به، إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة! وإني أقص عليكم خبره. إني شاهدة أمره كله. إن أهل المدينة حصروه في داره، وحرسوه ليلهم ونهارهم، قيامًا على أبوابه بالسلاح يمنعونه من كل شيء قدروا عليه حتى منعوه الماء، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير فأمروهم بقتله. وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب. فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه. ثم إنه حصر، فرشق بالنبل، فجرح ممن كان في الدار ثلاثة نفر. فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم فردوها عليهم. فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة وفي الأمر إلا إغراقًا فحرقوا باب الدار. ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا: إن ناسًا يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل فأخرج إلى المسجد يأتوك فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطلة عليه من كل ناحية. فقال: ما أرى اليوم أحدًا يعدل. فدخل الدار وكان معهم نفر ليس على عامتهم سلاح. فلبس درعه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعي. فوثب عليه القوم فكلَّمهم ابن الزبير وأخذ عليهم ميثاقًا في صحيفة بعث بها إلى عثمان. عليكم عهد اللَّه وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلّموه وتخرجوا. فوضع السلاح، ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر. فأخذ بلحيته ودعوا باللقب. فقال: أنا عبد اللَّه وخليفته عثمان فضربوه على رأسه ثلاث ضربات، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم، فسقطت عليه، قد أثخنوه وبه حياة، وهم يريدون أن يقطعوا

رأسه فيذهبوا به فأتتني ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي فوطئنا وطئًا شديدًا عُرّينا من حلينا وحرمة أمير المؤمنين أعظم. فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهورًا على فراشه. وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه فإنه واللّه إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله. فانظروا أين أنتم من اللّه، وأنا أشتكي كل ما مسنا إلى اللّه عز وجل وأستصرخ بصالحي عباده. فرحم اللّه عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة وشفى منهم الصدور.»

عندما رفع الحاكم بأمره رأسه، لم ير دنيا، ولكنه رأى نائلة حاملة سيفا لمع بقوة في عينيه. لم يستطع التحمّل:

- حتى أنت يا نااااائلة؟

- أنا دنيازاد يا طويل العمر. دنيا فقط.

حاول أن يرى الله للمرة الأخيرة، ولكنه لم يلمح إلا سقف القصر الذي بدأ ينزل شيئا فشيئا على رأسه. تقدّم منه أصدقاؤه الشماليون. أخرجوا مسدساتهم. ضبطوها جيدا عند رأسه. نظر إليهم ككلب مجروح في لحظاته الأخيرة. تمتم بيأس للمرة الأخيرة.

- أبناء الكلبة.

ثم أغمض عينيه. أعقب ذلك أربع زخات رصاص ارتسمت على أثرها، على الحائط الأبيض المقابل أشكال سريالية من الدم. لم ينته. أحنى رأسه أو ما تبقى منه نحو الأرض. أراد أن يستغفر الله للمرة الأخيرة، ولكنه لم ير إلا الزليج الملون المليء بالدماء التي تحوّلت بسرعة إلى بركه. حاول أن يرفع رأسه لكن الدنيا أظلمت في عينيه. تذكّر الكلمات الأخيرة التي قالها بشير المورّو: **لا أنا أستطيع فعل شيء من أجلك وأنت لا تستطيع فعل الشيء نفسه من أجلي.** قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة والنهائية على حمرة الدم، وعلى قهقهات الوجوه التي كانت تقف على رأسه، وعلى ظلام الآخرة واليوم الآخر، كان قمر الزمان، بسرعة برقية يسميها ضربة الساموراي، قد قطع رأسه ورماه بعيدا داخل القاعة الواسعة.

عدل الورّاق من هندامه العسكري. انسحب الأصدقاء الشماليون إلى مواقعهم لمراقبة العمليات العسكرية. ولبس قمر الزمان لباسه العسكري المرقَّط، ووضع على إليته اليمنى مسدسا. طلب من والده، ورّاق الأمة، الذي أصبح وزيرا للدفاع، أن يساعده على تعليق الأوسمة، ويضع على صدره وكتفيه رتبه الماريشال، وينمِّقه بميداليات الانتصارات في الحروب الوهمية التي اشترك فيها لحماية أمن الدولة من الغدوين التقليديين: الداخلي والخارجي.

في الليلة نفسها جُمعتْ أشلاء الجثة في كيس بلاستيكي أسود، ثم في سلّة قصبية قديمة بعدما ضُمَّ إليها الرأس الذي ظل للحظات ينزف في الزاوية الخلفية، ويتحرك من تلقاء نفسه. ثم رُمِيَ الكلّ في سرداب الأسود الموجود، منذ الجد الأول، في أحد الدهاليز الأرضية، تحت القصر. وَوُضِع داخل التابوت جسد إحدى المحظيات، ضُبطت تتأمل مشهد القتل بالصدفة، من وراء الستائر. كُتِبَ على جانبه الأيمن، داخل مستطيل مذهب، بخط أندلسي جميل:

يَا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مرضيةً[٩٤].

هنا ينام ملك زمانه، حاكم، جملكية آرابيا: جليل القدر،
الحاكم بأمره. عالم أهل زمانه وباني عزته، الذي استشهد في
حادث طائرة مروحية مؤلم.
تَغمّد الله الفقيد برحمته، وأسكنه فسيح جنانه.
إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٩٤) سورة الفجر، الآيتان ٢٧-٢٨.

الفصل السادس عشر

أيَّامُ الشدّة الكُبْرى

كأنّ الشمس تأخّرت قليلا عن موعد إشراقها. كانت تصعد بهدوء وراء الجبل البركاني أو الجبل الأقرع، الذي فشلت كل تكنولوجيا العالم في تحويله إلى جبل أخضر. لا شيء يسمع في هذا القلق الغامض، لا عصافير، لا بشر في الشوارع، ولا حتى خشخشة الأشجار العملاقة المتعانقة كأجساد ماتت واقفة. لا شيء سوى صرير الرافعات العملاقة التي أسود صدأها وهي ترفع السبائك الحديدية الثقيلة، وأصوات الآليات الضخمة تملأ المكان وهي تحاول أن تخترق طريقا أو ممرا داخل ركامات البنايات التي هُدّت تحت قصف طائرات الحلفاء القادمة من القاعدة الأمريكية القريبة، ومدافع، مشاة القصر الجملكي.

شيئا فشيئا بدأت علامات الصباح تتَّضح أكثر، وحركة الناس تكثر. سيارات الإسعاف، كانت تشق ميدان التحرير بعد أن حُرّرت الكثير من الطرقات من ردم البيوت المنهارة، مسرعة نحو مستشفيات المدينة. زادت الحركة بشكل متواتر من خلال الجنازات التي كانت تسير باتجاه المقبرة التي تقع في أحد مرتفعات المدينة. يظهر الناس مجموعات مجموعات بينها مسافات واضحة، خوفا من قذائف المورتر المفاجئة. حتى المظاهر العسكرية قلَّت نسبيا. على وجوه البعض الكثير من الفرح، بينما ترتسم على ملامح البعض الآخر، علامات التيه، والانكسارات التي تخترق ببروده الوجوه المتعبة من قلة النوم. الكثير من التمتمات هنا وهناك تترك المار بالصدفة على جوعه لأنه لا يفهم منها الشيء الكثير. باستثناء جملة واحدة لم تعد سرّا على أحد بعد خطاب التأبين الذي أذيع في القناة

الوطنية الأولى وتَلقَّفته القنوات الأخرى. كل الناس يؤكّدون على أن الحكيم مات في حادث سقوط مروحيته. إلى الحجيم، يرد الثاني. ماذا خسرنا؟ يعلّق ثالث على كلام صاحبه. يا خويا يزّي من الضغينة. الروح عزيزة. يقولون إنه لم يمت بالطريقة التي أذيعت رسميا ولكنه شَوى نفسه حيا عندما خابتْ كل حلوله. يضحك صاحبه. الانتحار حرقا يا حبيبي يحتاج إلى شجاعة استثنائية. إلى يأس عظيم من الحياة كلّها ثم إدانتها بمنح الجسد الذي عذّبته طويلا إلى اللهب المقدس؟

كانت الحرائق التي نشبت في الكثير من المراكز الوطنية كالبنك المركزي بكل فروعه الذي اشتعلت فيه النيران، فذابت كل قطع الذهب، كما يروي ذلك الكثيرون الذين ظلوا معلقين على الشاشات الوطنية والإذاعات المحلية، وسال مثل الوديان. حتى البلديات لم تسلم والولايات والأفران، والسوق الكبيرة، من الحرق كأن قنابل النّابالم أتت على كل شيء فيها. ما تزال ألسنة اللهب تتعالى على الرغم من جهود المطافئ.

علامات التّعب تثقل كل العيون من قلة النوم. فقد صمّ الرصاص ليلة البارحة، كل الآذان وطرَّشها بعد أن جرحتها الانفجارات المتتالية. الكثير من السكان باتوا تحت الصّخور المقاومة، أو داخل الأنفاق الممتدة بين القلعة والبحر، التي شيّدها عمّال البحر وعلماء المدينة. أو بكل بساطة ناموا على حافة البحر، بمحاذاة الحائط الحامي من ضربات الحاكم بأمره. يقسم البعض برأس كل الأولياء الصالحين، ورجال الحضرة، ورجال البلاد ومولى الساعة، أنهم رأوا سيدنا الخضر متنكرا في جلباب صوفي قديم كالذي كان يلبسه رجال محاكم التفتيش المقدس، يجوب المدينة وفي يده مسدس أتوماتيكي ثقيل من نوع ماغنوم(٩٥) وأدوات التعذيب المتنوعة من أسلاك كهربائية وكلاليب، ومقصّات آلية دقيقة وحادة، وغيرها. يطلق النار على كل من يصادفه في

---

(٩٥) Magnum.

مسالكه التي كان يعرف جيدا كل اتجاهاتها ومؤدياتها ويمزّقه. من بين الذين اغتالهم ببرودة دم، برّاحا كان يجوب الشوارع الخلفية المظلمة ليقنع الناس بضرورة الخروج إلى ساحة التحرير والشهداء والجوهرة التي حُطّمت كل رموزها، وغيرها من الساحات. لم يسأله لا عن اسمه ولا عن مهنته. وضع الماغنوم في ناظره الأيسر ثم ضغط على الزناد، فتفجر الدماغ إلى قطع صغيرة مدماة، مختلطة بمخّ الضحية. مسح وجهه من الدم. تأمل الورقة التي كانت بين يديه التي عليها قائمة المرشحين للموت، ثم واصل صعوده نحو أعالي الحي حيث كان يُسمع من بعيد صوت قوّال كان يصل بوضوح إلى الآذان.

«يا السّامعين، ياناس آرابيا المجيدة، ما تسمعوا إلا سمع الخير. الماريحا جات وعلاتْ، رفدت في طريقها الحيّ واللي ماتْ. عام الجوع راح، والزمان اللي كان فاتْ. القصر اللي كان عالي طاح. والطير المحبوس طاز وعلّى. يا السامعين، ما تسمعوا إلا سمع الخير...»

في صوته حنين يشبه الآذان يختلط من حين لآخر بانفجار جاف في مكان ما، أو بسلسلة من الزعاريد الحادة. في كل مرة تزيد قوته يتردّد في أرجاء المدينة كلّها. يتوقف الناس قليلا. تشرئب الأعناق للحظات قبل أن يصعدوا في شكل مجموعات مجموعات صغيرة، صوب مصدر الصوت، متسلقين المرتفعات العالية، عبر الدروج الملتوية التي شيِّدت في الفترة الاستعمارية الأولى. هذه الحركة الخجولة شجّعت بعض النساء على الخروج وراء أغنامهن ودوابهن، أو الصراخ من أعلى الشرفات القديمة المطلة على الشوارع، وألسنة اللهب المتصاعدة من هنا وهناك: الله ينصر الحق الله ينصر الحق. ويرفعن العلم الوطني القديم الذي سرقه الحاكم بأمره وعوضه بخرقة بيضاء، يخترقها في وسطها قوس قزح. العلم هو لباس النظام، وكان قوس قزح هو لباس الجملكية الواعدة كما كان يقول دائما الحاكم بأمره في خطاباته الوطنية الكثيرة التي تحوّلت إلى موضوع للدراسات العالمية التي كانت مدفوعة الثمن سلفا من طرف المصالح المالية للجملكية.

أشياء كثيرة رُوِيت عن ليلة الفصل، ليلة الليالي.

هذه الصيغة المتداولة من الحكاية رُويت مباشرة بعد سقوط قصر عزيزة. لكن الحقيقة كما روتها ماريوشا تكاد تكون مختلفة. فعندما انهار القصر بعد أن اخترقته الكثير من القذائف الآتية من البحر والقلعة، في اللحظة التي كان فيها التليفيزيون الوطني يبث فجرا الخبر المفجع، ويُعلن عن موت الحاكم بأمره، ويقرأ بيان تنصيب الماريشال قمر الزمان، ملكا للبلاد. في شريط وثائقي بُثَّ بالمناسبة، ظهر الماريشال الجديد، قمر الزمان، جليل القدر، في عمق نيران معارك آرابيا الكبرى، معركة الثورة العربية ١٩١٨، معركة ١٩٤٨، معركة ١٩٦٧، ثم قائدا انقلابيا تصحيحيا في ١٩٦٥، ثم طيارا حربيا متمرسا في معارك ١٩٧٣، وأخيرا شابا حيويا من شباب الأنترنت والفيس بوك والتويترز، في ثورة ربيع آرابيا التي غيَّرت الكثير من اليقينيات المبهمة في ٢٠١١. كان عشرات المواطنين، كما أظهرهم الشريط في القنوات الوطنية، يقسمون أنهم رأوا الماريشال في ساحة وزارة الداخلية، ساحة التحرير، ساحة الثورة، ساحة الجوهرة، ساحة الشهداء، وغيرها. كما يشهد آخرون أنهم رأوه يرفع الهمم ويسحب الناس وراءه من أجل التغيير والثورة ضدّ مظالم الدكتاتوريات العربية، وتشييد مملكة دستورية عادلة. السنّ لم يكن مهمّا أبدا. العبرة في استيعاب الميراث الذي تفخر به الأمة. ثم أظهره التليفيزيون في مكتبه البيضاوي يتَّصل بالتليفون الأحمر بكل الأمم ليخبرها بالتغيير الجلل الذي حدث في البلاد. كل المكالمات كانت واضحة. تبارك له الإصلاحات الجرئية، وتترحَّم على فقيد آرابيا الذي قدم ما عليه لأمّته.

وكان من بين القرارات المستعجلة التي اتّخذها الماريشال قمر الزمان هي إفراغ السجون من المعتقلين السياسيين. كان بشير إلمورّو على رأسهم. الأوهام في هذه النقطة كانت قليلة. كل المقربين كانوا يعرفون جيدا أن ذاكرة بشير إلمورّو تكون قد ضاعت ولا شي ينقذها من التلف. حتى التجارب التي أجراها العلماء في مخابرهم ومخابر الدول الصديقة من خلال العيّنات التي جاءت بها ماريوشا، لم تأتِ بشيء

جديد. الأقراص البرتقالية والصفراء المسمومة، وضربات السطل الألماني الذي كان يوضع على رأسه، ثم يضرب عليه بكل قوة بمطرقة ثقيلة حتى يسيل الدم من أنفه وفمه وأذنيه، دمَّرت الكثير من الخلايا الدماغية التي يصعب رتقها. كان بشير إلمورّو يعرف كل شيء عندما أوصى ماريوشا بالاهتمام الفائق بسيدي عبد الرحمن المجذوب وإعادته إلى البحر، والقلعة والمدينة، وإلي الناس الذين أحبوه، والاستماع إلى كل حكاياته، قبل أن يموت بفعل السموم المتواصلة التي كانت توضع في أكله وشربه وهو في الحديقة.

لم تبق لبشير إلمورّو، تقول ماريوشا، إلا بعض الإشارات المرئية والداخلية التي كانت تقوده في المسالك التي اشتهى عبورها. علّمته الموجة المكسورة على الشطّ المهجور كيف يكبر ويلتحم مع ذاته. وعلّمه السطل الألماني كيف يتذكّر الحنين ويعود إلى البعد البعيد، ولو تلاشى وانتهى هناك. علّمه البحر والسفن الضخمة والأرمادات وسفر الليالي، كيف يشدو أناشيد الموجة الهاربة التي تكسرت عند حائط البحر القديم. علمه الحنين كيف يموت في حضرة من يحب، لأنهم الحق.

على الرغم من الأدخنة المتعالية حتى السماء كان الصمت والهدوء هو السمة الطاغية على المدينة والترقب والجنازات المرتسمة في كل الأمكنة. كيف مرّ كل شيء بسرعة؟ من كان يقول إن طاغية عاش قرونا متتالية في قمة سلطانه وظلمه، يسقط من الضربة الأولى، ويستسلم للهزات الصاعقة؟ هل جوهر كل طاغية، نمر من ورق؟ من كان يقول إن هذا قصر عزيزة الذي دارت فيه كل مكائد الدنيا، سيتحوّل في جزئه الشرقي إلى رماد، وفي جانبه العلوي والغربي إلى مرتع للغربان والصقور والجوارح الثقيلة. حتى أن هناك من يقول إنه شاهد النسر الملكي والكوندور وبوعميرة يرقصون فوق أسطح القصر المبعوجة جراء الضربات المتواترة للمدفعية المقاومة.

كل شيء بدأ عندما صمم العلماء والعمال والفرق الشعبية الانتحارية التي نشأت بالمناسبة لإضعاف النظام بتصيد قادته ومسؤوليه، القيام

بالهجوم الأخير على القصر الذي كانت الضربات المتتالية قد أنهكته.

كان قصر عزيزة في اللحظة نفسها ما يزال غارقا في الرد على التهاني الدولية والإعلان عن الإصلاحات الجذرية والعودة إلى الملكية لكن هذه المرة، الملكية الدستورية استجابة لطلب الشعب. يقول بعض من وصلت أصواتهم من عمق القصر، إنه على الرغم من نصائح الأصدقاء الشماليين، بضرورة ترك كل شيء والمغادرة إلا أنه أصر على البقاء. لأنّ الوضع كان يتّجه نحو الغرق النهائي. قال والزبد يتطاير من فمه الجاف:

- سأبقى. لن أترك أرض أجدادي للرّعاع. هنا يموت قاسي. الماريشال ليس هو الحاكم بأمره، ولا حتى شهريار؟ ليسمُّوني هتلر، موسوليني، سوموزا، الخميني، صدام حسين، الزرقاوي، ابن لادن، إذا شاءوا، ولكنني سأبيدهم حيا حيا، بيتا، بيتا، دارا دارا، زنقة، زنقة. سأشعل فيهم النار أحياء، وفي أحيائهم ولن ينجو من غضبي لا امرأة ولا رجل ولا حتى طفل ولا شيخ، لا مريض ولا معافى. ليس دائما من يبدأ الحرب هو من ينهيها، بل في الأغلب الأعم أن من يبدأها، هو أول من يغرق في نارها.

ثم أعطى الأوامر الصارمة لقصف كل الأحياء الشعبية، بالمدفعية والطيران والسفن الحربية. تدمير كل الساحات العامة، التحرير، الثورة، الجوهرة، وبالخصوص ساحة الشهداء التي انطلقت منها الشرارة الأولى للجنون المعمّم. وأمر أيضا بالسحل في الشوارع، لكل من تُشمُّ فيه رائحة الثورة، وإعطاء درس لكل من تسول له نفسه الإخلال بالنظام العام. لكن الزمن كان قد توقف منذ اللحظات الأولى من فجر ليلة الليالي التي توقفت فيها كل الساعات في وقت واحد. التململ الذي ظهر في الجيش لم يرُق له. أصدر سلسلة ممن الأحكام الصارمة تخلّص من خلالها من كل الجنرالات الذين لم يكونوا راضين بتوليه منصب الحاكم المطلق. كانت تهمة الخيانة الوطنية كافية لتدفع بالناس ليبصقوا عليهم. بينما كان هو في شدة ثقته بنفسه:

«- أولاد الحرام، من يلعب في ساحة الماريشال لم يُولد بعد؟ سأبوّلهم الدم ولن يفلتوا مني. أصبحوا كالذئاب المشردة، كل واحد يبحث عن سلامة رأسه.»

لكن هذه القرارات والأحكام لم تعط ما كان يتوقعه. بل عقدت الوضع أكثر. فقد انضمت فيالق بكاملها من جيوشه، إلى المقاومة الشعبية، فسرعت في الانهيار النهائي للنظام من الداخل.

كانت الأدخنة تتصاعد من كل جوانب القصر الذي اخترقته القذائف من كل الجهات. لم يدرك الماريشال كارثة الوضع إلا عندما رأى الغربان والجوارح تحوم فوق القصر جماعات جماعات، لم تثنها لا القذائف ولا الأدخنة المتصاعدة من هنا وهناك، ولا صراخ العساكر والضباط. لاحظ أن الحمامات القليلة وطيور السنونو التي كانت تحتل أسقف القصر ناحية الحديقة، وتعود في كل مساء لتنام هناك، تعلن عن وجودها بخربشاتها على قرميد الأسطح. هي بدورها هجرت المكان نهائيا. أصبحت أعشاشها خالية من أية حياة. بعضها، من شدة الخوف، أصبحت تبحث عن مخابئها في ثقوب الحيطان التي كانت تخلّفها القذائف المتواترة.

لم يعرف الناس بسقوط الإذاعة والتليفزيون إلا عندما انقطع البث للحظات قبل أن يُعوض البرنامج التليفزيوني والإذاعي التقليدي، بالأناشيد الوطنية والإذاعية التي ألّفها بشير إلمورّو بعد أن اختطفها من زرقة بحر ألميريا وأشواق الغربة وحزن الذاكرة المنسية.

كان عمي الطاووس بجنونه وتهوره، هو أول من دخل سراديب القصر، وأول من عثر على جثث النساء الممزقة في غرفة باردة مليئة برائحة الفورمول، كان الحاكم بأمره يسميها الدار الباردة. هناك، في خلوته الغريبة، يمارس حقده ضد دنيازاد، مع أجساد محظيات مخنوقات وممددات على أسرة وثيرة. كل يومين يؤتى بأخريات ويتم رمي القديمات طعما للأسود. رائحة الفورمول كانت قوية تدمع العيون.

كان العلماء السبعة يمشون داخل الأجنحة الشمالية لقصر غزيزة بصحبة الفرقة الانتحارية الأولى، بينما بقي عمال البحر يحوّطون المكان

في شكل دائري واسع لتأمينه. كانت تُسمع من حين لآخر رشقات من الرصاص آتيه من الأنفاق المختلفة.

سيدي عبد الرحمن المجذوب، نسي أو تناسى الأوامر التي أعطيت له بضرورة الحفاظ على نفسه، لمَّ حوائجه بسرعة وختم الحلقة. قال للحضور انتظروني، كانوا يعرفون البقية. ثم انزلق وراء عمال البحر داخل المخاطر. عندما نبهته ماريوشا بعدم التهوّر. نهرها.

«- حياتي وأنا مولاها؟ لأي شيء يصلح هذا العمر إذا خسرت هذا الموعد؟ لا تبقي هنا في القصر، عليكِ ان تذهبي أنت والفرقة الانتحارية السابعة لإخراج بشير إلمورّو. يا ويلهم إذا كانوا قد آذوه، سأحرق القصر وسكانه.»

أرادت أن تقول له وهل بقي في قصر عزيزة شيء لم يحرق؟ لكن المزحة بدت لها غليظة وغير مقبولة.، ثم انزلقتْ مع عمي الطاووس ابن أمه برفقة فرقتها من الانتحاريين، باتجاه سجن السراديب. كانت تعرف جيدا مكان بشير إلمورّو، ولم تكن في حاجة إلى من يقودها أو يوجهها في ظلمة الغبار والأدخنة ورائحة البارود ونعيق الغربان.

الفرقة الانتحارية السابعة التي كانت تقودها ماريوشا وعمي الطاووس ابن أمه، توغّلت بسرعة في المسالك المؤدية إلى سجن السراديب الذي كان مغلقا بعد أن كُهربت أسلاكه. في اللحظة التي كانوا يستعدون فيها لتفجير البوابة الثقيلة، فتح المدير والحراس الذين رأوا ماريوشا، رافعين أعلاما بيضاء، أنزلتها ماريوشا بعد أن عرفت المدير من بينهم. قالت له.

- لا نحتاج لأعلامكم. نحتاج لكم أنتم. شغّلوا المصاعد، نريد أن ننزل للأنفاق والدهاليز حيث بشير إلمورّو.

- أنا آخذكم إذا سمح لي سيدي المدير.

قال الشاب الذي تعرفت عليه ماريوشا بسرعة. شاب الشيراتون الذي كان مشرفا على خدمة بشير. هز المدير رأسه بالموافقة. لأوّل لم تسمع صرير المصاعد الصدئة وقد بدا لها الوقت طويلا أكثر مما تعودت

عليه. ركضت هي ومدير السجن بسرعة، متبوعين بالبقية، قبل أن يصلوا إلى المدخل الذي فتحه الحارس بأمر من مديره. عندما رآهم. لم يعرف في البداية ماريوشا في لباسها العسكري. ولا حتى عمي الطاووس ابن أمه. قام مذعورا مثل محكوم عليه بالإعدام فوجئ بمرور الوقت قبل أن يشبع من حلمه الأخير. تأمل أفراد الفرقة الانتحارية الذين كانوا يحيطون به. بدا يتفرس الوجوه. عيناه كانتا فارغتين. فجأة ثبتهما على وجه ماريوشا. لم يتمالك من السؤال بحيرة. اقترب من ماريوشا. تلمس وجهها كالذي فقد بصره. شمها كمن يشم فاكهة نادرة. ثم تمتم وهو غير متيقن بشفتين متعبتين:

- يوووشا؟ لابد أن تكوني يوشا.

- أنا يوشا حبيبي بشير. كل شيء انتهى. لا خوف عليك عمري. عندما نخرج من هنا سأحكي لك عن كل التفاصيل. هذا مدير السجن. الحراس. كلهم التحقوا بمجموعة التغيير.

كان المدير منكس الرأس. لم يستطع أن يرفع عينيه في وجه بشير.

- الحمد لله على السلامة يا سيدي بشير إلمورّو.

سحبته من يده باتجاه عمي الطاووس الذي لم يستطع أن يكتم غيظه مما حل ببشير إلمورّو. شعر بشجن عميق ورغبة لا تقاوم في البكاء والعواء معا.

- أنا يا بشير أخوك الطاووس ابن أمه. كل كلامك كان حقيقيا وصحيحا. الناس الذين معنا هم الفرقة الانتحارية السابعة. نحن هنا من أجلك.

مد له ذراعيه وعانقه بحرارة بدون أن يدري هل عرفه أم لا. أضاف وهو يحاول أن لا يبدي أي تأثر حتى لا يربك بشير ولا يوقظ فيه أحزانه الدفينة.

- كنت خائفا من أن يكونوا قد آذوك. أعرف جيدا شرورهم. الحمد لله على سلامتك. ما قتلوك. ما صلبوك. ولكن شُبِّهتَ لهم يا سيدي العظيم.

ارتسمت على وجه بشير إلموزّو علامات حزن عميق. لم يقل شيئا. لم يتكلم طوال مدة الصعود في المصعد الصدئ. فجأة شعر بهواء خفيف يمسح وجهه وشعره وجسده. أغمض عينيه المرهقتين، ثم فتح يديه بشكل صليبي واسع، وحاول أن يستنشق الهواء المحمل برطوبة البحر ورائحة البارود والنار، والحرائق وبقايا الياسمين الإشبيلي في المدينة، ورائحة قشور الرمان والبرتقال. شمَّ عطر التربة وهي تستقبل القطرات الأولى من عطش المطر. صمت طويلا قبل أن يتناهى إلى مسمعه تكسر موج البحر على صخور الشطّ الروماني المهجور. في اللحظة نفسها سمع زمور السّفن البعيدة التي كانت تحاول أن تنزل حمولتها، وتنتظر إشاراتها المعهودة للدخول إلى المرفأ لكنها تأخّرت كثيرا. التفت ناحية جبل الروح. استنشق عطر الصنوبر المقدس الذي أُحرق فيه سيدنا النينوي. هي ذي إذن جملكية الحكيم الحاكم بأمره تنهار دفعة واحدة، ومعها يسقط مشروع الحاكم الرابع أو الخليفة الثالث. بانت له ستائر القصر الفارسية والصينية والهندية، وهي تتحول إلى رماد تحت ألسنة اللهب المتعالية.

التفت نحو ماريوشا:

- يوووووشا... هل يمكن أن تأخذيني إلى الكهف؟

ارتبكت قليلا. شعرت بارتجاف يدها الصغيرة في كفه. أحنى رأسه قليلا. كانت تنتظر شيئا آخر ولكنه لم يحصل. تعرف جيدا حبه الكبير لسيدي عبد الرحمن المجذوب.

- لا مانع. سأسأل فقط إذا كان الطريق سالكا ومؤمّنا.

انتظرت قليلا الشاب الذي كان منهمكا في الاتصال بواسطة نقاله بالمشرفين في غرفة العمليات، على حالة المسالك والطرق والمعابر. عندما تلقّت الضوء الأخضر، سحبته بهدوء نحو الكهف وهي لا تدري ما السبب الغريب الذي كان يقوده نحو ذاكرة يُفترض أنها ماتت قبل حتى أن تتخطى عتبة السجن.

- نمشي يا بشير إلى الكهف.

لمعت عيناه ببريق طفولي. كل شيء يُقرأ في وجه بشير.

ركب الجميع مع الفرقة الانتحارية السابعة، واتجهوا نحو الكهف في سيارة مدنية كان يسوقها مدير السجن نفسه. صَفَنَتْ ماريوشا وهي تضع رأسها على الوسادة الخلفية لكرسي السيارة. بشير لم يعد بشير ولن يعود أبدا. تمنت من قلبها أن يحس بها. أن تنام على صدرها وتترك نفسها تتلاشى مثل الغيمة البنفسجية النادرة التي كان يعشقها ويتحدث عنها في كل غفواته. وتسمع إلى قلبه وهو يدق، وبين الدقة والدقة يروي ألف حكاية وحكاية. أن تندفن داخل غابات نبضه وتستحم بشلالات عرقه المقدس داخل عنفوان الجسد وحرائقه.

لم يكن يهمها كثيرا ما سمعته عن بشير إلمورّو من عدد لا يحصى من الناس، وادعوا أنهم يعرفونه البشير جيدا. يجمعون أن بشير كان رجلا منعزلا على أطراف المدينة، يقضي جلَّ أوقاته وحيدا. يحمل حزنا غامضا لم يجد له ما يشفيه إلا الكتب وحنين أجداده الذين أكلتهم جبال البشرات. وقيل لماريوشا أيضا إنه في ألمه الصافي، غرق في قراءة التاريخ الأندلسي من أوله إلى آخره حتى ضَعُفَ بصره من كثرة القراءة وغبار الكتب في المكتبة الوطنية حتى دخلته الحساسية التي كانت ترهقه ولكنها لم تمنعه من الغوص في كتبه بعد أن وجد ما يجعله يتحمل الحساسية. وفي مرة من المرات، كان على الشاطئ الروماني المهجور الذي ظلّ يسترجعه دائما ويعيش تاريخه الحزين، ويتذكر أيضا كيف عبره أجداده قبل أن يصلوا إلى الأرض في ظروف قاسية، فاجأته أمطار رعديه قوية، أو اخترق دماغه خيط من البرق الحارق، أو تلقى ضربة شمس قاسية، فلم يجد مخبأ إلا مغارة مهملة كانت قريبة منه يُقال إن الثوار اكتشفوها واختبأوا فيها ردحا من الزمن. و هناك أخذته إغفاءة من النوم رأى فيها السواد وكل المرارات التي ظلت عالقة بمخيلته.

« - أعرف ذلك كله، وربما أكثر. لكن لا يهمني مطلقا. الآن بشير قريب مني. أتنفسه. ألمس عطشه وحنينه، وهذا هو الأساس. الذين سرقوا منه ومنا ذاكرته بالقرص البرتقالي والليموني، والحقن، والسطل

الألماني، كانوا يعرفون جيدا ماذا يريدون منه. لو كان مجنونا لما أعاروه أية لحظة من اهتماماتهم.»

وصلوا إلى الحافة حيث يقع الكهف بين اليابسة والماء. كان بشير إلمورّو ما يزال مندهشا وهو يتأمل البحر الذي كان يغوص داخل المدينة شيئا فشيئا كالسيف العريض. أحس فجأة كأن الأشياء المرتبكة بدأت تعود إلى استكانتها وحركتها الطبيعية. لم يقل شيئا. ظل صامتا الأمر الذي أقلق ماريوشا إذ فكّرت لحظتها أن تضع في فمه القرص الليموني الذي كان في جيبها بعد أن ملأ مدير السجن خلفية السيارة بكراتين الأقراص الصفراء، قال وهو يحاول أن يعتذر: حتى لا يُصاب سيدي بشير بالندرة، وحتى نكفّر عن ذنبنا الذي اقترفناه في حقه. ضغطت ماريوشا على يده. كانت باردة مما زاد من قلقها. وضعت على ظهره اللباس الصوفي الذي صنعته من أجله.

كان قلبها يؤلمها. شعرت بفراغ يحيط بها من كل الجهات ويخنقها.

«- يااااي. آلام الراس تقتلني. من يرجع بشير إلمورّو الذي عرفته متقدا بالنور والسماحة؟ ها هم يبيدون العبقرية في هذه البلاد ويهزمون الأحصنة. عرفوا كيف يفرغون الذاكرة من حياتها ويحولون الدماغ إلى مجرد صندوق من العظام الميتة، يضم بين تلافيفه مخا صغيرا، محروقا بفعل المواد الكيمياوية الهالكة. لقد أحرقوا كل شيء فيه، وأحالوه إلى رماد.»

عندما رأى بشير فتحة المغارة التي كان يسمها كهفا، تمتم بكلمات شكّت ماريوشا في البداية أنها كان لها معنى عند شخص سواه. بل شكّت حتى في أنه كان هنا، ومعها. لم تفهم من تمتماته القلقة التي بدت مرتبكة وغامضة، إلا كلمة ماريانا. ثم الجملة المتقطعة التي رممتها من تلقاء نفسها لأنها سمعتها منه قبل هذا الزمن وهو يحكي عن شيخه النينوي: يا شيخي... ما قتلوك وما صلبوك... ولكنّك شُبِّهت لهم... بعدها أصبحت نداءاته التي كانت خفية، واضحة.

« – الرحلة شارفت على النهاية. أنا عائد يا وجعي وهبلي. لقد كان الشوق قاسيا، وتجربة قوس الغربة فوق طاقة التحمل. . . عذرا لقد تركتك وحيدة على الحافة حيث كان يجب أن أبقى وأموت بين يديك. كنت جبانا يا ماريانا لأني لم أجعل من دمعاتك الأخيرة مرساي النهائي وأغرق فيك. عندما أدخلوني في عمق البحر وجدتني في كهف مظلم كقلوبهم. وعذبني شيخي وحبيبي الحلاج على تقصيري معك، إذ قرأ بلا مجاهدة كل حرائقي في عيني اللتين أعمتهما الأدخنة. جاااااي يا عمري. جاااااي. افتحي لي فقط ذراعية وقلبك، لأعتذرَ لك وأطلبَ صفحك. لقد خسرتُ كل شيء، مقابل أن تظلي فيَّ. جاااااي لعندك، فقط لأركض معك في دروب ألميريا وشوارع غرناطة. سأقضي الظهيرة كلها في صحبتك في الكونداليخو الذي جمعنا لأول مرة، وأنتظرك في بيتي، في حي البيازين، كالمطر الربيعي، تأتين مضمخة كتفاح المجانين، بروائح الكاسي الغجرية وعطر الياسمين الإشبيلي. . . جاااااي. . . »

ثم انفصل من كف ماريوشا، واتجه مباشرة مترنحا في مشيته نحو المغارة.

كل شيء مرّ بسرعة غير منتظرة. يحكي الصّادقون و القوالون، وحتى الناس الطيبون الذين أحبوا بشير إلمورّو، أنه كان غائبا عن كل الناس الذين كانوا يحيطون به. تذكر أحلامه الأولى التي واجه بها المدينة، مقطعة، ممزقة مثل الخرقة البالية. عرف الكهف برائحته الأولى. أحسّه بملمسه وحواسه الدفينة. أغمض عينيه لتجاوز حالة البياض التي كانت تنتابه من حين لآخر ماحية كل العلامات والتي كانت تملأ مسالكه الغامضة. حاول مرة أخرى أن يتذكر، لكنه أخفق في التفاصيل والاستحضار. عندما دخل إلى الكهف كان الوحيد الذي يعرف لماذا، وربما ماريوشا التي ظل يشغلها صمته ويده الباردة. عندما أرادت أن تتبعه في مسالكه، طلب منها أن تظل في الخارج بعد أن وضع بين ذراعيها الغطاء الصوفي الذي وضعته على ظهره.

فَهِمَتْهُ جيدا عندما تمتم:

«- متعب. . . أريد أن أرتاح قليلا.»

ثم دخل مغمض العينين وكأنه كان يسير بحواسه الخفية التي استيقظت فجأة.

مدَّ رأسه على التربة القديمة، المحروقة التي شعر بألفة كبيرة تجاهها. هذه المرة لم تكن الأمور معقدة. فقد انتهى الجحيم في عينيه بمجرد أن أغمض عينيه في الإغفاءة الأولى. رأى نفسه يتحلل بسرعة غير معتادة، ويتحول إلى رفات، وإلى نثار غبار دارت به الرياح طويلا في عمق الكهف قبل أن يركح. رأى في دورانه كل شيء. رأى الله وهو يبحث عن ظله الذي سرقته منه الشمس الحارقة. رأى الحلاج وهو يتكئ على عصا قديمة، يمشي الهوينة في بغداد قبل أن تنكسر عصاه، فيسقط ويبقى هناك بلا حراك. وقف عند رأسه يحاول إيقاظه عبثا قبل أن يرى شعاعا أزرق يصعد من قلبه، كان في البداية بلون السماء، قبل أن يتداخل مع ألوان أخرى من نور الشمس حينما تنكسر بين أغصان شجرة التين المخضرة دوما. كان الدوران قويا وهو على حافة فقدان الصواب. تمنى أن يسعفه الوقت ليسأله فقط، لكنه تذكر فجأة الكلمة التي قالها للحكيم: **لا أستطيع أن أفعل شيئا من أجلك ولا تستطيع أن تفعل شيئا من أجلي يا صاحبي**. كانت اليقينيات تتشقق وتتكسر الواحد تلو الآخر بلا رحمة. تمنى فقط أن يتأكد منه هل هناك زرقة في عمق هذا الظلام، لكن الدوران كان يزداد قوة وشدة. انكفأ على نفسه لكي يثبت في الأرض في وضع جنيني. هل حقيقة هي مجرد قراءات فوضوية للكتب الأندلسية التي قادته إلى هذا الجنون؟ لم يتذكر جيدا من صفعه بهذا الكلام، لأن الزمن الذي كان يفصله عن أصدقاء الحاكم بأمره الشماليين، كان يتسع ويتحول إلى هوة سحيقة وكبيرة. هل ما رآه وما عاشه كان هو الحقيقة عينها، ولا حقيقة بعدها لأنها بنت القلب والباطن. الحقيقة التي لا يلمسها إلا الذين انكسرت نار جهنم عند جباههم خوفا من قداستهم. يقول بعض رواة المدينة الذين عرفوا بشير إلمورّو وأحبوه كثيرا، إنه قبل أن يسأل الحلاج وهو يتأمل الشعاع الأزرق الصاعد من قلبه، كان هذا

الأخير قد انسحب أو غاب وسط شلالات النور، وضباب لا يعرف هل نزل فجأة على الكهف أم أن غشاوة انتابته وقتها. سمع لحظتها، يقول نفس الرواة، حتى صوت ابن رشد الذي رمى قلنسوته وراء أسوار قرطبة وبدأ يصيح فرحا، أوريكا! أوريكا! وجدتها! وجدتها! تساءل ماذا وجد ابن رشد ليصرخ بكل هذه الهستيريا؟ تمنى فقط أن يقف في وجهه بصرامة ويقول له: لا أعرف ماذا وجدتَ؟ ولماذا تصرخ كل هذا الصراخ؟ قلْ لي فقط لماذا لم تفصل حيث توجَّب الفصل؟ سلَّمت عذاباتك لقاتليك، وتركتنا ندور داخل الفراغ الذي لم نعرف له بداية ولا نهاية. ألم تقل يا مولاي افصلوا؟ للدين طريق، وللفلسفة طريق آخر. أفصلوا المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال؟ مسلك الدين غير مسلك الفلسفة. طريق الدُّنيوية سادَتُه بشر، وطريق الدين سادته فقهاء. سمع صوته يأتي بين شقوق الصخر:

«- قصّة طويلة. ما كان مقصود الشّرع تعليم العلم الحق والعمل الحق، وكان التعليم صنفين: تصوراً وتصديقاً، كما بين ذلك أهل العلم بالكلام، وكانت طرق التصديق، الموجودة للناس ثلاثاً: البرهانية، والجدلية، والخطابية، وطرق التصور اثنين: إما الشيء نفسه وإما مثاله، وكان الناس كلّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين ولا الأقاويل الجدلية، فضلاً عن البرهانية، مع ما في تعلم الأقاويل البرهانية من العسر والحاجة في ذلك إلى طول الزمان لمن هو أهل لتعلمه . . .»

لكن الريح الساخنة والدوران القوي غيبا نهائيا صوت ابن رشد. كان بشير في عمق والانتفاء والتلاشي. مع هبوب الهواء البارد القادم من البحر، الذي تسرب داخل فراغات نثاره، كانت الظلمة قد ملأت محاجر عينيه، وغابت الألوان ووجوه عمال البحر، وألق علماء المدينة، ودفء يوشا التي لم تتركه لحظة واحدة، لازمته حتى اللحظات الأصعب. الوحيدة التي كانت تعرف سر الحكاية، ظلت تردد عليه، كلما استيقظ حنينه الهارب، زمنا كان في قلبه وروحه. كانت تعزف. لا يراها جيدا

ولكن تحسّسه للبانجو في خيطه الأرق كان يعيده دائما إلى اللحظة الهاربة. تدق. تتضاءل الأشياء بعزفها حتى تصبح كائنات تسبح في الهواء.

في لحظات غفوته، رأى بشير إلمورّو العمال والعلماء، قبل أن يغيبهم الدوار والنسمة الباردة، القادمة من الشاطئ المهجور. رآهم يقفون عند رأسه ويتمتمون، ويتناقشون حول إمكانية إقامة تمثال ضخم له بجانب القلعة، أم القصر الجملكي الذي كانت الغربان تملأ أسقف، أم على أطراف البحر؟ سمع نقاشهم الحاد قبل أن يتفقوا على أن يكون التمثال على أطراف البحر، مواجها له، بكل ضخامته، في عينيه، رعشة الحلم، ورغبة العودة إلى البلاد البعيدة المعلقة في القلب والذاكرة، لا للبحث عن مقهى ومطعم الكاندليخو فقط، ولكن أيضا للاستماع إلى أناشيد ماريانا التي تركها على الساحل وهي تشد على قلبها بكل قواها خوفا من أن ينفجر حزنا.

عندما خرج من السرداب، كان منطفئا نظرته منكسرة. كان وجهه متربا لكن ألقا ما ظل مرتسما على وجهه. أجلسته ماريوشا في حجرها كطفل فطم في وقت مبكر، ثم فتح فمه من تلقاء نفسه وهو يتمتم ماريااااانااا... فكرت في لحظة من اللحظات أن تفتح قميصها وتضع في فمه حلمة نهدها التي انتظرته طويلا. يمضغها. يأكلها. يلوكها. يمصها كما تُمص الحلوى. أن يحسّسها بأنوثتها الهاربة. لكنها انكفأت عليه، وأغمضت عينيها. رأته يضغط على نهديها ويرضعهما. يلعب. في عز ألقه وجنونه. ينتقل من نهد إلى نهد، وعلى وجهه علامات الرضى والشوق. وظل على حاله، حتى ارتوى، فنام على صدرها العاري. فجأة سمعت صوته يأتي من بعيد. يوووووشاااا. يوووووشاااا... عندما فتحت عينيها. رأت قسماته المتعبة وبداية انفصاله عن كل ما يحيط به...

«- يوووووشاااا... فمي رمل. بي عطش الموت. عطش يا يووووشاااا...»

أخرجت ماريوشا قنينة الماء البلاستيكية من جرابها ووضعت قطرات في فمه، ألحقتها بالقرص الليموني الأصفر حتى يستطيع أن يسترجع بعضا من حنينه وحاضره المنفلت.

مساء عندما أنزلتهما السيارة العسكرية والفرقة الانتحارية السابعة، على حافة البحر، ليس بعيدا عن جدار الدفاع الجديد، كان بشير قد استعاد بعضا من وعيه. وبدأ يتعرف على الأشكال التي كانت تبدو له مجرد ظلال تتبعه أينما حل. كأنه كان يتعلم من جديد علاقته بالحياة. وقف طويلا بصمت عند كسّارة الموج، يتأمل مرآة البحر التي انعكست على سطحها الحرائق والزغاريد وحركة السفن الثقيلة. التمعت في عينيه المتعبتين الشعلات المتصاعدة من هنا وهناك. شعرت ماريوشا بحالة وعيه تعود له شيئا فشيئا. قالت له:

- بشير. هل تتذكرني قليلا.

- يوشا الغالية.

شعرت بسعادة تغمرها. بشير لم يجف. كادت تصرخ بأعلى صوتها. الحمد لله على سلامتك عمري. انتهى كل شيء. لقد قضّيت اليوم كله في الكهف.

قالت ماريوشا وهي تحاول أن تعدل البانجو على ظهرها، وتحاول أن تدفئ يد بشير إلمورّو التي زادت برودتها أكثر حتى تثلجت. كان مستسلما لها. يفتح عينيه من حين لآخر، ويغلقهما كلما اخترقت انكسارات النيران على سطح البحر التي كانت تأكل السفن المحملة بالنفط والغاز.

عندما التفت بشير وراءه، كانت المدينة قد اختفت أيضا وراء الأدخنة الكثيفة. والنيران التي أكلت طوال الليل البنك المركزي ما تزال تخرج من بقايا كومات الرماد والحرائق الصغيرة هنا وهناك، في محيط البنك. لم ير إلا صوامع المساجد العالية وهي تخترق الأدخنة السوداء، ورأس الكنيسة التي شيدت على أعلى مرتفع في المدينة منذ القدم. هي الوحيدة المتبقية بعد أن غادرها الأتقياء من المسيحيين المتأصلين في آرابيا منذ

ظهور سيدنا المسيح، ولم تبق إلا الأقلية القليلة التي تعيش في ظروف شبه سرية.

تساءلت ماريوشا وهي تحضن يد بشير التي بدأ يعود لها بعض ألقها. منذ أن شرب القرص الأصفر الليموني، امتلأت نظرته التي كانت قبل قليل فارغة.

- هل تتذكر يا بشير إنه بحرنا الذي لا يموت. أخذونا من هذا المكان، من بار الساحل. لم نكن نفعل شيئا، كنا نغني ونتذكر ماضيا كان كل يوم يُسرق قليلا، وحاضرا كان يولد في عمق النار.

- يوووشا... حبيبتي يوشا. هل أنا بالبحر أم في غمرة حلم هارب؟ هل انتهت الحرب؟ من أين تأتي كل هذه الأدخنة التي تغطي على كل شيء مثل الغمامة الخانقة؟ لماذا كل هذه الحرائق وهذه الروائح التي تلهب الرئة؟

- كل شيء انتهى. كل ما تراه يمكنك الآن أن تلمسه ولم يعد مجرد وجدان.

- هو البحر الذي يفتح أبوابه داخل الأدخنة والخوف ليدخل مَنْ امتلأ قلبه بيقين الحلم. البحر. خرافة الأجيال المتعاقبة. سيد العاشقين، ينهض الآن بكل شموخه وألوانه السحرية والهشة. هو ذا البحر المنسي يا يوشا الذي عبره العشاق والقراصنة والمهمومون الذين سُرقَ منهم حق الحياة، المهزومون والمنتصرون، المنفيون، السراق والقتلة، السياح والخائفون، الهاربون والوافدون. كم تخفي صفحته من أشواق دفينة؟ كل شيء يتغير ويبدو من كأن لا شيء تحرّك فيه؟ الريح هي الريح، والموجة هي الموجة، الصخرة هي الصخرة والوجوه المنحوتة بالهمّ هي الوجوه. والمدينة تتكثف على الرغم من الحرائق، حتى تصبح قطرة ماء صافية، تتلألأ فوق مرآة البحر المصقولة ولم تستطع الأدخنة أن تخبئها.

كان دافئا، وكانت سعيدة.

عندما انكسرت الشمس البحرية المثقلة بالرطوبة، نحو الغروب، سحب ماريوشا من يدها باتجاه كل الساحات العامة، من ساحة التحرير،

إلى ساحة الثورة، إلى ساحة الجوهرة، قبل أن يتوقف في ساحة الشهداء التي كثيرا ما تمنّى أن يعقد فيها حلقاته ولكن رجال الأمن كانوا يمنعونه دائما بحجة أن الساحة عامة ويمكن أن يؤثر احتلالها على حركة السير والمرور، وعلى التجارة أيضا لأن المكان كان محاطا بمحلاّت المفرق والجملة. تأمل اللبمبات الخفيفة التي بدأت تشتعل هنا وهناك. كان وجهها مشعا تحت الأنوار التي خبأت كل بؤس النهار باستثناء النيران التي ظلت تشتعل هنا وهناك. تلمس البانجو الذي كان ما يزال على ظهرها لدرجة أن الكثير كان يجد شبها بيتها وبينها جين بيز[٩٦] بقيثارتها الأنيقة وصوتها الساحر. تحسسه برؤوس أصابعه وكأنه كان خائفا من أن يخدشه. ثم ترجاها أن تجلس. فتح لها صحيفة كانت بيده، فجلست. كان سعيدا أن يرى الناس وهم يتحلقون حولهما شيئا فشيئا. شرب قليلا من الماء ثم قرصا أصفر وضعته ماريوشا في فمه. كان في عينيه بريق غريب يشبه بريق الحياة في عيني طفل يكتشف النور لأول مرة. يفتح عينيه. ثم يغمضهما من شدة بياض الضوء وحدته. يعاود فتحهما قليلا قبل أن يفتحهما نهائيا.

نزع البانجو من على ظهرها بهدوء ووضعه في حجرها. قال:

- انشدي يا يوشا. أنشدي... منذ ومن بعيد وأنا لا أسمع إلا لنشيدي الداخلي.

شعرت بسعادة كبيرة ممزوجة بألم قاس كان يأكلها من الداخل. لم تعرف هذا البشير الذي غاب عنه كل شيء ولم تبق منه إلا بعض العلامات الهاربة. غلبها دمعها الذي ساح حارقا على خديها. ناحت بلا عزف ولا صوت.

«- يا روحي، ويا لغتي. يا فْوالي ويا عشقي. يا هبلي ويا أمي... جِيني. أركض نحوي بملايتك النارية العتيقة التي كانت نساؤنا البربريات يرقصن بها حتى الدوخة والدوار. جِيبني يا أمي ويا وجعي، إني مقروحة

---

(٩٦) Joane Bease.

حتى القلب وفي عزلة الممحون التائه في فراغ بلا بداية ولا نهاية. سلاحي حليبك يا أمي وسكّري قُبَلُك السخية. لقد سرقوا بشير منّا. ماذا أفعل؟ الحياة في غيابك لم تعد ممكنة يا أمي.»

- قولي يا يوووروشا. قولي.

صاحت الأصوات التي تكاثرت من حولهما.

- قولي يا ماريوشا. لا يمكن أن نرفض شيئا لعمي بشير.

تأوهت. تألمت وهي تمسح الدمعات التي ملأت خديها. شعرت بقلبها بضيق ثم يتسع للهواء الذي هبَّ محملا بملوحة البحر ورماد الأدخنة، بينما كانت يد بشير ما تزال تتلمس سطح البانجو. هزت رأسها بالموافقة. صفق الحاضرون الذين بدأت ساحة الشهداء تكتض بهم.

- من عينيَّ... ماذا يريد حبيبي أن يسمع.

صمت قليلا. حاول أن يتذكر فلم يُفلح. ذهب بخزرته بعيدا، بعيدا حيث الفراغ الذي يشبه بياض سفر التكوين الأول. سالت دمعات من عينيه. لم يتكلم. أخرج من جيبه شمعة. طلب النار. قدم له أحد الحاضرين قداحة كانت بجيبه. أشعلها فانطفأت. ثم أشعلها ثانية. تراقصت شعلتها الزرقاء، مالت باتجاه ريح البحر الخفيفة، ثم استقامت من جديد وبانت ألوانها المختلفة. بدأ يتأملها ويحاول أن يخترق شعلتها التي كانت تصعد وتنزل. عندما رفع رأسه رأى الناس يحتشدون في الساحة حتى أن هناك من كان معلقا على الأشجار ليضمن مشهدا لم يكن يعرف عنه الشيء الكثير.

- آآآآآ. فهمتك. أغنية خويا المجذوب: يا الشمعة. ما يكون إلا خاطرك عمري.

دوزنت ماريوشا خيوط البانجو للمرة الأخيرة. أغمضت عينيها لتستحضر اللحن الذي علق برأسها لحظة ما سمعته لأول مرة. نقرت على الخيط الأخير. بدا لها ناعما أكثر. أدمجت الخيطين من جديد ونقرت مرة أخرى على البانجو وهي تدندن، شعرت بالتحسن في الإيقاع. شيئا فشيئا بدأ اللحن يستقيم، والوجع الذي ارتسم في عينيها

المتعبتين من قلة النوم، يرقّ حتى يصبح شعاعا يخرج من القلب. كان حنينها حارقا عندما صعد صوتها عاليا مخترقا صمت المدينة.

للّه يا الشمعة، سألتك، ردي لي سؤالي.

- ردي لي سآاااالي.

رد بشير بصوت شجي جمّد الحضور في أمكنتهم ولحظاتهم المسروقة، قبل أن يشكل صوتا ملحقا بصوت ماريوشا ومندمجا معه في ثنائية جميلة. لم يستطع أن يكف دمعه وفي عيون الحضور حيرة كانت تنتهي بهروب غامض والبكاء في الخفاء.

آش يبك في الليالي تبكي، مازلتِ شعيلة؟

علاش يا الشمعة تبكي ما طالَتْ الليالي

آش بك يا اللّي تتهيّا للبكاء في كل ليلة.

ثم يندمجان بشكل مشترك في المقطع الذي دفع بالكثير من الحاضرين إلى الدخول في حالة الصفاء والحضرة. فتظهر بوضوح الطبقتان، الطبقة التحتية لصوته الذي يصعد عاليا من حين لآخر، وصوت الطبقة العليا رقيقا وناعما.

يا وعدي لو جِيت يا الشمعة نحكي لك، كل ما جرى لي

تنساي غرايبك وتسمعي لغريبتي طويلة..

كانت تنظر في عمق عينيه وهي تنشد وهو يغيب عميقا في خفاء كان يتمزق فيه كل شيء ويستعيد لحظاته المسروقة، بينما أصابعها غارقة في خيوط البانجو. كانت عينا بشير مرتشقتين كالسهم في السفن التي أشعلت أنوارها مبكرا. هل يعلم الله الذي تخلى عنا، أن الحروب الكبرى عندما تبدأ من أعالي الجبال نارا، تنتهي في السفوح جثثا. هو ذا الكورس الجنائزي الواسع يلف المدينة بكاملها، يحتل أهم شوارعها الرئيسية، يزداد خوفا وامتدادا، ينطلق من بيت إلى بيت ليتوقف بشكل جماعي عند الحدود المتاخمة لساحة الشهداء.

كانت الدائرة قد كبرت. وامتلأت ساحة الشهداء. خُيل لماريوشا أنها رأت الراعي الشاب بالساحة وبعض العمال والعلماء. الكثير من

الحاضرين يرى بشير للمرة الأولى في حياته. كان هناك حتى من الذين أدعوا أنهم عرفوه في طفولته على حواف مدينته الصغيرة *أندلسيا*، أصغر مدن آرابيا التي تقع بين سفح البركان والساحل الممتد على آلاف الكيلومترات. يقول سكانها إن أصول أجدادهم موريسكية. جاؤوا المدينة التي لم يكن بها وقتها شيء، على دفعتين، في نهاية القرن السادس عشر وفي بداية القرن السابع عشر. يقولون إنه كان في ذلك اليوم منهمكا في قراءة تاريخ أجداده، قبل أن تدفع به الأمطار الرعدية الغزيرة، أو ضربة الشمس نحو مغارة كانت قديما مسكنا للصيادين الوافدين من السواحل الغريبة. حتى أن هناك من يقول إن الأندلسيين الأوائل، الهاربين من محاكم التفتيش المقدس هم من بناها. لم تكن ماريوشا مهتمة بكل هذه الحكايات وما سمعته من قصص عنه. يكفي أنّ بشير إلمورّو قد وسم عصره بالحب والطيبة والخير. هو العذوبة عينها. هو الذاكرة الحرة التي أجبروها على الانكسار تحت وطأة الأصداء التي كان يضخمها السطل الألماني الرنان، والأقراص المميتة.

اشتهت وهي تتأمل وجهه الذي استرجع بعض صفائه أن تكلمه عنها فهو لا يعرف من قصتها إلا ما رواه له سيدي عبد الرحمن المجذوب. أن تكلمه مطولا عن أستاذ الاقتصاد الذي استماث في الدفاع عن الحاكم بأمره. باع من أجل مصلحة ضيقة الدين والدنيا وماريوشا. كان مولعا بالنموذج الاقتصادي الأمريكي وبفوكوياما[٩٧]. تعتقد ماريوشا، بشهادة الكثيرين الذين رأوه مع الشماليين، أنه سافر في طائرات النقل الحربية الضخمة هيركوليس[٩٨] التي غادرت مواقع القاعدة الأمريكية، القريبة من قصر عزيزة، حاملة كل الأجهزة والرادارات ووسائل التنصّت المنصوبة هنا وهناك. تمنت من قلبها أن يكون داخل الطائرة التي أسقطتها هذا الصباح الفرقة الانتحارية الثانية التي حدّدت رقعة مقاومتها داخل دائرة

---

(٩٧) Fukuyama.

(٩٨) Hercules.

القاعدة الأمريكية. تمنت أن تحكي للبشير عن كل هذه التفاصيل، ولماذا طردوها من الجامعة وألصقوا بها كل تهم الدنيا التي لفقوها ضدها من شيوعية، إلى امرأة متخصصة في تصوير الأفلام البورنوغرافية وكراسات الجنس التي يسربها سريا التجار الذين ارتبطت مصالحهم بأجهزة الحاكم بأمره.

«- لو كنتَ تسمعني يا نجمي المنطفئ، أيها الأندلسي الطيب الآتي من عمق هذا التيه الذي يسكنك، سأقول لك إنك تركت محاكم التفتيش وراءك، فوجدتها أمامك تنتظرك. تركتَ سراقا وقراصنة، فواجهك قتلة وفاسدون. وهاهي ذي الغربة والوجع والخيبة، يتوسعون داخل دمنا ليؤكسدوه، وينتشرون داخل دمنا ليبتذلوه، وينزلقون في عمق كأس القهوة المسائية فيشوّهوه. لو كنت هنا يا بشير، لحكيت لك كل ما يحرق قلبي وربما أحببتني مثلما أحببتك. لكن الزمن توقف عند هذه الحافة ولا أدري ما ينتظرنا من الآتي الذي يتحرك فيه كل شيء ونحن لا نستطيع الوقوف داخل دواره الكبير. سيبدأ زمن آخر لا أحد يعرف إلى اليوم ملامحه. يكفي أنك الآن مليء بالحنين. أمامك ما اشتهيته. يا بختها... ماريانا. أمام ك والمدّ والجزر والموجة التي تكسرت عند الحائط الروماني القديم لتدرك أن زمنك القاسي لم ينتهِ كليا.»

- احك يا بشير في صوتك رتق لكل جراحات آرابيا.

- ماذا أقول يا يووشا؟ السراديت محت كل حياة فيَّ.

- احك يا بشير يا قوّال الزمن الميت.

التفت الجميع صوب الصوت الذي ألفوه.

- احك يا خويا، لا قوة في الدنيا تخنق نداءاتك الحية. أنت في العين عندما يتعب القلب. وأنت في الروح عندما يزوغ البصر ويتعب من كثرة النظر. قول يا خويا... قول وخل الدنيا بنت الكلب تدور وتدور حتى تصاب بالدوخة.

قام الناس من أمكنتهم واشرأبت الأعناق تبحث عن هذا الصوت

الواثق من نفسه. سيدي عبد الرحمن المجذوب الذي لم يظهر في المدينة منذ أن ترك الساحة والناس في انتظاره والتحق بالفرق الانتحارية التي هاجمت قصر عزيزة في اللحظة النهائية. بعضهم قال إنه بقي في السراديب ولم يخرج، بينما الذين رأوه قالوا إنه حي.

التفتت ماريوشا نحو بشير:

- هل عرفته يا بشير؟ حبيبك الذي ظل في قلبك حتى وأنت في دهاليز الموت. سيدي عبد الرحمن المجذوب، فوال الأزمنة التي لا تموت. هل تتذكره؟ صاحب لحنش بومريات؟

لم يرد. كان منشغلا بالوجوه التي كانت تقوم وتجلس. حتى أصبح المجذوب قريبا منه جدا. تأمله. التقت النظرتان. عانقه طويلا. كان بشير إلمورّو مستسلما له. ثم ابتعد عنه بخطوتين بعد أن وسّع الساحة قليلا ووضع أغراضه فيها.

- شوف مليح فيّ. ألم تعرفني؟ ما عليهش. حمود الإشبيلي يا بشير؟ حمود في أسواق غرناطة والبيازين؟ ألا يقول لك ذلك شيئا؟

عندما سمع بشير كلمة حمود الإشبيلي، ارتسم في عينيه إشراق تحول بسرعة إلى هالة أغرقته في سعادة غامرة، شعرت بها ماريوشا التي تتحسس كل نبضه. حتى عندما أرادت أن تشربه القرص الليموني، أبعد يدها بلطف، وظل يتأمل حركات المجذوب الذي كان يقفز من مكان إلى مكان.

- حمود الإشبيلي. خويا بشير. أصرخ يا ولد مّا مالك ساكت واش صار(٩٩)؟ من اليوم لن يمس ذاكرتك غبار أو أذى. قم معي. ساعدني على إنهاء الباخية، لقد تعبت وحدي. مفتاحك بين يديك. لقد عرف الناس سرك وحبك.

بدأ الدم يعود إلى وجه بشير. تكسرت موجة بحرية سمع صوتها من بعيد من شدة الصمت الذي نزل فجأة. قام من مكانه. مرر كل أصابعه

---

(٩٩) أصرخ يا ابن أمي، ما بك صامت؟ ماذا حدث؟

بهدوء، على تفاصيل وجه عبد الرحمن المجذوب. تحسسه. مسّد على شعره. تلعثم قليلا ولكن كلماته خرجت واضحة.

- كبرت بزاف[100] يا خويا حمود الإشبيلي. كان جدي يموت عليك. يحبك. شفت يا حمود واش داروا فينا؟ ومع ذلك أسامحهم. أغفر لمعذبي كل ما فعله فيَّ. هو عبد مأمور. سرقوا مني أجمل ملكي: ذاكرتي.

قال عبد الرحمن المجذوب لماريوشا بأن تأخذ البانجو وتعزف معزوفة التّيه.

- بحضورك يصمت كل شيء. ڤوووول آخويا ڤوووول.

- واش نقول يا حنيني؟

- بحضورك يا سيدي تصمت الشفاه ولا يتحدث إلا القلب.

نقرت ماريوشا. دخل بسرعة في لحظات الغياب. وبدأ يدور في الساحة. كان داخل صفاء وجده كان يعرف جدواه وقوته. كان خيط البانجو يزداد نعومة وألقا. في الدقة كانت الوجوه التي أفلت، تأتيه مثل النجوم، مختلطة ثم واحدة واحدة لتستقر على الوجه الذي اشتهى.

يا ليل غربتي الطويل

الذئاب تسرق سلطان الأسود

وعلى عتبات أيلول تنتفي الأجساد...

تعالت الأصوات تحت الأضواء الكاشفة من كل مكان. كانت الأجسام الخلفية تتدافع في الوراء، والأعناق تشرئب بحثا عن جسد الصوت الذي يكاد لا يُسمع من خجله وهشاشته.

- زد يا خويا ويا ولد مّا. ما يزال في قلبك صدأ الجرح الذي لا يموت ولا يبرأ. الجرح المفتوح. لا أحد يعرف سرّك يا بشير إلا من أحسّ بك. قُل يا خويا قُل. أحْكِ. القلب معك والحنين فيك. المحو لا يقتل أنينك.

---

(١٠٠) شختَ كثيرا.

يا القُمري الزين، يا أزرق الجناحين
تسلَّق الخيط الرّابع،
أرسُم لي غفوة.
بغثرِ النُّوتات، واجْرَحِ الإيقَاع.
ودَثِّرْ بالنشيد، نَديمي القَلق.(١٠١)

كانت الدائرة قد اكتملت في ساحة الشهداء. وضع شخص مكبرا للصوت ومجمرا أمام ماريوشا ثم انسحب وسط الجموع. لم يعد يسمع شيئا سوى خشخشة النيران المشتعلة في التنور في أماكن مختلفة من المدينة. لأول مرة يصدّق الناس أن الحرب انتهت. كانت أعلام الجمهورية الفتية تملأ المكان في عرس من الألوان المخطوفة. العيون مرتشقة في صمت بشير وتيهه، في حركة سيدي عبد الرحمن المجذوب كأنه في دور مسرحي تراجيدي، وفي انغماس ماريوشا التي انكفأت على البانجو ولارمونيكا التي غطاهما شعرها كليا، وانعكاسات الأضواء التي اشتعلت عن آخرها.

كان أنين العزف حارقا، ووجوه الناس باردة.

أخرج سيدي عبد الرحمن المجذوب ثعبانه. ظل يتحرك ويدور حول نفسه. ضرب المجذوب على البندير الذي سخَّنه على المجمر، ثم قفز باتجاه الثعبان الذي سماه سلطان زمانه. وقف أمامه وجها لوجه.

- هاه؟ تكلّم يا سلطان زمانه. بشير حبيبي هنا. وماريوشا بنتي في عيني وقلبي. لا تخيبني. سننهي الباخية الليلة مع بعض يا الحنش بوسكة، يا بومريات، يا لبرس، يا بوراس. ما ترحم لا كبير ولا صغير. ورّيني شطارتك يا صاحبي.

هز الثعبان رأسه غير آبه بما كان يسمعه. كلما تناهت إلى مسمعه نقرات البندير، رقص بكامل جسده ورأسه كما في الحضرة ثم يلتفت في

---

(١٠١) المقاطع الثلاثة من قصيدة أناشيد سبتمبر للشاعر الجزائري بشير حاج علي Bachir Hadj Ali مترجمة عن الفرنسية.

كل الاتجاهات متصيدا الوجوه والأخطار المحدقة. جاء صوت ماريوشا مسكونا بالصفاء والحزن.

كي دفيت، داروا في رأسك علامة.

وقلت لي ما ينفعك لا سحر ولا كرامة.

كان الثعبان، سلطان زمانه، الذي ألبسه المجذوب كالعادة لباسا عسكريا ووضع على رأسه طربوشا أخضر، يتحرّك في كل الاتجاهات باحثا عن صيده، والمجذوب يهشه. يتحرك يمينا وشمالا، ومن حين لآخر يفتح فمه عن آخره لدرجة أنه جعل الكثير من الذين كانوا في الصفوف الأولى يتراجعون إلى الوراء. في كل مرة يحاول عبثا أن يعضَّ يد المجذوب التي كانت تقدم له بعض الأكل حتى يقلل من انفعاله.

- مش غريب يا سلطان زمانه تعض اليد اللي تمد لك؟ خداع حتى لحظة الموت. اخْلِ يا سلطان زمانه. بيننا ثأر قديم؟ لا أنا نسيت ولا أنت سامحت. في بطنك سم به تعيش، وفي دمي سموم قد تسرقني قبل أن أنهيك.

كان الكلب الأمير قطمير الذي كان يدور حول الحية، يحاول من حين لآخر أن يمدّ مخالبه للثعبان لكسر عموده الفقري. وعندما ينهره المجذوب، يتحرك حركات ليوهم أنه كان يلعب فقط، يحرك رأسه في كل الاتجاهات، يرقص بذيله قليلا ثم ينسحب ليتمدد بالقرب من بشير وماريوشا ويحاول أن ينام. يغمض نصف عين، ويظل يراقب المشهد ويحاول أن ينام على صوت معلّمه المجذوب الذي يوقظه كلما غفا بصراخه ضد الحية.

- واحد فينا يا بوراس يجب أن يترك الطريق خاليا لصاحبه. ليس مهما من يكون؟ ولكن علينا أن نقبل باللعبة الخطيرة. شوف واش درتوا في بشير إلمورّو؟

فجأة تلوى المجذوب. شعر بألم شديد في بطنه. عاوده المغص مرة أخرى. منذ شهور وهذه الآلام تزداد شراسة حتى أصبحت متواترة في الأيام الأخيرة.

- النار الفارسية التي تشتعل في أعماقي يا خويا بشير. النار التي لا قوة لي لصدها إلاّ الصبر. تأكل الأخضر والأخضر وتتفادى اليابس.

انتبه بشير إلى حزن المجذوب. قام من مكانه. صفّق بيديه كسابق عهده في حلقات غرناطة التي أصبحت بالنسبة له مجرد ضبابة هاربة.

- قاوم أيها الرجل الشهم. كل عساكر الدنيا لن تساوي كلمة واحدة من شِعرك. أفهم يا حبيبي لماذا يخافون الشعراء. لقد سمّموك يا حمود الإشبيلي. قتلوك. وعليك أن تظل واقفا في حلوقهم. عندما تنحني تنكسر يا حمود خويا. قاوم يا حمود يا حبيبي، إنهم وراءك، لكننا والبحر معك. معك حتى الموت. عليك أن تنهي نشيدك. ماذا نملك غير صدف هذا النشيد الذي يسرق منا في كل مرة ونستعيده.

رفع الثعبان سلطان زمانه رأسه. أخذ يتأمل كل الحركات ووجوه الناس بنظرات مقيتة وحاقدة. ثم عاد من جديد نحو المجذوب. يعرفه من رائحته وحركاته حتى ولو اختبأ في بطن أفعى. كأنه يتتبع ضحيته. لم تكن هناك الأعشاب الدائمة الخضرة التي تعوّد الناس شراءها في آخر الحلقة. كل ما هنالك كيس شديد السواد ينام في الزاوية المظلّلة من الحلقة بحيث كان الأوحد الذي يراه ويحسه.

استقام المجذوب مثل المتادور[١٠٢] في لحظاته الأخيرة. ونظر نظرة ثاقبة وحادّة في عيني الثعبان الكبير الذي يستطيع أن يبلع إنسانا بكامله في لحظة الغفلة، ولم يرمش عينيه أبدا. بيما ظل الثعبان أيضا مثبتا في نظرته، يتتبع حركات المجذوب.

- هيا تحرك يا بوراس. ورّيني شطارتك يا سلطان زمانه. واحد فينا يجب أن يترك الطريق للآخر. قل ماذا رأيت يا ابن العيساوي في هذه الدنيا؟ كم من الناس غدرت؟ أحك ولا تخف. الناس يعرفون أن خصالك لا تحدّ؟ نحن في لحظة المكاشفة. تكلم تحدّث عن الذين قتلهم غيلة. داعبتهم حتى اطمأنوا إليك، ثم كسرت ظهورهم. يا حيف

---

(١٠٢) مصارع الثيران Matadore

على الشجاعة يا حيف؟ كنتَ تحمل السم، وكانوا يحملون الورد. اخلكِ. تحدّث عن الذين لم يكن أمامهم إلا أن يموتوا أو يقتلوك يا بوراس. خبّيتْ راسَكْ داخل قصر عزيزة التي قتلتها ثم جئتَ إلينا وكأن شيئا لم يحدث؟ خبّأتَ رأسك داخل قصر محاط بالنار والكهرباء والأسلاك الشائكة. كنتَ تظن أن لا شيء يلمسك. تأمل الآن ماذا حدث؟ ها هي ذي النار التي أكلتْ رأسك، تحرق كل كنوزك الوهمية.

ضحك الناس. همهموا هنا وهناك. فهمهم المجذوب. قال ساخرا.

- يا جماعة ما كانش شرطة بيننا؟

- خافوا وتخباوا عند الجيران هههههه.

سخر أحد الحاضرين في الدائرة الأمامية، في ساحة الشهداء.

- الحمد لله. أعوذ بالله، وهل يصحُّ؟ أنا لم أقل شيئا عن الحاكم يأمره. ما تغلطوش، حاكمنا هو المِيُور في لوموند(١٠٣). أنا أتكلم عن سلطان زمانه الذي يشبهه فقط.

تضاحك الناس مرة أخرى، بينما التفت هو نحو الثّعبان من جديد.

- ألم تطلب مني أن أشطح في مملكتك؟ ها هي ذي مملكتك يا حبيبي تتحول إلى رماد. فمن ينجيك من المصير المحتوم؟ ها أنذا أرقص كالمجنون، حالة الجدبة والحضرة، ولا آبه بملكك، أنا في سلطاني، بين أهلي وأحبابي، يحبونني وأحبّهم بلا ثمن. أرأيت يا عزيزي كم نحتلف، وكم أن المسافات التي بيننا كبيرة؟ أعرف أنك ستقتلني في أول فرصة تتاح لك. حقدك أعمى. لكني لن أسهل من مهمتك.

سخن المجذوب بنديره من جديد، ثم نقر عليه بضربات جافة وقوية تشبه طام طام إفريقي يمهد للحرب، أو للهجمة الأولى. تحرّك الثعبان

---

(١٠٣) حاكمنا هو الأفضل في العالم. الكلمة من اللغة الفرنسية: Le meilleur du monde.

مستعدا للمعركة. أدرك بغريزته أن الحرب بدأت. دار حول نفسه طويلا يشحذ أسلحته ويتهيَّأ للموقعة الأخيرة. كانت قطعة الكتان العسكرية، المطرزة، تتلألأ على جسده، تحت انكسارات الضوء الآتي من اللمبة القريبة، في عمق ساحة الشهداء. حرك قليلا القبعة التي غطّت عينيه، فسقطت على الأرض. يانت السعادة في رقصته. تحرر من ثقلها. ثم ارتمى على أصبع المجذوب. بالضبط على الشاهد الذي كان يتهدده به ويتوعده. هااااه. ضحك المجذوب وهو يتفادى العضة في اللحظة الحاسمة. أعرفك يا ولد الحرام. تمتم المجذوب. عندما أخطأ الثعبان طريدته، وقف على ذيله وجزء من بطنه يتأمل وجوه الناس. تفرسهم في عيونهم. كل المعابر كانت مسدودة. الكثير من الجمهور كانو مسلحين، إما قادمين من المعارك، أو من الحرس المدني الذي عوض القوات الخاصة والشرطة التي حُلت في اليوم الأول من انتصار الثورة أو من الفرق الانتحارية التي لا تظهر في الحياة العامة إلا قليلا. كان هذا أول قرار اتخذته الجبهة المكونة من العمال والعلماء وطاقات الوطن الحية. تأمل أسلحتهم. كان في يد كل واحد إما سلاح ناري، أو بندقية صيد، أو سلاح أوتوماتيكي، أو حتى أسلحة بدائية كالمذاري أو السكاكين والسيوف، أو الفؤوس وأعصية الكريش والزبوج.

- واش بك يا سلطان زمانه؟ خفت؟ بردت؟ هل قلّت همتك في الدفاع عن نفسك؟ قصرك الآن يحترق. تليفزيونك، صندوق الكذب طار من بين يديك. الشماليون خرجوا بطائراتهم الثقيلة والخفيفة. الفرق الانتحارية استولت على القاعدة الأمريكية. كلهم تركوك يا ابن أمك، واش بقى لك؟ أرفع رأسك آبًا؟ واش بك تتأمل مهزوما، الغربان وطيور النورس عادت إلى بحرها، والبحر استعاد زرقته من شدة النار المقدسة التي نشبت في موجه ومائه، ولم تبق في السماء إلا الكواسر والغربان التي تنتظر محاكمتك العلنية وموتك. باسطا. كل هذا الزمن من وجودك باسطا. لقد انتهى عصرك، وتوقّفت ليلتك.

في اللحظة نفسها دخل الطاووس ابن أمه يلهث من شدة الركض.

على رأسه شاشيته المعتادة التي كتب عليها: **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**. اخترق الجمع ليخبر الحاضرين بأنه رجع من الجبهة، وأن الماريشال، قمر الزمان، قد مات. فقد رمى بنفسه في سرداب الأسود الجائعة بعد حالات اليأس التي انتابته قبل أن يُفاجأ بالفرقة الانتحارية الأولى والعلماء وهم يقتحمون الأجزاء السرية من قصر عزيزة.

- فووووول آخويا، فووووول. فرصتك يا الطاووس. قبل أن يأكل الحاقدون رأسك.

- حوصر الماريشال من كل الجهات. كانت النيران تشتعل عند قدميه. لم يصدق ما كان يحدث. تصور أن المسألة لا تغدو أن تكون مجرد مناوشة من مناوشات العلماء أو البحارة الاعتيادية. وحين واجه الفرقة الانتحارية الأولى، قال هو يرتعش من شدة الخوف: لقد خففت عليكم العمل. أنا من قتل الطاغية وهو الآن في التابوت. إذا شئتم أن تحولوا المملكة إلى جمهورية أنا موافق على إدارتها بخياراتكم. سأنفذ كل الإصلاحات التي وعدتُ بها، وسأشيع العدالة في البلاد كلها. وأعيد إلى الشعب ما للشعب. وأغير قصر عزيزة بتسمية جديدة: قصر الشعب. ثم وضع يده على نياشين رتبة الماريشال مخافة أن ينزعوها منه. عندما يئس، وضع المسدس على رأسه وهدّدهم: إذا تقدمتم خطوة سأنتحر. قال له أحد العلماء وهو يتقدم باتجاهه:

- ورّينا مواهبك السرية في القدرة على الانتحار مثل رجال الساموراي؟

- والله... والله... ثم والله... خطوة واحدة وسأنتحر.

- لا تقسم كثيرا. أنت أجبن من أن تفعلها وإلا لكنت انتحرت وأرحتنا من زمان.

- خطوة واحدة وسأفجر رأسي؟

- فجّره. من أي حرب عدتَ يا طويل العمر؟ ومن نصّبك ماريشالا داخل مملكة أصبح كل شيء فيها مضحك؟ استسلم وستستفيد من

محاكمة قانونية. أنت في النهاية مسؤول عن تدمير الأحياء الشعبية بالقصف والتقتيل الجماعي.

- خطوة واحدة ولن تجد ما تجمعه من دماغي. البلاد بلادي. نزعت رقبة والدي من أجلها. لن أسلم في حقّي. حقّي وحق أجدادي.

- الأفضل لك أن تصمت وتسلم نفسك، أنت في النهاية لستَ مذنبا، مجرد ضحية، ووجودك كله عبارة عن خطأ طارئ.

فجأة شعر بهول الفراغ الذي كان يحيط به، وضيق الدنيا. كان العالم يتقدم والماريشال يتقهقر باتجاه الزر المتحكم في البوابة الأرضية المؤدية إلى سرداب الأسود. كان محتاطا لكل شيء. عندما فَقَدَ الأمل في كل شيء أعمض عينيه، ثم ضغط على الزرّ. تدحرج في الفراغ. دنيااااا. . . غاب صوته في أصداء الأنفاق والسراديب التي ظلت تردّد نداءات يأسه. صرخ على أمه دنيا لكي تدركه، لكنها كانت بعيدة. سافرت على متن الطائرة الحربية الثقيلة الخاصة التي وُضِعت تحت تصرفها هي والحاشية والأصدقاء الشماليين والمؤرخ الجنرال، آخر وزراء دفاع الجملكية.

كان الطاووس ما يزال يلهث من شدة التعب. كلما أعلن خبرا جديدا صفَّق الناس وتعالت الزغاريد من الشرفات، وأُطلقت النار في الفضاء.

- أرأيت الأقدار يا خويا الطاووس. حوَّلتْك إلى قوال من حيث لا تدري. كنتَ تكرهم فأصبحتَ واحدا منهم، قبل أن تنفرهم من جديد. أأدركتَ اليوم يا صاحبي أن حرفة القوالة استحقاق وليست مجرد رغبة جامحة؟ زدْ آخويا زدْ. احْكِ.

ردد المجذوب الذي كان مشدودا إلى الحكاية التي عرف الطاووس كيف يحتفظ بكل تفاصيلها حية ومشتعلة. شعر براحة كبيرة وهو يسمع إلى نشيده الحيّ.

- دنيازاد أدركت بحاستها الأنثوية الحادة، أن كل شيء كان قد انتهى. عندما رأت أنّ المقاومين استولوا على الإذاعة والبثّ، وأن قصر

عزيزة أصبح نهائيا في مرمى الثوار، قالت لابنها أن يهيّء نفسه للمغادرة. فالحكم لم يُكتب له. الزّمن كان قد توقّف نهائيا ولم يعد من الممكن تغيير مجرى الأشياء. تحليلات الشماليين أكدت كلّها على أن المسألة صاعقة وسريعة، وميئوس منها، لأن كل المعلومات المقدمة من طرف الحاكم بأمره لم تكن صحيحة. كان الماريشال منكسرا. قال لها: لن أموت عطشا وأنا على حافة الساقية. ردّت عليه بصرامة:

«- قمر الزمان؟ تعرفني مليح أني لا أستسلم أبدا للسهولة. هذه المرة الحالة انتحارية، ولا أريد أن أنتحر يا جليل القدر. الحديث يطول. ولو فتحته قد لا ينتهي أبدا. هيا يا قمري، حزّم نفسك نرْحل. هناك طائرة تنتظرنا مع أصدقائنا الشماليين. لا تركب رأسك فتخسر عمرك.»

لكنّه تعنّت وركب رأسه، لأنّ المعلومات التي كانت تصله من حين لآخر، تتيح إمكانية الأمل وتدمير معاقل الثوار بعد أن أضعفهم. قال لها: مازلنا سادة المبادرة.

«- البلاد ليست لهم ولن أسلّمها للرعيان على طبق من ذهب.

- وين مخّك؟ القذائف أصبحت تخترق قصر عزيزة وأنت تحدّثني عن زمام المبادرة؟ والطرق الستة المؤدية إلى المطار، أصبحت محتلة بالرغم من المقاومة. لم يبق أمامنا إلا طريق واحد ووحيد سيبصبح مستحيلا اليوم أو غدا. ارحَلْ يا ابني.

- لا يا يُمّا دنيا، لن أفرّط في حقي في الحكم.

- لا تكن مجنونا، حياتك أسبق وأولى.

- لا أبدا يا يُمّا. أبدا.

- طيب، أنت احترتَ. سأتركك أنت وحلمك. لا وقت لدي الجماعة تنتظرني.»

وما كادت تخطو عند الباب خطوتها الأولى، حتى التهمت إحدى القذائف الحارقة جزءا من فستانها الأبيض، والستائر السمرقندية والهندية

التي كانت تغطي نوافذ قاعة الإستقبال. تفحّم بأدخنتها السوداء السقف والحيطان. قبل أن تغادر المكان نهائيا، سألته بارتباك مرة أخرى، وكان ذلك آخر كلامها، ظل يتذكره قبل أن يندفن في الأنفاق:

«- أمازلت مصرا على جنون السلطان والبقاء على كرسي الموت؟

- طريق السلامة يا لالة دنيا. سترين كيف ستغيّر ليلة الليالي مسارها.»

لاحظت أنه للمرة الأولى، لم يقل أمّي، ولا ماما، ولا حتى يمّا التي تعلمها من فم المربية البربرية وأصبحت دارجة على لسانه. أرادت أن ترجع له ثانية وتحاول أن تقنعه من جديد، لكن الزمن كان قد تخطى منطقة الممكن. خرجت مسرعة، تحت هدير الأصوات التي كانت تقترب من قصر عزيزة، وإلحاحات أحد الشماليين: بسرعة يا مدام... بسرعة. أرجوك. الطائرة ستقلع ولن تنتظرنا. كان الوراق، وزير الدفاع، ومؤرخ الجملكية جاهزا وينتظر الأوامر بعد أن تنكّر في ألبسة مدنية شعبية عادية. بينما ظل الماريشال جالسا في مكانه كأنه التصق بالكرسي، عيناه مثيتتان في الفراغ، ينتظر آخر التقارير التي كانت تفده من كل الجبهات التي كانت في مجملها ذات نبرة سواداوية.

- يا خويا الطاووس، صرخ المجذوب، قل لي واش صار في الكبُّول؟ في فرخ الرواق.

ضحك الحضور مرة أخرى واندفنت النساء اللواتي كن يزغردن إلى عمق البيوت قبل أن يعدن من جديد إلى الشرفات، للاستماع لتدخلات المجذوب الحمقاء، وقصة الماريشال، ورقصة الثعبان سلطان زمانه.

عدل الطاووس من جديد من هندامه وهو يبتعد قليلا عن الثعبان الذي كان ينظهر إليه بتعجب دون أن يتحرّك وكأن الأمر كان يعنيه هو شخصيا.

- الماريشال قمر الزمان. كان يتراجع إلى الوراء بحيث يصبح تماما بمحاذاة الزر الذي يفتح تحت رجليه سرداب الأسود. سمع زئيرها

فتخيلها تذهب وتجيء في انتظار قسطها اليومي كم اللحم البشري كما عودها الحاكم بأمره بمحضياته المقتولات.

- يا خويا الطاووس، شاشيتك تقول كل شيء. **الله لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**. وأنت غيّرتَ ما بنفسك، أما قمر الزمان، فهو من أراد ذلك عن سبق إصرار وترصد.

- كان الوقت قد انتهى، وزمن الحياة توقف عند تلك اللحظة. عندما أصبح أحد العلماء قريبا منه ضغط قمر الزمان على الزر، فتهاوى نحو الأعماق لم تُسمع إلا صرخته التي رددتها السراديب، وارتطامة الجسد الجافة، وزئير الأسود وهي تتقاتل على جثته.

- تصفيقة على عمي الطاووس. تصفيقة حارة. من اليوم اعتبروه واحدا منا، فَوّالا فحْلا. أما أنا فلي قصّة مع صاحبي سلطان زمانه.

زغردت النساء، وصفّق الناس طويلا لعمي الطاووس ابن أمه الذي ذهب ليرتاح بجوار الكلب قطمير وبشير إلمورّو الذي لم يتغير شيء فيه على الرغم من أنه لم يشرب قرصيه المعتادين، البرتقالي والليموني الأصفر، على الرغم من إلحاح ماريوشا عليه. كان مأخوذا بما كان يحكيه المجذوب وعمي الطاووس.

عاد الثعبان إلى الاستعداد لحربه المقدسة. حرب الضربة الفجائية والموت السريع.

- لن تسقطني في فخك يا بوراس. أعرف أنك من النوع الذي لا يستسلم بسهولة. ستقاوم حتى الموت. راح نشوفوا أنا وإلا أنت؟

مد سيدي عبد الرحمن المجذوب يده إلى حزامه، فأخرج سكينه الطويل من غمده. أدخله في كيس الأعشاب الأسود الذي فتحه لأول مرة على مرأى من الحاضرين المندهشين، ثم أخرجه بسرعة. تذكروا حادثة الفأر. ثم بدا يدور حول الثعبان وهو يدور برأسه معه مستعدا للانقضاض. وعندما تعب وشعر بالدوخة بدأ يتبعه بعينيه فقط. ثم مد السكّين باتجاه الثعبان، فارتمى عليه بقوة. وضع السكين بين فكّيه الحادين. ظل يشد بكل قواه. حاول المجذوب أن ينزعه من أسنانه

الحادة، لكنه لم يستطع. فاستعمل حيلة الدوران حوله حتى اضطر الثعبان إلى ترك السكين، ليبقى مثبّتا في مكانه، في انتظار الضربة القاتلة القادمية التي لا يعرف من أين تأتيه.

ابتعد المجذوب قليلا. دقّ على البندير نقرات أخرى جافة. لكن الثعبان هذه المرة رفض أن يرقص. أن يتحرّك. التفت شمالا، ثم جنوبا. شرقا ثم غربا. بانت له فوهات الأسلحة الفتاكة كثيرة وعيون الناس غير مريحة. انتبه المجذوب الذي كان سكينه يلمع تحت الأضواء التي انعكست عليه، إلى الدمعة التي نزلت من عين الثعبان اليمنى، مدورة وسوداء مثل القطران. أندهش الناس. فقد حدث شيء غريب لحظتها. عندما تقيأ الثعبان سائلا أخضر، بدأ يُدخل قسمه السفلي في عنقه، ويتقيأ أكثر فأكثر. فتزداد الخضرة التي كانت تندفع من أعماقه، اسودادا ولزوجة، حتى أصبحت مثل القطران ورائحتها كريهة. نظر إلى وجه المجذوب من جديد. هذه المرة بتهدل كبير، وانكسار واضح وانهزام بدا واضحا في عينيه. ضمرت كل علامات التأهب التي ظهر بها في البداية. كانت الحرب في فصلها الأخير. حاول أن يتقأ من جديد، لكن لم يبق في بطنه شيء. أدخل مرة أخرى أسفل جسمه. ثم فجأة، بدأ يقضمه بأنياب حادة، ويتأوه. لم يعد ينطر إلا إلى جسمه وهو يتضاءل ويقْصُر شيئا فشيئا. فتح فمه على كل اتساعه، وقضم كل ما تبقّى من جسده دفعة واحدة بحيث لم يبق إلا الرأس وجزءا صغيرا من رقبته. فتدحرج من تلقاء نفسه، مثل اللعبة المكسورة، عند رجلي سيدي عبد الرحمن المجذوب.

علت همهمات الدهشة وتمتمات الحيرة، التي كانت كلّها تعبّر عن الدهشة والغرابة. لكن سيدي عبد الرحمن المجذوب وبشير إلمورّو وماريوشا، كانوا الوحيدين الذين لم يتغير شيء في ملامحهم، ولم يخترقها أي تعجب وكأن كل شيء كان منتظرا. فجأة علا صوت بشير إلمورّو صافيا وبشوشا ومرحا.

- سلمت يداك يا خويا حمود الإشبيلي. الله يحفظك من العين.

هكذا الحرب وإلا فلا؟ النار الحارقة والمصلّى الأحمر من شدة التسخين، ومحاكم التفتيش، لم تستسلم لها ولم تبع مدينتك؟ وأخيرا محمد الصغير ممسوخا في هيأة ثعبان قاتل. لقد انتهى مثل سابقيه، وربما يشكل أفظع يا حبيبي. لا يكبرون إلا ليأكلوا أنفسهم في الأخير.

- شفت يا بشير خويا؟ شفت كيف انتهى توركيمادا الذي حدثتني عنه؟ وكيف نزف محمد الصغير حتى النهاية؟ ولكني أنا أيضا لن أنجو من هذه المقتلة... أشعر بقسوة النهاية. يبدو أنه زمن سيمسح الظالم والمظلوم معا.

مد المجذوب يده إلى بطنه كما في المرة الأولى. كانت الآلام قد زادت حدتها. حاول أن لايأبه بها. أن يتناساها على الأقل. نزع من أحد الفلاحين الواقفين رزّته التي كانت على رأسه وحوّط بها بطنه السفلي. ثم واصل تأمله للمشهد.

- أعرفتم لماذا نظر إليكم جميعا بحقد ويأس؟ لأن وجودكم الجماعي أغلق أمامه كل المسالك والمنافذ التي تعود أن يهرب منها أو يتخبأ في جنباتها السرية. لم يجد أي مخرج يعبر منه. عرف أن الدنيا انغلقت كلها في وجهه. لم يكن لديه خيار ثالث، إما أن يموت مقتولا برصاصكم وفؤوسكم وسكاكينكم، أو يأكل نفسه بالشكل الذي رأيتموه. كان يريد أن يهرب، لكن يهرب فين ووين بعد أن انتهت ليلة الليالي أو كادت...

علت همهمات هنا وهناك.

- مازال. الباخية لم تنته.

رفعتْ ماريوشا صوتها عاليا مرفوقا بترديدات بشير والمجذوب، ومن حين لآخر الطاووس. بعدها علت أيضا أصوات الناس الذين كانوا يحفظون النشيد الذي كان يملأ المدينة وحواف البحر والوديان التي كان هديرها يأتي من بعيد، وحتى من قصر عزيزة الذي غاب داخل أدغال الأدخنة والظلمة المعمية للأبصار.

عاودته آلام بطنه. شعر المجذوب بالنهايات التي كان يعرفها جيدا.

كان الناس ما يزالون يصفقون بحرارة للمشهدية التي عاشوها. ويتساءلون عن ثعبان غريب وضخم أكل نفسه في حالة يأسه. حاول أن لا يُظهر شيئا لكن الآلام الحادة التي كانت متباعدة، أصبحت متواترة ومستمرة بلا توقف.

«- السمّ يا خويا بشير. السمّ الذي في قلبي وبطني بدأ يسرى في كامل جسدي. ذهبوا لكن سمَّهم ما يزال هنا. لقد سرقوا الذكرة من بشير، وهاهم يسرقون عمري. لم أختر ساعة موتي ولكنني أصبحتُ أعرفها بالسليقة، بحاسة الشمّ. بالعذاب الذي ينخرني منذ مدة ليست بالقصيرة. ليلة الليالي أكلت طغاتها، ولكنها بدأت كذلك تأكل أحبابها وأشواقها وحنينها. إني أشعر الآن بالنشد ينكسر في الحلق، وبالموت يصعد من أخمص القدم، من رجلي، حتى القلب. ولا حل أبدا. الضرّ قديم يا بشير. لقد سمّموني بالتقسيط وأنت سيّد العارفين.»

- عمي المجذوب لا تستسلم لسلطان موتهم، عليك أن تداوي. هذه السّموم يمكن إزالتها. سنأخذك لأعظم الأطباء ونشفيك.

- لا يا عمري. لا. اللّي بْقَى فِي عمْره نْهَارْ واحدْ، مَاتْ. ليلة الليالي عندما تهب، علينا أن نتحمّل زئيرها وجبروتها ورياحها القاسية. لا يا مريوشا يا بنتي، عندما يتعلق الأمر بالموت والقتل فهم لا يكذبون أبدا. لقد سمّمُوني على مدار عشرات السنين. إني أموت يا ماريوشا، ولا قوة في الدنيا قادرة على إنقاذي. إني أموت.. يا ابنتي... أمووووووت.

بدأت كلماته تتقطع. اقتربت ماريوشا منه. اتكأ على ذراعها، تأمل عينيها السوداوين والحيرة التي ارتسمت فيهما والعجز الذي كسرهما.

- لقد فهمت لماذا فصلوني عن حيواناتي ما عدا كلبي قطمير الذي ظل وفيا لي. عرفت فيما بعد أن الموت كان يصلني على أقساط يومية في كأس النبيذ التي كان يرسلها أحد العسس في الحديقة، وعندما كنت أسأل عن المصدر، كان يقول لي: من صديق قديم لم أعرف وجهه أبدا. وحين وجدت نفسي في الشوارع، كان السؤال المحير يملأ قلبي،

ولهذا تمنيت أن أموت في الاقتحام الأول على القصر، لكن الأمور كان قد حسمها علماء القلعة وعمال البحر، ورجال الفرقة الأنتحارية الأولى. كان يجب أن أشهد موت سلطان زمانه. الثعبان القاتل. هو ذا حبيبي بشير قد ضيّع هو أيضا الذاكرة، لكنه استعاد حمود الإشبيلي. لا يهمّ من أكون في عينيه الآن، المجذوب أو حمود، نفس الشيء. كلانا قاوم الزيف المقنّن، وكلانا مات من أجل سرقة لغة البحر وأسرار المدينة.

مسد المجذوب على رأس ماريوشا، ثم أخذ البانجو من الأرض وأعاده إلى ماريوشا من جديد وطلب منها أن تعزف النشيد الأندلسي على ميزان رمل الماية. ثم أفرش زربية السيد علي كما كان يسمّيها. أراد بعض الناس أن ينهوه، خوفا من البرد، لكنه بحركة يده رفض كل شيء:

- يجب أن لا تخافوا من الموت. هو فينا نتنفسه مع أول قطرة حليب تدخل معداتنا، ومع أول صرخة تخرج مخنوقة من حلوقنا. اعزفي. أريد أن أسمعك وأرتاح قليلا. شدّ على بطنه من جديد بالرزّة التي انتزعها من رأس الفلاح. ثم انكفأ على صدره وبدأ يسمع إلى شدو ماريوشا الذي لم تتوقف في تلك الليلة. كان حنينا حزينا وباكيا.

يا شدوي الحزين، يا قلبي،
مدني ماتت وسفني انكسرت.
يا شدوي الحزين أمواجي اشتعلت.

قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة، رأى المجذوب الأشياء التي لا تحدث إلا مرة واحدة في الحياة. كانت النيران قد توقفت الكثير من شعلاتها. استذكر قبة قصر عزيزة وقد علاها علم يحمل صورة قوس النصر ونجمة البحارة. رأى الناس وعيونهم ترقص فرحا. شاهد الأعراس وسمع سيارات الإسعاف التي كانت تذهب وتخبئ برتابة كبيرة، والكثير من الأناشيد الوطنية التي طمست تحت الأتربة منذ زمن بعيد. سمع صرير الأبواب الثقيلة التي كانت تفتح هنا وهناك، فيعقبها هدير الناس الخارجين وفرحاتهم المتعالية.

تمتم آخر كلماته في أذن ماريوشا:

- عينك على قطمير يا ماريوشا، سيصبح يتيما بعدي. اعزفي لا تتوقفي.

ثم وضع يديه على بطنه ثم قلبه ثم على وجهه. قاوم ألم العينين اللتين ظلتا مرتشقتين على أعلى النخلة الكبيرة التي كانت تقف بامتشاق وبشكل شاذ في ساحة الشهداء. إنها أقدم حتى من قصر عزيزة ذاته، يقول الأوّلون. ينشب أظافره في التربة. ويضغط على أسنانه بقوة، ولكن بجلد كبير.

- غنّ يا ماريوشا لبشير حبيبي آخر الأناشيد الحزينة. لقد سموه العاشق الأندلسي، وسمّتْهُ ماريانا التي تملأ قلبه الآن: مجنونها الأوْحَد. هو الآن لا يسمعني لكنه في قلبي. لا يرى أمامه إلا محاكم التفتيش وعذابات حمود الإشبيلي، وصفائح النار. انشدي معي يا ماريوشا، انشدي.

وارتفع صوت سيدي عبد الرحمن المجذوب صافيا من جديد، متجاوزا حالة الألم، ثم قال: إن هذا النشيد الأخير مقدس، يؤديه المرء واقفا على رأس رجليه، مهما كان عمره وحالته الصحيَّة. مد يديه لبشير وماريوشا اللذين قاما له. اتكأ عليهما.

جئنا من بعيد. جئنا من بعيد

ڤوالون في قلوبنا الحقيقية

هللو يا!! هللو يا!! هللو يا!!.

قبل أن يغمض عينيه مرة أخرى، رأى وريقات كتاب الأمة تتبعثر في السماء، مليئة بالبيانات المتناقضة التي أعدها الحكّام السابقون واللاحقون والفرامانات وأوراق الصحف القديمة والجديدة، التي رآها قبل أن يدخل إلى القصر ولم يقرأها، لم يبذل حتى أدنى مجهود لذلك. كان يعرفها من أختامها وأشكالها. وكان يدرك مسبقا أن كل هزائم المدينة قد حُوِّلت إلى انتصارات، وكل الانتصارات كانت على الشعب الأعزل وضده.

نزع بشير معطفه الصوفي وأفرشه فوق زربية السيد علي. جلست

ماريوشا التي بانت على وجهها رعدة البرد. تمدد المجذوب بكامل طوله، واضعا رأسه على إحدى ركبتيها، ويده في عمق كفها. اكتشف بشير فجأة أن يوشا كانت تلبس بياضا، وها هي ذي الآن تشهد موت حمود الإشبيلي الذي كان يتضاءل بين يديها حدّ الانتفاء. كان الناس مشدوهين فيما كان يحدث أمام أعينهم. لم يكونوا يعرفون لهذا كله، له لا بداية ولا نهاية. مسد بشير إلمورّو على رأس المجذوب، تأمل تقاطيع وجهه وملامحه، ثم بدأ ينشد أحزانه، راجعا إلى أعماق ماريانا الصافية. لم يكن نشيد الموت ولكنه نشيد الأبدية.

السلام عليك يا مائدة حية حوت خبز الحياة.

السلام عليك يا ماريانا، ينبوع الماء الحي الذي لا ينضب

البرايا بأسرها قد ذهلت من مجدك الأبدي.

- حمود خويا. هو ذا النشيد الخامس انشده على شرفك لكي لا تذهب وحيدا مثلي، في أراضي المنفى. بيني وبين هذا النشيد المشتهى، زمن غير قصير. علمتني ماريانا أن أرتقي سلّم الروح، وانسحبت في هاذي المدينة بدون أن تلتفت وراءها. أراها إذ لا أراها. ثم مسد على رأسه من جديد، بينما كان وجه المجذوب قد غاب، لكنه على الرغم من ثقل الأشياء التي كانت فيه، التفتَ المجذوب بعينيه المتعبتين نحو ماريوشا التي كانت منهمكة في محاولة فهم العلامات المرتبكة التي ارتسمت على وجه بشير إلمورّو.

- ماريوشا. . . سيجيئك ابنك بعد حين، أو بعد سنوات، أو بعد جيل من الزمن القادم، وسيقول لك ماما، أمي، مّا، يماً، احْكِ لي قصة عمّي المجذوب الذي أحبَّك وأحبّ المدينة حتى كاد أن يفعلها مثل نيرون؟ ذكّريه فقط أن الفارق الوحيد بينهما، هو أن نيرون كان طاغية لا يفكر إلا في نفسه الصغيرة، بينما لم يكن المجذوب يملك إلا قلبه ونشيده الذي حرره بشير إلمورّو. احْكِ لأبنك عن المجنون وهو يروي قصص الأوّلين، كيف كانت تنْغرس عيناه في التربة أو في السماء، ويبدأ

يتمرّغ كالذبيحة عندما تغيب عنه التفاصيل لأنه لا يعرف الكذب. قُولي له إنّ بشير إلمورّو كان حقيقةً وفوالا حيًا، ولم يكن مجرّد فكرة، أو رجلا مولعا بالقراءة، قادته الأنواء أو ضربة شمس إلى مغارة الصيّادين. تهلاًّي في حبيبي بشير، حين يتذكّرني ويعود على صوابه المسروق، يكون الزمن قد مضى، لأنَّ الساعة تكون قد قفزت إلى توقيت آخر لا أنا أعرف ملامحه ولا هو يستطيع أن يسيِّره.

كان قلب ماريوشا مضغوطا مثل قطعة قماش مرت عليها كل الوجوه.

- يا عمي المجذوب ما أعظم قلبك وشوقك! ما أروع التربة التي احتضنت حنينك. بشير لا يرى الآن إلا أندلسه. لا يراني ولا يراك ولكنه يرى حمود الإشبيلي وماريانا. أنا ماريوشا التي عشقت مدائن الموت التي تلد الحياة. أنا ماريوشا، التي تحفظ كل شيء ولا تنسى صورة النينوي وهو يبتسم وسط حرائق الصنوبر المقدس. لا تنسى الحزن الشنيع الذي كان يملأ عينيك وأنت تعرف سر تسمّمك. أنا ماريوشا التي ما تزال أصوات السطل الألماني، ومطارق الموت التي كانت تنزل على رأس بشير، تملأ دماغها. أبكيك يا عمي المجذوب مثلما أبكي كل الذين احترقوا عند مداخل المدينة. أشدووووك.

كانت يده قد بردت في كفها. حكّتها طويلا لتُدفئها، ولكنها ظلت باردة، وعينا سيدي عبد الرحمن المجذوب مرتشقان في سماء مبهمة. لم تقل شيئا، لكنها دفنت رأسها في صدره وتركت دمعاتها تسقط بغزارة وسط صمت مطبق لأصوات الحاضرين.

على الرغم من رياح البحر الخفيفة المحملة باصداء الأيام الأخيرة وملوحة المدينة، فقد صفا الجو وظهرت بعض الأنجم التي لونت السماء الهادئة. أُشعلت آلاف الشموع حول سيدي عبد الرحمن المجذوب الذي سُجِّيَ في وسط ساحة الشهداء. أُنيرتْ الشرفات المحيطة بالساحة. يقول مجلس المدينة الجديد إنهم كانوا أكثر من مليوني شخص الذين حضروا نشيد المجذوب الأخير.

من أعالي مرتفعات جبل الكبريت حيث قلعة العلماء يبدو مشهد ساحة الشهداء مدهشا. كانت هالة من النور تحيط بالمجذوب. لم تكن تضيء الساحة الواسعة وحدها، ولكن أيضا عطش الناس الذي دام عقودا، قرونا، وربما أكثر.

ظلت الأناشيد تتعالى بشجيّها وحنينها طوال الليل، حتى الفجر، عندما تغيَّر لون السماء نهائيا، وتعالت أمواج البحر بنداءاتها وتكسّراتها، وبدأت الأمطار تتساقط. لم تكن قوية ولكنها كانت كافية لتُعلِن عن نهاية فصل وتبشّر بميلاد فصل آخر.

* * *

الفصل السابع عشر

مسالك العبور

ظل المطر على نعومته، لكنه لم يتوقف طوال الليل.

في الصباح بعد إغفاءة خفيفة، وضع بشير إلمورّو يده في يدي ماريوشا وسارا باتجاه مقبرة الشهداء يتبعهما الكلب الأمير قطيمر كما سماه سيدي عبد الرحمن المجذوب. كانت مقبرة الشهداء كبيرة وواسعة. كان يوما حزينا. على الوجوه علامات التعب والحزن ممزوجة بشوق يخترقه شيء خحول. صُلّيت الصلوات في المساجد وحركت نواقيس الكاتدرائية الوحيدة في المدينة التي شُيِّدت على أحد مرتفعات المدينة قبل قرنين في مكان مَعْبَد قديم لم يبق منه الشيء الكثير. الوحيدة التي لم يمْسُسْها مشروع التهديم الذي تبنَّاه الحاكم بأمره، لأنها ملكية الفاتيكان الذي دافع عنها أمام المنظمات الدولية وحقوق الإنسان وحرية المعتقد. وكُنِّسَتْ الشوارع من القصاصات والجرائد اليومية والصحف القديمة. الزبال الذي كان ينظف الطريق المنحدر المؤدي إلى مفترق البحر والمقبرة، ضرب إحدى الصحف برأس حذائه، فانفتحت على الصفحة الرئيسية مبرزة صورة الماريشال الجديد قمر الزمن، جليل القدر، وهو يبتسم للأمة وقد كتب في المانشيت: **الماريشال قمر الزمان يتسلم زمام دولة الإصلاحات**. وفي إطار آخر مجلل بالسواد، صورة التابوت الذي وُضِع فيه جثمان الحاكم بأمره. كُتِبَ تحته في مستطيل صغير: **هنا يرتاح جثمان فقيد الأمّة، المغفور له الحاكم بأمره، سيّد جملكية آرابيا الحديثة وباني مجدها**. رفسها برجله ثم واصل تنظيفه للمكان. تمتم بصوت غاضب:

«- ماذا بقي منكم ومن صُحفكم يا معلّم يا كبير هههه؟ لا شيء. أنت الآن تحت قدمي أقل من حشرة عابرة.»

قبل زمن قصير، كان كل من يضبط يشوّه وجه الحكيم بقلمه، تُسقط عنه كل حقوقه المدنية، ويُتَّهم قضائيا بالقذف، هذا في حالة إذا لم تُرفع ضده قضية المساس بأمن الدولة. قد ينتهي الأمر بالمتّهم إلى تلبيسه قضية تنظيم عصابة من الأشرار تستهدف استقرار البلد، ومحاولة اغتيال الحاكم بأمره. وفجأة يُغيَّب في عمق الظلمة وتنطفئ أخباره. زاد الزبال من ضغطه على وجه الماريشال ببوطه حتى ترك علاماته مرسومة على وجهه، ثم واصل تدحرجه بعربة التنظيفات الصغيرة، نازلا صاعدا باتجاه المقبرة.

كل شيء تمَّ داخل صمت مهيب. عندما انتهت مراسم الدفن، نزل الجميع باتجاه البحر، مكان التجمع العام. كانت ماريوشا التي لم تترك يد بشير إلمورّو تتأمل من حين تقاطعيه وهو ساه في تأمل أفق غير محدد، فيبدو لها إنسانا عاديا كجميع الخلق قسماته رائعه. خصلات الشعر البيضاء زادته وقارا وألقا، بالخصوص بعدما هذَّب لحيتَه أحدُ عمال البحر. كانت أسرار الألوان وتداخلها، تُقرأ في عينيه المتعبتين اللّتين لم تفقدا صفاؤهما. لم يترك يدها والتفاته الدائم تجاه قطمير الذي تعود عليهما.

الذي حدث في البحر، في التجمع العام، كانت دهشته تتجاوز سحر البحر ذاته. فقد كشف العمال والعلماء ورئيس الفرق الانتحارية، الستار عن أضخم تمثال في المدينة. بشير إلمورّو هو بكل تفاصيله. يكاد الفرق بين التمثال وبين بشير إلمورّو ينتفي. فقد صُنع من الرخام النبيل الذي يعكس كل الأشياء التي تلمس سطحه. حركة التمثال كانت مدروسة بدقة، تعطيه حيوية أقوى وطبيعية كبيرة. كان يمدّ يديه نحو البحر كأنه يريد احتضانه كلّيا، أو يستنشقه دفعة واحدة. كانت ملامح نظرته موزعة بين موج البحر والمدينة التي كانت تزحف عشقا وراءه، بطيورها ونوارسها، وأعشاشها، وأشواقها، وشوارعها الضيقة والواسعة. عندما رأى بشير التمثال سألها:

- ماريانا. . .

- يوووووشا حبيبي. منذ الصباح وأنت تناديني ماريانا، هل نسيتني؟

- متعب حتى القلب، أريد أن أنام قليلا. الغفوة بدأت تأخذني، والألوان تتداخل في عيني. ابحثي لي عن مكان قريب من البحر. أريد أن أشبع بصري به قبل أن أنام. ماريانا. . . متعب. قلبي أصبح ثقيلا عليَّ.

أرادت أن تعيد على مسمعه نفس الكلام: لست ماريانا حبيبي، أنا يوووشا التي تشتهي نطقها ممطوطة، لكن ذلك بدا لها بلا أي جدوى. بشير لم يكن هنا. لم ينتبه حتى للتمثال الضخم الذي أنجز على شرفه. لم يسألها عن أي تفصيل فيه. كان الناس يحيونه، فيرد بيده وسط تيه كان يغلفه كليا.

حمل حفنة من الرمل، تأملها طويلا، ثم وضعها في جيبه.

- حبيبي؟ سألتْ ماريوشا؟ لماذا تفعل هذا؟ أنت ابن هذه التربة.

- هي ما تبقى من الحنين الذي مضى. حنين البلدان، والقرى والمدن والنساء التي انسحبت وكأنها لم تكن. إنها بقايا الزمن الذي تسرب بين الفجوات، مثل نسيم فجري مليء بالياسمين الإشبيلي، ومسك الليل الغرناطي. محمد الصغير غاب عن هذه المدينة لأنه كان يجب أن يندثر، عصره أغلق كتابه نهائيا. متعبون يا ماريانا حتى القلب، لكن الحرائق التي أشتعلت في قلوبنا كانت كبيرة. لم تكن أرضنا ولهذا نسيتنا بسرعة لكن لا أحد يحرمنا من حبّها. سنروي الرواية بكل صدق حتى ولو قيل عنا أننا، كفرة وملحدون وزنادقة، دخلناها بالسيف والسفن ثم نسينا الدم القوطي، وبدأنا ننشد الأناشيد التي أنشأناها معهم. حتى ولو. . . لو خُيِّرت اليوم، كنتُ عصيت طارق بن زياد، وحاربتُ موسى بن نصير حتى آخر قطرة من دمي فقط لينصاع ويتوقف عن غيِّه، وأُرجعه من حيث أتى. من قال لهم أرمونا داخل البحر وعودوا إلى قصوركم وحروبكم من أجل السلطان؟ كا ن يمكن يا ماريانا أن أقف على هضبة

طريفة وأتأمل طارق وهو يحرق سفنه حتى قبل أن يقطع المضيق ويعصى أوامر سيده، لكن التاريخ جنون وسلسلة من الحماقات يترتب عليها ما لا نعلمه مسبقا. تنتابني أحيانا رغبات غير سوية لأن أقف باستقامة أمام الله وأسأله: مع من تقف يا مولانا؟ مع الذين كانوا يركضون ويموتون ويجرون وراء خيط من النور؟ أم مع الذين حاولوا شرب البحر وحوّلوا الدنيا إلى قعر مظلم لا نور فيه؟ إذا بقيتَ مشيحا بوجهك المتعب، نَصْل العدل سيعلوه الصدأ، والنور الذي يولد الآن من الظلمة سينطفئ، والموت الرجولي ستُعوضه حيوات مسروقة. أشعر بغبن وقنوط يتطلب إخراج البحّة التي تسكن الصدر، والصراخ بأعلى صوتي: يا الله لماذا تخليتَ عنا؟ في قلبي الآن ينشأ نور سيدي الحلاج في حرائق الصنوبر المقدس. مولاي الذي صبر لداء الحجارة وتمزقاتها، وجرحته عميقا وردة الشبلي. تمنى وقتها أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة ولا يرى إلاّ الأبدية، لكن الوردة فتحت جرحه من جديد. لم يعد يعرف ما إذا كان الشّبلي معه أو ضده؟ التعب ينهكني يا ماريانا.

- نسير نحو القلعة. أفضل مكان لراحتك.

كان العلماء السبعة منهمكين في العمل، غارقين في تفاصيل كثيرة. اهتماماتهم تجاوزت قدراتهم على تسيير كل شيء. كانوا يكتبون، ويرسمون المخططات، وينظّمون الرماد الموجود في جلود الماعز، ليضعوه في زجاجات مغلقة، يسجلون عليها أسماء الشهداء، ويكتبون أخر السطور في قصّة آرابيا، في **كتاب المدينة**.

عندما غسل وجهه وحاول أن يطرد الإغفاء المستحيلة، طلب منه العلماء أن يكتب كلمته الخالدة في كتاب المدينة عن أيام **الشدة العظمى** المتعلقة بوضع الناس، في فترة حكم الحاكم بأمره، وكيف يتصور المستقبل. لا أحد يعرف إذا ما كان قد فهمهم جيدا. وضع القلم بين أنامله. تأمله جيدا، تحسس أوراق **كتاب المدينة**، كانت ناصعة البياض. حاول أن يتذكر الشعلة التي تصاعدت إلى السماء من أعماق دهاليز الموت، وقصص الناس، والأسواق الشعبية، لكن أيام الشدة العظمى لم

تأتِ. شعر برأسه فارغا، مليئا بالرياح الساخنة وأصداء محاكم التفتيش التي لا ترحم. تمتم: ماذا أكتب يا الله؟ ثم وضع القلم في مكانه بهدوء.

تأمل المدينة من أعلى القلعة، والبحر الذي كان ينحت الصخور في رتابة دائمة. رأى العمال منهمكين في إفراغ وشحن السفن الراسية التي أعطيت لها الإشارة بالاقتراب. رأى موسيقى الفونفار وهي تجوب الشوارع وتصدح فرحا. رأى حائط الفصل وهو يتسرسي كالثعبان، يفصل شرق المدينة عن غربها.

«- عمّاذا أكتب يا الله؟ دماغي مملوء بالرياح العاصفة، والأشكال الهلامية التي لا ملامح لها. ماذا أقول؟ لا شيء. ماذا أرى في الأفق؟ أشياء كثيرة، ألوانها أحيانا قزحية، وفي أحيان أخرى تنسحب مخلفة وراءها خيطا أسود مليئا بالأدخنة وندوب في السماء تقطر دما.»

عاد نحو كتاب المدينة. وهزّ رأسه ثم قال:

- متعب. لا أعلم ماذا أكتب. أعذروني، ألوان قوس قزح في كفّ الظَّلام.

ثم عاد ليقف أمام النافذة الواسعة، يتأمل سحر البحر. فجأة رأى مريرة صغيرة، تذكّر أنه قطعها ذات زمن. صرخ بأعلى صوته: هللو يا.. هللو يا..

السلام عليك يا عروس الله..

السلام عليك يا مسكن الله،

السلام عليك يا مظلة الله.

- هذا هو طريقي ومسلكي. كيف ضيَّعت معابره كل هذا الوقت؟ أخيرا... تعالي ماريانا، لقد عرفتُ الطريق. رأيتُه من هنا. واضح جدا كيوم ربيعي.

لم تظهر أية علامة من علامات الدهشة على العلماء والعمال وكأنهم كانوا يعرفون كل شيء. خرج بشير إلموزّو مصحوبا بماريوشا. هذه المرة هو من كان يقودها وليست هي.

ظلّت عيناه شاخصتين في المكان الذي حدّده من أعالي جبل الكبريت، في القلعة، قبل أن تمتلئا فجأة بشيء حيّ كان يتحرك بقوة.

رآه ناس كثيرون وهو يقطع الصخور والممرات الضيقة بسرعة كمن يبحث عن شيء ضاع منه فجأة. بعضهم بكى حزنا وتألم وهو يتساءل في حيرة: كيف تُقتَل العبقرية وتُبادُ في هذه البلاد، و كيف تَشُلُّ الهمجية عيون النور؟ أبناء الكلب، لقد سرقوا الضوء من عينيه، وفتحوا في أشواقه المزيد من الغياب والتّيه.

في الطريق سألت ماريوشا عن الراعي الذي قاده أول مرة نحو العلماء، لأنها شعرت من خلال حركات بشير وانشغال بصره ورؤاه، كأنه كان يبحث عنه؟ حكى لها بعضهم، أنه لا وجود للراعي، فهو العالم السابع نفسه الذي فتح رأس الشرطي في الحلقة، في سوق المدينة، كان متنكرا فقط ليتمكن من تأدية ما كان مكلّفا به. وقيل بها أيضا إنه تبعثر في أول هجوم على قصر عزيزة إذ كان من الفيالق الأولى المكلفة بفتح أبواب القصر الثقيلة. استمعت ماريوشا إلى كل ما رُوِيَ لها عن الرّاعي، ولكنها ظلّت على يقينها الأول، أنها رأته في ساحة الشهداء ليلة وفاة سيدي عبد الرحمن المجذوب، وكان من الذين وضعوا علَم البلاد الجديد على جثته، قبل أن يقرأ الفاتحة وينسحب.

ابتعدا عن المدينة. كانا يقطعان المعابر والمسالك الضيقة، بالرغم من الوحل والمطر الذي ظل يحافظ على رتابته ونعومته. كان بشير يمشي بيقين من يعرف تفاصيل الطريق في كل دقائقه. عرفت عندما اقتربا من المكان، إلى أين كان يتجه. فجأة سمعت نشيدا محروقا يأتي من بعيد أو من قلبها. كان مسكونا بالغياب والتيه، في إيقاع البندير والبانجو في صوت جماعي كأنه كورس جنائزي يسير وراء مُصَاب عظيم:

قَلْبِي يَا قَلْبِي طَاوِعْنِي...

يَاكْ أنا مُولاَكْ... لاَشْ لغَيْرِي تَدِوِي؟[١٠٤]

---

(١٠٤) أنا سيّدك، فماذا تنحاز لغيري.

لله آقَلْبِي جَاوبْني

آشْ نِدِيرْ مْعَاكْ. . . حَيْرْنِي أَمْرَكْ.١٠٥

عند مدخل الكهف، نزع بشير إلمورو برنوسه الصوفي الذي كان العلماء قد وضعوه على كتفيه عندما دشّنوا النصب التذكاري. لفَّ فيه ماريوشا كليا بنعومة حتى أصبحت مثل ملكة طارقية(١٠٦). تركته يفعل ما يريد بدون أن توقف حركته. ثم فتح ذراعيه عن آخرهما، في شكل صليبي، ثم طوقها طويلا. بدت بين ذراعيه كطفلة هاربة من البرودة القاسية. في تلك اللحظة لم تعد تتذكر هل هو الذي انحنى عليها بطوله وشموخه، أم أنها هي التي صعدت إليه، ليغرقا في قلبة طويلة أيقظت غيرة الحمام، وطيور النورس القادمة من البحر، والورام المهاجر طيور السنونو التي طارت دفعة واحدة. تمنّت أن تظل طويلا، على تلك الوضعية، مرتشقة في صدره حتى يتحولا إلى نثار تأتي الرياح الشتوية فتقذف به في الفضاءات الواسعة. في جنونها المتواتر، تمنّت أيضا أن تدخل معه إلى الكهف، وتقف أمامه، في شهوة مجنونة، كما ولدتها أمّها، ثم ترمي بنفسها في حضنه وتنام حتى الموت. أن تقلبه في كل نقطة في جسده حتى يستعيد كل حواسه وذاكرته، ثم تضع حملتي النهد في فمه بالتناوب وتتأمله بعد كل هذا الفطام، وتترك في حلقه مذاق الشّهد الأبدي. ولا يهمّ بعدها إن رآها ماريوشا أو ماريانا. لكنه أوقفها عند المدخل واضعا أصابعه على فمها حتى لا تتكلم. سلّمَها عصاه، والكلب الأمير قطمير الذي ظل يرافقهما طوال الفترات التي أعقبت وفاة سيدي عبد الرحمن المجذوب. قال لها: انتظريني هنا، وغدا أطلت النوم، عودي إلى آرابيا، هناك من ينتظرك على أحر من الجمر.

«- مُتعب أريد أن أنام. سأخرج عندما أستيقظ.»

الذين روَوْا في الكتب القديمة والرقائق، عن عودة بشير إلمورّو إلى

---

(١٠٥) فرقة جيل جيلالة الشعبية.

(١٠٦) من الطوارق.

الكهف، لم يكونوا مخطئين أبدا. فبالرغم من إلحاح علماء المدينة وعمال البحر بضرورة الاستراحة عندهم، إلا أنه أصر على مكان لم يتذكره إلا هو. عندما جاؤوا، تقول ماريوشا، وجدوها هناك عند المدخل جالسة. تسللوا إلى الداخل، فلم تسمع إلا أصوات العلماء والعمال وهي تتقاطع في نقاش كثيرا ما زادت حدته لدرجة الخصام.
أخذوا تربة بيضاء وضعوها في بوقال زجاجي كبير، وكتبوا عليها: **هنا ينام شهيد المدينة التي استعادت وجهها بعد ضياع استمر قرونا طويلة: بشير إلموزّو، قوال الأسواق الغرناطية وعشيق الغجرية ماريانوشا، وابن آرابيا الصادق.**

عندما عرفت الاسم الذي اختاره لها العمال والعلماء، غمرتها سعادة كبيرة على الرغم من الجرح الذي كان يخطّ قلبها. سُحِرتُ به بسرعة. فقد جمعوا بين اسمها واسم ماريانا. **ماريانوشا**؟ عندما خرجوا، سألتهم عن بشير وعن وضعه، وهل يشعر بالبرد؟ قالوا لها إنه غير موجود. لم يكن الأمر مهما، لأنها كانت الوحيدة المتأكدة من رؤيته وهو يدخل، وكيف لفّها في بُرنُسه، وكيف أنّ طعم القبلة الطويلة ما يزال على شفتيها وجسدها. بل وكيف حدّثها بأنه متعب ويريد أن يرتاح، وأنه سيخرج عندما يستيقظ.

فجأة خُيِّلَ لها أنها سمعتْ لحظتها صوته وهو يأتي من عمق الكهف.

تْبَعْتْ الوادْ اللّي خمَلْ بِيَ حَمْلَةَ واخدَةَ مْثِيت فِيها وأَدّاني،
وْهَانِي فِينْ الوَاد زْمَانِي، وَاشْ بْيَدِّيَ...
يَا ذُوك اللاَّئِمِين رَفْقُوا مِنْ حَالِي، لاَشْ اتْعَيْبُوا فِي قَوْلِي وأفْعَالِي.
آشْ دَرْت أَنا، آشْ دَرْت فِي مَا يَجْرَى لِي(١٠٧).

قالت للعمال والعلماء:

«- هاااااه؟ أتسمعون؟ هو ذا ينشد. إني أسمع صوته يأتي من

---

(١٠٧) فرقة جيل جيلالة.

الأعماق بكل أشواقه وأحزانه وحنينه. لا. هو هنا، سأنتظر عودته الأكيدة.»

هزوا رؤوسهم أنْ لا، وأكّدوا لها أنهم لم يسمعوا شيئا. قالوا لها، اتبعينا ماريوشا.

- من اليوم فصاعدا، ماريانوشا من فضلكم؟

ضغطت على الكلمة وصحّحتْ خطأهم عن قصد. ابتسموا بلطف لأنهم عرفوا بسرعة ما كانت تعنيه. أكدت لهم بلا تردّد بأنها ستبقى في مكانها حتى الصباح.

* * *

خاتمة الليالي

-١-

أحيانا اشتهي أن أنسى كل الوجوه ولا أفكر إلا في ماريوشا وأنا لا أعلم لماذا؟ ربما لأني كنت أراها دائما كلحظة مسروقة ومستحيلة لبشير إلمورّو. تفاحة الجنة التي تخطاها نحو ماض كان يسكنه، وكان يريد أن يصفّي حسابه معه نهائيا، ولكن زمن ثلاثة أو أربعة قرون لم يكن كافيا لكي يلتفت أخيرا نحو ماريوشا التي جعلت منه رهانها.

ومع ذلك، شيء واحد في القصة سيبقى عالقا في ذهني، للمرة الأولى يحدث معي أنا الرجل الذي تعلّم أن العقل هو سِراج الوجود: هلْ عاد بشير إلمورّو إلى التراب بعد أن خسر أندلسه في ليلة **الفاجعة القاسية**(*)؟ وهل عاش ثلاثة قرون، وفي رواية أدق أربعة قرون؟ أتساءل، على الرغم من أني أُدرك سلفا أنّ الأمر ليس مهما، لا بالنسبة لي ولكن بالنسبة لجميع من عرفوا بشير أو توارثوا قصته عبر الأجيال المتعاقبة.

اليوم، كلما مشيت في آرابيا بعد العاصفة التي كنست كل شيء، أشعر ببعض الخوف من المبهم الذي يرتسم في الأفق، ولكني أقول دائما في خاطري كلما أصابتني الظلمة في عمق نوري الداخلي: وهل سيكون الزمن القادم أسوأ من القرون التي عشناها في بئر وبلغنا فيها سقف المأساة وعمق الحضيض؟ لهذا أنا سعيد إلى الأقاصي لأني كلما

(*) يُقصَدُ بها فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، التي شكلت مرجع هذا النص الأساسي الذي استقى الكاتب بنيته منها. ليلة قاسية ما تزال مستمرة منذ أربعة عشر قرنا حتى اليوم، على الرغم من الثورات العربية.

رأيت طفلا يلعب في ساحة أو يركض، أدركت بسرعة أنه لن يكون طفلا شبيها بالذين كبروا في جملكية آرابيا، فهو يستنشق هواء آخر، ويسمع حديثا غير ما سمعناه. الأهمّ من ذلك كلّه، أنه يرى شيئا آخر، وهذا وحده كافٍ ليعطي لفرحي معنى وأنا في أواخر خريف العمر، أحضّر حقائب الدنيا للعودة إلى أعماق الله: التربة الجليلة التي لا تضيّع أي صدى من أصواتنا المقهورة.

ثم... ليس جميلا أن يودّع الإنسان الأرض وهو منكسر الخاطر، يكفيه حزن الاستعداد الدائم لخوض تجربة الانطفاء والتحلل النهائية.

-٢-

الآن...

وماذا بعد الآن؟

ليس مهما أن تلتصق آرابيا على الجبل البربري كعقرب الصخور، لكي لا يسحبها البحر وموجه نحو الأعماق، وليس مهما أبدا أن يعود بشير إلمورّو من غفوة الكهف التي اختارها، الأهمّ هو أن كل شيء انتهى في آرابيا، ولم يبق إلا بعض الرماد وعيون ترمش في كل لحظة لصباح تأخر مجيئه كثيرا. الذي حصل كان مهولا وغير مضمون، لكن الشيء الوحيد الذي أصبح مؤكدا هو أن الزمن غير دورته، وأن ما كان لن يكون أبدا.

يمكن اليوم لهذا القوال التائه الذي نسي ذكر اسمه سهوا وهو يحكي عن النيران التي اشتعلت في قلبه قبل أن يراها أمام عينيه، أن يرفع رأسه قليلا ولو أن ضوء الشمس سيُحدث في عينه ألما كبيرا. أصبحت لا أتحمل البياض الذي ينزل عليَّ بصعوبة، ماحيا في مسالكه كل شيء ومحولا الأجساد الحية إلى ضوء هارب. يمكنني أن أسرق بعض الوقت وأتأمل السماء المرصعة بالنجوم ليلا، والحيطان الجميلة والشرفات المشرقة على شمس تتكرر كل صباح، وفجر لا يتأخر ولا يتقدم مهما كانت الظروف، ومزهريات ورود الجنة، لا يذبل ورقه ولا تيجانه.

أسقف مليئة بالألوان. العصافير والفراشات الغارقة في غمرة ألوانها الساحرة وزهو تكاثرها.

أحتاج إلى زمن طويل للألفة، ليس في مقدوري أن أعيشه بعد أن فقد جسدي حركته السهلة، وبان تصلب المفاصل الذي يحتاج إلى تمارين متعددة لكي يتعود على حركة غير الحركة القديمة. لقد قضّيت عمرا بكامله منكس الرأس في وطن مسروق، أبحث عن شيء ضاع مني لم أعرف في أي يوم من الأيام ملامحه، إلى أن اشتعلت النار المقدسة التي أكلت اليابس والأكثر يباسا.

لا تاريخ عظيم لي، فأنا أستحق أن أُسمّى بالرجل الذي لم يرفع رأسه أبدا. هذا ميراثي وأنا أمشي وأقوم بنفس الحركة منذ أكثر من ثمانين سنة صباح مساء: ظَهْرٌ معوج لدرجة الانكسار مثل القوس الميّت. قصور حاد في النظر يتحوّل إلى انطفاء كلّي كلّما انسحبت الشمس من النافذة التي أرقب منها انسحاب الوقت والعمر أيضا. ارتجاف متواتر في الأطراف العليا والسفلى. الناجي الوحيد من هذا الدمار الشامل والكلي للجسد هو مخي الذي، على الرغم من لحظات البياض التي تنتابه من حين لآخر، والتي أصبحت متواترة منذ زمن قصير، يظلّ في كل صفائه مقاوما للتلف السريع.

لي ميراث آخر يمكنني اليوم أن أفتح به متحفا للأشياء الخاصة التي عثرتُ عليها وأنا أمشي منكس الرأس، ولا أرفعه إلا عندما أسمع الآذان أو تزمّر سيارة عليَّ لتنبّهني وأنا أقطع الطريق: الكثير من بقع الدم التي تخثّرت على الأرض، في أماكن وُجدتُ بها بالصدفة. أرصفة مكسورة، أفضّل كلمة منبعجة لأنها الأصدق، لم ترق حتى إلى ما خلفه الاستعمار قبل أكثر من نصف قرن، طرقات محفّرة، لبان ملتصق هناك وهناك بالأرض حتى اسود حتى كالحشرات المسحوقة بالأرجل. آلاف الحشرات والحيوانات التي لا أعرف أسماءها والتي كانت ضحايا لحركة الناس والسيارات العابرة بسرعة البرق.

يمكنني أن أقول بلا خطأ أني رأيت ٧٠ كلبا يُداس عند رجلي و٣٢

قطا يموتون، ٥ منهم يخرجون بكسور قليلة لكنهم استمروا في الحياة.
حفر لا تُعد ولا تحصى، تعثرت في الكثير منها، من نتائجها أني كسرت رجلي مرتين، وربما مات غيري بعد أن انكسرت رقبته. رأيت أسلاكا شائكة تحيط بالكثير من بيوت المسئولين. استغربت الأمر لأنّي لم أر ذلك إلا في طفولتي في الفترة الاستعمارية، في فيلاَّت الكولون.

صادفت في رحلة العمر الكثير من أوراق وصحف ومجلات، رفست بعضها عن قصد كلما رأيت عليها صورة أي مسئول بغض النظر عن سلّمه الإداري. حتى الصغار الذين تحوّلوا في الآونة الأخيرة إلى أيد طويلة للسارقين الكبار لم يسلموا من حذائي. فأنا لا أملك إلا هذه الوسيلة لمحاربة الفساد الذي استشرى في كل الطبقات من صغيرتها إلى كبيرتها. أقف أحيانا في الطريق، أتأمل وجوه الذين يحاكَمون من تحت حذائي الخشن، أقرأ العناوين الكبرى، بعضها علق بذهني منها مثلا: **عشر سنوات سجن نافذة لامرأة تسرق الجافيل ومكنسة**. عاش العدل؟ عندما حكيت القصة للطبيب النفساني، قال لا ضرر. مثل هذه التصرفات في قراءة الصحف المهملة، ليست سيئة أبدا لأنها تنشط الذاكرة، وتؤخر الألزهايمر وتمنعه من التمدد في المخّ. ولو أني في واقع الأمر،لم أعد أشعر بنفس الرغبة لا في القراءة ولا في الحكي. ربما لأن الزمن تغير ولا أملك القدرة على مجاراته. كل شيء في آرابيا يدل على الجرائم التي ارتكبناها ليس فقط في حقنا، ولكن أيضا في حث الحيطان والمدن.

ما استطعت تجميعه من تنكيس الرأس طوال السبعين سنة الأخيرة، لأني أستثني منها العشر سنوات أولى من عمري التي قضّيتها بعيدا عن أمراض المدن، حرا طليقا في حقول جدي التي استولى عليها لاحقا مخزن الحاكم بأمره، وضُمَّت إلى ممتلكات المسئول الكبير، ابن المسؤول الأكبر، ابن المسؤول العظيم، لأنه لم يكن لدى أهلي الوثائق الثّبوتية، فهي أراضي عرش كما تُسمى. في تلك السنوات كنت أركض مع الطيور، وأنام في حضن الزهور، وأحلم برفقة الفراشات عن زمن كان يمكن أن يكون جميلا، وأراقب الغيوم وحركة السماء والمطر،

وكلما نزلت القطرات الأولى ركضتُ نحو والدي ليُدخِل الأغنام والدواب من المطر والعواصف حتى لا تتضرر قبل أن يسحبه في ليلة عاصفة، فيضان أعمى، فمُنِعنا من قبره.

إنَّ ما جمعته، من شدّة الانحناء ومسح الأرض، والنظر دوما نحو الأسفل وعدم رفع الرأس، يكفي لفتح متحف خاص. أعُدُّ منجزاتي السرية: ٨٧٦٠ إبرة خياطة كل الأحجام. ٨٧٩ كرة خيط من مختلف الألوان. ٧٨٦٥٤٩ زرا من مختلف الأشكال والأحجام والألوان من العظمية الحقيقية، إلى النحاسية والفضية. ٨٧٦٥٤٣٠ مساك شعر نسائي، الخفيف والمركّب، المحلي والأجنبي. ٨٩٧٦ مشطا نسائيا مصنوعا من عظام الدواب، الأجمل منها ما صنع من أنياب الفيل. أحيانا أجد لذة في استرجاع رائحة الشّعر الذي جمّعه. ٨٧٦ محرمة ملونة وبيضاء أو سوداء، بلا مربعات، و ٥٦٠٠ مساكة ورق. ٧٦٩ مساكة بلون أصفر، ٦٧٨٩٠ ورقة صحفية أخذتها من الأرض لأني لاحظت أن موضوعها يهمني، ٧٦٥ قطعة نقدية لا يتجاوز محصولها النهائي ألف دينار أي ما يعادل غذاء في مطعم بسيط أو قهوة في نزل بمرتفعات آرابيا، ٧٨٩ صورة شخصية منها ٧٨ صورة نسائية والباقي كلها ذكورية. ٧٨٦٥٤ قطعة حديدية أو بلاستيكية لم أتمكن من تحديد وظائفها. لكني كنت أقول دائما أنها ستصلح يوما ما لشيء ما. ٩٨٠١ كارت بها عناوين لأشخاص كثيرين. الأول الذي اتصلت به لأخبره عن تضييع الكارت، قال لي من تكون؟ خفت عندما عرفت في الصحافة الوطنية أنه قتل بعد يومين في ظروف غامضة. جرّبت مع الثاني كانت الكارت لامرأة، عندما سألتها عن وظيفتها شتمتني من رأسي حتى قدمي بأغلظ الكلمات، وعرَّتني عن آخري. ٩٠ نظارة من الشمسية حتى الطبية. لم أجد أي مؤشر يقودني نحو أصحابها. أغلبها غير مفيد، صغيرة على رأسي. أحتفظ بها للذكرى فقط ولمتحفي الذهني. ٣ ضروس و١٠ أسنان مبعثرة في أماكن مختلفة. واحدة فقط عرفت أصلها لأنّ صاحبها ضُرب من طرف الشرطة أمامي بعنف كبير أدمى فمه ووجهه. وأخرى لشاب قتل في مظاهرة. ٧٦١ لعبة أطفال بمختلف

الأشكال، ربما سقط بعضها من أعالي البنايات. عندي عادة بالنسبة للألعاب تحديدا، كل ما أجده لا أسال عن صاحبه. ١٠ كتب ظهر فيما بعد أنها كلها ممنوعة وقد تخلص منها أصحابها بوضعها في زوايا وأماكن في المدينة. يبدو أني كنت الوحيد الذي تجرأ على لمسها، وبعدها على أخذها. أحد هذه الكتب كاد أن يوصلني إلى السجن المركزي في عمق جزيرة آرابيا الذي يشبه سجن ألكاتراس الأمريكي، لا ترى فيه شيئا سوى ظلال المدينة البعيدة والبحر الذي يحيط بها من كل الجهات.

من كل ما عثرت عليه وعلق في الذاكرة بشكل أبدي وكأنه خُتم بالنار، كتاب بلا غلاف ولا عنوان. وعلى الرغم من أن حواسي تعودت أن تعمل مثل حواس حيوان بري، أتشمم عن بعد رائحة الخطر، إلا أني في هذا الكتاب لم تتحرك فيَّ إلا حاسة الفضول فقط. كان عبارة عن مصيدة. ظلت الشرطة ترابط في مكان قريب، وتنتظر من سيأخذه. لم أنتبه إلا عندما أحاطوا بي وسحبوني نحو أقرب مخفر. قضيت خمس سنوات سجنا بدون سبب واضح ولا محاكمة أقرأ في الشعار الموضوع في مدخل السجن: ابتسم، أنت في آرابيا. ولولا الإعفاء العام لمتّ في السجن. منذ تلك الحادثة عرفت أن ميزان الإنسان في آرابيا أقل من حشرة. كانت سنوات السجن كارثية. كنت عندما أُلقي عليَّ القبض، أتهيأ للزواج. انتظرتني خطيبتي المسكينة طويلا ثم انتهت إلى زواج فاشل. والدي مات بسكتة قلبية بعد سنتين من سجني. والدتي جُنَّتْ في سنة سجني الرابعة عندما سمعتْ بغرق القارب الذي كان يحمل على متنه حرّاقة من آرابيا كان من بينهم أخي الأوحد. بين يوم وليلة فرغ البيت من كل حياة وتحوّل إلى قبر بارد. بَقِيَتْ في مستشفى الأمراض العقلية سنة واحدة قبل أن تضع حدا نهائيا لحياتها بشنق نفسها بإزار فراشها الذي لوّته كالحبل حول عنقها. نُسِيتُ في الدهاليز قبل أن يسألني شخص يلبس لباسا محترما كان برفقة شخص آخر. سألني: وأنت ماذا تفعل هنا؟ أجبت بأني في السجن عن طريق الصدفة التي أشْتُمَها صبحا ومساء. دوّن كل المعلومات التي قلتها له بعفوية المتعود على الوضع.

ولا أعرف من أين أتى لأني لم أره بعدها في حياتي، عرفت فيما بعد أنه عضو هام في لجنة حقوق الإنسان. عرفت أكثر من ذلك، أنهم ألقوا القبض على الشخص الذي وضع الكتاب هناك بالصدفة وسجن منذ ثلاث سنوات، بينما نُسيت أنا في الدهليز.

الكثير من القطع الحياتية لها أهمية أكثر من غيرها لأنها مصحوبة بقصص لو حكيتها للأجيال الآتية التي ستكبر في عالم آخر، فلن تصدقني وربما كان ذلك أفضل لها.

آرابيا تغيرت رأسا على عقب. انتهى زمنها الأول ليبدأ زمن ثان لا أحد يعرف ملامحه، التي هي بصدد التشكل.

أستطيع أن أنسحب اليوم مرتاحا من مشهد لم يعد لي، ولم أعد قادرا على تحمل سرعة دورانه الكبيرة. ليس مهما. الأهم أن شيئا ما فيها مات، وكان يجب أن يموت ليفتح مسالك الحياة على الأقل. الشيء الكثير ما يزال ينتظر آرابيا، ولكن يكفي أن الخوف المستبد غيّر مواقعه. أنتقل من بيوت مقطَّعي الشوارع إلى قصر الحاكم. إنَّ الغيمة الثقيلة والخانقة قد انسحبت مخلفة وراءها شمسا مغسولة ناصعة، معمية للأبصار.

أدرك جيدا بعد كل هذا الزمن، أننا إذا عرفنا شيئا ما عن حكايات ليلة الليالي التي انفصلت بشكل غريب عن الألف السابقة، فنحن لم نعرف إلا القليل منها وعنها. لا نعرف شيئا عن الظلمة المتربصة بها التي همدت، وتخفَّت في الظل، ولم تبرح مكانها إلا قليلا.

التاريخ عاجز عن إدهاشي، لأنه يكتبه المنتصرون بخوف من الانزلاق، أو بتصفية حسابات مسبقة، بينما الحكاية تظل مساحة الحق والحرية. أنتمي لها لأنّ ثقتي فيها عمياء، فهي ما تبقّى من مِلْحِ البَحْرِ وَعُرُوقِ التُّربَةِ.

و. أ. قوّال جملكية آرابيا البائدة.

تمّ تدوين هذه الرقائق بجملكية آرابيا، في النصف الأول من شهر النار، من سنة الخروج الأخيرة، في نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة (١٩٨٨-٢٠١١).

الفهرس

مقام الليالي ٧

الفصل الأول: واو الحق ١٣
الفصل الثاني: التباس الرؤية ٨٣
الفصل الثالث: مرايا التيه ١١١
الفصل الرابع: نداء الماء ١٣٧
الفصل الخامس: إشارات الفناء ١٨١
الفصل السادس: محنة القوس السرّي ٢٠٧
الكيس الفصل السابع: الكيس الأسود ٢٤٣
الفصل الثامن: يقين الشمس ٢٨٩
الفصل التاسع: لسان الأفعى ٣٣٥
الفصل العاشر: ابتسموا. . . أنتم في آرابيا ٣٦٧
الفصل الحادي عشر: سحر الباخية ٣٨٧
الفصل الثاني عشر: عتبات الجنّة ٤٤١
الفصل الثالث عشر: لطخة الورّاق ٤٨٣

الفصل الرابع عشر: هو لم يمت ولكن شُبهَ لهم ٥١٥
الفصل الخامس عشر: مُنْتهى الليلة ٥٥٥
الفصل السادس عشر: أيام الشدة الكُبْرَى ٥٩٥
الفصل السابع عشر: مسالك العبور ٦٤١

خاتمة الليالي ٦٥٣

هذا الكتاب

هي ليلة واحدة ولكنها استمرتْ قرونا طويلة.

تقدّم جملكية آرابيا، حالة جديدة في الكتابة الروائية العربية التي تستثمر فنّيا المنجز العربي القديم والحديث، والمنجز الإنساني: الشعر، ألف ليلة وليلة، دون كيشوت، في البحث عن الزمن الضائع، عوليس، خريف البطريرك، الإرث الصوفي، وغيرها من النصوص العالمية، لإنجاز ملحمة أدبية تخترق الحدود والأشكال، وتذهب نحو جوهر المأساة القاسية التي عرتها بقوة الثورات العربية الجديدة.

الدكتاتور العربي لم يشوّه فقط القيم المحلية القادمة من بعيد، ولا الإنسانية وحدها ولكنه مسّ جوهر الأشياء، فأنتج نموذجاً غريباً لا هو جمهورية ولا هو ملكية: **جملكية**. مسخ مزيج بين أسوأ ما في النظامين.

في *آرابيا*، المدينة والبلاد، تتقاطع المصائر الأكثر إنسانية والأكثر دموية أيضاً. بقدر ما اختار الحاكم بأمره التاريخ المغشوش، والقوة والبطش، وفَضّلت دنيا مصلحة ابنها قمر الزمان، اختار بشير إلْمُورّو، يوشا، ماريانا، سيدي عبد الرحمن المجذوب وغيرهم، المسلك الأصعب: الانتماء إلى النشيد الإنساني العظيم الذي كلّما ظنناه مات، قام من رماده ليذكّرنا بأن الحياة ما تزال مستمرة، وتستحق أن تُعاش.



صورة الغلاف: منمنمات فارسية قديمة، إعدام الحلاّج في بغداد